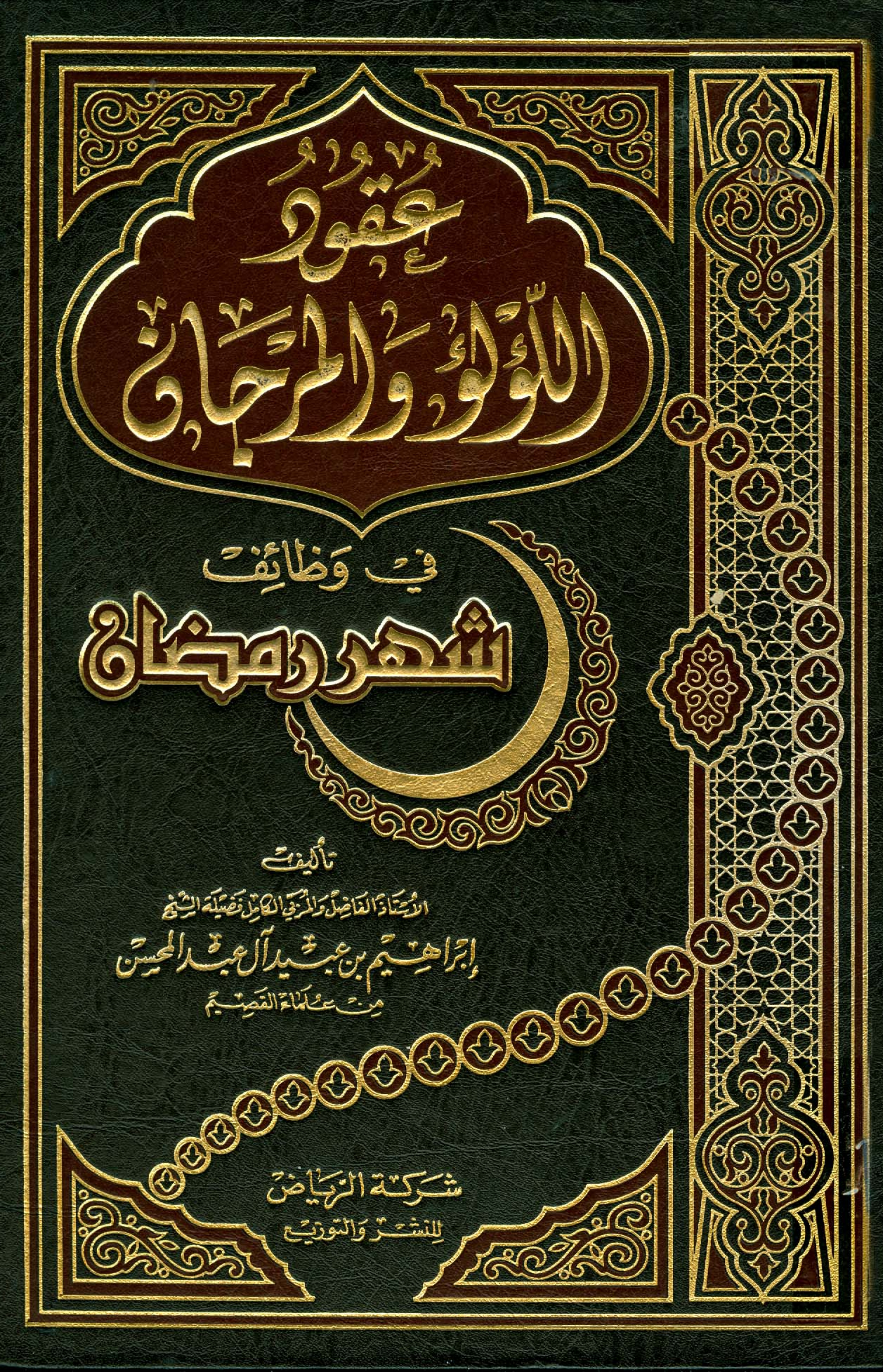

عقود
اللؤلؤ والمرجان
في وظائف
شهر رمضان
تأليف
الأستاذ الفاضل والمربي الكامل فضيلة الشيخ
إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن
من علماء القصيم
شركة الرياض
للنشر والتوزيع

عقود اللؤلؤ والمرجان
في
وظائف شهر رمضان

تأليف
الأستاذ الفاضل والمربي الكامل فضيلة الشيخ
إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن
من علماء القصيم

شركة الرياض للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة التاسعة

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف

هو الشيخ إبراهيم بن عبيد العبد المحسن العبيد، من أهالي بريدة في القصيم، ومن خيرة تلامذة الشيخ العالم عمر بن محمد سليم. ولد المؤلف في ١٥ جمادى الآخرة ١٣٣٤هـ، ونشأ في طلب العلم والسعي في نيله وجدَّ ونافس فيه حتى نال من مشايخه الإعجاب بسعيه وطلبه وتفرسوا فيه النجاح، فكان مولعًا في كتب أهل السُّنّة والحديث، مكبًا على المطالعة فيها، بصيرًا بالرجال، محبًا لأهل الدين.

ولما بلغ من العمر سبع سنين، قدمه والده إلى المؤدب في بريدة، واستمر في دراسته سبع سنوات حتى أجاد القراءة عن ظهر قلب وتعلم الكتابة، ثم إنه لازم الشيخ عمر بن محمد بن سليم.

أما مشائخه الذين أخذ عنهم، فهم عبد الله بن محمد بن سليم، وعمر بن محمد بن سليم، وعبد العزيز بن إبراهيم العبادي، فاستمر في دراسة العلم حديثًا وفقهًا ونحوًا وصرفًا وأخذ الفرائض عن الآخرين حتى ظهر في العلوم مظهرًا حسنًا. وقد ساعدته الظروف بتأمين معيشته في ظل والده، قدس الله روحه، ولما بلغ من العمر الثانية والعشرين جلس للتعليم، فهذب على يديه طلاب كثيرون، وكان يحب الخمول ويؤثر عدم الرياسة، وقد راودوه على القضاء مرارًا فأبى حبًا للعافية، وإيثارًا للسلامة في دينه. ثم إنه التحق في المدرسة الكبرى في بريدة يعلم العلوم الدينية الراقية فيها، ويؤم في أحد مساجدها وذلك خدمة لوطنه وحبًا لنشر العلم وتأمينًا لمعيشته.

أما مؤلفاته فمنها كتاب عقود اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر

رمضان. وهو هذا، ومنها التاريخ المسمى تذكرة أولي النهى والعرفان يقع في أربعة أجزاء لم يطبع، ورسالة في تحريم تبرج النساء، ورسالة في وجوب الطاعة ولزوم الجماعة، وله قصائد كثيرة تقع في ديوان، وموضوعها في النصيحة والتحريض على طلب العلم وإرشاد الأئمة الأعلام الذين توفاهم الله، وأدركهم وقته.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِينُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَ شَهْرَ رَمَضَانَ عَلَى سَائِرِ الشُّهُورِ، اخْتِصَاصًا لَهُ وَتَفْضِيلًا، وَضَاعَفَ فِيهِ الأُجُورَ، وَأَنَالَ الْعَامِلِينَ لَهُ حَظًّا جَزِيلًا. فَتَحَ بَابَهُ لِلطَّالِبِينَ، وَحَضَّ عِبَادَهُ عَلَى دُعَائِهِ فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ، وَلَمْ يَزَلْ مُتَفَضِّلًا عَلَى الْمَخْلُوقِينَ، مُقْتَدِرًا جَلِيلًا، دَعَا عِبَادَهُ إِلَى طَرِيقِ جَنَّتِهِ، وَعَمَّ بِالدَّعْوَةِ جَمِيعَ بَرِيَّتِهِ، وَأَوْضَحَ طَرِيقَهَا بِإِظْهَارِ مَحَجَّتِهِ، فَشَمَّرَ إِلَيْهَا أَهْلُ تَوْحِيدِهِ وَخِدْمَتِهِ، وَاتَّخَذوا صَالِحَ الأَعْمَالِ إِلَيْهَا سَبِيلًا، وَجَعَلُوا هَدْيَ الرَّسُولِ إِلَى تِلْكَ السَّبِيلِ دَلِيلًا، وَتَخَلَّفَ عَنْ نِدَائِهِ وَإِجَابَتِهِ مَنْ كَانَ حَظُّهُ حُطَامَ عَاجِلَتِهِ، مُسْتَبْدِلًا بِالْفَوْزِ الْعَظِيمِ الدَّائمِ مَتَاعًا قَلِيلًا.

فَسُبْحَانَ مَنِ اخْتَارَ مِنْ عِبَادِهِ أَقْوَامًا لِلطَّاعَاتِ وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَهَا، وَوَفَّقَهُمْ لِلْخَيْرَاتِ وَسَهَّلَ لَهُمْ أَسْبَابَهَا، وَقَبِلَ عَمَلَ الْمُخْلِصِينَ وَلَوْ كانَ قَلِيلًا. وَسُبْحَانَ مَنْ أَيْقَظَ بِالتَّذْكِيرِ هِمَمَ الْعَارِفِينَ، وَجَعَلَ الْمَوَاعِظَ سِيَاطًا لِقُلُوبِ الْمُتَّقِينَ، فَقَامُوا لِلِاسْتِعْدَادِ لِيَوْمِ الدِّينِ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا، وَانْبَعَثَتْ جَوَارِحُهُمْ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ صِيَامًا وَقِيَامًا وَتَسْبِيحًا وَتَكْبِيرًا وَتَهْلِيلًا.

أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ وَأَتَبَتَّلُ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا، وَأَسْتَغْفِرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ ذُنُوبٍ تَرَكَتِ الْقَلْبَ عَلِيلًا.

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، إِلٰهٌ رَضِيتُ بِهِ رَبًّا وَاتَّخَذْتُهُ وَكِيلًا، وَعَوَّلْتُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ الأُمُورِ تَعْوِيلًا. شَهَادَةَ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ

رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا. شَهَادَةً ظَهَرَ نُورُهَا وَلَاحَ، وَأَشْرَقَ هُدَاهَا فِي الْمَسَاءِ وَالصَّبَاحِ. أَسْتَفْتِحُ بِهَا بَابَ الْجَنَّةِ فَإِنَّهَا لَنِعْمَ الْمِفْتَاحُ. وَأَرْجُو بِهَا مِنَ اللهِ الْعَفْوَ وَالسَّمَاحَ. شَهَادَةً أَدَّخِرُهَا لِيَوْمٍ كانَ عَلَى النُّفُوسِ ثَقِيلًا. وَأَرْجُو بِهَا النَّجَاةَ مِنَ نارٍ سَاءَتْ لِسَاكِنِيهَا مُسْتَقَرًّا وَمَقِيلًا.

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ سَيِّدُ السَّادَاتِ. وَخَلِيلُ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ. وَالدَّاعِي إِلَى سُبُلِ الْخَيْرَاتِ. وَالْمُحَذِّرُ عَنْ طُرُقِ الْهَلَكَاتِ. صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ نُجُومِ الْهُدَى فِي اللَّيَالِي الْحَالِكَاتِ، وَأَهْلِ الْفَضَائِلِ وَالْكَرَامَاتِ. صَلَاةً مُتَوَاتِرَةً عَلَى مَمَرِّ الزَّمَانِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، وَإِجْمَالًا وَتَفْصِيلًا، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ سَأَلَنِي بَعْضُ الْإِخْوَانِ وَفَّقَهُمُ اللّهُ تَعَالَى وَهَدَاهُمْ، وَأَسْعَدَهُمْ وَلَا أَشْقَاهُمْ، وَمِنْ خَيْرَيِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ أَعْطَاهُمْ: أَنْ أُؤَلِّفَ كِتَابًا فِي فَضْلِ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ. فاعْتَذَرْتُ إِلَيْهِمْ بِتَكَدُّرِ الْبالِ، وَكَثْرَةِ الْأَشْغَالِ وَمُخَالَفَةِ الْأَعْمَالِ لِلْأَقْوَالِ، وَلَكِنَّهُمْ أَجَابُوا بِأَنَّ اللّهَ لَا يُضِيعُ شَيْئًا مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ. فَلَمَّا رَأَيْتُ تَعَطُّشَهُمْ إِلَى هَذَا الْمَوْرِدِ، وَأَنَّ أَهْلَ الزَّمَانِ إِلَيْهِ مُحْتَاجُونَ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْبَابِ مُصَنَّفٌ عَلَيْهِ يُعَوِّلُونَ، وَرَأَيْتُ أَيْضًا أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ عُذْرًا، جَعَلْتُ إِلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أُقَدِّمُ رِجْلًا وَأُؤَخِّرُ أُخْرَى. لاَ سِيَّمَا وَقَدْ جَالَ ذَلِكَ فِي الصَّدْرِ، وَخَطَرَ قَبْلَ السُّؤَالِ فِي الْفِكْرِ. وَلَكِنَّنِي مُسْتَصْعِبٌ لِهَذَا الْأَمْرِ. فاسْتَعَنْتُ بِاللهِ تَعالَى وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَمُدَّنِي بِذَارِفِ لُطْفِهِ، وَوَافِرِ عَطْفِهِ. فَإِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ. فَقُمْتُ عَنْ سَاقِ الْجِدِّ وَالْاجْتِهادِ، وَشَمَّرْتُ عَنْ ذَيْلِ الْفُتُورِ وَالرُّقَادِ. فَوَضَعْتُ كِتَابًا جَامِعًا شَامِلًا فِي فَضْلِ هَذَا الشَّهْرِ الْعَظِيمِ، وَمَا أَعَدَّهُ اللّهُ فِيهِ مِنَ التَّشْرِيفِ وَالتَّكْرِيمِ، وَمَا وَرَدَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَمَا اخْتُصَّ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ، وَأَوْدَعْتُهُ آياتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَحَادِيثَ مِنْ سُنَّةِ سَيِّدِ وَلَدِ عَدْنانَ، وَآثارًا عَنِ السَّلَفِ الصَّالِحِ أَهْلِ الزُّهْدِ وَالْعِرْفانِ .وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

فَصْلٌ

وَقَدْ قَسَمْتُ الْكِتَابَ ثَلاثِينَ بابًا عَلَى لَيالِي الشَّهْرِ، وَجَعَلْتُ فِي أَوَّل كُلِّ بابٍ خُطْبَةً لَائِقَةً، وَخَتَمْتُ كُلَّ بابٍ بِدُعَاءٍ أَرْجُو مِنَ الْإِلٰهِ قَبُولَهُ، فَهُوَ مُجِيبُ الدَّعَوَاتِ، وَمُقِيلُ الْعَثَرَاتِ، وَجَعَلْتُ فِي ضِمْنِ كُلِّ بابٍ فَصْلًا أَذْكُرُ فِيهِ أُنْمُوذَجًا مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ دَارِ الْمُتَّقِينَ وَالْأَبْرارِ، وَرُبَّما ذَكَرْتُ فِيهِ أُنْمُوذَجًا مِنْ ذِكْرِ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ وَالْبَوَارِ، وَإِنْ كانَ الْمَقَامُ لَا يَقْتَضِي ذَلِكَ، وَلَكِنْ لِما رَأَيْتُ مِنَ اسْتِيلَاءِ الْغَفْلَةِ عَلَى أَكْثَرِ الْقُلُوبِ، وَإِقْدَامِ النُّفُوسِ عَلَى مَا يُسْخِطُ عَلَّامَ الْغُيُوبِ، وَرُبَّما كانَ هَذَا الْفَصْلُ مُتَعَلِّقًا بِمَا تَقَدَّمَهُ مِنَ الْكَلَامِ.

فَلَمَّا أَنْ وَصَلْتُ الْبَابَ الْحَادِيَ وَالْعِشْرِينَ تَعَيَّنَ لِفُصُولِ قِيَامِ اللَّيْلِ تَذْكِيرٌ فَوَجَدْتُ فُصُولًا لِبَعْضِ الْمُصَنِّفِينَ، وَلَكِنَّهَا لَا تَخْلُو مِنْ رَكاكَةِ الْأَلْفَاظِ وَعَدَمِ التَّرْتِيبِ، وَحُسْنِ التَّرْكِيبِ ـ أَثابَ اللّٰهُ جَامِعَهَا ـ فَهَذَّبْتُها وَنَقَّحْتُهَا وَزِدْتُ فِيهَا عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ، وَحَذَفْتُ مِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَغْنًى عَنْهُ، وَمَزَجْتُهَا فِيمَا بَيْنَ هَذِهِ الْأَبْوَابِ الْعَشْرَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ كِتَابِنا. وَجَعَلْتُ لِكُلِّ لَيْلَةٍ حَقَّهَا مِنَ الْقِرَاءَةِ وَخَتَمْتُ الْكِتَابَ بِوَدَائِعَ نَفِيسَةٍ لِشَهْرِ رَمَضَانَ، ثُمَّ خَتَمْتُهُ أَيْضًا بِمَجْلِسٍ فِي لَيْلَةِ عِيدِ الْفِطْرِ، وَأَسْأَلُ اللّٰهَ الْقَبُولَ وَالْإِثابَةَ. إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

فَصْلٌ

وَقَدْ جَمَعْتُهُ مِنْ كُتُبٍ كَثِيرَةٍ. وَأَوْدَعْتُهُ بُحُوثًا غَزِيرَةً. وَحَذَفْتُ غَالِبَ الْأَسَانِيدِ لِأَنَّها شَهِيرَةٌ، وَحَرَصْتُ عَلَى الْاخْتِصارِ لِذِكْرِ الرُّوَاةِ لِأَنَّ الْحَالَ يَقْتَضِي ذَلِكَ. وَضَرَبْتُ صَفْحًا عَنِ الْعَزْوِ إِلَى كُلِّ كِتَابٍ، وَذَلِكَ خَشْيَةَ الْإِطَالَةِ وَالْإِسْهَابِ. فَجَاءَ الْكِتَابُ دُرَّةً مَفْقُودَةً، وَضَالَّةً مَنْشُودَةً ـ وَالْمِنَّةُ لِلّٰهِ وَحْدَهُ ـ فَهُوَ دُرَّةٌ يَتِيمَةٌ، وَمِنْحَةٌ جَسِيمَةٌ، وَهَدِيَّةٌ لَيْسَ لَها قِيمَةٌ، شَحَنْتُه فِي فَضَائِلِ

رَمَضَانَ وَبرَكَاتِهِ، وَفَضْلِ الصِّيَامِ وَآدَابِهِ، وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِ آياتِهِ، وَالْحَثِّ عَلَى الاْجْتِهَادِ فِي الْقِيَامِ، وَمَا أَعَدَّ اللّٰهُ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ فِي دَارِ السَّلَامِ، وَوَشَّحْتُه بِذِكْرِ حالِ السَّلَفِ الْكِرَامِ، وَخِيَارِ الْخَلْقِ مِنَ الْأَنامِ، وَمَا لَهُمْ مِنَ الاْجْتِهَادِ فِي الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ.

فَصْلٌ

فَدُونَكَ كِتَابًا اجْتَهَدْتُ فِي جَمْعِهِ وَتَرْتِيبِهِ، وَتَفْصِيلِهِ وَتَبْوِيبِهِ، وَتَسْهِيلِهِ وَتَقْرِيبِهِ، وَسَمَّيْتُهُ: «عُقُودُ اللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ فِي وَظَائِفِ شَهْرِ رَمَضَانَ» فَإِنَّهُ اسْمٌ وَافَقَ مُسَمَّاهُ، وَلَفْظٌ طَابَقَ مَعْنَاهُ، فَهُوَ مُحَرِّكٌ لِلْقُلُوبِ إِلَى أَجَلِّ مَطْلُوبٍ، وَحَادٍ لِلنُّفُوسِ إِلَى مجَاوَرَةِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ. وَباعِثٌ لِلْهِمَمِ الْعَلِيَّاتِ إِلَى الْحُلُولِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ، مُشْتَمِلٌ مِنْ بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ، وَفَرَائِدِ الْقَلَائِدِ، مَا هُوَ حَقِيقٌ أَنْ يُعَضَّ عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَتُثْنَى عَلَيْهَا الْخَنَاصِرُ. مُمْتِعٌ لِقَارِيهِ، مُشَوِّقٌ لِلنَّاظِرِ فِيهِ. أَوْدَعْتُهُ آياتٍ قُرْآنِيَّةٍ، وَأَحَادِيثَ نَبَوِيَّةً، وَآثارًا إِلٰهِيَّةً، وَأَقْوَالًا سَلَفِيَّةً، وَأَبْياتًا شِعْرِيَّةً، وَمَوَاعِظَ لَوْ خُوطِبَ بِهَا الْحَدِيدُ لَكادَ يَمِيدُ، وَزَجْرًا وَتَهْدِيدًا يُذِيبُ الْجَلَامِيدَ.

فَهَاكَ كِتَابًا جمَعَ فَأَوْعَى، وَسِفْراً حَوَى مِنَ الْعُلُوم فَضْلًا وَنَوْعًا، وَقَدْ جَلَبْتُ إِلَيْكَ فِيهِ نَفَائِسَ فِي مِثْلِهَا يَتَنَافَسُ الْمُتَنَافِسُونَ، وَجَلَوْتُ فِيهِ عَرَائِسَ إِلَى مِثْلِهَا يُبَادِرُ الْخَاطِبُونَ. وَلَعَمْرُ اللّٰهِ لَقَدْ بَذَلْتُ مَجْهُودِي فِي تَهْذِيبِ دَلَائِلِهِ، وَجَمْعِ مَواعِظِهِ وَفَوَائِدِهِ ومَسَائِلِهِ. فَإِنْ شِئْتَ اقْتَبَسْتَ مِنْهُ آدَابًا شَرْعِيَّةً، وَإِنْ أَحْبَبْتَ تَنَاوَلْتَ مِنْهُ آثَارًا نَبوِيَّةً، وَإِنْ شِئْتَ وَجَدْتَ فِيهِ نِكاتٍ أَدَبِيَّةً. وَإِنْ رُمْتَ الْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ وَجَدْتَ فِيهِ أُمُورًا وَفِيَّةً. إِذَا نَظَرَ فِيهِ النَّاظِرُ زَادَهُ إِيمَانًا، وإِنْ رَامَ صِفَةَ الْجَنَّةِ جَلاهَا عَلَيْهِ فَكَأَنَّهُ يُشَاهِدُهَا عيَانًا، أَوْ صِفَةَ النَّارِ فَإِنَّ فِيهِ مِنْ ذِكْرِهَا بَيَانًا. يُنْهِضُ الْقَاعِدَ إِلَى الْمَسِيرِ، وَيَحُضُّ الْمُتَوَانِيَ عَلَى التَّشْمِيرِ. وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ جُهْدُ الْمُقِلِّ وَقُدْرَةُ الْمُفْلِسِ. حَذَّرَ فِيهِ مِنَ الدَّاءِ وَإِنْ كانَ مِنْ أَهْلِهِ،

وَوَصَفَ فِيهِ الدَّوَاءَ وَإِنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى تَنَاوُلِهِ ـ لِظُلْمِهِ وَجَهْلِهِ ـ وَهُوَ يَرْجُو أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ، وَأَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ بِنَصِيحَتِهِ لِعِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. وَاللّٰهُ يَعْلَمُ مَا قَصَدْتُ، وَمَا بِجَمْعِهِ وَتَأْلِيفِهِ أَرَدْتُ. فَهُوَ عِنْدَ لِسَانِ كُلِّ قَائِلٍ وَقَلْبِهِ، وَهُوَ الْمُطَّلِعُ عَلَى نِيَّتِهِ وَكَسْبِهِ.

فَيَا أَيُّهَا النَّاظِرُ فِيهِ لَكَ غُنْمُهُ، وَعَلَى مُؤَلِّفِهِ غُرْمُهُ. لَكَ صَفْوُهُ وَعَلَيْهِ كَدَرُهُ. فَهَذِهِ بِضَاعَتُهُ الْمُزْجَاةُ تُعْرَضُ عَلَيْكَ، وَمَوْلِيَّتُه الْكَرِيمَةُ تُسَاقُ إِلَيْكَ. فإِنْ صَادَفَتْ كُفْؤًا كَرِيمًا لَمْ تَعْدِمْ مِنْهُ إِمْسَاكًا بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحًا بِإِحْسَانٍ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَاللّٰهُ الْمُطَّلِعُ عَلَى حَرَكَاتِ اللِّسَانِ وَخَطَرَاتِ الْجَنَانِ، وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

فَيَا أَيُّها الْمُطَّلِعُ عَلَيْهِ وَالنَّاظِرُ إِلَيْهِ، إِنْ رَأَيْتَ حَقًّا فاقْبَلْهُ عَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنِ، وانْظُرْ إِلَى مَقَالِهِ، لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ، وَقَدْ كانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ يَقُولُ: اقْبَلِ الْحَقَّ مِمَّنْ قَالَهُ، وَإِنْ كانَ بَغِيضًا، وَرُدَّ الْبَاطِلَ عَلَى مَنْ قَالَهُ، وَإِنْ كَانَ حَبِيبًا، فَكُنْ لِلحَقِّ عَوْنًا وَنَاصِرًا، وَلا تَرُدَّهُ فَتَكُونَ خَائِبًا وَخَاسِرًا، وَإِنْ رَأَيْتَ سِوَى ذَلِكَ فَالْمُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ، وَالْإِنْسَانُ مَحَلُّ النِّسْيَانِ ـ وَادْرَأْ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ـ وَيَأْبَى اللّٰهُ الْعِصْمَةَ إِلَّا لِكِتَابِهِ، وَالْكَرِيمُ مَنْ عُدَّتْ هَفَوَاتُهُ فِي جَنْبِ صَوَابِهِ، وَقَدْ رَضِيَ سَائِقُ هَذِهِ الْمَولِيَّةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ مَهْرِهَا بِدَعْوَةٍ صَالِحَةٍ يَفُوزُ بِهَا يَوْمَ قِيَامِ الْأَشْهَادِ، وَيَأْمَنُ بِها مِنْ فَزَعِ يَوْمِ الْمَعَادِ.

هَذَا وَأَعُوذُ بِاللّٰهِ الْمَلِكِ الْمَعْبُودِ، مِنْ شَرِّ حَقُودٍ وَحَسُودٍ. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ وَأَسْأَلُ اللّٰهَ المَنَّانَ، ذَا الْجُودِ وَالْإِحْسَانِ، وَالْفَضْلِ والامْتِنَانِ، أَنْ يَجْعَلَهُ عَمَلًا خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وسَبَبًا لِلْفَوْزِ لَدَيْهِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وأَنْ يَعْصِمَنِي وقَارِئَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، إِنَّهُ جَوادٌ كَرِيمٌ، رَءُوفٌ رَحِيمٌ.

وهَذَا أَوَانُ الشُّرُوعِ فِي الْأَبْوَابِ، واللّٰهُ الْفَاتِحُ مِنَ الْخَيْرِ كُلَّ بَابٍ.

الْبَابُ الْأَوَّلُ

فِي الْبِشَارَةِ فِي دُخُولِ شَهْرِ رَمَضَانَ والتَّهْنِئَةِ فِيهِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ الْعَامِلِينَ لِطَاعَتِهِ، فَوَجَدُوا سَعْيَهُمْ مَشْكُورًا، وحَقَّقَ آمالَ الآمِلِينَ بِرَحْمَتِهِ، فَمَنَحَهُمْ عَطَاءً مَوْفُورًا، وبَسَطَ بِسَاطَ كَرَمِهِ عَلَى التَّائِبِينَ فَأَصْبَحَ وِزْرُهُمْ مَغْفُورًا. وأَسْبَلَ مِنْ نِعَمِهِ عَلَى الطَّالِبِينَ وَابِلًا غَزِيرًا، وَلَمْ تَزَلْ أَبْوَابُ جُودِهِ لِلرَّاغِبِينَ مَفْتُوحَةً، الْوَاحِدِ الَّذِي مَنْ قَصَدَ غَيْرَهُ ضَلَّ، الْعَزِيزِ الَّذِي مَنْ اعْتَزَّ بِغَيْرِهِ ذَلَّ، الْكَبِيرِ الَّذِي مَنْ نَازَعَهُ فِي كِبْرِيائِهِ قُصِمَ وَذَلَّ، الْعَظِيمِ الَّذِي تَفَرَّدَ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَتَعَالَى وَجَلَّ، وَالْأَفْكَارُ عَنْ إِدْرَاكِ كِبْرِيائِهِ مَمْنُوعَةٌ، وَالْخَيْرَاتُ مِنْ إِعْطَائِهِ مَمْنُوحَةٌ. الْكَرِيمِ الَّذِي يُعْطِي الْفَضْلَ الْجَزِيلَ عَلَى الْعَمَلِ الْقَلِيلِ، وَيُغَطِّي بِفَضْلِهِ الذَّنْبَ الْوَبِيلَ، بالسَّتْرِ الْجَمِيلِ، وَيَغْفِرُ الْوِزْرَ الثَّقِيلَ، فَيَقْبَلُ وَيُقِيلُ، وَيَرَى الْخَاضِعَ الذَّلِيلَ، فِي اللَّيْلِ الطَّوِيلِ، وَيَسْمَعُ أَنِينَ الْمُذْنِبِينَ بِالْقُلُوبِ الْحَزِينَةِ، إِذَا وَقَفَ الْمُتَهَجِّدُونَ فِي جُنْحِ الظَّلَامِ، وتَلَذَّذوا بِأَطْيَبِ الكَلامِ، وبَسَطَ التَّائِبُ لِنَفْسِهِ بِسَاطَ الْعُتْبِ والمَلَامِ، وَبَكَى عَلَى تَفْرِيطِهِ فَحُرِمَ لَذِيذَ الْمَنَامِ، أَلْحَقَهُ بِالْمُحْسِنِينَ وَغَفَرَ لَهُ الْأَفْعَالَ الْقَبِيحَةَ، مَوْلَى وَفَّقَ الصَّالِحِينَ لِخِدْمَتِهِ وَأَثْنَى، وَبَدَأَ الْمُحْسِنِينَ بِرَحْمَتِهِ وَثَنَّى، وَاطَّلَعَ عَلَى جَرَائِمِنَا فَلَمْ يَقْطَعْ فَضْلَهُ عَنَّا، وَجَادَ بِبِرِّهِ وَكَرَمِهِ عَلَى مَا كَانَ مِنَّا. فَسُبْحَانَهُ مِنْ كَرِيمٍ أَضْحَتْ رِحَالُنَا بِبَابِ كَرَمِهِ مَطْرُوحَةً، الَّذِي عَمَّ جَمِيعَ بَرِيَّتِهِ بِرَحْمَتِهِ وَعَطَائِهِ، وَخَصَّ أَهْلَ مَوَدَّتِهِ بِمَعْرِفَتِهِ وَوَلَائِهِ، وَرَوَّحَ أَسْرَارَهُمْ عَلَى بِسَاطِ مُنَاجَاتِهِ بِحُسْنِ ثَنَائِهِ، وَفَتَحَ أَسْرَارَهُمْ، وَغَفَرَ أَوْزَارَهُمْ، فَرَتَعُوا فِي رِيَاضٍ فَسِيحَةٍ، دَعَاهُمْ فَأَجَابُوا، وَوَلَّاهُمْ فَأَنَابُوا، وَوَعَدَهُمْ فَما ارْتَابُوا، فَصُدُورُهُمْ بِالْإِيمَانِ مَشْرُوحَة، ابْتَهَجَتْ سَرَائِرُهُمْ بِذِكْرِهِ، وَلَهَجَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِشُكْرِهِ، وَشُغِلَتْ جُمْلَتُهُمْ بِنَهْيِهِ وَأَمْرِهِ، وَوَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ وَعِيدِهِ وَمَكْرِهِ، فَسَكَنَتِ الجَوَارِحُ وَقَصُرَتِ الأَلْسُنُ الْفَصِيحَةُ.

فَسُبْحَانَ مَنْ وفَّقَ أَقْوَامًا لِخِدْمَتِهِ، وأَفاضَ عَلَيْهِمْ مِنْ كَرَامَتِهِ، فَهَجَرُوا لَذِيذَ الْمَنَامِ، وَأَدَامُوا لِرَبِّهِمْ الصِّيَامَ، وَصَلَّوْا بِاللَّيْلِ والنَّاسُ نِيام، فلَوْ رَأَيْتَهُمْ وقَدْ سَارَتْ قَوَافِلُهُمْ فِي حِنْدِسِ الظَّلَامِ، واحِدٌ يَسْأَلُ العَفْوَ عَنْ زَلَّتِهِ، وآخَرُ يَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ لِطَاعَتِهِ، وَآخَرُ يَسْتَعِيذُ بِهِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وآخَرُ يَرْجُو مِنْهُ جَمِيلَ مَثُوبَتِهِ، وآخَرُ يَشْكُو إِلَيْهِ مَا يَجِدُ مِنْ لَوْعَتِهِ، وآخَرُ شَغَلَهُ ذِكْرُهُ عَنْ مَسْأَلَتِهِ، فسُبْحَانَ مَنْ أَيْقَظَهُمْ والنَّاسُ نِيامٌ. الْخَلَوَاتُ مَعَ اللّهِ أُنْسُهُمْ وَمَيْدَانُهُمْ، وَالْمُنَاجَاةُ رَوائِحُهُمْ ورَيْحَانُهُمْ، وذِكْرُ اللّهِ نُزْهَتُهُمْ وبُسْتَانُهُمْ، وتِلَاوةُ القُرْآنِ نَعِيمُهُمْ وعُلْوَانُهُمْ، ولَهُمْ فِي الاشْتِغَالِ بِهِ عَنْ جَمِيعِ الأَشْغَالِ مَنْدُوحَةٌ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ الْمُلِحِّينَ، وَلَا تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ سُؤَالَاتُ السَّائِلِينَ. ولَا يَزِيدُ مُلْكَهُ طَاعَةُ العَامِلِينَ. وَلَا يَنْقُصُهُ إِعْرَاضُ العُصَاةِ والْغَافِلِينِ.

أَحْمَدُهُ عَلَى جَمِيعِ نِعَمِهِ الوَافِرَةِ الجِسَامِ. وأَشْكُرُهُ عَلَى أَنِ امْتَنَّ عَلَيْنَا بِالصِّيَامِ وَالقِيَامِ. وأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِلَهٌ تَفَرَّدَ بِالكَمَالِ والتَّمَامِ، وَتَقَدَّسَ عَنْ مُشَابَهَةِ الْأَنَامِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، المَخْصُوصُ بِالقُرْبِ والتَّمْكِينِ. بَعَثَهُ اللّهُ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ، وقُدْوَةً لِلسَّالِكِينَ وحُجَّةً عَلَى الخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ، صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ البَرَرَةِ الكِرامِ، مَصَابِيحُ الظَّلَامِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

اللَّهُمَّ أَهِلَّ عَلَيْنَا شَهْرَ رَمَضَانَ بِالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ. وَالْأَمْنِ وَالْأَمَانِ. وَاغْفِرْ لَنَا كُلَّ قَبِيحٍ سَلَفَ وَكانَ. وَأَعْتِقْنَا فِيهِ مِنْ لَفَحَاتِ الْجَحِيمِ وَالنِّيرَانِ، وَأَعِنَّا عَلَى الخَيْرِ يَا مَنْ إِذَا اسْتُعِينَ أَعَانَ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْجَنَّةَ لَتُجَدَّدُ وَتُزَيَّنُ مِنَ الْحَوْلِ إِلَى الْحَوْلِ لِدُخُولِ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَإِذَا كانَتْ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ هَبَّتْ رِيحٌ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ يُقَالُ لَهَا: الْمُثِيرَةُ، فَتُصَفِّقُ وَرَقُ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ وَحَلَقُ الْمَصَارِيعِ، فَيُسْمَعُ لِذَلِكَ طَنِينٌ لَمْ يَسْمَعِ السَّامِعُونَ أَحْسَنَ مِنْهُ،

فَتُشْرِفُ الْحُورُ الْعِينُ حَتَّى يَقِفْنَ عَلَى شَجَرِ الْجَنَّةِ فَيُنَادِينَ: هَلْ مِنْ خَاطِبٍ إِلَى اللّهِ ﷻ فَيُزَوِّجَهُ؛ ثُمَّ يَقُلْنَ: يا رِضْوَانُ مَا هَذِهِ اللَّيْلَةُ؟ فَيُجِيبُهُنَّ بِالتَّلْبِيَةِ: يَا خَيْرَاتٌ حِسَانٌ، هَذِهِ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ، فُتِحَتْ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ».

وَعَنْهُ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وَلِلّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ». رَوَى هَذِهِ الْأَحَادِيثَ التِّرْمِذِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُمَا.

وَعَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «مَاذَا يَسْتَقْبِلُكُمْ وَتَسْتَقْبِلُونَهُ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللّهِ، وَحْيٌ نَزَلَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: عَدُوٌّ حَضَرَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَاذَا؟ قَالَ: إِنَّ اللّهَ يَغْفِرُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ لِكُلِّ أَهْلِ هَذِهِ الْقِبْلَةِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَيْها، فَجَعَلَ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ يَهُزُّ رَأْسَهُ وَيَقُولُ: بَخٍ بَخٍ!! فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: يا فُلَان، ضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ ذَكَرْتُ الْمُنَافِقَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْكافِرُونَ، وَلَيْسَ لِلْكافِرِينَ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ» أخرجَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ وَالْبَيْهَقِيُّ.

وَأَخْرَجَا أَيْضًا عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْغِفَارِيِّ ؓ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ ـ وَأَهَلَّ رَمَضَانُ ـ فَقَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ الْعِبَادُ مَا رَمَضَانُ لَتَمَنَّتْ أُمَّتِي أَنْ تَكُونَ السَّنَةُ كُلُّها رَمَضَانَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ خُزَاعَةَ: يا نَبِيَّ اللّهِ حَدِّثْنا، فَقَالَ: إِنَّ الْجَنَّةَ لَتُزَيَّنُ لِرَمَضَانَ مِنْ رَأْسِ الْحَوْلِ إِلَى الْحَوْلِ، فَإِذَا كانَ أَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ هَبَّتْ رِيحٌ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ فَصَفَّقَتْ وَرَقُ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، فَتَنْظُرُ الْحُورُ الْعِينُ إِلَى ذَلِكَ، فَيَقُلْنَ: يا رَبَّنا اجْعَلْ لَنَا مِنْ عِبَادِكَ فِي هَذَا الشَّهْرِ أَزْوَاجًا

تَقَرُّ أَعْيُنُنَا بِهِمْ وَتَقَرُّ أَعْيُنُهُمْ بِنا، قالَ: فَما مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا مِنْ رَمَضَانَ إِلاَّ زُوِّجَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ فِي خِيمَةٍ مِنْ دُرَّةٍ، كَما نَعَتَ اللّهُ ﷻ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ عَلَى كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ سَبْعُونَ حُلَّةً لَيْسَ مِنْهَا حُلَّةٌ عَلَى لَوْنِ الْأُخْرَى. وَيُعْطَى سَبْعُونَ لَوْنًا مِنَ الطَّعَامِ لَيْسَ مِنْهُ لَوْنٌ عَلَى رِيحِ الْآخَرِ، لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ سَبْعُونَ أَلْفَ وَصِيفَةٍ لِحَاجَتِهَا وَسَبْعُونَ أَلْفَ وَصِيفٍ، مَعَ كُلِّ وَصِيفٍ صَحْفَةٌ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا لَوْنُ طَعَامٍ يَجِدُ لِآخِرِ لُقْمَةٍ مِنْهَا لَذَّةً لَمْ يَجِدْهَا لِأَوَّلِهِ، وَلِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ سَبْعُونَ سَرِيرًا مِنْ ياقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، عَلَى كُلِّ سَرِيرٍ سَبْعُونَ فِرَاشًا بَطَائِنُها مِنِ إِسْتَبْرَقٍ، فَوْقَ كُلِّ فِرَاشٍ سَبْعُونَ أَرِيكَةً، وَيُعْطَى زَوْجُهَا مِثْلَ ذَلِكَ، عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ياقُوتٍ أَحْمَرَ، مُوَشَّحًا بِالدُّرِّ، عَلَيْهِ سِوَارَانِ، هَذَا بِكُلِّ يَوْمٍ صَامَهُ مِنْ رَمَضَانَ سِوَى مَا عَمِلَ مِنَ الْحَسَنَاتِ».

وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يَدْعُو بِبُلُوغِ رَمَضَانَ، فَكانَ إِذَا دَخَلَ رَجَبُ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ بارِكْ لَنَا فِي رَجَبَ وشَعْبَانَ وَبَلِّغْنَا رَمَضَانَ».

وَقالَ الْمُعَلَّى بْنُ الْفَضْلِ: كانَ السَّلَفُ يَدْعُو اللّهَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ رَمَضَانَ، ثُمَّ يَدْعُونَهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَنْ يَتَقَبَّلَهُ مِنْهُمْ.

قالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ: كانَ مِنْ دُعَائِهِمْ: اللَّهُمَّ سَلِّمْنِي إِلَى رَمَضَانَ، وَتَسَلَّمْهُ مِنِّي مُتَقَبَّلًا.

شِعْر:

مَنْ نَالَهُ دَاءٌ دَوِ بِذُنُوبِهِ	فَلْيَأْتِ مِنْ رَمَضَانَ بابَ طَبِيبِهِ
فَخَلُوفُ هَذَا الصَّوْمِ يا قَوْمُ اعْلَمُوا	أَشْهَى مِنَ الْمِسْكِ السَّحِيقِ وَطِيبِهِ
أَوَ لَيْسَ هَذَا الْقَوْلُ قَوْلَ مَلِيكِكُمْ	الصَّوْمُ لِي وَأَنا الَّذِي أُجْزِي بِهِ

فَصْلٌ

اعْلَمْ أَنَّهُ يَجِبُ صِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا بِرُؤْيَةِ هِلَالِهِ، أَوْ

إِكْمالِ عِدَّةِ شَعْبَانَ ثَلاثِينَ يَوْمًا، وَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَلَقَّى هَذَا الشَّهْرَ الشَّرِيفَ بِالْقَبُولِ وَالْفَرَحِ وَالاهْتِمَامِ، بِأَدَاءِ حُقُوقِ الصَّوْمِ فَيَعْمُرُ نَهارَهُ بِالصِّيَامِ وَلَيْلَهُ بِالْقِيَامِ. وَبُلُوغُ رَمَضَانَ وَصِيَامُهُ نِعْمَةٌ عَلَى مَنْ أَقْدَرَهُ اللّهُ عَلَيْهِ. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ اسْتُشْهِدَ اثْنانِ مِنْهُمْ، ثُمَّ مَاتَ الثَّالِثُ عَلَى فِرَاشِهِ بَعْدَهُمَا، فَرُئِيَ فِي الْمَنَامِ سَابِقًا لَهُما. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَيْسَ صَلَّى بَعْدَهُمَا كَذَا وَكَذَا صَلَاةً، وَأَدْرَكَ رَمَضَانَ فَصَامَهُ؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ بَيْنَهما لَأَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ.

وَكانَ النَّبِيُّ ﷺ يُبَشِّرُ أَصْحَابَهُ بِقُدُومِ رَمَضَانَ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُبَشِّرُ أَصْحَابَهُ يَقُولُ: «قَدْ جَاءَكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ، كَتَبَ اللّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ، فِيهِ تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجِنَانِ، وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ، وَتُغَلُّ فِيهِ الشَّيَاطِينُ. فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ.

قالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ فِي تَهْنِئَةِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِشَهْرِ رَمَضَانَ، كَيْفَ لَا يُبَشَّرُ الْمُؤْمِنُ بِفَتْحِ أَبْوَابِ الْجِنَانِ؟ كَيْفَ لَا يُبَشَّرُ الْمُذْنِبُ بِغَلْقِ أَبْوَابِ النِّيرَانِ؟ كَيْفَ لَا يُبَشَّرُ الْعَاقِلُ بِوَقْتٍ يُغَلُّ فِيهِ الشَّيْطَانُ؟ مِنْ أَيْنَ يُشْبِهُ هَذَا الزَّمَانَ زَمَانٌ؟ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «أَتاكُمْ رَمَضانُ سَيِّدُ الشُّهُورِ فَمَرْحَبًا بِهِ وَأَهْلًا. جَاءَ شَهْرُ الصِّيَامِ بِالْبَرَكَاتِ، فَأَكْرِمْ بِهِ مِنْ زَائِرٍ هُوَ آتٍ».

شِعْر:

أَتَى رَمَضَانُ مَزْرَعَةُ الْعِبَادِ ... لِتَطْهِيرِ الْقُلُوبِ مِنَ الْفَسَادِ

فَأَدِّ حُقُوقَهُ قَوْلًا وفِعْلًا ... وَزَادَكَ فاتَّخِذْهُ لِلْمَعَادِ

فَمَنْ زَرَعَ الْحُبُوبَ وَمَا سَقَاهَا ... تَأَوَّهَ نادِمًا يَوْمَ الْحَصَادِ

يا مَنْ طَالَتْ غَيْبَتُهُ عَنَّا، قَدْ قَرُبَتْ أَيَّامُ الْمُصالَحَةِ، يا مَنْ دَامَتْ خَسارَتُهُ قَدْ أَقْبَلَتْ أَيامُ التِّجَارَةِ الرَّابِحَةِ، منْ لَمْ يَرْبَحْ فِي هَذَا الشَّهْرِ، فَفِي أَيِّ وَقْتٍ

يَرْبَحُ؟ مَنْ لَمْ يَقْرُبْ فِيهِ مِنْ مَوْلَاهُ، فَهُوَ عَلَى بُعْدِهِ لَا يَبْرَحُ، مَنْ رُحِمَ فِي رَمَضَانَ فَهُوَ الْمَرْحُومُ، وَمَنْ حُرِمَ خَيْرَهُ فَهُوَ الْمَحْرُومُ.

شِعْر:

إِذَا رَمَضَانُ أَتَى مُقْبِلًا ... فَأَقْبِلْ فَبِالْخَيْرِ يُسْتَقْبَلُ

لَعَلَّكَ تُخْطِئُهُ قَابِلًا ... وَتَأْتِي بِعُذْرٍ فَلَا يُقْبَلُ

كَمْ يُنادى: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ وَأَنْتَ خَاسِرٌ، كَمْ تُدْعَى إِلَى الصَّلَاحِ وَأَنْتَ عَلى الفسادِ مُثَابِرٌ؟ كَمْ يُدْعَى أَهْلُ الاجْتِهَادِ فَيُجِيبُونَ وَأَنْتَ عَنِ الْإِجَابَةِ نافِرٌ؟ كَمْ وَصَلَ الْأَحْبَابُ إِلَى مَوْلَاهُمْ وَأَنْتَ بِقَدَمِ الْبِطَالَةِ عَاثِرٌ؟ فَجِدَّ أَخِي، هَذِهِ مَوَاسِمُ الْخَيْرَاتِ فاغْتَنِمْهَا وَبَادِرْ، وَهَذَا إِبَّانُ الزَّرْعِ فَهَلْ لِلْخَيْرِ باذِرٌ؟.

إِخْوَانِي: أَيْنَ مَنْ كَانَ مَعَكُمْ الْعَامَ فِي هَذِهِ اللَّيَالِ، مِنَ النِّسَاءِ والرِّجَالِ، يُنافِسُونَكُمْ فِي صَالِحِ الْأَعْمَالِ، وَيُخَالِطُونَكُمْ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ؟ أَمَا طَحَنَتْهُمْ رَحَى الْمَنُونِ وَلَمْ تَنْفَعِ الْآمَالُ، وَقُطِعَتْ مِنْهُمُ الْأَعْمَارُ وَالْآجَالُ، وَحَلُّوا فِي ضَرَائِحِهِمْ بِمَا قَدَّمُوا مِنَ الْأَعْمَالِ، وَأَخَذَهُمُ الْمَوْتُ وَمَا دَفَعَ عَنْهُمُ الْمَالُ وَالْعِيَالُ، وَقَدِمُوا عَلَى مَا قَدَّمُوا مِنْ جَمِيعِ الْأَفْعالِ؟ وَهَأَنْتُمْ لِطَرِيقِهِمْ سَالِكُونَ، وَلِمَدَاخِلِهِمْ دَاخِلُونَ، وَعَلَى سَبِيلِهِمْ مُتَّبِعُونَ، فَبادِرُوا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - أَوْقاتَكُمْ قَبْلَ الارْتِحَالِ، فَيا سَعَادَةَ مَنْ قُبِلَتْ مِنْهُ فِي شَهْرِهِ الْأَعْمَالُ، وَيَا شَقَاوَةَ مَنْ فَرَّطَ فِي صِيَامِهِ بِالْإِهْمَالِ.

إِخْوَانِي: اعْلَمُوا أَنَّهُ نَزَلَ بِسَاحَتِكُمْ شَهْرٌ كَرِيمٌ، وَمَوْسِمٌ عَظِيمٌ، خَصَّهُ اللَّهُ تَعالَى عَلَى سَائِرِ الشُّهُورِ بِالتَّشْرِيفِ وَالتَّكْرِيمِ. وَأَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ الْعظِيمَ، وَالذِّكْرَ الْحَكِيمَ، وَفَرَضَ صِيَامَهُ شُكْرًا عَلَى هَذَا الْإِنْعَامِ وَالْفَضْلِ الْعَمِيمِ، وَجَعَلَ صِيَامَهُ أَحَدَ مَبَانِي الْإِسْلَامِ الَّتِي لَا يَقُومُ عَلَى غَيْرِهَا وَلَا يَسْتَقِيمُ، وَسَنَّ لَكُمْ قِيَامَهُ نَبِيُّكُمُ الْكَرِيمُ. شَهْرُ الْبَرَكَاتِ وَالْخَيْرَاتِ. شَهْرُ إِجَابَةِ الدَّعَوَاتِ، شَهْرُ إِقَالَةِ الْعَثَرَاتِ. شَهْرُ مُضَاعَفَةِ الْحَسَنَاتِ. شَهْرُ الْإِفَاضَاتِ وَالنَّفَحَاتِ.

شَهْرُ إِعْتَاقِ الرِّقابِ الْمُوبِقاتِ. شَهْرٌ لَا يُعْدَلُ بِهِ سِوَاهُ مِنَ الْأَوْقاتِ. الْحَسَنَةُ فِيهِ بِأَلْفِ حَسَنَةٍ فِيمَا سِوَاهُ. وَالفَرِيضَةُ تَعْدِلُ سَبْعِينَ فَرِيضَةً لِمَنْ تَقَبَّلَ مِنْهُ مَوْلَاهُ.

فَيا ذَوِي الْهِمَمِ الْعَالِيَةِ، وَيَا ذَوِي الْمَطَالِبِ الرَّفِيعَةِ السَّامِيَةِ. الْغَنَائِمَ الْغَنَائِمَ قَبْلَ الْفَوَاتِ، وَالْعَزَائِمَ الْعَزَائِمَ عَلَى الْجِدِّ وَهَجْرِ الْبِطالَاتِ، فَلِأَوْقاتِ الْفَضَائِلِ فَوَاتٌ.

ذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ: أَنَّ لِلّهِ تَعَالَى مَوْضِعًا حَوْلَ الْعَرْشِ يُسَمَّى «حَظِيرَةَ الْقُدْسِ» وَهُوَ مِنَ النّورِ، وَفِيهِ مَلَائِكَةٌ لَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إِلَّا اللّهُ ﷻ يَعْبُدُونَ اللّهَ لَا يَفْتُرُونَ سَاعَةً، فَإِذَا كانَ لَيَالِي رَمَضَانَ اسْتَأْذَنُوا رَبَّهُمْ ﷻ أَنْ يَنْزِلُوا إِلَى الْأَرْضِ، وَيَحْضُرُوا مَعَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ صَلَاةَ التَّرَاوِيحِ، فَكُلُّ مَنْ مَسَّهُمْ أَوْ مَسُّوهُ سَعِدَ سَعَادَةً لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا. فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: نَحْنُ أَحَقُّ بِهَذَا الْفَضْلِ وَالْأَجْرِ، فَجَمَعَ النَّاسَ عَلَى صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ.

مَنْ عَرَفَ مَا يَطْلُبُ هَانَ عَلَيْهِ كُلُّ مَا يَبْذُلُ. وَيْحَكَ قَدْ رَضِينَا فِي فِكاكِ نَفْسِكَ بِالنَّدَمِ. وَقَنِعْنَا مِنْكَ فِي ثَمَنِها بِالتَّوْبَةِ وَالْحُزْنِ. وَفِي هَذَا الْمَوْسِمِ قَدْ رَخُصَ السِّعْرُ. مَنْ مَلَكَ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَلِسَانَهُ غُفِرَ لَهُ. مُدَّ إِلَيْهِ يَدَ الاعْتِذَارِ وَقُمْ عَلَى بابِهِ بِالذُّلِّ وَالانْكِسَارِ. وَارْفَعْ قِصَّةَ نَدَمِكَ مَرْمُوقَةً عَلَى صَحِيفَةِ خَدِّكَ بِمِدَادِ الدُّمُوعِ الْغِزَارِ، وَقُلْ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ قِفْ عَلَى الْبَابِ بَاكِيًا، وَنَكِّسِ الرَّأْسَ بِالنَّدَمِ شَاكِيًا، وَأَلِحَّ عَلَى الْمَوْلَى الْعَظِيمِ دَاعِيًا، وَقُلْ بِلِسَانِ الاعْتِذَارِ، بِالنَّدَمِ عَلَى الذُّنُوبِ وَالْأَوْزَارِ:

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً ... فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ ... فَمَنِ الَّذِي يَدْعُو وَيَرْجُو الْمُجْرِمُ
أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا ... فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ؟
ما لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الدُّعَا ... وَجَمِيلُ عَفْوِكَ، ثُمَّ إِنِّي مُسْلِمُ

اللَّهُمَّ يَا مَنْ لَا تَنْفَعُهُ الطَّاعَةُ، وَلَا يَضُرُّهُ الْعِصْيَانُ. يَا مَنْ غَمَرَ الْبَرِيَّةَ بِالْجُودِ وَالْإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ وَالِامْتِنَانِ. نَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَنَا مِنْ عَبِيدِكَ الْمُفْلِحِينَ، وَأَوْلِيَائِكَ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ أَهَّلْتَهُمْ لِخِدْمَتِكَ، وَنَعَّمْتَهُمْ بِأُنْسِكَ وَحَضْرَتِكَ. وَسَقَيْتَهُمْ لَذِيذَ شَرَابِكَ، وَخَلَعْتَ عَلَيْهِمْ خِلَعَ أَحْبَابِكَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْمَقْبُولِينَ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْفَضِيلِ. وَخُصَّنَا فِيهِ بِالْأَجْرِ الْوَافِرِ وَالْعَطَاءِ الْجَزِيلِ. واغْفِرْ لَنَا فِيهِ كُلَّ ذَنْبٍ عَظِيمٍ، وَخَفِّفْ ظُهُورَنَا مِنْ كُلِّ وِزْرٍ ثَقِيلٍ. وَتَقَبَّلْ فِيهِ يَسِيرَ أَعْمَالِنَا فَإِنَّكَ تَقْبَلُ الْعَمَلَ الْقَلِيلَ.

اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنَّا يَسِيرَ الْأَعْمَالِ، وَهَبْ لَنَا إِسَاءَتَنَا فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ. وَسَامِحْنَا عَنِ الْغَفْلَةِ وَالْإِهْمَالِ، وَاغْفِرْ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَـابُ الثَّانِـي
فِي فَضَائِلِ شَهْرِ رَمَضَانَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ شَهْرَ رَمَضَانَ غُرَّةَ وَجْهِ الْعَامِ، وَأَجْزَلَ فِيهِ الْفَضَائِلَ وَالْإِنْعَامِ، وَشَرَّفَ أَوْقَاتَهُ عَلَى سَائِرِ الْأَوْقَاتِ، وَفَضَّلَ أَيَّامَهُ على سَائِرِ الْأَيَّامِ، وَجَعَلَهُ لِعقْدِ شُهُورِ الْعَامِ وَاسِطَةَ النِّظَامِ، وَخَصَّهُ عَلَى سَائِرِ الشُّهُورِ بِمَزِيدِ الْفَضْلِ وَالْإِكْرَامِ، وَعَمَّرَ نَهَارَهُ بِالصِّيَامِ، وَنَوَّرَ لَيْلَهُ بِالْقِيَامِ، فَيا لَهُ مِنْ مَوْسِمِ اغْتِنَامٍ لِذَوِي الْهِمَمِ وَالاغْتِنَامِ. قَاهِرِ الْمُتَجَبِّرِ وَمُذِلِّهِ، وَرَافِعِ الْمُتَوَاضِعِ وَمُجِلِّهِ. وَهُوَ عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ لِأَجْلِهِ، فِي جُنْحِ الظَّلَامِ. الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، الْقُدُّوسُ الصَّمَدُ، الَّذِي تَعَالَى عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَالِدِ وَالوَلَدِ، وَتَقَدَّسَ عَنِ التَعْطِيلِ وَمُشَابَهَةِ الأنام. المَلِكُ الَّذِي يُوَلِّي وَيَعْزِلُ، وَيَأْخُذُ وَيُمْهِلُ، وَيَكْشِفُ وَيُسْبِلُ وَعَمَّ فَضْلُهُ جَمِيعَ الْأَنَامِ. أَحَاطَ عِلْمًا بِجَمِيعِ الْكَوْنِ خَاصِّهِ وَالْعَامِّ، وَوسِعَ سَمْعُهُ دَبِيبَ الذَّرِّ فِي جَوْفِ الظَّلَامِ.

فَسُبْحَانَ مَنْ زَيَّنَ قُلُوبَ الْعَارِفِينَ بِوَدَائِعِ مَعْرِفَتِهِ، وَأَوْضَحَ لَهُمُ السَّبِيلَ فَاسْتَقَامُوا لِخِدْمَتِهِ. وَهُوَ الْكَرِيمُ الَّذِي إِذَا دَعَا إِلَى بَابِهِ أَفَاضَ عَلَى الْمُحِبِّينَ جَزِيلَ الْإِكْرَامِ. مَنْ وَقَفَ بِبَابِهِ تَلَقَّاهُ، وَمَنْ لَاذَ بِحِمَاهُ حَمَاهُ وَوَقَاهُ، فَلَا يُهْضَمُ وَلَا يُضَامُ. وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ، وَنَالَ بِكِفَايَتِهِ الْمُنَى وَالْمَرَامَ.

فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلٰهٍ أَيْقَظَ فِي هَذَا الشَّهْرِ قُلُوبًا كانَ لَها إِلَى الْخَيْرَاتِ وُثُوبٌ وإِقْدَامٌ، وَأَغْفَلَ فِيهِ قُلُوبًا فَلَمْ يُؤَثِّرْ فِيهَا وَعْظٌ وَلَا مَلَامٌ.

أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ عَلَى إِحْسَانِهِ الْعَامِّ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِلٰهٌ تَفَرَّدَ بِالْكَمَالِ وَالتَّمَامِ. شَهَادَةً مُبَرَّأَةً مِنَ الشِّرْكِ وَالشُّكُوكِ وَالْأَوْهَامِ. أَرْجُو بِهَا النَّجَاةَ مِنَ النَّارِ وَالْفَوْزَ بِدَارِ السَّلَامِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ مَنْ صَلَّى وَصَامَ، وَأَتْقَى مَنْ تَهَجَّدَ وَقَامَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ هُدَاةِ الْأَنَامِ، وَمَصَابِيحِ الظَّلَامِ، صَلَاةً دَائِمَةً تَتَعَاقَبُ بِتَعَاقُبِ الضِّيَاءِ وَالظَّلَامِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾. هَذَا نَدْبٌ وَحَثٌّ مِنَ اللّٰهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ إِلَى الْمُسَارَعَةِ إِلَى نَيْلِ الْقُرُبَاتِ، وَالْمُسَابَقَةِ إِلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ، بِأَنْ يُسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَتِهِ وَجَنَّتِهِ الَّتِي أَعَدَّ اللّٰهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ وَقُرَّةِ الْعَيْنِ وَالْخُلُودِ الْأَبَدِيِّ فِي دَارِ الْكَرَامَةِ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ الَّذِي لَا يَزُولُ وَلَا يَحُولُ. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ: «أُعْطِيَتْ أُمَّتِي خَمْسَ خِصَالٍ فِي رَمَضَانَ، لَمْ تُعْطَهَا أُمَّةٌ قَبْلَهُمْ: خُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللّٰهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَتَسْتَغْفِرُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ - وَفِي رِوَايَةٍ: الْحِيتَانُ - حَتَّى يُفْطِرُوا، وَيُزَيِّنُ اللّٰهُ ﷻ كُلَّ يَوْمٍ جَنَّتَهُ ثُمَّ يَقُولُ: يُوشِكُ عِبَادِي الصَّالِحُونَ أَنْ يُلْقُوا عَنْهُمُ الْمَؤُونَةَ وَالْأَذَى وَيَصِيرُوا إِلَيْكِ. وَتُصَفَّدُ فِيهِ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ، فَلَا يَخْلُصُونَ فِيهِ إِلَى مَا كانُوا يَخْلُصُونَ إِلَيْهِ فِي غَيْرِهِ، وَيَغْفِرُ لَهُمْ فِي آخِرِ لَيْلَةٍ.

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللّٰهِ، أَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّ الْعَامِلَ إِنَّمَا يُوَفَّى أَجْرَهُ إِذَا قَضَى عَمَلَهُ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ.

وَعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ﷺ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ شَعْبَانَ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ أَظَلَّكُمْ شَهْرٌ عَظِيمٌ مُبَارَكٌ، شَهْرٌ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. جَعَلَ اللّٰهُ صِيَامَهُ فَرِيضَةً، وَقِيَامَ لَيْلِهِ تَطَوُّعًا، مَنْ تَقَرَّبَ فِيهِ بِخَصْلَةٍ مِنَ الْخَيْرِ كَانَ كَمَنْ أَدَّى فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ، وَمَنْ أَدَّى فَرِيضَةً فِيهِ كانَ كَمَنْ أَدَّى سَبْعِينَ فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ، وَهُوَ شَهْرُ الصَّبْرِ، وَالصَّبْرُ ثَوَابُهُ الْجَنَّةُ، وَشَهْرُ الْمُوَاسَاةِ، وَشَهْرٌ يُزَادُ فِيهِ فِي رِزْقِ الْمُؤْمِنِ، مَنْ فَطَّرَ فِيهِ صَائِمًا كانَ مَغْفِرَةً لِذُنُوبِهِ وَعِتْقَ رَقَبَتِهِ مِنَ النَّارِ، وَكانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِ شَيْءٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّٰهِ، لَيْسَ كُلُّنَا يَجِدُ مَا يُفَطِّرُ الصَّائِمَ؟ فَقَالَ رُسُولُ اللّٰهِ ﷺ: يُعْطِي اللّٰهُ هَذَا الثَّوَابَ مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا عَلَى تَمْرَةٍ، أَوْ شَرْبَةِ مَاءٍ، أَوْ مَذْقَةِ لَبَنٍ، وَهُوَ شَهْرٌ أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَأَوْسَطُهُ مَغْفِرَةٌ، وَآخِرُهُ عِتْقٌ مِنَ النَّارِ، مَنْ خَفَّفَ عَنْ مَمْلُوكِهِ فِيهِ غَفَرَ اللّٰهُ لَهُ، وَأَعْتَقَهُ مِنَ النَّارِ، فَاسْتَكْثِرُوا فِيهِ مِنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: خَصْلَتَيْنِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُمْ، وَخَصْلَتَيْنِ لَا غِنَى بِكُمْ عَنْهُمَا، فَأَمَّا الْخَصْلَتَانِ اللَّتَانِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُمْ فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ، وَتَسْتَغْفِرُونَهُ، وَأَمَّا الْخَصْلَتَانِ اللَّتَانِ لَا غِنَى بِكُمْ عَنْهُمَا فَتَسْأَلُونَ اللّٰهَ الْجَنَّةَ، وَتَعُوذُونَ بِهِ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ سَقَى صَائِمًا سَقَاهُ اللّٰهُ مِنْ حَوْضِي شَرْبَةً لَا يَظْمَأُ بَعْدَهَا حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ» رَوَاهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ وَصَحَّحَهُ، وروَاهُ الْبَيْهَقِي وَأَبُو الشَّيْخِ ابْنُ حَيَّانَ.

وَرَوَى كَعْبُ الْأَحْبَارِ: أَنَّ اللّٰهَ تَعَالَى قَالَ لِمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنِّي آلَيْتُ عَلَى نَفْسِي أَلَّا أَرُدَّ دَعْوَةَ صَائِمِي شَهْرِ رَمَضَانَ يَا مُوسَى، أُلْهِمُ فِي رَمَضَانَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ وَالطَّيْرَ وَالدَّوَابَ، أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِصَائِمِي شَهْرِ رَمَضَانَ».

يَا شَهْرَ رَمَضَانَ أَيْنَ أَرْبَابُ الْقِيَامِ؟ أَيْنَ الْمُحَافِظُونَ عَلَى آدَابِ الصِّيَامِ؟ أَيْنَ الْمُجْتَهِدُونَ فِي الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ؟ أَيْنَ الْمُتَهَجِّدُونَ فِي جُنْحِ الظَّلَامِ؟ أَيْنَ

الَّذِينَ يَهْجُرُونَ الْمَنَامَ، وَيَتَمَنَّوْنَ أَنْ لَوْ كَانَ رَمَضَانُ رَمَضَانَ عَلَى الدَّوَامِ؟ ذَهَبُوا إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ، فَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

إِخْوَانِي. اعْلَمُوا أَنَّ لِشَهْرِ رَمَضَانَ فَضَائِلَ لَا تُحْصَى. وَكَرَامَاتٍ لَا تُسْتَقْصَى. وَيَكْفِي فِيهِ شَرَفًا وَفَضْلًا - آيَاتٌ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ، تُقْرَأُ وَتُتْلَى. فَيَا مُضَيِّعَ الزَّمَانِ فِيمَا يَنْقُصُ الْإِيمَانَ مَا أَرَاكَ فِي رَمَضَانَ إِلَّا كَمَا أَنْتَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الزَّمَانِ. أَمَا يَسُوقُكَ إِلَى الْخَيْرِ مَا يَسُوقُ؟ أَمَا يَعُوقُكَ عَنِ الشَّرِّ مَا يَعُوقُ؟ مَتَى تَصِيرُ سَابِقًا يَا مَسْبُوقُ؟ إِلَى مَتَى تُبَادِرُ سُوقَ الْفُسُوقِ؟ أَوَّلُ الْهَوَى سَهْلٌ ثُمَّ تَنْخَرِقُ الْخُرُوقُ، فَبَادِرْ ثُمَّ بَادِرْ، فَإِنَّ لَذَّاتِ الدُّنْيَا كَخَطْفِ الْبُرُوقِ.

عِبَادَ اللّٰهِ، إِنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ مِضْمَارُ السَّابِقِينَ، وَغَنِيمَةُ الصَّادِقِينَ. فِيهِ تُضَاعَفُ الْأَعْمَالُ وَتُحَطُّ الْأَوْزَارُ الثِّقَالُ، وَفِيهِ يُجَابُ السُّؤَالُ، وَيُغْفَرُ لِلْمُسْتَغْفِرِ وَيُقَالُ، فَهُوَ غُرَّةُ الدُّهُورِ، وَمِصْبَاحُ الشُّهُورِ، وَرَبِيعٌ لِلْمُؤْمِنِ يَقْتَطِفُ فِيهِ الْأُجُورَ، وَتُزَيَّنُ فِيهِ الْجِنَانُ وَالْقُصُورُ. فَجُدْ فِيهِ بِالطَّاعَاتِ وَاهْجُرِ الْفُتُورَ.

شِعْر:

قَدْ جَاءَ شَهْرُ الصَّوْمِ فِيهِ الْأَمَانْ ... وَالْعِتْقُ وَالْفَوْزُ بِسُكْنَى الْجِنَانْ
شَهْرٌ شَرِيفٌ فِيهِ نَيْلُ الْمُنَى ... وَهْوَ طِرَازٌ فَوْقَ كُمِّ الزَّمَانْ
طُوبَى لِمَنْ قَدْ صَامَهُ وَاتَّقَى ... مَوْلَاهُ فِي الْفِعْلِ وَنُطْقِ اللِّسَانْ
وَيَا هَنَا مَنْ قَامَ فِي لَيْلِهِ ... وَدَمْعُهُ فِي الْخَدِّ يَحْكِي الْجُمَانْ
ذَاكَ الَّذِي قَدْ خَصَّهُ رَبُّهُ ... بِجَنَّةِ الْخُلْدِ وَحُورٍ حِسَانْ
هَنَّاكُمُ اللّٰهُ بِشَهْرٍ أَتَى ... فِي مَدْحِهِ الْقُرْآنُ نَصَّ عِيَانْ

فصل

قَالَ فِي «حَادِي الْأَرْوَاحِ»: وَلَمَّا عَلِمَ الْمُوَفَّقُونَ مَا خُلِقُوا لَهُ، وَمَا أُرِيدَ بِإِيجَادِهِمْ رَفَعُوا رُءُوسَهُمْ، فَإِذَا عَلَمُ الْجُنْدِ قَدْ رُفِعَ لَهُمْ فَشَمَّرُوا إِلَيْهِ. وَإِذَا

صِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ قَدْ وَضَحَ لَهُمْ فَاسْتَقَامُوا عَلَيْهِ. وَرَأَوْا مِنْ أَعْظَمِ الْغَبْنِ بَيْعَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فِي أَبَدٍ لَا يَزُولُ وَلَا يَنْفَدُ بِصُبَابَةِ عَيْشٍ إِنَما هُوَ كَأَضْغَاثِ أَحْلَامٍ. أَوْ كَطَيْفٍ زَارَ فِي الْمَنَامِ. مُشْرَبٌ بِالنَّغَصِ. مَمْزُوجٌ بِالْغُصَصِ. إِنْ أَضْحَكَ قَلِيلًا أَبْكَى كَثِيرًا، وَإِنْ سَرَّ يَوْمًا أَحْزَنَ شُهُورًا، آلَامُهُ تَزِيدُ عَلَى لَذَّاتِهِ، وَأَحْزَانُهُ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَسَرَّاتِهِ، أَوَّلُهُ مَخَاوِفُ، وَآخِرُهُ مَتَالِفُ، فَيا عَجَبًا مِنْ سَفِيهٍ فِي صُورَةِ حَكِيمٍ. وَمَعْتُوهٍ فِي مِسْلَاخِ عَاقِلٍ. آثَرَ الْحَظَّ الْفَانِيَ الْخَسِيسَ، عَلَى الْحَظِّ الْبَاقِي النَّفِيسِ. وَبَاعَ جَنَّةً عَرْضُهَا الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ، بِسِجْنٍ ضَيِّقٍ بَيْنَ أَرْبابِ الْعَاهَاتِ وَالْبَلِيَّاتِ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ بِأَعْطَانٍ ضَيِّقَةٍ آخِرُهَا الْخَرَابُ وَالْبَوَارُ. وَأَبْكارًا عُرُبًا أَتْرَابًا كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ، بِقَذِرَاتٍ دَنِسَاتٍ سَيِّئَاتِ الْأَخْلَاقِ، مُسَافِحَاتٍ أَوْ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ. وَحُورًا مَقْصُورَاتٍ فِي الْخِيَامِ، بِخَبِيثَاتٍ مُسَيَّبَاتٍ بَيْنَ الْأَنَامِ، وَأَنْهَارًا مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، بِشَرَابٍ نَجِسٍ مُذْهِبٍ لِلْعَقْلِ مُفْسِدٍ لِلدُّنْيا وَالدِّينِ. وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ، بِالتَّمَتُّعِ بِرُؤْيَةِ الْوَجْهِ الْقَبِيحِ الدَّمِيمِ، وَسَمَاعَ الْخِطَابِ مِنَ الرَّحْمَنِ بِسَمَاعِ الْمَعَازِفِ وَالْغِنَاءِ وَالْأَلْحَانِ، وَالْجُلُوسَ عَلى مَنَابِرِ اللُّؤْلُؤِ وَالْيَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ يَوْمَ الْمَزِيدِ، بِالْجُلُوسِ فِي مَجَالِسِ الْفُسُوقِ مَعَ كُلِّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ، وَنِدَاءَ الْمُنَادِي: يا أَهْلَ الْجَنَةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فلَا تَبْأَسُوا، وَتَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا، وَتُقِيمُوا فَلَا تَظْعَنُوا، وَتَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا بِغِنَاءِ الْمُغَنِّي:

وَقَفَ الْهَوَى بِي حَيْثُ أَنْتَ فَلَيْسَ لِي ... مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ وَلَا مُتَقَدَّمُ
أَجِدُ الْمَلَامَةَ فِي هَوَاكَ لَذِيذَةً ... حُبًّا لِذِكْرِكَ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ

وَإِنَّمَا يَظْهَرُ الْغَبْنُ الْفَاحِشُ فِي هَذَا الْبَيْعِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا يَتَبَيَّنُ سَفَهُ بَائِعِهِ يَوْمَ الْحَسْرَةِ وَالنَّدامَةِ. إِذَا حُشِرَ الْمُتَّقُونَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا، وَسِيقَ الْمُجْرِمُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا، وَنَادَى الْمُنَادِي عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ:

لِيَعْلَمَنَّ أَهْلُ الْمَوْقِفِ مَنْ أَوْلَى بِالْكَرَمِ مِنْ بَيْنِ الْعِبَادِ؟ فَلَوْ تَوَهَّمَ

الْمُتَخَلِّفُ عَنْ هَذِهِ الرِّفْقَةِ مَا أَعَدَّ الله لَهُمْ مِنَ الإِكْرَام، وَادَّخَرَ لَهُمْ مِنَ الْفَضْلِ وَالإِنْعام. وَمَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةَ أَعْيُنٍ لَمْ يَقَعْ عَلَى مِثْلِهَا بَصَرٌ، وَلَا سَمِعَتْهُ أُذُنٌ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. لَعَلِمَ أَيَّ بِضَاعَةٍ أَضاعَ، وأنّهُ لا خَيْرَ لَهُ في حَيَاتِهِ وهو مَعْدُودٌ من سَقَطِ المتَاعِ، وعَلِمَ أنَّ الْقَوْمَ قَدْ تَوَسَّطُوا مُلْكًا كَبِيرًا لَا تَعْتَرِيهِ الآفَاتُ وَلَا يَلْحَقُهُ الزَّوَالُ، وَفَازُوا بِالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِي جِوَارِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ، فَهُمْ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ يَتَقَلَّبُونَ، وَعَلَى أَسِرَّتِهَا تَحْتَ الْحِجَابِ يَجْلِسُونَ، وَعَلَى الْفُرُشِ الَّتِي بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ يَتَّكِئُونَ، وَبِالْحُورِ الْعِينِ يَتَنَعَّمُونَ، وَبِأَنْوَاعِ الثِّمَارِ يَتَفَكَّهُونَ. ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾. يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. تَاللّهِ لَقَد نُودِيَ عَلَيْهَا فِي سُوقِ الْكَسَادِ. فَمَا قَلَّبَ وَلَا اسْتَامَ إلا أَفْرَادٌ مِنَ الْعِبَادِ، فَوَاعَجَبًا لَهَا كَيْفَ نَامَ طَالِبُهَا، وَكَيْفَ لَمْ يَسْمَحْ بِمَهْرِهَا خَاطِبُهَا؟ وَكَيْفَ طَابَ الْعَيْشُ فِي هَذِهِ الدَّارِ بَعْدَ سَمَاعِ أَخْبَارِهَا؟ وَكَيْفَ قَرَّ لِلْمُشْتَاقِ الْقَرَارُ دُونَ مُعَانَقَةِ أَبْكَارِهَا؟ وَكَيْفَ قَرَّتْ دُونَهَا أَعْيُنُ الْمُشْتَاقِينَ وَكَيْفَ صَبَرَتْ عَنْهَا أَنْفُسُ الْمُوقِنِينَ؟ وَكَيْفَ صَدَفَتْ عَنْهَا قُلُوبُ أَكْثَرِ الْعَالَمِينَ؟ وَبِأَيِّ شَيْءٍ تَعَوَّضَتْ عَنْهَا نُفُوسُ الْمُعْرِضِينَ؟

شِعْرٌ فِي وَصْفِ الْجَنَّةِ:

وَمَا ذَاكَ إِلَّا غَيْرَةٌ أَنْ يَنَالَهَا ... سِوَى كُفْوِهَا وَالرَّبُّ بِالْخَلْقِ أَعْلَمُ
وَإِنْ حُجِبَتْ عَنَّا بِكُلِّ كَرِيهَةٍ ... وَحُفَّتْ بِما يُؤْذِي النُّفُوسَ وَيُؤْلِمُ
فَلِلَّهِ مَا فِي حَشْوِهَا مِنْ مَسَرَّةٍ ... وَأَصْنَافِ لَذَّاتٍ بِهَا يُتَنَعَّمُ
وَلِلَّهِ بَرْدُ الْعَيْشِ بَيْنَ خِيَامِهَا ... وَرَوْضَاتِهَا وَالثَّغْرُ فِي الرَّوْضِ يَبْسِمُ
وَلِلَّهِ وَادِيهَا الَّذِي هُوَ مَوْعِدُ الْمَـ ... ـزِيدِ لِوَفْدِ الْحُبِّ لَوْ كُنْتَ مِنْهُمُ
بِذَيَّالِكَ الْوَادِي يَهِيمُ صَبَابَةً ... مُحِبٌّ يَرَى أَنَّ الصَّبَابَةَ مَغْنَمُ

وَلِلّهِ أَفْرَاحُ الْمُحِبِّينَ عِنْدَمَا … يُخَاطِبُهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيُسَلِّمُ
وَلِلّهِ أَبْصَارٌ تَرَى اللّهَ جَهْرَةً … فَلَا الضَيْمُ يَغْشَاهَا وَلَا هِيَ تَسْأَمُ
فَيا نَظْرَةً أَهْدَتْ إِلَى الْوَجْدِ نَضْرَةً … أَمِنْ بَعْدِهَا يَسْلُو الْمُحِبُّ الْمُتَيَّمُ؟
وَلِلّهِ كَمْ مِنْ خَيْرَةٍ إِنْ تَبَسَّمَتْ … أَضَاءَ لَهَا نُورٌ مِنَ الْفَجْرِ أَعْظَمُ
فَيَا لَذَّةَ الْأَبْصَارِ إِنْ هِيَ أَقْبَلَتْ … وَيَا لَذَّةَ الْأَسْمَاعِ حِينَ تَكَلَّمُ
وَيَا خَجْلَةَ الْغُصْنِ الرَّطِيبِ إِذَا انْثَنَتْ … وَيَا خَجْلَةَ الْفَجْرَيْنِ حِينَ تَبَسَّمُ
فَإِنْ كُنْتَ ذَا قَلْبٍ عَلِيلٍ بِحُبِّهَا … فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا وَصْلُهَا لَكَ مَرْهَمُ
وَلَا سِيَّمَا فِي لَثْمِهَا عِنْدَ ضَمِّهَا … وَقَدْ صَارَ مِنْهَا تَحْتَ جِيدِكَ مِعْصَمُ
يَرَاهَا إِذَا أَبْدَتْ لَهُ حُسْنَ وَجْهِهَا … يَلَذُّ بِهِ قَبْلَ الْوِصَالِ وَيَنْعَمُ
تَفَكَّهُ فِيهَا الْعَيْنُ عِنْدَ اجتِلَائها … فَوَاكِهَ شَتَّى طَلْعُهَا لَيْس يَعْدَمُ
عَنَاقِيدُ مِنْ كَرْمٍ وَتُفَّاحُ جَنَّةٍ … وَرُمَّانُ أَغْصَانٍ بِهِ الْقَلْبُ مُغْرَمُ
وَلِلْوَرْد مَا قَدْ أَلْبَسَتْهُ خُدُودُهَا … وَلِلْخَمْرِ مَا قَدْ ضَمَّهُ الرِّيقُ وَالْفَمُ
تَقَسَّمَ مِنْهَا الْحُسْنُ فِي جَمْعٍ وَاحِدٍ … فَيَا عَجَبًا مِنْ وَاحِدٍ يَتَقَسَّمُ
لَهَا فِرَقٌ شَتَّى مِنَ الْحُسْنِ أَجْمَعَتْ … بِجُمْلَتِهَا أَنَّ السُّلُوَّ مُحَرَّمُ
تُذَكِّرُ بِالرَّحْمٰنِ مَنْ هُوَ نَاظِرٌ … فَيَنْطِقُ بِالتَّسْبِيحِ لَا يَتَلَعْثَمُ
إِذَا قَابَلَتْ جَيْشَ الْهُمُومِ بِوَجْهِهَا … تَوَلَّى عَلَى أَعْقَابِهِ الْجَيْشُ يُهْزَمُ
فَيَا خَاطِبَ الْحَسْنَاءِ إِنْ كُنْتَ رَاغِبًا … فَهَذَا زَمَانُ الْمَهْرِ فَهُوَ الْمُقَدَّمُ
وَلَمَّا جَرَى مَاءُ الشَّبَابِ بِغُصْنِهَا … تَيَقَّنَ حَقًّا أَنَّهُ لَيْسَ يَهْرَمُ
وَكُنْ مُبْغِضًا لِلْخَائِنَاتِ لِحُبِّهَا … فَتَحْظَى بِهَا مِنْ دُونِهِنَّ وَتَنْعَمُ
وَكُنْ أَيِّمًا مِمَّنْ سِوَاهَا فَإِنَّها … لِمِثْلِكَ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ تَأَيَّمُ
وَصُمْ يَوْمَكَ الْأَدْنَى لَعَلَّكَ فِي غَدٍ … تَفُوزُ بِعِيدِ الْفِطْرِ وَالنَّاسُ صُوَّمُ
وَأَقْدِمْ وَلَا تَقْنَعْ بِعَيْشٍ مُنَغَّصٍ … فَمَا فَازَ بِاللَّذَّاتِ مَنْ لَيْسَ يُقْدِمُ
وَإِنْ ضَاقَتِ الدُّنْيا عَلَيْكَ بِأَسْرِهَا … وَلَمْ يَكُ فِيهَا مَنْزِلٌ لَكَ يُعْلَمُ
فَحَيِّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّها … مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ

وَلَكِنَّنَا سَبْيُ الْعَدُوِّ فَهَلْ تَرَى نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلِّمُ
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْغَرِيبَ إِذَا نَأَى وَشَطَّتْ بِهِ أَوْطَانُهُ فَهُوَ مُغْرَمُ
فَأَيُّ اغْتِرَابٍ فَوْقَ غُرْبَتِنَا الَّتِي لَهَا أَضْحَتْ الأَعْدَاءُ فِينَا تَحَكَّمُ
وَحَيٌّ عَلَى السُّوقِ الَّذِي فِيهِ يَلْتَقِي الْـ ـمُحِبُّونَ ذَاكَ السُّوقُ لِلْقَوْمِ يُعْلَمُ
فَمَا شِئْتَ خُذْ مِنْهُ بِلَا ثَمَنٍ لَهُ فَقَدْ أَسْلَفَ التُّجَّارُ فِيهِ وَأَسْلَمُوا
وَحَيٌّ عَلَى يَوْمِ الْمَزِيدِ الَّذِي بِهِ زِيَارَةُ رَبِّ الْعَرْشِ فَالْيَوْمُ مَوسِمُ
وَحَيٌّ عَلَى وَادٍ هُنَالِكَ أَفْيَحٍ وَتُرْبَتُهُ مِنْ إِذْخَرِ الْمِسْكِ أَعْظَمُ
مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ هُنَاكَ وَفِضَّةٍ وَمِنْ خَالِصِ الْعِقْيَانِ لَا يَتَقَصَّمُ
وَكُثْبَانِ مِسْكٍ قَدْ جُعِلْنَ مَقَاعِدًا لِمَنْ دُونَ أَصْحَابِ الْمَنَابِرِ يَعْلَمُ
فَبَيْنَا هُمُو فِي عَيْشِهِمْ وَسُرُورِهِمْ وَأَرْزَاقُهُمْ تَجْرِي عَلَيْهِمْ وَتُقْسَمُ
إِذَا هُمْ بِنُورٍ سَاطِعٍ أَشْرَقَتْ لَهُ بِأَقْطَارِهَا الْجَنَاتُ لَا يُتَوَهَّمُ
تَجَلَّى لَهُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ جَهْرَةً فَيَضْحَكُ فَوْقَ الْعَرْش ثُمَّ يُكَلِّمُ
«سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» يَسْمَعُونَ جَمِيعُهُمْ بِآذَانِهِمْ تَسْلِيمَهُ إِذْ يُسَلِّمُ
يَقُولُ: سَلُونِي مَا اشْتَهَيْتُمْ، فَكُلُّ مَا تُرِيدُونَ عِنْدِي إِنَّنِي أَنَا أَرْحَمُ
فَقَالُوا جَمِيعًا: نَحْنُ نَسْأَلُكَ الرِّضَا فَأَنْتَ الَّذِي تُؤْتِي الْجَمِيلَ وَتَرْحَمُ
فَيَا بَائِعًا هَذَا بِبَخْسٍ مُعَجَّلٍ كَأَنَّكَ لَا تَدْرِي بَلَى سَوْفَ تَعْلَمُ
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ وَإِنْ كُنْتَ تَدْرِي فَالْمُصِيبَةُ أَعْظَمُ

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ دَارَ الْأَبْرَارِ. ومَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ يَا سَتَّارُ. وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ دَارِ الْهَوَانِ وَالْبَوَارِ.

اللَّهُمَّ اجْعَلِ التَّقْوَى لَنَا أَرْبَحَ بِضَاعَةٍ. وَلَا تَجْعَلْنَا فِي شَهْرِنَا هَذَا مِنْ أَهْلِ التَّفْرِيطِ وَالْإِضَاعَةِ. وَآمِنْ خَوْفَنَا يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَاجْعَلْنَا فِي رِيَاضِ الْجَنَّاتِ مُتَنَعِّمِينَ. وَأَمِتْنَا عَلَى التَّمَسُّكِ بِهَدْيِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ. وَاحْشُرْنَا مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ. الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ. بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَـابُ الثَّالِـثُ
فِي فَضْلِ هَذَا الشَّهْرِ عَلَى غَيْرِهِ من الشهور

الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي اخْتَصَّ شَهْرَ رَمَضَانَ بِفَضِيلَةِ الصِّيَامِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الشُّهُورِ، وَفَتَحَ فِيهِ أَبْوَابَ الْجِنَانِ بِمَا فِيهَا مِنَ السُّرُورِ وَالْحُبُورِ، وَكَمَّلَهَا بِأَنْوَاعِ الْكَرَامَاتِ وَهَيَّأَهَا لِكُلِّ مُوَحِّدٍ شَكُورٍ، وَأَغْلَقَ فِيهِ أَبْوَابَ النِّيرَانِ، وَأَعَدَّهَا لِكُلِّ مُشْرِكٍ كَفُورٍ، وَرَفَعَ فِيهِ بِعُمُومِ كَرَمِهِ الْعَذَابَ عَنْ أَهْلِ الْقُبُورِ، وَسَلْسَلَ فِيهِ مَرَدَةَ الشَّيَاطِينِ فَكُلٌّ مِنْهُمْ مُسَلْسَلٌ مَأْسُورٌ. وَاسْتَعْبَدَ فِيهِ خُلَاصَةً ارْتَضَاهَا لِخِدْمَتِهِ، وَكَفَّ عَنْ قُلُوبِهِمُ الْحُجُبَ وَالسُّتُورَ، فَنَصَبُوا فِي خِدْمَتِهِ الْأَقْدَامَ. وَلَازَمُوا الصِّيَامَ وَالْقِيَامَ، وَأَنْصَبُوا الْأَبْدَانَ، وَبَادَرُوا الْوَقْتَ وَالزَّمَانَ، وَهَجَرُوا التَّوَانِي وَالْفُتُورَ، عَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ فَقَنَعُوا مِنْهَا بِأَقَلِّ مَيْسُورٍ، وَتَاجَرُوا لِلْآخِرَةِ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ، لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ، وَحَكَمَ عَلَى آخَرِينَ بِالطَّرْدِ، فَآثَرُوا التَّقْصِيرَ وَرَضُوا بِالْقُصُورِ، سَفُلَتْ هِمَمُهُمْ وَدَنَتْ مَطَالِبُهُمْ. فَهِيَ عَلَى جِيَفِ الدُّنْيَا تَدُورُ.

فَسُبْحَانَ مَنْ قَسَّمَ عَطَاءَهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فَهَذَا مَقْبُولٌ وَهَذَا مَرْدُودٌ، وَهَذَا مُوَفَّقٌ لِلْخَيْرِ وَهذَا مَصْدُودٌ، وَهَذَا مَجْبُورٌ وَهَذا مَكْسُورٌ، مَنْ أَقْبَلَ إِلَيْهِ تَلَقَّاهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَمَنْ لَاذَ بِجَنَابِهِ بَلَّغَهُ مَا يُرِيدُ. وَمَنْ شَكَرَهُ عَلَى إِنْعَامِهِ فَقَدْ تَكَفَّلَ بِالْمَزِيدِ، لِأَهْلِ الشُّكْرِ مِنْ صَالِحِ الْعَبِيدِ.

أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ وَهُوَ أَحَقُّ مَحمُودٍ وَأَعْظَمُ مَذْكُورٍ. وَأَشْكُرُهُ تعالى عَلَى نِعَمٍ تَتَجَدَّدُ بِالرَّوَاحِ وَالْبُكُورِ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَدْعُوهُ وَأَسْتَغْفِرُهُ فَهُوَ الْغَفُورُ الشَّكُورُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّه وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ كُلِّ مُشْرِكٍ كَفُورٍ، شَهَادَةً تَنْفَعُ قَائِلَها يَوْمَ النُّشُورِ وَتَرْفَعُهُ فِي غُرَفِ الْجَنَّاتِ وَالْقُصُورِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ داعٍ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَمُحَذِّرٍ مِنَ الشُّرُورِ.

وَأَتْقَى مَنْ صَلَّىٰ وَصَامَ. وَتَهَجَّدَ وَقَامَ. وَامْتَثَلَ الْمَأْمُورَ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعلى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ هُمْ لِلاهْتِدَاءِ نُجُومٌ وَلِلظُّلَمِ بُدُورٌ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ﴾ هَذَا مَدْحٌ مِنَ اللّهِ تَعالَى لِشَهْرِ رَمَضانَ يَمْتَدِحُهُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الشُّهُورِ، بِأَنَّهُ اخْتَارَهُ مِنْ بَيْنِهِنَّ لإِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَكَمَا اخْتَصَّهُ بِذَلِكَ قَدْ وَرَدَ الْحَدِيثُ بِأَنَّهُ الشَّهْرُ الَّذِي كانَتِ الْكُتُبُ الإِلَهِيَّةُ تَنْزِلُ فِيهِ عَلَى الأَنْبِياءِ كَمَا وَرَدَ ذَلِكَ فِي مُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ، وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعالَى، وَكَذَلِكَ اخْتَصَّهُ اللّهُ بِالصِّيَامِ وَمُضَاعَفَةِ الأُجورِ وَالأَعْمَالِ، وَفِي مَعْنَى إِنْزَالِ الْقُرْآنِ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ أُنْزِلَ فِي شهْرِ رَمَضَانَ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِلى بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيا وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، ثُمَّ أُنْزِلَ نُجُومًا مُفَرَّقًا بَعْدَهُ بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

الثَّانِي: أُنزِلَ الْقُرْآنُ بِفَرْضِ صِيَامِهِ.

الثَّالِثُ: أُنزِلَ بِفَضْلِهِ الْقُرْآنُ.

الرَّابِعُ: ابْتُدِىءَ فِيهِ بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ هُدًى لِلنَّاسِ، أَيْ بَيَانًا لَهُمْ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ. الْبَيِّنَاتُ هِيَ الآيَاتُ الْوَاضِحَاتُ.

فَلِلَّهِ دَرُّ هَذَا الشَّهْرِ كمْ فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ الْجَمَّةِ وَالْخَيْرَاتِ الْعَظِيمَةِ لِهَذِهِ الأُمَّةِ وَفِي حَدِيث سَلْمَانَ «أَنَّهُ شَهْرٌ أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ وَأَوْسَطُهُ مَغْفِرَةٌ وَآخِرُهُ عِتْقٌ مِن النَّارِ»، فَأَوَّلُ هَذَا الشَّهْرِ رَحْمَةٌ. وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ ٱلصَّحِيحِ «أَنَّهُ تُفَتَّحُ فِيهِ أَبْوَابُ ٱلرَّحْمَةِ» وَهِيَ لِلْمُحْسِنِينَ ٱلْمُتَّقِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فَيُفَاضُ عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ فِي أَوَّلِ ٱلشَّهْرِ خِلَعُ ٱلرَّحْمَةِ وَٱلرِّضْوَانِ، وَيُعَامَلُ أَهْلُ ٱلإِحْسَانِ بِالْفَضْلِ وَالإِحْسَانِ، وَهُوَ شَهْرُ الصَّبْرِ وَثَوَابُهُ

الْجَنَّةُ وَيُزَادُ فِيهِ بِرِزْقِ الْمُؤْمِنِ وَتُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجِنَانِ، وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ النِّيرَانِ. وَيُصَفَّدُ فِيهِ كُلُّ مَارِدٍ وَشَيْطَانٍ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ.

وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ لِخَازِنِ الْجِنَانِ: «يَا رِضْوَانُ، افْتَحْ أَبْوَابَ الْجِنَانِ. وَيَا مَالِكُ أَغْلِقْ أَبْوَابَ الْجَحِيمِ عَنِ الصَّائِمِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ. يَا جِبْرِيلُ اهْبِطْ إِلَى الْأَرْضِ فَاصْفِدْ مَرَدَةَ الشَّيَاطِينِ وَغُلَّهُمْ بِالْأَغْلَالِ، ثُمَّ اقْذِفْهُمْ فِي الْبِحَارِ حَتَّى لَا يُفْسِدُوا عَلَى أُمَّةِ حَبِيبِي مُحَمَّدٍ ﷺ صِيَامَهُمْ. قَالَ: وَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ سُؤْلَهُ. هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ مَنْ يُقْرِضُ الْمَلِيَّ غَيْرَ الْعَدُومِ، وَالْوَفِيَّ غَيْرَ الظَّلُومِ؟ قَالَ: وَلِلَّهِ ﷻ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ عِنْدَ الْإِفْطَارِ أَلْفُ أَلْفِ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ كُلُّهُمْ قَدِ اسْتَوْجَبُوا النَّارَ، فَإِذَا كَانَ آخِرُ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ أَعْتَقَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِقَدْرِ مَا أَعْتَقَ مِنْ أَوَّلِ الشَّهْرِ إِلَى آخِرِهِ ـ وَسَاقَ الْحَدِيثَ» وَقَدْ رَوَاه بَعْضُهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ مَنْ أُجْمِعَ عَلَى تَضْعِيفِهِ.

إِخْوَانِي: طُوبَى لِعَبْدٍ تَنَبَّهَ مِنْ رُقَادِهِ. وَبَالَغَ فِي حِذَارِهِ. وَأَخَذَ مِنْ زَمَانِهِ بِأَيْدِي بِدَارِهِ. وَأَعْذَرَ فِي الْأَمْرِ قَبْلَ شَيْبِ عَذَارِهِ. وَلَمْ يَرْضَ مِنَ الزَّادِ بِقَلِيلِهِ وَاخْتِصَارِهِ. فَيَا أَيُّهَا الْغَافِلُ عَنْ فَضِيلَةِ هَذَا الشَّهْرِ اعْرَفْ زَمَانَكَ. يَا كَثِيرَ الْحَدِيثِ فِيمَا يُؤْذِي احْفَظْ لِسَانَكَ، يَا مَسْئُولًا عَنْ أَعْمَالِهِ اعْقِلْ شَأْنَكَ، يَا مُتَلَوِّثًا بِالزَّلَلِ اغْسِلْ بِالتَّوْبَةِ مَا شَانَكَ. يَا مَكْتُوبًا عَلَيْهِ كُلُّ قَبِيحٍ تَصَفَّحْ دِيوَانَكَ. هَذَا شَهْرُ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ. هَذَا مَوْسِمُ الْخَيْرَاتِ لِأَهْلِ الْاغْتِنَامِ، شَهْرُ مُضَاعَفَةِ الْحَسَنَاتِ. شَهْرُ إِقَالَةِ الْعَثَرَاتِ. فِيهِ تُفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَوَاتِ. وَتَرْتَفِع فِيهِ

الْأَصْوَاتُ بِالدَّعَوَاتِ. وَتُشْرِفُ الْحُورُ الْعِينُ مِنَ الْجَنَّاتِ. يَبْتَغِينَ الْأَزْوَاجَ مِنْ أَهْلِ الطَّاعَاتِ، فَطُوبَى لِمَنْ تَلَقَّاهُ بِعَمَلٍ صَالِحٍ، وَطَهَّرَ فِيهِ الْجَوَارِحَ مِنَ الْآثَامِ وَالْمَعَاصِي وَالْقَبَائِحِ، لَعَلَّهُ يَحْظَى فِيهِ بِالْقَبُولِ وَالْفَوْزِ بِالْجَنَّاتِ.

هَذَا - عِبَادَ اللّهِ - شَهْرٌ اخْتَصَّهُ اللّهُ مِنْ بَيْنِ الشُّهُورِ. وَأَعْظَمَ فِيهِ الْقَلِيلَ مِنَ الْأَعْمَالِ بِمُضَاعَفَةِ الْأُجُورِ. فَمَا لَكَ لَا تُشَمِّرُ فِيهِ إِلَى مَعَالِي الْأُمُورِ .تَاللّهِ إِنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ لَا يُشْبِهُ الشُّهُورَ.

شِعْرٌ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ... وَلَاقَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا

نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَمِثْلِهِ ... وَأَنَّكَ لَمْ تَرْصُدْ كَمَا كَانَ أَرْصَدَا

وَقَدِ امْتَنَّ اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ﴾ فَهَذِهِ نِعْمَةٌ مِنَ اللّهِ تَفَضَّلَ بِهَا عَلَى خَلْقِهِ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ مَرِيضًا أَوْ مُسَافِرًا فَإِنَّهُ يُفْطِرُ وَيَقْضِيهِ فِي عِدَّةِ أَيَّامٍ أُخَرَ، فَيُبَاحُ لِلْمُسَافِرِ الْفِطْرُ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الصَّوْمِ أَخْذًا بِرُخْصَةِ اللّهِ ﷻ، وَإِنْ صَامَ فَلَا بَأْسَ وَأَجْزَأَهُ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الْمَرِيضُ وَالْحَامِلُ وَالْمُرْضِعُ إِذَا خَافَتَا عَلَى أَنْفُسِهِمَا أَفْطَرَتَا وَقَضَتَا، وَعَلَى وَلَدَيْهِما تَقْضِيَانِ وَتُطْعِمَانِ لِكُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا، فَإِذَا كانَ الْمُكَلَّفُ صَحِيحًا مُقِيمًا فَإِنَّهُ يَلْزَمُهُ الصَّوْمُ حَتْمًا، وَعَلَيْهِ الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ إِنْ أَفْطَرَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ .فَلِلَّهِ الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ.

فَسُبْحَانَ مَنِ افْتَرَضَ صِيَامَ شَهْرِ رَمَضَانَ عَلَى أُمَّةِ الْإِسْلَامِ. وَحَبَاهُمْ بِالْفَضْلِ والْإِحْسَانِ. وَخَصَّهُمْ فِيهِ بِالْعِتْقِ مِنَ النِّيرَانِ. وَجَعَلَهُ صِحَّةً لِلْأَبْدَانِ، وَمَطْهَرَةً لِلْقَلْبِ وَاللِّسَانِ. مِنَ الذُّنُوبِ وَالْعِصْيَانِ. وَأَنْزَلَ فِيهِ عَلَى سَيِّدِ الْبَشَرِ. تَرْخِيصًا فِي الصَّوْمِ لِمَنْ أَصَابَهُ مَرَضٌ أَوْ ضَرَرٌ ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾.

عِبَادَ اللّهِ: قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنَ التِّجَارَةِ الرَّابِحَةِ مَنْ أَوْسَعَ لَكُمْ مَوَاسِمَهَا.

وَيَسَّرَ لَكُمْ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ مَنْ بَيَّنَ لَكُمْ مَعَالِمَها، وَرَغَّبَكُمْ فِي الْخَيراتِ مَنْ وَفَّرَ مَغَانِمَها. وَدَعَاكُمْ إِلَى رَفِيعِ الدَّرَجاتِ مَنْ مَنحَكُمْ كَرَائِمَها، فاحْمَدُوا اللّهَ تَعالَى عَلَى مَا أَعْطَاكُمْ مِنْ نِعْمَةِ الإِسْلَامِ، وَخَصَّكُمْ بِنَبِيِّ الرَّحْمَةِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

شِعْر:

فَحَافِظْ عَلى شَهْرِ الصِّيَام فَإِنَّهُ لَخَامِسُ أَرْكَانٍ لِدِينِ مُحَمَّدِ

تُغَلَّقُ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ إِذَا أَتَى وَتُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجِنَانِ لِمُسْعَدِ

وَيُرْتَفَعُ عَنْ أَهْلِ الْقُبُورِ عَذَابُهُمْ وَيُصْفَدُ فِيهِ كُلُّ شَيْطَان مُعْتَدِ

وَيُبْسَطُ فِيهِ الرِّزْقُ لِلْخَلْقِ كُلِّهَا وَيَسْهُلُ فِيهِ فِعْلُ كُلِّ التَّعَبُّدِ

تُزَخْرَفُ جَنَّاتُ النَّعِيمِ وَحُورُهَا لِأَهْلِ الرِّضَى فِيهِ وَأَهْلِ التَّهَجُّدِ

وَقَدْ خَصَّهُ اللّهُ الْكَرِيمُ بِلَيْلَةٍ عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ فُضِّلَتْ فَلْتُرَصَدِ

فَقُمْ لَيْلَهُ وَاقْطَعْ نَهَارَكَ صَائِمًا وَصُنْ صَوْمَهُ عَنْ كُلِّ مُوْهٍ وَمُفْسِدِ

فَصْلٌ

قالَ فِي اللَّطَائِفِ: لَمَّا أُهْبِطَ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ بَكَى عَلَى تِلْكَ الْمَعَاهِدِ - فِيمَا يُرْوَى - ثَلاثَمِائَةِ عَامٍ. وَحَقَّ لَهُ ذَلِكَ. كانَ فِي دَارٍ لَا يَجُوعُ فِيهَا وَلَا يَعْرَى، وَلَا يَظْمَأُ فِيهَا وَلَا يَضْحَى، فَلَمَّا نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ أَصَابَهُ ذَلِكَ كُلُّهُ. وَكَانَ إِذَا رَأَى جِبْرِيلَ عليه السلام يَتَذَكَّرُ بِرُؤْيَتِهِ تِلْكَ الْمَعَاهِدَ، فَيَشْتَدُّ بُكاؤُهُ حَتَّى يَبْكِي جِبْرِيلُ عليه السلام لِبُكائِهِ، وَيَقُولَ لَهُ: مَا هَذَا الْبُكاءُ يا آدَمُ؟ فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَا أَبْكِي وَقَدْ أُخْرِجْتُ مِنْ دَارِ النِّعْمَةِ إِلَى دَارِ الْبُؤْسِ؟ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ وَلَدِهِ: لَقَدْ آذَيْتَ أَهْلَ الْأَرْضِ بِبُكائِكَ. فَقالَ: إِنَّما أَبْكِي عَلَى أَصْوَاتِ الْمَلَائِكَةِ حَوْلَ الْعَرْشِ. وَفِي رِوَايَةٍ قالَ: إِنَّما أَبْكِي عَلَى جِوَارِ رَبِّي فِي دَارٍ تُرْبَتُها طَيِّبَةٌ، أَسْمَعُ فِيهَا أَصْوَاتَ الْمَلَائِكَةِ. وَفِي رِوَايَةٍ قالَ: أَبْكِي عَلَى دَارٍ لَوْ رَأَيْتَهَا لَزهِقَتْ نَفْسُكَ شَوْقًا إِلَيْهَا.

وَرُوِيَ أَنَّهُ قالَ لِوَلَدِهِ: كُنَّا نَسْلًا مِنْ نَسْلِ السَّمَاءِ، خُلِقْنَا كَخَلْقِهِمْ،

وغُذِّينا بِغِذَائِهِمْ، فَسَبَانَا عَدُوُّنَا إِبْلِيسُ فَلَيْسَ لَنَا فَرَحٌ وَلَا رَاحَةٌ إِلَّا الْهَمَّ وَالْعَنَاءَ حَتَّى نُرَدَّ إِلَى الدَّارِ الَّتِي أُخْرِجْنَا مِنْهَا.

شِعْر:

فَحَيِّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّها مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ
وَلَكِنَّنَا سَبْيُ الْعَدُوِّ فَهَلْ تُرَى نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلِّمُ

لَمَّا الْتَقَى آدم وَمُوسَى عليهما السلام، عَاتَبَ مُوسَى آدَمَ عَلَى إِخْرَاجِهِ نَفْسَهُ وَذُرِّيَّتَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فاحْتَجَّ آدَمُ بِالْقَدَرِ السَّابِقِ. وَالاحْتِجَاجُ بِالْقَدَرِ عَلَى الْمَصَائِبِ حَسَنٌ، كَما قالَ ﷺ: «إِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا، قُلْ: قَدَّرَ اللّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ».

شِعر:

وَاللّهِ لَوْلا سَابِقُ الأَقْدَارِ لَمْ تَبْعُدْ قَطُّ دارُكُمْ عَنْ دَارِي
مِنْ قَبْلِ النَأْيِ جِزْيَةَ الْمِقْدَارِ هَلْ يَمْحُو الْعَبْدُ مَا قَضَاهُ الْبَارِي

لَمَّا ظَهَرَتْ فَضَائِلُ آدَمَ عليه السلام عَلَى الْخَلَائِقِ، بِسُجُودِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ، وَتَعْلِيمِهِ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَإِخْبَارِهِ الْمَلَائِكَةَ بِهَا وَهُمْ يَسْتَمِعُونَ لَهُ كاسْتِمَاعِ الْمُتَعَلِّمِ مِنْ مُعَلِّمِهِ، حَتَّى أَقَرُّوا بِالْعَجْزِ عَنْ عِلْمِهِ، وَأَقَرُّوا لَهُ بِالْفَضْلِ. وَأُسْكِنَ هُوَ وَزَوْجَتُهُ الْجَنَّةَ: ظَهَرَ الْحَسَدُ مِنْ إِبْلِيسَ، وَسَعَى فِي الأَذَى - وَمَا زَالَتِ الْفَضَائِلُ إِذَا ظَهَرَتْ تُحْسَدُ - فَمَا زَالَ يَحْتَالُ عَلَى آدَمَ حَتَّى تَسَبَّبَ فِي إِخْرَاجِهِ مِنَ الْجَنَّةِ. وَمَا فَهِمَ الأَبْلَهُ أَنَّ آدَمَ إِذَا خَرَجَ مِنْهَا كَمُلَتْ فَضَائِلُهُ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْجَنَّةِ عَلَى أَكْمَلَ مِنْ حَالِهِ الأَوَّلِ. إِنَّما أَهْلَكَ إِبْلِيسَ الْعُجْبُ بِنَفْسِهِ، وَلِذَلِكَ قالَ ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ وَإِنَّما كَمُلَتْ فَضَائِلُ آدَمَ بِاعْتِرَافِهِ عَلَى نَفْسِهِ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

شِعر:

وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أَتاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ   مَا كانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ

احْذَرُوا هَذَا الْعَدُوَّ الَّذِي أَخْرجَ أَباكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، فَإِنَّهُ سَاعٍ فِي مَنْعِكُمْ مِنَ الْعَوْدِ إِلَيْها بِكُلِّ سَبِيلٍ، وَالْعَدَاوَةُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ قَدِيمَةٌ، فَإِنَّهُ مَا أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ وَطُرِدَ عَنِ الْخِدْمَةِ، إِلَّا بِسَبَبِ تَكَبُّرِهِ عَلَى أَبِيكُمْ وَامْتِنَاعِهِ مِنَ السُّجُودِ لَهُ لَمَّا أُمِرَ بِهِ، وَقَدْ أُبْلِسَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَأَيِسَ مِنَ الْعَوْدِ إِلَى الْجَنَّةِ وَتَحَقَّقَ خُلُودَهُ فِي النَّارِ، فَهُوَ يَجْتَهِدُ عَلَى أَنْ يُخَلِّدَ مَعَهُ فِي النَّارِ بَنِي آدَمَ، وَقَدْ حَذَّرَكُمْ مَوْلَاكُمْ مِنْهُ، وَقَد أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ. فَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾.

الْعَجَبُ مِمَّن عَرفَ رَبَّهُ ثُمَّ عَصَاهُ! وَعَرَفَ الشَّيْطَانَ ثُمَّ أَطَاعَهُ، قَالَ تَعالَى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾.

شِعْر:

رَعَى اللّهُ مَنْ نَهْوَى وَإِنْ كانَ مَا رَعَى   حَفِظْنَا لَهُ الْعَهْدَ الْقَدِيمَ فَضَيَّعَا

وَصَاحَبْتَ قَوْمًا كُنْتُ أَنْهاكَ عَنْهُمُ   وَحَقِّكَ مَا أَبْقَيْتَ لِلصُّلْحِ مَوْضِعَا

يَا مَنْ مَعَاصِيهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى. يَا مَنْ رَضِيَ أَنْ يُطْرَدَ وَيُقْصَى. يَا دَائِمَ الزَّلَلِ وَكَمْ يُنْهَى وَيُوصَى. يَا جَهُولًا بِقَدْرِنا وَمِثْلُنَا لَا يُعْصَى. أَرْضٌ حُرِمَتِ الْمَطَرَ فَنَفْعُها قَلِيلٌ. قَلْبٌ حُرِمَ الْإِيمَانَ فَمَوْتُهُ طَوِيلٌ. بَدَنٌ لَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْإِسْلَامِ عُرْيانٌ ذَلِيلٌ. لِسَانٌ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَهُوَ كَلِيلٌ. عَامِلٌ لَا يَجِدُ التَّوْفِيقَ فالْعَمَلُ مِنْهُ مُسْتَحِيلٌ. مُذْنِبٌ لَا تُدْرِكُهُ الرَّحْمَةُ فَهُوَ حَقِيرٌ ذَلِيلٌ، فَإِذَا رَأَيْتَ أَرْضًا مَيْتَةً، فاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ تعالَى لَمْ يُرْسِلْ إِلَيْها رَحْمَتَهُ. وَإِذَا رَأَيْتَ قَلْبًا غَافِلًا عَنِ النِّيَّةِ وَالْإِحْسَانِ، فاعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ آثَارُ الْإِيمَانِ. وَإِذَا رَأَيْتَ بَدَنًا يَتَهاوَنُ فِي أَدَاءَ الْمَكْتُوبَةِ فاعْلَمْ أَنَّ آثَارَ الْإِسْلَامِ عَنْهُ مَحْجُوبَةٌ. وَإِذَا رَأَيْتَ حامِلَ الْقُرْآنِ مُصِرًّا عَلَى الْعِصْيَانِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْحِرْمَانِ وَالْخِذْلَانِ، يَلْعَنُهُ فِي قَلْبِهِ نُورُ الْقُرْآنِ. وَإِذَا رَأَيْتَ إِنْسَانًا مَصْرُوفًا عَنِ التَّحْقِيقِ، فاعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ

يَصِلْ إِلَيْهِ أَثَرُ التَّوْفِيقِ. وَإِذَا رَأَيْتَ عَبْدًا مُلازِمًا لِلْجَفَاءِ، مُفَرِّطًا فِي الوَفاءِ، فَأَيْنَ بَرَكَةُ اتِّباعِ المُصْطَفَى؟

قالَ بَعْضُ السَّلَفِ: آدَمُ أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ، وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ الذُّنُوبَ وَتُكْثِرُونَ مِنْهَا وَتُرِيدُونَ أَنْ تَدْخُلُوا بِهَا الْجَنَّةَ.

قالَ:

تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي ... دَرَجَ الْجِنَانِ بِهَا وَفَوْزَ الْعَابِدِ
وَنَسِيتَ أَنَّ اللّهَ أَخْرَجَ آدَمًا ... مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدِ

اللَّهُمَّ يَا جَابِرَ كَسْرِ الْمُنْكَسِرِينَ، وَيَا مُغِيثَ الْمَلْهُوفِينَ وَالْمُسْتَغِيثِينَ، نَسْأَلُكَ أَنْ تُقَابِلَ إِسَاءَتَنا بِإِحْسَانِكَ، وَتَقْصِيرَنَا بِعَفْوِكَ وَامْتِنَانِك.

اللَّهُمَّ سَلِّمْنا مِنْ نُفُوسِنَا الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ أَعْدَائِنا، اُمْنُنْ عَلَيْنا بِالتَّوْفِيقِ بِعَمَلٍ إِلَيْكَ يُقَرِّبُنا، وَأَتْمِمْ عَلَيْنَا يَا مَوْلَانا مَا بِهِ أَكْرَمْتَنَا، وَأَدِمْ عَلَيْنا إِحْسَانَكَ كَمَا عَوَّدْتَنَا، فَها نَحْنُ عَبِيدُكَ قَدْ أَلْقَيْنا نُفُوسَنَا بَيْنَ يَدَيْكَ، وَطَمِعْنَا بِحُسْنِ وَعْدِكَ وَجَمِيلِ رِفْدِكَ فِيمَا لَدَيْكَ.

اللَّهُمَّ نَزِّهْ قُلُوبَنا عَنِ التَّعَلُّقِ بِمَنْ دُونَكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ قَوْمٍ تُحِبُّهُمْ وَيحِبُّونَكَ، وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الرَّابِعُ
فِي فَضْلِ أَوْقَاتِهِ الشَّرِيفَةِ وَمَا لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ

الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي شَهِدَتْ بِوُجُودِهِ آياتُهُ الْبَاهِرَةُ، وَدَلَّتْ عَلَى كَرَمِهِ وَجُودِهِ نِعَمُهُ الْبَاطِنَةُ وَالظَّاهِرَةُ، وَسَبَّحَتْ بِحَمْدِهِ الْأَفْلاكُ الدَّائِرَةُ، وَالرِّياحُ السَّائِرَةُ، وَالسُّحُبُ الْمَاطِرَةُ، وَالرِّيَاضُ النَّاضِرَةُ، هُوَ الْأَوَّلُ فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَالآخِرُ

فَإِلَيْهِ الرُّجُوعُ يَوْمَ الْحَشْرِ، وَالظَّاهِرُ فَلَهُ الْحُكْمُ وَالْقَهْرُ، وَالْبَاطِنُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْجَهْرَ. وَالْأَلْسُنُ عَنْ وَصْفِ كِبْرِيائِهِ قاصِرَةٌ. تَحَيَّرَتْ دُونَ صَمَدِيَّتِهِ الْأَلْبَابُ. وَانْقَطَعَتْ عَنْ جَبَرِيَّتِهِ الْأَنْسَابُ، وخَضَعَتْ لِعِزَّتِهِ الرِّقابُ، وَذَلَّتْ لِرُبُوبِيَّتِهِ الْأَرْبابُ، وَأَثْبَتَ مَا قَضَاهُ وَقَدَّرَهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ. فَأَقْدارُهُ فِي بَرِيَّتِهِ سَائِرَةٌ. الْقُدُّوسُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ الصَّمَدُ. الْغَنِيُّ الَّذِي لَا يَضُرُّهُ جُحُودُ مَنْ جَحَدَ. الْعَزِيزُ الَّذِي نَضَّرَ وَجْهَ مَنْ تَذَلَّلَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَسَجَدَ. وَوُجُوهُ الْجَاحِدِينَ وَالْمُشَبِّهِينَ بَاسِرَةٌ. قَرَّبَ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ بِسَاطِ إِفْضَالِهِ، وَلَقَّاهُمُ السُّرُورَ بِيُمْنِ إِقْبالِهِ، وَأَحْيَا قُلُوبَهُمْ بِشُهُودِ جَمَالِهِ، وَعَامَلَهُمْ بِجَزِيلِ نَوَالِهِ، فَهُمْ فِي جَنَّةٍ عَاجِلَةٍ عَاطِرَةٍ. النَّاسُ فِي مِهَادِ الْغَفْلَةِ رُقُودٌ، وَهُمْ بَيْنَ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ، وَأَشْوَاقٍ وَإِمْلَاقٍ وَوُجُودٍ، يَسْأَلُونَ الْمَوْلَى فَيَعْطِفُ وَيَجُودُ. فَبُطُونُهُمْ فِي النَّهَارِ صَائِمَةٌ، وَأَعْيُنُهُمْ فِي ظُلَمِ اللَّيْلِ سَاهِرَةٌ. وَحَجَبَ الْغَافِلِينَ بِحُجُبِ الْحَيَاةِ الْعَاجِلَةِ، فَهِيَ عَنِ النَّظَرِ فِي آلَائِهِ غَافِلَةٌ. وَصَرَفَ أَسْرَارَهُمْ فَهِيَ عَنْ جِبِلِّيَّةِ الْعِرْفَانِ عَاطِلَةٌ، وَحَرَمَهُمْ مِنْ أُنْسِ الْمُنَاجَاةِ وَلَذَّةِ الْمُعَامَلَةِ. وَأَغْشَى بَصَائِرَهُمْ فَهِيَ عَنْ إِبْصَارِ الْحَقِّ غَيْرُ ناظِرَةٍ. وَفَّقَ الْعَامِلِينَ فَقامُوا وَجَهِدُوا، ثُمَّ وَصَلُوا وَنالُوا مَا قَصَدُوا. فَحَطُّوا وَاسْتَرَاحُوا وَحَمِدُوا. فَما أَقَلَّ تَعَبَهُمْ فِي جَنْبِ مَا وَجَدُوا. فَيا سَعَادَتَهُمْ فِي دَارِ الْآخِرَةِ.

فَسُبْحَانَ مَنْ أَعْطَى وَمَنَعَ. وَخَفَضَ وَرَفَعَ. وَفَرَّقَ وَجَمَعَ. وَوَصَلَ وَقَطَعَ. وَبِحِكْمَتِهِ رَبِحَتْ الطَّائِفَةُ الرَّابِحَةُ، وَخَسِرَتْ الطَّائِفَةُ الْخَاسِرَةُ.

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَوْلَاهُ مِنَ النِّعَمِ. وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا كَفَاهُ مِنَ النِّقَمِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلهَ إِلَّا اللّٰهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِلهٌ تَفَرَّدَ بِالْبَقَاءِ وَالْقِدَمِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. وَحَبِيبُهُ وَخَلِيلُهُ، الْمَبْعُوثُ إِلَى كافَّةِ الْأُمَمِ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ. صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ نُجُومِ الْهُدَى الزَّاهِرَةِ. صَلَاةً دَائِمَةً إِلَى يَوْمِ الْوُقُوفِ بِالسَّاهِرَةِ. وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قالَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

يُخْبِرُ تَعالى عَنْ حَالِ الْقَائِمِينَ بِالْكِتَابِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الْمُصَدِّقُ لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، فَقالَ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وَهُمْ هَذِهِ الْأُمَّةُ. ثُمَّ قَسَّمَهُمْ إِلَى ثَلاثَةِ أَنْواعٍ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَهُوَ الْمُفَرِّطُ فِي بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ، الْمُرْتَكِبُ لِبَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَهُوَ الْمُؤَدِّي لِلْوَاجِبَاتِ التَّارِكُ لِلْمُحَرَّمَاتِ وَقَدْ يَتْرُكُ بَعْضَ الْمُسْتَحَبَّاتِ وَيَفْعَلُ بَعْضَ الْمَكْرُوهَاتِ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَهُوَ الْفَاعِلُ لِلْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ التَّارِكُ لِلْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ وَبَعْضِ الْمُبَاحَاتِ.

وَقَدْ رُوِيَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ «إِنَّ السَّابِقَ بِالْخَيْرَاتِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَالْمُقْتَصِدُ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ هُوَ الَّذِي يَجِيءُ بِذُنُوبٍ دُونَ الشِّرْكِ، فَإِذَا نُقُّوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى».

وَقالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْبَاقِرِ ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ قالَ: هُوَ الَّذِي خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا.

وَلَمَّا سُئِلَتْ عَائِشَةُ ﵂ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ـ الآيَة، قَالَتْ لِلسَّائِلِ: يَا بُنَيَّ، هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ. أَمَّا السَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ فَمَنْ مَضَى عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ، وَأَمَّا الْمُقْتَصِدُ فَمَنِ اتَّبَعَ أَثَرَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى لَحِقَ بِهِمْ، وَأَمَّا الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ فَمِثْلِي وَمِثْلُكَ» قالَ: فَجَعَلَتْ نَفْسَهَا ﵂ مَعَنَا. وَهَذَا مِنْهَا مِنْ بابِ الْهَضْمِ وَالتَّوَاضُعِ، وَإِلَّا فَهِيَ مِنْ أَكْبَرِ السَّابِقِينَ بِالْخَيْرَاتِ. لِأَنَّ فَضْلَهَا عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرِو بنْ الْعَاصِ ﵄ قالَ: قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ لَدَعْوَةً ما تُرَدُّ» قالَ الرَّاوِي: سَمِعْتُ عَبْدَ اللّهِ يَقُولُ عِنْدَ فِطْرِهِ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي» رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قالَ: قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ «ثَلاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، يَرْفَعُها اللّهُ فَوْقَ الْغَمَامِ، وَيَفْتَحُ لَها أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ.

وَقَالَ ﷺ: «لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ».

أَمَّا فَرْحَةُ الصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ فَإِنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى الْمَيْلِ إِلَى مَا يُلائِمُها: مِنْ مَطْعَمٍ وَمَشْرَبٍ وَمَنْكَحٍ؛ فَإِذَا مُنِعَتْ مِنْ ذَلِكَ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقاتِ ثُمَّ أُبِيحَ لَهَا فِي وَقْتٍ آخَرَ فَرِحَتْ بِإِبَاحَةِ مَا مُنِعَتْ مِنْهُ، خُصُوصًا عِنْدَ اشْتِدَادِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ فَإِنَّ النُّفُوسَ تَفْرَحُ بِذَلِكَ طَبْعًا، فَإِنْ كانَ ذَلِكَ مَحْبُوبًا لِلّهِ كانَ مَحْبُوبًا شَرْعًا، وَالصَّائِمُ عِنْدَ فِطْرِهِ كَذَلِكَ، فَكَمَا أَنَّ اللّهَ تَعالَى حَرَّمَ عَلَى الصَّائِمِ فِي نَهارِ الصِّيَامِ تناوُلَ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ فَقَدْ أَذِنَ لَهُ فِيهَا فِي لَيْلِ الصِّيَامِ، بَلْ أَحَبَّ مِنْهُ الْمُبَادَرَةَ إِلَى تَناوُلِها فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ وَآخِرِهِ، فَأَحَبُّ عِبَادِهِ إِلَيْهِ أَعْجَلُهُمْ فِطْرًا، وَاللّهُ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ، فالصَّائِمُ تَرَكَ شَهَوَاتِهِ بِالنَّهارِ تَقَرُّبًا إِلَى اللّهِ وَطَاعَةً لَهُ، وَيُبَادِرُ إِلَيْها فِي اللَّيْلِ تَقَرُّبًا إِلَى اللّهِ وَطاعَةً لَهُ، فَمَا تَرَكَها إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّهِ، وَلَا عَادَ إِلَيْها إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّهِ، فَهُوَ مُطِيعٌ لَهُ فِي الْحَالَيْنِ.

وَلِهَذَا نُهِيَ عَنِ الْوِصَالِ فِي الصِّيَامِ، فَإِذَا بَادَرَ الصَّائِمُ إِلَى الْفِطْرِ تَقَرُّبًا إِلَى مَوْلَاهُ، وَأَكَلَ وَشَرِبَ وَحَمِدَ اللّهَ فَإِنَّهُ يُرْجَى لَهُ الْمَغْفِرَةُ أَوْ بُلُوغُ الرِّضْوَانِ، وَفِي الْحَدِيثِ «إِنَّ اللّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْها، وَيَشْرَبُ

الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَرُبَّما اسْتُجِيبَ دُعَاؤُهُ عِنْدَ ذَلِكَ» كما تَقَدَّمَ، وَإِنْ نَوَى بِأَكْلِهِ وَشُرْبِهِ تَقْوِيَةَ بَدَنِهِ عَلَى الْقِيَامِ والصِّيَامِ كانَ مُثَابًا عَلَى ذَلِكَ. كَما أَنَّهُ إِذَا نَوَى بِنَوْمِهِ فِي اللَّيْلِ والنَّهَارِ التَّقَوِّي عَلَى الْعَمَلِ كانَ نَوْمُهُ عِبَادَةً.

وَرَدَ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ «نَوْمُ الصَّائِمِ عِبَادَةٌ» قالَتْ حَفْصَةُ بِنْتُ سِيرِينَ: قالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: «الصَّائِمُ فِي عِبَادَةٍ مَا لَمْ يَغْتَبْ أَحَدًا، وَإِنْ كانَ نائِماً عَلَى فِرَاشِهِ» فَكانَتْ حَفْصَةُ تَقُولُ: «يا حَبَّذَا عِبَادَةٌ وَأَنا نائِمَةٌ عَلَى فِرَاشِي» أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ.

فالصَّائِمُ في لَيْلِهِ ونَهارِهِ في عِبَادَةٍ، ويُسْتَجَابُ دُعَاؤُهُ في صِيَامِهِ وعِنْدَ فِطْرِهِ.

فَهَذَا مَعْنَى فَرَحِ الصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَيَدْخُلُ هَذَا الْفَرَحُ فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

وَلَكِنَّ شَرْطَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ فِطْرُهُ عَلَى حَلَالٍ، فَإِنْ كانَ فِطْرُهُ عَلَى حَرامٍ كان مِمَّنْ صَامَ عَمَّا أَحَلَّ اللّهُ وَأَفْطَرَ عَلَى مَا حَرَّمَ اللّهُ، وَلَمْ يُسْتَجَبْ لَهُ دُعَاءٌ كَما قالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي «الَّذِي يُطِيلُ السَّفَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يا رَبُّ يا رَبُّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» فَهَذَا فَرَحُ الصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ.

وَأَمَّا فَرَحُهُ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ فَهُوَ فَرَحُهُ بِمَا يَجِدُهُ عِنْدَ اللّهِ مِنْ ثَوَابِ الصِّيَامِ مَذْخُورًا لَهُ، فَيَجِدُهُ أَحْوَجَ مَا كانَ إِلَيْهِ، فَإِنَّ اللّهَ لَا يَضِيعُ لَدَيْهِ أَجْرُ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، وَقالَ تَعالَى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ قالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: «إِنَّ ثَوَابَ الصِّيَامِ لا يَأْخُذُهُ الْغُرَمَاءُ فِي الْمَظَالِمِ، بَلْ يَدَّخِرُهُ اللّهُ عِنْدَهُ لِلصَّائِمِ حَتَّى يُدْخِلَهُ بِهِ الْجَنَّةَ» وَعَنْ عِيسَى عليه السلام قالَ: «إِنَّ هَذَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خَزْنَتانِ، فانْظُرُوا مَاذَا تَضَعُونَ فِيهِمَا» فَالأَيَّامُ خَزَائِنُ لِلنَّاسِ مُمْتَلِئَةٌ بِمَا خَزَنُوهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ تُفْتَحُ هَذِهِ الْخَزَائِنُ لِأَهْلِهَا،

فالْمُتَّقُونَ يَجِدُونَ فِي خَزَائِنِهِمْ الْعِزَّ وَالْكَرَامَةَ، وَالْمُذْنِبُونَ يَجِدُونَ فِي خَزَائِنِهِمُ الْحَسْرَةَ وَالنَّدَامَةَ.

شِعْر:

وَخُذْ مِنْ تُقَى الرَّحْمٰنِ أَعْظَمَ جُنَّةٍ ... لِيَوْمٍ بِهِ تَبْدُو عِيَانًا جَهَنَّمُ
وَيُنْصَبُ ذَاكَ الْجِسْرُ مِنْ فَوْقِ مَتْنِهَا ... فَهَاوٍ وَمَخْدُوشٌ وَنَاجٍ مُسَلَّمُ
وَيَأْتِي إِلٰهُ الْعَالَمِينَ لِوَعْدِهِ ... فَيَفْصِلُ مَا بَيْنَ الْعِبَادِ وَيَحْكُمُ
وَيَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ رَبُّكَ حَقَّهُ ... فَيَا بُؤْسَ عَبْدٍ لِلْخَلَائِقِ يَظْلِمُ
وَيُنْشَرُ دِيوَانُ الْحِسَابِ وَتُوضَعُ الْـ ... ـمَوَازِينُ بِالْقِسْطِ الَّذِي لَيْسَ يَظْلِمُ
فَلَا مُجْرِمٌ يَخْشَى ظَلَامَةَ ذَرَّةٍ ... وَلَا مُحْسِنٌ مِنْ أَجْرِهِ ذَاكَ يُهْضَمُ
وَتَشْهَدُ أَعْضَاءُ الْمُسِيءِ بِمَا جَنَى ... كَذَاكَ عَلَى فِيهِ الْمُهَيْمِنُ يَخْتِمُ

فَصْلٌ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ

قالَ اللّٰهُ تَعالَى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ وَقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ وَقالَ جَلّ ذِكْرُهُ: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾ وَقالَ ﷻ: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾﴾ وَقالَ جَلّ مِنْ قائِلٍ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ وقال ﷻ: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ وَقالَ: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ: «قالَ اللّٰهُ ﷻ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. قالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِم.

وَأَخْرَجَ أَبُو عَبْدِ اللّهِ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ ﷺ قالَ: «أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ فَجَاءَتْ أُمُّهُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللّهِ، قَدْ عَلِمْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي فَإِنْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ يَكُنْ غَيْرَ ذَلِكَ تَرَى مَا أَصْنَعُ؟ فَقَالَ: إِنَّها لَيْسَتْ بِجَنَّةٍ وَاحِدَةٍ، إِنَّها جِنَانٌ كَثِيرَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الأَعْلَى».

وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللّهِ غَالِيَةٌ. أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللّهِ الْجَنَّةُ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ اللّهَ يُزَيِّنُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ جَنَّتَهُ وَيَقُولُ: «يُوشِكُ عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ أَنْ يُلْقُوا عَنْهُمُ الْمَؤُونَةَ وَالأَذَى وَيَصِيرُوا إِلَيْكِ» وَكَذَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ «إِنَّ الْجَنَّةَ تُجَدَّدُ وَتُزَيَّنُ مِنَ الْحَوْلِ إِلَى الْحَوْلِ لِدُخُولِ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَتَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي هَذَا الشَّهْرَ مِنْ عِبَادِكَ سُكَّانًا».

إِخْوَانِي: هَذِهِ أَيَّامُ شَهْرِ رَمَضَانَ. هِيَ التَّاجُ عَلَى رَأْسِ الزَّمانِ. وَهِيَ مَغْنَمُ الْخَيْرَاتِ لِذَوِي الإِيمَانِ. هَذِهِ أَيَّامُ الْجُودِ وَالإِحْسَانِ. فانتَبِهْ لِنَفْسِكَ يا وَسْنَانُ. وَسَلِ الْكَرَمَ مِنَ الرَّحْمٰنِ. شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ. يا لَهُ مِنْ وَقْتٍ عَظِيمِ الشَّأْنِ. تَجِبُ حِرَاسَتُهُ عَمَّا شَانَ. وَاغْتِنَامُ فَضَائِلِهِ الْعِظَامِ الْحِسَانِ. فَكَأَنَّكُمْ بِهِ وَقَدْ رَحَلَ وَبَانَ. وَلَا تَبَيَّنَ لَكُمُ الْفُرْقَانُ بَيْنَ الرِّبْحِ وَالْخُسْرَانِ. يا وَاقِفًا فِي مَقَامِ التَّحَيُّرِ. هَلْ أَنْتَ عَلَى عَزْمِ الإِقْدَامِ وَالتَّغَيُّرِ. إِلَى مَتَى تَرْضَى بِالإِخْلَادِ وَالتَّدَيُّرِ فِي مَنْزِلِ الْهَوَانِ؟ عَيْنُكَ مُطْلَقَةٌ فِي الْحَرَامِ. وَلِسَانُكَ مُنْبَسِطٌ فِي الإِجْرَامِ. وَلَيْسَ لِمَوَاسِمِ الرَّحْمَةِ عِنْدَكَ احْتِرَامُ. وَلِأَقْدَامِكَ عَلَى الذُّنُوبِ وَالظُّلَمِ إِقْدَامٌ. وَالْكُلُّ مُثْبَتٌ عَلَيْكَ فِي الدِّيوَانِ. قَلْبُكَ غَائِبٌ فِي صَلَوَاتِكَ. وَفِكْرُكَ جَائِلٌ فِي شَهَوَاتِكَ، وَإِنْ رَكَنَ إِلَيْكَ رَاكِنٌ فِي مُعَامَلَاتِكَ أَعْطَيْتَهُ الْقَلْبَ وَالآذَانَ، تاللّهِ لَوْ عَقَلْتَ حالَكَ، أَو اسْتَحْضَرْتَ سُرْعَةَ

ارْتِحَالِكَ. أَوْ تَصَوَّرْتَ مَصِيرَكَ وَمَآلَكَ، لَبَنَيْتَ مَأْتَمَ الْأَحْزَانِ. سَيَشْهَدُ رَمَضَانُ عَلَيْكَ بِنُطْقِ لِسَانِكَ وَنَظَرِ عَيْنَيْكَ. وَسَيُشَارُ يَوْمَ جَمْعِ الْخَلَائِقِ إِلَيْكَ: شَقِيَ فُلَانٌ أَوْ سَعِدَ فُلَانٌ.

لِلصِّيَامِ آدَابٌ يَجْمَعُهَا حِفْظُ الْقَلْبِ عَنِ الْخَطَرَاتِ، وَاللِّسَانِ عَنْ قَبِيحِ الْمَقَالَاتِ، وَالسَّمْعِ عَنِ اسْتِمَاعِ الْمَحْذُورَاتِ، وَالْجَوْفِ عَنِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَالْجَوَارِحِ عَنْ فِعْلِ الْمَنْهِيَّاتِ. وَالشَّأْنُ فِي حِفْظِ الْعَمَلِ كُلَّ الشَّأْنِ.

عِبَادَ اللَّهِ، هَذَا شَهْرُ رُجُوعِ النُّفُوسِ الْآبِقَةِ. هَذَا شَهْرُ صِيَانَةِ النُّفُوسِ عَنِ الْبِطَالَاتِ وَالْمَآثِمِ اللَّاحِقَةِ. هَذَا شَهْرُ اغْتِنَامِ الْخَيْرَاتِ وَالْمُسَابَقَةِ. فَطُوبَى لِمَنْ تَلَقَّاهُ بِتَوْبَةٍ صَادِقَةٍ. وَشَمَّرَ إِلَى فَضَائِلِهِ بِعَزِيمَةٍ وَاثِقَةٍ، يَطْلُبُ بِهَا الرَّبَّ وَالْجِنَانَ.

يَا مُضَيِّعَ الزَّمَانِ فِيمَا يُنْقِصُ الْإِيمَانَ. يَا مُعْرِضًا عَنِ الْأَرْبَاحِ مُتَعَرِّضًا لِلْخُسْرَانِ. يَا مَنْ كُلَّمَا زَانَ شَانَ. مَا أَرَاكَ فِي رَمَضَانَ إِلَّا كَمَا أَنْتَ فِي جُمَادَى وَشَعْبَانَ. أَمَا ظَهَرَ لَكَ الْفَرْقُ أَمَا بَانَ؟ أَرَضِيتَ بِالْإِبْعَادِ وَالْحِرْمَانِ؟ وَابْتَعْتَ بِالْمَرَابِحِ الْخُسْرَانَ؟ أَمَا يَسُوقُكَ لِلْخَيْرِ مَا يَسُوقُ؟ أَمَا يَعُوقُكَ عَنِ الشَّرِّ مَا يَعُوقُ؟ مَيِّزْ بَيْنَ مَا يَفْنَى وَمَا يَبْقَى تَرَى الْفُرُوقَ. الْأَمْرُ جَلِيٌّ. وَلَكِنْ عَمِيَتِ الْأَعْيُنُ وَصُمَّتِ الْآذَانُ.

شِعْر:

يَا ذَا الَّذِي مَا كَفَاهُ الذَّنْبُ فِي رَجَبٍ ... حَتَّى عَصَى رَبَّهُ فِي شَهْرِ شَعْبَانِ

لَقَدْ أَظَلَّكَ شَهْرُ الصَّبْرِ بَعْدَهُمَا ... فَلَا تُصَيِّرُهُ أَيْضًا شَهْرَ عِصْيَانِ

وَاتْلُ الْكِتَابَ وَسَبِّحْ فِيهِ مُجْتَهِدًا ... فَإِنَّهُ شَهْرُ تَسْبِيحٍ وَقُرْآنِ

فَاحْمِلْ عَلَى جَسَدٍ تَرْجُو النَّجَاةَ لَهُ ... فَسَوْفَ تُضْرَمُ أَجْسَادٌ بِنِيرَانِ

كَمْ كُنْتَ تَعْرِفُ مِمَّنْ صَامَ فِي سَلَفٍ ... مِنْ بَيْنِ أَهْلٍ وَجِيرَانٍ وَإِخْوَانِ

أَفْنَاهُمُ الْمَوْتُ وَاسْتَبْقَاكَ بَعْدَهُمُ ... حَيًّا، فَمَا أَقْرَبَ الْقَاصِي مِنَ الدَّانِي

وَمُعْجَبٍ بِثِيَابِ الْعِيدِ يَقْطَعُهَا فَأَصْبَحَتْ فِي غَدٍ أَثْوَابَ أَكْفَانِ
حَتَّى مَتَى يَعْمُرُ الْإِنْسَانُ مَسْكَنَهُ مَصِيرُ مَسْكَنِهِ قَبْرٌ لِإِنْسَانِ

اللَّهُمَّ يَا مَنْ لَا تَشْتَبِهُ عَلَيْهِ اللُّغَاتُ. وَلَا تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ الْأَصْوَاتُ. وَلَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ ذَوِي الْحَاجَاتِ، عَلَى اخْتِلَافِ اللُّغَاتِ وَتَفَنُّنِ الْمَسْئُولَاتِ. اجْعَلْ مَآلَنَا إِلَى عَالِي الْجَنَّاتِ. وَنَعِّمْنَا بِمَا فِيهَا مِنَ الْكَرَامَاتِ. وَارْفَعْ لَنَا عِنْدَكَ الدَّرَجَاتِ. وَكَفِّرْ عَنَّا السَّيِّئَاتِ.

اللَّهُمَّ اسْلُكْ بِنَا سَبِيلَ الْأَبْرَارِ، واجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ، وامْنُنْ عَلَيْنَا بِالْعَفْوِ والْعِتْقِ مِنَ النَّارِ. وانْظِمْنَا فِي سِلْكِ الْمُتَّقِينَ والْأَخْيَارِ. واغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا ولِوَالِدَيْنَا ولِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ. الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ والْمَيِّتِينَ. بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الْخَامِسُ
فِي صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ وَفَضْلِ تلَاوةِ الْقُرْآنِ

الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَصْبَحَتْ لَهُ الْوُجُوهُ ذَلِيلَةً عَانِيَةً. وَحَذِرَتْهُ النُّفُوسُ مُجِدَّةً وَمُتَوَانِيَةً، وَوَعَظَ مِنْ أَثَرِ الدُّنْيَا الْحَقِيرَةِ الْفَانِيَةِ عَلَى الدَّارِ الشَّرِيفَةِ الْبَاقِيَةِ. وَشَوَّقَ إِلَى جَنَّةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ. وَأَعَدَّهَا لِأَهْلِ الْهِمَمِ الْعَالِيَةِ. وَأَوْدَعَهَا مِنْ وَاسِعِ فَضْلِهِ جَزِيلَ الْهِبَاتِ. الغَنِيُّ الَّذِي غَمَرَ الْعِبَادَ بِفَضْلِهِ. وَخَابَ وَخَسِرَ مَنْ عَامَلَهُ بِعَدْلِهِ. وَتَفَرَّدَ بِكَمَالِ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ. وَتَقَدَّسَ فِي كَمَالِهِ عَنْ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقَاتِ. لَهُ الْكَمَالُ وَالدَّوَامُ، وَالْعِزُّ الَّذِي لَا يُرَامُ، وَهُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي لَا يَنَامُ، وَالْعَالِي بِقَدْرِهِ وَقَهْرِهِ وَذَاتِهِ فَوْقَ جَمِيعِ الْمُكَوَّنَاتِ. أَحَاطَ عِلْمًا بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ. وَنَفَذَ بَصَرُهُ جَمِيعَ الْمُبْصَرَاتِ. وَوَسِعَ سَمْعُهُ جَمِيعَ الْأَصْوَاتِ، فَلَا تَشْتَبِهُ عَلَيْهِ السُّؤَالَاتُ مَعَ اخْتِلَافِ اللُّغَاتِ. كُلُّ غَنِيٍّ إِلَيْهِ فَقِيرٌ، وَكُلُّ جَبَّارٍ إِلَيْهِ كَسِيرٌ. وَكُلُّ عَسِيرٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ. وَبَابُهُ مَفْتُوحٌ لِذَوِي الْفَاقَاتِ

وَإِغَاثَةِ اللَّهفَاتِ. الَّذِي عَلَّمَ وَأَلْهَمَ، وَأَنْعَمَ وَأَكْرَمَ، وَحَكَمَ وَأَحْكَمَ، وَأَوْجَبَ وَأَلْزَمَ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

فَسُبْحَانَ مَنْ نَوَّرَ بِمَعْرِفَتِهِ قُلُوبَ أَحْبَابِهِ. وَطَهَّرَ سَرَائِرَهُمْ فَتَنَعَّمُوا بِخِطَابِهِ، وَرَفَعَ لَهُمُ الدَّرَجَاتِ. وَأَبْعَدَ أَقْوَامًا بِعَدْلِهِ فَقَطَعَهُمْ عَنْ بَابِهِ. وَصَدَّهُمْ عَنْ مَعْرِفَتِهِ فَعَذَّبَهُمْ بِحِجَابِهِ. فَغَرِقُوا فِي بُحُورِ الْغَفَلَاتِ. يَا خَيْبَةَ مَنْ لَمْ يُؤَيِّدْهُ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ، يَا حَسْرَةَ مَنْ لَمْ يَقْبَلْهُ الْمَلِكُ الْعَظِيمُ. يَا مُصِيبَةَ مَنْ فَاتَهُ هَذَا الْجُودُ الْعَمِيمُ. يَا رَزِيَّةَ مَنْ سَمِعَ هَذَا الْعِتَابَ وَهُوَ عَلَى خَطَايَاهُ مُقِيمٌ. وَيَا فَضِيحَةَ مَنْ لَمْ يَسْتَحِ مِنْ مَوْلَاهُ فِي الْخَلَوَاتِ.

أَحْمَدُهُ عَلَى فَضْلِهِ الْكَثِيرِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى سَوَابِغِ نِعَمِهِ الْمُتَوَافِرَاتِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَٰهِيَّتِهِ وَمَا لَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ. أَرْجُو بِهَا النَّجَاةَ مِنْ نَارٍ بَعِيدَةِ الدَّرَكَاتِ، وَأُؤَمِّلُ بِهَا مِنْ كَرَمِهِ رَفِيعَ الْقُصُورِ فِي الْجَنَّاتِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَسَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَالْهَادِي إِلَى طُرُقِ الْخَيْرَاتِ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أُولِي الْفَضَائِلِ وَالْكَرَامَاتِ. وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾.

قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂ لِرَجُلٍ: «لَا تَدَعْ قِيَامَ اللَّيْلِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ لَا يَدَعُهُ. وَكَانَ إِذَا مَرِضَ ـ أَوْ قَالَتْ: كَسِلَ ـ صَلَّى قَاعِدًا».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرَغِّبُ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِعَزِيمَةٍ ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ ﵂ «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ لَيْلَةً فَصَلَّى فِي الْمَسْجِدِ وَصَلَّى رِجَالٌ بِصَلَاتِهِ فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا، فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ فَصَلَّوْا مَعَهُ،

فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا فَكَثُرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ مِنَ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى فَصَلَّوْا بِصَلَاتِهِ، فَلَمَّا كانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ الْمَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ حَتَّى خَرَجَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ، فَلَمَّا قَضَى الْفَجْرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مَكانُكُمْ، وَلَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا».

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ وَصَدْرًا مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ الْقَارِي: «خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه لَيْلَةً فِي رَمَضَانَ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ، وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلَاتِهِ الرَّهْطُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أَرَى لَوْ جَمَعْتُ هَؤُلَاءِ عَلَى قَارِئٍ وَاحِدٍ لَكانَ أَمْثَلَ، ثُمَّ عَزَمَ فَجَمَعَهُمْ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلَاةِ قَارِئِهِمْ، قَالَ عُمَرُ: نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ، وَالَّتِي يَنَامُونَ عَنْهَا أَفْضَل مِنَ الَّتِي يَقُومُونَ إِلَيْهَا، يُرِيدُ آخِرَ اللَّيْلِ، وَكَانَ النَّاسُ يَقُومُونَ أَوَّلَهُ» هَذَا لَفْظُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مِنْ رِوَايَاتِهِ.

اعْلَمْ أَنَّ صَلاَةَ التَّرَاوِيحِ سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ فِي رَمَضَانَ سَنَّهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَتْ مُحْدَثَةً لِعُمَرَ، بَلْ صَلَّاهَا النَّبِيُّ ﷺ بِأَصْحَابِهِ ثُمَّ تَرَكَهَا خَشْيَةَ أَنْ تُفْتَرَضَ، وَهِيَ مِنْ أَعْلَامِ الدِّينِ الظَّاهِرَةِ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْلِسُونَ بَعْدَ كُلِّ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ يَسْتَرِيحُونَ. ذَكَرَ ذَلِكَ عُلَمَاءُ الْمَذْهَبِ، وَهِيَ عِشْرُونَ رَكْعَةً يُسَلِّمُ مِنْ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ، وَفِعْلُهَا جَمَاعَةً أَفْضَلُ كَمَا جَعَلَ عُمَرُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ إِمَامًا، وَكَمَا جَعَلَ عَلِيٌّ لِلرِّجَالِ إِمَامًا وَلِلنِّسَاءِ إِمَامًا، فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهَا.

فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَمَعَ أَهْلَهُ وَأَصْحَابَهُ وَقَالَ: «إِنَّ مَنْ قَامَ

مَعَ الْإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَوَقْتُهَا بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ، وَسُنَّتُهَا يَبْتَدِؤُهَا أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ وَيَقْرَأُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مَا تَيَسَّرَ إِلَى أَنْ يَخْتِمَ الْقُرْآنَ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي الَّتِي تُرْجَى فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ اغْتِنَامًا لِلْقَبُولِ، فَهَذِهِ عَادَةُ السَّلَفِ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، فَمَنْ أَمْكَنَهُ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ فِي ذَلِكَ، فَلْيُشَمِّرْ وَلَا يُقَصِّرْ، فَإِنَّ الْخَيْرَ غَنِيمَةٌ ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾.

ثُمَّ إِنَّه يَنْبَغِي لِلْإِمَامِ أَنْ يُرَاعِيَ صَلَاتَهُ وَلْيَحْذَرْ مِنَ التَّخْفِيفِ الْمُفْرِطِ الَّذِي يَعْتَادُهُ كثِيرٌ مِنَ الْجَهَلَةِ فِي صَلَاتِهِمْ لِلتَّرَاوِيحِ، حَتَّى رُبَّمَا يَقَعُونَ بِسَبَبِهِ فِي الْإِخْلَالِ بِشَيْءٍ مِنَ الْوَاجِبَاتِ، مِثْلِ تَرْكِ الطُّمَأْنِينَةِ فِي الرُّكوعِ وَالسُّجُودِ، وَتَرْكِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ بِسَبَبِ الْعَجَلَةِ، فَيَصِيرُ أَحَدُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ لَا هُوَ صَلَّى فَفَازَ بِالثَّوَابِ، وَلَا هُوَ تَرَكَ فَاعْتَرَفَ بِتَقْصِيرِهِ وَسَلِمَ مِنَ الْإِعْجَابِ، فَاحْذَرُوا مِنْ ذَلِكَ وَتَنَبَّهُوا لَهُ يَا مَعْشَرَ الْإِخْوَانِ، وَإِذَا صَلَّيْتُمُ التَّرَاوِيحَ وَغَيْرَهَا مِنَ الصَّلَوَاتِ فَأَتِمُّوا الْقِيَامَ وَالْقِرَاءَةَ وَالرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ وَالْأَرْكَانَ، وَلَازِمُوا الْخُشُوعَ وَالْحُضُورَ وَالْآدَابَ، وَلَا تَجْعَلُوا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا، ذَكَرَ مَعْنَى ذَلِكَ فِي النَّصَائِحِ الدِّينِيَّةِ.

فَالْوَاجِبُ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ تَعَالَى وَيَخَافَهُ فِي الْمَأْمُومِينَ لِأَنَّ اللَّهَ مُسْتَرْعِيهِ عَلَيْهِمْ، وَعَلَى الْمَأْمُوم إِذَا كانَ إِمَامُهُ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ فَإِنَّهُ يُنَاصِحُهُ، فَإِنْ أَبَى فَلْيُصَلِّ مَعَ إِمَامٍ غَيْرِهِ يُقِيمُ الصَّلَاةَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ خَرَجَ إِلَى السُّوقِ وَاشْتَرَى مِنْ آخَرَ طَعَامًا وَطَفَّفَ لَهُ فِي الْكَيْلِ، فَإِنَّهُ إِذَا عَلِمَ بِذَلِكَ لَمْ يَكْتَلْ مِنْهُ إِنَّمَا يَذْهَبُ إِلَى غَيْرِهِ، يَذْهَبُ إِلَى إِنْسَانٍ يُعْطِيهِ حَقَّهُ، فَهَذَا مِيزَانُ الدُّنْيَا، فَكَيْفَ بِمِيزَانِ الدِّينِ وَالْأَعْمَالِ؟ نَرْجُو أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَمُنَّ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُم بِاتِّبَاعِ شَرْعِهِ وَأَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ وَحَظْرِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾.

كانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ رَحْمَةُ اللّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ لَهُمْ أَخْبَارٌ فِي الصَّلَاةِ.

فَرُوِيَ عَنْ أُوَيْسٍ الْقَرَنِيِّ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ: لَأَعْبُدَنَّ اللّهَ عِبَادَةَ الْمَلَائِكَةِ، فَيَقْطَعُ لَيْلَةً قَائِمًا وَلَيْلَةً رَاكِعًا وَلَيْلَةً سَاجِدًا.

وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ يَسْجُدُ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ سَجْدَةٍ فَسُمِّيَ السَّجَّادَ.

وَكانَ كُرْزُ بْنُ وَبَرَةَ يَعْصِبُ رِجْلَيْهِ بِالْخِرَقِ لِكَثْرَةِ صَلَاتِهِ، هَذِهِ وَاللّهِ صِفَاتُ الْمُجْتَهِدِينَ، هَذِهِ خِصَالُ الْمُبَادِرِينَ، فَاعْلَمُوا بِالْحَالِ، وَلَا تَكُونُوا مُفَرِّطِينَ.

هَذَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ يَخْتِمُ الْقُرْآنَ فِي رَكْعَةٍ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ، وَيَبْكِي حَتَّى فَسَدَتْ عَيْنَاهُ، وَكَانَ ﷺ يَخْتِمُ الْقُرْآنَ فِيمَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ فِي رَمَضَانَ.

وَهَذَا الرَّبِيعُ بْنُ خَيْثَم كَانَ إِذَا سجَدَ فَكَأَنَّهُ ثَوْبٌ مَطْرُوحٌ، فَتَجِيءُ الْعَصَافِيرُ فَتَقَعُ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ أُمُّهُ تُنَادِيهِ: يَا رَبِيعُ، أَلَا تَنَامُ؟ فَيَقُولُ: يَا أُمَّهْ، مَنْ جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَهُوَ يَخَافُ السَّيِّئَاتِ حَقَّ لَهُ أَلَّا يَنَامَ. فَلَمَّا بَلَغَ وَرَأَتْ مَا يَلْقَى مِنَ الْبُكَاءِ وَالسَّهَرِ نَادَتْهُ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ، لَعَلَّكَ قَتَلْتَ قَتِيلًا؟ قَالَ: نَعَمْ يَا وَالِدَةُ، قَدْ قَتَلْتُ قَتِيلًا، فَقَالَتْ: وَمَنْ هَذَا الْقَتِيلُ يَا بُنَيَّ حَتَّى نَتَحَمَّلَ إِلَى أَهْلِهِ فَيَغْتَفِرَكَ؟ وَاللّهِ لَوْ يَعْلَمُونَ مَا تَلْقَى مِنَ السَّهَرِ وَالْبُكَاءِ بَعْدُ لَقَدْ رَحِمُوكَ، فَقَالَ: يا وَالِدَةُ، هِيَ نَفْسِي.

وَكانَ مُسْلِمُ بْنُ يَسَارٍ لَا يَلْتَفِتُ فِي صَلَاتِهِ. وَلَقَدِ انْهَدَمَتْ نَاحِيَةٌ مِنَ الْمَسْجِدِ فَفَزِعَ لَهَا أَهْلُ السُّوقِ فَمَا الْتَفَتَ، وَكانَ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلَهُ سَكَتَ أَهْلُ بَيْتِهِ، فَإِذَا قامَ يُصَلِّي تَكَلَّمُوا وَضَحِكُوا، عِلْمًا مِنْهُمْ بِأَنَّ قَلْبَهُ مَشْغُولٌ عَنْهُمْ. وَكانَ يَقُولُ: إِلٰهِي مَتَى أَلْقَاكَ وَأَنْتَ عَنِّي رَاضٍ.

شِعْر:

لِلّهِ سَاهِرُ لَيْلِهِ مَا يَهْجَعُ وَجِلَ الْفُؤَادِ مِنَ الذُّنُوبِ مُصَدَّعُ

يَبْكِي بِدَمْعٍ سَاكِبٍ هَفَوَاتِهِ وَاللَّيْلُ فِي جِلْبَابِهِ مُتَبَرْقِعُ
نَدَمًا عَلَى مَا كَانَ مِنْ عِصْيَانِهِ مَلِكًا تَذِلُّ لَهُ الْمُلُوكُ وَتَخْضَعُ
يَا رَبِّ، ما لِلذَّنْبِ غَيْرُكَ غَافِرٌ وَإِلَيْكَ مِنْهُ يَا إِلٰهِي الْمَفْزَعُ
يَا رَبِّ، عَبْدُكَ ضَارِعٌ فاغْفِرْ لَهُ مَا لَمْ يَزَلْ يَدْعُوكَ فِيهِ وَيَضْرَعُ

فَصْلٌ: فِي فَضْلِ تِلاوَةِ الْقُرْآنِ

عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قالَ: قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللّهِ أَوْصِنِي، قالَ: عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الْأَرْضِ، وَذُخْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ مِنْ حَدِيثٍ طَوِيلٍ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آناءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَعَنْهُ أَيْضًا قالَ: قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ، يَقُولُ: يَا وَيْلِي، أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجه.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ. وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِها؛ لَا أَقُولُ: أَلَم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

اعْلَمْ أَنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ أَشْرَف الْأَذْكارِ، لِأَنَّ فَضْلَ كَلَامِ اللّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللّهِ عَلَى خَلْقِهِ. فَاللَّائِقُ بِالصَّائِمِ أَنْ يَكُونَ شِعَارُهُ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ. وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ إِذَا صَامُوا جَلَسُوا فِي الْمَسَاجِدِ وَقالُوا: نَحْفَظُ صَوْمَنَا وَلَا نَغْتَابُ أَحَدًا.

وكانَ هَدْيُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ: أَنَّهُ كانَ يُرَتِّلُهُ وَلَا يَهُذُّهُ هَذًّا وَلَا عَجَلَةً، بَلْ قِرَاءَةً مُفَسَّرَةً حَرْفًا حَرْفًا. وَكانَ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً، كانَ يَمُدُّ عِنْدَ حُرُوفِ الْمَدِّ؛ فَيَمُدُّ الرَّحْمٰنِ، وَيَمُدُّ الرَّحِيمِ. وَكانَ يَسْتَعِيذُ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فِي أَوَّلِ قِرَاءَتِهِ فَيَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» وَرُبَّما كانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ» وَكانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ نائِمًا وَقاعِدًا وَمُضْطَجِعًا وَمُتَوَضِّئًا وَمُحْدِثًا. وَلَمْ يَكُنْ يَمْنَعُهُ مِنْ قِرَاءَتِهِ إِلَّا الْجَنَابَةُ. وَكانَ يَسْتَمِعُ لِقِرَاءَةِ أَصْحَابِهِ، كَما أَمَرَ عَبْدَ اللّٰهِ بْنَ مَسْعُودٍ فَقَرَأَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَسْمَعُ، وَخَشَعَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ لِسَمَاعِ الْقُرْآنِ مِنْهُ حَتَّى ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، وَكَذَلِكَ اسْتَمَعَ لِقِرَاءَةِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ. وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللّٰهُ ذِكْرُ آدَابِ الْقِرَاءَةِ وَفَضْلُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ.

وَرُوِيَ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ ﷺ قالَ: «كانُوا ـ يَعْنِي: السَّلَفَ ـ يُحِبُّونَ أَنْ يُخْتَمَ الْقُرْآنُ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، أَوْ مِنَ النَّهَارِ».

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قالَ: «إِذَا وَافَقَ خَتْمُ الْقُرْآنِ أَوَّلَ اللَّيْلِ صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُمْسِيَ».

فَيُسْتَحَبُّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَخْتِمَ فِي الشِّتَاءِ أَوَّلَ اللَّيْلِ، وَفِي الصَّيْفِ أَوَّلَ النَّهَارِ، لِيَحُوزَ صَلَاةَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِ.

قالَ طَلْحَةُ بْنُ مُصَرِّفٍ: أَدْرَكْتُ أَهْلَ الْخَيْرِ مِنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَسْتَحِبُّونَ الْخَتْمَ أَوَّلَ اللَّيْلِ وَأَوَّلَ النَّهَارِ، يَقُولُونَ: إِذَا خَتَمَ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِذَا خَتَمَ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ، صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُصْبِحَ.

يَا غَائِبًا فِي صَلَاتِهِ، يَا شَتِيتَ الْهَمِّ فِي جِهَاتِهِ، يَا مَشْغُولًا بِأَنَاتِهِ عَنْ ذِكْرِ وَفَاتِهِ، يَا قَلِيلَ الزَّادِ مَعَ قُرْبِ مَمَاتِهِ، لَقَدْ رَبِحَ الْقَوْمُ وَأَنْتَ نَائِمٌ. وَخِبْتَ وَرَجَعُوا بِالْغَنَائِمِ، بِاللَّيْلِ رَاقِدٌ وَبِالنَّهَارِ هَائِمٌ. وَغَايَةُ مَا تَشْتَهِي مُشَارَكَةُ الْبَهَائِمِ.

سُبْحَانَ مَنْ قَوَّمَهُمْ وَأَصْلَحَهُمْ. وَعَامَلُوهُ بِالْيَسِيرِ فَأَرْبَحَهُمْ؛ وَقَدْ أَثْنَى عَلَيْهِمْ وَمَدَحَهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ اغْتَنَمَ الْقَوْمُ الأَيَّامَ، وَاجْتَنَبُوا الْخَطَايَا وَالآثَامَ، وَصَمَتُوا عَنْ رَدِيءِ الْكَلامِ، وَصُمُّوا عَنِ اسْتِمَاعِ الْحَرَامِ، فَكَأَنَّهُمْ مَا يَسْمَعُونَ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ كَفُّوا الأَكُفَّ عَنِ الْفَسَادِ، وَهَجَرَتِ الرُّؤُوسُ الْوِسَادَ، وَحَضَرَ الْقَلْبُ لِلْمُناجَاةِ وَانْقَادَ، وَأَنْتُمْ فِي سُكْرِ الرُّقادِ، وَهُمْ يَسْجُدُونَ وَيَرْكَعُونَ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾.

شِعْر:

يَا غَادِيًا فِي غَفْلَةٍ وَرَائِحًا ... إِلَى مَتَى تَسْتَحْسِنُ الْقَبَائِحَا
وَكَمْ إِلَى كَمْ لَا تَخَافُ مَوْقِفًا ... يَسْتَنْطِقُ اللَّهُ بِهِ الْجَوَارِحَا
واعَجَبًا مِنْكَ وَأَنْتَ مُبْصِرٌ ... كَيْفَ تَجَنَّبْتَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَا
وَكَيْفَ تَرْضَى أَنْ تَكُونَ خَاسِرًا ... يَوْمَ يَفُوزُ مَنْ كانَ رَابِحَا

يَا مَشْغُولًا بِاللَّهْوِ وَالْهَذَيانِ، مُعْرِضًا عَنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ: سَتَدْرِي مَنْ يَنْدَمُ يَوْمَ نَصْبِ الْمِيزَانِ، اسْتَدْرِكْ مَا قَدْ فاتَ فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَقُمْ فِي الأَسْحَارِ، فَلِلسَّحَرِ مَعَ الرَّحْمَةِ شَانٌ، وَسَلِ الْعَفْوَ عَمَّا سَلَفَ وَكانَ، وَنادِ فِي نادِي الذُّلِّ: يَا صَاحِبَ الإِحْسَانِ.

شِعْر:

لَكَ الْحَمْدُ يَا ذَا الْجُودِ وَالْمَجْدِ وَالْعُلَى ... تَبارَكْتَ تُعْطِي مَنْ تَشَاءُ وَتَمْنَعُ
إِلهِي وَخَلَّاقِي وَسُؤْلِي وَمَوْئِلِي ... إِلَيْكَ لَدَى الإِعْسَارِ وَالْيُسْرِ أَفْزَعُ
إِلٰهِي لَئِنْ خَيَّبْتَنِي وَطَرَدْتَنِي ... فَمَنْ ذَا الَّذِي أَرْجُو وَمَنْ ذَا أُشَفِّعُ
إِلٰهِي لَئِن أَعْطَيْتُ نَفْسِي سُؤَالَهَا ... فَهَا أَنَا فِي رَوْضِ النَّدَامَةِ أَرْتَعُ
إِلٰهِي تَرَى حَالِي وَفَقْرِي وَفاقَتِي ... وَأَنْتَ مُنَاجَاتِي الْخَفِيَّةَ تَسْمَعُ
إِلٰهِي فَلَا تَقْطَعْ رَجَائِي وَلَا تُزِغْ ... فُؤَادِي فَلِي فِي سَيْبِ جُودِكَ مَطْمَعُ

إِلٰهِي أَجِرْنِي مِنْ عَذَابِكَ إِنَّنِي أَسِيرٌ ذَلِيلٌ خَائِفٌ لَكَ أَخْضَعُ
إِلٰهِي لَئِنْ جَلَّتْ وَجَمَّتْ خَطِيئَتِي فَعَفْوُكَ مِنْ ذَنْبِي أَجَلُّ وَأَوْسَعُ

اللَّمَّ أَنْتَ الْمَدْعُوُّ بِكُلِّ لِسَانٍ، وَالْمَقْصُودُ فِي كُلِّ آنٍ، نَسْأَلُكَ فَأَنْتَ الْمَعْرُوفُ بِالْإِحْسَانِ، أَلَّا تَرُدَّنَا خَائِبِينَ، وَلَا مِنْ عَطَايَاكَ مُفْلِسِينَ، وَلَا عَنْ بَابِكَ مَطْرُودِينَ، وَآمِنَّا مِنْ فَزَعِ يَوْمِ الدِّينِ.

اللَّهُمَّ اعْصِمْنَا مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَعَافِنَا فِي الدَّارَيْنِ مِنَ المِحَنِ، فَها نَحْنُ بِبَابِكَ وَاقِفُونَ، وَإِلَيْكَ مُتَوَجِّهُونَ، فَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ. وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ السَّادِسُ
فِي فَضْلِ صِيَامِ رَمَضَانَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَعَ الشَّرَائِعَ وَأَحْكَمَ الْأَحْكَامَ، وَخَصَّ شَهْرَ رَمَضَانَ مِنْ بَيْنِ الشُّهُورِ بِفَرِيضَةِ الصِّيَامِ، وَبَيَّنَ الْحَلَالَ وَحَرَّمَ الْحَرَامَ، وَاحْتَجَبَ فِي هَذِهِ الدَّارِ عَنْ سَائِرِ مَخْلُوقَاتِهِ، الْمُتَفَرِّدِ بِاخْتِرَاعِ الْكَوْنِ وَإِيجَادِهِ. الْمُتَصَرِّفِ فِي خَلْقِهِ بِمَحْضِ مَشِيئَتِهِ وَوَفْقِ مُرَادِهِ، وَالْمُحِيطِ عِلْمُهُ بِسَائِرِ بَرِيَّاتِهِ. نَبَّهَ مَنْ شَاءَ مِنَ الْعِبَادِ مِنْ غَفْلَتِهِ وَرُقَادِهِ، فَأَيْقَنَ أَنَّهُ مُسَافِرٌ إِلَى اللَّهِ فَكَانَ هَمُّهُ إِعْدَادَ زَادِهِ، وَحَكَمَ عَلَى مَنْ شَاءَ بِطَرْدِهِ وَإِبْعَادِهِ، فَصَرَفَ هِمَّتَهُ لِلْعَاجِلَةِ وَاشْتَغَلَ عَنْ حَشْرِهِ وَمَعَادِهِ. وَكَانَ هَمُّهُ فِي نَيْلِ شَهَوَاتِهِ. الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ جَلِيلُ الْكَوْنِ وَلَا حَقِيرُ ذَرَّاتِهِ، الْمُتَفَضِّلُ الَّذِي اخْتَصَّ بِالتَّفْضِيلِ وَالتَّشْرِيفِ بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَوْدَعَ فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ حِكَمِهِ وَبَدَائِعِ مَصْنُوعَاتِهِ، مَا شَهِدَتِ الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ بِأَنَّهُ مِنْ أَكْبَرِ آيَاتِهِ. خَلَقَ فَقَدَّرَ، وَمَلَكَ فَدَبَّرَ، وَشَرَعَ فَيَسَّرَ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ، أَهَّلَ مَنْ شَاءَ لِمَا شَاءَ

مِنَ الْخَيْرَاتِ، وَيَسَّرَ لَهُ أَسْبَابَ الْكَرَامَاتِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوَاضِعِ اخْتِيَارِهِ وَكَرَامَاتِهِ.

فَسُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الْفَضَائِلَ بَيْنَ خَلْقِهِ فَهَذَا فَضِيلٌ وَهَذَا مَفْضُولٌ، وَهَذَا مَطْرُودٌ وَهَذَا مَقْبُولٌ، وَهَذَا قَدْ رُمِيَ بِالْإِبْعَادِ وَالْخِذْلَانِ، وَهَذَا قَدْ قَرُبَ مِنْ مَوْلَاهُ بِغَايَةِ الْقُرْبِ وَالْإِمْكَانِ. وَأَقَامَ الْحُجَّةَ بِإِرْسَالِ رُسُلِهِ وَإِنْزَالِ آيَاتِهِ.

أَحْمَدُهُ وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى جَمِيعِ أَقْضِيَتِهِ وَتَدْبِيرَاتِهِ. وَأَشْكُرُهُ عَلَى جَزِيلِ إِحْسَانِهِ وَعَظِيمِ هِبَاتِهِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّٰهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلٰهِيَّتِهِ وَكَمالَاتِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَشْرَقَ الْكَوْنُ بِنُورِ رِسَالَاتِهِ بَعْدَ ظُلُمَاتِهِ. وَانْتَظَمَ بِهِ شَمْلُ الْإِسْلَامِ بَعْدَ شَتَاتِهِ، صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُ عَلَى دِينِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَمُوَالَاتِهِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللّٰهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ يَقُولُ تَعالَى مُخَاطِبًا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَآمِرًا لَهُمْ بِالصِّيَامِ. وَهُوَ الْإِمْسَاكُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْوِقَاعِ، بِنِيَّةٍ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ وَمَعْنَى كُتِبَ: فُرِضَ، فَإِنَّ اللّٰهَ تَعالَى فَرَضَ صِيَامَ رَمَضَانَ عَلَى أُمَّةِ الْإِسْلَامِ، فالصَّوْمُ هُوَ الْإِمْسَاكُ عَنْ أَشْيَاءَ مَخْصُوصَةٍ بِنِيَّةٍ فِي زَمَنٍ مُعَيَّنٍ. مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ الثَّانِي إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ.

صَوْمُ رَمَضَانَ أَحَدُ أَرْكانِ الْإِسْلَامِ وَفُرُوضِهِ، وَهُوَ الرُّكْنُ الرَّابِعُ. فُرِضَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ. فَصَامَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ تِسْعَ رَمَضَانَ.

وَلَمَّا كانَ الْمَقْصُودُ مِنَ الصِّيَامِ حَبْسَ النَّفْسِ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَفَطْمَهَا عَنِ الْمَأْلُوفاتِ، وَتَعْدِيلَ قُوَّتِها الشَّهْوَانِيَّةِ، لِتَسْعَدَ بِطَلَبِ مَا فِيهِ غَايَةُ سَعَادَتِها وَنَعِيمِهَا وَقَبُولَ مَا تَزْكُو بِهِ مِمَّا فِيه حَيَاتُها الْأَبَدِيَّةُ، وَيَكْسِرُ الْجُوعُ وَالظَّمَأُ مِنْ حِدَّتِها وَسَوْرَتِها. وَيُذَكِّرُهَا الْأَكْبَادَ الْجَائِعَةَ مِنَ الْمَسَاكِينِ. وَيُضَيِّقُ مَجَارِيَ الشَّيْطَانِ مِنَ الْعَبْدِ بِتَضْيِيقِ مَجَارِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَحَبْسِ قُوَى النَّفْسِ عَنِ

اسْتِرسَالِها فِيمَا يَضُرَّهَا فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا، وَيُسَكِّنُ كُلَّ عُضْوٍ مِنْهَا وَكُلَّ قُوَّةٍ عَنْ جِمَاحِهِ، وَتُلْجَمُ بِلِجَامِهِ فَهُوَ لِجَامُ الْمُتَّقِينَ، وَجُنَّةُ الْمُجَاهِدِينَ. وَرِياضَةُ الْأَبْرَارِ وَالْمُقَرَّبِينَ. وَهُوَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَعْمَالِ. فَإِنَّ الصَّائِمَ إِنَّما تَرَكَ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِ مَعْبُودِهِ، فَهُوَ تَرْكُ مَحْبُوباتِ النَّفْسِ وَتَلَذُّذَاتِها إِيثَارًا لِمَحَبَّةِ اللّهِ وَمَرْضَاتِهِ. وَهُوَ سِرٌّ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّه. وَالْعِبَادُ قَدْ يَطَّلِعُونَ مِنْهُ عَلَى تَرْكِ الْمُفْطِرَاتِ الظَّاهِرَةِ.

وَأَمَّا كَوْنُهُ تَرَكَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِ مَعْبُودِهِ فَهُوَ أَمْرٌ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ بَشَرٌ. وَذَلِكَ حَقِيقَةُ الصِّيَامِ. وَلِلصَّوْمِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي حِفْظِ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ، وَالْقُوَى الْبَاطِنَةِ، فالصَّوْمُ يَحْفَظُ عَلَى الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ صِحَّتَهَا. وَيُعِيدُ إِلَيْها مَا اسْتَلَبَتْهُ مِنْهَا أَيْدِي الشَّهَوَاتِ، فَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى التَّقْوَى.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ مَصَالِحَ الصَّوْمِ لَمَّا كانَتْ مَشْهُودَةً بِالْعُقُولِ السَّلِيمَةِ. وَالفِطَرِ الْمُسْتَقِيمَةِ: شَرَعَهُ اللّهُ لِعِبَادِهِ رَحْمَةً لَهُمْ. وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ، وَالصَّوْمُ شَاقٌّ عَلَى النُّفُوسِ لِأَنَّهَا بِهِ تَنْفَطِمُ عَنِ الشَّهَوَاتِ. وَيُبَاعِدُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَلْذُوذَاتِ، فَلِأَجْلِ ذَلِكَ تَأَخَّرَ فَرْضُهُ إِلَى وَسَطِ الْإِسْلَامِ. لِتَنْتَقِلَ النُّفُوسُ إِلَيْهِ بِالتَّدْرِيجِ.

شِعْر:

نَسِيمَ الصَّبَا إِنْ زُرْتَ أَرْضَ أَحِبَّتِي ... فَخُصَّهُمُ عَنِّي بِكُلِّ سَلَامِ
وَبَلِّغْهُمُ أَنِّي رَهِينُ صَبَابَةٍ ... وَأَنَّ غَرَامِي فَوْقَ كُلِّ غَرَامِ
وَإِنِّي لَيَكْفِينِي طُرُوقُ خَيَالِهِمْ ... لَوَ أَنَّ جُفُونِي مُتِّعَتْ بِمَنَامِ
وَلَسْتُ أُبالِي بِالْجِنَانِ وَلَا لَظَى ... إِذَا كَانَ فِي تِلْكَ الدِّيارِ مُقَامِي
وَقَدْ صُمْتُ عَنْ لَذَّاتِ دَهْرِيَ كُلِّهَا ... وَيَوْمُ لِقَاكُمْ ذَاكَ فِطْرُ صِيَامِي

عَنْ سهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَلَهُما أَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ قامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِيِّ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَمَنْ قامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ».

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ قالَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَعَرَفَ حُدُودَهُ وَتَحَفَّظَ مَا يَنْبَغِي له أَنْ يَتَحَفَّظَ: كَفَّرَ مَا قَبْلَهُ» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْبَيْهَقِي.

وَقَوْلُهُ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا» أَيْ: نِيَّةً وَعَزِيمَةً، وَهُوَ أَنْ يَصُومَهُ عَلَى التَّصْدِيقِ وَالرَّغْبَةِ فِي ثَوَابِهِ طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ، غَيْرَ كارِهٍ وَلَا مُسْتَثْقِلٍ لِصِيامِهِ، وَلَا مُسْتَطِيلٍ لِأَيَّامِهِ، لَكِنْ يَغْتَنِمُ طُولَ أَيَّامِهِ لِعِظَمِ الثَّوَابِ. فَعَلَيْكُمْ عِبادَ اللّهِ بِإِخْلَاصِ الصِّيَامِ، وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ. وَأَدِيمُوا لَهُ الصِّيَامَ وَالْقِيَامَ. وَبَادِرُوا أَوْقاتَ الْفَضَائِلِ بِالاغْتِنَامِ، وَاتْبَعُوا هَدْيَ نَبِيِّكُمْ عليه السلام.

أَخْرَجَ أَبُو يَعْلَى وَالطَّبَرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «إِنَّ الْجَنَّةَ لَتُزَيَّنُ مِنَ الْحَوْلِ إِلَى الْحَوْلِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَإِنَّ الْحُورَ لَتُزَيَّنُ مِنَ الْحَوْلِ إِلَى الْحَوْلِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ؛ فَإِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ قالَتِ الْجَنَّةُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي فِي هَذَا الشَّهْرِ مِنْ عِبادِكَ سُكَّانًا، وَتَقُولُ الْحُورُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَنَا فِي هَذَا الشَّهْرِ مِنْ عِبادِكَ أَزْوَاجًا تَقَرُّ أَعْيُنُنَا بِهِمْ وَتَقَرُّ أَعْيُنُهُمْ بِنَا».

قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «مَنْ صَانَ نَفْسَهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ لَمْ يَشْرَبْ فِيهِ مُسْكِرًا، وَلَمْ يَقْذِفْ فِيهِ مُؤْمِنًا بِبُهْتَانٍ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ خَطِيئَةً زَوَّجَهُ اللّهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِائَةَ حَوْرَاءَ، وَبَنَى لَهُ قَصْرًا فِي الْجَنةِ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَيَاقُوتٍ وَزَبَرْجَدٍ، لَوْ أَنَّ الدُّنْيا كُلَّهَا جُعِلَتْ فِي ذَلِكَ الْقَصْرِ لَكانَتْ مِنْهُ كَمَرْبَطِ عَنْزٍ فِي الدُّنْيا».

يَا مَنْ طُولَ سَنَتِهِ قَدْ نَامَ، انْتَبِهْ لِهَذِهِ الْأَيَّامِ، وَاحْذَرْ غَفْلَةَ الطَّغَامِ، وَخُذْ

قَدْرَ الْبُلْغَةِ مِنَ الطَّعَامِ، وَاسْمَعْ قَوْلَ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾. يَا مَرِيضًا لَا يَقْبَلُ مِنْ طَبِيبِهِ، هَذَا شَهْرُ الْحَمِيَّةِ قَدْ جَاءَ لِتَهْذِيبِهِ، صُنْ لِسَانَكَ عَنِ اللَّغْوِ وَلَا تَهْذِي بِهِ «فالصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ» وَلَكِنْ أَيْنَ الصِّيَامُ؟ هَذَا شَهْرُ عِمَارَةِ الْمِحْرَابِ. هَذَا زَمَانُ حُضُورِ الْبَابِ. هَذَا وَقْتُ تِلَاوَةِ الْكِتَابِ. وَلِلْمُتَّقِينَ فِيهِ عَلَى الْبَابِ كُلَّ وَقْتٍ عُكُوفٌ وَزِحَامٌ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾. شَهْرٌ فِيهِ تَكُفُّ النُّفُوسُ، كَأَنَّهَا عَنِ الْمَعَاصِي فِي حُبُوسٍ، وَتَظْمَأُ فِيهِ الْأَكْبَادُ عَنِ الْكُئُوسِ، وَتُطْرِقُ مِنَ الْخَشْيَةِ الرُّءُوسُ عَنِ النَّظَرِ الْحَرَامِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾. شَهْرٌ فِيهِ تُمْلَأُ الْمَسَاجِدُ، وَيَخْشَعُ فِيهِ الرَّاكِعُ وَالسَّاجِدُ، وَيَنْهَضُ إِلَى الْخَيْرِ كُلُّ قَاعِدٍ. وَيَصِيرُ الرَّاغِبُ كَالزَّاهِدِ مِنْ قِلَّةِ الطَّعَامِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ فِيهِ تُغَلُّ الشَّيَاطِينُ، فِيهِ يُعْرَفُ قَدْرُ الدِّينِ، فِيهِ يَتَشَبَّهُ الْمُسِيءُ بِالْمُحْسِنِينَ، وَبِالْكَبِيرِ الْغُلَامُ. شَهْرُ التَّرَاوِيحِ. شَهْرُ التَّعَبُّدِ وَالْمَتْجَرِ الرَّبِيحِ. شَهْرُ الْأَنْوَارِ وَالْمَصَابِيحِ. شَهْرٌ يُتْرَكُ فِيهِ الْقَبِيحُ، وَتُهْجَرُ الذُّنُوبُ وَالْآثَامُ. فِيهِ تَرِقُّ الْقُلُوبُ، فِيهِ تُغْفَرُ الذُّنُوبُ، وَتَتَجَافَى عَنِ الْمَضَاجِعِ الْجُنُوبُ. فَتَجْفُو لَذِيذَ الْمَنَامِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾.

شِعْر:

فَما لِي بَعِيدَ الدَّارِ لَمْ أَقْرُبِ الْحِمَى ... وَقَدْ نُصِبَتْ لِلسَّائِرِينَ خِيَامُ

عَلَامَةُ طَرْدِي طُولَ لَيْلِي نَائِمٌ ... وَغَيْرِي يَرَى أَنَّ الْمَنَامَ حَرَامُ

فَصْلٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾.

تَقَدَّمَ حَدِيثُ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِهِ قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «فِي الْجَنَّةِ ثَمانِيَةُ أَبْوَابٍ فِيهَا بابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانُ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ، لَا يَدْخُلُ مَعَهُمْ أَحَدٌ غَيْرَهُمْ يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ، فَإِذَا دَخَلَ آخِرُهُمْ أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ».

وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ قالَ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللّهِ دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَلِلْجَنَّةِ أَبْوَابٌ: فَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بابِ الصَّلَاةِ. وَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بابِ الصِّيَامِ. وَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بابِ الصَّدَقَةِ. وَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بابِ الْجِهَادِ. فَقالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللّهِ، مَا عَلَى أَحَدٍ ضَرُورَةٌ مِنْ أَيِّها دُعِيَ فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْهَا كُلِّهَا؟ قالَ: نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ».

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ أَنَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوضَّأُ فَيُسْبِغُ الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّها شَاءَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ عَنْ عُتْبَةَ بْنِ عَبْدٍ السُّلَمِيِّ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ إِلَّا تَلَقَّوْهُ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمانِيَةِ مِنْ أَيِّها شَاءَ دَخَلَ».

ولَهُ أَيْضًا وَلِلطَّبَرَانِي عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قالَ: قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا. قِيلَ لَها: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ» إِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

فَيَنْبَغِي لِلْمَرْأَةِ الَّتِي تَرْجُو مَا عِنْدَ اللّهِ، وَتَخَافُ مِنْ عَذَابِ اللّهِ وَبَطْشِهِ وَعُقُوبَتِهِ، أَنْ تُحَافِظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ بِكَمَالِ الطَّهَارَةِ، وَأَنْ تُحافِظَ أَيْضًا

عَلَى صِيَامِ رَمَضَانَ وَتَعْرِفَ مَا يَنْبَغِي لِلصَّائِمِ تَرْكُهُ فَتَتْرُكَهُ. وَأَنْ تَحْفَظَ نَفْسَهَا عَنِ الْحَرَامِ وَالْفَسَادِ، فَقَدْ وَرَدَ «أَنَّ أَهْلَ النَّارِ يَتَأَذَّوْنَ مِنْ رِيحِ فُرُوجِ الزُّنَاةِ» وَعَذَابُ الزُّنَاةِ: أَنَّهُمْ يُجْمَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُرَاةً فِي تَنُّورٍ مِنْ نَارٍ، يَتَوَقَّدُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي وَسَطِهِ، يَرْتَفِعُ بِهِمْ وَيَنْخَفِضُ.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَطْلُبَ رِضَاءَ زَوْجِهَا وَتُطِيعَهُ وَلَا تُسْخِطَهُ، وَلَا تُحَمِّلَهُ مَا لَا يُطِيقُهُ مِنَ النَّفَقَاتِ. وَأَلَّا تَطْمَحَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ. فَزَوجُهَا جَنَّتُهَا وَنارُهَا، وَرَدَ «أَيُّما امْرَأَةٍ عَصَتْ زَوْجَهَا فَعَلَيْهَا لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» فَمَنْ أَرَادَ دُخُولَ الْجَنَّةِ فَلْيَأْتِ بِأَعْمَالٍ تَقْتَضِي ذَلِكَ.

وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ».

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: قِيلَ لِوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ «أَلَيْسَ مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ؟ قالَ: بَلى، وَلَكِنْ لَيْسَ مِنْ مِفْتَاحٍ إِلَّا وَلَهُ أَسْنَانٌ، فَإِنْ جِئْتَ بِمِفْتَاحٍ لَهُ أَسْنَانٌ فُتِحَ لَكَ، وَإِلَّا لَمْ يُفْتَحْ لَكَ».

وَعَنْ عُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ أَنَّهُ خَطَبَ فَقالَ فِي خُطْبَتِهِ: «وَقَدْ ذُكِرَ لَنا أَنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وَأَخْرَجَا فِي الصحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهجَرَ - أَوْ هَجَرَ وَمَكَّةَ» وَفِي لَفْظٍ «لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى».

قالَ الْحَسَنُ: بَكَى آدَمُ عليه السلام حِينَ أُهْبِطَ مِنَ الْجَنَّةِ مِائَةَ عَامٍ، حَتَّى جَرَتْ أَوْدِيَةُ سَرَنْدِيبَ مِنْ دُمُوعِهِ. فَأَنْبَتَ اللّهُ بِذَلِكَ الْوَادِي مِنْ دُمُوعِ آدَمَ الدَّارْصِينِيَ وَالْفُلْفُلَ. ثُمَّ إِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أَتاهُ وَقالَ: يا آدَمُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ فَقَدْ غُفِرَ لَكَ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ أَتَى الْبَيْتَ فَطَافَ بِهِ أُسْبُوعًا، فَمَا أَتَمَّهُ حَتَّى خاضَ فِي دُمُوعِهِ».

وَقالَ أَسْبَاط: لَوْ عُدِلَ بُكاءُ أَهْلِ الأَرْضِ بِبُكائِهِ ﷺ كانَ بُكاءُ آدَمَ أَكْثَر.

شِعْر:

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى ... مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى ... وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ

كَمْ لِلّهِ مِنْ لُطْفٍ وَحِكْمَةٍ فِي إِهْبَاطِ آدَمَ إِلَى الأَرْضِ، لَوْلَا نُزُولُهُ لَما ظَهَرَ جِهَادُ الْمُجَاهِدِينَ، وَلَا حَصَلَ اجْتِهَادُ الْمُجْتَهِدِينَ، وَلَا صَعَدَتْ زَفَرَاتُ أَنْفاسِ التَّائِبِينَ، وَلَا نَزَلَتْ قَطَرَاتُ دُمُوعِ الْمُذْنِبِينَ، وَلَا جَاعَتْ أَكْبادُ الصَّائِمِينَ.

يا آدَمُ، إِنْ كُنْتَ أُهْبِطْتَ مِنْ دَارِ الْقُرْبِ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ. إِنْ كانَ حَصَلَ لَكَ بِالإِخْرَاجِ مِنَ الْجَنَّةِ كَسْرٌ فَأَنا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي. إِنْ كانَ فاتَكَ فِي السَّمَاءِ سَمَاعُ زَجْلِ الْمُسَبِّحِينَ، فَقَدْ تَعَوَّضْتَ فِي الأَرْضِ بِسَمَاعِ أَنِينِ الْمُذْنِبِينَ. أَنِينُ الْمُذْنِبِينَ أَحَبُّ إِلَيْنا مِنْ زَجْلِ الْمُسَبِّحِينَ. زَجْلُ الْمُسَبِّحِينَ رُبَّما يَشُوبُهُ الافْتِخَارُ. وَأَنِينُ الْمُذْنِبِينَ يَزِينُهُ الانْكِسَارُ. «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ».

سُبْحَانَ مَنْ مَنَّ عَلَى الأَحْبَاب. وَسَهَّلَ لَهُمُ الأَسْبَابَ. وَأَشْهَدَهُمْ مَا خَفِيَ عَنْ غَيْرِهِمْ وَغَابَ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

اللَّهُمَّ يَا حَبِيبَ التَّائِبِينَ. وَيَا أَنِيسَ الْمُنْقَطِعِينَ. وَيا مَنْ حَنَّتْ إِلَيْهِ قُلُوبُ الصَّادِقِينَ، اجْعَلْنَا مِنْ أَوْلِيَائِكَ الْمُتَّقِينَ، وَحِزْبِكَ الْمُفْلِحِينَ.

اللَّهُمَّ وَآمِنْ خَوْفَنَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَآنِسْ وَحْشَتَنَا فِي الْقُبُورِ، وَيَسِّرْ لَنَا يا إِلٰهَنا الأُمُورَ.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبنا قبْلَ أَنْ تَشْهَدَ عَلَيْنَا الْجَوارِحُ، وَنَبِّهْنَا مِنْ رَقَدَاتِ الْغَفَلاتِ وَسَامِحْنَا فَأَنْتَ الْحَلِيمُ الْمُسَامِحُ، وَعَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا وَانْفَعْنا بِما عَلَّمْتَنا فَمِنْكَ الْفَضْلُ وَالْمَنَائِحُ، وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ السَّابِعُ
فِي فَضْلِ الصِّيَامِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَعْمَالِ

الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي نَوَّرَ بِجَمِيلِ هِدَايَتِهِ قُلُوبَ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَطَهَّرَ بِكَرِيمِ وِلَايَتِهِ أَفْئِدَةَ الصَّادِقِينَ، فَأَسْكَنَ فِيهَا وِدَادَهُ، وَحَرَسَ سَرَائِرَ الْمُؤْمِنِينَ فَطَرَدَ عَنْهَا الشَّيْطَانَ وَذَادَهُ. وَدَعَاهَا إِلَى مَا سَبَقَ لَها مِنْ عِنَايَتِهِ فَأَقْبَلَتْ مُنْقَادَةً. الْحَيُّ الَّذِي تَعَرَّفَ بِأَدِلَّةِ وَحْدَانِيَّتِهِ، فَتَحَقَّقَتْ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ وُجُودَهُ وَوَحْدَانِيَّتَهُ، وَقِدَمَهُ وَبَقَاءَهُ وَانْفِرَادَهُ، الْمَجِيدُ الْمَوْصُوفُ بِالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ والْكَلَامِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ، شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ، وَوَفَّقَ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ لِهَذِهِ الشَّهَادَةِ، الْحَلِيمُ الَّذِي لَا يَعْجَلُ، الْكَرِيمُ الَّذِي لَا يَبْخَلُ، فَقُلُوبُ أَهْلِ الْإِيمَانِ لِأَوَامِرِهِ مُنْقَادَةٌ، الْحَكِيمُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاءَ بِغَيْرِ عَمَدٍ، وَأَسْكَنَ الْأَرْضَ عَلَى الْمَاءِ وَمَهدَ، الْمُنَزَّهُ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَالِدِ وَالْوَلَدِ، الْغَنِيُّ فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى أَحَدٍ، فَكُلُّ مَخْلُوقٍ صَائِرٌ لِما قَضَاهُ عَلَيْهِ وَأَرَادَهُ، وَفَّقَ مَنْ أَرَادَ كَرَامَتَهُ فَأَلْهَمَهُ رَشَادَهُ، وَأَيْقَظَهُ بِحُسْنِ نَظَرِهِ فَتَذَكَّرَ مَعادَهُ، وَيَسَّرَ لَهُ سَبِيلَ طَاعَتِهِ فَحَصَّلَ زَادَهُ. وَتَوَلَّاهُ بِرِعَايَتِهِ فَأَعْطَاهُ أَمَلَهُ وَزَادَهُ، وَخَذَلَ مَنْ شَاءَ بِحُكْمِ قَهْرِهِ فَجَعَلَ حَظَّهُ بِعادَهُ. وَأَدَارَ دَائِرَةَ السَّوْءِ عَلَى مَنْ كَفَرَ بِهِ وَأَبَادَهُ.

فَسُبْحَانَ مَنْ أَعْطَى وَمَنَعَ، وَخَفَضَ وَرَفَعَ. وَوَصَلَ وَقَطَعَ، وَمَهَّدَ لِمَنِ ارْتَضَاهُ فَأَحْسَنَ مِهَادَهُ.

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَوْلَى مِنْ فَضْلٍ وَأَفادَهُ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى إِحْسَانِهِ الَّذِي لَا أُحْصِي تَعْدَادَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً أَرْجُو بِهَا الْحُسْنَى وَزِيادَةً، وَأُؤَمِّلُ بِهَا النَّجَاةَ مِنْ نارٍ لَمْ تَزَلْ وَقَّادَةً، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ. الْهَادِي إِلَى سَبِيلِ السَّعَادَةِ. نَبِيٌّ أَقامَ بِهِ مَنَارَ الإِيمَانِ وَرَفَعَ عِمَادَهُ، صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحابِهِ الَّذِينَ أَوْضَحَ اللّٰهُ بِهِمْ حُجَجَ الدِّينِ وَأَحْكَامَ الْعِبَادَةِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ قالَ مُجاهِدٌ وغَيْرُهُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الصَّائِمِينَ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَبَلَغَ النَّاسُ مِنَ الْكَرْبِ وَالْغَمِّ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللّٰهُ مِنَ الْعَطَشِ وَالْجُوعِ وَالْحَرِّ قِيلَ لِلصَّائِمِينَ ذَلِكَ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِها إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ. قال اللّٰهُ ﷻ: إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ، إِنَّهُ تَرَكَ شَهوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِي، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلَخَلُوفِ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عَنْدَ اللّٰهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلمٌ.

فِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِثْنَاءِ الصَّوْمِ مِنْ سَائِرِ الْأَعْمَال الْمُضاعَفَةِ، فَتَكُونُ الْأَعْمَالُ كُلُّهَا تُضَاعَفُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمَائَةِ ضِعْفٍ إِلَّا الصِّيَامَ. فَإِنَّهُ لَا يَنْحَصِرُ تَضْعِيفُهُ فِي هَذَا الْعَدَدِ، بَلْ يُضَاعِفُهُ اللّٰهُ ﷻ أَضْعَافًا كثِيرَةً بِغَيْرِ حَصْرِ عَدَدٍ، فَإِنَّ الصِّيَامَ مِنَ الصَّبْرِ، وَقَدْ قالَ اللّٰهُ تَعالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وَلِهَذَا وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّهُ سَمَّى شَهْرَ رَمَضَانَ شَهْرَ الصَّبْرِ». وَفِي هَذَا حَدِيثٌ آخَرُ عَنْهُ ﷺ قالَ: «الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَالصَّبْرُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ: صَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ اللّٰهِ، وَصَبْرٌ عَنْ مَحَارِمِ اللّٰهِ، وَصَبْرٌ عَلَى أَقْدَارِ اللّٰهِ الْمُؤْلِمَةِ. وَتَجْتَمِعُ الثَّلَاثَةُ فِي الصَّوْمِ، فَإِنَّ فِيهِ صَبْرًا عَلَى

طَاعَةِ اللّٰهِ، وَصَبْرًا عَمَّا حَرَّمَ اللّٰهُ عَلَى الصَّائِمِ مِنَ الشَّهَوَاتِ، وَصَبْرًا عَلَى مَا يَحْصُلُ لِلصَّائِمِ فِيهِ مِنْ أَلَمِ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَضَعْفِ النَّفْسِ وَالْبَدَنِ. وَهَذَا الْأَلَمُ النَّاشِيءُ مِنْ أَعْمَالِ الطَّاعَاتِ يُثَابُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ، وَلَا يَضِيعُ عَنْهُ شَيْءٌ، بَلْ يُكْتَبُ لَهُ بِكُلِّ خَصْلَةٍ عَمَلٌ صَالِحٌ. وَفِي حَدِيثِ سَلْمَانَ الْمَرْفُوعِ الْمُتَقَدِّمِ فِي فَضْلِ شَهْرِ رَمَضَانَ «وَهُوَ شَهْرُ الصَّبْرِ. وَالصَّبْرُ ثَوَابُهُ الْجَنَّةُ» وَفِي الطَّبَرَانِيِّ مَرْفُوعًا «الصِّيَامُ لِلّٰهِ. لَا يَعْلَمُ ثَوَابَ عَامِلِهِ إِلَّا اللّٰهُ ﷻ».

وَاعْلَمْ أَنَّ مُضَاعَفَةَ الْأَجْرِ لِلْأَعْمَالِ تَكُونُ بِأَسْبَابٍ:

مِنْهَا: شَرَفُ الْمَكَانِ الْمَعْمُولِ فِيهِ ذَلِكَ الْعَمَلُ كَالْحَرَمِ. وَلِذَلِكَ تُضَاعَفُ الصَّلَاةُ فِي مَسْجِدَيْ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ».

وَكَذَلِكَ رُوِيَ «أَنَّ الصِّيَامَ يُضَاعَفُ بِالْحَرَمِ» فَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجه بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا «مَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ بِمَكَّةَ فَصَامَهُ وَقَامَ مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ كَتَبَ اللّٰهُ لَهُ مِائَةَ أَلْفِ شَهْرِ رَمَضَانَ فِيمَا سِوَاهُ» وَذَكَرَ ثَوَابًا كَثِيرًا.

وَمِنْهَا: شَرَفُ الزَّمَانِ كَشَهْرِ رَمَضَانَ وَعَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ، وَفِي حَدِيثِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ الْمَرْفُوعِ الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ فِي فَضْلِ شَهْرِ رَمَضَانَ «مَنْ تَطَوَّعَ فِيهِ بِخَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ كَانَ كَمَنْ أَدَّى فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ. وَمَنْ أَدَّى فِيهِ فَرِيضَةً كَانَ كَمَنْ أَدَّى سَبْعِينَ فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ» وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَنَسٍ «سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: صَدَقَةٌ فِي رَمَضَانَ».

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ بِحَجَّةٍ ـ أَوْ قَالَ: حَجَّةٌ مَعِي» وَرَدَ «عَمَلُ الصَّائِمِ مُضَاعَفٌ».

ذَكَرَ ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ عَنْ أَشْيَاخِهِ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: إِذَا حَضَرَ شَهْرُ

رَمَضَانَ فانْبَسِطُوا فِيهِ بِالنَّفَقَةِ، فَإِنَّ النَّفَقَةَ فِيه كالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللّهِ، وَتَسْبِيحَةٌ فِيهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ تَسْبِيحَةٍ فِي غَيْرِهِ.

وقالَ النَّخْعِيُّ: صَوْمُ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ. وتَسْبِيحَةٌ فِيهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ تَسْبِيحَةٍ. ورَكْعَةٌ فِيهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ رَكْعَةٍ.

فَلَمَّا كانَ الصِّيَامُ فِي نَفْسِهِ مُضاعَفًا أَجْرُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَائِرِ الْأَعْمَالِ كانَ صِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ مُضَاعَفًا عَلَى سَائِرِ الصِّيَامِ لِشَرَفِ زَمانِهِ. وكَوْنِهِ هُوَ الصَّوْمَ الَّذِي فَرَضَهُ اللّهُ عَلَى عِبادِهِ. وَجَعَلَ صِيَامَهُ أَحَدَ أَرْكانِ الْإِسْلامِ الَّتِي بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَيْهَا.

وَقَدْ يُضَاعَفُ الثَّوَابُ بِأَسْبَابٍ أُخَرَ.

مِنْهَا: شَرَفُ الْعَامِلِ عَنْدَ اللّهِ، وَقُرْبُهُ مِنْهُ، وَكَثْرَةُ تَقْوَاهُ. كَما ضُوعِفَ أَجْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى أُجُورِ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ، وأُعْطُوا كِفْلَيْنِ مِنَ الْأَجْرِ. وَفِي رِوَاياتِ الْحَدِيثِ «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي» وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ «لِكُلِّ عَمَلٍ كَفَّارَةٌ، وَالصَّوْمُ لِي، وَأَنَا أُجْزِي بِهِ» وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَلَفْظُهُ «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ كَفَّارَةٌ، إِلَّا الصَّوْمَ، وَالصَّوْمُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ».

فَصَارَ عَلَى الرِّوَايَةِ الثَّانِيَةِ اسْتِثْنَاءُ الصِّيَامِ مِنْ بَيْنِ الْأَعْمَالِ يَرْجِعُ إِلَى أَنَّ سَائِرَ الْأَعْمَالِ لِلْعِبادِ، وَالصِّيَامُ اخْتَصَّهُ اللّهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ مِنْ بَيْنِ أَعْمَالِ عِبَادِهِ، وَأَضَافَهُ إِلَيْهِ.

وَعَلَى الرِّوَايَةِ الثَّالِثَةِ، فالِاسْتِثْنَاءُ يَعُودُ إِلَى التَّكْفِيرِ بِالْأَعْمَالِ. وَمَا أَحْسَنَ مَا قالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللهُ قالَ: «مِنْ أَجْوَدِ الْأَحَادِيثِ وَأَحْكَمِهَا. إِذَا كانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ: يُحَاسِبُ اللّهُ عَبْدَهُ وَيُؤَدِّي مَا عَلَيْهِ مِنَ الْمَظَالِمِ مِنْ سَائِرِ عَمَلِهِ، حَتَّى لَا يَبْقَى إِلَّا الصَّوْمُ فَيَتَحَمَّلُ اللّهُ عز وجل مَا بَقِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَظَالِمِ. وَيُدْخِلُهُ بِالصَّوْمِ الْجَنَّةَ» أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ.

فَعَلَى هَذَا يَكُونُ أَجْرُ الصِّيَامِ مُدَّخَرًا لِصَاحِبِهِ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ. فَلَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَى أَخْذِ أَجْرِهِ مِنَ الصِّيَامِ، فَلِلَّهِ دَرُّ الصِّيَامِ حَيْثُ كانَ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ.

إِخْوَانِي، طُوبَى لِأَقْوَامٍ كانَتْ هِمَمُهُمْ عَالِيَةً، وَعُيُونُهُمْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ باكِيَةً، فَزهِدُوا فِي الدَّارِ الْفَانِيَةِ، وَشَمَّرُوا إِلَى جَنَّاتٍ عَالِيَةٍ، قُطُوفُها دَانِيَةٌ. وَيُقَالُ لَهُمْ فِيهَا: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ. وَبِالنَّهَارِ لِرَبِّهِمْ صَائِمُونَ، وبِالْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَتِهِ يَضِجُّونَ، وَلِلْحَلَالِ مِنْ خَشْيَةِ الْحَرَامِ يَتْرُكُون، أَلْسِنَتُهُمْ طُولَ الزَّمَانِ دَاعِيَةٌ، قُلُوبُهُمْ مِنَ الْفَرَقِ مُزْعَجَةٌ خَاشِيَةٌ، بُطُونُهُمْ مِن الطَّعَامِ خَاوِيَةٌ، يَطْلُبُونَ الْعِيشَةَ الْهَانِيَةَ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

سُبْحَانَ مَنْ يَسَّرَ لَهُمُ الْأَحْوَالَ، سُبْحَانَ مَنْ وَفَّقَهُمْ لِأَحْسَنِ الْأَفْعَالِ. سُبْحَانَ مَنِ اسْتَجَابَ لَهُمُ السُّؤَالَ، وَبَلَّغَهُمْ غَايَةَ الْمَطَالِبِ وَالآمَالِ. كانُوا يُقِيمُونَ وَاللَّيَالِي دَاجِيَةٌ، قِيامَ نَفْسٍ خَائِفَةٍ لِلَّهِ رَاجِيَةٍ. يَسْهَرُونَ طُولَ اللَّيَالِي الشَّاتِيَةِ، وَعُيُونُهُمْ مِنَ الْبُكَاءِ عَاشِيَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ مِنْ صَوْمِ الْهَوَاجِرِ ذَاوِيَةٌ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

فَيا حَلِيفَ النَّوْمِ وَالْوِسَادَةِ، وَيَا أَسِيرَ الشَّهَوَاتِ وَقَدْ نَسِيَ مَعَادَهُ، وَيا تارِكًا لِما يُصْلِحُهُ مُكِبًّا عَلَى الْعَادَةِ، أَمَا لَكَ هِمَّةٌ تُنافِسُ بِها هَؤُلَاءِ السَّادَةَ؟ أَمَا لَكَ عَيْنٌ تَدْمَعُ عَلَى التَّخَلُّفِ عَنِ الْمُشَمِّرِينَ؟ آنَ لِقَلْبِكَ الْقَاسِي أَنْ يَلِينَ ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ فَلَوْ سَمِعْتَ مُنَادِيَ الْجَزَاءِ فِي الدَّارِ الْبَاقِيَةِ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ صَامُوا لِلَّهِ أَيَّامًا قَلَائِلَ، فَنالُوا عِنْدَهُ رَفِيعَ الْمَنَازِلِ. قامُوا لِمَوْلَاهُمْ أَوْقاتًا قِصَارًا، فَعَوَّضَهُمْ جِنَانًا وَأَبْكَارًا، وَأَنالَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ جَزَاءً أَوْدَعَ عُقُولَ الْعَالَمِينَ حَيَارَى.

لَمَّا سَمِعُوا فِي آياتِهِ الْجَالِيَةِ، ذِكْرَ جَنَّتِهِ الْعَالِيَةِ، وَقُطُوفِها الدَّانِيَةِ، اقْتَنَعُوا

مِنَ الدُّنيا بِزَاوِيَةٍ، وَصَارُوا بِالْمَجَاعَةِ كالشِّنَانِ الْبَالِيَةِ، وَبَادَرتْ هِمَمُهُمْ إِلَى الْفَضَائِلِ سَاعِيَةً. فَآهٍ لِهِمَمِهِمْ إِنَّهَا عَالِيَةٌ. وَآهٍ لِمَطْلُوباتِهِمْ إِنَّها غَالِيَةٌ، حَيْثُ قِيلَ لَهُمْ فِي الدَّارِ الْبَاقِيَةِ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾.

شِعْر:

قُمْ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ وَاقْصُدْ مُهَيْمِنَا ... يَـرَاكَ إِلَـيْـهِ فِـي الـدُّجَـى تَـتَـوَسَّـلُ
وَقُلْ: يا عَظِيمَ الْعَفْوِ لَا تَقْطَعِ الرَّجَا ... فَأَنْتَ الْمُنَى يَا غَايَتِي وَالْمُؤَمَّلُ
فَـيـا رَبِّ فَـاقْـبَـلْ تَـوْبَـتِـي بِـتَـفَـضُّـلٍ ... فَما زِلْتَ تَعْفُو عنْ كَثِيرٍ وَتُمْهِلُ
إِذَا كُنْتَ تَجْفُونِي وَأَنْتَ ذَخِيرَتِي ... لِمَنْ أَشْتَكِي حَالِي وَمَنْ أَتَوَسَّلُ؟
حَقِيقٌ لِمَنْ أَخْطَا وَعَادَ لِما مَضَى ... وَيَـبْـقَـى عَـلَـى أَبْـوَابِـهِ يَـتَـذَلَّـلُ
وَيَبْكِي عَلَى جِسْمٍ ضَعِيفٍ مِنَ الْبِلَى ... لَـعَـلَّ يَـعُـودُ الـسَّـيِّـدُ الْـمُـتَـفَـضِّـلُ
قَـصَـدْتُ إِلَـهِـي رَحْـمَـةً وَتَـفَـضُّـلًا ... لِـمَـنْ تـابَ مِـنْ زَلَّاتِـهِ يَـتَـقَـبَّـلُ

فصل

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣)﴾ وَقالَ تَعالَى لَمَّا نَعَتَ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾.

أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ عُبادَةَ بْنِ الصَّامِتِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةً، وَمِنْ فَوْقِها الْعَرْشُ، وَمِنْهَا تُفَجَّرُ أَنْهارُ الْجَنَّةِ الْأَرْبَعَةُ، فَإِذَا سَأَلْتُم اللَّهَ فاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ».

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا. قالُوا: يا رَسُولَ اللَّهِ نُنَبِّئُ

النَّاسَ بِذَلِكَ؟ قالَ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللّٰهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللّٰهَ فاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ وَسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمٰنِ. وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهارُ الْجَنَّةِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَلِأَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللّٰهِ الْمَنْزِلَةُ الرَّفِيعَةُ فَما يَبْلُغُها بِعَمَلٍ، فَمَا زَالَ اللّٰهُ يَبْتَلِيَهُ بِما يَكْرَهُ حَتَّى يَبْلُغَها».

وَفِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، لَوْ أَنَّ الْعالَمِينَ اجْتَمَعُوا فِي إِحْدَاهُنَّ وَسِعَتْهُمْ».

وَعَنْهُ أَيْضًا: أَنَّ رَسُولَ اللّٰهِ ﷺ قالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَما تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ. قالُوا: يا رَسُولَ اللّٰهِ، تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِياءِ لَا يَبْلُغُها غَيْرُهُمْ؟ قالَ: بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

رُوِيَ أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالَ: «إِلٰهِي، مَنْ يَسْكُنُ بَيْتَكَ؟ وَمِمَّنْ تَقْبَلُ الصَّلَاةَ؟ فَأَوْحَى اللّٰهُ إِلَيْهِ: يَا دَاوُدُ، إِنَّما يَسْكُنُ بَيْتِي وأَتَقَبَّلُ الصَّلَاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ لِعَظَمَتِي، وَقَطَعَ نَهارَهُ بِذِكْرِي، وَكَفَّ عَنِ الشَّهَوَاتِ مِنْ أَجْلِي، يُطْعِمُ الْجَائِعَ، وَيُؤْوِي الْغَرِيبَ، وَيَرْحَمُ الْمُصَابَ، فَذَلِكَ الَّذِي يُضِيءُ نُورُهُ فِي السَّمَاءِ كالشَّمْسِ، إِنْ دَعَانِي لَبَّيْتُهُ، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، أَجْعَلُ لَهُ فِي الْجَهَالَةِ حِلْمًا، وَفِي الْغَفْلَةِ ذِكْرًا، وَفِي الظُّلْمَةِ نُورًا، إِنَّما مَثَلُهُ فِي النَّاسِ كالْفِرْدَوْسِ فِي الْجِنَانِ، لَا تَيْبَسُ أَنْهارُهَا، وَلَا تَتَغَيَّرُ ثِمارُهَا».

شعر:

سَهَرُ الْعُيُونِ لِغَيْرِ وَجْهِكَ باطِلُ　　وَبُكَاؤُهُنَّ لِغَيْرِ فَقْدِكَ ضَائِعُ

إِنَّما يَحْسُنُ الْبُكَاءُ وَالْأَسَفُ عَلَى فَوَاتِ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ.

قالَ بَعْضُهُمْ: يُرَى رَجُلٌ فِي الْجَنَّةِ يَبْكِي، فَيُسْأَلُ عَنْ حَالِهِ؟ فَيَقُولُ: كانَتْ لِي نَفْسٌ وَاحِدَةٌ، قُتِلَتْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَوَدِدْتُ أَنَّهُ كانَتْ لِي نُفُوسٌ كَثِيرَةٌ تُقْتَلُ كُلُّها فِي سَبِيلِهِ.

غَزَا قَوْمٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَلَمَّا صَافُّوا عَدُوَّهُمْ وَاقْتَتَلُوا رَأَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَهُ مِنَ الْحُورِ قَدْ فَتَحَتْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ، وَهِيَ تَسْتَدْعِي صَاحِبَهَا إِلَيْها، وَتَحُثُّهُ عَلَى الْقِتَالِ، فَقُتِلُوا كُلُّهُمْ إِلَّا وَاحِدًا، وَكانَ كُلَّما قُتِلَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ أُغْلِقَ بَابٌ وَغَابَتْ مِنْهُ الْمَرْأَةُ، فَأَفْلَتَ آخِرُهُمْ فَأَغْلَقَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ الْبَابَ الْبَاقِي. وَقَالَتْ: مَا فَاتَكَ يا شَقِيُّ، فَكَانَ يَبْكِي عَلَى حَالِهِ إِلَى أَنْ مَاتَ، وَلَكِنَّهُ أَوْرَثَهُ ذَلِكَ طُولَ الاجْتِهَادِ وَالْحُزْنِ وَالْأَسَفِ.

عَلَى مِثْلِ لَيْلَى يَقْتُلُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ لَيْلَى عَلَى الْهَجْرِ طَاوِيًا

عُوتِبَ عَطَاءٌ فِي كَثْرَةِ بُكَائِهِ، فَقالَ: إِذَا ذُكِرَتِ النَّارُ مَثَّلْتُ نَفْسِي بَيْنَهُمْ فَما لِيَ لَا أَبْكِي؟

وَقالَ رَجُلٌ لِدَاوُدَ الطَّائِيِّ رَحْمَةُ اللّهِ عَلَيْهِ: أَوْصِنِي، فَقالَ: صُمْ عَنِ الدُّنْيَا، وَاجْعَلْ فِطْرَكَ الْمَوْتَ، وَفِرَّ مِنَ النَّاسِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ.

شِعْر:

عَلَيْكَ بِما يُفِيدُكَ فِي الْمَعَادِ وَمَا تَنْجُو بِهِ يَوْمَ التَّنَادِ
فَمَا لَكَ لَيْسَ يَنْفَعُ فِيكَ وَعْظٌ وَلَا زَجْرٌ كَأَنَّكَ مِنْ جَمَادِ؟
سَتَنْدَمُ إِنْ رَحَلْتَ بِغَيْرِ زَادٍ وَتَشْقَى إِذْ يُنَادِيكَ الْمُنَادِ
فَلَا تَفْرَحْ بِمالٍ تَقْتَنِيهِ فَإِنَّكَ فِيهِ مَعْكُوسُ الْمُرَادِ
وَتُبْ مِمَّا جَنَيْتَ وَأَنْتَ حَيٌّ وَكُنْ مُتَنَبِّهًا مِنْ ذَا الرُّقَادِ
يَسُرُّكَ أَنْ تَكُونَ رَفِيقَ قَوْمٍ لَهُمْ زَادٌ وَأَنْتَ بِغَيْرِ زَادِ؟

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الَّتِي بَدَأْتَ بِهَا الطَّائِعِينَ، حَتَّى قامُوا بِطَاعَتِهِمْ، أَنْ تَمُنَّ بِهَا عَلَى الْعَاصِينَ بَعْدَ مَعْصِيَتِهِمْ.

اللَّهُمَّ اجْمَعْ شَتَاتَ قُلُوبِنَا بِحُسْنِ عِنَايَتِكَ، وَأَحْيِ مَوْتَهَا بِغَيْثِ وِلَايَتِكَ، وَلَا تَطْرُدْنَا بِعُيُوبِنَا عَنْ وَلَائِمِ كَرَامَتِكَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَنَا مِنْ عِبَادِكَ الْمُتَّقِينَ، وَتُمِيتَنَا عَلَى سُنَّةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَأَنْ تَجْعَلْنَا مِمَّنْ يُعْطَى كِتَابَهُ بِالْيَمِينِ، وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الثَّامِنُ
فِي فَضْلِ الصِّيَامِ وَعِظَمِ ثَوَابِهِ وَفَضْلِ التِّلَاوَةِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي زَحْزَحَ هِمَمَ الْأَوْلِيَاءِ عَنِ السُّكُونِ إِلَى الْعَاجِلَةِ، وَشَرَحَ صُدُورَ السُّعَدَاءِ لِإِيثَارِ الْآجِلَةِ. الْمُتَفَرِّدِ بِالْكَمَالِ وَالْكِبْرِيَاءِ، وَالْجَلَالِ وَالْبَقَاءِ، وَالْعِزِّ الَّذِي لَا نَفَادَ لَهُ. اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَقَهْرٍ، وَعَلِمَ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ مِنَ الْخَافِي وَمَا ظَهَرَ، وَنَفَذَتْ أَقْدَارُهُ فِي الْخَلَائِقِ فَكُلُّ نَفْسٍ لِمَا قَدَّرَ لَهَا عَامِلَةٌ، الْقُلُوبُ تَعْرِفُهُ بِصَنْعَتِهِ، وَالرِّقَابُ خَاضِعَةٌ لِعِزَّتِهِ، وَالْعُقُولُ فِي تَكْيِيفِ عَظَمَتِهِ حَائِرَةٌ ذَاهِلَةٌ، صِفَاتُهُ ثَابِتَةٌ، وَتَخَيُّلَاتُ الْمُشَبِّهِينَ بَاطِلَةٌ. الْحَيُّ الْعَظِيمُ الْقَدِيرُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْمُدَبِّرُ، الْمُتَكَلِّمُ بِكَلَامٍ جَلَّ عَنِ الْمُشَابَهَةِ وَالْمُمَاثَلَةِ. الْمَلِكُ الْكَرِيمُ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ الَّذِي يَغْفِرُ لِمَنِ اسْتَغْفَرَ، وَيَجْبُرُ مَنِ انْكَسَرَ، وَيُقِيلُ مَن اسْتَقَالَهُ وَيُجِيبُ سَائِلَهُ. اللَّطِيفُ الَّذِي لَا يَقُومُ مَخْلُوقٌ بِشُكْرِهِ. الْجَلِيلُ الَّذِي غَمَرَ الْعِبَادَ بِبِرِّهِ، وَبُحُورِ عَطَائِهِ، وَسَحَائِبُ فَضْلِهِ عَلَى الْخَلْقِ سَائِلَةٌ. مُصَرِّفُ الْأَحْكَامِ بِالْإِبْرَامِ وَالنَّقْضِ، وَمُشَرِّفُ الْأَوْقَاتِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ. وَمُوقِظُ الْقُلُوبِ الْغَافِلَةِ بِالتَّذْكِيرِ وَالْوَعْظِ، الْعَالِمُ بِالْأَشْيَاءِ فَأَوْضَحَ مَحَجَّتَهُ وَأَبَانَ دَلَائِلَهُ. الْعَفُوُّ الَّذِي يَسْتُرُ الزَّلَّاتِ، وَيُقِيلُ الْعَثَرَاتِ، وَيُنَادِي فِي

كُلِّ لَيْلَةٍ لِيُجِيبَ الدَّعَوَاتِ، وَيَغْفِرَ السَّيِّئَاتِ، وَيَتُوبَ عَلَى مَنْ تَابَ مِنْ قَبِيحِ الْجِنَايَاتِ، وَيُسْبِلَ سِتْرَهُ عَلَى الْعُصَاةِ عِنْدَ الْمُسَاءَلَةِ. قَرَّبَ أَحْبَابَهُ فَوَجَدُوا لَذَّةَ الْمُعَامَلَةِ، فَقُلُوبُهُمْ بِذِكْرِهِ حَاضِرَةٌ وَعُيُونُهُمْ فِي خِدْمَتِهِ سَاهِرَةٌ وَأَبْدَانُهُمْ مِنْ مَخَافَتِهِ نَاحِلَةٌ، وَقَطَعَ الْمُبْعَدِينَ عَنْ بَابِهِ، وَأَذَلَّهُمْ بِأَلِيمِ حِجَابِهِ، فَهِمَمُهُمْ عَنِ النُّهُوضِ إِلَى الْخَيْرَاتِ مُتَثَاقِلَةٌ، يا خَيْبَةَ مَنْ أَسَرَهُ هَوَاهُ. يا شَقَاوَةَ مَنْ طَرَدَهُ مَوْلَاهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُ مُعَامَلَةٌ.

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَسْبَغَ عَلَيْنا مِنْ نِعَمِهِ الشَّامِلَةِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِلَهٌ وَاحِدٌ أَحَدٌ فَرْدٌ صَمَدٌ لَهُ الْبَقَاءُ وَالْمُلْكُ الَّذِي لَا نَفادَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَحَبِيبُهُ وَخَلِيلُهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى أُمَّةٍ غَافِلَةٍ، أَرْسَلَهُ إِلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ وَغَارِقِينَ فِي بُحُورِ ضَلَالَاتِهِمْ، فَأَوْضَحَ لَهُمْ نَهْجَ الشَّرِيعَةِ، وَأَظْهَرَ لَهُمْ أَعْلَامَ طَرِيقِهَا، وَدَمَّرَ حِزْبَ الشَّيْطَانِ بِالْمُكافَحَةِ وَالْمُنَاضَلَةِ، وَبَيَّنَ كُلَّ مُشْكِلَةٍ وَأَوْضَحَ حُكْمَ كُلِّ نَازِلَةٍ، فَأَضْحَتْ شَمْسُ الْهُدَى مُشْرِقَةً، وَنُجُومُ الضَّلَالِ آفِلَةً. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ صَلَاةً دَائِمَةً مُتَوَاصِلَةً، وسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قالَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾.

اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ صَوْمَ رَمَضَانَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ حُكْمُ الصَّوْمِ. ولِلصَّوْمِ فَضْلٌ عَظِيمٌ، وثَوَابٌ جَسِيمٌ.

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبا مُوسَى عَلَى سَرِيَّةٍ فِي الْبَحْرِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ قَدْ رَفَعُوا الشِّرَاعَ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، إِذَا هَاتِفٌ فَوْقَهُمْ يَهْتِفُ: يَا أَهْلَ السَّفِينَةِ قِفُوا أُخْبِرُكُمْ بِقَضَاءٍ قَضَاهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ. فَقَالَ أَبُو

مُوسَى: أَخبِرْنَا إِنْ كُنْتَ مُخْبِرًا، قالَ: إِنَّا اللّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَضَى عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ مَنْ أَعْطَشَ نفسَهُ لَهُ في يَوْمٍ صَائِفٍ سَقَاهُ اللّهُ يَوْمَ الْعَطَشِ». رَوَاهُ الْبَزَّارُ بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

وَلاْبْنِ أَبِي الدُّنْيَا أَنَّهُ قالَ: إِنَّ اللّهَ قَضَى عَلَى نَفْسِهِ أَنَّ مَنْ عَطَّشَ نَفْسَهُ لِلّهِ فِي يَوْمٍ حَارٍّ كانَ حَقًّا عَلى اللّهِ أَنْ يُرْوِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قالَ: فكانَ أَبُو مُوسَى يَتَوَخَّى الْيَوْمَ الشَّدِيدَ الْحَرِّ الَّذِي يَكادُ الإِنْسَانُ يَنْسَلِخُ فِيهِ حَرًّا فَيَصُومُهُ.

وَيَنْبَغِي لِلصَّائِمِ أَنْ يَكُونَ مُوَاظِبًا عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ لِيَغْتَنِمَ شَرَفَ الزَّمَانِ.

فَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشفِّعْنِي فِيهِ. قالَ: فَيُشَفَّعَانِ».

وَقَدْ قالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ».

وَقَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمُخَرَّجِ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ. قالَ اللّهُ: إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ. يَدَعُ الطَّعَامَ مِنْ أَجْلِي، وَيَدَعُ الشَّرَابَ مِنْ أَجْلِي، وَيدَعُ لَذَّتَهُ مِنْ أَجْلِي، وَيَدَعُ زَوْجَتَهُ مِنْ أَجْلِي. وَلَخلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَةٌ حِينَ يُفْطِرُ، وَفَرْحَةٌ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ».

فَقَوْلُهُ ﷺ عَنِ اللّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ» فِيهِ وَجْهَانِ.

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الصِّيَامَ هُوَ مُجَرَّدُ تَرْكِ حُظُوظِ النَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا الأَصْلِيَّةِ،

التِي جُبِلَتْ عَلَى الْمَيْلِ إِلَيْهَا لِلّهِ ﷻ، وَلَا يُوجَدُ ذَلِكَ فِي عِبَادَةٍ أُخْرَى غَيْرِ الصِّيَامِ، فَلَا يُوجَدُ ذَلِكَ فِي الْإِحْرَامِ، فَإِنَّ الْإِحْرَامَ يُتْرَكُ فِيهِ الْجِمَاعُ وَدَوَاعِيهِ مِنَ الطِّيبِ دُونَ سَائِرِ الشَّهَوَاتِ. وَأَمَّا الصَّلَاةُ فَإِنَّهَا وَإِنْ تَرَكَ الْمُصَلِّي فِيهَا جَمِيعَ الشَّهَوَاتِ إِلَّا أَنَّ مُدَّتَهَا لَا تَطُولُ، فَلَا يَجِدُ الْمُصَلِّي فَقْدَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فِي صَلَاتِهِ، بَلْ قَدْ نُهِيَ أَنْ يُصَلِّي وَنَفْسُهُ تَتُوقُ إِلَى طَعَامٍ بِحَضْرَتِهِ، حَتَّى يَتَنَاوَلَ مِنْهُ مَا يُسْكِنُ نَفْسَهُ. وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ: إِبَاحَةُ الْمَاءِ فِي التَّطَوُّعِ. وَفَعَلَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ. وَهَذَا بِخِلَافِ الصِّيَامِ، فَإِنَّهُ يَسْتَوْعِبُ النَّهَارَ كُلَّهُ، فَيَجِدُ الصَّائِمُ فَقْدَ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ وَتَشَوُّقَ نَفْسِهِ إِلَيْهَا؛ خُصُوصًا فِي نَهارِ الصَّيْفِ لِشِدَّةِ حَرِّهِ وَطُولِهِ.

قالَ بَعْضُ السَّلَفِ: طُوبَى لِمَنْ تَرَكَ شَهْوَةً حَاضِرَةً لِمَوْعِدِ غَيْبٍ لَمْ يَرَهُ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ «تَرَكَ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِي».

لَمَّا عَلِمَ الْمُؤْمِنُ الصَّائِمُ أَنَّ رِضَاءَ مَوْلَاهُ فِي تَرْكِ شَهَوَاتِهِ قَدَّمَ رِضَاءَ مَوْلَاهُ عَلَى هَوَاهُ، فَصَارَتْ لَذَّتُهُ فِي تَرْكِ شَهْوَتِهِ لِإِيمَانِهِ بِاطِّلَاعِ اللّهِ وَثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ، وَلِهَذَا لَوْ ضُرِبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَنْ يُفْطِرَ في شَهْرِ رَمَضَانَ لِغَيْرِ عُذْرٍ لَمْ يَفْعَلْ، لِعِلْمِهِ بِكَرَاهَةِ اللّهِ لِفِطْرِهِ في هَذَا الشَّهْرِ.

سُئِلَ ذُو النُّونِ الْمِصْرِي: مَتَى أُحِبُّ رَبِّي قالَ: إِذَا كانَ مَا يَكْرَهُهُ أَمَرَّ عَلَيْكَ مِنَ الصَّبْرِ.

وقالَ غَيْرُهُ: لَيْسَ مِنْ أَعْلَامِ الْمَحَبَّةِ أَنْ تُحِبَّ ما يَكْرَهُ حَبِيبُكَ.

شِعْر:

إِنْ كَانَ رِضَاكُمْ فِي سَهَرِي ... فَسَلَامُ اللّهِ عَلَى وَسَنِي

فَالْمُؤْمِنُ يَتْرُكُ مَا يُلَائِمُهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ إِذَا عَلِمَ أَنَّ اللّهَ يَكْرَهُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَدَّمَ رِضَاءَ رَبِّهِ عَلَى هَوَى نَفْسِهِ، وَرُبَّمَا يَتَرَقَّى إِلَى أَنْ يَكْرَهَ جَمِيعَ مَا يَكْرَهُهُ اللّهُ عَنْهُ وَيَنْفِرَ مِنْهُ، وَإِنْ كانَ مُلَائِمًا لِلنَّفْسِ، كَمَا قِيلَ:

عَذَابُهُ فِيكَ عَذْبٌ ... وَبُعْدُهُ فِيكَ قُرْبُ

وَأَنْتَ عِنْدِي كَرُوحِي بَلْ أَنْتَ مِنْهَا أَحَبُّ
حَسْبِي مِنَ الْحُبِّ أَنِّي لِمَا تُحِبُّ أُحِبُّ

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الصِّيَامَ سِرٌّ بَيْنَ الْعَبْدِ وَربِّهِ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، لِأَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ نِيَّةٍ باطِنَةٍ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا إِلَّا اللّهُ، وَاللّهُ تعالَى يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يُعَامِلُوهُ سِرًّا بَيْنَهُمْ وَبينَهُ، وَأَهْلُ مَحَبَّتِهِ يُحِبُّونَ أَنْ يُعامِلُوهُ سِرًّا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بِحَيْثُ لَا يَطَّلِعُ عَلَى مُعَامَلَتِهِمْ إِيَّاهُ سِوَاهُ، حَتَّى كانَ بَعْضُهُمْ يَوَدُّ لَوْ تَمَكَّنَ مِنْ عِبَادَةٍ لَا يَشْعُرُ بِهَا الْمَلَائِكَةُ الْحَفَظَةُ.

وقَالَ بَعْضُهُمْ لَمَّا اطُّلِعَ عَلَى بَعْضِ سَرَائِرِه: إِنَّما كانَتْ تَطِيبُ الْحَيَاةُ لَمَّا كانَتِ الْمُعَامَلَةُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ سِرًّا، ثُمَّ دَعَا عَلَى نَفْسِهِ بِالْمَوْت فَماتَ.

سُبْحَانَ مَنِ اخْتَارَ مِنْ عِبَادِهِ أَقْوَامًا لِخِدْمَتِهِ، وَشَغَلَهُمْ عَنِ الدُّنْيا بِمَحَبَّتِهِ، وَجَعَلَ قُلُوبَهُمْ مَحلَّ مَعْرِفَتِهِ. كَشَفَ لَهُمْ مَا غَطَّى عَنِ الْغَيرِ، وَأَعْطَاهُمْ مِنْ جُودِهِ كُلَّ خَيْرٍ، وَحَثَّ مَطَاياهُمْ إِلَيْهِ بِالسَّيْرِ. فَهُمْ فِي خِدْمَةِ مَوْلَاهُمْ يَدْأَبُونَ، وَلِلْمَشَقَّةِ فِي مَرْضَاتِهِ يَسْتَعْذِبُونَ.

شِعْر:

لِلّهِ قَوْمٌ أَخْلَصُوا فِي حُبِّهِ فَاخْتَارَهُمْ وَرَضِيَ بِهِمْ خُدَّامًا
قَوْمٌ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ عَلَيْهِمُ أَبْصَرْتَ قَوْمًا سُجَّدًا وَقِيامًا
يَتَلَذَّذُونَ بِذِكْرِهِ فِي لَيْلِهِمْ وَيُكابِدُونَ لَدَى النَّهَارِ صِيَامًا
فَسَيَغْنَمُونَ عَرَائِسًا بِعَرَائِسٍ وَيُبَوَّأُونَ مِنَ الْجِنَانِ خِيَامًا
وَتَقَرُّ أَعْيُنُهُمْ بِما أَخْفَى لَهُمْ وَسَيَسْمَعُونَ مِنَ الْجَلِيلِ سَلَامًا

فَصْلٌ فِي صِفَةِ بِناءِ الْجَنَّةِ وَقُصُورِهَا وَتُرَابِهَا وَحَصْبَائِها

قَالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ وقالَ تعالَى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ﴾.

رَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قالَ: قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا، فَإِذَا كانَ ساكِنُها فِيهَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ مَا خَلْفَهَا، وَإِذَا كانَ خَلْفَهَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ مَا فِيهَا. قِيلَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللّهِ؟ قالَ: لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَوَاصَلَ الصِّيَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَفْشَى السَّلَامَ، وَصَلَّى وَالنَّاسُ نِيَامٌ. قِيلَ: وَمَا طِيبُ الْكَلَامِ؟ قالَ: سُبْحَانَ اللّهِ، وَالْحَمْدُ لِلّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ، وَاللّهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّها تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَها مُقَدِّمَاتٌ وَمُعَقِّبَاتٌ. قِيلَ: وَمَا وِصَالُ الصِّيَامِ قالَ: مَنْ صَامَ شَهْرَ رَمَضَانَ، ثُمَّ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَصَامَهُ. قِيلَ: وَمَا إِطْعَامُ الطَّعَامِ؟ قالَ: مَنْ قاتَ عِيَالَهُ وَأَطْعَمَهُمْ. قِيلَ: وَمَا إِفْشَاءُ السَّلَامِ؟ قالَ: مُصَافَحَةُ أَخِيكَ وَتَحِيَّتُهُ. قِيلَ: وَمَا الصَّلَاةُ وَالنَّاسُ نِيامٌ؟ قالَ: صَلَاةُ الْعِشَاءِ الْأَخِيرَةِ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قالَ: «قُلْنا: يا رَسُولَ اللّهِ حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ، مَا بِنَاؤُهَا؟ قالَ: لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ، وَمِلاطُهَا الْمِسْكُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقوتُ، وَتُرَابُها الزَّعْفَرَانُ. مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ» رواه أحمد وغيره.

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيا عَنْ أَنَسٍ قالَ: قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ «خَلَقَ اللّهُ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ. لَبِنَةً مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، وَلَبِنَةً مِنْ ياقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَلَبِنَةً مِنْ زَبَرْجَدَةٍ خَضْرَاءَ، وَمِلَاطُهَا مِسْكٌ، حَشِيشُهَا الزَّعْفَرانُ وَحَصْبَاؤُها اللُّؤْلُؤُ، تُرابُهَا الْعَنْبَرُ، ثُمَّ قالَ لَها: انْطِقِي، قَالَتْ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ فَقالَ اللّهُ ﷻ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا يُجَاوِرُنِي فِيكِ بَخِيلٌ. ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾».

وَفِي قَوْلِهِ ﷺ «مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيابُهُمْ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُمْ» إِشَارَةٌ إِلَى بَقَاءِ الْجَنَّةِ وَبَقَاءِ جَمِيعِ مَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ، وَأَنَّ صِفَاتِ أَهْلِهَا الْكَامِلَةِ مِنَ الشَّبَابِ لَا يَتَغَيَّر أَبَدًا، وَمَلَابِسُهُمُ الَّتِي

عَلَيْهِمْ مِنَ الثِّيَابِ الَّتِي لَا تَبْلَى أَبَدًا، وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى مِثْلِ هذا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ وَقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ وَقَوْلِهِ تبارَكَ وَتعالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾.

وفِيمَا ذَكَرَهُ ﷺ فِي صِفَةِ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ تَعْرِيضٌ بِذَمِّ الدُّنْيا الْفَانِيَةِ، فَإِنَّهُ مَنْ يَدْخُلُهَا وَإِن نَعِمَ فِيهَا فَإِنَّهُ يَبْأَسُ، وَمَنْ أَقامَ فِيهَا فَإِنَّه يَمُوتُ وَلَا يَخْلُدُ. وَإِنْ صَحَّ فِيهَا فَإِنَّهُ يَسْقَمُ. وَإِنْ سُرَّ قَلِيلًا فَعَنْ قَرِيبٍ يَحْزَنُ، وَيَفْنَى شَبَابُهُ، وَتَبْلَى ثِيَابُهُ. وَفِي هَذَا التَّعْرِيضِ بِذَمِّ الدُّنْيا وَفَنائِها مَدْحٌ لِلْآخِرَةِ، وَذِكْرُ كَمالِها وَبَقَائِها.

إِخْوَانِي: فِي الْجَنَّةِ عَيْنَانِ تَجْرِيانِ، لِمَنْ لَهُ الْيَوْمَ عَيْنَانِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَجْرِيانِ. قاصِرَاتُ الطَّرْفِ فِي الْخِيَامِ، لِمَنْ قَصَّرَ طَرْفَهُ عَنِ الْآثامِ. رُفِعَ الْحِجَابُ لِمَنْ تَرَكَ الْإِعْجَابَ. بَسَاتِينُهَا زَاهِرَةٌ، لِمَنْ لَهُ عَيْنٌ لِلّهِ سَاهِرَةٌ. قُصُورُهَا عَالِيَةٌ، وَثِمارُهَا دانِيَةٌ، ظِلُّهَا مَمْدُودٌ، لِمَن لَا يَتَعَدَّى الْحُدُودَ. عَيْشُهَا مُقِيمٌ، لِمَنْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيَسْتَقِيمُ، فِيهَا أَنْهارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، لِمَنْ تَرَكَ الْقَبَائِحَ وَفَعَلَ الْمَحَاسِنَ. فِيهَا أَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، لِمَنْ سَلِمَ مِنَ الْحَرَامِ لَحْمُهُ وَجِسْمُهُ. فِيهَا أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ، لِأَقْوَامٍ كانُوا بِشَرْعِ اللّهِ مُتَمَسِّكِينَ، وَلِنَبِيِّهِ ﷺ مُتَّبِعِينَ. فِيهَا أَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، لِمَنْ كانَ إِمَامُهُ الْمُصْطَفَى.

فَيا مَنْ غَرَّهُ الْإِمْهَالُ، فَجَرَّ أَذْيالَهُ فِي الْغَفْلَةِ وَالْإِهْمَالِ، وَنَسِيَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْعَظَائِمِ، وَمَا أُعِدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنَ الْكَرَائِمِ. أَرَضِيتَ بِبَيْعِ حَظِّكَ بِزُيُوفِ شَهَوَاتِكَ، أَمْ قَنِعْتَ مِنْ غَنَائِمِ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِكُنَاسَةِ مَنَازِلِ غَفَلَاتِكَ، خَسِرَتْ وَاللّهِ صَفْقَةَ مَنْ باعَ لَحْظَهُ، لَكِنْ قَدْ قالَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾.

شِعْر:

بِذِكْرِكَ يا مَوْلَى الْوَرَى نَتَنَعَّمُ　　　وَقَدْ خَابَ قَوْمٌ عَنْ سَبِيلِكَ قَدْ عَمُوا

شَهِدْنَا يَقِينًا أَنَّ عِلْمَكَ وَاسِعٌ وَأَنْتَ تَرَى مَا فِي الْقُلُوبِ وَتَعْلَمُ
إِلٰهِي تَحَمَّلْنَا ذُنُوبًا عَظِيمَةً أَسَأْنَا وَقَصَّرْنَا وَجُودُكَ أَعْظَمُ
سَتَرْنَا مَعَاصِينَا عَنِ الْخَلْقِ جُمْلَةً وَأَنْتَ تَرَانَا ثُمَّ تَعْفُو وَتَرْحَمُ
وَحَقِّكَ، مَا فِينَا مُسِيءٌ يَسُرُّهُ صُدُودُكَ عَنْهُ بَلْ يَذِلُّ وَيَنْدَمُ
سَكَتْنَا عَنِ الشَّكْوَى حَيَاءً وَهَيْبَةً وَحَاجَاتُنَا بِالْمُقْتَضِي تَتَكَلَّمُ
إِذَا كَانَ ذُلُّ الْعَبْدِ بِالْحَالِ نَاطِقًا فَهَلْ يَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ عَنْهُ وَيَكْتُمُ
إِلٰهِي فَجُدْ وَاصْفَحْ وَأَصْلِحْ قُلُوبَنَا فَأَنْتَ الَّذِي تُولِي الْجَمِيلَ وَتُكْرِمُ
أَلَسْتَ الَّذِي قَرَّبْتَ قَوْمًا فَوَافَقُوا وَوَفَّقْتَهُمْ حَتَّى أَنَابُوا وَأَسْلَمُوا
فَقُلْتَ «اسْتَقِيمُوا» مِنَّةً وَتَكَرُّمًا وَأَنْتَ الَّذِي قَوَّمْتَهُمْ فَتَقَوَّمُوا
لَهُمْ فِي الدُّجَى أُنْسٌ بِذِكْرِكَ دَائِمًا فَهُمْ فِي اللَّيَالِي سَاجِدُونَ وَقُوَّمُ
نَظَرْتَ إِلَيْهِمْ نَظْرَةً بِتَعَطُّفٍ فَعَاشُوا بِهَا وَالْخَلْقُ سَكْرَى وَنُوَّمُ
لَكَ الْحَمْدُ عَامِلْنَا بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ وَسَامِحْ وَسَلِّمْنَا، فَأَنْتَ الْمُسَلِّمُ

إِلٰهِي أَنْتَ مَلَاذُنا إِذَا ضَاقَتِ الْحِيَلُ، وَمَلْجَأُنا إِذَا انْقَطَعَ الْأَمَلُ. فَبِذِكْرِكَ نَتَنَعَّمُ وَنَفْخَرُ، وَإِلى جُودِكَ نَلْتَجِيءُ وَنَفْتَقِرُ، فَلَا تُخَيِّبْ رَجَاءَنَا وَلَا تَصْرِفْ وَجْهَكَ فِي الْقِيَامَةِ عَنَّا، وَاغْفِرْ ذُنُوبَنا، وَاسْتُرْ عُيُوبَنا، وَأَقِرَّ فِي الْقِيَامَةِ عُيُونَنا، فَها نَحْنُ لِبَابِكَ قَرَعْنَا، وَبِفِنَائِكَ أَنَخْنَا، فَلَا تَطْرُدْنا عَنْ جَنَابِكَ، وَهَبْ لَنا مَا وَهَبْتَهُ لِأَحْبَابِكَ.

اللهُمَّ يا مَنْ لَا تَشْتَبِهُ عَلَيْهِ اللُّغَاتُ، وَلَا تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ الْأَصْوَاتُ، وَلَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ ذَوِي الْحَاجَاتِ، اجْعَلْ مَآلَنا إِلى الْجَنَّاتِ، وَنَعِّمْنَا بِما فِيهَا مِنَ الْكَرَامَاتِ، وَأَعِذْنَا مِنَ النَّارِ وَمَا فِيهَا مِنَ اللَّفَحَاتِ، يا جَابِرَ الْمُنْكَسِرِينَ. وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ التَّاسِعُ
فِي آدَابِ الصِّيَامِ وَفَوَائِدِهِ

الْحَمْدُ للّهِ الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ تُرابٍ، وَفَاوَتَ بَيْنَهُمْ فِي الْعُلُومِ وَالْعُقُولِ وَالْآدَابِ. قَرَّبَ أَقْوامًا وَأَبْعَدَ آخَرِينَ، وَأَذَلَّ مَنْ شَاءَ بِالْمَعَاصِي وَأَعَزَّ مَنْ شَاءَ بِالطَّاعَةِ وَالتَّمْكِينِ، وَأَقامَ الْحُجَّةَ بِإِيضَاحِ الدَّلَائِلِ وَالْبَرَاهِينِ، وَقَسَّمَ خَلْقَهُ إِلَى تَقِيٍّ أَوَّابٍ، وَفَاجِرٍ كَذَّابٍ، كَشَفَ عَنْ أَبْصَارِ بَصَائِرِ أَوْلِيائِهِ الْحِجَابَ، وَأَشْهَدَهُمْ مَا خَفِيَ عَنْ غَيْرِهِمْ وَغَابَ، فَهُمْ فِي الدَّلَالَةِ لِلْخَلْقِ عَلَى الْبَابِ، هِمَمُهُمْ مَصْرُوفَةٌ فِي طَلَبِ الْخَيْرَاتِ وَالاكْتِسَابِ. وَمَطَالِبُهُمْ مَا بِهِ الزُّلْفَى لَدَى رَبِّهِمْ والاقْتِرَابُ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ وِشَغَلَ الْجَهَلَةِ بِالطَّعَامِ وَالشرَابِ، فَهُمْ فِي مَهْدِ الْجَهَالَةِ يَتَقَلَّبُونَ، وَفِي صُنُوف الْمُشْتَهَيَاتِ يَتَمَتَّعُونَ. وَعَلَى مَا أَحَبُّوهُ يَرْتَكِبُونَ. قَدْ رَضُوا بِالْإِبْعَادِ وَالتَّبَابِ، هِمَمُهُمْ مَصْرُوفَةٌ إِلَى جَمْعِ الْحُطَامِ، وَجُلُّ مَطْلُوبِهِمْ مُشَارَكَةُ الْأَنْعَامِ، فَهُمْ فِي نَيْلِ الْحُطامِ بَيْنَ مَجِيءٍ وَذَهَابٍ، لَا يُبالُونَ مَا أَخَذُوهُ مِنْ حَلَالٍ أَوْ مِنْ حَرَامٍ بِأَيِّ الاكْتِسَابِ. يَعْمُرُونَ بِالشَّهَوَاتِ أَجْسَامَهُمْ وَالْقُلُوبُ فِي خَرَابٍ. فَإِذَا عَايَنُوا تَفْرِيطَهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ بَانَ الْمُرْتَابُ ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾.

فَسُبْحَانَ مَنْ قَسَّمَ عَطَاءَهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فَهَذَا مَقْبُولٌ وَهَذَا مَرْدُودٌ. وَهَذَا نائِلٌ خَيْرًا وَهَذَا رَاجِعٌ بالتَّبَابِ. بَيَّنَ لِقاصِدِيهِ سَبِيلًا وَسَنَنًا. وَوَهَبَ لِعابِدِيهِ أَجْرًا جَزِيلًا يُقْتَنَى. وَأَثَابَ حَامِدِيهِ أَلَذَّ مَا يُجْتَنَى، وَهُوَ الْمُتَفَضِّلُ بِالْخَيْرِ وَالْوَهَّابُ.

أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَفُوقُ الْعَدَّ وَالْحِسَابَ. وَأَشْكُرُهُ عَلَى نِعَمٍ يَكِلُّ الْعَادُّ عَنْ حَصْرِهَا وَلَا يُحْصِيهَا كِتَابٌ وَلَا جَوَابٌ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً مُبَرَّأَةً مِنَ الشِّرْكِ وَالشُّكُوكِ وَالْارْتِيابِ، أَرْجُو بِهَا النَّجَاةَ مِنْ نارٍ شَدِيدَةِ الْوَقُودِ وَالْالْتِهَابِ،

وَأُؤَمِّلُ بِهَا مِنْ كَرَمِهِ أَعَالِيَ الْقُصُورِ فِي فَسِيحِ الرِّحَابِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَشْرَفُ الْخَلْقِ وَسَيِّدُ الْحَضَرِ وَالْأَعْرَابِ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْبَرَرَةِ الْأَنْجَابِ، صَلَاةً دَائِمَةً مَا لَاحَ نَجْمٌ وَغَابَ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ لِعِبَادِهِ أَنْ يَتَّقُوهُ. فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَهْلٌ أَنْ يُخْشَى وَيُهَابَ. وَيُجَلَّ وَيُعَظَّمَ وَيُرْجَى وَيُخَافَ مِنْ بَطْشِهِ وَعِقَابِهِ، وَهُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ، وَالتَّقْوَى: هِيَ فِعْلُ أَوَامِرِ اللَّهِ وَاجْتِنَابُ نَوَاهِيهِ، وَكَرَّرَ التَّقْوَى زِيَادَةً عَلَى التَّحْرِيضِ لَها، وَفِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الْأَمْرِ بِالتَّقْوَى وَالْوَصِيَّةِ بِهَا وَمَدْحِ أَهْلِهَا مَا فِي بَعْضِهِ كِفَايَةٌ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ، وَالتَّقْوَى وَصِيَّةٌ لِلْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.

فالْوَاجِبُ عَلَى الصَّائِمِ إِذَا صَامَ: أَنْ يَتَّقِي اللَّهَ، وَيَحْفَظَ صِيَامَهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ وَالشَّتْمِ وَالْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَالْكَذِبِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعالَى قالَ فِي حَقِّ الصَّائِمِ: «إِنَّهُ تَرَكَ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِي» وَذَلِكَ أَنَّ الصَّائِمَ يَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِتَرْكِ مَا تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنِّكَاحِ، وَهَذِهِ أَعْظَمُ شَهَوَاتِ النَّفْسِ، وَفِي التَّقَرُّبِ بِتَرْكِها بِالصِّيَامِ فَوَائِدُ:

مِنْهَا: كَسْرُ النَّفْسِ، فَإِنَّ الشِّبَعَ وَالرِّيَّ وَمُبَاشَرَةَ النِّسَاءِ تَحْمِلُ النَّفْسَ عَلى الْأَشَرِ وَالْبَطَرِ وَالْغَفْلَةِ.

وَمِنْهَا: تَخَلِّي الْقَلْبِ لِلْفِكْرِ وَالذِّكْرِ؛ فَإِنَّ تَناوُلَ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ قَدْ يُقَسِّي الْقَلْبَ وَيُعْمِيهِ، وَيَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الذِّكْرِ وَالْفِكْرِ، وَيَسْتَدْعِي الْغَفْلَةَ. وَخُلُوُّ الْبَطْنِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ يُنَوِّرُ الْقَلْبَ، وَيُوجِبُ رِقَّتَهُ وَيُزِيلُ قَسْوَتَهُ وَيُخْلِيهِ لِلذِّكْرِ وَالْفِكْرِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْغَنِيَّ يَعْرِفُ قَدْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِإِقْدَارِهِ لَهُ عَلَى مَا مَنَعَهُ كَثِيرًا

مِنَ الْفُقَرَاءِ مِنْ فُضُولِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ إِذَا قاسَى الجُوعَ عَرَفَ قَدْرَ النِّعْمَةِ، فَيُوجِبُ لَهُ ذَلِكَ شُكْرَ نِعْمَةِ اللّهِ، وَيَدْعُوهُ إِلَى رَحْمَةِ أَخِيهِ الْمُحْتَاجِ وَمُوَاسَاتِهِ.

وَلِهَذَا سَأَلَ الْمَأْمُونُ عَلِيَّ بْنَ مُوسَى الرِّضَا: أَيُّ شَيْءٍ فائِدَةُ الصَّوْمِ فِي الْحِكْمَةِ؟ فَقالَ: عَلِمَ اللّهُ تعالَى مَا يَنالُ الْفَقِيرَ مِنَ الْجُوعِ. فَأَدْخَلَ الصِّيَامَ عَلَى الْغَنِيِّ لِيَذُوقَ طَعْمَ الْجُوعِ حَتَّى لَا يَنْسَى الْفَقِيرَ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الصِّيَامَ يُضَيِّقُ مَجَارِيَ الدَّمِ الَّتِي هِيَ مَجَارِي الشَّيْطَانِ مِنَ ابْنِ آدَمَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ. فَبِالصِّيَامِ تَنْكَسِرُ سَوْرَةُ الشَّيْطَانِ، وَسَوْرَةُ الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ؛ فَهَذِهِ بَعْضُ فَوَائِد الصَّوْمِ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَتِمُّ التَّقَرُّبُ إِلَى اللّهِ بِتَرْكِ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ الْمُبَاحَةِ فِي غَيْرِ حَالَةِ الصِّيَامِ إِلَّا بَعْدَ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِتَرْكِ مَا حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ حالٍ مِنَ الْكَذِبِ وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ عَلَى النَّاسِ فِي دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ، فَهَذِهِ الْأُمُورُ حَرَامٌ، وَفِي حَقِّ الصَّائِمِ أَشَدُّ حُرْمَةً، وَلِهَذَا قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ لَمْ يدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ. وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ «لَيْسَ الصِّيَامُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، إِنَّما الصِّيَامُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ» قالَ أَبُو مُوسَى الْمَدِينِي: عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ.

قالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَهْوَنُ الصِّيَامِ تَرْكُ الشَّرَابِ وَالطَّعَامِ.

وَقالَ جَابِرٌ: إِذَا صُمْتَ فَلْيَصُمْ سَمْعُكَ وَبَصَرُكَ وَلِسَانُكَ عَنِ الْكَذِبِ وَالْمَحَارِمِ، وَدَعْ أَذَى الْجَارِ، وَلْيَكُنْ عَلَيْكَ وَقَارٌ وَسَكِينَةٌ يَوْمَ صَوْمِكَ، وَلَا تَجْعَلْ يَوْمَ صَوْمِكَ وَيَوْمَ فِطْرِكَ سَوَاءً.

قالَ:

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي السَّمْعِ مِنِّي تَصَاوُنٌ ... وَفِي بَصَرِي غَضٌّ وَفِي مَنْطِقِي صَمْتُ

فَحَظِّي إِذًا مِنْ صَوْمِيَ الْجُوعُ وَالظَّمَا ... فَإِنْ قُلْتَ: إِنِّي صُمْتُ يَوْمِي فَمَا صُمْتُ

وَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ».

وَسِرُّ هَذَا أَنَّ التَّقَرُّبَ إِلَى اللّهِ بِتَرْكِ الْمُبَاحَاتِ لَا يَكْمُلُ إِلَّا بَعْدَ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، فَمَنِ ارْتَكَبَ الْمُحَرَّمَاتِ، ثُمَّ تَقَرَّبَ إِلَى اللّهِ تعالَى بِتَرْكِ الْمُبَاحَاتِ، كَانَ بِمَثَابَةِ مَنْ يَتْرُكُ الْفَرَائِضَ وَيَتَقَرَّبُ بِالنَّوَافِلِ، وَإِنْ كانَ صَوْمُهُ مُجْزِئًا عِنْدَ الْجُمْهُورِ، بحَيْثُ لَا يُؤْمَرُ بِإِعَادَتِهِ.

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَسُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِمَا عَنْ عُبَيْدٍ مَوْلَى رَسُولُ اللّهِ ﷺ «أَنَّ امْرَأَتَيْنِ صَامَتَا، وَأَنَّ رَجُلًا قالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنَّ هٰهُنَا امْرَأَتَيْنِ قَدْ صَامَتَا، وَإِنَّهُمَا قَدْ كادَتا أَنْ تَمُوتا مِنَ الْعَطَشِ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ ـ أَوْ سَكَتَ ـ ثُمَّ عَادَ ـ أُرَاهُ قالَ: بِالْهَاجِرَةِ ـ قالَ: يَا نَبِيَّ اللّه، إِنَّهُمَا وَاللّهِ قَدْ مَاتَتَا ـ أَوْ كادَتا أَنْ تَمُوتا ـ قالَ: ادْعُهُمَا. قالَ: فَجَاءَتَا. قالَ: فَجِيءَ بِقَدَحٍ، فَقالَ لِإِحْدَاهُمَا: قِيئِي، فَقاءَتْ قَيْحًا وَدَمًا وَصَدِيدًا وَلَحْمًا عَبِيطًا حَتَّى مَلَأَتْ نِصْفَ الْقَدَحِ. ثُمَّ قَالَ لِلْأُخْرَى: قِيئِي. فَقاءَتْ مِنْ قَيْحٍ وَدَمٍ وَصَدِيدٍ وَلَحْمٍ عَبِيطٍ وَغَيْرِهِ حَتَّى مَلَأَتِ الْقَدَحَ، ثُمَّ قالَ: إِنَّ هَاتَيْنِ صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ اللّهُ لَهُما، وأَفْطَرَتا عَلَى مَا حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِما، جَلَسَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَى فَجَعَلَتَا تَأْكُلَانِ مِنْ لُحُومِ النَّاسِ».

وَقالَ ﷺ: «الصِّيَامُ جُنَّةٌ مَا لَمْ يَخْرِقْها ـ وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِ الْحَدِيثِ ـ قِيلَ: بِمَ يَخْرِقُها؟ قالَ: بِكَذِبٍ أَوْ غِيبَةٍ» رَوَاهُ النَّسَائِي وَالطَّبَرَانِي عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ.

وَقالَ ﷺ: «الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَإِذَا كانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ، وَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ» فَهذِهِ الْأَحَادِيثُ فِيهَا الأمْرُ بِصِيَانَةِ الصَّوْمِ عَمَّا يَجْرَحُهُ.

وَمِنْ آدَابِ الصِّيَامِ: أَنْ تَصُومَ الْجَوَارِحُ عَمَّا حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهَا. فَتَصُومَ

الْأُذُنُ عَنَ الاسْتِمَاعِ لِلَّغْوِ وَالْكَذِبِ وَالْغِيْبَةِ، وَتَصُومَ الْعَيْنُ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْحَرامِ، وَمَا حَظَرَ الشَّرْعُ النَّظَرَ إِلَيْهِ، كالنِّسَاءِ الْأَجْنَبِيَّاتِ وَالْمُرْدَانِ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَهُوَ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ، وَيَصُومَ اللِّسَانُ عَنِ الْكَلَامِ الْقَبِيحِ كَما تَقَدَّمَ.

وَمِنْ آدَابِ الصَّائِمِ: تَأْخِيرُ السُّحُورِ، وَتعْجِيلُ الْفِطْرِ إِذَا تَحَقَّقَ الْغُرُوبُ.

وَمِنْ آدَابِهِ: كَثْرَةُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَأَلَّا يُكْثِرَ الْأَكْلَ بالَّلَيْلِ وَالنَّوْمَ بِالنَّهَارِ بَلْ يَقْتَصِدُ، فَإِذَا سَمِعْتَ مَا ذَكرْنَا عَنِ الْمَرْأَتَيْنِ. وَأَنَّهُما صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ اللّٰهُ وَأَفْطَرَتا عَلَى مَا حَرَّمَ اللّٰهُ، وَذَلِكَ أَنَّهما كانَتا تَغْتابانِ النَّاسَ، فاحْرِصْ عَلَى الْحَلَالِ وَلَا يَكُنْ يَوْمُ صَوْمِكَ وَيَوْمُ فِطْرِكَ سَوَاءً.

عِبَادَ اللّٰهِ، قَدْ مَضَى عَلَيْكُمْ شُهُورٌ مِن الزَّمَانِ. وَلَعَلَّ أَكْثَرَ أَيَّامِهَا ذَهَبَتْ فِي الْعِصْيَانِ. وَهَا أَنْتُمُ الْيَوْمَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ. وَهُوَ شَهْرُ الإِعْتَاقِ مِنَ النِّيرَانِ لِمَنْ تَرَكَ الذُّنُوبَ وَاسْتَحْيَا مِنْ رَقِيبِهِ «الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ».

شَهْرٌ أَقْبَلَ عَلَى الْمُتَّقِينَ بِالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ وَعَلَى الْمَقْبُولِينَ بِتَكْثِيرِ الْأُجُورِ، وَعَلَى الصَّادِقِينَ بِتَوْفِيرِ النُّورِ، وَعَلَى التَّائِبِينَ بِتَقْوِيمِ الْأُمُورِ، وَجَبْرِ الْمَكْسُورِ، وَعَلَى الْعَامِلِ بِتَوْفِيرِ نَصِيبِهِ «الصَّوْمُ لِي وَأَنا أُجْزِي بِهِ».

شَهْرٌ يَتِمُّ بِهِ الْإِسْعَادُ وَالتَّكْرِيمُ، وَيَتَفَضَّلُ بِجَزِيلِ الْإِنْعَامِ الْمَلِكُ الْكَرِيمُ، وَيُصَفَّدُ فِيهِ كُلُّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ، وَيُعَافَى فِيهِ مَرِيضُ الْخَطَايا السَّقِيمُ، إِذَا امْتَثَلَ أَمْرَ طَبِيبِهِ «الصَّوْمُ لِي وَأَنا أُجْزِي بِهِ».

شَهْرٌ تَتَوَفَّرُ فِيهِ الْعَطَايا وَالْمِنَحُ، وَيَتَحَصَّلُ فِيهِ كُلُّ مَأْمُولٍ مُقْتَرَحٍ، وَيَتِمُّ لِلْعَابِدِ بِالثَّوَابِ الفَرَحُ، وَيَغْفِرُ لِلْعاصِي كُلَّ مَا اجْتَرَحَ، وَيُعادُ عَلَى مَنْ أَصْلَحَ وَصَلَحَ، بِإِدْنَائِهِ وَتَقْرِيبِهِ «الصَّوْمُ لِي وَأَنا أُجْزِي بِهِ».

فِيهِ الْأَحْبَابُ بِالدُّعَاءِ يَعِجُّونَ، وَبِالتَّضَرُّعِ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِهِ يَضِجُّونَ، وَفِي نَهارِهِ مِنَ الْغَفَلَاتِ يَتَحَرَّجُونَ. وَفِي دَياجِيهِ لِلْمَوْلَى الْكَرِيمِ يُناجُونَ، وَبِآمَالِهِمْ لِسَيِّدِهِمْ يَلْتَجِئُونَ، إِذَا سَكَنَ كُلُّ حَبِيبٍ إِلَى حَبِيبِهِ.

شَهْرٌ يَعْفُو فِيهِ عَنْ عِبَادِهِ الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ، فاحْفَظُوهُ لَعَلَّهُ يَحْصُلُ لَكُم بِالتَّقْوَى جَنَّاتُ النَّعِيمِ، وَيَقِيكُمْ فِي الْقِيَامَةِ هَوْلَ الْجَحِيمِ، إِذَا انْزَعَجَتِ الْقُلُوبُ لِهَيْبَةِ مُسَاءَلَةِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ وَعَايَنْتُمْ فِي الْوُقُوفِ شَدِيدَ كُرُوبِهِ «الصَّوْمُ لِي وَأَنا أُجْزِي بِه».

لَقَدْ سَعِدَ وَاللّهِ مَنِ اتَّقَى فِيهِ وَنَجَا، وَلَقَدْ نالَ مَأْمُولَ الْغُفْرَانِ فِيهِ مَنْ رَجَا. وَلَقَدْ تَمَّ حَالُ مَنْ أَفْطَرَ فِيهِ عَلَى السُّؤَالِ وَالْتَجَا. وَتَسَحَّرَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ وَظُلْمَةِ الدُّجَى، بِبُكائِهِ وَنَحِيبِهِ «الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ».

فَصَحِّحُوا - رَحِمَكُمُ اللّهُ - الْفُرُوضَ وَالنَّوَافِلَ. وَاحْتَرِسُوا مِنْ شَهَوَاتِ الْغَفَلَاتِ الْقَوَاتِلِ. وَتَيَقَّظُوا قَبْلَ إِلْحَاقِ الْأَوَاخِرِ بِالْأَوَائِلِ، تَنْجُوا مِنْ عِقَابِ اللّهِ وَتَعْذِيبِهِ، قالَ اللّهُ ﷻ: «الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ».

إِخْوَانِي: جَانِبُوا أَكْلَ الْحَرَامِ فَإِنَّهُ سَبَبُ الطَّرْدِ وَالْهَجْرِ، وَاحْذَرُوا غِيْبَةَ النَّاسِ فَإِنَّهَا تُحْبِطُ الْأَجْرَ، وَعَظِّمُوا شَهْرَكُمْ فَإِنَّهُ عَظِيمُ الْأَمْرِ وَشَرِيفُ الْقَدْرِ، وَانْتَظِرُوا فِيهِ - بِحُسْنِ الْيَقَظَةِ - لَيْلَةَ الْقَدْرِ، فَإِنَّها غَرِيبَةٌ غَرِيبَةٌ، وَعَجِيبَةٌ عَجِيبَةٌ. «الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ».

عِبَادَ اللّهِ: إِيَّاكُمْ فِيهِ وَفُضُولَ الْكَلام، وَاجْتَهِدُوا فِيهِ فِي الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَا صَامَ مَنْ ظَلَّ يَأْكُلُ لُحُومَ الْأَنَامِ، وَلَا قَامَ مَنْ جَسَدُهُ مَعَ الْقَائِمِينَ وَقَلْبُهُ مَعَ النِّيَامِ. فَقُومُوا فِي هَذَا الشَّهْرِ - إِذْ نَزَلَ فِيكُمْ ضَيْفًا - بِوَاجِبِ الْإِكْرَامِ، عَسَاهُ يَقِيكُمْ شَرَّ الْوُقُوفِ عَلَى الْأَقْدَامِ، يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَالنَّسِيبُ مِنْ نَسِيبِه. «الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ».

تَدَرَّعُوا تَقْوَى اللّهِ وَالْوَرَعَ، وَلَازِمُوا الْحَذَرَ قَبْلَ يَوْمِ الْفَزَعِ، وَرَاقِبُوا اللّهَ فَبَيْنَ يَدَيْكُمْ هَوْلُ الْمَطْلَعِ، وَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِهِ لَعَلَّهُ إِذَا اطَّلَعَ مَنَحَكُمْ أَفْضَلَ الْمِنَحِ، وَخَلَعَ عَلَيْكُمْ أَحْسَنَ الْخِلَعِ، فِي دَار جَزَائِهِ وَثَوَابِهِ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَبَرَّأُ الْقَرِيبُ مِنْ قَرِيبِهِ. وَالْحَبِيبُ مِنْ حَبِيبِهِ، فَقَدْ قالَ مَوْلَاكُمْ فِي حَضِّهِ عَلَى الصِّيَامِ وَتَرْغِيبِهِ «الصَّوْمُ لِي وَأَنا أُجْزِي بِهِ».

قالَ:

تَـزَوَّدْ قَـرِيـنًـا مِـنْ فِـعـالِـكَ إِنَّـمـا ... قَرِينُ الْفَتَى فِي الْقَبْرِ مَا كانَ يَفْعَلُ

فَإِنْ كُنْتَ مَشْغُولًا بِشَيْءٍ فَلَا تَكُنْ ... بِغَيْرِ الَّذِي يَرْضَى بِهِ اللّٰهُ تُشْغَلُ

فَلَنْ يَصْحَبَ الْإِنْسَانَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ ... إِلَى قَبْرِهِ إِلَّا الَّـذِي كـانَ يَـعْـمَـلُ

أَلَا إِنَّـمـا الْإِنْـسَـانُ ضَـيْـفٌ لِأَهْـلِـهِ ... يُـقِـيـمُ عِـنْـدَهُـمْ قَـلِـيـلًا ثُـمَّ يَـرْحَـلُ

فَصْـلٌ

قـالَ الـلّٰـهُ تَـعـالَـى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ لَمَّا ذَكَرَ أَحْوالَهُمْ وَنَعْتَهُمْ أَخْبَرَ بِما أَعَدَّهُ لَهُمْ، فَإِنَّ اللّٰهَ أَعَدَّ جَنَّتَهُ، وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ وَقُرَّةِ الْعَيْنِ وَاللَّذَّةِ وَالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ لِأَوْلِيائِهِ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ، فالْجَنَّةُ ضِيَافَةُ اللّٰهِ، أَعَدَّهَا اللّٰهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ نُزُلًا. فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. بَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولَ اللّٰهِ ﷺ يَدْعُو النَاسَ إِلَيْها بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ، فَمَنْ أَجَابَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَأَكَلَ مِنْ تِلْكَ الضِّيَافَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبْ حُرِمَ. أَسْكَنَهَا آدَمَ عليه السلام وَزَوْجَتَهُ وَأُخْرِجَا مِنْهَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ، وَكَمْ لِلّٰهِ مِنْ حِكْمَةٍ فِي إِخْرَاجِ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ.

يا آدَمُ، لَا تَجْزَعْ مِنْ كأْسِ زَلَلٍ كانَتْ سَبَبَ كَيْسِكَ: يا آدَمُ، ذَنْبٌ تَذِلُّ بِهِ لَدَيْنا أَحَبُّ إِلَيْنا مِنْ طَاعَةٍ تُدِلُّ بِهَا عَلَيْنا. يا آدَمُ، لَا تَجْزَعْ مِنْ قَوْلِي لَكَ ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ فَلَكَ خَلَقْتُهَا، وَلَكِنِ اهْبِطْ إِلَى دَارِ الْمُجَاهَدَةِ، وَابْذُرْ بُذُورَ التَّقْوَى، وَأَمْطِرْ عَلَيْهِ سَحَائِبَ الْجُفُونِ، فَإِذَا اشْتَدَّ الْحُبُّ وَاسْتَوَى، فَتَعَالَ فاحْصُدْهُ، فالْجَنَّةُ لَيْسَتْ دَارَ عَمَلٍ وَمُجَاهَدَةٍ، إنَما هِيَ دَارُ نَعِيمٍ وَمُشَاهَدَةٍ، اهْبِطْ إِلَى رِبَاطِ الْجِهَادِ وَصَابِرْ جُنُودَ الهَوَى بِالْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ، وَاذْرِفْ دُمُوعَ الْأَسَفِ عَلَى الْبِعَادِ، فَكأَنَّكَ بِالْعَيْشِ الْمَاضِي وَقَدْ عَادَ، عَلَى أَكْمَلَ مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ الْمُعْتَادِ.

شِعْر:

إنْ جـرَى بَـيْـنَـنَـا وَبَـيْـنَـكَ عَـتْـبٌ   وَتَـنَـاءتْ مِـنَّـا وَمِـنْـكَ الـدِّيَـارُ
فَـالْـوِدَادُ الَّـذِي عَـهِـدَتْ مُـقِـيـمٌ   وَالْـعِـثَـارُ الَّـذِي أَصَـبْـتَ جُـبَـارُ

يا آدَمُ كُنْتَ تَدْخُلُ عَلَيَّ دُخُولَ الْمُلُوكِ عَلَى الْمُلُوكِ، وَالْيَوْمَ تَدْخُلُ دُخُولَ الْعَبِيدِ عَلَى الْمُلُوكِ. يا آدَمُ إِذَا عَصَمْتُكَ وَعَصَمْتُ بَنِيكَ مِنَ الذُّنُوبِ، فَعَلَى مَنْ أَجُودُ بِحِلْمِي؟ وَعَلَى مَنْ أَجُودُ بِعَفْوِي وَمَغْفِرَتِي وَتَوْبَتِي وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

وفِي الْحَدِيثِ الإِلٰهِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ «يا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ فَمَنْ عَلِمَ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى الْمَغْفِرَةِ غَفَرْتُ لَهُ وَلَا أُبَالِي».

سُبْحَانَ مَنْ إِذَا لَطَفَ بِعَبْدِهِ فِي الْمِحَنِ قَلَبَهَا مِنَحًا، وَإِذَا خَذَلَ عَبْدًا لَمْ يَنْفَعْهُ كَثْرَةُ اجْتِهَادِهِ، وَعَادَ عَلَيْهِ وَبالًا. لَقَّنَ آدَمَ حُجَّتَهُ وَتابَ عَلَيْهِ، وَطَرَدَ إِبْلِيسَ بَعْدَ طُولِ خِدْمَتِهِ فَصَارَ عَمَلُهُ هَبَاءً مَنْثُورًا، إِذَا وَضَعَ عَدْلَهُ عَلَى عَبْدٍ لَمْ تَبْقَ لَهُ حَسَنَةٌ، وَإِذَا بَسَطَ فَضْلَهُ عَلَى عَبْدٍ لَمْ تَبْقَ لَهُ سَيِّئَةٌ.

شِعْر:

يُعْطِي وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ كَمَا يَشَا   وَهِبَاتُهُ لَيْسَتْ تُقَارِنُهَا الرِّشَا

يَا مَنْ كُلَّمَا طَالَ عُمْرُهُ زَادَ ذَنْبُهُ، يَا مَنْ كُلَّمَا ابْيَضَّ شَعْرُهُ بِمُرُورِ الأَيَّامِ اسْوَدَّ بِالآثَامِ قَلْبُهُ:

شَـيْـخٌ كَـبِـيـرٌ لَـهُ ذُنُـوبٌ   تَـعْـجِـزُ عَـنْ حَـمْـلِـهَـا الْـمَـطَـايَـا
قَـدْ بَـيَّـضَـتْ شَـعْـرَهُ الـلَّـيَـالِـي   وَسَـوَّدتْ قَـلْـبَـهُ الْـخَـطَـايَـا

اللَّهُمَّ يَا مَنْ غَفَرَ السَّيِّئَاتِ وَضَاعَفَ الْحَسَنَاتِ، وَوَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ نَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَنَا مِنْ عِبَادِكَ الْمُتَّقِينَ وَأَنْ تَجعَلَنَا يَوْمَ الْفَزَعِ آمِنِينَ.

اللَّهُمَّ ارْحَمْنَا مِنَ الْمُخَالَفَةِ وَالْعِصْيَانِ، وَاصْرِفْ عَنَّا آفَاتِ التَّفْرِيطِ وَالنِّسْيَانِ، وَاجْعَلْ مَآلَنَا إِلَى فَسِيحِ الْجِنَانِ، وَأَعِذْنَا مِنْ دَارِ الْعَذَابِ وَالْهَوَانِ.

اللَّهُمَّ هَبْ لَنَا مَا وَهَبْتَهُ لِعِبَادِكَ الْأَخْيَارِ، وَانْظِمْنَا فِي سِلْكِ الْمُقَرَّبِينَ وَالْأَبْرَارِ، وَآتِنَا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، وَاغْفِرْ اللَّهُمَّ لَنا، وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الْعَاشِرُ
فِي فَضْلِ الْكَرَمِ وَالْجُودِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ

الْحَمْدُ لِلّهِ وَاسِعِ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ، وَمُضَاعِفِ الْحَسَنَاتِ لِذَوِي الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ، الْغَنِيِّ الَّذِي سَمَتْ نِعْمَتُهُ إِلَى كُلِّ حَيٍّ، وَوَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَمْ تَزَلْ سَحَائِبُ جُودِهِ تَسِحُّ الْخَيْرَاتِ كُلَّ وَقْتٍ وَأَوَان. الْكَرِيمُ الَّذِي تَأَذَّنَ بِالْمَزِيدِ لِذَوِي الشُّكْرَانِ. الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، وَلَا تَغِيضُ نَفَقاتُهُ بِمَرِّ الدُّهُورِ وَالْأَزْمَانِ، لَا يَمَلُّ سُؤَالَ السَّائِلِينَ، وَلَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ الْمُلِحِّينَ، وَلَا تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ حَوَائِجُ الطَّالِبِينَ. مَعَ تَفَنُّنِ السُّؤَالَاتِ وَاخْتِلَافِ اللِّسَانِ. الْعَلِيمُ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَوَاطِرُ الْجَنَانِ، وَلَا مَا أَكَنَّتْهُ الْخَوَاطِرُ وَالْأَذْهَانُ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي أَيِّ مَكانٍ. وَلَا يَغِيبُ عَنْ بَصَرِهِ جَرَيانُ الْأَغْذِيَةِ فِي الْأَبْدَانِ. تُسَبِّحُهُ الْمَسَاكِنُ وَالسُّكَّانُ، وَتُقَدِّسُهُ الْأَمْلَاكُ وَالْأَفْلَاكُ وَالْأَكْوَانُ.

فَسُبْحَانَ مَنْ كُلُّ الْوَرَى سَبَّحُوا لَهُ ... إِذَا سَبَّحُوا وَكَبَّرُوهُ وَهَلَّلُوا
قَرِيبٌ مُجِيبٌ يَسْتَجِيبُ لِمَنْ دَعَا ... جَوَادٌ إِذَا أَعْطَى الْعَطَا يَتَجَزَّلُ
يَسِحُّ مِنَ الْإِحْسَانِ سَحًّا عَلَى الْوَرَى ... وَهُوبٌ جَوَّادٌ مُحْسِنٌ مُتَفَضِّلُ
إِذَا سُئِلَ الْخَيْرَاتِ أَعْطَى جَزِيلَهَا ... وَيَدْفَعُ مَكْرُوهَ الْبَلَا وَيُزَوِّلُ
لَهُ الْحَمْدُ، حَمْدًا طَيِّبًا وَمُبَارَكًا ... كَثِيرًا فَضِيلًا حَاصِلًا مُتَحَصِّلُ

مَلَا الْعَرْشَ وَالْكُرْسِيَّ مَعَ الْأَرْضِ وَالسَّمَا ... وَمَلَا الَّذِي بعيْنِ الطَّرَائِقِ يَفْصِلُ
وَأَشْهَدُ أَنَّ اللّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ ... كَرِيمٌ رَحِيمٌ يُرْتَجَى وَيُؤَمَّلُ
وَأَشْهَدُ مَا ربٌّ إِلٰهٌ مُدَبِّرٌ ... سِوَاهُ وَلَوْلَاهُ الْوُجُودُ تَعَطَّلُوا
قَدِيمٌ كَرِيمٌ مُسْتَقِيمٌ عَلَى الْبَقَا ... جَوَادٌ وَلِلْخَيْرَاتِ فَهُوَ الْمُنَوِّلُ
جَوَادٌ كَرِيمٌ مُحْسِنٌ دَائِمُ النَّدَا ... وَجُودَاهُ لَا تَبْلَى وَلَا تَتَبَدَّلُ
عَفُوٌّ يُحِبُّ الْعَفْوَ مِنْ كُلِّ خَلْقِهِ ... عَنِ الْجُودِ وَالْإِحْسَانِ لَا يَتَحَوَّلُ
لَهُ تُرْفَعُ الْأَعْمَالُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ... بِأَيْدِي كِرَامٍ كَاتِبِينَ وَتُحْمَلُ
عَلَيْهِ اعْتِمَادِي وَاتِّكَالِي وَرَغْبَتِي ... وَإِصْلَاحُ شَأْنِي مُجْمَلٌ وَمُفَصَّلُ

فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلهٍ عَظِيم قامَ بِتَدْبِيرِ الْخلائِقِ، وَلَا يُلْهِيهِ شَأْنٌ عَنْ شَأْن ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَفُوقُ الْعَدَّ وَالْحِسْبَانِ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا نَنالُ بِهِ مِنْهُ مَوَاهِبَ الرِّضْوَانِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، دَائِمُ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ، وَمُبْرِزُ كُلِّ مَنْ سِوَاهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الوِجْدَانِ، وَعَالِمُ الظَّوَاهِرِ، وَمَا انْطَوَى عَلَيْهِ الْجَنَانُ.

وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَخِيرَتُهُ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ، نَبِيٌّ رَفَعَ اللّهُ بِهِ الْحَقَّ حَتَّى اتَّضَحَ وَاسْتَبَانَ، وَأَوْهَى بِهِ بِناءَ الشِّرْكِ حَتَّى وَهَى وَهَانَ، وَأَمَاطَ ظُلَمَ الْبَاطِلِ وَشُبَهَ الْبُهْتَانِ. صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْجُودِ وَالْوَفَاءِ وَالْإِحْسَانِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ يَقُولُ اللّهُ تَعالَى آمِرًا الْعِبَادَ بِأَنْ يَتَّقُوهُ جُهْدَهُمْ وَطاقَتَهُمْ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ وَقالَ ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» وَكانَ الصَّحابَةُ لَمَّا سَمِعُوا قَوْلَهُ تَعالَى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ قامُوا حَتَّى وَرِمَتْ عَرَاقِيبُهُمْ، وَتَقَرَّحَتْ جِباهُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الآيَةَ تَخْفِيفًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ. ثُمَّ حَثَّ اللَّهُ تَعالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِأَوامِرِهِ وَتَرْكِ نَواهِيهِ، ثُمَّ قالَ ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ﴾ أَيْ: ابْذُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ عَلَى الأَقارِبِ وَالْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ وَذَوِي الْحاجاتِ. ثُمَّ قالَ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

أَخْرَجَ أَحْمَدُ عَنْ جابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُماتٌ يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ».

وَكانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ يَطُوفُ بالْبَيْتِ وَيَقُولُ «اللَّهُمَّ قِنِي شُحَّ نَفْسِي» لا يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ.

وَقالَ ﷺ: «بَرِيءٌ مِنَ الشُّحِّ مَنْ أَدَّى الزَّكاةَ، وَقَرَى الضَّيْفَ وَأَعْطَى فِي النَّائِبَةِ» رَواهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَلَقَ اللَّهُ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ، وَدَلَّى فِيهَا ثِمارَهَا، وَشَقَّ فِيهَا أَنْهارَهَا. ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْها فَقالَ لَها: تَكَلَّمِي، فَقالَتْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ①﴾، فَقالَ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا يُجاوِرُنِي فِيكِ بَخِيلٌ» رَواهُ الطَّبَرانِيّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وَقالَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيا فِي آخِرِ رِوَايَاتِهِ «ثُمَّ تَلا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾».

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا ﷺ قالَ: «كانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ. وَكانَ أَجْوَدَ ما يَكُونُ فِي رَمَضانَ، حِينَ يَلْقاهُ جِبْرِيلُ فَيُدارِسُهُ الْقُرْآنَ. وَكانَ جِبْرِيلُ ﷺ يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضانَ فَيُدارِسُهُ الْقُرْآنَ. فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ يَلْقاهُ جِبْرِيلُ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ» وَأَخْرَجَهُ الإِمامُ أَحْمَدُ بِزِيادَةٍ فِي آخِرِهِ وَهِيَ: «لا يُسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَعْطاهُ».

الْجُودُ: هُوَ سَعَةُ الْعَطاءِ وَكَثْرَتُهُ، وَاللّهُ تَعالَى يُوصَفُ بِالْجُودِ.

وَفِي التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللّهَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ».

وَفِيهِ أَيْضًا مِنْ حدِيثِ أَبِي ذَرٍّ الْآتِي إِنْ شَاءَ اللّهُ تعالَى عَن النَّبِيِّ ﷺ عَنْ رَبهِ أَنَّهُ قالَ: «يا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ ما بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي إِلَّا كَما لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِالْبَحْرِ فَغَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ثُمَّ رَفَعَها إِلَيْهِ. ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ وَاجِدٌ مَاجِدٌ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ. عَطَائي كَلَامٌ. وَعَذَابِي كَلَامٌ. إِنَّما أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ».

وَعَنِ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ أَنَّه قالَ: مَا مِنْ لَيْلَةٍ اخْتَلَطَ ظَلَامُهَا وَأَرْخى اللَّيْلُ سِرْبالَ سَتْرِهَا إِلَّا نادَى الْجَلِيلُ جَلَّ جَلَالُهُ: «مَنْ أَعْظَمُ مِنِّي جُودًا وَالْخَلَائِقُ لِي عَاصُونَ، وَأَنا لَهُمْ مُرَاقِبٌ؟ أَكلَأُهُمْ فِي مَضاجِعِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْصَوْنِي، وَأَتَوَلَّى حِفْظَهُمْ كأَنَّهُمْ لَمْ يُذْنِبُوا فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ. أَجُودُ بِالْفَضْلِ عَلَى الْعَاصِي. وَأَتَفَضَّلُ عَلَى الْمُسِيءِ. مَنْ ذَا الَّذِي دَعَانِي فَلَمْ أَسْتَجِبْ لَهُ، أَمْ مَنْ ذَا الَّذِي سَأَلَنِي فَلَمْ أُعْطِهِ؟ أَمْ مَنْ ذَا الَّذِي أَناخَ بِبَابِي فَنَحَّيْتُهُ؟ أَنا الْفَضْلُ وَمِنِّي الْفَضْلُ. أَنا الْجَوَادُ وَمِنِّي الْجُودُ. وَأَنَا الْكَرِيمُ وَمِنِّي الْكَرَمُ. وَمِنْ كَرَمِي أَنْ أَغْفِرَ لِلْعاصِي بَعْدَ الْمَعَاصِي، وَمِنْ كَرَمِي أَنْ أُعْطِيَ الْعَبْدَ مَا سأَلَنِي وَأُعْطِيَه مَا لَمْ يَسْأَلْنِي. وَمِنْ كَرَمِي أَنْ أُعطِيَ التَّائِبَ كَأَنَّهُ لَمْ يَعْصِنِي فَأَيْنَ إِلَى غَيْرِي يَهْرَبُ الْخَلَائِقُ؟ وَأَيْنَ عَنْ بَابِي يَلْتَجِىءُ الْعَاصُونَ؟».

وَلِبَعْضِهِمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى شِعْر:

أَسَأْتُ وَلَمْ أُحْسِنْ وَجِئْتُكَ هَارِبًا ... وَإِنِّي لَعَبْدٌ عَنْ مَوالِيهِ يَهْرَبُ

يُؤَمِّلُ غُفْرَانًا فَإِنْ خَابَ ظَنُّهُ ... فَمَا أَحَدٌ مِنْهُ عَلَى الْأَرْضِ أَخْيَبُ

فاللّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى أَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ، وَجُودُهُ يَتَضاعَفُ فِي أَوْقاتٍ خَاصَّةٍ كَشَهْرِ رَمَضَانَ، وَفِيهِ أُنْزِلَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

وَفِي الْحَدِيثِ الّذي أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ «أَنَّهُ يُنَادِي فِيهِ مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ هَلُمَّ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ .وَلِلّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ. وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ».

وَلَمَّا كانَ اللّهُ ﷻ قَدْ جَبَلَ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى أَكْمَلِ الْأَخْلَاقِ وَأَشْرَفِهَا، كَمَا قالَ ﷺ: «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» ذَكَرَهُ مَالِكٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. فَكَانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ كُلِّهُمْ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ عَدِيٍّ بِإِسْنَادٍ فِيهِ ضَعْفٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ مَرْفُوعًا «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْأَجْوَدِ الأجْوَدِ؟ اللّهُ الْأَجْوَدُ، وَأَنَا أَجْوَدُ بَنِي آدَمَ، وَأَجْوَدُهُمْ مِنْ بَعْدِي رَجُلٌ عَلِمَ عِلْمًا فَنَشَرَ عِلْمَهُ، يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ. وَرَجُلٌ جَادَ بِنَفْسِهِ فِي سَبِيلِ اللّهِ».

فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ ﷺ أَجْوَدُ بَنِي آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، كَمَا أَنَّهُ أَفْضَلُهُمْ وَأَشْجَعُهُمْ وَأَكْمَلُهُمْ فِي جَمِيعِ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ.

وَكَانَ جُودُهُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْجُودِ: مِنْ بَذْلِ الْعِلْمِ وَالْمَالِ، وَبَذْلِ نَفْسِهِ لِلّهِ تَعالَى فِي إِظْهَارِ دِينِهِ، وَهِدَايَةِ عِبَادِهِ، وَإِيصَالِ النَّفْعِ إِلَيْهِمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ مِنْ: إِطْعَامِ جَائِعِهِمْ وَوَعْظِ جَاهِلِهِمْ، وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ، وَتَحَمُّلِ أَثْقَالِهِمْ. وَلَمْ يَزَلْ ﷺ عَلَى هَذِهِ الْخِصَالِ مُنْذُ نَشَأَ. وَلِهَذَا قالَتْ خَدِيجَةُ فِي أَوَّلِ مَبْعَثِهِ لَمَّا رَأَى شَيْئًا أَزْعَجَهُ، وَذَلِكَ فِي أَوَائِلِ النُّبُوَّةِ. وَقالَ لَهَا: «لَقَدْ خِفْتُ عَلَى نَفْسِي، فَقالَتْ: وَاللّهِ لَا يُخْزِيكَ اللّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»، ثُمَّ تَزَايَدَتْ هَذِهِ الْخِصَالُ فِيهِ بَعْدَ الْبِعْثَةِ وَتَضاعَفَتْ أَضْعَافًا كَثِيرَةً.

فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ قالَ: كانَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ «أَحْسَنَ النَّاسِ وَأَشْجَعَ النَّاسِ وَأَجْوَدَ النَّاس».

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِم عَنْهُ قالَ: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ فَجاءَ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فقالَ: يا قَوْم أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطاءَ مَنْ لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ».

قالَ أَنَسٌ: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ، مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيا، فَما يُمْسِي حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيا وَما عَلَيْها» وَفيهِ أَيْضًا عَنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ قالَ: «لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لَمِنْ أَبْغَضِ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ».

قالَ ابْنُ شِهَابٍ: أَعْطَاهُ يَوْمَ حُنَيْنٍ مِائَةً مِنَ الْغَنَمِ، ثُمَّ مِائَةً، ثُمَّ مِائَةً.

وَفِي مَغَازِي الْوَاقِدِيِّ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَعْطَى صَفْوَانَ يَوْمَئِذٍ وَادِيًا مَمْلُوءًا إِبِلًا وَغَنَمًا. فَقالَ صَفْوَانُ: أَشْهَدُ مَا طَابَتْ بِهَذَا إِلَّا نَفْسُ نَبِيٍّ».

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ «أَنَّ الْأَعْرَابَ عَلِقُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ مَرْجِعَهُ مِنْ حُنَيْنٍ. يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَقْسِمَ بَيْنَهُمْ، فَقالَ: لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بَخِيلًا وَلَا كَذُوبًا وَلَا جَبَانًا» فَصَلَّى اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَرُسُلُهُ وَأَنْبِيَاؤُهُ عَلَى هَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، وَالرَّسُولِ الْمُصْطَفَى بِالْفَضْلِ وَالتَّكْرِيمِ.

شِعْر:

وَيُظْهِرُ عَيْبَ الْمَرْءِ فِي النَّاسِ بُخْلُهُ	وَيَسْتُرُهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا سَخَاؤُهُ
تَغَطَّ بِأَثْوَابِ السَّخَاءِ، فَإِنَّنِي	أَرَى كُلَّ عَيْبٍ فالسَّخاءُ غِطَاؤُهُ

فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَأَسَّى بِنَبِيِّهِ ﷺ، وَيَتَصَدَّقَ بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لِيُوَاسِيَ الفُقَرَاءَ وَأَهْلَ الْحَاجَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرِيمَ مِنْ عِبَادِهِ. جَوَادٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْجُودِ. وَالْبُخْلُ لَا يَزِيدُ فِي الرِّزْقِ، فَإِنَّ الْبَخِيلَ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ، بَعِيدٌ مِنْ

خَلْقِهِ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ، وَالسَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللّٰهِ، قَرِيبٌ مِنْ خَلْقِهِ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ، فَجُودُ الرَّجُلِ يُحَبِّبُهُ إِلَى أَضْدَادِهِ، وَبُخْلُهُ يُبَغِّضُهُ إِلَى أَوْلَادِهِ.

وَقالَ بَعْضُهُمْ وَأَفادَ:

وَإِنْ كَرِيمَ النَّاسِ فِيهِمْ مُحَبَّبٌ … قَرِيبٌ مِنَ الْحُسْنَى بَعِيدٌ مِنَ الرَّدِ
يُغَطِّي عُيُوبَ الْمَرْءِ فِي النَّاسِ جُودُهُ … وَيُخْمِلُ ذِكْرَ النَّابِهِ الْبُخْلُ فابْعُدِ
وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلْبَذْلَ يَنْقُصُ مَا أَتَى … وَلَا ٱلْبُخْلَ جَلَّابَ ٱلْغِنَى وَٱلتَّزَيُّدِ
فَسَارِعْ إِلَى فِعْلِ ٱلْمَعَالِي، وَدَعْ فَتًى … تَوَانَى عَنِ ٱلْعَلْيَا لِكَسْبِ مُصَرَّدِ

فَصْلٌ

قالَ اللّٰهُ تَعالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ وَقالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ وَقالَ جَلَّ ذِكْرُهُ عَنِ ٱلْأُخْرَيَيْنِ: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾.

أَخْرَجَ ٱلْبُخَارِيُّ وَٱلتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَس رضي الله عنه قالَ: قالَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، إِنْ شِئْتُمْ فَاقْرَأُوا ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾».

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ قِيَامًا وَقُعُودًا وَمُضْطَجِعِينَ عَلَى أَيِّ حَالٍ شَاءُوا» رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ.

وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ: «عِنْدَ خَتْمِ الْقُرْآنِ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، وَشَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ».

وَرَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «نَخْلُ الْجَنَّةِ جُذُوعُهَا مِنْ زُمُرُّدٍ أَخْضَرَ، وَكَرَمُهَا ذَهَبٌ أَحْمَرُ، وَسَعَفُهَا كُسْوَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، مِنْهَا مُقَطَّعَاتُهُمْ

وَحُلَلُهُمْ، وَثَمَرُهَا أَمْثَالُ الْقِلَالِ، أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وأَلْيَنُ مِنَ الزُّبْدِ، وَلَيْسَ لَهَا عَجْمٌ».

وَعَنْ زَيْدِ بنِ أَرْقَمَ ﷺ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، تَزْعُمُ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ؟ فَقَالَ: والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيُؤْتَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجِمَاعِ وَالشَّهْوَةِ. قَالَ: فَإِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ تَكُونُ لَهُ الْحَاجَةُ؟ قَالَ: حَاجَتُهُمْ عَرَقٌ يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ مِثْلَ رِيحِ المِسْكِ، فَإِذَا كانَ ذَلِكَ ضَمَرَ لَهُ بَطْنُهُ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُبَارَكِ وَالطَّبَرَانِيُّ عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَسْفَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَجْمَعِينَ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَقُومُ عَلَى رَأْسِهِ عَشَرَةُ آلَافٍ، بِيَدِ كُلِّ وَاحِدٍ صَحْفَتَانِ: وَاحِدَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَالأُخْرَى مِن فِضَّةٍ، فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ لَوْنٌ لَيْسَ فِي الأُخْرَى مِثْلُهُ، يَأْكُلُ مِنْ آخِرِهَا مِثْلَ مَا يَأْكُلُ مِنْ أَوَّلِها، يَجِدُ لِآخرِهَا مِنَ الطِّيبِ وَاللَّذَّةِ مِثْلَ الَّذِي يَجِدُهُ لِأَوَّلِها، ثُمَّ يَكُونُ ذَلِكَ رِيحَ الْمِسْكِ الأَذْفَرِ، لا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَتَمَخَّطُونَ، إِخْوَانٌ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ». فَنَسْأَلُ اللَّهُ تَعالَى أَنْ لَا يَحْرِمَنَا فَضْلَهُ بِذُنُوبِنا وَسَيِّئَاتِنَا، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْجَنَّةَ الَّتِي سَمِعْتَ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَكارِهِ، فَمَتَى أَرَدْتَها فاصْبِرْ عَلَى مَا تَكْرَهُ لَعَلَّكَ تَنَالُ مَا تَحِبُّ.

عِبَادَ اللَّهِ: هَلُمَّوا إِلَى دَارٍ لَا يَمُوتُ سُكَّانُها، وَلَا يَخْرَبُ بُنْيَانُها، وَلَا يَهْرَمُ شُبَّانُها، وَلَا يَتَغَيَّرُ حُسْنُهَا وَإِحْسَانُها. هَوَاؤُهَا النَّسِيمُ. مَاؤُهَا التَّسْنِيمُ، يَتَقَلَّبُ أَهْلُهَا فِي رَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ، وَيَتَمَتَّعُونَ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ كُلَّ حِينٍ ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾.

قالَ:

وَطَعَامُهُمْ مَا تَشْتَهِيهِ نُفُوسُهُمْ ... وَلُحُومُ طَيْرٍ نَاعِمٍ وَسَمَانِ
وَفَوَاكِهٌ شَتَّى بِحَسْبِ مُنَاهُمُ ... يَا شَبْعَةً كَمُلَتْ لِذِي الْإِيمَانِ
لَحْمٌ وَخَمْرٌ وَالنِّسَا وَفَوَاكِهٌ ... وَالطِّيبُ مَعْ رُوحٍ وَمَعْ رَيْحَانِ
وَصِحَافُهُمْ ذَهَبٌ تَطُوفُ عَلَيْهِمُ ... بِأَكُفِّ خُدَّامٍ مِنَ الْوِلْدَانِ

اللَّهُمَّ أَيْقِظْنَا مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ وَالْجَهَالَةِ، وَعَافِنا مِنْ دَارِ الْفُتُورِ وَالْبِطَالَةِ، وَارْزُقْنَا الْاسْتِعْدَادَ لِما وَعَدْتَنا، وَأَدِمْ عَلَيْنا فَضْلَكَ وَإِحْسَانَكَ كَما عَوَّدْتَنا، وَامْنُنْ عَلَيْنا بِإِتْمامِ مَا بِهِ أَكْرَمْتَنَا.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ كِتَابَنَا فِي عِلِّيِّينَ، وَلَا تَجْعَلْنا عَنْ جَنَابِكَ مَطْرُودِينَ، وَلَا عَنْ بابِكَ مَحْجُوبِينَ. وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ. الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الْحَادِي عَشَرَ
فِي ذِكْرِ الْعَشْرِ الْأَوْسَطِ مِنْ رَمَضَانَ، وَفَضْلِ الْإِنْفَاقِ وَالْجُودِ

الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي احْتَجَبَ فِي هَذِهِ الدَّارِ عَنْ لَوَاحِظِ خَلْقِهِ وَامْتَنَعَ، وعَلَا بِقَهْرِهِ وَقَدْرِهِ وَذَاتِهِ فَوْقَ جَمِيعَ مَخْلُوقَاتِهِ وَارْتَفَعَ. وَأَوْجَدَ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ بِقُدْرَتِهِ وَاخْتَرَعَ. وَبَسَطَ الْأَرْضَ عَلَى تَيَّارِ الْمَاءِ وَوَضَعَ، وَأَمْسَكَ السَّمَوَاتِ بِقُدْرَتِهِ أَنْ تَزُولَ أَوْ تَقَعَ، وَفَتَقَ صُمَّ الْحِجَارَةِ عَنْ شَجَرٍ فَطَلَعَ. الْمُتَفَرِّدِ بِإِبْدَاعِ الْعِلْمِ وَإِنْشَاءِ فُنُونِهِ. وَالْعَالِمِ بِسِرِّ الْعَبْدِ وَجَهْرِهِ وَظُنُونِهِ. وَالْمُطَّلِعِ عَلَى ظَاهِرِ الْأَمْرِ وَمكْنُونِهِ، وَرَاحِمِ مَنِ ٱنْطَرَحَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَخَضَعَ. خَالِقِ الْأَرْوَاحِ وَمُصَوِّرِ الْأَشْبَاحِ، وَٱلْمُولِي لِمَنْ عَامَلَهُ جَزِيلَ الْأَرْبَاحِ، وَمُوَسِّعِ الرِّزْقِ عَلَى الْخَلَائِقِ فَغَمَرَ وَأَوْسَعَ، عَالِمِ السِّرِّ وَٱلْجَهْرِ. وَقاصِمِ ٱلْجَبَابِرَةِ بِالْعِزِّ وَالْقَهْرِ، وَٱلْمُتَكَفِّلِ بِالْمَزِيدِ لِمَنْ حَمِدَهُ وَشَكَرَهُ. وَالتَّائِبِ عَلَى ٱلْمُنِيبِ إِذَا وَقَفَ بالبَابِ وَقَرَعَ. وَأَقْلَعَ عَنْ فِعْلِهِ ٱلْقَبِيحِ وَنَزَعَ.

فَسُبْحَانَ مَنْ أَعْطَى وَمَنَعَ. وَخَفَضَ وَرَفَعَ. وَوَصَلَ وَقَطَعَ. وَشَرَعَ الشَّرَائِعَ فَأَحْكَمَ مَا شَرَعَ. إِلٰهٌ تَفَرَّدَ بالْكِبْرِياءِ وَالْكَمَالِ. وَبَابُهُ ٱلْكَرِيمُ مَنَاخُ الْآمَالِ وَمَحَطُّ الرِّحَالِ، وَجُودُهُ وَفَضْلُهُ عَلَى كافَّةِ خَلْقِهِ قَد ٱنْتَشَرَ وَٱتَّسَعَ.

أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ حَمْدَ مَنْ أَنَابَ إِلَيْهِ ورجَعَ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا صَرَفَ مِنَ المَكْرُوهِ وَدفَعَ.

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِلٰهٌ ذَلَّ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَخضَعَ، وَعَلِمَ مَا تُسِرُّهُ الضَّمَائِرُ وَاطَّلَعَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أَفْضَلُ مُرْسَلٍ وَأَهْدَى مُتَّبَعٍ، نَبِيٌّ نَظَمَ اللَّهُ بِهِ شَمْلَ الإِسْلَامِ، وَأَشَادَ بِهِ مَنَارَ التَّوْحِيدِ وَأَذَلَّ بِهِ الشِّرْكَ وَوَضَعَ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ صَلَاةً مُتَوَاتِرَةً مَا لَيْلٌ دَجَى وَفَجْرٌ طَلَعَ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾؟، هَذَا حَثٌّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ عَلَى الإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ، وَطُرُقِ الخَيْرَاتِ لِيُضَاعِفَ لَهُمُ الأُجورَ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُضَاعِفُ الحَسَنَةَ أَلْفَيْ أَلْفِ حَسَنَةٍ» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَكَانَ جُودُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَضَاعَفُ فِي رَمَضَانَ، وَكَانَ جُودُهُ ﷺ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَفِي ٱبْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ يَبْذُلُ المَالَ إِمَّا لِفَقِيرٍ أَوْ مُحْتَاجٍ، أَوْ يُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ يَتَأَلَّفُ بِهِ عَلَى الإِسْلَامِ مَنْ يُقَوِّي الْإِسْلَامَ بِإِسْلَامِهِ، وَكَانَ يُؤْثِرُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ. فَيُعْطِي عَطَاءً يَعْجَزُ عَنْهُ الْمُلُوكُ مِثْلُ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَيَعِيشُ فِي نَفْسِهِ عَيْشَ الْفُقَرَاءِ، فَيَأْتِي عَلَيْهِ الشَّهْرُ وَالشَّهْرَانِ لَا يُوقَدُ فِي بَيْتِهِ نَارٌ. وَرُبَّمَا رَبَطَ عَلَى بَطْنِهِ الْحَجَرَ مِنَ الْجُوعِ. وَكَانَ قَدْ أُهْدِيَ إِلَيْهِ شَمْلَةٌ فَلَبِسَهَا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا، فَسَأَلَهُ إِيَّاهَا رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، فَلَامَهُ النَّاسُ، وَقَالُوا: كَانَ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ سَائِلًا، فَقَالَ: إِنَّمَا سَأَلْتُهَا لِتَكُونَ كَفَنِي، فَكَانَتْ كَفَنَهُ.

وَكَانَ قَدْ أَتَاهُ مَرَّةً سَبْيٌ فَشَكَتْ إِلَيْهِ فَاطِمَةُ مَا تَلْقَى مِنْ خِدْمَةِ الْبَيْتِ وَطَلَبَتْ مِنْهُ خَادِمًا يَكْفِيهَا مؤُونَةَ بَيْتِهَا، فَأَمَرَهَا أَنْ تَسْتَعِينَ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ عِنْدَ نَوْمِهَا، وَقَالَ: «لَا أُعْطِيكِ وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تُطْوَى بُطُونُهُمْ مِنَ الْجُوعِ، وَكَانَ جُودُهُ يَتَضَاعَفُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الشُّهُورِ، كَمَا أَنَّ جُودَ رَبِّهِ يَتَضَاعَفُ فِيهِ أَيْضاً؟ فَإِنَّ اللَّهَ جَبَلَهُ عَلَى مَا يُحِبُّهُ مِنَ الأَخْلَاقِ الكَرِيمَةِ.

فَسُبْحَانَ مَنْ اخْتَصَّ هٰذَا النَّبِيَّ بِالأَخْلَاقِ الجَمِيلَةِ، وَالأَفْعَالِ الحَسَنَةِ المُسْتَقِيمَةِ، وَالْعَطَايَا الوَافِرَةِ الْجَسِيمَةِ. وَكَانَ جِبْرِيلُ ﷺ يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ وَيُخَالِطُهُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُخَالَطَةَ تُؤَثِّرُ وَتُورِثُ أَخْلَاقًا مِنَ المُخَالِطِ.

كَانَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ قَدِ ٱمْتَدَحَ مَلِكًا جَوَادًا فَأَعْطَاهُ جَائِزَةً سَنِيَّةً، فَخَرَجَ بِهَا مِنْ عِنْدِهِ وَفَرَّقَهَا كُلَّهَا عَلَى النَّاسِ، فَأَنْشَدَ:

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتَغِي الغِنَى ... وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي

فَبَلَغَ ذَلِكَ الْمَلِكَ فَأَضْعَفَ لَهُ الْجَائِزَةَ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ يَمْتَدِحُ بَعْضَ الأَجْوَادِ، وَلَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ إِلَّا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

تَعَوَّدَ بَسْطَ الكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ ... ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُجِبْهُ أَنَامِلُهُ
تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا ... كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ
هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيِّ النَّوَاحِي أَتَيْتَهُ ... فَلُجَّتُهُ الْمَعْرُوفُ وَالْجُودُ سَاحِلُهْ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ ... لَجَادَ بِهَا، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهْ

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾، قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لَيُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا أَبَا

الدَّحْدَاحِ، قَالَ: أَرِنِي يَدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَنَاوَلَهُ يَدَهُ، قَالَ: فَإِنِّي أَقْرَضْتُ رَبِّي ﷻ حَائِطِي. قَالَ: وَحَائِطُهُ لَهُ فِيهِ سِتُّمِائَةِ نَخْلَةٍ، وَأُمُّ الدَّحْدَاحِ فِيهِ وَعِيَالُهَا. قَالَ: فَجَاءَ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَنَادَاهَا: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ. قَالَتْ: لَبَّيْكَ، قَالَ: ٱخْرُجِي فَقَدْ أَقْرَضْتُهُ رَبِّي ﷻ، فَقَالَتْ: رَبِحَ بَيْعُكَ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ، وَنَقَلَتْ مِنْهُ مَتَاعَهَا وَصِبْيَانَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: رُبَّ نَخْلَةٍ مُدَلَّاةٍ عُرُوقُهَا دُرٌّ وَيَاقُوتٌ لأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ».

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: «كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ. وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ. قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءُ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَخٍ بَخٍ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَيُدْخِلُ بِلُقْمَةِ الْخُبْزِ وَقَبْضَةِ التَّمْرِ وَمِثْلِهِ مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ المِسْكِينُ ثَلاثَةَ الْجَنَّةَ: رَبُّ الْبَيْتِ الآمِرُ بِهِ، وَالزَّوْجَةُ تُصْلِحُهُ، وَالخَادِمُ الَّذِي يُنَاوِلُ المِسْكِينَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الحَمْدُ للَّهِ الَّذِي لَمْ يَنْسَ خَدَمَنَا» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَالحَاكِمُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

وَقَالَ ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» وَالأَحَادِيثُ فِي هٰذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ.

سَمِعَ الشِّبْلِيُّ قَائِلًا يَقُولُ: يَا جَوَادُ، فَتَأَوَّهَ وَصَاحَ وَقَالَ: كَيْفَ يُمْكِنُنِي أَنْ أَصِفَ الحَقَّ بِالْجُودِ، وَمَخْلُوقٌ يَقُولُ فِي شَكْلِهِ، فَذَكَرَ الأَبْيَاتَ المَذْكُورَةَ اللَّائِقَةِ بِالنَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ بَكَىٰ، وَقَالَ: بَلَى يَا جَوَادُ، فَإِنَّكَ أَوْجَدْتَ تِلْكَ الجَوَارِحَ، وَبَسَطْتَ تِلْكَ الهِمَمَ، فَأَنْتَ الْجَوَادُ كُلُّ الْجَوَادِ، فَإِنَّهُمْ يُعطُونَ عَنْ

مَحْدُودٍ، وَعَطَاؤُكَ لَا حَدَّ لَهُ وَلَا صِفَةَ، فَيَا جَوَادُ يَعْلُو كُلَّ جَوَادٍ، وَبِهِ جَادَ كُلُّ مَنْ جَادَ.

وَرَدَ «أَنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: «هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيهِ سُؤْلَهُ، هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبُ عَلَيْهِ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرُ لَهُ، مَنْ يُقْرِضُ المَلِيَّ غَيْرَ الْعَدُومِ، وَالْوَفِيَّ غَيْرَ الظَّلُومِ»، الْمُرَادُ بِذٰلِكَ مَنْ يَتَصَدَّقُ يُضَاعِفُ اللَّهُ لَهُ الأُجُورَ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْتَكِفُ فِي الْعَشْرِ الأَوَاسِطِ مِنْ رَمَضَانَ، فَٱعْتَكَفَ عَامًا حَتَّى إِذَا كَانَتْ لَيْلَةُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، وَهِيَ الَّتِي يَخْرُجُ فِي صَبِيحَتِهَا مِنَ اعْتِكَافِهِ، قَالَ: مَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعِي فَلْيَعْتَكِفِ الْعَشْرَ الأَوَاخِرَ؛ وَقَدْ أُرِيتُ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ ثُمَّ أُنْسِيتُهَا، قَدْ رَأَيْتَنِي أَسْجُدُ فِي مَاءٍ وَطِينٍ مِنْ صَبِيحَتِهَا»؛ فَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الأَوَاسِطَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ لِٱبْتِغَاءِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِيهِ، وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذٰلِكَ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ، ثُمَّ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ذٰلِكَ ٱعْتَكَفَ الْعَشْرَ الأَوَاخِرَ.

وَقَالَ ﷺ فِي فَضْلِ شَهْرِ رَمَضَانَ: «وَهُوَ شَهْرٌ أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَأَوْسَطُهُ مَغْفِرَةٌ، وَآخِرُهُ عِتْقٌ مِنَ النَّارِ»، فَالْغَالِبُ عَلَى أَوْسَطِهِ المَغْفِرَةُ، فَيُغْفَرُ لِلصَّائِمِينَ فِيهِ، وَإِنِ ٱرْتَكَبُوا بَعْضَ الذُّنُوبِ الصَّغَائِرِ، فَلَا يَمْنَعُهُمْ مِنَ المَغْفِرَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾، فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَطْلُبَ أَسْبَابَ الْمَغْفِرَةِ.

فَيَا إِخْوَانِي: إِنَّهُ قَدْ مَضَى مِنْ شَهْرِكُمْ عَشْرُهُ الأُوَلُ، وَهَأَنْتُمْ فِي أَوْسَطِهِ فَٱحْذَرُوا مِنَ الزَّيْغِ والزَّلَلِ، وَتَصَدَّقُوا يُضَاعِفُ اللَّهُ لَكُمُ الْعَمَلَ، وَيَقِيكُمْ هَوْلَ الوُقُوفِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْخَجَلِ.

يَا مَنْ زَمَانُهُ يَنْقَضِي فِي طَلَبِ الأَهْوَاءِ وَالأَغْرَاضِ، يَا غَافِلًا عَنْ سِهَامِ الْمَوْتِ الْحِدَادِ الْعِرَاضِ، يَا مُغْتَرًّا بِطُولِ أَمَلِهِ، وَأَيْدِي الْمَنَايَا فِي أَجَلِهِ، تَقْرِضُ

بِمِقْرَاضٍ، يَا مَغْرُورًا بِصِحَّةِ بَدَنِهِ وَعُمْرُهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي ٱنْتِقَاضٍ، يَا بَعِيدَ الأَمَلِ وَعُمْرُهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي ٱنْقِرَاضٍ، يَا غَافِلًا عَنْ إِعْدَادِ زَادِ رَحِيلِهِ وَقَدْ أَنْذَرَهُ بَعْدَ السَّوَادِ بَيَاضٌ، يَا ضَاحِكًا وَعُيُونُ الْمَنَايَا عَنْهُ غَيْرُ غِمَاضٍ، يَا مُتَحَيِّرًا فِي طَرِيقِهِ وَهُوَ يَرَى الرَّاحِلِينَ مَاضِيًا خَلْفَ مَاضٍ، يَا مَنْ أَنْذَرَهُ الْقُرْآنُ وَرَاضَتْهُ السُّنَنُ فَمَا ٱنْتَذَرَ وَلَا ٱرْتَاضَ، عَجَبًا لِمَنْ هٰذِهِ الشَّدَائِدُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَيْفَ يَقْدِرُ جَفْنُهُ عَلَى الإِغْمَاضِ؟!

عِبَادَ اللَّهِ: مَا هٰذَا الإِكْبَابُ عَلَى الْغَفَلَاتِ وَالأَمْرُ وَاضِحٌ؟ وَمَا هٰذَا التَّصَامُمُ وَقَدْ أَسْمَعَ النَّاصِحُ؟ وَمَا هٰذَا الرُّقَادُ وَقَدْ صَاحَ بِكُمُ الصَّائِحُ؟ سَتَعْلَمُونَ إِذَا نَزَلَ بِكُمُ الخَطْبُ الْعَظِيمُ الْفَادِحُ، وَنُقِلْتُمْ إِلَى بُطُونِ الضَّرَائِحِ، وَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَاسِرُ مِنَ الرَّابِحِ.

شِعْر:

كَأَنَّكَ بِٱلْمُضِيِّ إِلَى سَبِيلِكْ ... وَقَدْ جَدَّ الْمُجَهِّزُ فِي رَحِيلِكْ
وَجِيءَ بِغَاسِلٍ فَاسْتَعْجَلُوهُ ... بِقَوْلِهِمْ لَهُ: ٱفْرُغْ مِنْ غَسِيلِكْ
وَلَمْ تَحْمِلْ سِوَى كَفَنٍ وَقُطْنٍ ... إِلَيْهِمْ مِنْ كَثِيرِكَ أَوْ قَلِيلِكْ
وَقَدْ مَدَّ الرِّجَالُ إِلَيْكَ نَعْشًا ... فَأَنْتَ عَلَيْهِ مَمْدُودٌ بِطُولِكْ
وَصَلَّوْا ثُمَّ أَنَّهُمُ تَدَاعَوْا ... لِحَمْلِكَ مِنْ بُكُورِكَ أَوْ أَصِيلِكْ
فَلَمَّا أَسْلَمُوكَ نَزَلْتَ قَبْراً ... وَمَنْ لَكَ بِالسَّلَامَةِ فِي نُزُولِكْ
أَعَانَكَ يَوْمَ تَدْخُلُهُ رَحِيمٌ ... رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ حَتَّى دُخُولِكْ
فَسَوْفَ تُجَاوِرُ الْمَوْتَى طَوِيلًا ... فَذَي مِنْ قَصِيرِكَ أَوْ طَوِيلِكْ
أُخَيَّ، لَقَدْ نَصَحْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِي ... وَبِاللَّهِ ٱسْتَعَنْتُ عَلَى قَبُولِكْ
أَلَسْتَ تَرَى الْمَنَايَا كُلَّ حِينٍ ... تُصِيبُكَ فِي أَخِيكَ وَفِي خَلِيلِكْ؟

فَصْلٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، هٰذَا مَدْحٌ لأَهْلِ الإِيثَارِ الَّذِينَ يُقَدِّمُونَ الْفُقَرَاءَ

وَالْمَحَاوِيجَ بِإِيثَارِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانُوا هُمْ أَهْلَ حَاجَةٍ. وَهٰذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِي الأَنْصَارِ ﷺ. وَقَدْ كَانَ نَبِيُّكُمْ ﷺ يَتَضَاعَفُ جُودُهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَفِي ذٰلِكَ فَوَائِدُ.

مِنْهَا: شَرَفُ الزَّمَانِ وَمُضَاعَفَةُ أَجْرِ الْعَمَلِ فِيهِ، فَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعاً: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ صَدَقَةٌ فِي رَمَضَانَ».

وَمِنْهَا: إِعَانَةُ الصَّائِمِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالذَّاكِرِينَ عَلَى طَاعَتِهِمْ، فَيَسْتَوْجِبُ الْمُعِينُ لَهُمْ مِثْلَ أُجُورِهِمْ كَمَا أَنَّ مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ فَقَدْ غَزَا.

وَفِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِن أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْءٌ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَزَادَ الطَّبَرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ: «وَمَا عَمِلَ الصَّائِمُ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ إِلَّا كَانَ لِصَاحِبِ الطَّعَامِ مَا دَامَ قُوَّةُ الطَّعَامِ فِيهِ».

وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ سَلْمَانَ، وَفِيهِ: «وَهُوَ شَهْرُ الْمُوَاسَاةِ، وَشَهْرٌ يُزَادُ فِيهِ رِزْقُ الْمُؤْمِنِ، مَنْ فَطَّرَ فِيهِ صَائِمًا كَانَ مَغْفِرَةً لِذُنُوبِهِ وَعِتْقَ رَقَبَتِهِ مِنَ النَّارِ، وَكَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِ شَيْءٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ كُلُّنَا يَجِدُ مَا يُفْطِرُ الصَّائِمَ، قَالَ: يُعْطِي اللَّهُ هٰذَا الثَّوَابَ لِمَنْ فَطَّرَ صَائِمًا عَلَى مَذْقَةِ لَبَنٍ أَوْ تَمْرَةٍ أَوْ شَرْبَةِ مَاءٍ. وَمَنْ أَشْبَعَ فِيهِ صَائِمًا سَقَاهُ اللَّهُ مِنْ حَوْضِي شَرْبَةً لَا يَظْمَأُ بَعْدَهَا حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ».

وَمِنْهَا: أَنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ شَهْرٌ يَجُودُ اللَّهُ فِيهِ عَلَى عِبَادِهِ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالْعِتْقِ مِنَ النَّارِ. وَاللَّهُ تَعَالَىٰ يَرْحَمُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ، فَمَنْ جَادَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ جَادَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

كَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: صَلُّوا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ رَكْعَتَيْنِ لِظُلْمَةِ الْقُبُورِ، صُومُوا يَوْمًا شَدِيدًا حَرُّهُ لِحَرِّ يَوْمِ النُّشُورِ، تَصَدَّقُوا بِصَدَقَةِ السِّرِّ لِيَوْمٍ عَسِيرٍ.

وَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ يُوَاسُونَ مِنْ إِفْطَارِهِمْ أَوْ يُؤْثِرُونَ بِهِ وَيَطْوُونَ.

كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ يَصُومُ وَلَا يُفْطِرُ إِلَّا مَعَ الْمَسَاكِينِ، فَإِذَا مَنَعَهُ أَهْلُهُ عَنْهُمْ لَمْ يَتَعَشَّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ. وَكَانَ إِذَا جَاءَهُ سَائِلٌ وَهُوَ عَلَى طَعَامِهِ أَخَذَ نَصِيبَهُ مِنَ الطَّعَامِ وَقَامَ فَأَعْطَاهُ السَّائِلَ، فَيَرْجِعُ وَقَدْ أَكَلَ أَهْلُهُ مَا بَقِيَ فِي الْجَفْنَةِ؛ فَيُصْبِحُ صَائِمًا وَلَمْ يَأْكُلْ شَيْئًا.

وَٱشْتَهَى بَعْضُ الصَالِحِينَ مِنَ السَّلَفِ طعَامًا وَكَانَ صَائِمًا فَوُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ عِنْدَ فُطُورِهِ، فَسَمِعَ سَائِلًا يَقُولُ: مَنْ يُقْرِضُ الْمَلِيَّ الْوَفِيَّ الْغَنِيَّ؟ فَقَالَ: عَبْدُهُ الْمُعْدِمُ مِنَ الْحَسَنَاتِ، فَقَامَ فَأَخَذَ الصَّحْفَةَ فَخَرَجَ بِهَا إِلَيْهِ، وَبَاتَ طَاوِيًا.

وَجَاءَ سَائِلٌ إِلَى الإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فَدَفَعَ إِلَيْهِ رَغِيفَيْنِ كَانَ يُعِدُّهُمَا لِفِطْرِهِ، ثُمَّ طَوَى وَأَصْبَحَ صَائِمًا.

وَكَانَ الْحَسَنُ يُطْعِمُ إِخْوَانَهُ وَهُوَ صَائِمٌ تَطَوُّعًا، وَيَجْلِس يُرَوِّحُهُمْ وَهُمْ يَأْكُلُونَ.

وَكَانَ ٱبْنُ الْمُبَارَكِ يُطْعِمُ إِخْوَانَهُ فِي السَّفَرِ الأَلْوَانَ مِنَ الْحَلْوَاءِ وَغَيْرِهَا، وَهُوَ صَائِمٌ.

سَلَامُ اللَّهُ عَلَى تِلْكَ الأَرْوَاحِ، رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى تِلْكَ الأَشْبَاحِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا أَخْبَارٌ وَآثَارٌ. كَمْ بَيْنَ مَنْ يَمْنَعُ الْحَقَّ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ وَبَيْنَ أَهْلِ الإِيثَارِ؟

شِعْر:

لَا تَعْرِضَنَّ لِذِكْرِنَا فِي ذِكْرِهِمْ   لَيْسَ الصَّحِيحُ إِذَا مَشَى كَالْمُقْعَدِ

فَيَا لَيْتَنَا إِذَا لَمْ نَكُنْ مِثْلَ هٰؤُلَاءِ الأَخْيَارِ، سَلِمْنَا مِنَ الذُّنُوبِ وَالأَوْزَارِ. وَيَا لَيْتَنَا إِذَا لَمْ نَقْتَدِ بِالسَّلَفِ الْكِرَامِ، تَرَكْنَا الْمُتَشَابِهَ وَالْحَرَامَ. فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْهِدَايَةَ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

اللَّهُمَّ يَا أَكْرَمَ مَنْ رُجِيَ، وَيَا أَحَقَّ مَنْ دُعِيَ، وَيَا خَيْرَ مَنِ ٱبْتُغِيَ، ٱمْنُنْ

عَلَيْنَا بِغُفْرَانِكَ، وَعَامِلْنَا بِفَضْلِكَ وَإِحْسَانِكَ، وَٱجْعَلْنَا مِنْ وَرَثَةِ جَنَّتِكَ، وَنَجِّنَا مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ.

اللَّهُمَّ ٱجْعَلِ الإِيمَانَ لَنَا سِرَاجًا، وَلَا تَجْعَلْهُ لَنَا ٱسْتِدْرَاجًا، وَٱجْعَلْهُ لَنَا سُلَّمًا إِلَى جَنَّتِكَ، وَلَا تَجْعَلْهُ مَكْرًا مِنْ مَشِيئَتِكَ.

اللَّهُمَّ هَبْ لَنَا مَا وَهَبْتَهُ لِعِبَادِكَ الأَخْيَارِ، وَآمِنْ خَوْفَنَا بِيَوْمِ لَا تَنْفَعُ فِيهِ الأَعْذَارُ، بِرَحْمَتِكَ يَا كَرِيمُ يَا غَفَّارُ. وَٱغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الأَحْيَاءَ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الثَّانِي عَشَرَ
فِي فَضْلِ الْقُرْآنِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي تَفَرَّدَ فِي أَزَلِيَّتِهِ بِعِزِّ كِبْرِيَائِهِ، وَتَوَحَّدَ فِي صَمَدِيَّتِهِ بِدَوَامِ بَقَائِهِ، وَنَوَّرَ بِمَعْرِفَتِهِ قُلُوبَ أَوْلِيَائِهِ. الدَّاعِي إِلَى بَابِهِ، وَالْهَادِي لأَحْبَابِهِ، وَالْمُتَفَضِّلِ بِإِنْزَالِ كِتَابِهِ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِلاسْتِعْدَادِ لِيَوْمِ لِقَائِهِ. السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ حَرَكَاتُ ذَرَّةٍ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ عِنْدَ تَلَاطُمِ أَمْوَاجِهِ، وَتَرَاكُمِ ظُلُمَاتِهِ. أَنْزَلَ الْقُرْآنَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَكَلَامُ اللَّهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَظَاهِرُ الْبُرْهَانِ أَنْزَلَهُ بِنَهْيِهِ وَأَمْرِهِ وَوَعْدِهِ وَإِيعَادِهِ وَأَنْبَائِهِ.

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَهُ نُورًا لِلأَبْصَارِ، وَرَبِيعًا لِلأَبْرَارِ، وَحَسْرَةً عَلَى الْكُفَّارِ، وَتَذْكِرَةً لأُولِي الْعُقُولِ مِنَ الْمُتَّقِينَ وَالأَخْيَارِ، وَحَادِيًا لِلنُّفُوسِ مِنْ دَارِ الْغُرُورِ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ، يُبَيِّنُ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ وَأَبْصَرَ نُورَ ضِيَائِهِ. الْمَلِكُ الَّذِي قَسَّمَ عَطَاءَهُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ بِمَشِيئَتِهِ وَقَضَائِهِ. وَأَسْبَغَ عَلَى الْكَافَّةِ جَزِيلَ عَطَائِهِ، وَالْحَيُّ الْعَلِيمُ فَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ خَرْدَلَةٍ فِي أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ. الْوَلِيُّ الْقَدِيرُ فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي تَدْبِيرِهِ وَإِنْشَائِهِ. مَنْ أَقْبَلَ إِلَيْهِ تَلَقَّاهُ، وَمَنِ الْتَجَأَ إِلَيْهِ حَمَاهُ وَوَقَاهُ، وَعَزَّ بِٱلْتِجَائِهِ.

فَسُبْحَانَ مَنْ تَقَرَّبَ بِرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَنُورِ هِدَايَتِهِ إِلَى قُلُوبِ أَحِبَّائِهِ، وَتَعَرَّفَ إِلَى عِبَادِهِ بِمَحَاسِنِ صِفَاتِهِ، فَانْبَسَطُوا لِذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ، وَدَعَانَا إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ﴾.

أَحْمَدُهُ حَمْدَ مُعْتَرِفٍ بِالْعَجْزِ عَنِ آلَائِهِ، مُنْتَظِرٍ زَوَائِدَ بِرِّهِ وَوَلَائِهِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً ضَمِنَ الْحُسْنَى لِقَائِلِهَا يَوْمَ لِقَائِهِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاتَمُ أَنْبِيَائِهِ وَسَيِّدُ أَصْفِيَائِهِ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَخُلَفَائِهِ، وَمَنِ اقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ فَفَازَ بِاقْتِفَائِهِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَلَهُمَا عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا حُلْوٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ».

وَأَخْرَجَا أَيْضًا عَنْ عُثْمَانَ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«مَا ٱجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ».

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: ٱقْرَأْ وارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُهَا» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: جَاءَ فِي الأَثَرِ: أَنَّ عَدَدَ آيِ الْقُرْآنِ عَلَى قَدْرِ دَرَجِ الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لِلْقَارِئِ: ٱرْقَ فِي الدَّرَجِ عَلَى قَدْرِ مَا كُنْتَ تَقْرَأُ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ، فَمَنْ ٱسْتَوْفَى قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ ٱسْتَوْلَى عَلَى أَقْصَى دَرَجِ الْجَنَّةِ فِي الآخِرَةِ، وَمَنْ قَرَأَ جُزْءًا مِنْهُ كَانَ رُقِيُّهُ فِي الدَّرَجِ عَلَى قَدْرِ ذٰلِكَ، فَيَكُونُ مُنْتَهَى الثَّوَابِ عِنْدَ مُنْتَهَى الْقِرَاءَةِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَجِيءُ صَاحِبُ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ الْقُرْآنُ: يَا رَبِّ حَلِّهِ، فَيُلْبَسُ تَاجَ الْكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ زِدْهُ فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الْكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ٱرْضَ عَنْهُ فَيَرْضَى عَنْهُ، فَيُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَٱرْقَ وَيَزْدَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةٍ»، رَوَاهُ ٱبْنُ خُزَيْمَةَ وَالْحَاكِمُ، وَقَالَ: صَحِيحُ الإِسْنَادِ.

وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ.

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «ٱقْرَأُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعاً لأَصْحَابِهِ».

وَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ. قُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ،

وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ، لَيْسَ بِالْهَزْلِ. مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنِ ٱبْتَغَى الْهُدَى مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ. وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلَا تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ بِتَمَامِهِ.

وَلَهُ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لِعَبْدٍ فِي شَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ رَكْعَتَيْنِ، وَإِنَّ الْبِرَّ لَيُذَرُّ عَلَى رَأْسِ الْعَبْدِ مَا دَامَ فِي صَلَاتِهِ. وَمَا تَقَرَّبَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَا خَرَجَ مِنْهُ ـ يَعْنِي الْقِرْآنَ ـ».

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ. وَفَضْلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

ٱعْلَمْ أَنَّ الْقُرْآنَ أَفْضَلُ مِنْ سَائِرِ الذِّكْرِ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ، فَيَنْبَغِي لِلصَّائِمِ إِذَا صَامَ أَنْ يُكِبَّ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ. فَهٰذِهِ حَالُ السَّلَفِ الصَّالِحِ، فَكَانُوا يُدْمِنُونَ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا، وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ مَطْلُوبَةٌ كُلَّ وَقْتٍ لَا سِيَّمَا فِي هٰذَا الشَّهْرِ.

كَانَ الأَسْوَدُ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ لَيْلَتَيْنِ فِي رَمَضَانَ.

وكَانَ النَّخَعِيُّ يَفْعَلُ ذٰلِكَ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْهُ خَاصَّةً، وَفِي بَقِيَّةِ الشَّهْرِ فِي ثَلَاثٍ.

وَكَانَ قَتَادَةُ يَخْتِمُ فِي كُلِّ سَبْعٍ دَائِمًا، وَفِي رَمَضَانَ فِي كُلِّ ثَلَاثٍ، وَفِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ كُلَّ لَيْلَةٍ.

وَكَانَ لِلشَّافِعِيِّ فِي رَمَضَانَ سِتُّونَ خَتْمَةً يَقْرَأُهَا فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ. وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ نَحْوُهُ، وَكَانَ قَتَادَةُ يَدْرُسُ الْقُرْآنَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ.

وَكَانَ الزُّهْرِيُّ إِذَا دَخَلَ رَمَضَانَ قَالَ: فَإِنَّمَا هُوَ تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ، وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ.

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ: كَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ يَفِرُّ مِنْ قِرَاءَةِ الْحَدِيثِ وَمُجَالَسَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَأَقْبَلَ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ مِنَ الْمُصْحَفِ.

وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ تَرَكَ جَمِيعَ الْعِبَادِ وَأَقْبَلَ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ.

وَكَانَتْ عَائِشَةُ ﵂ تَقْرَأُ فِي الْمُصْحَفِ أَوَّلَ النَّهَارِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ نَامَتْ.

وَكَانَ زَبِيدُ الْيَامِي إِذَا حَضَرَ رَمَضَانُ أَحْضَرَ الْمَصَاحِفَ وَجَمَعَ إِلَيْهِ أَصْحَابَهُ.

فَهٰذِهِ حَالُ الْقَوْمِ، فَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ النَّوَافِلِ كَثْرَةُ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَٱسْتِمَاعُهُ بِتَفَكُّرٍ وَتَدَبُّرٍ وَتَفَهُّمٍ.

قَالَ خَبَّابُ بْنُ الأَرَتِّ رَحِمَهُ اللَّهُ لِرَجُلٍ: تَقَرَّبْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ مَا ٱسْتَطَعْتَ، وَٱعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِشَيْءٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ كَلَامِهِ.

وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ: لَوْ طُهِّرَتْ قُلُوبُكُمْ مَا شَبِعْتُمْ مِنْ كَلَامِ رَبِّكُمْ.

وَقَالَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ: مَنْ أَحَبَّ الْقُرْآنَ أَحَبَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ، وَلَا شَيْءَ عِنْدَ الْمُحِبِّينَ أَحْلَى مِنْ كَلَامِ مَحْبُوبِهِمْ، فَهُوَ لَذَّةُ قُلُوبِهِمْ، وَغَايَةُ مَطْلُوبِهِمْ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَ اللَّهِ فَانْظُرْ إِلَى قَدْرِ الْقُرْآنِ عِنْدَكَ.

كَانَ بَعْضُهُمْ يُكْثِرُ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ ثُمَّ ٱشْتَغَلَ عَنْهُ بِغَيْرِهِ، فَرَأَى فِي الْمَنَامِ قَائِلاً يَقُولُ لَهُ:

إِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ حُبِّي ... فَلِمَ جَفَوْتَ كِتَابِي

أَمَـا تَـأَمَّـلْـتَ مَـا فِـيـهِ مِـنْ لَـذِيـذِ خِـطَـابِـي؟

فَصْلٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَنْهَارُ الْجَنَّةِ تُفَجَّرُ مِنْ جِبَالِ مِسْكٍ» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَغَيْرُهُ.

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَحْرَ الْمَاءِ وَبَحْرَ الْعَسَلِ وَبَحْرَ اللَّبنِ وَبَحْرَ الْخَمْرِ، ثُمَّ تُشَقَّقُ الأَنْهَارُ مِنْهَا بَعْدُ».

وَعَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعًا: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ نَهْرًا يُقَالُ لَهُ: الرَّيَّانُ، عَلَيْهِ مَدِينَةٌ مِنْ مَرْجَانٍ، لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ بَابٍ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ لِحَامِلِ الْقُرْآنِ» رَوَاهُ ابْنُ عَسَاكِرٍ.

وَأَخْرَجَ الإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ عَنِ الْمُعْتَمِرِ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ نَهْرًا يُنْبِتُ الْجَوَارِيَ وَالأَبْكَارَ.

وَأَخْرَجَ أَيْضًا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَفَعَهُ: «أَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَقَى مُؤْمِنًا شَرْبَةً عَلَى ظَمَإٍ سَقَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ».

قَالَ فِي حَادِي الأَرْوَاحِ بَعْدَ سِيَاقِ هٰذِهِ الآيَةِ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ هٰذِهِ الأَجْنَاسَ الأَرْبَعَةَ وَنَفَى عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا الآفَةَ الَّتِي تَعْرِضُ لَهُ فِي الدُّنْيَا؛ فَآفَةُ الْمَاءِ أَنْ يَأْسَنَ وَيَأْجَنَ مِنْ طُولِ مُكْثِهِ، وَآفَةُ اللَّبَنِ أَنْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ إِلَى الْحُمُوضَةِ، وَيَصِيرَ قَابِضًا، وَآفَةُ الْخَمْرِ كَرَاهَةُ مَذَاقَتِهَا الْمُنَافِيَةِ لِلَذَّةِ شُرْبِهَا، وَآفَةُ الْعَسَلِ عَدَمُ تَصْفِيَتِهِ. وَهٰذَا مِنْ آيَاتِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ: أَنْ أَجْرَى أَنْهَارًا مِنْ أَجْنَاسٍ لَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ فِي الدُّنْيَا بِإِجْرَائِهَا، وَيُجْرِيهَا فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ، وَيَنْفِي عَنْهَا الآفَاتِ الَّتِي تَمْنَعُ كَمَالَ اللَّذَّةِ بِهَا. كَمَا نَفَى عَنْ خَمْرِ الْجَنَّةِ جَمِيعَ آفَاتِ خَمْرِ الدُّنْيَا: مِنَ الصُّدَاعِ، وَالْغَوْلِ وَاللَّغْوِ، وَالإِنْزَافِ، وَعَدَمِ اللَّذَّةِ.

فَهٰذِهِ خَمْسُ آفَاتٍ مِنْ آفَاتِ خَمْرِ الدُّنْيَا تَغْتَالُ الْعَقْلَ، وَتُكْثِرُ اللَّغْوَ عَلَى شُرْبِهَا، بَلْ لَا يَطِيبُ لِشُرَّابِهَا ذٰلِكَ إِلَّا بِاللَّغْوِ، وَتَنْزِفُ فِي نَفْسِهَا، وَتُنْزِفُ الْمَالَ، وَتُصَدِّعُ الرَّأْسَ، وَهِيَ كَرِيهَةُ الْمَذَاقِ، وَهِيَ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، تُوقِعُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ بَيْنَ النَّاسِ، وَتَصُدُّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، وَتَدْعُو إِلَى الزِّنَا، وَرُبَّمَا دَعَتْ إِلَى الْوُقُوعِ عَلَى الْبِنْتِ وَالأُخْتِ وَذَوَاتِ الْمَحَارِمِ، وَتُذْهِبُ الْغَيْرَةَ وَتُورِثُ الْخِزْيَ وَالنَّدَامَةَ وَالْفَضِيحَةَ، وَتُلْحِقُ شَارِبَهَا بِأَنْقَصِ نَوْعِ الإِنْسَانِ، وَهُمُ الْمَجَانِينُ، وَتَسْلُبُهُ أَحْسَنَ الأَسْمَاءِ وَالسِّمَاتِ، وَتَكْسُوهُ أَقْبَحَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَتُسَهِّلُ قَتْلَ النَّفْسِ، وَإِفْشَاءَ السِّرِّ الَّذِي فِي إِفْشَائِهِ مَضَرَّتُهُ وَإِهْلَاكُهُ، وَمُؤَاخَاةُ الشَّيَاطِينِ فِي تَبْذِيرِ الْمَالِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ قِيَامًا لَهُ وَلِمَنْ يَلْزَمُهُ مَؤُونَتُهُ، وَتَهْتِكُ الأَسْتَارَ، وَتُظْهِرُ الأَسْرَارَ، وَتَدُلُّ عَلَى الْعَوْرَاتِ، وَتُهَوِّنُ ارْتِكَابَ الْقَبَائِحِ وَالْمَآثِمِ، وَتُخْرِجُ مِنَ الْقَلْبِ تَعْظِيمَ الْمَحَارِمِ، وَمُدْمِنُهَا كَعَابِدِ وَثَنٍ.

وَكَمْ أَهَاجَتْ مِنْ حَرْبٍ، وَأَفْقَرَتْ مِنْ غَنِيٍّ، وَأَذَلَّتْ مِنْ عَزِيزٍ، وَوَضَعَتْ مِنْ شَرِيفٍ، وَسَلَبَتْ مِنْ نِعْمَةٍ، وَجَلَبَتْ مِنْ نِقْمَةٍ، وَنَسَخَتْ مَوَدَّةً، وَنَسَجَتْ عَدَاوَةً. وَكَمْ فَرَّقَتْ بَيْنَ رَجُلٍ وَحِبِّهِ، فَذَهَبَتْ بِقَلْبِهِ وَرَاحَتْ بِلُبِّهِ. وَكَمْ أَوْرَثَتْ مِنْ حَسْرَةٍ وَأَجْرَتْ مِنْ عَبْرَةٍ، وَكَمْ أَغْلَقَتْ فِي وَجْهِ شَارِبِهَا بَابًا مِنَ الْخَيْرِ،

وَفَتَحَتْ لَهُ بَابًا مِنَ الشَّرِّ، وَكَمْ أَوْقَعَتْ فِي بَلِيَّةٍ، وَعَجَّلَتْ مِنْ مَنِيَّةٍ، وَكَمْ أَوْرَثَتْ مِنْ خَزْيَةٍ، وَجَرَّتْ عَلَى شَارِبِهَا مِنْ مِحْنَةٍ، وَجَرَّأَتْ عَلَيْهِ مِنْ سِفْلَةٍ. فَهِيَ جِمَاعُ الإِثْمِ، وَمِفْتَاحُ الشَّرِّ، وَسَلَّابَةُ النِّعَمِ وَجَلَّابَةُ النِّقَمِ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ رَذَائِلِهَا إِلَّا أَنَّهَا لَا تَجْتَمِعُ هِيَ وَخَمْرُ الْجَنَّةِ فِي جَوْفِ عَبْدٍ؛ كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الآخِرَةِ» لَكَفَى.

وَآفَاتُ الْخَمْرِ أَضْعَافُ مَا ذَكَرْنَا، وَكُلُّهَا مُنْتَفِيَةٌ عَنْ خَمْرِ الْجَنَّةِ.

قَالَ: فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الأَنْهَارَ بِأَنَّهَا جَارِيَةٌ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَاءَ الْجَارِي لَا يَأْسَنُ، فَمَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ: ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾؟ قِيلَ: الْمَاءُ الْجَارِي وَإِنْ كَانَ لَا يَأْسَنُ فَإِنَّهُ إِذَا أُخِذَ مِنْهُ شَيْءٌ وَطَالَ مُكْثُهُ أَسِنَ: وَمَاءُ الْجَنَّةِ لَا يَعْرِضُ لَهُ ذٰلِكَ وَلَوْ طَالَ مُكْثُهُ مَا طَالَ.

وَتَأَمَّلِ ٱجْتِمَاعَ هٰذِهِ الأَنْهَارِ الأَرْبَعَةِ الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ أَشْرِبَةِ النَّاسِ، فَهٰذَا لِرِيِّهِمْ وَطُهُورِهِمْ، وَهٰذَا لِقُوتِهِمْ وَغِذَائِهِمْ. وَهٰذَا لِلَذَّتِهِمْ وَسُرُورِهِمْ، وَهٰذَا لِشِفَائِهِمْ وَمَنْفَعَتِهِمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِذَا كَانَتِ الْجَنَّةُ ثَمَنَ نَفْسِكَ وَمَالِكَ، وَلَمْ تَبْذُلْ نَفْسَكَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَلَمْ تُنْفِقْ مَالَكَ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ، فَطَلَبُ الثَّمَنِ مَعَ إِمْسَاكِ الْمَبِيعِ وَمَنْعِهِ لَا يَصِحُّ. طَلَبُ الْجَنَّةِ بِغَيْرِ عِوَضٍ أَمَانِيٌّ وَغُرُورٌ. وَطَلَبُ الْقُرْبِ مِمَّنْ لَا تُطِيعُهُ تَعْطِيلٌ وَنُفُورٌ.

شِعْر:

وَجَنَّاتُ عَدْنٍ زُخْرِفَتْ ثُمَّ أُزْلِفَتْ ... لِقَوْمٍ عَلَى التَّقْوَى دَوَامًا تَبَتَّلُوا
بِهَا كُلُّ مَا تَهْوَى النُّفُوسُ وَتَشْتَهِي ... وَقُرَّةُ عَيْنٍ لَيْسَ عَنْهَا تَحَوُّلُ
مَلَابِسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَسُنْدُسٌ ... وَإِسْتَبْرَقٌ لَا يَعْتَرِيهِ التَّحَلُّلُ
وَأَزْوَاجُهُمْ حُورٌ حِسَانٌ كَوَاعِبٌ ... عَلَى مِثْلِ شَكْلِ الشَّمْسِ أَوْ هُنَّ أَشْكَلُ
وَمَأْكُولُهُمْ مِنْ كُلِّ مَا يَشْتَهُونَهُ ... وِمِنْ سَلْسَبِيلٍ شُرْبُهُمْ تَتَسَلْسَلُ

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِالَّذِي يَشْتَهُونَهُ ... إِذَا أَكَلُوا نَوْعًا بِآخَرَ بُدِّلُوا
بِهَا كُلُّ أَنْوَاعِ الْفَوَاكِهِ كُلِّهَا ... وَسُكَّانُهَا مَهْمَا تَمَنَّوْهُ يَحْصُلُ
فَوَاكِهُهَا تَدْنُو إِلَى مَنْ يُرِيدُهَا ... تَنَاوُلُهَا عِنْدَ الإِرَادَةِ يَسْهُلُ
وَأَنْهَارُهَا الأَلْبَانُ تَجْرِي وَأَعْسُلٌ ... وَخَمْرٌ وَمَاءٌ سَلْسَبِيلٌ وَأَعْسُلُ
يُقَالُ لَهُمْ طِبْتُمْ سَلِمْتُمْ مِنَ الأَذَى ... سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِالسَّلَامَةِ فَادْخُلُوا
بِأَسْبَابِ تَقْوَى اللَّهِ وَالْعَمَلِ الَّذِي ... أَحَبُّوا إِلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ تَوَصَّلُوا

اللَّهُمَّ أَيْقِظْ قُلُوبَنَا مِنْ رَقَدَاتِ الآمَالِ، وَذَكِّرْنَا قُرْبَ الرَّحِيلِ وَدُنُوَّ الآمَالِ، وَثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى الإِيمَانِ وَوَفِّقْنَا لِصَالِحِ الأَعْمَالِ، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنْ فَزَعِ الْوُقُوفِ وَالأَهْوَالِ، وَآمِنَّا يَوْمَ الْقِيَامِ الأَكْبَرِ وَمَا فِيهِ مِنَ الرَّجْفِ وَالزِّلْزَالِ.

اللَّهُمَّ تَفَضَّلْ عَلَيْنَا بِالْقَبُولِ وَالإِجَابَةِ، وَارْزُقْنَا صِدْقَ التَّوْبَةِ وَحُسْنَ الإِنَابَةِ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ رَجَعَ إِلَيْكَ فَأَكْرَمْتَ مَآبَهُ، وَاجْعَلْ مَآلَنَا إِلَى جَنَّاتِكَ، وَأَعِذْنَا مِنْ نِيرَانِكَ، وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الثَّالِثَ عَشَرَ
فِي فَضْلِ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَفَعَ قَدْرَ أَوْلِيَائِهِ عَنِ الرُّكُونِ إِلَى هٰذِهِ الدَّارِ، وَفَتَحَ بَصَائِرَ أَصْفِيَائِهِ لِفَهْمِ كِتَابِهِ وَمَا فِيهِ مِنَ الاعْتِبَارِ، وَمَنَحَ صَفَاءَ إِحْسَانِهِ لِلْمُنِيبِينَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ، وَنَفَّذَ تَصَارِيفَ الأَقْدَارِ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَيَسَّرَ كُلًّا لِمَا خُلِقَ لَهُ فَفَعَلَهُ بِالاخْتِيَارِ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾، وَلَا تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ الْحَرَكَاتُ وَلَا السُّكُونُ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾، الْغَنِيُّ الَّذِي لَا يَنْقُصُ مُلْكَهُ النَّفَقَاتُ. وَالْجَوَادُ الَّذِي أَنَاخَتْ بِبَابِهِ رِكَابُ ذَوِي الْحَاجَاتِ. وَالسَّمِيعُ الَّذِي

لَا تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ السُّؤَالَاتُ، وَيَمِينُهُ مَلْأَى تَسِحُّ الْخَيْرَاتِ بِوَابِلٍ مِدْرَارٍ. الْجَبَّارُ الَّذِي قَهَرَ الْمُتَجَبِّرِينَ وَأَذَلَّ الصِّعَابَ، وَسَمِعَ خَفِيَّ النُّطْقِ وَمَهْمُوسَ الْخِطَابِ، وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ يَحُثُّ فِيهِ عَلَى اكْتِسَابِ الثَّوَابِ، وَيَزْجُرُ عَنْ أَسْبَابِ العِقَابِ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

فَسُبْحَانَ مَنْ بَيَّنَ فِيهِ أَسْبَابَ الرِّبْحِ وَأَسْبَابَ التَّبَابِ، وَأَوْدَعَهُ الْحِكَمَ وَالأَسْرَارَ، وَتَابَ عَلَى الْمُذْنِبِينَ إِذَا أَنَابُوا إِلَيْهِ بِذِلَّةٍ وَانْكِسَارٍ.

أَحْمَدُهُ عَلَى فَضْلِهِ الْمِدْرَارِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى نِعَمٍ تَزْدَادُ بِالتَّكْرَارِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الإِلٰهُ الْعَظِيمُ الْقَهَّارُ، شَهَادَةً أَدَّخِرُهَا لِيَوْمٍ تَذْهَلُ فِيهِ الْعُقُولُ وَتَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ، أَرْجُو بِهَا النَّجَاةَ مِنْ دَارِ الْهَوَانِ وَالْبَوَارِ، وَأُؤَمِّلُ بِهَا مِنْ كَرَمِهِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُصْطَفى الْمُخْتَارُ، الْمَاحِي لِظَلَامِ الشِّرْكِ بِثَوَاقِبِ الأَنْوَارِ، صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْبَرَرَةِ الأَطْهَارِ، صَلَاةً تَدُومُ بِتَعَاقُبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَنْ عَظَمَةِ الْقُرْآنِ وَفَضْلِهِ وَجَلَالِهِ، وَأَنَّهُ لَوْ خُوطِبَ بِهِ صُمُّ الْجِبَالِ لَتَصَدَّعَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ. فَهَذِهِ حَالُ الْجِبَالِ وَهِيَ الْحِجَارَةُ الصَّلْبَةُ، وَهٰذِهِ رِقَّتُهَا وَخَشْيَتُهَا وَتَدَكْدُكُهَا مِنْ جَلَالِ رَبِّهَا وَعَظَمَتِهِ وَخَشْيَتِهِ.

فَيَا عَجَبًا مِنْ مُضْغَةِ لَحْمٍ كَانَتْ أَقْسَى مِنْ هٰذِهِ الْجِبَالِ تُخَوَّفُ مِنْ سَطْوَةِ الْجَبَّارِ وَبَطْشِهِ، فَلَا تَرْعَوِي وَلَا تَرْتَدِعُ، وَتَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهَا فَلَا تَلِينُ وَلَا تَخْشَعُ وَلَا تُنِيبُ، فَلَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ عَلَى اللَّهِ ﷻ، وَلَا يُخَالِفُ حِكْمَتَهُ أَنْ يَخْلُقَ لَهَا نَارًا تُذِيبُهَا إِذَا لَمْ تَلِنْ بِكَلَامِهِ وَزَوَاجِرِهِ وَمَوَاعِظِهِ، فَمَنْ لَمْ يَلِنْ قَلْبُهُ لِلَّهِ فِي هٰذِهِ الدَّارِ، وَلَمْ يُنِبْ إِلَيْهِ وَلَمْ يُذِبْهُ بِحُبِّهِ وَالْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَتِهِ، فَلْيَتَمَتَّعْ

قَلِيلاً، فَإِنَّ أَمَامَهُ الْمُلَيِّنُ الأَعْظَمُ، وَسَيُرَدُّ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيَرَى وَيَعْلَمُ.

فَيَا أَيُّهَا الْغَافِلُ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ إِلَى مَتَى هٰذِهِ الغَفْلَةُ؟ قُلْ لِي وَتَكَلَّمْ، حَنَانَيْكَ بَادِرْ بِصَالِحِ الأَعْمَالِ قَبْلَ أَنْ تَنْدَمَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ لَهُ خُصُوصِيَّةٌ بِالْقُرْآنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾.

وَكَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُدَارِسُ النَّبِيَّ ﷺ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ.

وَفِي الْمُسْنَدِ: «إِنَّ الإِنْجِيلَ أُنْزِلَ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ مِنْ رَمَضَانَ».

وَفِي فَضْلِ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ، وَالْمَطْلُوبُ الْقِرَاءَةُ بِالتَّدَبُّرِ.

وَأَخْرَجَ الإِمَامُ أَحْمَدُ من حَدِيثِ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «إِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ، كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ أَنَا صَاحِبُكَ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ. وَكُلُّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: ٱقْرَأْ وَٱرْقَ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغُرَفِهَا، فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ، هَذًّا كَانَ أَوْ تَرْتِيلاً».

وَفِي حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ الطَّوِيلِ: «إِنَّ الْقُرْآنَ يَأْتِي صَاحِبَهُ فِي الْقَبْرِ، فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا الَّذِي كُنْتُ أُسْهِرُ لَيْلَكَ، وَأُظْمِئُ نَهَارَكَ، وَأَمْنَعُكَ شَهَوَاتِكَ وَسَمْعَكَ وَبَصَرَكَ، فَسَتَجِدُنِي مِنَ الأَخِلَّاءِ خَلِيلَ صِدْقٍ، ثُمَّ يَصْعَدُ فَيَسْأَلُ لَهُ فِرَاشًا وَدِثَارًا، فَيُؤْمَرُ لَهُ بِفِرَاشٍ مِنَ الْجَنَّةِ، وَقِنْدِيلٍ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيَاسَمِينَ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يَدْفَعُ الْقُرْآنُ فِي قِبْلَةِ الْقَبْرِ فَيُوَسِّعُ عَلَيْهِ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذٰلِكَ».

قَالَ كَعْبُ الأَحْبَارِ: يُنَادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنَادٍ: إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ يُعْطَى بِحَرْثِهِ، وَيُزَادُ، غَيْرَ أَهْلِ الْقُرْآنِ وَالصِّيَامِ يُعْطَوْنَ أُجُورَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا ٱحْتُضِرَ الْمُؤْمِنُ يُقَالُ لِلْمَلَكِ: شُمَّ رَأْسَهُ، فَيَقُولُ: أَجِدُ فِي رَأْسِهِ الْقُرْآنَ، فَيُقَالُ: شُمَّ قَلْبَهُ، فَيَقُولُ: أَجِدُ فِي قَلْبِهِ الصِّيَامَ، فَيُقَالُ: شُمَّ قَدَمَيْهِ: فَيَقُولُ: أَجِدُ فِي قَدَمَيْهِ الْقِيَامَ، فَيُقَالُ: حَفِظَ نَفْسَهُ حَفِظَهُ اللَّهُ.

وَتَقَدَّمَ أَنَّ الصِّيَامَ وَالْقُرْآنَ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: «أَيْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ فَيُشَفَّعانِ» وَهٰذَا لِمَنْ قَامَ بِحَقِّهِمَا، فَإِنَّهُمَا يَشْفَعَانِ فِيهِ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «يَنْبَغِي لِقَارِئِ الْقُرْآنِ أَنْ يُعْرَفَ بِلَيْلِهِ إِذَا النَّاسُ نَائِمُونَ، وَبِنَهَارِهِ إِذَا النَّاسُ يُفْطِرُونَ، وَبِبُكَائِهِ إِذَا النَّاسُ يَضْحَكُونَ، وَبِوَرَعِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْلِطُونَ، وَبِصَمْتِهِ إِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ، وَبِخُشُوعِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْتَالُونَ، وَبِحُزْنِهِ إِذَا النَّاسُ يَفْرَحُونَ. وَيَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ بَاكِيًا مَحْزُونًا حَكِيمًا، حَلِيمًا سَكِينًا، وَلَا يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ جَافِيًا وَلَا غَافِلًا، وَلَا صَخَّابًا وَلَا صَيَّاحًا وَلَا حَدِيدًا».

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: «كُنَّا نَعْرِفُ قَارِئَ الْقُرْآنِ بِصُفْرَةِ لَوْنِهِ، يُشِيرُ إِلَى سَهَرِهِ وَطُولِ تَهَجُّدِهِ».

وَقَالَ وُهَيْبُ بْنُ الوَرْدِ: قِيلَ لِرَجُلٍ: أَلَا تَنَامُ؟ قَالَ: إِنَّ عَجَائِبَ الْقُرْآنِ أَطَرْنَ نَوْمِي.

وَصَحِبَ رَجُلٌ رَجُلًا شَهْرَيْنِ فَلَمْ يَرَهُ نَائِمًا، فَقَالَ: مَا لِي لَا أَرَاكَ نَائِمًا؟ قَالَ: إِنَّ عَجَائِبَ الْقُرْآنِ أَطَرْنَ نَوْمِي، مَا أَخْرُجُ مِنْ أُعْجُوبَةٍ إِلَّا وَقَعْتُ فِي أُخْرَى.

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحَوَارِيِّ: إِنِّي لأَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَأَنْظُرُ فِي آيِهِ، فَيُحَيِّرُ عَقْلِي بِهَا، وَأَعْجَبُ مِنْ حُفَّاظِ الْقُرْآنِ كَيْفَ يَهْنِيهِمُ النَّوْمُ، وَيَسَعُهُمْ أَنْ يَشْتَغِلُوا بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَهُمْ يَتْلُونَ كَلَامَ اللَّهِ، أَمَا إِنَّهُمْ لَوْ فَهِمُوا مَا يَتْلُونَ وَعَرَفُوا حَقَّهُ وَتَلَذَّذُوا بِهِ، وَٱسْتَحَلُّوا الْمُنَاجَاةَ بِهِ، لَذَهَبَ عَنْهُمُ النَّوْمُ فَرَحًا.

وَأَنْشَدَ ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ:

مَنَعَ الْقُرْآنُ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ... مُقَلَ الْعُيُونِ بِلَيْلِهَا لَا تَهْجَعُ
فَهِمُوا عَنِ المَلِكِ الْعَظِيمِ كَلَامَهُ ... فَهْمًا تَذِلُّ لَهُ الرِّقَابُ وَتَخْضَعُ

كَانَ السَّلَفُ لِمَعْرِفَتِهِم بِالْمُتَكَلِّمِ يَلْهَجُونَ بِتِلاوَةِ الْقُرْآنِ.

كَانَ كُرْزُ بْنُ وَبَرَةَ يَخْتِمُ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثَلَاثَ خَتَمَاتٍ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ لِمُرِيدٍ: أَتَحْفَظُ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: وَاغَوْثَاهُ بِاللَّهِ لِمُرِيدٍ لَا يَحْفَظُ الْقُرْآنَ، فَبِمَ يَتَنَعَّمُ، فَبِمَ يَتَرَنَّمُ، فَبِمَ يُنَاجِي رَبَّهُ تَعَالَىٰ؟

وَيَنْبَغِي تَحْسِينُ الصَّوْتِ بِالْقِرَاءَةِ، فَيَقْرَأُ بِتَرْتِيلٍ وَحُزْنٍ وَتَدَبُّرٍ، وَقَدِ ٱسْتَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةً لِقِرَاءَةِ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، وَقَالَ لَهُ: «لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقَرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ»، فَقَالَ: «لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَسْمَعُهُ لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا»، أَيْ: حَسَّنْتُهُ وَزَيَّنْتُهُ بِصَوْتِي تَزْيِينًا.

وكَانَ رضي الله عنه حَسَنَ الصَّوْتِ، حَتَّى قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ».

وَقَالَ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ».

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَبْكِيَ، فَإِنْ لَمْ يَبْكِ فَلْيَتَبَاكَ، وَأَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ عِنْدَ آيَةِ الرَّحْمَةِ وَيَتَعَوَّذَ عِنْدَ آيَةِ الْعَذَابِ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ السُّرْعَةُ وَالْهَذْرَمَةُ. وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ذَا سَكِينَةٍ وَوَقَارٍ وَقَناعَةٍ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ، لِأَنَّ اللَّهَ ٱمْتَنَّ عَلَيْهِ بِنِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ، بِأَنْ جَعَلَهُ حَامِلًا لِكِتَابِهِ.

شِعْر:

فَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ إِنْ رُمْتَ الْهُدَى ... فَالْعِلْمُ تَحْتَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

يَا مَنْ يُعَاتِبُهُ الْقُرْآنُ وَقَلْبُهُ غَافِلٌ، وَتُنَاجِيهِ الآيَاتُ وَفَهْمُهُ ذَاهِلٌ، يَا مَشْغُولًا عَمَّا يَنْفَعُهُ وَبِمَا يَضُرُّهُ مُتَشَاغِلٌ، يَا مُعْرِضًا عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَقَلْبُهُ جَائِلٌ

فِي الْمَزَابِلِ، وَاللَّهِ لَوْ ذُقْتَ لَذَّةَ حَلاوَتِهِ لَهَجَرْتَ الشَّواغِلَ، وَلَكِنَّكَ أُغْرِيتَ بِمَا يَفْنَى عَمَّا يَبْقَى فَضَلَلْتَ يَا جَاهِلُ. فَسَيَبِينُ لَكَ الْخُسْرانُ عَنْ قَلِيلٍ، فَاسْتَدْرِكْ مَا فَاتَ فَإِنَّ الْعُمْرَ زَائِلٌ، وَيُوشِكُ أَنَّ سَفِينَتَهُ قَدْ رَسَتْ بِالسَّاحِلِ، وَقَدْ آنَ سَفَرُكَ لِلآخِرَةِ وَلَا زَادَ وَلَا رَوَاحِلَ. إِنْ وَعَدْتَ بِالتَّوْبَةِ فَوَعْدٌ مُمَاطِلٌ، وَإِنْ لَاحَتْ لَكَ الشَّهَوَاتُ وَثَبْتَ وُثُوبَ لَيْثٍ صَائِلٍ، وَتَمُرُّ بِكَ أَوْقَاتُ الوَسَائِلِ وَالْفَضَائِلِ، وَأَنْتَ فِي لَهْوِكَ مُتَبَاطِئٌ مُتَثَاقِلٌ. أَفَتُرَى يَرْضَى بِمِثْلِ صَنِيعِكَ عَاقِلٌ.

شِعْر:

وَوَاظِبْ عَلَى دَرْسِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ ... يُلَيِّنُ قَلْبًا قَاسِيًا مِثْلَ جَلْمَدِ
وَحافِظْ عَلَى فِعْلِ الْفُرُوضِ بِوَقْتِهَا ... وَخُذْ بِنَصِيبٍ فِي الدُّجَى مِنْ تَهَجُّدِ
وَنَادِ إِذَا مَا قُمْتَ فِي اللَّيْلِ سَامِعًا ... قَرِيبًا مُجِيبًا بِالْفَوَاضِلِ يَبْتَدِي
وَمُدَّ إِلَيْهِ كَفَّ فَقْرِكَ ضَارِعًا ... بِقَلْبٍ مُنِيبٍ وَادْعُ تُعْطَ وَتَرْشُدِ
فَعَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حُرِّمَتْ ... عَلَى النَّارِ في نَصِّ الْحَدِيثِ الْمُسَدَّدِ

فَصْلٌ

قَالَ اللَّهُ تَعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾، وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

ٱعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ تَوَعَّدَ أَهْلَ مُخَالَفَتِهِ وَعِصْيَانِهِ والتَّمَرُّدِ عَلَيْهِ بِالنَّارِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الشَّقَاءِ وَالْخِزْيِ وَالثُّبُورِ والنَّكَالِ وَالْبَوَارِ، وَبَعَثَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ تَزْجُرُ النَّاسَ عَنْ سُلُوكِ سَبِيلِهَا وَفِعْلِ الأَعْمَالِ المُوَصِّلَةِ إِلَيْهَا؛ إِذْ هِيَ دَارُ الْخَبِيثِينَ. وَقَدْ خَابَ مَنْ كَانَتْ النَّارُ مَثْوَاهُ فَفِيهَا الْحَرُّ الشَّدِيدُ، وَالْعَذَابُ

الأَكِيدُ، وَفِيهَا الْحَمِيمُ وَالزَّمْهَرِيرُ وَلأَهْلِهَا فِيهَا الشَّهِيقُ والزَّفِيرُ، دُعاؤُهُمْ لَا يُسْمَعُ، وَمُتَضَرَّعُهُمْ لَا يُرْحَمُ. قَدْ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، وَغَضِبَ عَلَيْهِمْ رَبُّ الأَرْبَابِ، وَبَاءُوا بِالْخُسْرَانِ والتَّبَابِ.

رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدْعُو «اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي عَيْنَيْنِ هَطَّالَتَيْنِ يَشْفِيَانَ الْقَلْبَ بِذَرْفِ الدُّمُوعِ مِنْ خَشْيَتِكَ، قَبْلَ أَنْ يَكُونَ الدَّمْعُ دَمًا وَالأَضْرَاسُ جَمْرًا».

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جُبِّ الْحُزْنِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا جُبُّ الْحُزْنِ؟ قَالَ: وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ كُلَّ يَوْمٍ أَرْبَعَمِائَةَ مَرَّةٍ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ يَدْخُلُهُ؟ قَالَ: أُعِدَّ لِلْقُرَّاءِ الْمُرَائِينَ بِأَعْمَالِهِمْ» رَوَاهُ ابْنُ مَاجه.

وَلِلْبَيْهَقِيِّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، قَالَ: «نَهْرٌ فِي جَهَنَّمَ بَعِيدُ الْقَعْرِ خَبِيثُ الطَّعْمِ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ كَانَ فِي هٰذَا الْمَسْجِدِ مِائَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَتَنَفَّسَ فَأَصَابَهُمْ نَفَسُهُ لاَحْتَرَقَ الْمَسْجِدُ وَمَنْ فِيهِ» رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى وَالْبَزَّارُ.

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَو أَنَّ غَرْبًا مِنْ جَهَنَّمَ جُعِلَ فِي وَسَطِ الأَرْضِ لأَذَى نَتْنُ رِيحِهِ وَشِدَّةُ حَرِّهِ ما بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَوْ أَنَّ شَرَارَةً مِنْ شَرَرِ جَهَنَّمَ بِالْمَشْرِقِ لَوَجَدَ حَرَّهَا مَنْ بِالْمَغْرِبِ».

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: «إِنَّ الوَيْلَ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ فِيهِ أَلْوَانُ الْعَذَابِ».

وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: «الْوَيْلُ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ لَوْ سُيِّرَتْ فِيهِ الْجِبَالُ لَمَاعَتْ مِنْ حَرِّهِ».

وَوَرَدَ أَنَّهُمْ يُسَاقُونَ إِلَى جَهَنَّمَ سَوْقًا عَنِيفًا بِزَجْرٍ وَتَهْدِيدٍ، وَأَنَّهُمْ يُحْشَرُونَ

سَحْبًا عَلَى الْوُجُوهِ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا، فَعِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ أَلِيمِ عِقَابِهِ، وَنَسْأَلُهُ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

قَالَ:

وَسِيقَ الْمُجْرِمُونَ وَهُمْ عُرَاةٌ ... إِلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ وَالنِّكَالِ

فَنَادَوْا: وَيْلَنَا وَيْلاً طَوِيلاً ... وَعَجُّوا فِي سَلَاسِلِهَا الطِّوَالِ

فَلَيْسُوا مَيِّتِينَ فَيَسْتَرِيحُوا ... وَكُلُّهُمْ بِحَرِّ النَّارِ صَالِ

وَحَلَّ الْمُتَّقُونَ بِدارِ صِدْقٍ ... وَعَيْشٍ نَاعِمٍ تَحْتَ الظِّلَالِ

لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ وَمَا تَمَنَّوْا ... مِنَ الأَفْرَاحِ فِيهَا والْكَمَالِ

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ خَطَبَ، فَقَالَ: «لَا تَنْسَوا الْعَظِيمَتَيْنِ: الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، ثُمَّ بَكَى حَتَّى جَرَى أَوْ بَلَّتْ دُموعُهُ جَانِبَي لِحَيْتِهِ! ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِنْ أَمْرِ الآخِرَةِ لَمَشَيْتُمْ إِلَى الصَّعِيدِ، وَلَحَثَيْتُمْ عَلَى رُءُوسِكُمُ التُّرَابَ» رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ يَوْمًا لِرَجُلٍ: يَا أَخِي، تُحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ وَلِيًّا، وَيَكُونَ لَكَ مُحِبًّا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: دَعِ الدُّنْيَا، وَأَقْبِلْ عَلَى رَبِّكَ بِقَلْبِكَ يُقْبِلُ عَلَيْكَ بِوَجْهِهِ؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَوْحَى إِلَى يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا عليه السلام: «يَا يَحْيَى إِنِّي قَضَيْتُ عَلَى نَفْسِي أَنَّهُ لَا يُحِبُّنِي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِي، أَعْلَمُ ذٰلِكَ مِنْ نِيَّتِهِ إِلَّا كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَفُؤَادَهُ الَّذِي يَعْقِلُ بِهِ، فَإِذَا كُنْتُ كَذٰلِكَ بَغَّضْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَشْتَغِلَ بِغَيْرِي، وَأَدَمْتُ فِكْرَهُ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَهُ، وَأَظْمَأْتُ نَهَارَهُ، أَنْظُرُ إِلَيْهِ كُلَّ يَوْم سَبْعِينَ نَظْرَةً فَأَرَى قَلْبَهُ مَشْغُولًا بِي، فَأَزْدَادُ مِنْ حُبِّهِ، وَأَمْلَأُ قَلْبَهُ نُورًا حَتَّى يَنْظُرَ بِنُورِي، فَكَيْفَ يَسْكُنُ يَا يَحْيَى قَلْبُهُ وَأَنَا جَلِيسُهُ وَغَايَةُ أُمْنِيَتِهِ؟ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَأَبْعَثَنَّهُ مَبْعَثًا يَغْبِطُهُ النَّبِيُّونَ وَالْمُرْسَلُونَ، ثُمَّ آمُرُ مُنَادِيًا يُنَادِي: هٰذَا حَبِيبُ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَصَفِيُّهُ دَعَاهُ إِلَى زِيَارَتِهِ؛ فَإِذَا جَاءَنِي رَفَعْتُ الْحِجَابَ، صَاحَ يَحْيَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صَيْحَةً فَلَمْ يُفِقْ

ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: فَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِكَ صَاحِبًا، فَبِمَنْ يَرْضَى؟ وَكَيْفَ أُصَاحِبُ خَلْقَكَ وَقَدْ دَعَوْتَنِي إِلَى مُصَاحَبَتِكَ؟».

فَيَا مَنْ بُلِيَ بِالطَّرْدِ وَالْإِبْعَادِ، يَا مَنْ حُرِمَ لَذَاذَةَ الْوَصْلِ وَالْوِدادِ، أَتُبَارِزُ بِالْقَبِيحِ مَنْ عَامَلَكَ بِالْجَمِيلِ، أَتُجَاهِرُ بِالْعِصْيَانِ مَنْ غَمَرَكَ بِفَضْلِهِ الْجَزِيلِ، أَتَرْضَى بِالْبِعَادِ بَدَلًا عَنِ الْوِدَادِ؟ فَبِئْسَ الْبَدِيلُ ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، هَلْ يَسْتَوِي الْجَاهِلُ وَالْعَالِمُ؟ هَلْ يَسْتَوِي الْهَالِكُ وَالسَّالِمُ؟ هَلْ يَسْتَوِي الْغَائِبُ وَالْحَاضِرُ؟ هَلْ يَسْتَوِي الْغَافِلُ وَالذَّاكِرُ؟ هَلْ يَسْتَوِي الْبَعِيدُ وَالْقَرِيبُ؟ هَلْ يَسْتَوِي الْعَدُوُّ وَالْحَبِيبُ؟ هَلْ يَسْتَوِي مَنْ هُوَ مَعَ نَفْسِهِ. وَمَنْ هُوَ مَعَ رَبِّهِ يَنْعَمُ بِأُنْسِهِ؟ هَلْ يَسْتَوِي مَنْ هُوَ فِي مَنْزِلَةِ الْفِرَاقِ يُقَاسِي وَبَالَهُ، وَمَنْ هُوَ فِي حُلَّةِ الْوِصَالِ يَجُرُّ أَذْيَالَهُ؟ هَلْ يَسْتَوِي مَنْ رُبِطَ بِقَيْدِ الْخِذْلَانِ، وَوُسِمَ بِوَسْمِ الْهِجْرَانِ، وَحُبِسَ فِي سِجْنِ الْحِرْمَانِ، وَمَنْ هُوَ فِي نَعِيمِ الرِّضْوَانِ قَدْ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ أَنْوَارُ الْإِيمَانِ؟ لَا يَسْتَوِيَانِ وَلَا يَجْتَمِعَانِ.

هَلْ يَسْتَوِي مَنْ أَبْعَدْنَاهُ وَحَجَبْنَاهُ، وَمَنْ أَخَذْنَا بِيَدِهِ وَقَرَّبْنَاهُ؟ هَلْ يَسْتَوِي مَنْ أَعْرَضَ عَنَّا، وَلَمْ يَطْلُبِ الْإِقَالَةَ مِنَّا، وَمَنْ أَقْبَلَ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَيْنَا، وَوَجَدَ نَعِيمَ قَلْبِهِ لَدَيْنَا؟

فَيَا هَذَا، لَقَدْ كَانَتْ أَحْوَالُ الْخَائِفِينَ مِنَ النَّارِ تُنَوَّعُ، وَقُلُوبُهُمْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَكَادُ تُقَطَّعُ. كَمَا رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْعُبَّادِ مَرَّ عَلَى كِيرِ حَدَّادٍ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَبْكِي ثُمَّ شَهَقَ شَهْقَةً فَمَاتَ مِنْهَا رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ.

وَقَدْ وَرَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾، قَالَ: «هُوَ شَوْكٌ يَأْخُذُ بِالْحَلْقِ لَا يَدْخُلُ وَلَا يَخْرُجُ».

وَوَرَدَ أَنَّهُمْ يُسْقَوْنَ الصَّدِيدَ فَإِذَا أُدْنِيَ مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ، وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ، فَإِذَا شَرِبَهُ تَقَطَّعَتْ أَمْعَاؤُهُ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ.

وَوَرَدَ أَنَّ الزَّانِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَشْهَدُ عَلَيْهِ فَخِذُهُ، وَكَذٰلِكَ الْجَوَارِحُ تَشْهَدُ عَلَى الْعَبْدِ بِمَا عَمِلَ. وَذٰلِكَ أَنَّ اللَّهَ يَخْتِمُ عَلَى فِيهِ، ثُمَّ تَخُونُهُ الْجَوَارِحُ بِشَهَادَتِهَا عَلَيْهِ بِمَا عَمِلَتْ؛ فَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَلْطُفَ بِنَا، وَيَرْحَمَ ضَعْفَنَا، وَلَا يُعَامِلَنَا بِعَدْلِهِ، وَأَنْ يَسْتُرَ عَلَيْنَا وَلَا يَفْضَحَنَا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِقَبَائِحِ أَفْعَالِنَا. إِنَّهُ أَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ، وَأَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ بِٱسْمِكَ الْأَعْظَمِ، وَبِوَجْهِكَ الْأَكْرَمِ؛ أَنْ تَرْزُقَنَا الْجَنَّةَ وَتُعِيذَنَا مِنَ النَّارِ، فَإِنَّكَ أَنْتَ الْمَعْرُوفُ بِالْإِحْسَانِ وَالصَّفْحِ عَنِ الْأَوْزَارِ.

اللَّهُمَّ ٱجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا نُورًا نَهْتَدِي بِهِ إِلَيْكَ، وَتَوَلَّنَا بِحُسْنِ رِعَايَتِكَ حَتَّى نَتَوَكَّلَ عَلَيْكَ، وَٱرْزُقْنَا حَلَاوَةَ التَّذَلُّلِ بَيْنَ يَدَيْكَ، فَالْعَزِيزُ مَنْ لَاذَ بِعِزِّكَ، وَالسَّعِيدُ مَنِ الْتَجَأَ إِلَى حِمَاكَ وَحِرْزِكَ، وَالذَّلِيلُ مَنْ لَمْ تُؤَيِّدْهُ بِعِنَايَتِكَ، وَالشَّقِيُّ مَنْ رَضِيَ بِالْإِعْرَاضِ عَنْ طَاعَتِكَ.

إِلٰهَنَا، ٱغْفِرْ لَنَا خَطَايَانَا يَوْمَ الدِّينِ، وَٱغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الرَّابِعَ عَشَرَ
فِي الْحَثِّ عَلَى التَّأَدُّبِ مَعَ الْقُرْآنِ وَآدَابِ الْقِرَاءَةِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الرَّءُوفِ الْعَظِيمِ الْمَنَّانِ، الْغَنِيِّ الْقَوِيِّ السُّلْطَانِ. الْحَلِيمِ الرَّحِيمِ الرَّحْمٰنِ، الْكَبِيرِ الْقَدِيرِ الدَّيَّانِ، الْأَوَّلِ فَلَا سَبْقَ لِسَبْقِهِ، الْمُنْعِمِ فَمَا قَامَ مَخْلُوقٌ بِحَقِّهِ، الْمُتَفَضِّلِ بِفَضْلِهِ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ، بِشَرَائِفِ الْمَنَائِحِ عَلَى تَوَالِي الزَّمَانِ. جَلَّ عَنْ شَرِيكٍ وَوَلَدٍ، وَعَزَّ عَنِ الْاحْتِيَاجِ إِلَى أَحَدٍ، وَتَقَدَّسَ عَنْ نَظِيرٍ وَٱنْفَرَدَ، وَعَلِمَ مَا يَكُونُ وَمَا كَانَ. أَنْشَأَ الْمَخْلُوقَاتِ بِحِكْمَتِهِ وَصَنَعَهَا، وَفَرَّقَ الْأَشْيَاءَ بِقُدْرَتِهِ وَجَمَعَهَا، وَدَحَا الْأَرْضَ وَبَسَطَهَا عَلَى الْمَاءِ وَأَوْسَعَهَا ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾، يُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيُفْقِرُ وَيُغْنِي، وَيُسْعِدُ وَيُشْقِي، وَيُبْقِي

وَيُفْنِي، وَيَشِينُ وَيَزِينُ، وَيَنْقُصُ وَيَبْنِي ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، مَدَّ الْأَرْضَ فَأَوْسَعَهَا بِقُدْرَتِهِ، وَأَجْرَى فِيهَا أَنْهَارَهَا بِصَنْعَتِهِ، وَصَبَغَ أَلْوَانَ نَبَاتِهَا بِحِكْمَتِهِ؛ فَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى صَبْغِ تِلْكَ الْأَلْوَانِ؟ ثَبَّتَ بِالجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ نَوَاحِيهَا. وَأَرْسَلَ السَّحَابَ بِمِيَاهٍ تُحْيِيهَا، وَقَضَى رَبُّكَ بِالْفَنَاءِ عَلَى جَمِيعِ سَاكِنِيهَا ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾. أَنْعَمَ عَلَى هٰذِهِ الْأُمَّةِ بِتَمَامِ إِحْسَانِهِ، وَعَادَ عَلَيْهَا بِفَضْلِهِ وَٱمْتِنَانِهِ، وَجَعَلَ شَهْرَهَا مَخْصُوصًا بِعَمِيمِ غُفْرَانِهِ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾.

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا خَصَّنَا بِهِ مِنَ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى بُلُوغِ الْآمَالِ وَسُبُوغِ الْإِنْعَامِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْمَلِكُ الدَّيَّانُ، الْعَظِيمُ الَّذِي لَا تُحِيطُ بِهِ الْعُقُولُ وَالْأَذْهَانُ، شَهَادَةً أَرْجُو بِهَا الْخُلُودَ فِي فَسِيحِ الْجِنَانِ، وَأَتَّقِي بِهَا مِنْ دَارِ الْعَذَابِ وَالْهَوَانِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ خَلْقِهِ وَبَرِيَّتِهِ، الْمُقَدَّمُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِبَقَاءِ مُعْجِزَاتِهِ، الَّذِي ٱنْشَقَّ لَيْلَةَ وِلَادَتِهِ الْإِيوَانُ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ صَلَاةً دَائِمَةً مُتَوَالِيَةً عَلَى تَوَالِي الزَّمَانِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾، يَقُولُ تَعَالَى: لَا يَسْتَوِي هَؤُلَاءِ وَمَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ فِي الْفَضْلِ وَقَالَ ﷻ: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ أي: ذوو العُقُولِ.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَاللَّهِ مَا تَدَبُّرُهُ بِحِفْظِ حُرُوفِهِ وَإِضَاعَةِ حُدُودِهِ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: قَرَأْتُ الْقُرْآنَ؛ لَا يَكُونَ قَارِئًا حَتَّى يَكُونَ عَامِلًا.

وَكَانَ ﵁ يَقُولُ: إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ أَقْوَامًا قَرَأُوا هٰذَا الْقُرْآنَ لَا يَعْمَلُونَ بِسُنَّتِهِ، وَلَا يَتَّبِعُونَ لِطَرِيقَتِهِ. أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ.

ٱعْلَمْ أَنَّ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ لَهَا فَضْلٌ عَظِيمٌ، وَالْمَطْلُوبُ الْقِرَاءَةُ بِالتَّدَبُّرِ وَلِلْقِرَاءَةِ آدَابٌ وَمَقَاصِدُ، وَأَنَا أَذْكُرُ لَكَ بَعْضَ آدَابِ الْقِرَاءَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ.

فَأَوَّلُ مَا يُؤْمَرُ بِهِ: الْإِخْلَاصُ فِي قِرَاءَتِهِ، وَأَنْ يُرِيدَ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَلَا يَقْصِدُ بِهَا تَوَصُّلًا إِلَى شَيْءٍ سِوَى ذٰلِكَ، وَأَنْ يَتَأَدَّبَ مَعَ الْقُرْآنِ؛ بِأَنْ يَقْرَأَ طَاهِرًا، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، وَلَا بَأْسَ بِقِرَاءَةِ مَنْ عَلَيْهِ حَدَثٌ أَصْغَرُ.

وَيَسْتَاكُ إِذَا أَرَادَ الْقِرَاءَةَ بِالسِّوَاكِ، وَيُنَظِّفُ فَمَهُ، وَتُكْرَهُ قِرَاءَةُ نَجِسِ الْفَمِ، وَيَسْتَحْضِرُ فِي ذِهْنِهِ أَنَّهُ يُنَاجِي اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِكَلَامِهِ. فَيَقْرَأُ عَلَى حَالِ مَنْ يَرَى اللَّهَ، فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يَرَهُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يَرَاهُ، ثُمَّ يَسْتَعِيذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾، فَإِنَّ إِبْلِيسَ اللَّعِينَ إِذَا أَرَادَ الْعَبْدُ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ أَجْلَبَ عَلَيْهِ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ لِيَشْغَلَهُ عَنِ الْمَقْصُودِ بِالْقُرْآنِ وَهُوَ تَدَبُّرُهُ وَتَفَهُّمُهُ، وَمَعْرِفَةُ مَا أَرَادَ بِهِ الْمُتَكَلِّمُ، وَلِهٰذَا يُغَلِّطُ الْقَارِئَ تَارَةً، وَيُخَبِّطُ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةَ وَيُشَوِّشُهَا، أَوْ يُشَوِّشُ عَلَيْهِ فَهْمَهُ وَقَلْبَهُ.

فَهٰذِهِ عَادَةُ الْخَبِيثِ أَنَّهُ يَحْرِصُ عَلَى الْإِنْسَانِ عِنْدَمَا يَهُمُّ بِالْخَيْرِ لِيَصُدَّهُ عَنْهُ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ قَلْبٍ حَاضِرٍ فَقَدْ دَخَلَ عَلَى مَوْلَاهُ، وَلَاذَ بِجَنَابِهِ، وَٱعْتَصَمَ بِاللَّهِ وَٱمْتَنَعَ. فَعِنْدَ ذٰلِكَ يُوَلِّي الشَّيْطَانُ هَارِبًا حَقِيرًا ذَلِيلًا مَدْحُورًا.

وَٱعْلَمْ أَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمٰنِ تَدْنُو مِنْ قَارِئِ الْقُرْآنِ، وَتَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِهِ، وَيَجْهَرُ بِالتَّرْتِيلِ إِنْ كَانَ لَيْسَ يَتَأَذَّى بِجَهْرِهِ أَحَدٌ، وَيُبَسْمِلُ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ إِنْ شَاءَ سِرًّا وَإِنْ شَاءَ جَهْرًا؛ ثُمَّ يَكُونُ شَأْنُهُ الْخُشُوعَ وَالتَّدَبُّرَ وَالْخُضُوعَ، فَهٰذَا هُوَ الْمَقْصُودُ وَالْمَطْلُوبُ، وَبِهِ تَنْشَرِحُ الصُّدُورُ، وَتَسْتَنِيرُ الْقُلُوبُ، وَدَلَائِلُهُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ.

وَقَدْ بَاتَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ يَتْلُو الْوَاحِدُ مِنْهُمْ آيَةً وَيَقُومُ بِهَا لَيْلَةً كَامِلَةً

أَوْ مُعْظَمَ لَيْلَةٍ يَتَدَبَّرُهَا. وَصُعِقَ جَمَاعَةٌ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ. وَمَاتَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ رضي الله عنهم.

وَيُسْتَحَبُّ الْبُكَاءُ، فَإِنْ لَمْ يَبْكِ فَلْيَتَبَاكَ إِنْ كَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْبُكَاءِ، فَإِنَّ الْبُكَاءَ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ صِفَةُ الْعَارِفِينَ.

قَالَ صَاحِبُ الْمَعَارِفِ وَاللَّطَائِفِ إِبْرَاهِيمُ الْخَوَّاصُ رحمه الله: دَوَاءُ الْقَلْبِ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ: قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ، وَخَلَاءُ الْبَطْنِ، وَقِيَامُ اللَّيْلِ، وَالتَّضَرُّعُ عِنْدَ السَّحَرِ، وَمُجَالَسَةُ الصَّالِحِينَ.

وَالْقِرَاءَةُ فِي الْمُصْحَفِ أَفْضَلُ مِنَ الْقِرَاءَةِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِهِ، قَالَهُ الْعُلَمَاءُ: وَهُوَ مَشْهُورٌ عَنِ السَّلَفِ رضي الله عنهم، فَإِنَّهُ يَكُونُ أَجْمَعَ لِذِهْنِهِ وَأَحْضَرَ لِفِكْرِهِ إِذَا كَانَ يَقْرَأُ وَيَنْظُرُ الْآيَاتِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ يَنْعَكِسُ الْأَمْرُ فِي بَعْضِ النَّاسِ، وَيُسْتَحَبُّ تَحْسِينُ الْقِرَاءَةِ وَتَرْتِيلُهَا وَالْجَهْرُ، لَكِنْ إِنْ كَانَ لَا يَتَأَذَّى بِجَهْرِهِ نَائِمٌ أَوْ مُصَلٍّ أَوْ تَالٍ، وَلِلْجَهْرِ فَضْلٌ، لِأَنَّهُ يَتَعَدَّى نَفْعُهُ إِلَى غَيْرِهِ. وَلِأَنَّهُ يُوقِظُ الْقَلْبَ وَيَجْمَعُ هَمَّهُ إِلَى الْفِكْرِ، وَيَصْرِفُ سَمْعَهُ إِلَيْهِ، وَيَطْرُدُ النَّوْمَ، وَيَزِيدُ فِي النَّشَاطِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ لِأَوْقَاتِ الْفَضَائِلِ اغْتِنَامًا؛ كَمِثْلِ هٰذَا الشَّهْرِ.

كَانَ الشَّافِعِيُّ يَخْتِمُ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثِينَ خَتْمَةً، وَيَخْتِمُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سِتِّينَ خَتْمَةً، سِوَى مَا يَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ.

وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَخْتِمُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَتْمَةً. وَبَعْضُهُمْ يَخْتِمُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ثَلَاثَ خَتَمَاتٍ، وَخَتَمَ بَعْضُهُمْ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ثَمَانِيَ خَتَمَاتٍ: أَرْبَعًا فِي اللَّيْلِ، وَأَرْبَعًا فِي النَّهَارِ. كَانَ مِنْهُمُ ابْنُ الْكَاتِبِ الصُّوفِيُّ رضي الله عنه.

قَالَ النَّوَوِيُّ: وَهَذَا أَكْثَرُ مَا بَلَغَنَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ.

وَكَانَ مَنْصُورُ بْنُ زَاذَانَ يَخْتِمُ الْقُرْآنَ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، وَيَخْتِمُهُ أَيْضًا فِيمَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ فِي رَمَضَانَ.

هٰذِهِ حَالُ السَّلَفِ، وَمَنْ لَهُ هِمَّةٌ فَلْيَسْتَنَّ بِهِمْ.

وَيُكْرَهُ هَذُّ الْقِرَاءَةِ مِنْ غَيْرِ تَدَبُّرٍ، وَيُكْرَهُ أَيْضًا تَمْطِيطُ الْقِرَاءَةِ بِالْمُجَاوَزَةِ إِلَى الْأَلْحَانِ. وَقَدْ يَكُونُ ذٰلِكَ حَرَامًا. وَلَا يَنْبَغِي هَذْرَمَةُ الْقِرَاءَةِ وَهَذُّهَا مِنْ غَيْرِ تَدَبُّرٍ وَلَا تَفْكِيرٍ.

فَهٰذِهِ آدَابُ الْقِرَاءَةِ: و﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

شِعْر:

فَدُونَكَ فَٱصْنَعْ مَا تُحِبُّ فَإِنَّمَا	غَدًا تَحْصُدُ الزَّرْعَ الَّذِي أَنْتَ زَارِعُ
وَحَرُّ لَهِيبِ النَّارِ حَارٌّ وَمُهْلِكٌ	وَمَا لِطَرِيدِ الدِّينِ عَنْهَا مُمَانِعُ
وَخَابَ الَّذِي يَرْضَى جَهَنَّمَ مَوْطِنًا	وَفِيهَا أُعِدَّتْ لِلْعُصَاةِ الْمَقَامِعُ
وَسُحْقًا لِعَبْدٍ غَرَّهُ حِلْمُ رَبِّهِ	وَأَهْمَلَ حَتَّى أَهْلَكَتْهُ الْمَوَانِعُ
يُوَافِيهِ بِالنُّعْمَا فَيَجْحَدُ فَضْلَهُ	وَيُوصِلُ حَبْلَ الْوُدِّ وَهُوَ يُقَاطِعُ
قَلِيلَ الْحَيَا، لَوْلَاهُ مَا عِشْتَ فِي الْحَشَا	وَلَوْلَاهُ مَا حَنَّتْ عَلَيْكَ الْمَرَاضِعُ
تَأَدَّبْ بِآدَابِ الشَّرِيعَةِ وَٱسْتَقِمْ	وَقُلْ يَا إِلٰهَ الْعَرْشِ: إِنِّي رَاجِعُ
وَيَا وَاهِبَ الْخَيْرَاتِ هَبْ لِي هِدَايَةً	فَمَا غَيْرُ فُقْدَانِ الْهِدَايَةِ قَاطِعُ
إِلٰهِي، أَنَا الْمِسْكِينُ أَمْسَيْتُ حَائِرًا	وَقَدْ عَارَضَتْنِي فِي الطَّرِيقِ قَوَاطِعُ
أَقِلْ عَثْرَتِي عَفْوًا وَلُطْفًا وَرَحْمَةً	فَمَا لِجَمِيلِ الصُّنْعِ غَيْرَكَ صَانِعُ

فَمَا لَكَ فِي زَمَانٍ صَارَتِ الْعِبَادَاتُ فِيهِ عَادَاتٍ، وَالصِّيَامُ مُجَرَّدَ الْإِمْسَاكِ عَنِ الْمُشْتَهَيَاتِ، وَالْقِرَاءَةُ هَذًّا مِنْ غَيْرِ ٱعْتِبَارٍ لِلْآيَاتِ، وَالْقُلُوبُ مَصْرُوفَةٌ عَمَّا فِي الْكِتَابِ مِنَ الدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَاتِ، وَالْأَفْهَامُ قَاصِرَةٌ عَنْ فَهْمِ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْمُعْجِزَاتِ، وَالْعُيُونُ قَدْ قَسَتْ عَنْ إِسْبَالِ الْعَبَرَاتِ عَلَى الْوَجَنَاتِ، وَصَارَ الْقُرْآنُ رَسْمًا بَيْنَ الْوَرَقَاتِ، وَرَانَتْ عَلَى الْقُلُوبِ الْمَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتُ، وَقَدِ ٱنْشَغَلَتِ الْأَلْسُنُ بِالْغِيبَةِ وَالْقِيلِ وَالْقَالِ، وَتَمَخَّضَتْ بِالْفُحْشِ وَالْبَذَاءِ وَرَدِيءِ

الْأَقْوالِ، وَالْأَسْمَاعُ مُنصَرِفَةٌ إِلَى ٱقْبَلْ وَهَاتِ وَتَعَالَ، وَصَارَتِ الْهِمَمُ تَجُولُ فِي جَمْعِ الْحُطَامِ، وَالْقُلُوبُ قَدِ ٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا الْقَسْوَةُ مِنْ أَكْلِ الْحَرَامِ، وَالْأَعْيُنُ تُرْسَلُ فِي النَّظَرِ إِلَى كُلِّ الْآثَامِ، وَمَا لِشَهْرِ رَمَضَانَ عِنْدَنَا ٱحْتِرَامٌ، وَكَأَنَّنَا لَمْ نَسْمَعْ بِالْمُقَامِ بَيْنَ يَدَي الْمَلِكِ الْعَلَّامِ، وَلَمْ نَدْرِ بِمَا أُعِدَّ لِأَهْلِ الْإِجْرَامِ وَالْآثَامِ، وَكَثُرَ الْفُحْشُ وَالْحَسَدُ وَالحِقْدُ وَالْغِيبَةُ والنَّمِيمَةُ، وَالْكَذِبُ وَالْأَفْعَالُ الْوَخِيمَةُ، فِي كُلِّ وَقْتٍ وَأَوَانٍ، وَصَارَ الْخُشوعُ فِي الصَّلَاةِ بِقُرْبِ الْمَكَانِ، وَقَدْ غَابَتِ الْقُلُوبُ وَحَضَرَتِ الْأَبْدَانُ، وَعَادَ الْمَعْرُوفُ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرُ مَعْرُوفًا، وَتُرِكَتِ السُّنَّةُ وَارْتُكِبَتِ الْبِدْعَةُ، وَضُيِّعَتِ الحُقُوقُ مِنْ فِعْلِ الجَوَرَةِ، وَقَدِ ٱقْشَعَرَّتِ الْأَرْضُ وَأَظْلَمَتِ السَّمَاءُ، وَظَهَرَ الْفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ مِنْ ظُلْمِ الفَجَرَةِ، وَذَهَبَتِ البَرَكَاتُ، وَقَلَّتِ الْخَيْرَاتُ، وَهَزُلَتِ الْوُحُوشُ، وَتَكَدَّرَتِ الحَيَاةُ مِنْ فِسْقِ الظَّلَمَةِ، وَبَكَى ضَوْءُ النَّهَارِ وَظُلْمَةُ اللَّيْلِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْخَبِيثَةِ وَالْأَفْعَالِ الْفَظِيعَةِ، وَشَكَا الْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ والْمُعَقِّبَاتُ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ كَثْرَةِ الْفَوَاحِشِ، وَغَلَبَتِ الْمُنْكَرَاتُ وَالقَبَائِحُ. وَهَذَا وَاللَّهِ مُنْذِرٌ بِسَبِيلِ عَذَابٍ قَدِ ٱنْعَقَدَ غَمَامُهُ، وَمُؤْذِنٌ بِلَيْلِ بَلَاءٍ قَدِ ٱدْلَهَمَّ ظَلَامُهُ، فَٱعْزِلُوا عَنْ طَرِيقِ هٰذَا السَّبِيلِ بِتَوْبَةٍ نَصُوحٍ، مَا دَامَتِ التَّوْبَةُ مُمْكِنَةً وَبَابُهَا مَفْتُوحٌ، وَكَأَنَّكُمْ بِالْبَابِ وَقَدْ أُغْلِقَ، وَبِالرَّهْنِ وَقَدْ غَلِقَ، وَبِالْجَنَاحِ وَقَدْ عَلِقَ ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ فـ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

فَصْلٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾.

عَنِ ٱبْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنَا عَنْ ثِيَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَخَلْقٌ تُخْلَقُ، أَمْ نَسِيجٌ تُنْسَجُ؟ فَضَحِكَ بَعْضُ الْقَوْمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ مِنْ جَاهِلٍ يَسْأَلُ عَالِمًا؟ ثُمَّ قَالَ: بَلْ تَشَقَّقُ عَنْهَا ثَمَرُ الْجَنَّةِ: مَرَّتَيْنِ» رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَلَهُ عَنْ مَرْثِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً تُنْبِتُ السُّنْدُسَ، مِنْهُ يَكُونُ ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ جعَلَ مَلِكًا مُنْذُ يَوْم خُلِقَ يَصُوغُ حُلِيَّ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، لَوْ أَنَّ حُلِيًّا مِنْ حُلِيِّ أَهْلِ الْجَنَّةِ أُخْرِجَ لَذَهَبَ بِضَوْءِ الشَّمْسِ، فَلَا تَسْأَلُوا بَعْدَ هَذَا عَنْ حُلِيِّ أَهْلِ الْجَنَّةِ» رَوَاهُ ٱبْنُ أَبِي الدُّنْيَا.

وَقَالَ شَمْسُ الدِّينِ ٱبْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمِنْ مَلَابِسِهِمُ التِّيجَانُ، ثُمَّ سَاقَ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ الَّذِي رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ يُحِلُّ حَلَالَهُ وَيُحَرِّمُ حَرَامَهُ، خَلَطَهُ اللَّهُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ، وَجَعَلَهُ رَفِيقَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَانَ الْقُرْآنُ لَهُ حَجِيجًا، فَقَالَ: يَا رَبِّ، كُلُّ عَامِلٍ يَعْمَلُ فِي الدُّنْيَا يَأْخُذُ بِعَمَلِهِ فِي الدُّنْيَا، إِلَّا فُلَانًا كَانَ يَقُومُ فِيَّ آنَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ؛ فَيُحِلُّ حَلَالِي وَيُحَرِّمُ حَرَامِي، يَقُولُ: يَا رَبِّ فَأَعْطِهِ، فَيُتَوِّجُهُ اللَّهُ تَاجَ الْمُلُوكِ، وَيَكْسُوهُ مِنْ حُلَّةِ الْكَرَامَةِ. ثُمَّ يَقُولُ: هَلْ رَضِيتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَرْغَبُ لَهُ فِي أَفْضَلَ مِنْ هٰذَا، فَيُعْطِيهِ اللَّهُ الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: هَلْ رَضِيتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ».

وَفِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «يُمَثَّلُ الْقُرْآنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلًا، فَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ قَدْ حَمَلَهُ فَخَالَفَ أَمْرَهُ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ خَصْمًا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَمَّلْتَهُ إِيَّايَ فَبِئْسَ حَامِلٌ تَعَدَّى حُدُودِي وَضَيَّعَ فَرَائِضِي وَتَرَكَ طَاعَتِي. فَمَا يَزَالُ يَقْذِرُ عَلَيْهِ بِالْحُجَجِ حَتَّى يُقَالَ: شَأْنُكَ بِهِ. فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ فَمَا يَرْسِلُهُ حَتَّى يَكُبَّهُ عَلَى مِنْخَرِهِ فِي النَّارِ».

فَالصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِمَنْ قَامَ بِحُقُوقِهِمَا. وَأَمَّا مَنْ كَانَ مَعَهُ الْقُرْآنُ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فِي النَّهَارِ، فَإِنَّهُ يَنْتَصِبُ خَصْمًا لَهُ يُطَالِبُهُ بِحُقُوقِهِ الَّتِي ضَيَّعَهَا؛ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ.

يَا مَنْ ضَيَّعَ عُمْرَهُ فِي غَيْرِ الطَّاعَةِ، يَا مَنْ فَرَّطَ فِي شَهْرِهِ - بَلْ فِي دَهْرِهِ - وَأَضَاعَهُ، يَا مَنْ بِضَاعَتُهُ التَّسْوِيفُ وَالتَّفْرِيطُ وَبِئْسَتِ الْبِضَاعَةُ، يَا مَنْ جَعَلَ خَصْمَهُ الْقُرْآنَ وَشَهْرَ رَمَضَانَ، كَيْفَ تَرْجُو مِمَّنْ جَعَلْتَهُ خَصْمَكَ الشَّفَاعَةَ؟ وَيْلٌ لِمَنْ شُفَعَاؤُهُ خُصَمَاؤُهُ «رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَقَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ»، كُلُّ قِيَامٍ لَا يَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَا يَزِيدُ صَاحِبَهُ إِلَّا بُعْدًا، وَكُلُّ صِيَامٍ لَا يُصَانُ عَنْ قَوْلِ الزُّورِ وَالْعَمَلِ بِهِ لَا يُورِثُ صَاحِبَهُ إِلَّا مَقْتًا وَرَدًّا.

يَا قَوْمِ، أَيْنَ آثَارُ الصِّيَامِ، أَيْنَ أَنْوَارُ الْقِيَامِ؟

هٰذا - عِبَادَ اللَّهِ - شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، وَفِي بَقِيَّتِهِ لِلْعَابِدِينَ مُسْتَمْتَعٌ، وَهٰذَا كِتَابُ اللَّهِ يُتْلَى فِيهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ وَيُسْمَعُ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي لَوْ أُنْزِلَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا يَتَصَدَّعُ. وَمَعَ هٰذَا فَلَا قَلْبٌ يَخْشَعُ، وَلَا عَيْنٌ تَدْمَعُ، وَلَا صِيَامٌ يُصَانُ عَنِ الْحَرَامِ فَيَنْفَعُ، وَلَا قِيَامٌ ٱسْتَقَامَ فَيُرْجَى فِي صَاحِبِهِ أَنْ يَشْفَعَ، قُلُوبٌ خَلَتْ مِنَ التَّقْوَى فَهِيَ خَرَابٌ بَلْقَعٌ، وَتَرَاكَمَتْ عَلَيْهَا ظُلْمَةُ الذُّنُوبِ فَهِيَ لَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ. كَمْ تُتْلَى عَلَيْنَا آيَاتُ الْقُرْآنِ وَقُلُوبُنَا كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً؟ وَكَمْ يَتَوَالَى عَلَيْنَا شَهْرُ رَمَضَانَ وَحَالُنَا فِيهِ كَحَالِ أَهْلِ الشِّقْوَةِ؟ لَا الشَّابُّ مِنَّا يَنْتَهِي عَنِ الصَّبْوَةِ، وَلَا الشَّيْخُ يَنْزَجِرُ عَنِ الْقَبِيحِ فَيَلْتَحِقُ بِالصَّفْوَةِ. أَيْنَ نَحْنُ مِنْ قَوْمٍ إِذَا سَمِعُوا دَاعِيَ اللَّهِ أَجَابُوا الدَّعْوَةَ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ جَلَتْ قُلُوبَهُمْ جَلْوَةً، وَإِذَا صَامُوا صَامَتْ مِنْهُمُ الْأَلْسِنَةُ وَالْأَسْمَاعُ وَالْأَبْصَارُ، فَمَا لَنَا فِيهِمْ أُسْوَةٌ؟ كَمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ حَالِ أَهْلِ الصَّفَا أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ. كُلَّمَا حَسُنَتْ مِنَّا الْأَقْوَالُ، سَاءَتْ مِنَّا الْأَعْمَالُ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

شِعْرٌ:

يَا نَفْسُ فَازَ الصَّالِحُونَ بِالتُّقَى   قَدْ أَبْصَرُوا الْحَقَّ وَقَلْبِي قَدْ عَمِي

يَا حُسْنَهُمْ وَاللَّيْلُ قَدْ جَنَّهُمْ — وَنُورُهُمْ يَفُوقُ نُورَ الْأَنْجُمِ

تَرَنَّمُوا بِالذِّكْرِ فِي لَيْلِهِمْ — فَعَيْشُهُمْ قَدْ طَابَ بِالتَّرَنُّمِ

قُلُوبُهُمْ لِلذِّكْرِ قَدْ تَفَرَّغَتْ — دُمُوعُهُمْ كَلُؤْلُؤٍ مُنْتَظِمِ

وَيْحَكِ يَا نَفْسُ أَلَا تَيَقُّظٌ — يَنْفَعُ قَبْلَ أَنْ تَزِلَّ قَدَمِي

مَضَى الزَّمَانُ فِي تَوَانٍ وَهَوًى — فَاسْتَدْرِكِي مَا قَدْ بَقِي وَٱغْتَنِمِي

اللَّهُمَّ يَا مَنْ فَتَحَ بَابَهُ لِلطَّالِبِينَ، وَأَظْهَرَ غِنَاهُ لِلرَّاغِبِينَ، وَأَطْلَقَ لِلسُّؤَالِ أَلْسِنَةَ السَّائِلِينَ، نَسْأَلُكَ أَنْ تَلْطُفَ بِنَا فِي قَضَائِكَ، وَتُعَافِينَا مِنْ بَلَائِكَ، وَتَهَبَ لَنَا مَا وَهَبْتَهُ لِأَوْلِيَائِكَ.

اللَّهُمَّ أَيْقِظْنَا مِنْ رَقَدَاتِ الْغَفْلَةِ، وَوَفِّقْنَا لِلتَّزَوُّدِ قَبْلَ النُّقْلَةِ، وَٱرْزُقْنَا ٱغْتِنَامَ الزَّمَانِ وَوَقْتَ الْمُهْلَةِ.

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا لِمَا يُرْضِيكَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَخَلِّصْنَا مِنَ التَّسْوِيفِ وَالْفُتُورِ وَالْكَسَلِ، وَآمِنْ رَوْعَتَنَا يَوْمَ التَّوْبِيخِ وَالْخَجَلِ، وَأَعِذْنَا يَوْمَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ مِنْ خَيْبَةِ الْأَمَلِ، وَٱغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الْخَامِسَ عَشَرَ
فِي بَرَكَاتِ شَهْرِ رَمَضَانَ عَلَى هٰذِهِ الْأُمَّةِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ، وَعَلِمَ مَوْرِدَ كُلِّ مَخْلُوقٍ وَمَصْدَرَهُ، وَأَثْبَتَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ مَا قَضَاهُ وَسَطَّرَهُ، فَلَا مُؤَخِّرَ لِمَا قَدَّمَهُ وَلَا مُقَدِّمَ لِمَا أَخَّرَهُ. الْمُتَفَرِّدُ بِالْقِدَمِ وَالْبَقَاءِ، وَالْعِزِّ وَالْكِبْرِيَاءِ؛ فَالْعُقُولُ عَنْ إِدْرَاكِهِ قَاصِرَةٌ، وَالْأَلْسُنُ عَنْ إِحْصَاءِ ثَنَائِهِ مُقَصِّرَةٌ، الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، الْقُدُّوسُ الصَّمَدُ، فَلَا مُشَارِكَ لَهُ فِيمَا أَبْدَعَهُ وَفَطَرَهُ، الْحَيُّ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ، السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، فَلَا يَخْفَى عَنْهُ مَا أَسَرَّهُ الْعَبْدُ وَمَا أَظْهَرَهُ، تَعَالَىٰ مِنْ إِلٰهٍ لَا

تُحِيطُ بِهِ الْعُلُومُ وَلَا تُكَيِّفُهُ الْأَذْهَانُ، وَجَلَّ مِنْ مَلِكٍ لَا تُغَيِّرُهُ الدُّهُورُ وَالْأَزْمَانُ، وَتَقَدَّسَ مِنْ مُحْسِنٍ كَرِيمٍ لَمْ يَزَلْ مُفِيضًا لِلْإِحْسَانِ، يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ شَاءَ هَدَاهُ وَبَصَّرَهُ، أَنْزَلَ الْقُرْآنَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ هُدًى لِلنَّاسِ وَتَذْكِرَةً ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾.

فَسُبْحَانَ مَنْ قَسَّمَ عِبَادَهُ إِلَى طَائِعٍ وَلَئِيمٍ، وَضَالٍّ عَنِ الْهُدَى وَمُسْتَقِيمٍ، وَجَعَلَ مَآلَهُمْ إِلَى دَارِ نَعِيمٍ، أَوْ دَارِ جَحِيمٍ، وَيَسَّرَ كُلًّا لِمَا خُلِقَ لَهُ وَالْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ. خَرَجَ مُوسَى رَاعِيًا فَعَادَ وَهُوَ الْكَلِيمُ. وَذَهَبَ ذُو النُّونِ مُغَاضِبًا فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ. وَنَشَأَ مُحَمَّدٌ يَتِيمًا فَصَارَ الْفَضْلُ لِذٰلِكَ الْيَتِيمِ، وَعَصَى آدَمُ وَإِبْلِيسُ فَهٰذَا مَرْحُومٌ وَهَذَا رَجِيمٌ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِنَيْلِ الْمَمَالِكِ، أَوْ رَأَيْتَ وُقُوعَ الْمَهَالِكِ، فَقُلْ: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، لَقَدْ خَابَ مَنْ طَرَدَهُ مَوْلَاهُ، وَشَقِيَ مَنْ كَانَ التَّعْذِيبُ عُقْبَاهُ، وَسَعِدَ وَاللَّهِ مَنْ قَرَّبَهُ وَأَدْنَاهُ، وَعَفَا عَنْ زَلَّتِهِ وَنَصَرَهُ وَتَوَلَّاهُ، وَرَعَاهُ وَحَفِظَهُ وَجَبَرَهُ.

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَوْلَى مِنْ خَيْرٍ وَيَسَّرَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِلٰهٌ اطَّلَعَ عَلَى عَمَلِ الْمُسِيءِ وَسَتَرَهُ، وَقَبِلَ تَوْبَةَ الْعَاصِي فَعَفَا عَنْ ذَنْبِهِ وَغَفَرَهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَوْضَحَ بِهِ سَبِيلَ الْهُدَى وَنَوَّرَهُ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ صَلَاةً تُبَلِّغُهُمْ بِهَا شَرَفَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، فَامْتَدَحَهُمُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِأَنَّهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ وَلَهُمْ فَضْلٌ كَثِيرٌ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ، وَالْمُرَادُ بِهِمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ، وَجَعَلَ اللَّهُ نَبِيَّهُمْ أَفْضَلَ الْأَنْبِيَاءِ، وَكِتَابَهُمْ خَيْرَ الْكُتُبِ، وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهَا. وَخَصَّهُمُ اللَّهُ بِشَهْرِ رَمَضَانَ، وَبِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَبِزِيَادَةِ مُضَاعَفَةِ الْأَعْمَالِ، إِلَى غَيْرِ

ذٰلِكَ. وَفِيهِمُ الْعُلَمَاءُ وَالْأَحْبَارُ وَالزُّهَّادُ وَالْأَبْدَالُ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ فِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ مِثْلُهُمْ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا وَكُنَّا فِي صُفَّةِ الْمَدِينَةِ، فَقَامَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ الْبَارِحَةَ عَجَبًا: رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي أَتَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ، فَجَاءَهُ بِرُّهُ بِوَالِدَيْهِ فَرَدَّ مَلَكَ الْمَوْتِ عَنْهُ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي قَدْ بُسِطَ عَلَيْهِ عَذَابُ الْقَبْرِ، فَجَاءَهُ وُضُوءُهُ فَاسْتَنْقَذَهُ مِنْ ذٰلِكَ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي قَدِ احْتَوَشَتْهُ الشَّيَاطِينُ، فَجَاءَهُ ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَطَرَدَ الشَّيْطَانَ عَنْهُ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي قَدِ ٱحْتَوَشَتْهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَجَاءَتْهُ صَلَاتُهُ فَاسْتَنْقَذَتْهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي يَلْتَهِبُ عَطَشًا - وَفِي رِوَايَةٍ: يَلْهَثُ عَطَشًا - كُلَّما دَنَا مِنْ حَوْضٍ مُنِعَ وَطُرِدَ، فَجَاءَهُ صِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَأَسْقَاهُ وَأَرْوَاهُ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي وَرَأَيْتُ النَّبِيِّينَ جُلُوسًا حَلَقًا حَلَقًا كُلَّما دَنَا إِلَى حَلَقَةٍ طُرِدَ، فَجَاءَهُ غُسْلُهُ مِنَ الْجَنَابَةِ فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَأَقْعَدَهُ إِلَى جَنْبِي، وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي بَيْنَ يَدَيْهِ ظُلْمَةٌ، وَمِنْ خَلْفِهِ ظُلْمَةٌ، وَعَنْ يَمِينِهِ ظُلْمَةٌ، وَعَنْ يَسَارِهِ ظُلْمَةٌ، وَمِنْ فَوْقِهِ ظُلْمَةٌ، وَمِنْ تَحْتِهِ ظُلْمَةٌ، وَهُوَ مُتَحَيِّرٌ فِيهَا، فَجَاءَهُ حَجُّهُ وَعُمْرَتُهُ فَٱسْتَخْرَجَاهُ مِنَ الظُّلْمَةِ وَأَدْخَلَاهُ فِي النُّورِ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي يَتَّقِي وَهَجَ النَّارِ وَشَرَرَهَا، فَجَاءَتْهُ صَدَقَتُهُ فَصَارَتْ سِتْرَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ، وَظَلَّلَتْ عَلَى رَأْسِهِ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي يُكَلِّمُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يُكَلِّمُونَهُ، فَجَاءَتْهُ صِلَتُهُ لِرَحِمِهِ، فَقَالَتْ: يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّهُ كَانَ وَصُولًا لِرَحِمِهِ فَكَلِّمُوهُ، فَكَلَّمَهُ الْمُؤْمِنُونَ وَصَافَحُوهُ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي قَدِ ٱحْتَوَشَتْهُ الزَّبَانِيَةُ فَجَاءَهُ أَمْرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُهُ عَنِ الْمُنْكَرِ فَاسْتَنْقَذَهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَأَدْخَلَهُ فِي مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي جَاثِيًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ عز وجل حِجَابٌ، فَجَاءَهُ حُسْنُ خُلُقِهِ فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَأَدْخَلَهُ عَلَى اللَّهِ عز وجل. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي ذَهَبَتْ صَحِيفَتُهُ مِنْ قِبَلِ شِمَالِهِ، فَجَاءَهُ خَوْفُهُ مِنَ اللَّهِ عز وجل، فَأَخَذَ صَحِيفَتَهُ فَوَضَعَهَا فِي يَمِينِهِ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي

خَفَّ مِيزَانُهُ، فَجَاءَهُ أَفْرَاطُهُ فَثَقَّلُوا مِيزَانَهُ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي قَائِمًا عَلَى شَفِيرِ جَهَنَّمَ، فَجَاءَهُ رَجَاؤُهُ مِنَ اللَّهِ ﷻ فَاسْتَنْقَذَهُ مِنْ ذٰلِكَ وَمَضَى. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي قَدْ هَوَى فِي النَّارِ، فَجَاءَتْهُ دُمُوعُهُ الَّتِي بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﷻ فَاسْتَنْقَذَتْهُ مِنْ ذٰلِكَ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي قَائِمًا عَلَى الصِّرَاطِ يَرْعَدُ كَمَا تَرْعَدُ السَّعْفَةُ فِي رِيحٍ عَاصِفٍ، فَجَاءَهُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِاللَّهِ ﷻ فَسَكَّنَ رِعْدَتَهُ وَمَضَى. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي يَزْحَفُ عَلَى الصِّرَاطِ وَيَحْبُو أَحْيَانًا وَيَتَعَلَّقُ أَحْيَانًا، فَجَاءَتْهُ صَلَاتُهُ عَلَيَّ فَأَقَامَتْهُ عَلَى قَدَمَيْهِ وَأَنْقَذَتْهُ. وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي ٱنْتَهَى إِلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَغُلِّقَتِ الْأَبْوَابُ دُونَهُ، فَجَاءَتْهُ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَفُتِحَتْ لَهُ الْأَبْوَابُ وَأَدْخَلَتْهُ الْجَنَّةَ» رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو مُوسَى الْمَدِينِي، وَبَنَى كِتَابَهُ عَلَيْهِ. وَأَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ أَيْضاً. وَهٰذَا الْحَدِيثُ حَدِيثٌ عَظِيمٌ جَلِيلٌ شَرِيفٌ. كَانَ أَبُو الْعَبَّاسِ ٱبْنُ تَيْمِيَةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ يُعْظِمُ شَأْنَهُ، وَيَقُولُ: شَوَاهِدُ الصِّحَّةِ عَلَيْهِ.

شَهْرُ رَمَضَانَ يُزَوَّجُ فِيهِ الصَّائِمُونَ، فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الْجَنَّةَ لَتُزَخْرَفُ وَتُجَدَّدُ مِنَ الْحَوْلِ إِلَى الْحَوْلِ لِدُخُولِ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَتَقُولُ الْحُورُ: يَا رَبِّ، ٱجْعَلْ لَنَا فِي هٰذَا الشَّهْرِ مِنْ عِبَادِكَ أَزْوَاجًا تَقَرُّ أَعْيُنُنَا بِهِمْ وَتَقَرُّ أَعْيُنُهُمْ بِنَا».

وَقَالَ الْحَسَنُ: «تَقُولُ الْحَوْرَاءُ لِوَلِيِّ اللَّهِ ـ وَهُوَ مُتَّكِئٌ مَعَهَا عَلَى نَهْرِ الْعَسَلِ تُعَاطِيهِ الْكَأْسَ ـ: إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَيْكَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ بَعِيدٍ مَا بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ وَأَنْتَ فِي ظَمَإٍ هَاجِرَةٍ مِنْ جَهْدِ الْعَطَشِ، فَبَاهَى بِكَ الْمَلَائِكَةَ، وَقَالَ: ٱنْظُرُوا إِلَى عَبْدِي تَرَكَ زَوْجَتَهُ وَشَهْوَتَهُ وَلَذَّتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِي، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، ٱشْهَدُوا أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، فَغَفَرَ لَكَ يَوْمَئِذٍ وَزَوَّجَنِيكَ».

وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ يُوسُفَ الْحَنَفِيُّ: بَلَغَنَا أَنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ لِأَوْلِيَائِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «يَا أَوْلِيَائِي، طَالَمَا نَظَرْتُ إِلَيْكُمْ وَقَدْ تَقَلَّصَتْ شِفَاهُكُمْ عَنِ الْأَشْرِبَةِ، وَغَارَتْ أَعْيُنُكُمْ، وَخَفَقَتْ بُطُونُكُمْ. كُونُوا الْيَوْمَ فِي نَعِيمِكُمْ، وَتَعَاطَوا الْكَأْسَ فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ».

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَامَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ بَعَّدَهُ اللَّهُ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ كَبُعْدِ غُرَابٍ طَارَ وَهُوَ فَرْخٌ حَتَّى ماتَ هَرِمًا».

رَأَى بَعْضُهُمْ بِشْرَ بْنَ الْحَارِثِ فِي الْمَنَامِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ مَائِدَةٌ وَهُوَ يَأْكُلُ، وَيُقَالُ لَهُ: كُلْ يا مَنْ لَمْ يَأْكُلْ، وَٱشْرَبْ يَا مَنْ لَمْ يَشْرَبْ.

كانَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ قَدْ صَامَ حَتَّى ٱنْحَنَى وَٱنْقَطَعَ صَوْتُهُ، فَمَاتَ فَرَآهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ الصَّالِحِينَ فِي الْمَنَامِ فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ، فَضَحِكَ وَأَنْشَدَ:

قَدْ كُسِيَ حُلَّةَ الْبَهَاءِ وَطَافَتْ ... بِأَبَارِيقَ حَوْلَهُ الْخُدَّامُ
ثُمَّ حُلِّيَ وَقِيلَ يَا قَارِئُ ٱرْقَ ... فَلَعَمْرِي لَقَدْ بَرَاكَ الصِّيَامُ

إِخْوَانِي، هَبَّتِ الْيَوْمَ عَلَى الْقُلُوبِ نَفْحَةٌ مِنْ نَفَحَاتِ نَسِيمِ الْقُرْبِ، سَعَى سِمْسَارُ الْمَوَاعِظِ لِلْمَهْجُورِينَ فِي الصُّلْحِ، وَصَلَتِ الْبِشَارَةُ لِلْمُنْقَطِعِينَ بِالْوَصْلِ، وَلِلْمُذْنِبِينَ بِالْعَفْوِ، وَلِلْمُسْتَوْجِبِينَ النَّارَ بِالْعِتْقِ لَمَّا سُلْسِلَ الشَّيْطَانُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَخَمَدَتِ نِيرَانُ الشَّهَوَاتِ بِالصِّيَامِ ٱنْعَزَلَ سُلْطَانُ الْهَوَى، وَصَارَتِ الدَّوْلَةُ لِحَاكِمِ الْعَقْلِ بِالْعَدْلِ، فَلَمْ يَبْقَ لِلْعَاصِي عُذْرٌ.

يَا غُيُومَ الْغَفْلَةِ عَنِ الْقُلُوبِ تَقَشَّعِي، يَا شُمُوسَ التَّقْوَى وَالْإِيمَانِ ٱطْلُعِي. يَا صَحَائِفَ أَعْمَالِ الصَّائِمِينَ ٱرْتَفِعِي. يَا قُلُوبَ الصَّائِمِينَ ٱخْشَعِي. يَا أَقْدَامَ الْمُجْتَهِدِينَ ٱسْجُدِي لِرَبِّكِ وَٱرْكَعِي. يَا عُيُونَ الْمُتَهَجِّدِينَ لَا تَهْجَعِي. يَا ذُنُوبَ التَّائِبِينَ لَا تَرْجِعِي. يَا أَرْضَ الْهَوَى ٱبْلَعِي مَاءَكِ، وَيَا سَمَاءَ النُّفُوسِ أَقْلِعِي. يَا بُرُوقَ الْعُشَّاقِ الْمَعِي. يَا خَوَاطِرَ الْعَارِفِينَ ٱرْتَعِي، يَا هِمَمَ الْمُحِبِّينَ بِغَيْرِ اللَّهِ لَا تَقْنَعِي. وَقَدْ مُدَّتْ فِي هٰذِهِ الْأَيَّامِ مَوَائِدُ الْإِنْعَامِ لِلصُّوَّامِ، فَمَا مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ دُعِيَ ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾. وَيَا هِمَمَ الْمُؤْمِنِينَ أَسْرِعِي، فَطُوبَى لِمَنْ أَجَابَ فَأَصَابَ، وَوَيْلٌ لِمَنْ طُرِدَ عَنِ الْبَابِ وَمَا دُعِيَ. لَقَدْ فُتِحَ الْبَابُ لِلْوَافِدِينَ، وَأُظْهِرَ النِّدَاءُ لِلْقَاصِدِينَ.

شِعْر:

أَسِيرُ الْخَطَايَا عِنْدَ بَابِكَ وَاقِفٌ ... عَلَى وَجَلٍ مِمَّا بِهِ أَنْتَ عَارِفُ

يَخَافُ ذُنُوبًا لَمْ يَغِبْ عَنْكَ غَيْبُهَا وَيَرْجُوكَ فِيهَا فَهُوَ رَاجٍ وَخَائِفُ
فَمَنْ ذَا الَّذِي يُرْجَى سِوَاكَ وَيُتَّقَى وَمَا لَكَ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ مُخَالِفٌ
فَيَا سَيِّدِي، لَا تُخْزِنِي فِي صَحِيفَتِي إِذَا نُشِرَتْ بَيْنَ الْحِسَابِ الصَّحَائِفُ
وَكُنْ مُؤْنِسِي فِي ظُلْمَةِ الْقَبْرِ عِنْدَمَا يَصُدُّ ذَوُو الْقُرْبَى وَيَجْفُو الْمُوَالِفُ
لَئِنْ ضَاقَ عَنِّي عَفْوُكَ الْوَاسِعُ الَّذِي أُرَجِّي لِإِسْرَافِي فَإِنِّي لَتَالِفُ

فَصْلٌ

قَالَ في طَهَارَةِ الْقُلُوبِ بَعْدَ سِيَاقِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾: دَعَا الْأَنَامَ مِنْ دَارِ الْآلَامِ، إِلَى دَارِ السَّلَامِ، فَمَنْ لَبَّى فَلَهُ تُنْشَرُ الْأَعْلَامُ، وَمَنْ أَبَى فَبِشَقَاوَتِهِ جَرَتِ الْأَقْلَامُ. دَعَاهُمْ مِنْ دَارِ الْعِبَادَةِ، إِلَى دَارِ الزِّيَادَةِ، دَعَاهُمْ مِنْ دَارِ الشَّقَاءِ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ. دَعَاهُمْ مِنْ دَارٍ أَوَّلُها بُكَاءٌ، وَأَوْسَطُهَا عَنَاءٌ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ، إِلَى دَارٍ أَوَّلُهَا عَطَاءٌ، وَأَوْسَطُهَا لِقَاءٌ، وَآخِرُهَا بَقَاءٌ. دَعَاهُمْ مِنْ دُنْيَا دَنِيَّةٍ، إِلَى عِيشَةٍ رَضِيَّةٍ. دَعَاهُمْ مِنْ دَارِ التَّكْلِيفِ، إِلَى دَارِ التَّشْرِيفِ. دَعَاهُمْ مِنْ دَارٍ أَصْلُهَا مَدَرٌ، وَعَيْشُهَا كَدَرٌ، وَنَفْعُهَا ضَرَرٌ، وَوَعْدُهَا غَرَرٌ، إِلَى دَارٍ أَصْلُهَا دُرَرٌ، وَعَيْشُهَا لِقَاءٌ وَنَظَرٌ، وَطِرَازُهَا جَنَّاتٌ وَنَهَرٌ، وَدَارُ السَّلَامِ: الْجَنَّةُ، وَالسَّلَامُ: مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَمَعْنَاهُ: دَارُ اللَّهِ. دَعَاهُمْ إِلَى دَارِهِ، فَنِعْمَ الدَّارُ دَارُهُمْ، وَنِعْمَ الْمَزَارُ مَزَارُهُمْ، وَنِعْمَ الْجَارُ جَارُهُمْ. نِعْمَ السُّكْنَى الفِرْدَوْسُ الْأَعْلَى، وَنِعْمَ الْجَارُ السَّيِّدُ الْمَوْلَى، وَنِعْمَ الرَّفِيقُ مُحَمَّدٌ الْمُصْطَفَى.

وَيُقَالُ: سُمِّيَتِ الْجَنَّةُ دَارَ السَّلَامِ، أي دَارَ السَّلَامَةِ مِنَ الْآفَاتِ، وَالْعَاهَاتِ والنَّكَبَاتِ، يَسْلَمُونَ فِيهَا مِنَ الضَّرَرِ وَالْفَقْرِ، وَالْبَيْنِ وَالْهَجْرِ، وَيَسْلَمُونَ مِنَ الْأَوْجَاعِ وَالْأَمْرَاضِ، وَالصُّدُودِ وَالْإِعْرَاضِ. يَسْلَمُونَ فِيهَا مِنْ طَلَبِ الْقُوتِ، وَضِيقِ الْبُيُوتِ، وَسَكْرَةِ الْمَوْتِ، وَحَسْرَةِ الْفَوْتِ.

فَيَا دَنِيءَ الْهِمَّةِ، قَنِعْتَ بِرَوْضَةٍ عَلَى مَزْبَلَةٍ وَالْمَلِكُ يَدْعُوكَ إِلَى فِرْدَوْسِهِ

الْأَعْلَى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أَرَضِيتُمْ بِخَرَبَاتِ الْبِلَى مِنَ الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى؟

يَا هٰذَا: الْمُحِبُّ يُطْرَدُ فَلَا يَزُولُ، وَأَنْتَ تُدْعَى فَلَا تُجِيبُ. كَمْ لَيْلَةٍ يُنَادِي وَأَنْتَ غَائِبٌ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ، هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟

وَقَالَ أَيْضًا فِي طَهَارَةِ الْقُلُوبِ: رُوِيَ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ «أَنَّهُ لَمَّا قَرَأَ مُوسَى عليه السلام الْأَلْوَاحَ وَجَدَ فِيهَا فَضِيلَةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، قَالَ: يَا رَبِّ، مَنْ هٰذِهِ الْأُمَّةُ الْمَرْحُومَةُ الَّتِي أَجِدُهَا فِي الْأَلْوَاحِ؟ قَالَ: هِيَ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ، يَرْضَوْنَ مِنِّي بِالْيَسِيرِ أُعْطِيهِمْ إِيَّاهُ، وَأَرْضَى مِنْهُمْ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْعَمَلِ، أُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: فَإِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وُجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَٱجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: هِيَ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ أَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ، قَالَ: يَا رَبِّ فَإِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً أَذْوِدَتُهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ، وَسُيُوفُهُمْ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ أَصْحَابُ رُءُوسِ الصَّوَامِعِ، يَطْلُبُونَ الْجِهَادَ بِكُلِّ أُفُقٍ حَتَّى يُقَاتِلُوا الدَّجَّالَ، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: هِيَ أُمَّةُ أَحْمَدَ. قَالَ: يَا رَبِّ، إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً يُصَلُّونَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي خَمْسِ سَاعَاتٍ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَتَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ، فَٱجْعَلْهُمْ أُمَّتِي، قَالَ: هِيَ أُمَّةُ أَحْمَدَ. قَالَ: يَا رَبِّ، إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً يَصُومُونَ لَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَيُغْفَرُ لَهُمْ مَا كَانَ مِنْ قَبْلِ ذٰلِكَ، فَٱجْعَلْهُمْ أُمَّتِي، قَالَ: هُمْ أُمَّةُ أَحْمَدَ. قَالَ: يَا رَبِّ، إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً أَنَاجِيلُهُمْ فِي الصُّدُورِ يَقْرَأُونَهَا فَٱجْعَلْهُمْ أُمَّتِي، قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ ـ وَسَاقَ بَقِيَّةَ الْأَثَرِ».

وَفِي شَهْرِ رَمَضَانَ يَلْطُفُ اللَّهُ بِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيُغَلُّ فِيهِ الشَّيَاطِينَ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ، حَتَّى لَا يَقْدِرُوا عَلَى مَا كَانُوا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ فِي غَيْرِهِ مِنْ تَسْوِيلِ الذُّنُوبِ، وَلِهٰذَا تَقِلُّ الْمَعَاصِي فِي رَمَضَانَ، وَتُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجِنَانِ، وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ النِّيرَانِ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ عَلَى ذٰلِكَ.

أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَهٰذِهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ فِي هٰذَا الشَّهْرِ لِأَجْلِكُمْ قَدْ فُتِحَتْ. وَنَسَمَاتُهَا عَلَى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ نَفَحَتْ. وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ كُلُّهَا لِأَجْلِكُمْ مُغْلَقَةٌ، وَأَقْدَامُ إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتِهِ مِنْ أَجْلِكُمْ مُوثَقَةٌ. فَفِي هٰذَا الشَّهْرِ يُؤْخَذُ مِنْ إِبْلِيسَ بِالثَّأْرِ، وَتُسْتَخْلَصُ الْعُصَاةُ مِنْ أَسْرِهِ، فَمَا بَقِيَ لَهُمْ عِنْدَهُ آثَارٌ. كَانُوا فِرَاخَهُ قَدْ غَذَّاهُمْ بِالشَّهَوَاتِ فِي أَوْكَارِهِ، فَهَجَرُوا الْيَوْمَ تِلْكَ الْأَوْكَارَ. نَقَضُوا مَعَاقِلَ حُصُونِهِ بِمَعَاوِلِ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ. خَرَجُوا مِنْ سِجْنِهِ إِلَى حِصْنِ التَّقْوَى وَالْإِيمَانِ، فَأَمِنُوا مِنْ عَذَابِ النَّارِ. قَصَمُوا ظَهْرَهُ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، فَهُوَ يَشْكُو أَلَمَ الِانْكِسَارِ. وَفِي كُلِّ مَوْسِمٍ مِنْ مَوَاسِمِ الْفَضْلِ يَحْزَنُ، وَفِي هٰذَا الشَّهْرِ يَدْعُو بِالْوَيْلِ لِمَا يَرَى مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ وَمَغْفِرَةِ الْأَوْزَارِ، غَلَبَ حِزْبُ الرَّحْمٰنِ حِزْبَ الشَّيْطَانِ، فَمَا بَقِيَ لَهُ سُلْطَانٌ إِلَّا عَلَى الْكُفَّارِ. عُزِلَ سُلْطَانُ الْهَوَى وَصَارَتِ الدَّوْلَةُ لِسُلْطَانِ التَّقْوَى ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ قَدِ انْتَصَفَ، فَمَنْ مِنْكُمْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِيهِ لِلَّهِ وَانْتَصَفَ؟ مَنْ مِنْكُمْ قَامَ فِي هٰذَا الشَّهْرِ بِحَقِّهِ الَّذِي عَرَفَ؟ مَنْ مِنْكُمْ عَزَمَ قَبْلَ غَلْقِ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ أَنْ يَبْنِيَ لَهُ فِيهَا غُرَفًا مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ؟ أَلَا إِنَّ شَهْرَكُمْ قَدْ أَخَذَ فِي النَّقْصِ، فَزِيدُوا أَنْتُمْ فِي الْعَمَلِ، فَكَأَنَّكُمْ بِهِ وَقَدِ انْصَرَفَ، فَكُلُّ شَهْرٍ عَسَى أَنْ يَكُونَ مِنْهُ خَلَفٌ. وَأَمَّا شَهْرُ رَمَضَانَ، فَمِنْ أَيْنَ لَكُمْ مِنْهُ خَلَفٌ.

شِعْر:

تَنَصَّفَ الشَّهْرُ وَالْهَفَاهُ وَانْهَدَمَا	وَاخْتَصَّ بِالْفَوْزِ بِالْجَنَّاتِ مَنْ خَدَمَا
وَأَصْبَحَ الْغَافِلُ الْمِسْكِينُ مُنْكَسِرًا	مِثْلِي، فَيَا وَيْحَهُ يَا عُظْمَ مَا حُرِمَا
مَنْ فَاتَهُ الزَّرْعُ فِي وَقْتِ الْبِذَارِ فَمَا	تَرَاهُ يَحْصُدُ إِلَّا الْهَمَّ وَالنَّدَمَا
طُوبَى لِمَنْ كَانَتِ التَّقْوَى بِضَاعَتَهُ	فِي شَهْرِهِ وَبِحَبْلِ اللَّهِ مُعْتَصِمَا

اللَّهُمَّ يَا ذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ، يَا غَفُورُ يَا وَدُودُ، تَعَطَّفْ عَلَيْنَا، فَقَدْ وَثِقْنَا مِنْكَ بِصِدْقِ الْوُعُودِ. نَسْأَلُكَ أَلَّا تَجْعَلَنَا بِدُعَائِكَ أَشْقِيَاءَ وَلَا مَحْرُومِينَ، وَلَا

مِنْ عَطَايَاكَ مُفْلِسِينَ. وَلَا عَنْ جَنَابِكَ مَطْرُودِينَ. فَهَا نَحْنُ بِكَرَمِكَ تَعَلَّقْنَا، وَإِلَى بَابِكَ فَزِعْنَا، وَلِمَعْرُوفِكَ تَعَرَّضْنَا، وَبِتَقْصِيرِنَا ٱعْتَرَفْنَا، فَأَنْتَ الْمَعْرُوفُ بِالْإِحْسَانِ، وَأَنْتَ الْمَدْعُوُّ بِكُلِّ لِسَانٍ.

اللَّهُمَّ ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبًا قَطَعَتْنَا عَنْ بَابِكَ، وَجُدْ عَلَيْنَا بِكَرَمِكَ وَهَبْ لَنَا مَا وَهَبْتَهُ لِأَحْبَابِكَ.

اللَّهُمَّ ٱغْفِرْ لَنَا الزَّلَّاتِ، وَأَنْقِذْنَا مِنَ الْهَلَكَاتِ، وَٱرْفَعْ لَنَا عِنْدَكَ الدَّرَجَاتِ، وَضَاعِفْ لَنَا الْحَسَنَاتِ، وَكَفِّرْ عَنَّا السَّيِّئَاتِ، يَا أَكْرَمَ مَسْئُولٍ، وَأَعْظَمَ مَأْمُولٍ، وَٱغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ؛ الْأَحْيَاءَ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ السَّادِسَ عَشَرَ
فِي فَضْلِ الاجْتِهَادِ لَا سِيَّمَا فِي هٰذَا الْمَوْسِمِ الْعَظِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَرِيمِ الْجَوَادِ، اللَّطِيفِ بِالْعِبَادِ، الَّذِي مَنِ ٱعْتَزَّ بِهِ سَادَ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِكِتَابِهِ أَيَّدَهُ وَحَمَاهُ مِنَ الْأَضْدَادِ. الْمَلِكِ الَّذِي تَفَرَّدَ بِالْخَلْقِ وَالْإِيجَادِ، وَتَوَحَّدَ فِي تَدَابِيرِ أُمُورِ الْعِبَادِ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ الْقَاهِرُ، الْحَيُّ الَّذِي عَلَى الْعَرْشِ ٱسْتَوَى، وَعَلَى الْمُلْكِ ٱحْتَوَى، الْعَلِيمُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَيَسْمَعُ السِّرَّ وَالنَّجْوَى، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَالْمُطَّلِعُ عَلَى الضَّمَائِرِ وَالسَّرَائِرِ. خَلَقَ فَقَدَّرَ، وَشَرَعَ فَيَسَّرَ، فَكُلُّ عَبْدٍ إِلَى مَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ صَائِرٌ، لَا يَعْزُبُ عَنْ سَمْعِهِ أَقَلُّ أَنِينٍ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ حَرَكَاتُ الْجَنِينِ، وَلَا يَحْجُبُ بَصَرَهُ سَاتِرٌ.

فَسُبْحَانَ مَنْ خَضَعَتِ الرِّقَابُ لِسَطْوَتِهِ، وَٱنْدَكَّ الْجَبَلُ لِهَيْبَتِهِ، وَأَوْجَدَ الْمَخْلُوقِينَ بِقُدْرَتِهِ، وَدَبَّرَهُمْ بِحِكْمَتِهِ، وَهُوَ لِأَقْوَالِهِمْ سَامِعٌ وَإِلَيْهِمْ نَاظِرٌ، قَسَّمَ خَلْقَهُ إِلَى مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، وَبَرٍّ وَفَاجِرٍ، وَفَتَحَ قُلُوبَ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَنَوَّرَ لَهُمْ

الْبَصَائِرَ، يَا خَيْبَةَ مَنْ أَبْعَدَهُ مَوْلَاهُ وَقَطَعَهُ، يَا ضَيْعَةَ مَنْ أَهَانَهُ وَوَضَعَهُ، يَا شَقَاوَةَ مَنْ خَذَلَهُ وَصَرَعَهُ، وَمَنْ خَذَلَهُ مَوْلَاهُ فَلَيْسَ لَهُ نَاصِرٌ، قَلْبٌ تَعَزَّزَ بِغَيْرِهِ مَا أَذَلَّهُ! عَبْدٌ أَعْرَضَ عَنْ خِدْمَتِهِ مَا أَضَلَّهُ! عُمْرٌ أُنْفِقَ فِي غَيْرِ طَاعَتِهِ مَا أَقَلَّهُ! وَمَنْ رَضِيَ بِدُونِهِ فَهُوَ الْخَائِنُ الْغَادِرُ. الطَّرِيدُ مَنْ حَجَبَهُ، وَالسَّعِيدُ مَنْ رَحِمَهُ، وَالشَّقِيُّ مَنْ حَرَمَهُ، وَالنَّادِمُ مَنْ أَهَانَهُ، وَالسَّالِمُ مَنْ أَعَانَهُ، وَقَدْ عَلِمَ الْوَلِيَّ وَالْعَدُوَّ، وَالرَّابِحَ وَالْخَاسِرَ.

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَوْلَاهُ مِنْ بِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ الْمُتَظَاهِرِ، وَأَشْكُرُهُ وَقَدْ وَعَدَ بِالْمَزِيدِ لِلشَّاكِرِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً أَدَّخِرُهَا لِيَوْمٍ لَا تَنْفَعُ فِيهِ الْأَمْوَالُ وَالْعَشَائِرُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُؤَيَّدُ بِالْمُعْجِزَاتِ وَالْبَصَائِرِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَهْلِ الْفَضَائِلِ وَالْمَفَاخِرِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعالىٰ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لَمَّا عَلِمَ الْعَامِلُونَ مَا ادَّخَرَ لَهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ أَتْعَبُوا جَوَارِحَهُمْ فِي السَّعْيِ يَرْجُونَ الْمُتَاجَرَةَ مَعَ مَوْلَاهُمْ.

فَكَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ إِذَا بَلَغَ أَحَدُهُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً طَوَى فِرَاشَهُ، وَحَجَّ مَسْرُوقٌ فَمَا نَامَ قَطُّ إِلَّا سَاجِدًا.

وَشَكَا بَعْضُ الْمُرِيدِينَ إِلَى شَيْخِهِ كَثْرَةَ النَّوْمِ فَقَالَ: إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَىٰ نَفَحَاتٍ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ تُصِيبُ الْقُلُوبَ الْمُتَيَقِّظَةَ، وَتُخْطِئُ الْقُلُوبَ النَّائِمَةَ، فَتَعَرَّضُوا لِتِلْكَ النَّفَحَاتِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أُسْتَاذُ تَرَكْتَنِي لَا أَنَامُ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا.

كَانَ صَفْوَانُ بْنُ سُلَيم قَدْ بَلَغَ بِهِ الاجْتِهَادُ مَا لَوْ قِيلَ إِنَّ الْقِيَامَةَ غَدًا لَمْ يُرِدْ مَزِيدًا، وَكَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّ لِقَاءَكَ فَأَحِبَّ لِقَائِي، وَمَاتَ وَهُوَ سَاجِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ.

وَأَصَابَ عَبْدَ الرَّحْمٰنِ بْنَ الْأَسْوَدِ وَجَعٌ فِي إِحْدَى رِجْلَيْهِ، فَكَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ عَلَى قَدَمٍ وَاحِدَةٍ وَيُصَلِّي بِوُضُوءِ الْعِشَاءِ صَلَاةَ الصُّبْحِ.

وَقَالَ أَبُو حَازِمٍ: أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا مَا كَانَ رَمَضَانُ يَزِيدُ فِي ٱجْتِهَادِهِمْ شَيْئًا، وَلَا يَنْقُصُ خُرُوجَهُ مِن ٱجْتِهَادِهِمْ شَيْئًا.

وَقَالَ ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ: أَدْرَكْتُ رِجَالًا كَانَ أَحَدُهُمْ يُصَلِّي حَتَّى يَأْتِيَ فِرَاشَهُ حَبْوًا.

وَكَانَ أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ يُعَلِّقُ فِي الْبَيْتِ سَوْطًا بِاللَّيْلِ وَيَقِفُ لِلصَّلَاةِ كُلَّمَا فَتَرَ ضَرَبَ نَفْسَهُ، وَيَقُولُ: أَنْتِ أَحَقُّ بِالضَّرْبِ مِنْ دَابَّتِي.

وَصَامَ بَعْضُ التَّابِعِينَ حَتَّى ٱسْوَدَّ مِنْ طُولِ صِيَامِهِ، وَصَامَ الْأَسْوَدُ بْنُ يَزِيدَ حَتَّى ٱخْضَرَّ جِسْمُهُ وَٱصْفَرَّ، فَكَانَ إِذَا عُوتِبَ فِي رِفْقِهِ بِجَسَدِهِ يَقُولُ: كَرَامَةَ هٰذَا الْجَسَدِ أُرِيدُ. وَصَامَ بَعْضُهُمْ حَتَّى وَجَدَ طَعْمَ دِمَاغِهِ فِي حَلْقِهِ.

وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَسْرُدُ الصَّوْمَ فَمَرِضَ وَهُوَ صَائِمٌ، فَقَالُوا لَهُ: أَفْطِرْ، فَقَالَ: لَيْسَ هٰذَا وَقْتَ تَرْكٍ.

وَقِيلَ لِآخَرَ مِنْهُمْ وَهُوَ مَرِيضٌ: أَفْطِرْ، فَقَالَ: كَيْفَ أُفْطِرُ وَأَنَا أَسِيرُ لَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي؟

وَمَاتَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللّٰهِ وَهُوَ صَائِمٌ مَا أَفْطَرَ.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الصَّائِمِينَ تُوضَعُ لَهُمْ مَائِدَةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيَأْكُلُونَ مِنْهَا وَالنَّاسُ فِي الْحِسَابِ.

وَعَنْ أَنَسٍ مَوْقُوفًا: «إِنَّ لِلّٰهِ مَائِدَةً لَمْ تَرَ مِثْلَهَا عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، لَا يَقْعُدُ عَلَيْهَا إِلَّا الصَّائِمُونَ».

وَعَنْ بَعْضِ السَّلَفِ قَالَ: أُبْلِغْنَا أَنَّهُ يُوضَعُ لِلصُّوَّامِ مَائِدَةٌ يَأْكُلُونَ عَلَيْهَا وَالنَّاسُ فِي الْحِسَابِ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ نَحْنُ نُحَاسَبُ وَهُمْ يَأْكُلُونَ، فَيُقَالُ:

إِنَّهُمْ طَالَما صَامُوا وَأَفْطَرْتُمْ وَقَامُوا وَنِمْتُمْ. قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

ٱعْلَمْ أَنَّ الصَّائِمِينَ عَلَى طَبَقَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا مَنْ تَرَكَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ يَرْجُو عِنْدَهُ عِوَضَ ذٰلِكَ فِي الْجَنَّةِ، فَهٰذَا قَدْ تَاجَرَ مَعَ اللَّهِ وَعَامَلَهُ، وَاللَّهُ تَعَالَىٰ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، وَلَا يَخِيبُ مَعَهُ مَنْ عَامَلَهُ، بَلْ يَرْبَحُ عَلَيْهِ أَعْظَمَ الرِّبْحِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِرَجُلٍ: «إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا اتِّقَاءَ اللَّهِ إِلَّا آتَاكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ.

فَهٰذَا الصَّائِمُ يُعْطَى فِي الْجَنَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَنِسَاءٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: نَزَلَتْ فِي الصَّائِمِينَ.

ٱجْتَازَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ بِمُنَادٍ يُنَادِي عَلَى السُّحُورِ فِي رَمَضَانَ: يَا مَا خَبَّأْنَا لِلصُّوَّامِ، فَتَنَبَّهَ بِهٰذِهِ الْكَلِمَةِ وَأَكْثَرَ مِنَ الصِّيَامِ.

رَأَى بَعْضُ الْعَارِفِينَ فِي مَنَامِهِ كَأَنَّهُ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَسَمِعَ قَائِلًا يَقُولُ لَهُ: هَلْ تَذْكُرُ أَنَّكَ صُمْتَ لِلَّهِ يَوْمًا قَطُّ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَخَذَتْنِي صَوَانِي النَّثَارُ مِنَ الْجَنَّةِ.

مَنْ تَرَكَ لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا طَعَامًا وشَرَابًا وَشَهْوَةً مُدَّةً يَسِيرَةً عَوَّضَ اللَّهُ عَلَيْهِ عِنْدَهُ طَعَامًا وَشَرَابًا لَا يَنْفَدُ، وَأَزْوَاجًا لَا تَمُوتُ أَبَدًا.

فِي التَّوْرَاةِ: طُوبَى لِمَنْ جَوَّعَ نَفْسَهُ لِيَوْمِ الشِّبَعِ الْأَكْبَرِ، طُوبَى لِمَنْ أَظْمَأَ نَفْسَهُ لِيَوْمِ الرِّيِّ الْأَكْبَرِ. طُوبَى لِمَنْ تَرَكَ شَهْوَةً حَاضِرَةً لِمَوْعِدِ غَيْبٍ لَمْ يَرَهُ، طُوبَى لِمَنْ تَرَكَ طَعَامًا فِي دَارٍ تَنْفَدُ لِدَارٍ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا.

الطَّبَقَةُ الثَّانِيَةُ مِنَ الصَّائِمِينَ: مَنْ يَصُومُ فِي الدُّنْيَا عَمَّا سِوَى اللَّهِ فَيَحْفَظُ ٱلرَّأْسَ وَمَا حَوَى، وَيَحْفَظُ الْبَطْنَ وَمَا وَعَى، وَيَذْكُرُ الْمَوْتَ وَٱلْبِلَى، وَيُرِيدُ الْآخِرَةَ فَيَتْرُكُ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَهٰذَا عِيدُ فِطْرِهِ يَوْمَ لِقَاءَ رَبِّهِ، وَفَرَحِهِ بِرُؤْيَتِهِ.

شِعْر:

أَهْلُ الْخُصُوصِ مِنَ الصُّوَّامِ صَوْمُهُمْ صَوْمُ اللِّسَانِ عَنِ الْبُهْتَانِ وَالْكَذِبِ
وَالْعَارِفُونَ وَأَهْلُ الْأُنْسِ صَوْمُهُمْ صَوْنُ الْقُلُوبِ عَنِ الْأَغْيَارِ وَالْحُجُبِ

الْعَارِفُونَ لَا يُسَلِّيهِمْ عَنْ رُؤْيَةِ مَوْلَاهُمْ قَصْرٌ، وَلَا يُرَوِّيهِمْ دُونَ مُشَاهَدَتِهِ نَهْرٌ، هِمَمُهُمْ أَجَلُّ مِنْ ذٰلِكَ.

شِعْر:

كَبُرَتْ هِمَّةُ عَبْدٍ طَمِعَتْ فِي أَنْ تَرَاكَا
مَنْ يَصُمْ عَنْ مُفْطِرَاتٍ فَصِيَامِي عَنْ سِوَاكَا

مَنْ صَامَ عَنْ شَهَوَاتِهِ فِي الدُّنْيَا أَدْرَكَهَا غَدًا فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْ صَامَ عَمَّا سِوَى اللَّهِ فَعِيدُهُ يَوْمَ لِقَائِه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٰتٍ﴾.

شِعْر:

وَقَدْ صُمْتُ عَنْ لَذَّاتِ دَهْرِي كُلِّهَا وَيَوْمَ لِقَاكُمْ ذَاكَ فِطْرُ صِيَامِي

وَرُؤِيَ بِشْرٌ فِي الْمَنَامِ فَسُئِلَ عَنْ حَالِهِ، فَقَالَ: عَلِمَ قِلَّةَ رَغْبَتِي فِي الطَّعَامِ فَأَبَاحَنِي النَّظَرَ إِلَيْهِ.

قَالَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ: لَقِيتُ غُلَامًا فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا فَتَى أَمَا تَسْتَوْحِشُ وَحْدَكَ؟ قَالَ: الْأُنْسُ بِاللَّهِ قَطَعَ عَنِّي كُلَّ وَحْشَةٍ، قُلْتُ: أَيْنَ أَلْقَاكَ؟ قَالَ: فِي الْآخِرَةِ، قُلْتُ: أَيْنَ أَطْلُبُكَ؟ قَالَ: فِي زُمْرَةِ النَّاظِرِينَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ، قُلْتُ: كَيْفَ عَلِمْتَ ذٰلِكَ؟ قَالَ: إِنِّي غَضَضْتُ طَرْفِي عَنْ كُلِّ مُحَرَّمٍ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَجْعَلَ جَنَّتِي النَّظَرَ إِلَيْهِ، وَصَاحَ صَيْحَةً فَغَابَ عَنْ عَيْنِي.

شِعْر:

يَا حَبِيبَ الْقُلُوبِ مَا لِي سِوَاكَا أَرْحَمِ الْيَوْمَ مُذْنِبًا قَدْ أَتَاكَا
لَيْسَ لِي فِي الْجِنَانِ مَوْلَايَ رَأْيٌ غَيْرَ أَنِّي أُرِيدُهَا لِأَرَاكَا

يَا مَعْشَرَ التَّائِبِينَ: صُومُوا الْيَوْمَ عَنْ شَهَواتِ الْهَوَى، لِتُدْرِكُوا عِيدَ الْفِطْرِ يَوْمَ اللِّقَاءِ، لَا يُطَوِّلَنَّ عَلَيْكُمُ الْأَمَلُ، بِاسْتِبْطَاءِ الْأَجَلِ، فَإِنَّ مُعْظَمَ نَهَارِ الصِّيَامِ قَدْ ذَهَبَ، وَعِيدُ اللِّقَاءِ قَدِ ٱقْتَرَبَ.

شِعْر:

إِنَّ يَوْمًا جَامِعًا شَمْلِي بِهِمْ ذَاكَ عِيدِي، لَيْسَ لِي عِيدٌ سِوَاهُ

كانَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ كَثِيرَ التَّهَجُّدِ وَالصِّيَامِ، فَصَلَّى لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ وَدَعَا، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فَرَأَى فِي مَنَامِهِ جَمَاعَةً عَلِمَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْآدَمِيِّينَ، بِأَيْدِيهِمْ أَطْبَاقٌ، عَلَيْهَا أَرْغِفَةٌ بِبَيَاضِ الثَّلْجِ، فَوْقَ كُلِّ رَغِيفٍ دُرٌّ كَأَمْثَالِ الرُّمَّانِ، فَقَالُوا لَهُ: كُلْ، فَقَالَ: إِنِّي أُرِيدُ الصَّوْمَ، قَالُوا لَهُ: يَأْمُرُكَ صَاحِبُ هٰذَا الْبَيْتِ أَنْ تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلْتُ وَجَعَلْتُ آخُذُ ذٰلِكَ الدُّرَّ لِأَحْتَمِلَهُ، فَقالُوا لَه: دَعْهُ نَغْرِسُهُ لَكَ شَجَرًا يُنْبِتُ لَكَ خَيْرًا مِنْ هٰذَا، قَالَ: أَيْنَ؟ قالُوا: فِي دَارٍ لَا تَخْرَبُ، وَثَمَرٍ لَا يَتَغَيَّرُ، وَمُلْكٍ لَا يَنْقَطِعُ، وَثِيَابٍ لَا تَبْلَى، فِيهَا رِضَى وَقُرَّةُ عَيْنٍ، أَزْوَاجٌ رَضِيَّاتٌ مُرْضِيَّاتٌ رَاضِيَاتٌ، لَا يَغَرْنَ وَلَا يُغِرْنَ؛ فَعَلَيْكَ بِالٱنْكِمَاشِ فِيمَا أَنْتَ فِيهِ، فَإِنَّمَا هِيَ غَفْوَةٌ حَتَّى تَرْتَحِلَ، فَتَنْزِلَ الدَّارَ. فَمَا مَكَثَ بَعْدَ هٰذِهِ الرُّؤْيَا إِلَّا جُمْعَتَيْنِ حَتَّى تُوُفِّيَ، فَرَآهُ لَيْلَةَ وَفَاتِهِ فِي الْمَنَامِ بَعْضُ أَصْحَابِهِ ٱلَّذِينَ حَدَّثَهُمْ بِرُؤْيَاهُ وَهُوَ يَقُولُ: أَلَا تَعْجَبُ مِنْ شَجَرٍ غُرِسَ لِي فِي يَوْم حَدَّثْتُكَ وَقَدْ حَمَلَ؟ قَالَ: لَا تَسْأَلْ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى صَنْعَتِهِ، لَمْ يُرَ مِثْلُ الْكَرِيمِ إِذَا حَلَّ بِهِ مُطِيعٌ.

يَا قَوْمِ: أَلَا خَاطِبٌ فِي هٰذَا الشَّهْرِ إِلَى الرَّحْمٰنِ، أَلَا هَلْ مِنْ مُشْتَاقٍ إِلَى الْحُورِ الْحِسَانِ، أَلَا رَاغِبٌ فِيمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلطَّائِعِينَ فِي الْجِنَانِ، أَلَا طَالِبٌ لِمَا أَخْبَرَ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْعَيَانِ.

شِعر:

مَنْ يُرِدْ مُلْكَ الْجِنَانِ فَلْيَدَعْ عَنْهُ التَّوَانِي

وَلْـيَـقُـمْ فِـي ظُـلْـمَـةِ الـلَّـيْـــلِ إِلَـــى نُـــورِ الْـــقُــرْآنِ
وَلْـيَـصِــلْ صَـوْمًــا بِــصَـوْمٍ إِنَّ هٰـــذَا الْـــعَـــيْـــشَ فَـــانِ
إِنَّــمَــا الْـعَـيْـشُ جِـوَارُ الـلَّــــهِ فِـــــي دَارِ الْأَمَــــــانِ

فَصْلٌ

فِي صِفَةِ أَزْوَاجِ أَهْلِ الْجَنَّةِ

قَالَ اللَّهُ تَعالىٰ: ﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾، وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾، قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ مَعْناهُ: أَنَّهُنَّ قَصَرْنَ طَرْفَهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ فَلَا يَطْمَحْنَ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَقِيلَ: قَصَرْنَ طَرْفَ أَزْوَاجِهِنَّ فَلَا يَدعُهُمْ حُسْنُهُنَّ وَجمالُهُنَّ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى غَيْرِهِنَّ.

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِي عَنْ أَنَسٍ قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «حَدَّثَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: يَدْخُلُ الرَّجُلُ عَلَى الْحَوْرَاءِ فَتَسْتَقْبِلُهُ بِالْمُعَانَقَةِ وَالْمُصافَحَةِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَبِأَيِّ بَنَانٍ تُعاطِيهِ؟ لَوْ أَنَّ بَعْضَ بَنَانِهَا بَدَا لَغَلَبَ ضَوْءَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَلَوْ أَنَّ طَاقَةً مِنْ شَعْرِهَا بَدَتْ لَمَلَأَتْ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مِنْ طِيبِ رِيحِهَا، فَبَيْنَمَا هُوَ مُتَّكِئٌ مَعَهَا عَلَى أَرِيكَةٍ إِذْ أَشْرَقَ عَلَيْهِ نُورٌ مِنْ فَوْقِهِ، فَيَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَشْرَفَ عَلَى خَلْقِهِ فَإِذَا حَوْرَاءُ تُنادِيهِ: يَا وَلِيَّ اللَّهِ، مَا لَنَا فِيكَ مِنْ دَوْلَةٍ؟ فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتِ يَا هٰذِهِ؟ فَتَقُولُ: أَنَا مِنَ اللَّوَاتِي قَالَ اللَّهُ تَعالىٰ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، فَيَتَنَحَّى عِنْدَهَا فَإِذَا عِنْدَهَا مِنَ الْكَمَالِ وَالْجَمَالِ ما لَيْسَ مَعَ الْأُولَى، فَبَيْنَمَا هُوَ مُتَّكِئٌ مَعَهَا عَلَى أَرِيكَتِهِ إِذْ أَشْرَفَ عَلَيْهِ نُورٌ مِنْ فَوْقِهِ، وَإِذَا هِيَ حَوْرَاءُ أُخْرَى تُنَادِيهِ: يَا وَلِيَّ اللَّهِ، مَا لَنَا فِيكَ مِنْ دَوْلَةٍ؟ فَيَقُولُ: وَمَنْ أَنْتِ يَا هٰذِهِ؟ فَتَقُولُ: أَنَا مِنَ اللَّوَاتِي قَالَ اللَّهُ تَعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، فَلَا يَزَالُ يَتَحَوَّلُ مِنْ زَوْجَةٍ إِلَى زَوْجَةٍ».

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْلَى بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَّكِئُ فِي الْجَنَّةِ سَبْعِينَ سَنَةٍ قَبْلَ أَنْ يَتَحَوَّلَ، ثُمَّ تَأْتِيهِ امْرَأَتُهُ فَتَنْظُرُ فِي وَجْهِهِ خَدُّهَا أَصْفَى مِنَ الْمِرْآةِ، وَإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ عَلَيْهَا لَتُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، فَتُسَلِّمُ عَلَيْهِ فَيَرُدُّ عَلَيْهَا السَّلَامَ، وَيَسْأَلُها: مَنْ أَنْتِ؟ تَقُولُ: مِنَ الْمَزِيدِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ ثَوْبًا فَيَنْفُذُهَا بَصَرُهُ حَتَّى يَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ، وَإِنَّ عَلَيْهَا التِّيجَانَ، إِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ مِنْهَا لَتُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ».

قِيلَ: وَعَظَ ذُو النُّونِ الْمِصْرِيُّ ﵀ يَوْمًا، فَأَتَتْ إِلَيْهِ ٱمْرَأَةٌ يُقَالُ لَهَا: رَيْحَانَةٌ، فَقَالَتْ: يَا مِصْرِيُّ صِفْ لِي الْجَنَّةَ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيهَا لِأَوْلِيَائِهِ، فَقَالَ: يَا هٰذِهِ، إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مَا لَا يُحِيطُ بِهِ عِلْمُ عَارِفٍ، وَلَا يَأْتِي عَلَيْهِ وَصْفُ وَاصِفٍ وَلٰكِنْ سَأَذْكُرُ لَكِ بَعْضَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِوَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مَرْجًا أَفْيَحَ مِنَ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ، فِي وَسَطِ الْمَرْجِ قَصْرٌ مِنَ الذَّهَبِ الْأَصْفَرِ، فِي وَسَطِ الْقَصْرِ قُبَّةٌ مِنَ الْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ فِي وَسَطِ الْقُبَّةِ سَرِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ وَالْجَوْهَرِ، يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ السَّرِيرِ أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَنَهْرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَنَهْرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، وَنَهْرٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وَعَلَى السَّرِيرِ فُرُشٌ مِنَ السُّنْدُسِ وَالْإِسْتَبْرَقِ، وَعَلَى الْفُرُشِ جَارِيَةٌ لَوْ أَطْلَعَتْ مِعْصَمَهَا فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ لَأَضَاءَتْ الدُّنْيَا عَلَى مَنْ فِيهَا وَإِلَى جَانِبِهَا وَلِيُّ اللَّهِ عَلَى صُورَةِ غُلَامٍ أَمْرَدَ أَغْيَدَ عَلَى طُولِ آدَمَ، وَحُسْنِ يُوسُفَ، وَسِنِّ عِيسَى، وَخَلْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ؛ فَيَا حُسْنَهُ فِي خَلْوَتِهِ مَعَ كَعُوبٍ لَعُوبٍ، وَقَدْ هَبَّتِ الْأَرْيَاحُ، وَعَاشَتِ الْأَرْوَاحُ، وَتَضَاعَفَ الْحُبُورُ، وَدَامَ السُّرُورَ، وَاطْمَأَنَّ فِي جِوَارِ الْغَفُورِ الشَّكُورِ، فَلَمَّا سَمِعَتْ رَيْحَانَةُ مَا وَصَفَهُ ذُو النُّونِ، قَالَتْ: يَا مِصْرِيُّ! أَبَيْتَ إِلَّا قَتْلِي؟ ثُمَّ شَهِقَتْ شَهْقَةً خَرَجَتْ مَعَهَا رُوحُهَا، رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهَا، قَالَ:

أَمَا آنَ يَا صَاحِ أَنْ تَسْتَفِيقَا ... وَأَنْ تَتَنَاسَى الْحِمَى وَالْعَقِيقَا

وَقَدْ ضَحِكَ الشَّيْبُ فَاْحْزَنْ لَهُ … وَصَارَ مَسَاؤُكَ فِيهِ شُرُوقَا

وَرَكْبٌ أَتَاهُمْ وَقَدْ عَرَّسُوا … عَلَى الْقَاعِ دَاعِي الْمَنَايَا طُرُوقَا

تُدِيرُ عَلَيْهِمْ كُؤُوسَ الْمَنُونِ … صَبُوحًا عَلَى كَرْبِهَا أَوْ غَبُوقَا

وَمَا زَالَ فِيهِمْ غُرَابُ الْحِمَامِ … يُسَمِّعُهُمْ لِلْمَنَايَا نَعِيقَا

وَيَحْمِلُ مِنْ عَرَصَاتِ الْقُصُورِ … حَتَّى أَعَادَ الْفَسِيحَاتِ ضِيقَا

أَلَا فَاْحْرِزِ النَّفْسَ عَنْ غَيِّهَا … عَسَاكَ تَجُوزُ الصِّرَاطَ الدَّقِيقَا

وَدُونَ الصِّرَاطِ لَنَا مَوْقِفٌ … بِهِ يَتَنَاسَى الصَّدِيقُ الصَّدُوقَا

فَتُبْصِرُ مَا شِئْتَ كَفًّا تَعَضُّ … وَعَيْنًا تَسِحُّ وَقَلْبًا خَفُوقَا

إِذَا أُطْبِقَتْ فَوْقَهُمْ لَمْ تَكُنْ … لِتَسْمَعَ إِلَّا الْبُكَا وَالشَّهِيقَا

شَرَابُهُمُ الْمُهْلُ فِي قَعْرِهَا … يُقَطِّعُ أَوْصَالَهُمْ وَالْعُرُوقَا

أَذْلِكَ خَيْرٌ أَمِ الْقَاصِرَاتُ … تَخَالُ مَيَاسِمَهُنَّ الْبُرُوقَا

قَصِرْنَ عَلَى حُبِّ أَزْوَاجِهِنَّ … فَمُشْتَاقَةٌ تَتَلَقَّى مَشُوقَا

وَيَرْفُلْنَ فِي سَرَقَاتِ الْحَرِيرِ … فَتُبْصِرُ عَيْنَاكَ مَرْأًى أَنِيقَا

وَأَكْوَابُهُمْ ذَهَبٌ أَحْمَرٌ … يُطَافُ بِهَا مُتْرَعَاتٍ رَحِيقَا

إِذَا جَرَتِ الرِّيحُ فَوْقَ الْكَثِيبِ … أَثَارَتْ عَلَى الْقَوْمِ مِسْكًا سَحِيقَا

وَيَوْمَ زِيَارَتِهِ يَرْكَبُونَ إِلَيْـ … ـهِ مِنَ النُّورِ نُجْبًا وَنُوقَا

كُلُوا وَاْشْرَبُوا فَلَقَدْ طَالَمَا … أَقَمْتُمْ بِدَارِ الْغُرُورِ الْحُقُوقَا

اللَّهُمَّ يَا دَائِمَ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ، يَا مَنْ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، يَا مَنْ لَا تَنْفَعُهُ الطَّاعَةُ وَلَا يَضُرُّهُ الْعِصْيَانُ. ٱجْعَلْنَا فِي هٰذَا الشَّهْرِ فَائِزِينَ مِنْكَ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرِّضْوَانِ مُنَعَّمِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ بِنَعِيمِ الْجِنَانِ، إِنَّكَ أَنْتَ الْكَرِيمُ الْمَنَّانُ.

اللَّهُمَّ ٱجْعَلْ شَهْرَ رَمَضَانَ شَاهِدًا لَنَا عِنْدَ قِيَامِ الْأَشْهَادِ، وَلَا تَجْعَلْهُ شَاهِدًا عَلَيْنَا فَتَرْمِينَا بِالطَّرْدِ وَالْإِبْعَادِ.

اللَّهُمْ أَسْكِنَّا الْجَنَّةَ دَارَ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَحْسِنْ مُنْقَلَبَنَا يَوْمَ الدِّينِ، وَلَا تَفْضَحْنَا بِسُوءِ أَفْعَالِنَا بَيْنَ الْعَالَمِينَ، فَهَا نَحْنُ عِبَادُكَ الْفُقَرَاءُ الْمَسَاكِينُ، نَرْجُو رَحْمَتَكَ وَنَخْشَى عَذَابَكَ، فَٱجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، وَأَوْلِيائِكَ الْمُتَّقِينَ. وَٱغْفِرْ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدِينا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءَ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ السَّابِعَ عَشَرَ

فِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ فَرَّقَ فِي صُبْحِ هٰذِهِ اللَّيْلَةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُنْفَرِدِ بِكُلِّ الْعِزِّ وَالْجَلَالِ، الْمُتَوَحِّدِ بِالْعَظَمَةِ الَّتِي لَا تُضَاهَى وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْكَمَالِ، تَنَزَّهَ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْأَوْلَادِ، وَتَفَرَّدَ فِي مُلْكِهِ بِالاخْتِرَاعِ وَالْإِيجَادِ، وَتَعَالَىٰ عَنِ الْأَنْدَادِ وَالْأَضْدَادِ، وَالشُّركاءِ وَالْأَشْبَاهِ وَالْأَشْكَالِ، الْمَلَكِ الَّذِي إِذَا أَرادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ، الْعَالِمُ بِخَلْقِهِ بِمَا يَسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، وَالْمُتَقَدِّسُ عَنْ دَرْكِ الظُّنُونِ، وَتَوَهُّمِ الْخَيَالِ، خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ مِنْ صَلْصَالٍ، وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نارٍ فَتَكَبَّرَ وَصَالَ، فَرَمَاهُ بِالطَّرْدِ وَالْإِبْعَادِ وَالْإِذْلَالِ، وَحَرَمَهُ الزُّلْفَى وَالْقُرْبَ وَالْوِصَالَ، وَمَنَّ بِفَضْلِهِ عَلَى الْمُطِيعِينَ بِلَذَّةِ الْوِصَالِ وَالْإِقْبَالِ، وَنَعَّمَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِمَعْرِفَتِهِ وَخِدْمَتِهِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِجَنَّتِهِ وَرُؤْيَتِهِ، فَلَهُمُ النَّعِيمُ فِي الْحَالِ وَالْمَآلِ، وَشَغَلَ الْمُعْرِضِينَ عَنْهُ بِحُظُوظِهِمُ الْفَانِيَةِ عَنِ الْعَمَلِ لِلدَّارِ الْبَاقِيَةِ، وَحَرَمَهُمْ جَزِيلَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ وَالنَّوَالِ، وَأَمْلَى لَهُمْ بِإِدَامَةِ النِّعَمِ فَظَنُّوا أَنَّ الْإِمْهَالَ إِهْمَالٌ، مَلِكٌ تَفَرَّدَ بِالْبَقَاءِ وَالدَّوَامِ، وَالنَّقْضِ وَالْإِبْرَامِ، وَتَصْرِيفِ الدُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَكَيْفَ يَتَوَجَّهُ عَلَى الْمَلِكِ الْقَادِرِ سُؤَالٌ؟ فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلٰهٍ عَظِيمٍ لَا تَخِيبُ لَدَيْهِ الْآمَالُ، وَيَتَفَضَّلُ عَلَى الْعَبْدِ بِالسُّؤَالِ إِذَا أَدَامَ الابْتِهَالَ.

أَحْمَدُهُ تَتْرَى مِنْ غَيْرِ ٱنْفِصَالٍ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى جَزِيلِ الْإِحْسَانِ وَالْإِفْضَالِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْمُتَّصِفُ بِكُلِّ كَمَالٍ، وَالْبَاقِي مُلْكُهُ فَلَا نَفَادَ لَهُ وَلَا زَوَالَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمَخْصُوصُ بِأَشْرَفِ الْخِصَالِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ صَلَاةً مُتَوَاتِرَةً عَلَى مَمَرِّ الْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾، يُنَبِّهُ تَعَالَىٰ عَلَى نِعْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى خَلْقِهِ، بِمَا فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِبَدْرٍ، وَيُسَمَّى الْفُرْقَانَ لِأَنَّ اللَّهَ أَعْلَى فِيهِ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ عَلَى كَلِمَةِ الْبَاطِلِ، وَأَظْهَرَ دِينَهُ وَنَصَرَ نَبِيَّهُ وَحِزْبَهُ.

قَالَ ٱبْنُ عَبَّاسٍ فِي يَوْمِ الْفُرْقَانِ: «هُوَ يَوْمُ بَدْرٍ فَرَّقَ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ».

وَقَدْ رُوِيَ فِي هَٰذِهِ اللَّيْلَةِ أَخْبَارٌ وَآثَارٌ غَالِبُهَا لَا يَثْبُتُ، فَكَانَ الْأَوْلَى بِنَا أَنْ نَضْرِبَ عَنْ ذَٰلِكَ صَفْحًا، وَكَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يُعَظِّمُونَ هَٰذِهِ اللَّيْلَةَ. وَكَانَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ لَا يُحْيِي لَيْلَةً مِنْ رَمَضَانَ، كَمَا يُحْيِي لَيْلَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ، وَيَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ فَرَّقَ فِي صَبِيحَتِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَأَذَلَّ فِي صَبِيحَتِهَا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ».

وَأَصَحُّ مَا رُوِيَ فِي هَٰذِهِ اللَّيْلَةِ: أَنَّهَا لَيْلَةُ بَدْرٍ كَمَا سَبَقَ.

وَمُلَخَّصُ الْقِصَّةِ: أَنَّهُ لَمَّا فُرِضَ صِيَامُ رَمَضَانَ فِي ثَانِي سَنَةٍ مِنَ الْهِجْرَةِ صَامَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَامَهُ الْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، ثُمَّ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِطَلَبِ عِيرٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدِمَتْ مِنَ الشَّامِ إِلَى الْمَدِينَةِ لِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأَفْطَرَ فِي خُرُوجِهِ إِلَيْهَا. وَكَانَ سَبَبُ خُرُوجِهِ حَاجَةَ أَصْحَابِهِ، خُصُوصًا الْمُهَاجِرِينَ ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، وَكَانَتْ هٰذِهِ الْعِيرُ مَعَهَا أَمْوَالٌ كَثِيرَةٌ لِأَعْدَائِهِمُ الْكُفَّارِ الَّذِينَ أَخْرَجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا؛ فَقَصَدَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ أَمْوَالَ هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ الْمُعْتَدِينَ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَحِزْبِهِ وَجُنْدِهِ، فَيَرُدَّهَا عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَحِزْبِهِ، لِيَتَقَوَّوْا بِهَا عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَجِهَادِ أَعْدَائِهِ، وَهَذَا مِمَّا أَحَلَّهُ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، فَإِنَّهُ أَحَلَّ لَهُمُ الْغَنَائِمَ، وَكَانَ عِدَّةُ مَنْ مَعَهُ ثَلَاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ، كَمَا وَرَدَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ خَرَجُوا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ حُفَاةٌ فَٱحْمِلْهُمْ، وَإِنَّهُمْ عُرَاةٌ فَٱكْسُهُمْ، وَإِنَّهُمْ جِيَاعٌ فَأَشْبِعْهُمْ؛ فَفَتَحَ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ فَٱنْقَلَبُوا ـ حِينَ ٱنْقَلَبُوا ـ وَمَا فِيهِمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ رَجَعَ بِجَمَلٍ أَوْ جَمَلَيْنِ، وَٱكْتَسَوْا وَشَبِعُوا، وَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ خَرَجُوا عَلَى غَايَةٍ مِنْ قِلَّةِ الظَّهْرِ وَالزَّادِ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَخْرُجُوا مُسْتَعِدِّينَ لِحَرْبٍ وَلَا قِتَالٍ، إِنَّمَا خَرَجُوا لِطَلَبِ الْعِيرِ، فَكَانَ مَعَهُمْ نَحْوُ سَبْعِينَ بَعِيرًا يَعْتَقِبُونَهَا بَيْنَهُمْ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ، وَكَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ زَمِيلَانِ، وَكَانُوا يَعْتَقِبُونَ عَلَى بَعِيرٍ وَاحِدٍ، فَكَانَ زَمِيلَاهُ يَقُولَانِ لَهُ: ٱرْكَبْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَيَقُولُ: مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ مِنِّي، وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ إِلَّا فَرَسَانِ. وَقِيلَ: ثَلَاثَةٌ، وَقِيلَ: فَرَسٌ وَاحِدٌ لِلْمِقْدَادِ.

وَبَلَغَ الْمُشْرِكِينَ خُرُوجُ النَّبِيِّ ﷺ لِطَلَبِ الْعِيرِ، فَأَخَذَ أَبُو سُفْيَانَ بِالْعِيرِ نَحْوَ السَّاحِلِ وَبَعَثَ إِلَى مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِالْخَبَرِ وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَنْفِرُوا لِحِمَايَةِ عِيرِهِمْ؛ فَخَرَجُوا مُسْتَصْرِخِينَ وَخَرَجَ أَشْرَافُهُمْ وَرُؤَسَاؤُهُمْ، وَسَارُوا نَحْوَ بَدْرٍ، وَٱسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمِينَ فِي الْقِتَالِ. فَتَكَلَّمَ الْمُهَاجِرُونَ فَسَكَتَ عَنْهُمْ، وَإِنَّمَا كَانَ قَصْدُهُ الْأَنْصَارُ؛ لِأَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُمْ لَمْ يُبَايِعُوهُ إِلَّا عَلَى نُصْرَتِهِ عَلَى مَنْ قَصَدَهُ فِي دِيَارِهِمْ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ سَيِّدُ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا، وَقَالَ لَهُ الْمِقْدَادُ: لَا نَقُولُ

لَكَ كَمَا قالَ بَنُو إِسْرائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، وَلَكِنْ نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَشِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَمِنْ خَلْفِكَ؛ فَسُرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ وَأَجْمَعَ عَلَى الْقِتَالِ وَبَاتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ـ لَيْلَةَ سَابِعَ عَشَرَ رَمَضَانَ ـ قائِمًا يُصَلِّي وَيَبْكِي وَيَدْعُو اللَّهَ وَيَسْتَنْصِرُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ».

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا فِينَا إِلَّا نائِمٌ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ، يُصَلِّي وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ»، وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ قالَ: «أَصَابَنا طَشٌّ مِنْ مَطَرٍ ـ يَعْنِي: لَيْلَةَ بَدْرٍ ـ فَانْطَلَقْنَا تَحْتَ الشَّجَرِ وَالْجَحَفِ نَسْتَظِلُّ بِهَا مِنَ الْمَطَرِ، وَباتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو رَبَّهُ وَيَقُولُ: إِنْ تُهْلِكْ هٰذِهِ الْفِئَةَ لَا تُعْبَدُ، فَلَمَّا أَنْ طَلَعَ الْفَجْرُ نَادَى: الصَّلَاةَ عِبَادَ اللَّهِ، فَجَاءَ النَّاسُ مِنْ تَحْتِ الشَّجَرِ وَالْجَحَفِ؛ فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَحَثَّ عَلَى الْقِتَالِ وَأَمَدَّ اللَّهُ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ ﷺ بِنَصْرٍ مِنْ عِنْدِهِ وَبِجُنْدٍ مِنْ جُنْدِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ﴾».

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ جِبْرِيلَ قالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ، قالَ: مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ ـ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا ـ قالَ: وَكَذٰلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ». قالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ﴾، وَقالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾.

وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَآهُمْ قالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّ هٰؤُلَاءِ قُرَيْشٌ قَدْ جَاءَتْ بِخُيَلَائِهَا يُكَذِّبُونَ رَسُولَكَ؛ فَأَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي»، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقالَ: خُذْ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ فَارْمِهِمْ بِهَا، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ حَصْبَاءِ الْوَادِي فَرَمَى بِهَا نَحْوَهُمْ، وَقالَ: شَاهَتِ الْوُجُوهُ؛ فَلَمْ يَبْقَ مُشْرِكٌ إِلَّا دَخَلَ فِي عَيْنَيْهِ وَمَنْخِرِهِ وَفَمِهِ شَيْءٌ، ثُمَّ كَانَتِ الْهَزِيمَةُ.

قالَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ: سَمِعْنَا يَوْمَ بَدْرٍ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ كَأَنَّهُ صَوْتُ حَصَاةٍ عَلَى طِسْتٍ؛ فَرَمَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الرَّمْيَةَ، فَانْهَزَمْنَا.

وَلَمَّا قَدِمَ الْخَبَرُ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ قالُوا لِمَنْ أَتَاهُمْ بِالْخَبَرِ: كَيْفَ حالُ النَّاسِ؟ قالَ: لَا شَيْءَ، وَاللَّهُ إِنْ كانَ إِلَّا أَنْ لَقَيْنَاهُمْ فَمَنَحْنَاهُمْ أَكْتَافَنَا يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ كَيْفَ شَاءُوا، وَأَيْمُ اللَّهِ مَعَ ذٰلِكَ، مَا لُمْتُ النَّاسَ، لَقِينَا رِجَالًا عَلَى خَيْلٍ بُلْقٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، مَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ، وَقَتَلَ اللَّهُ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ. وَكَانَ عَدُوُّ اللَّهِ إِبْلِيسُ قَدْ جَاءَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ، وَكَانَتْ يَدُهُ فِي يَدِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، وَجَعَلَ يُشَجِّعُهُمْ وَيَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ؛ فَلَمَّا رَأَى الْمَلَائِكَةَ هَرَبَ وَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ. وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾.

وَرُوِيَ فِي الْمُوَطَّإِ مُرْسَلًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ أَحْقَرَ وَلَا أَدْحَرَ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، إِلَّا مَا رُئِيَ يَوْمَ بَدْرٍ، قِيلَ: وَمَا رُئِيَ يَوْمَ بَدْرٍ؟ قالَ: رُئِيَ جِبْرِيلُ يَزَعُ الْمَلَائِكَةَ»، وَقِصَّةُ بَدْرٍ مَشْهُورَةٌ فِي كُتُبِ السِّيَرِ وَالتَّفَاسِيرِ وَالتَّوَارِيخِ وَالْأُمَّهَاتِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى بَعْضِ الْمَقْصُودِ؛ فَإِبْلِيسُ عَدُوُّ اللَّهِ، يَسْعَى جُهْدَهُ فِي إِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَإِلْقَاءِ الْفِتَنِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى جَهَنَّمَ لِيَكُونُوا مَعَهُ فِيهَا، وَلٰكِنْ لَا يَزَالُ يَرَى فِي مَوَاسِمِ الْمَغْفِرَةِ وَالْعِتْقِ مِنَ النَّارِ مَا يَسُوؤُهُ، فَأَوَّلًا قَطَعَ ظَهْرَهُ بِعْثَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَظُمَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ لَمَّا انْتَشَرَتِ الدَّعْوَةُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا.

قالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: «لَمَّا رَأَى إِبْلِيسُ النَّبِيَّ ﷺ قَائِمًا يُصَلِّي بِمَكَّةَ ـ رَنَّ، وَلَمَّا فَتَحَ ﷺ مَكَّةَ رَنَّ رَنَّةً أُخْرَى، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ ذُرِّيَّتُهُ، فَقَالَ: ايْأَسُوا أَنْ

تَرُدُّوا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ (ﷺ) إِلَى الشِّرْكِ بَعْدَ يَوْمِكُمْ هَذَا. وَلَٰكِنْ ٱفْتِنُوهُمْ فِي دِينِهِمْ، وَأَفْشُوا فِيهِمُ النَّوْحَ وَالشِّعْرَ» أَخْرَجَهُ ٱبْنُ أَبِي الدُّنْيَا.

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: «رَنَّ إِبْلِيسُ أَرْبَعَ رَنَّاتٍ: رَنَّةٌ حِينَ لُعِنَ، وَرَنَّةٌ حِينَ أُهْبِطَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَرَنَّةٌ حِين بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَرَنَّةٌ حِينَ أُنْزِلَتْ فاتِحَةُ الْكِتَابِ. وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية، بَكَى إِبْلِيسُ وَٱشْتَدَّ حُزْنُهُ بِنُزُولِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ الْفَرَحِ لِأَهْلِ الذُّنُوبِ».

وَقَالَ ثابِتٌ: «لَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ إِبْلِيسُ لِشَيَاطِينِهِ: لَقَدْ حَدَثَ أَمْرٌ فَٱنْظُرُوا مَا هُوَ! فَٱنْطَلَقُوا، ثُمَّ جَاءُوهُ فَقَالُوا: مَا نَدْرِي؟ قَالَ إِبْلِيسُ: أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِالْخَبَرِ؛ فَذَهَبَ وجَاءَ وَقَالَ: قَدْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ (ﷺ)، فَجَعَلَ يُرْسِلُ شَيَاطِينَهُ إِلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَجِيئُونَ بِصُحُفِهِمْ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ، فَقَالَ: مَا لَكُمْ لَا تُصِيبُونَ مِنْهُمْ شَيْئًا؟ قَالُوا: مَا صَحِبْنَا قَوْمًا قَطُّ مِثْلَ هَؤُلَاءِ، نُصِيبُ مِنْهُمْ ثُمَّ يَقُومُونَ إِلَى الصَّلَاةِ فَيُمْحَى ذٰلِكَ، قَالَ: رُوَيْدًا، إِنَّهُمْ عَسَى أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ لَهُمُ الدُّنْيَا، هُنَالِكَ تُصِيبُونَ حَاجَتَكُمْ مِنْهُمْ».

وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: قَالَ إِبْلِيسُ: سَوَّلْتُ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ الْمَعَاصِي فَقَطَعُوا ظَهْرِي بِالِٱسْتِغْفَارِ، فَسَوَّلْتُ لَهُمْ ذُنُوبًا لَا يَسْتَغْفِرُونَ مِنْهَا - يَعْنِي الْأَهْوَاءَ - وَلَكِنْ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ لَا يَزَالُ فِي هَمٍّ وَغَمٍّ وَيَرَى مَا يَغِيظُهُ وَيَهُمُّهُ مِنْ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْ طَاعَاتِ أُمَّتِهِ، وَلَا يَزَالُ يَرَى فِي مَوَاسِمِ الْفَضْلِ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالْعِتْقِ مِنَ النَّارِ مَا يَسُوؤُهُ؛ فَيَوْمَ عَرَفَةَ لَا يُرَى أَصْغَرَ وَأَحْقَرَ وَلَا أَدْحَرَ مِنْهُ لِمَا يَرَى مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللَّهَ عَنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ، إِلَّا مَا رُئِيَ يَوْمَ بَدْرٍ وَفِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَوْمَ النَّحْرِ بِالْمُزْدَلِفَةِ أَهْوَى يُحْثِي التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ وَيَدْعُو بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ، فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ جَزَعِ الْخَبِيثِ.

وَفِي شَهْرِ رَمَضَانَ يُسَلْسَلُ وَيُصَفَّدُ وَيُغَلُّ هُوَ وَجُنُودُهُ، حَتَّى لَا يُفْسِدُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ عِبَادَاتِهِمْ، فَنَسْأَلُ اللَّهَ التَّوْفِيقَ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

فَصْـلٌ

قالَ اللَّهُ تَعالَىٰ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠﴾.

ٱبْنَ آدَمَ: لَوْ عَرَفْتَ قَدْرَ نَفْسِكَ مَا أَهَنْتَهَا بِالْمَعَاصِي، أَنْتَ الْمُخْتَارُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَكَ إِنِ ٱتَّقَيْتَ أُعِدَّتِ الْجَنَّاتُ، وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ وَاللَّذَّاتِ، فَالْجَنَّةُ إِقْطَاعُ الْمُتَّقِينَ، وَالدُّنْيَا إِقْطَاعُ إِبْلِيسَ اللَّعِينَ، فَهُوَ فِيهَا مِنَ الْمُنْظَرِينَ، فَكَيْفَ رَضِيتَ لِنَفْسِكَ بِالْإِعْرَاضِ عَنْ إِقْطَاعِكَ، وَمُزَاحَمَةِ إِبْلِيسَ عَلَى إِقْطَاعِهِ، وَأَنْ تَكُونَ غَدًا مَعَهُ فِي النَّارِ مِنْ جُمْلَةِ الْخَاسِرِينَ؟

أَخْرَجَ ٱبْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ أَنَسٍ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّ حَوْرَاءَ بَزَقَتْ فِي بَحْرٍ لَعَذُبَ ذٰلِكَ الْبَحْرُ مِنْ عُذُوبَةِ رِيقِهَا».

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ ٱمْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ٱطَّلَعَتْ إِلَى ٱلْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهَا، وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا ـ يَعْنِي: الْخِمَارَ ـ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

رَأَى بَعْضُهُمْ حَوْرَاءَ فِي مَنَامِهِ فَقالَ لَهَا: زَوِّجِينِي نَفْسَكِ، قالَتْ: ٱخْطُبْنِي إِلَى رَبِّي، وَٱمْهُرْنِي، قالَ: مَا مَهْرُكِ؟ قالَتْ: طُولُ التَّهَجُّدِ، مُهُورُ الْحُورِ الْعِينِ طُولُ التَّهَجُّدِ، وَهُوَ حَاصِلٌ فِي رَمَضَانَ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ.

ٱشْتَرَى بَعْضُهُمْ حَوْرَاءَ بِصَدَاقِ ثَلَاثِينَ خَتْمَةً، فَنَامَ لَيْلَةً قَبْلَ تَكْمِيلِ الثَّلَاثِينَ فَرَآهَا فِي مَنَامِهِ، وَهِيَ تَقُولُ هٰذَا الشِّعْرَ:

أَتَخْطُبُ مِثْلِي وَعَنِّي تَنَامُ؟   وَنَوْمُ الْمُحِبِّينَ عَنِّي حَرَامُ
لِأَنَّا خُلِقْنَا لِكُلِّ ٱمْرِئٍ   كَثِيرِ الصَّلَاةِ بَرَاهُ الصِّيَامُ

إِخْوَانِي: هَذَا شَهْرُ عِمَارَةِ الْمِحْرَابِ، هَذَا شَهْرُ تِلَاوَةِ الْكِتَابِ، هَذَا شَهْرٌ

تُخْلَعُ فِيهِ خِلَعُ الْغُفْرَانِ، وَتَتَوَفَّرُ لَهَا الْأَسْبَابُ، هَذَا شَهْرٌ يُسْمَعُ فِيهِ الدُّعَاءُ وَيُسْتَجَابُ، هَذَا شَهْرُ الْإِفَاضَاتِ وَالنَّفَحَاتِ وَعِتْقِ الرِّقَابِ.

عِبَادَ اللَّهِ: مُصَابُ الْحِرْمَانِ لَا يُشْبِهُهُ مُصَابٌ، وَكَسْرُ الْإِبْعَادِ لَا كَسْرُ الْأَعْضَاءِ وَالْآرَابِ، فَالْبِدَارَ الْبِدَارَ قَبْلَ إِغْلَاقِ الْبَابِ، أَوْ إِسْبَالِ الْحِجَابِ، وَهَذِهِ الْجَنَّةُ قَدْ تَشَوَّقَتْ لِطَالِبِيهَا، وَتَزَيَّنَتْ لِمُرِيدِيهَا، وَنَطَقَتْ آيَاتُ الْقُرْآنِ بِوَصْفِ مَا فِيهَا، وَالْحُورُ الْعِينُ قَدْ تَهَيَّأَتْ لِخَاطِبِيهَا:

يَا خَاطِبَ الْحَوْرَاءِ فِي خِدْرِهَا ... وَطَالِبًا ذَاكَ عَلَى قَدْرِهَا

انْهَضْ بِجِدٍّ، لَا تَكُنْ مُتَوَانِيًا ... وَجَاهِدِ النَّفْسَ عَلَى صَبْرِهَا

وَجَانِبِ النَّاسَ وَارْفُضْهُمُ ... وَحَالِفِ الْوَحْدَةَ فِي وَكْرِهَا

وَقُمْ إِذَا اللَّيْلُ بَدَا شَطْرُهُ ... وَصُمْ نَهَارًا، فَهُوَ مِنْ مَهْرِهَا

فَلَوْ رَأَتْ عَيْنَاكَ إِقْبَالَهَا ... وَقَدْ بَدَتْ رُمَّانَتَا صَدْرِهَا

وَهِيَ تَمْشِي بَيْنَ أَتْرَابِهَا ... وَعِقْدُهَا يُشْرِقُ فِي نَحْرِهَا

لَهَانَ فِي نَفْسِكَ هَذَا الَّذِي ... تَرَاهُ فِي دُنْيَاكَ مِنْ زَهْرِهَا

اللَّهُمَّ أَذْهِبْ ظُلْمَةَ قُلُوبِنَا بِنُورِ مَعْرِفَتِكَ وَهُدَاكَ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ أَقْبَلَ عَلَيْكَ وَأَعْرَضَ عَمَّنْ سِوَاكَ.

اللَّهُمَّ يَا كَرِيمُ يَا غَفُورُ، آنِسْ وَحْشَتَنَا فِي ظُلْمَةِ الْقُبُورِ، وَاجْعَلْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمَّنْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ النُّورُ، وَأَسْكِنَّا بِفَضْلِكَ وَإِحْسَانِكَ الْغُرَفَ وَالْقُصُورَ، وَآمِنْ خَوْفَنَا يَوْمَ الْعَرْضِ وَالنُّشُورِ.

اللَّهُمَّ تَجَاوَزْ عَنْ إِسَاءَتِنَا بِجَمِيلِ كَرَمِكَ، وَلَا تَقْطَعْ عَنَّا عَوَائِدَ نِعَمِكَ، وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدِينَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الثَّامِنَ عَشَرَ
فِي تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الْغَفْلَةِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَعَدَ مَنْ أَطَاعَهُ بِنَعِيمِ الْجِنَانِ، وَتَوَعَّدَ مَنْ جَحَدَهُ وَعَصَاهُ بِجَحِيمِ النِّيرَانِ، مُظْهِرِ الْحَقِّ وَمُبْدِيهِ، وَمُنْجِزِ الْوَعْدِ وَمُوفِيهِ، وَمُسْعِدِ الْعَبْدِ وَمُشْقِيهِ، وَمُسْبِلِ ذَيْلِ السَّتْرِ عَلَى أَهْلِ الْعِصْيَانِ، الْجَبَّارُ الَّذِي جَبَرَ مَنِ انْكَسَرَ لِأَجْلِ رِضْوَانِهِ، الْعَفُوُّ الَّذِي سَتَرَ مَنْ فَجَرَ بِجَمِيلِ إِحْسَانِهِ، الْغَفَّارُ الَّذِي غَفَرَ لِمَنْ عَبَرَ إِلَى حَرَمِ غُفْرَانِهِ، وَنَصَرَ مَنِ انْتَصَرَ بِعَظِيمِ شَانِهِ، وَجَادَ عَلَى خَلْقِهِ بِجَزِيلِ الْفَضْلِ وَالْامْتِنَانِ، الْحَكِيمُ الَّذِي أَجْرَى عُيُونَ الْخَائِفِينَ خَوْفَ الْوَعِيدِ، وَقَسَّمَ خَلْقَهُ إِلَى شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، وَمَقْبُولٍ وَطَرِيدٍ، وَالْغَنِيُّ عَنْ خَلْقِهِ فَلَا مَعَاصِيهِمْ تَنْقُصُ مُلْكَهُ، وَلَا طَاعَتُهُمْ تَزِيدُ، فَلَهُ الْغِنَى التَّامُّ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ عَلَى تَوَالِي الزَّمَانِ.

فَسُبْحَانَ مَنْ وَفَّقَ أَقْوَامًا لِمَعَادِهِمْ، فَقَامُوا بِخِدْمَتِهِ بِجَوَارِحِهِمْ وَأَجْسَادِهِمْ، قَدْ أَسْبَلُوا عَلَى الْخُدُودِ الْمَدَامِعَ، وَتَجَافَتْ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ، فَهُمْ مِنْ خَوْفِ الْقَطِيعَةِ يَبْكُونَ، جَعَلُوا التَّقْوَى لَهُمْ أَفْخَرَ اللِّبَاسِ، فَأَطَارَ الْخَوْفُ نَوْمَهُمْ وَالنُّعَاسَ، فَهُمْ عِنْدَمَا يَفْرَحُ النَّاسُ يَحْزَنُونَ، قَدْ مَنَعَ الدَّمْعُ نَوْمَهُمْ وَالْهُجُوعَ، فَهُمْ يَبْكُونَ بِفُؤَادٍ مَوْجُوعٍ، وَقَلْبٍ مَحْزُونٍ.

فَسُبْحَانَ مَنْ أَضْحَكَ وَأَبْكَى، وَأَمَاتَ وَأَحْيَا، وَعَلِمَ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ.

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَوْلَاهُ مِنَ الْإِحْسَانِ، وَأَشْكُرُهُ وَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِأَهْلِ الشُّكْرَانِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الْإِلَهُ الْمَلِكُ الدَّيَّانُ، شَهَادَةً أَدَّخِرُهَا لِيَوْمٍ يُنْصَبُ فِيهِ الْمِيزَانُ، وَتَزْفِرُ جَهَنَّمُ عَلَى أَهْلِ الْعِصْيَانِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الدَّاعِي إِلَى الْجِنَانِ، وَالْمُحَذِّرُ عَنْ

طَرِيقَةِ الشَّقِيِّ وَالنِّيرَانِ، وَالْمَبْعُوثُ إِلَى كَافَّةِ الإِنْسِ وَالْجَانِ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالْعِرْفَانِ. صَلَاةً دَائِمَةً إِلَى يَوْمِ قِيَامِ الْأَبْدَانِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية، يَقُولُ تَعَالَىٰ: أَمَا آنَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ؟ أَيْ تَلِينَ عِنْدَ الذِّكْرِ وَالْمَوْعِظَةِ وَسَمَاعِ الْقُرْآنِ، فَتَفْهَمُهُ وَتَنْقَادُ لَهُ وَتَسْمَعُ لَهُ وَتُطِيعُ؟

رُوِيَ عَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اسْتَبْطَأَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ، فَعَاتَبَهُمْ عَلَى رَأْسِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ نُزُولِ الْقُرْآنِ».

ٱعْلَمْ أَنَّ كَلَامَ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمَ، لَهُ طَلَاوَةٌ وَحَلَاوَةٌ لِمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ وَوَفَّقَهُ، وَيَنْبَغِي أَنْ يُدَاوِمَ عَلَى قِرَاءَتِهِ، وَيَتَلَذَّذَ بِمُنَاجَاةِ اللَّهِ بِكَلَامِهِ، وَيَكُونَ خَاشِعًا عَامِلًا بِأَوَامِرِهِ مُنْتَهِيًا عَنْ زَوَاجِرِهِ.

قالَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «لَا تَهُذُّوا الْقُرْآنَ هَذَّ الشِّعْرِ، وَتَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ».

وَقالَ عَبْدُ اللَّهِ أَيْضًا: «إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فَأَصْغِ لَهَا سَمْعَكَ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ تُصْرَفُ عَنْهُ».

وَقالَ بَعْضُ السَّلَفِ: نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيُعْمَلَ بِهِ، فَٱتَّخِذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا.

وَكانَ النَّبِيُّ ﷺ يُرَتِّلُ السُّورَةَ حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا، وَقَامَ بِآيَةٍ يُرَدِّدُهَا حَتَّى الصَّبَاحِ.

سُئِلَ ذُو النُّونِ الْمِصْرِيُّ عَنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ، فَقالَ: هُمُ الَّذِينَ أُمْطِرَتْ عَلَيْهِمْ سَحَائِبُ الْأَشْجَانِ، وَنَصَبُوا الرُّكَبَ وَالْأَبْدَانَ، وَتَسَرْبَلُوا بِالْخَوْفِ وَالْأَحْزَانِ، وَشَرِبُوا بِكَأْسِ الْيَقِينِ، وَرَاضُوا نُفُوسَهُمْ رِيَاضَةَ الْمُتَّقِينَ، كَحَّلُوا

أَبْصَارَهُمْ بِالسَّهَرِ، وَغَضُّوهَا عَنِ النَّظَرِ، وَأَلْزَمُوهَا الْعِبَرَ، وَأَشْعَرُوهَا الْفِكَرَ، فَقَامُوا لَيْلَهُمْ أَرَقًا وَتَبَادَرَتْ دُمُوعُهُمْ فَرَقًا، حَتَّى ضَنِيَتْ مِنْهُمُ الأَبْدَانُ، وَتَغَيَّرَتْ مِنْهُمُ الأَلْوَانُ، صَحِبُوا الْقُرْآنَ بِأَبْدَانٍ نَاحِلَةٍ، وَشِفَاهٍ ذَابِلَةٍ، وَزَفَرَاتٍ قَاتِلَةٍ؛ فَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ نَعِيمِ الْمُتَنَعِّمِينَ، وَشَغَلَهُمْ عَنْ مَطَامِعِ الرَّاغِبِينَ، فَفَاضَتْ عَبَرَاتُهُمْ مِنْ وَعِيدِهِ، وَشَابَتْ ذَوَائِبُهُمْ مِنْ تَحْذِيرِهِ، فَكَانَ زَفِيرُ النَّارِ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ، وَكَانَ الْوَعِيدُ نُصْبَ قُلُوبِهِمْ، جَعَلُوا التُّرَابَ لِلْجِبَاهِ وِسَادًا وَلِلرُّكَبِ مِهَادًا، وَجَعَلُوا الْقُرْآنَ صِرَاطَهُمُ الْمُسْتَقِيمَ، فَكَانَ بِهِمْ إِلَى الْخَيْرَاتِ دَاعِيًا، وَإِلَى النَّجَاةِ دَلِيلًا هَادِيًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. اسْمَعْ يَا هَذَا صِفَاتِ الْقَوْمِ، وَانْتَبِهْ يَا أَسِيرَ الغَفْلَةِ وَالنَّوْمِ، ذَهَبَ السَّادَةُ، وَبَقِيَ قُرَنَاءُ الْوِسَادَةِ.

وَيَنْبَغِي لِقَارِئِ الْقُرْآنِ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ، وَيَحْذَرَ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَالْقُرْآنُ يَلْعَنُهُ.

قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مَهْرَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: إِنَّ أَحَدَهُمْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ يَلْعَنُ نَفْسَهُ، قِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ ذَٰلِكَ؟ قَالَ: يَقْرَأُ ﴿لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وَهُوَ يَكْذِبُ ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وَهُوَ يَظْلِمُ.

وَوَرَدَ أَنَّ الْقُرْآنَ غَرِيبٌ فِي جَوْفِ الظَّالِمِ، وَأَنَّهُ كَمْ مِنْ قَارِئٍ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَالْقُرْآنُ يَلْعَنُهُ، يَعْنِي: لِمُخَالَفَتِهِ لَهُ، وَعَمَلِهِ عَلَى خِلَافِ مَا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ.

وَبَلَغَنَا أَنَّهُ يُؤْمَرُ بِنَاسٍ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ إِلَى النَّارِ، قَبْلَ عَبَدَةِ الأَصْنَامِ، فَيَقُولُونَ: يُبْدَأُ بِنَا قَبْلَ عَبَدَةِ الأَصْنَامِ؟ فَيُقَالُ لَهُمْ: لَيْسَ مَنْ يَعْرِفُ كَمَنْ لَا يَعْرِفُ!

وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ أَنَّ قَارِئَ الْقُرْآنِ إِذَا رَكِبَ الْمَعَاصِيَ يُنَادِيهِ الْقُرْآنُ فِي جَوْفِهِ: أَيْنَ زَوَاجِرِي؟ أَيْنَ قَوَارِعِي؟ أَيْنَ مَوَاعِظِي؟

وَمِنْ آدَابِ الْقَارِئِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ قَطْعِ الْقِرَاءَةِ، وَيَأْخُذَ فِي الْكَلَامِ الَّذِي

لَا يَعْنِي مَعَ صَاحِبِهِ الْقَرِيبِ إِلَى جَنْبِهِ، وَهٰذَا مِمَّا لَا يَنْبَغِي، بَلْ هُوَ مَكْرُوهٌ وَمُسْتَقْبَحٌ سِيَّما إِذَا كَانَ ذٰلِكَ فِي الْمَسَاجِدِ، ذَكَرَ مَعْنَى ذٰلِكَ فِي النَّصَائِحِ الدِّينِيَّةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْآنِ هُمُ الْعَامِلُونَ بِهِ وَالْعَامِلُونَ بِمَا فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَحْفَظُوهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وَأَمَّا مَنْ حَفِظَهُ وَلَمْ يَفْهَمْهُ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ، فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ، وَإِنْ أَقَامَ حُرُوفَهُ إِقَامَةَ السَّهْمِ، فَفِي الْقُرْآنِ تَرْغِيبٌ وَتَرْهِيبٌ، وَفِيهِ مِنَ الْبَيَانِ وَالْإِيضَاحِ أَمْرٌ عَجِيبٌ، وَفِيهِ وَعْدٌ وَوَعِيدٌ، وَتَخْوِيفٌ وَتَقْرِيعٌ وَتَهْدِيدٌ، وَلَكِنَّ الْغَافِلَ عَنْ تَدَبُّرِهِ فَهْمُهُ بَعِيدٌ.

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ كَلَامَهُ لِأَدْوَاءِ الصُّدُورِ شَافِيًا؛ وَإِلَى الْإِيمَانِ وَحَقَائِقِهِ مُنَادِيًا، وَإِلَى الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ دَاعِيًا، وَإِلَى طَرِيقِ الرَّشَادِ هادِيًا. لَقَدْ أَسْمَعَ مُنَادِي الْإِيمَانِ لَوْ صَادَفَ آذَانًا وَاعِيَةً، وَشَفَتْ مَوَاعِظُ الْقُرْآنِ لَوْ وَافَقَتْ قُلُوبًا مِنْ غَيِّهَا خَالِيَةً، وَلٰكِنْ عَصَفَتْ عَلَى الْقُلُوبِ أَهْوِيَةُ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، فَأَطْفَأَتْ مَصَابِيحَهَا، وَتَمَكَّنَتْ مِنْهَا أَيْدِي الْغَفْلَةِ وَالْجَهَالَةِ، فَأَغْلَقَتْ أَبْوَابَ رُشْدِهَا، وَأَضَاعَتْ مَفَاتِيحَهَا، وَرَانَ عَلَيْهَا كَسْبُهَا فَلَمْ يَنْفَعْ فِيهَا الْكَلَامُ وَسَكِرَتْ بِشَهَوَاتِ الْغَيِّ وَشُبُهَاتِ الْبَاطِلِ، فَلَمْ تُصْغِ بَعْدَهُ إِلَى مَلَامٍ، وَوُعِظَتْ بِمَوَاعِظَ أَنْكَى فِيهَا مِنَ الْأَسِنَّةِ وَالسِّهَامِ، وَلٰكِنْ مَاتَتْ فِي بَحْرِ الْجَهْلِ وَالْغَفْلَةِ وَأَسْرِ الْهَوَى وَالشَّهْوَةِ، وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامٌ.

فَصْلٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا

يَتَمَرُونَ ﴿٦﴾. يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِمَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ الْأَشْقِيَاءِ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمُ الْمُخَالِفِينَ لِأَمْرِهِ الْمُرْتَكِبِينَ لِنَهْيِهِ، بِأَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ نَارَ جَهَنَّمَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالْخِزْيِ وَالنَّكَالِ، وَالْبَوَارِ وَالْمَقَامِعِ وَالسَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ، وَمَا ٱحْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ وَالزَّقُّومِ وَالضَّرِيعِ وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالْأَهْوَالِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَنْكَالِ وَالْأَنْكَادِ، وَالْمَلَائِكَةِ الشِّدَادِ الْغِلَاظِ، وَمَا هَيَّأَهُ لِأَهْلِهَا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي لَا مُصَبِّرَ لِأَحَدٍ عَلَى بَعْضِهِ، فَعِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِهِ.

رُوِيَ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، حَتَّى لَوْ أَنَّ رَجُلًا فِي أَقْصَى السُّوقِ لَسَمِعَهُ، وَسَمِعَ أَهْلُ السُّوقِ صَوْتَهُ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ حَتَّى وَقَعَتْ خَمِيصَةٌ كَانَتْ عَلَى عَاتِقِهِ، عِنْدَ رِجْلَيْهِ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ.

وَقَامَ ﷺ لَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ جَعَلَ يَخُصُّ وَيَعُمُّ وَيَقُولُ: «أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ».

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: «تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، قَالَ: أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى ٱبْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى ٱحْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى ٱسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءُ لَا يُضِيءُ لَهَبُهَا» أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ.

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِجِبْرِيلَ: «مَا لِي لَا أَرَى مِيكَائِيلَ ضَاحِكًا قَطُّ، قَالَ: مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ».

وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ وَغَيْرُهُ: «أَنَّ كَعْبَ الْأَحْبَارِ جَعَلَ يَذْكُرُ نَعِيمَ الْجَنَّةِ؛ فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ عُمَرُ: وَيْحَكَ يَا كَعْبُ! هٰذِهِ الْقُلُوبُ قَدِ ٱسْتَرْسَلَتْ فَٱقْبِضْهَا، فَقَالَ كَعْبٌ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ لِجَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَزَفْرَةً مَا يَبْقَى مِنْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ إِلَّا يَخِرُّ لِرُكْبَتَيْهِ، حَتَّى إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّهِ يَقُولُ: رَبِّ نَفْسِي نَفْسِي، حَتَّى لَوْ كَانَ لَكَ عَمَلُ سَبْعِينَ نَبِيًّا إِلَى عَمَلِكَ لَظَنَنْتَ أَنَّكَ لَا تَنْجُو»،

وَفِي رِوَايَةٍ: «أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قالَ يَوْمًا لِكَعْبٍ: يَا كَعْبُ خَوِّفْنَا، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اعْمَلْ عَمَلَ وَجِلٍ، وَلَوْ وَافَيْتَ الْقِيَامَةَ بِعَمَلِ سَبْعِينَ نَبِيًّا لَأَزْدَرَيْتَ عَمَلَكَ مِمَّا تَرَى؛ فَأَطْرَقَ عُمَرُ مَلِيًّا ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: زِدْنَا يَا كَعْبُ! فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ فُتِحَ مِنْ جَهَنَّمَ قَدْرُ مِنْخَرِ ثَوْرٍ بِالْمَشْرِقِ وَرَجُلٌ بِالْمَغْرِبِ لَغَلَى دِمَاغُهُ حَتَّى يَسِيلَ مِنْ حَرِّهَا؛ فَأَطْرَقَ عُمَرُ مَلِيًّا ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: زِدْنَا يَا كَعْبُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ جَهَنَّمَ لَتَزْفِرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ زَفْرَةً لَا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلَّا خَرَّ جَاثِيًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ يَقُولُ: نَفْسِي نَفْسِي، لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي».

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنِ ٱبْنِ مَسْعُودٍ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِالنَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا».

وَرَوَى الْبَزَّارُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ - فَسَاقَ الْحَدِيثَ - إِلَى أَنْ قالَ: «ثُمَّ أَتَى عَلَى وَادٍ فَسَمِعَ صَوْتًا مُنْكَرًا، فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ مَا هٰذَا الصَّوْتُ؟ قالَ: هَذَا صَوْتُ جَهَنَّمَ تَقُولُ: يَا رَبِّ ٱئْتِنِي بِأَهْلِي، وَبِمَا وَعَدْتَنِي، فَقَدْ كَثُرَتْ سَلَاسِلِي وَأَغْلَالِي وَسَعِيرِي وَحَمِيمِي وَغَسَّاقِي وَغِسْلِينِي، وَقَدْ بَعُدَ قَعْرِي وَٱشْتَدَّ حَرِّي. ٱئْتِنِي بِمَا وَعَدْتَنِي، قالَ: لَكِ كُلُّ مُشْرِكٍ وَمُشْرِكَةٍ، وَخَبِيثٍ وَخَبِيثَةٍ، وَكُلُّ جَبَّارٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ».

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «إِنَّ نَارَكُمْ هٰذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَوْلَا أَنَّهَا أُطْفِئَتْ بِالْمَاءِ مَرَّتَيْنِ مَا ٱسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا، وَإِنَّهَا لَتَدْعُو اللَّهَ ﷻ أَلَّا يُعِيدَهَا فِيهَا» رَوَاهُ ٱبْنُ مَاجَه.

وَرَوَى ٱبْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدِهِ إِلَى الْمِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: إِذَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: «خُذُوهُ، ٱبْتَدَرَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِنَّ الْمَلَكَ مِنْهُمْ لَيَقُولُ هَكَذَا، فَيُلْقِي سَبْعِينَ أَلْفًا فِي النَّارِ».

وَرُوِيَ أَنَّ الْخَازِنَ مِنْ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ مَا بَيْنَ مِنْكَبَيْهِ مَسِيرَةُ سَنَةٍ، فَيَضْرِبُ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ الضَّرْبَةَ فَيَتْرُكَهُ طَحِينًا مِنْ لَدُنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ.

وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «لَوْ أَنَّ خَازِنًا مِنْ خُزَّانِ جَهَنَّمَ أَشْرَفَ عَلَى الْأَرْضِ لَمَاتَ أَهْلُ الْأَرْضِ مِمَّا يَرَوْنَ مِنْ تَشْوِيهِ خَلْقِهِ».

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ مُصْعَبٍ: أَنَّ رَجُلًا كانَ عَلَى شَطِّ الْفُرَاتِ فَسَمِعَ تَالِيًا يَتْلُو: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾، فَتَمَايَلَ، فَلَمَّا قالَ التَّالِي: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾، سَقَطَ فِي الْمَاءِ فَمَاتَ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ.

وَعَنْ لُقْمَانَ الْحَنَفِيِّ قالَ: «أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى شَابٍّ يُنَادِي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ: وَاغَوْثَاهُ مِنَ النَّارِ؛ فَلَمَّا أَصْبَحَ قالَ: يَا شَابُّ، لَقَدْ أَبْكَيْتَ الْبَارِحَةَ مَلأً مِنَ الْمَلَائِكَةِ كَثِيرًا».

وَرُوِيَ أَنَّهُ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، وَعِنْدَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ، وَفِيهِمْ شَيْخٌ، فَقَالَ الشَّيْخُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ حِجَارَةُ جَهَنَّمَ كَحِجَارَةِ الدُّنْيَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَصَخْرَةٌ مِنْ صَخْرِ جَهَنَّمَ أَعْظَمَ مِنْ جِبَالِ الدُّنْيَا كُلِّهَا؛ فَوَقَعَ الشَّيْخُ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ عَلَى فُؤَادِهِ، فَإِذَا هُوَ حَيٌّ فَنَادَاهُ: يَا شَيْخُ، قُلْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَهَا فَبَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ بَيْنِنَا؟ قَالَ: نَعَمْ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾».

إِخْوَانِي: أَمَا تَعْتَبِرُونَ بِهٰذِهِ الْأَحْوَالِ؟ أَمَا تُشْفِقُونَ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالْأَنْكَالِ؟ أَمَا تَحْذَرُونَ سَلَاسِلَهَا وَالْأَغْلَالَ؟ وَاعَجَبًا لِمَنْ يَقْرَعُ سَمْعَهُ ذِكْرُ السَّعِيرِ، وَهُوَ مِنْ عَذَابِهَا بِاللَّهِ غَيْرُ مُسْتَجِيرٍ! أَفِيكَ جَلَدٌ عَلَى الْحَمِيمِ وَالصَّدِيدِ وَالزَّمْهَرِيرِ؟ أَفِيكَ جَلَدٌ عَلَى نَارٍ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ؟ أَمْ قَدْ رَضِيتَ لِنَفْسِكَ بِهٰذِهِ الْخَسَارَةِ؟ فَيَا وَيْحَ مَنْ كَانَتْ هٰذِهِ الدَّارُ دَارَهُ، أَلَا إِنَّهَا نَارٌ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ.

شِعْر:

النَّـارُ مَنْـزِلُ أَهْـلِ الْـكُـفْـرِ كُـلِّـهِـم ... طِـبَـاقُـهَـا سَـبْـعَـةٌ مُـسْـوَدَّةُ الْـحُـفَـرِ
جَـهَـنَّـمٌ وَلَـظًّـى مِـنْ بَـعْـدِهَـا حُـطَـمَـةٌ ... ثُـمَّ الـسَّـعِـيرُ وَكُـلُّ الْـهَـوْلِ فِـي سَـقَـرِ
وَتَـحْـتَ ذَاكَ جَـحِـيـمٌ ثُـمَّ هَـاوِيَـةٌ ... تَـهْـوِي بِـهِـمْ أَبَـدًا فِـي حَـرٍّ مُـسْـتَـعِـرِ
فِـيـهَـا غِـلَاظٌ شِـدَادٌ مِـنْ مَـلَائِـكَـةٍ ... قُـلُـوبُـهُـمْ شِـدَّةً أَقْـسَـى مِـنَ الْـحَـجَـرِ
لَـهُـمْ مَـقَـامِـعُ لِـلـتَّـعْـذِيـبِ مُـرْصَـدَةٌ ... وَكُـلُّ كَـسْـرٍ لَـدَيْـهِـمْ غَـيْـرُ مُـنْـجَـبِـرِ
سَـوْدَاءُ مُـظْـلِـمَـةٌ شَـعْـثَـاءُ مُـوحِـشَـةٌ ... دَهْـمَـاءُ مُـحْـرِقَـةٌ لَـوَّاحَـةُ الْـبَـشَـرِ
فِيهَا الْعَقَارِبُ وَالْحَيَّاتُ قَدْ جُمِعَتْ ... جُلُودُهُمْ كَالْبِغَالِ الدُّهْمِ وَالْحُمْرِ
لَـهَـا إِذَا مَـا غَـلَـتْ فَـوْرٌ يُـقَـلِّـبُـهُـمْ ... مَـا بَـيْـنَ مُـرْتَـفِـعٍ مِـنْـهَـا وَمُـنْـحَـدِرِ

قِيلَ لِزَيْدِ بْنِ مَزِيدٍ: مَا لَنَا نَرَاكَ بَاكِيًا وَجِلًا خَائِفًا؟ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَوَعَّدَنِي إِنْ أَنَا عَصَيْتُهُ أَنْ يَسْجُنَنِي فِي النَّارِ، وَاللَّهِ لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدَنِي أَنْ يَسْجُنَنِي إِلَّا فِي الْحَمَّامِ لَبَكَيْتُ حَتَّى لَا تَجِفَّ لِي عَبْرَةٌ.

فَخَزَنَةُ جَهَنَّمَ غِلَاظٌ شِدَادٌ، أَيْ طِبَاعُهُمْ فِي غَايَةِ الْغِلْظَةِ وَالشِّدَّةِ، قَدْ نُزِعَتْ مِنْ قُلُوبِهِمُ الرَّحْمَةُ بِالْكَافِرِينَ، وَخِلْقَتُهُمْ فِي غَايَةِ الْكَثَافَةِ، وَتَرْكِيبُهُمْ فِي غَايَةِ الشِّدَّةِ وَالْمَنْظَرِ الْمُزْعِجِ، سُودُ الْوُجُوهِ، كَالِحَةٌ أَنْيَابُهُمْ، نَسْأَلُ اللَّهُ السَّلَامَةَ إِنَّهُ جَوَّادٌ كَرِيمٌ.

شِعْر:

وَفِي الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَشْرُ صَحَائِفٍ ... وَمِـيـزَانُ قِـسْـطٍ طَـائِـشٌ أَوْ مُـثَـقَّـلُ
وَنَشْرٌ يَشِيبُ الطِّفْلُ مِنْ عُظْمِ هَوْلِهِ ... وَمِـنْـهُ الْـجِـبَـالُ الـرَّاسِـيَـاتُ تُـزَلْـزَلُ
وَنَـارٌ تَـلَـظَّـى فِـي لَـظَـاهَـا سَـلَاسِـلٌ ... يُـغَـلُّ بِـهَـا الْـفُـجَّـارُ ثُـمَّ يُـسَـلْـسَـلُ
شَرَابُ ذَوِي الْإِجْرَامِ فِيهَا حَمِيمُهَا ... وَزَقُّـومُـهَـا مَـطْـعُـومُـهُـمْ حِـيـنَ يُـؤْكَـلُ
حَـمِـيـمٌ وَغَـسَّـاقٌ وَآخَـرُ مِـثْـلُـهُ ... مِنَ الْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ وَيُشْعَلُ
يَـزِيـدُ هَـوَانًـا مِـنْ هَـوَاهَـا وَلَـمْ يَـزَلْ ... إِلَـى قَـعْـرِهَـا يَـهْـوِي دَوَامًـا وَيَـنْـزِلُ

وَفِي نَارِهِ يَبْقَى دَوَامًا مُعَذَّبًا يَصِيحُ ثُبُورًا وَيْلَهُ يَتَوَلْوَلُ
عَلَيْهَا صِرَاطٌ مُدْحِضٌ وَمَزَلَّةٌ عَلَيْهِ الْبَرَايَا فِي الْقِيَامَةِ تُحْمَلُ
وَفِيهِ كَلَالِيبٌ تَعَلَّقُ بِالْوَرَى فَهَذَا نَجَا مِنْهَا وَهَذَا مُخَرْدَلُ
فَلَا مُجْرِمٌ يَفْدِيهِ مَا يَفْتَدِي بِهِ وَإِنْ يَعْتَذِرْ يَوْمًا فَلَا عُذْرَ يُقْبَلُ
فَهَذَا جَزَاءُ الْمُجْرِمِينَ عَلَى الرَّدَى وَهَذَا الَّذِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْصُلُ
أَعُوذُ بِرَبِّي مِنْ لَظَى وَعَذَابِهَا وَمِنْ حَالِ مَنْ يَهْوَى بِهَا يَتَجَلْجَلُ
وَمِنْ حَالِ مَنْ فِي زَمْهَرِيرٍ مُعَذَّبًا وَمَنْ هُوَ بِالْأَغْلَالِ فِيهَا مُكَبَّلُ

اللَّهُمَّ يَا رَبَّ الْأَرْبَابِ، وَيَا مُسَبِّبَ الْأَسْبَابِ، وَيَا رَاحِمَ الْمُذْنِبِ إِذَا انْطَرَحَ بَيْنَ يَدَيْكَ وَأَنَابَ، وَيَا مُجْزِلَ الثَّوَابِ لِلْأَحْبَابِ، نَسْأَلُكَ أَنْ تُعِيذَنَا مِنَ الْهَلَكَاتِ، وَمِنْ دَارِ السَّعِيرِ وَالدَّرَكَاتِ، وَتُبَاعِدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَغْلَالِ وَاللَّفَحَاتِ، وَأَنْ تَجْعَلَنَا مِمَّنْ يُكْرَمُ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ.

إِلٰهَنَا، مَنْ لَنَا إِذَا طَرَدْتَنَا عَنْ بَابِكَ؟ وَإِلَى مَنْ نَقْصِدُ إِذَا لَمْ نَتَعَلَّقْ بِجَنَابِكَ؟ فَمَا تَعَوَّدْنَا مِنْكَ إِلَّا الْجَمِيلَ، وَمَا لَنَا قَلْبٌ عَنْ جَمَالِكَ يَمِيلُ. فَلَا نَلْتَجِئُ إِلَّا لِرُكْنِكَ الْعَظِيمِ، وَلَا نُعَلِّقُ آمَالَنَا إِلَّا بِكَرَمِ جُودِكَ الْعَمِيمِ.

اللَّهُمَّ يَا كَرِيمُ يَا غَفَّارُ، يَا رَحِيمُ يَا سَتَّارُ، أَعِذْنَا مِنْ دَارِ الْبَوَارِ، وَخَفِّفْ ظُهُورَنَا مِنْ حَمْلِ الْأَوْزَارِ، وَآتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. وَٱغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ التَّاسِعَ عَشَرَ
فِي الْحَثِّ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَفَضْلِ آثَارِهَا وَعَوَاقِبِهَا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ٱسْتَوَى لَدَيْهِ الظَّاهِرُ وَالْمَكْنُونُ، وَأَحَاطَ عِلْمًا بِالْحَرَكَاتِ وَالسُّكُونِ، وَتَنَزَّهَ عَنِ التَّكْيِيفِ وَتَقَدَّسَ عَنْ خَوَاطِرِ الظُّنُونِ، الْحَكِيمِ الَّذِي قَرَّبَ

بَعِيدًا وَأَبْعَدَ قَرِيبًا، وَأَقْصَى عَدُوًّا وَأَدْنَى حَبِيبًا، وَأَذَلَّ عَاصِيًا وَأَعَزَّ طَائِعًا مُنِيبًا، الَّذِي مَا دَعَاهُ دَاعٍ إِلَّا وَكَانَ لَهُ مُجِيبًا، وَلَا سَأَلَهُ سَائِلٌ إِلَّا وَأَعْطَاهُ سُؤْلَهُ، وَوَفَّرَ لَهُ مِنْ فَضْلِهِ نَصِيبًا.

فَيَا أَيُّهَا الْعَاصِي تَذَكَّرْ حُلُولَ رَمْسِكَ، وَكُنْ عَلَى نَفْسِكَ رَقِيبًا، وَٱعْمَلْ لِيَوْمِ عَرْضِكَ مَا دَامَ غُصْنُ الْحَيَاةِ رَطِيبًا؛ فَإِلَى مَتَى أَنْتَ سَقِيمٌ بِدَاءِ زَلَّتِكَ، وَلَا تَجِدُ لِعِلَّتِكَ شَافِيًا وَلَا طَبِيبًا، ٱنْهَضْ فِي ظُلَمِ الدَّيَاجِي وَنَادِ مَنْ لَمْ يَزَلْ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَتَضَرَّعْ بَيْنَ يَدَيْ مَوْلَاكَ وَكُنْ فِي دُنْيَاكَ غَرِيبًا، وَٱلْتَجِئْ إِلَى ظِلِّ رَحْمَتِهِ مَسَاءً وَصَبَاحًا، وَقِفْ عَلَى بَابِهِ تَجِدْهُ بَابًا مُبَاحًا، وَجَنَابًا رَحِيبًا، وَنَادِ فِي الْأَسْحَارِ بِلِسَانِ الْاعْتِذَارِ، وَقُلْ: يَا إِلٰهِي، أَنَا الْعَبْدُ الْمِسْكِينُ أَسِيرُ الْأَوْزَارِ، وَمَا زِلْتَ تَجُودُ عَلَى الْمُخْبِتِينَ بِما كَانُوا فِيكَ يُؤَمِّلُونَ.

فَسُبْحَانَ مَنْ وَفَّقَ خُلَاصَةً مِنْ خَلْقِهِ وَأَنَالَهُمْ مَا يَطْلُبُونَ، عَاهَدُوا مَوْلَاهُمْ فَوَجَدُوهُ وَفِيًّا، وَعَامَلُوهُ فَوَجَدُوهُ مَلِيًّا؛ فَهُمُ الَّذِينَ ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾، قَدْ عَفَّرَ كُلٌّ مِنْهُمْ وَجهَهُ الْمَصُونَ، إِذَا خَلَا خِرِّيتُهُمْ بِنَفْسِهِ أَنَّ وَشَكَا، وَإِذَا تَفَكَّرَ فِي ذُنُوبِهِ تَضَرَّعَ وَبَكَى، وَقَرَّحَ بِالْمَدَامِعِ الْجُفُونَ، أَقْلَقَهُمُ الْخَوْفُ فَهُمْ مِنَ الْبُكَاءِ لَا يَمَلُّونَ، وَلَزِمُوا الْحَذَرَ، فَهُمْ فِي النَّهَارِ صَائِمُونَ، وَأَلِفُوا السَّهَرَ، فَهُمْ فِي اللَّيْلِ قَائِمُونَ، إِذَا رَأَيْتَهُمْ رَأَيْتَ كُلًّا يَبْكِي عَلَى زَلَّتِهِ، يَخَافُ مِنْ بَطْشِ اللَّهِ وَسَطْوَتِهِ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ.

أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْمُقَرَّبُونَ، وَلِلزِّيَادَةِ مِنْ فَضْلِهِ يَطْلُبُونَ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً أَدَّخِرُهَا لِيَوْمٍ لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُونَ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَأَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ يَتَّبِعُونَ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قالَ اللَّهُ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وَهَـٰذِهِ الآيَـةُ كَـقَـوْلِـهِ تَـعَـالَـىٰ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾، أَيْ: هَذَا بِذَاكَ، تَفَضُّلًا عَلَيْهِمْ وَٱمْتِنَانًا وَإِحْسَانًا، فَلَمَّا أَنْ قَامُوا فِي دَارِ الدُّنْيَا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَٱجْتَهَدُوا فِي طَلَبِ مَرْضَاتِهِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ: مِنْ صِيَامٍ وَقِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ وَتِلَاوَةِ قُرْآنٍ وَغَيْرِ ذٰلِكَ، قِيلَ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ ذٰلِكَ: أَيْ جَزَاءً عَلَى صَنِيعِكُمْ.

وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الصَّائِمِينَ تُوضَعُ لَهُمْ مَائِدَةٌ يَأْكُلُونَ مِنْهَا وَالنَّاسُ فِي الْحِسَابِ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، نَحْنُ نُحَاسَبُ وَهَؤُلَاءِ يَأْكُلُونَ؟ فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ طَالَمَا صَامُوا وَأَفْطَرْتُمْ، وَقَامُوا وَنِمْتُمْ.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ» خُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ: رَائِحَةُ مَا يَتَصَاعَدُ مِنْهُ مِنَ الْأَبْخِرَةِ لِخُلُوِّ الْمَعِدَةِ مِنَ الطَّعَامِ بِالصِّيَامِ، وَهِيَ رَائِحَةٌ مُسْتَكْرَهَةٌ فِي مَشَامِّ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، لَكِنَّهَا طَيِّبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ، حَيْثُ كَانَتْ نَاشِئَةً عَنْ طَاعَتِهِ وَٱبْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ.

كَمَا أَنَّ دَمَ الشَّهِيدِ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَثْعَبُ دَمًا: لَوْنُهُ لَوْنُ الدَّمِ، وَرِيحُهُ رِيحُ الْمِسْكِ.

وَبِهَذَا اسْتَدَلَّ مَنْ كَرِهَ السِّوَاكَ لِلصَّائِمِ، أَوْ لَمْ يَسْتَحِبَّهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

وَفِي الْمَسْأَلَةِ خِلَافٌ مَشْهُورٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، وَإِنَّمَا كَرِهَهُ مَنْ كَرِهَهُ فِي آخِرِ نَهَارِ الصَّوْمِ؛ لِأَنَّهُ وَقْتُ خُلُوِّ الْمَعِدَةِ وَتَصَاعُدِ الْأَبْخِرَةِ.

وَعِنْدَنَا: أَنَّهُ يُسَنُّ قَبْلَ الزَّوَالِ لِلصَّائِمِ، وَيُكْرَهُ بَعْدَهُ، لِقَوْلِ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا لَا أُحْصِي يَتَسَوَّكُ وَهُوَ صَائِمٌ»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ، وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيقًا.

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ خِصَالِ الصَّائِمِ السِّوَاكُ» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه.

وَهَذَانِ مَحْمُولَانِ عَلَى مَا قَبْلَ الزَّوَالِ لِحَدِيثِ عَلِيٍّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا صُمْتُمْ فَاسْتَاكُوا بِالْغَدَاةِ، وَلَا تَسْتَاكُوا بِالْعَشِيِّ» رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ.

وَيُكْرَهُ بَعْدَ الزَّوَالِ لِحَدِيثِ الْخُلُوفِ. وَعَنْهُ يُسَنُّ مُطْلَقًا، وَهُوَ اخْتِيَارُ الشَّيْخِ تَقِيِّ الدِّينِ، قَالُوا: وَهُوَ أَظْهَرُ دَلِيلًا.

وَفِي طِيبِ رِيحِ خُلُوفِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ مَعْنَيَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الصِّيَامَ لَمَّا كَانَ سِرًّا بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ فِي الدُّنْيَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ عَلَانِيَةً لِلْخَلْقِ، لِيَشْتَهِرَ بِذَلِكَ أَهْلُ الصِّيَامِ وَيُعْرَفُوا بِصِيَامِهِمْ بَيْنَ النَّاسِ جَزَاءً لِإِخْفَائِهِمْ صِيَامَهُمْ فِي الدُّنْيَا، كَمَا رَوَى أَبُو الشَّيْخِ الْأَصْبَهَانِيُّ بِإِسْنَادٍ فِيهِ ضَعْفٌ عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعًا: «يَخْرُجُ الصَّائِمُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يُعْرَفُونَ بِرِيحِ أَفْوَاهِهِمْ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ».

قَالَ مَكْحُولٌ: يَرُوحُ أَهْلُ الْجَنَّةِ بِرَائِحَةٍ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا وَجَدْنَا رِيحًا مُنْذُ دَخَلْنَا الْجَنَّةَ أَطْيَبَ مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَيُقَالُ: هَذِهِ رَائِحَةُ أَفْوَاهِ الصُّوَّامِ.

وَقَدْ تَفُوحُ رَائِحَةُ الصِّيَامِ فِي الدُّنْيَا وَتُسْتَنْشَقُ قَبْلَ الْآخِرَةِ، وَهُوَ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: مَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ، وَقَدْ وُجِدَ ذَلِكَ. فَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ غَالِبٍ مِنَ الْعُبَّادِ الْمُجْتَهِدِينَ فِي الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ، فَلَمَّا دُفِنَ كَانَ يَفُوحُ مِنْ تُرَابِ قَبْرِهِ رَائِحَةُ الْمِسْكِ، فَرُئِيَ بِالْمَنَامِ، فَسُئِلَ عَنْ تِلْكَ الرَّائِحَةِ الَّتِي تُوجَدُ مِنْ قَبْرِهِ، فَقَالَ: تِلْكَ رَائِحَةُ التِّلَاوَةِ وَالظَّمَإِ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: مَا تَسْتَنْشِقُهُ الْأَرْوَاحُ وَالْقُلُوبُ، فَيُوجِبُ ذَلِكَ لِلصَّائِمِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمَوَدَّةَ وَالْمَحَبَّةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَفِي حَدِيثِ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عليه السلام

قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: آمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذٰلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ، فَكُلُّهُمْ يُعْجِبُهُمْ رِيحُهُ، وَإِنَّ رِيحَ الصِّيَامِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ.

لَمَّا كَانَتْ مُعَامَلَةُ الْمُخْلِصِينَ بِصِيَامِهِمْ لِمَوْلَاهُمْ سِرًّا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ أَظْهَرَ اللَّهُ سِرَّهُمْ لِعِبَادِهِ فَصَارَ عَلَانِيَةً، وَصَارَ هٰذَا التَّجَلِّي وَالْإِظْهَارُ جَزَاءً لِذَلِكَ الصَّوْنِ وَالْإِسْرَارِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: «مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَلْبَسَهُ اللَّهُ رِدَاءَهَا عَلَانِيَةً».

قَالَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ: «أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ: قُلْ لِقَوْمِكَ يُخْفُونَ لِي أَعْمَالَهُمْ وَعَلَيَّ إِظْهَارُهَا».

الْمَعْنَى الثَّانِي: أَنَّ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَأَطَاعَهُ وَطَلَبَ رِضَاهُ فِي الدُّنْيَا يَعْمَلُ فَنَشَأَ مِنْ عَمَلِهِ آثَارٌ مَكْرُوهَةٌ لِلنُّفُوسِ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ تِلْكَ الْآثَارَ غَيْرُ مَكْرُوهَةٍ عِنْدَ اللَّهِ، بَلْ هِيَ مَحْبُوبَةٌ لَهُ، وَطَيِّبَةٌ عِنْدَهُ، لِكَوْنِهَا نَشَأَتْ عَنْ طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ مَرْضَاتِهِ، فَإِخْبَارُهُ بِذٰلِكَ لِلْعَامِلِينَ فِي الدُّنْيَا، وَفِيهِ تَطْيِيبٌ لِقُلُوبِهِمْ، لِئَلَّا يُكْرَهَ مِنْهُمْ مَا وُجِدَ فِي الدُّنْيَا، فَما يَنْشَأُ مِنَ الطَّاعَاتِ فَإِنَّهُ مَحْبُوبٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَلِهٰذَا كَانَ دَمُ الشَّهِيدِ رِيحُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَرِيحِ الْمِسْكِ، وَغُبَارُ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذُرَيْرَةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

إِخْوَانِي: خُلُوفُ أَفْوَاهِ الصَّائِمِينَ لَهُ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، عُرْيُ الْمُحْرِمِينَ لِزِيَارَةِ بَيْتِهِ أَجْمَلُ مِنْ لِبَاسِ الْحُلَلِ، نَوْحُ الْمُذْنِبِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ خَشْيَتِهِ أَفْضَلُ مِنَ التَّسْبِيحِ. انْكِسَارُ الْمُخْبِتِينَ لِعَظَمَتِهِ هُوَ الْجَبْرُ. ذُلُّ الْخَائِفِينَ مِنْ سَطْوَتِهِ هُوَ الْعِزُّ. تَهَتُّكُ الْمُحِبِّينَ فِي مَحَبَّتِهِ أَحْسَنُ مِنَ السِّتْرِ. بَذْلُ النُّفُوسِ لِلْقَتْلِ فِي سَبِيلِهِ هُوَ الْحَيَاةُ. جُوعُ الصَّائِمِينَ لِأَجْلِهِ هُوَ الشِّبَعُ. عَطَشُهُمْ فِي طَلَبِ مَرْضَاتِهِ هُوَ الرِّيُّ. نَصَبُ الْمُجْتَهِدِينَ فِي خِدْمَتِهِ هُوَ الرَّاحَةُ؛ كَمَا قِيلَ:

ذُلُّ الْفَتَى فِي الْحُبِّ مَكْرُمَةٌ وَخُضُوعُهُ لِحَبِيبِهِ شَرَفُ

سُبْحَانَ مَنْ أَيْقَظَ الْمُتَّقِينَ، وَخَلَعَ عَلَيْهِمْ خِلَعَ الْيَقِينِ، وَأَلْحَقَهُمْ بِتَوْفِيقِهِ فِي السَّابِقِينَ، فَبَاتُوا فِي جِلْبَابِ الْجِدِّ مُسَابِقِينَ، كُلَّمَا لَاحَتْ لَهُمْ فِي مِرْآةِ الْفِكْرِ ذُنُوبُهُمْ تَجَافَتْ عَنْ الْمَضَاجِعِ جُنُوبُهُمْ، وَكُلَّمَا نَظَرُوا فَسَاءَهُمْ مَكْتُوبُهُمْ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، دُمُوعُهُمْ عَلَى الدَّوَامِ تَجْرِي، وَعِزَّتِي لَأُثِيبَنَّهُمْ جَنَّاتٍ فِيهَا الْأَنْهَارُ تَجْرِي، عَظُمَتْ قُدْرَتِي فِي صُدُورِهِمْ وَقَدْرِي، فَاسْتَعَاذُوا بِوِصَالِي مِنْ هَجْرِي، عَامَلُوا مَوْلَاهُمْ مُعَامَلَةَ مَنْ يَفْهَمُ وَيَدْرِي. إِذَا نَامَ أَهْلُ البِطَالَةِ فَهُمْ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ، وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، أَمْوَاتٌ عَنِ الدُّنْيَا مَا دُفِنُوا، قَدْ غَمَّضُوا عَنْهَا عُيُونَهُمْ وَحَزِنُوا، وَلَوْ فَتَحُوا أَجْفَانَ الشَّرَهِ لَفُتِنُوا، بَاعُوهَا بِمَا يَبْقَى فَلَا وَاللَّهِ مَا غُبِنُوا، تَاللَّهِ لَقَدْ حَصَلَ مَطْلُوبُهُمْ ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

فَيَا وَيْحَ مَنْ كَانَ مَطْرُودًا عَنِ الْبَابِ، وَيَا خَجْلَةَ مَنْ لَا يَنْتَفِعُ بِتِلَاوَةِ الْكِتَابِ، وَيَا سَوْءَةَ مَنْ تَنْقَضِي الْمَوَاعِظُ وَهُوَ مَا تَابَ. أَمَا آنَ لِلْغَافِلِ أَنْ يُبْصِرَ وَيَسْمَعَ؟ أَمَا آنَ لِلْجَافِي أَنْ يُنِيبَ إِلَى مَوْلَاهُ وَيَخْشَعَ؟ أَمَا لَكَ عَيْنٌ مِنْ مَخَافَةِ اللَّهِ تَدْمَعُ؟ تَاللَّهِ إِنَّ مَوَاعِظَ الْقُرْآنِ لَوْ خُوطِبَ بِهَا جَبَلٌ لَتَصَدَّعَ، وَلَكِنْ غَلَبَ عَلَى الْقُلُوبِ الْهَوَى وَالْغَفْلَةُ، فَالْوَعْظُ فِيهِ لَا يَنْفَعُ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا حُبُّ الدُّنْيَا فَهِيَ لَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ.

شِعْر:

فَيَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ بَادِرْ إِلَى التُّقَى ... وَسَارِعْ إِلَى الْخَيْرَاتِ مَا دُمْتَ مُمْهَلُ
وَأَكْثِرْ مِنَ التَّقْوَى لِتَحْمَدَ غِبَّهَا ... بِدَارِ الْجَزَا دَارٌ بِهَا سَوْفَ تَنْزِلُ
وَقَدِّمْ لِمَا تُقْدِمْ عَلَيْهِ، فَإِنَّمَا ... غَدًا سَوْفَ تُجْزَى بِالَّذِي أَنْتَ تَفْعَلُ
وَسَارِعْ إِلَى الْخَيْرَاتِ لَا تُهْمِلَنَّهَا ... فَإِنَّكَ إِنْ أَهْمَلْتَ مَا أَنْتَ مُهْمَلُ
فَمَا أَحْسَنَ التَّقْوَى وَأَهْدَى سَبِيلَهَا ... بِهَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانُ مَا كَانَ يَعْمَلُ

فَصْلٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى

مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قالَ فِي حَادِي الأَرْوَاحِ: فَتَأَمَّلْ جَلالَةَ الْمُبَشِّرِ وَمَنْزِلَتَهُ وَصِدْقَهُ، وَعَظَمَةَ مَنْ أَرْسَلَهُ إِلَيْكَ بِهٰذِهِ الْبِشَارَةِ، وَقَدْرَ مَا بَشَّرَكَ بِهِ وَضَمَّنَهُ لَكَ عَلَى أَسْهَلَ شَيْءٍ عَلَيْكَ وَأَيْسَرِهِ، وَجمعَ سُبْحَانَهُ فِي هٰذِهِ الْبِشَارَةِ بَيْنَ نَعِيمِ الْبَدَنِ بِالْجَنَّاتِ وَمَا فِيهَا مِنَ الأَنْهَارِ وَالثِّمارِ، وَنَعِيمِ النَّفْسِ بِالأَزْوَاجِ الْمُطَهَّرَةِ، وَنَعِيمِ الْقَلْبِ بِقُرَّةِ الْعَيْنِ، بِمَعْرِفَةِ دَوَامِ هٰذَا الْعَيْشِ أَبَدَ الآبَادِ، وَعَدَمِ ٱنْقِطَاعِهِ.

وَالأَزْوَاجُ: جَمْعُ زَوْجٍ، وَالْمَرْأَةُ: زَوْجُ الرَّجُلِ، وَهُوَ زَوْجُهَا، هَذَا هُوَ الأَفْصَحُ. وَالْمُطَهَّرَةُ: الَّتِي طُهِّرَتْ مِنَ الْحَيْضِ وَالْبَوْلِ وَالنِّفَاسِ والْغَائِطِ وَالْمُخَاطِ وَالْبُصَاقِ، وَكُلِّ قَذَرٍ وَكُلِّ أَذًى يَكُونُ مِنْ نِسَاءِ الدُّنْيَا، وَطَهَّرَ مَعَ ذٰلِكَ بَاطِنَهَا مِنَ الأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ وَالصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ، وَطَهَّرَ لِسَانَهَا مِنَ الْفُحْشِ وَالْبَذَاءِ، وَطَهَّرَ طَرْفَهَا مِنْ أَنْ تَطْمَحَ بِهِ إِلَى غَيْرِ زَوْجِهَا، وَطَهَّرَ أَثْوَابَهَا مِنْ أَنْ يَعْرِضَ لَهَا دَنَسٌ أَوْ وَسَخٌ.

وَقَالَ أَيْضًا بَعْدَ سِيَاقِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾، فَجَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ حُسْنِ الْمَنْزِلِ وَحُصُولِ الأَمْنِ فِيهِ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَٱشْتِمَالِهِ عَلَى الثِّمَارِ وَالأَنْهَارِ، وَحُسْنِ اللِّبَاسِ، وَكَمَالِ الْعِشْرَةِ بِمُقَابَلَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَتَمَامِ اللَّذَّةِ بِالْحُورِ الْعِينِ، وَدُعَائِهِمْ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْفَاكِهَةِ مَعَ أَمْنِهِمْ مِنَ ٱنْقِطَاعِهَا وَمَضَرَّتِهَا وَغَائِلَتِهَا، وَخِتَامُ ذٰلِكَ أَعْلَمَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَذُوقُونَ هُنَاكَ مَوْتًا.

وَالْحُورُ: جَمْعُ حَوْرَاءَ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الشَّابَّةُ الْحَسْنَاءُ الْجَمِيلَةُ الْبَيْضَاءُ، شَدِيدَةُ سَوَادِ الشَّعْرِ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: الْحَوْرَاءُ: الَّتِي يَحَارُ فِيهَا الطَّرْفُ. وَعِينٌ: حِسَانُ الأَعْيُنِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْحَوْرَاءُ: الَّتِي يَحَارُ فِيهَا الطَّرْفُ مِنْ رِقَّةِ الْجِلْدِ وَصَفَاءِ اللَّوْنِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: الْحَوْرَاءُ: شَدِيدَةُ بَيَاضِ الْعَيْنِ، شَدِيدَةُ سَوَادِ الْعَيْنِ، وَلَا تُسَمَّى الْمَرْأَةُ حَوْرَاءَ حَتَّى تَكُونَ مَعَ حَوَرِ عَيْنِهَا بَيْضَاءَ لَوْنِ الْجَسَدِ.

وَالْعِينُ: جَمْعُ عَيْنَاءَ، وَهِيَ الْعَظِيمَةُ الْعَيْنِ مِنَ النِّسَاءِ؛ وَالصَّحِيحُ: أَنَّ الْعِينَ اللَّاتِي جَمَعَتْ أَعْيُنُهُنَّ صِفاتَ الْحُسْنِ وَالْمَلَاحَةِ.

قَالَ مُقَاتِلٌ: الْعِينُ: حِسَانُ الْأَعْيُنِ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠﴾، الْخَيْرَاتُ: جَمْعُ خَيْرَةٍ، وَهِيَ مُخَفَّفَةٌ مِنْ خَيِّرَةٍ كَسَيِّدَةٍ وَلَيِّنَةٍ. وَحِسَانٌ: جَمْعُ حَسَنَةٍ، فَهُنَّ خَيْرَاتُ الصِّفَاتِ وَالْأَخْلَاقِ وَالشِّيَمِ، حِسَانُ الْوُجُوهِ. ٱنْتَهى.

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ حَوْرَاءَ يُقَالُ لَهَا: الْعَيْنَاءُ، إِذَا مَشَتْ مَشَى حَوْلَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ وَصِيفٍ عَنْ يَمِينِهَا وَعَنْ يَسَارِهَا كَذٰلِكَ، وَهِيَ تَقُولُ: أَيْنَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ؟».

وَقَالَ عَطَاءٌ السُّلَمِيُّ لِمَالِكِ بْنِ دِينَارٍ: يَا أَبَا يَحْيَى، شَوِّقْنَا، قَالَ: يَا عَطَاءُ، إِنَّ فِي الْجَنَّةِ حَوْرَاءَ يَتَبَاهَى أَهْلُ الْجَنَّةِ بِحُسْنِهَا، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ كَتَبَ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ أَلَّا يَمُوتُوا لَمَاتُوا مِنْ حُسْنِهَا، فَلَمْ يَزَلْ عَطَاءٌ كَمِدًا مِنْ قَوْلِ مَالِكٍ.

وَذَكَرَ ٱبْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ صَالِحٍ الْمُرِّيِّ عَنْ يَزِيدَ الرَّقَاشِيِّ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ نُورًا سَطَعَ فِي الْجَنَّةِ لَمْ يَبْقَ مَوْضِعٌ فِي الْجَنَّةِ إِلَّا دَخَلَ مِنْ ذٰلِكَ النُّورِ فِيهِ، فَقِيلَ: مَا هٰذَا؟ قَالَ: حَوْرَاءُ ضَحِكَتْ فِي وَجْهِ زَوْجِهَا.

قَالَ صَالِحٌ: فَشَهِقَ رَجُلٌ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ، فَلَمْ يَزَلْ يَشْهَقُ حَتَّى مَاتَ.

وَعَنْ كَثِيرِ بْنِ مُرَّةَ قَالَ: إِنَّ مِنَ الْمَزِيدِ أَنْ تَمُرَّ السَّحَابَةُ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ

فَتقُولُ: مَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ أُمْطِرَكُمْ؟ فَلَا يَتَمَنَّوْنَ شَيْئًا إِلَّا أُمْطِرُوا، قالَ ـ يَقُولُ كَثِيرٌ ـ لَئِنْ أَشْهَدَنِي اللَّهُ ذَلِكَ لَأَقُولَنَّ أَمْطِرِينَا حَوَارِيَ مُزَيَّنَاتٍ.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْحُورَ يَدْعُونَ لِأَزْوَاجِهِنَّ يَقُلْنَ: «اللَّهُمَّ أَعِنْهُ عَلَى دِينِكَ، وَأَقْبِلْ بِقَلْبِهِ عَلَى طَاعَتِكَ، وَبَلِّغْهُ بِعِزَّتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْ مُعَاذٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «لَا تُؤْذِي ٱمْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ: لَا تُؤْذِيهِ قاتَلَكِ اللَّهُ، فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا».

رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ أَنَّهُ عَبَدَ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا كانَ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي أَخَذَتْهُ دَلَالَةٌ عَلَى اللَّهِ ﷻ فَقَالَ: إِلٰهِي أَرِنِي مَا أَعْدَدْتَ لِي فِي الْجَنَّةِ، وَأَخْبِرْنِي بِمَا أَعْدَدْتَ لِي مِنَ الْحُورِ الْحِسَانِ، فَمَا ٱسْتَتَمَّ كَلَامَهُ حَتَّى ٱنْشَقَّ الْمِحْرَابُ فَخَرَجَتْ مِنْهُ حُورِيَّةٌ لَوْ خَرَجَتْ إِلَى أَهْلِ الدُّنْيَا لَفَتَنَتْهُمْ، فَقَالَ لَهَا: إِنْسِيَّةٌ أَنْتِ؟ فَأَنْشَأَتْ تَقُولُ:

شَكَوْتَ إِلَى الْمَوْلَى وَقَدْ عَلِمَ الشَّكْوَى — وَأَعْطَاكَ مَا تَرْجُو وَقَدْ كَشَفَ الْبَلْوَى
وَأَرْسَلَنِي أُنْسًا إِلَيْكَ وَإِنَّنِي — أُنَاجِيكَ طُولَ اللَّيْلِ لَوْ تَسْمَعُ النَّجْوَى

فَقالَ: يَا جَارِيَةُ، لِمَنْ أَنْتِ؟ قَالَتْ: أَنَا لَكَ، فَقَالَ: كَمْ لِي مِثْلُكِ؟ قالَتْ: مِائَةُ حُورِيَّةٍ، وَلِكُلِّ حُورِيَّةٍ مِائَةُ خَادِمَةٍ، ولِكُلِّ خَادِمَةٍ مِائَةُ وَصِيفَةٍ، وَلِكُلِّ وَصِيفَةٍ مِائَةُ قَهْرَمَانَةٍ، فَفَرِحَ وقالَ: يَا حُورِيَّةُ، هَلْ أُعْطِيَ أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنِّي؟ قالَتْ: يَا مِسْكِينُ، عَطَاؤُكَ عَطَاءُ الْبَطَّالِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ، ثُمَّ أَنْشَأَتْ تَقُولُ:

وَلَهُ خَصَائِصُ مُصْطَفُونَ بِحُبِّهِ — ٱخْتَارَهُمْ فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ
ٱخْتَارَهُمْ مِنْ قَبْلِ فِطْرَةِ خَلْقِهِ — فَهُمُ وَدَائِعُ حِكْمَةٍ وَبَيَانِ

اللَّهُمَّ هَبْ لَنَا مَا وَهَبْتَهُ لِعِبَادِكَ الْأَخْيَارِ، وَٱنْظِمْنَا فِي سِلْكِ الْمُقَرَّبِينَ وَالْأَبْرَارِ، وَآتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

اللَّهُمَّ وَفِّقْنَا تَوْفِيقًا يَقِينًا عَنْ مَعَاصِيكَ، وَأَرْشِدْنَا بِرُشْدِكَ حَتَّى تُقِيمَنَا عَلَى مَا يُرْضِيكَ، وَٱجْعَلْنَا مِمَّنْ تَوَكَّلَ عَلَيْكَ فَكَفَيْتَهُ، وَٱسْتَهْدَاكَ فَهَدَيْتَهُ، وَٱسْتَنْصَرَكَ فَنَصَرْتَهُ، وَتَضَرَّعَ إِلَيْكَ فَرَحِمْتَهُ، إِنَّكَ جَوَّادٌ كَرِيمٌ، رَءُوفٌ رَحِيمٌ.

اللَّهُمَّ ٱحْشُرْنَا فِي زُمْرَةِ السُّعَدَاءِ وَالْمُتَّقِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ، وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي الدِّينِ، وَلَا مِنْ رَحْمَتِكَ مَحْرُومِينَ، وَلَا عَنْ بَابِكَ مَطْرُودِينَ، وَٱغْفِرْ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءَ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الْعِشْرُون

فِي فَضْلِ الاعْتِكَافِ وَلُزُومِ الْمَسَاجِدِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَوْضَحَ سُبُلَ هِدَايَتِهِ لِأَرْبَابِ وَلَايَتِهِ وَأَبْهَجَ، وَحَرَّكَ أَهْلَ عِبَادَتِهِ إِلَى التَّوْبَةِ النَّصُوحِ وَأَزْعَجَ، وَأَبْدَى بَدَائِعَ قُدْرَتِهِ فِي مُحْكَمِ صَنْعَتِهِ وَأَخْرَجَ، وَيَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَأَيْنَ الَّذِي بِالْمُنَاجَاةِ وَالِاسْتِغْفَارِ يَلْهَجُ، لِيُجِيبَ الدَّعَوَاتِ، وَيَغْفِرَ الزَّلَّاتِ، وَيُعْطِي الْمَسْئُولَاتِ، وَهُوَ أَهْلُ الْكَرَمِ وَالسَّمَاحِ، الْغَنِيُّ الَّذِي مِنْ فَضْلِهِ الْعَطَايَا تُرْتَقَبُ، وَالْمَصَائِبُ فِي جَنْبِ أَجْرِهِ تُحْتَسَبُ، وَالْخَيْرَاتُ مِنْ نَيْلِهِ تُكْتَسَبُ، وَالْمُوَفِّقُ الَّذِي هَيَّأَ قُلُوبَ أَحْبَابِهِ لِلْإِيمَانِ وَكَتَبَ، وَحَلَّى لَهُمْ فِي طَاعَتِهِ التَّعَبَ وَالنَّصَبَ، وَهُوَ الْكَرِيمُ الْفَتَّاحُ، الْمُجْزِلُ لِمَنْ عَامَلَهُ جَزِيلَ الْأَرْبَاحِ، الَّذِي لَا يَخِيبُ مَنْ رَجَاهُ، وَلَا يَطْرُدُ مَنْ عَصَاهُ إِذَا تَابَ مِمَّا جَنَاهُ، وَمَنْ قَرَعَ بَابَهُ أَجَابَ دُعَاهُ، وَعَلَى عَتَبَاتِ بَابِهِ يَزْدَحِمُ الطَّالِبُونَ لِنَيْلِ الْمَطَالِبِ وَالنَّجَاحِ. فَالِقُ الْإِصْبَاحِ، وَخَالِقُ الْأَرْوَاحِ، وَمُصَوِّرُ الْأَشْبَاحِ، وَفِي بِحَارِ كَرَمِهِ تَجْرِي مَرَاكِبُ الْخَلْقِ لِاكْتِسَابِ الْأَرْبَاحِ، هُوَ الْمَعْرُوفُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، الْمُنْفَرِدُ بِحَقِيقَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ، وَالْعَالِمُ بِكُلِّ الْأَمْرِ خَفِيِّهِ وَجَلِيِّهِ، وَسَاتِرُ الْعَاصِي وَهُو إِلَيْهِ نَاظِرٌ، وَمُطَّلِعٌ عَلَى أَفْعَالِهِ الْقِبَاحِ.

فَسُبْحَانَهُ مِنْ مُسَبَّحٍ فِي الْآنَاءِ وَالْأَوْقَاتِ، وَالْغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ.

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا يَسَّرَ لَنَا مِنَ الْأُمُورِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى أَنْ قَبِلَ مِنَّا الْيَسِيرَ وَضَاعَفَ لَنَا الْأُجُورَ، وَأُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا صَرَفَ مِنَ الْمَكْرُوهِ وَأَزَاحَ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً أَسْتَفْتِحُ بِهَا بَابَ الْجَنَّةِ، فَهِيَ لَهُ مِفْتَاحٌ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَالصَّلَاحِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَخَصَّ مِنْهُمْ أَبَا بَكْرٍ صَاحِبَ الْمُخْتَارِ وَثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ، الَّذِي وَقَى الرَّسُولَ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ وَكَانَ ضَجِيعَهُ فِي الرَّمْسِ وَفَضَائِلُهُ جَلِيلَةٌ، وَهِيَ خَلِيَّةٌ مِنَ اللَّبْسِ. يَا عَجَبًا مَنْ يُغَطِّي عَيْنَ الشَّمْسِ فِي نِصْفِ النَّهَارِ. وَعَلَى عُمَرَ الْفَارُوقِ وَفَاتِحِ الْأَمْصَارِ، وَسَيْفَ اللَّهِ الْمَسْلُولِ عَلَى أَعْنَاقِ الْكُفَّارِ. وَعَلَى عُثْمَانَ ذِي النُّورَيْنِ وَشَهِيدَ الدَّارِ، وَعَلَى زَوْجِ الْبَتُولِ وَرَابِعِ الْخُلَفَاءِ الْمَشْهُودِ لَهُمْ فِي دَارِ الْقَرَارِ.

يَا وَيْحَ مَنْ طَعَنَ عَلَى الصَّحَابَةِ فَقَدْ بَاءَ بِالْخَسَارِ، وَغَضِبَ عَلَيْهِ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ، وَعَلَى جَمِيعِ الصَّحَابَةِ مِنَّا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مَا بَدَا نَجْمٌ وَلَاحَ، فَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾.

هَٰذِهِ الْآيَاتُ فِي ذِكْرِ الْمَسَاجِدِ الَّتِي هِيَ أَحَبُّ الْبِقَاعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْأَرْضِ، وَهِيَ بُيُوتُهُ الَّتِي يُعْبَدُ فِيهَا وَيُوَحَّدُ، وَفِيهَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِتَعَاهُدِهَا وَتَطْهِيرِهَا مِنَ الدَّنَسِ وَاللَّغْوِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي لَا تَلِيقُ بِهَا.

وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَىٰ هَٰؤُلَاءِ الرِّجَالَ بِأَنَّهُمْ فِي بُيُوتِهِ الَّتِي أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُتْلَى كِتَابُهُ، وَهَذَا فِيهِ إِشْعَارٌ بِهِمَمِهِمُ السَّامِيَةِ وَنِيَّاتِهِمْ

وَعَزَائِمِهِمُ الْعَالِيَةِ الَّتِي صَارُوا بِهَا عُمَّارًا لِلْمَسَاجِدِ، وَيُسَبِّحُونَ لَهُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ فِيهَا.

قالَ ٱبْنُ عبَّاسٍ أَيْضًا: الْمُرَادُ بِهِ صَلَاةُ الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ، وَٱمْتَدَحَهُمْ تَعالَىٰ بِأَنَّهُمْ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، أَيْ يُقَدِّمُونَ طَاعَتَهُ وَمُرَادَهُ وَمَحَبَّتَهُ، عَلَى مُرَادِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ.

قَالَ مَطَرٌ الْوَرَّاقُ: كَانُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ، وَلَٰكِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا سَمِعَ النِّدَاءَ وَمِيزَانُهُ فِي يَدِهِ خَفَضَهُ وَأَقْبَلَ إِلَى الصَّلَاةِ.

قَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ فِي فَضْلِ لُزُومِ الْمَسَاجِدِ وَبِنَائِهَا، وَالتَّرَدُّدِ إِلَيْهَا وَتَنْظِيفِهَا، فَنُشِيرُ إِلَى بَعْضِهَا لِلْفَائِدَةِ:

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ؛ ٱجْتَمَعَا عَلَى ذٰلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ ٱمْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسَاجِدَ فَٱشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ وَٱبْنُ مَاجَه وَغَيْرُهُمَا.

وَعَنْهُ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَلِفَ الْمَسْجِدَ أَلِفَهُ اللَّهُ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ.

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا قَدْرَ مِفْحَصِ قَطَاةٍ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ» رَوَاهُ الْبَزَّارُ وَٱبْنُ حِبَّانَ.

وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ ـ عِنْدَ قَوْلِ النَّاسِ فِيهِ ـ حِينَ بَنَى مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّكُمْ أَكْثَرْتُمْ عَلَيَّ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ».

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَشَى فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ إِلَى الْمَسْجِدِ لَقِيَ اللَّهَ بِنُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَفِي لَفْظِ ٱبْنِ حِبَّانَ قَالَ: «مَنْ مَشَى فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ إِلَى الْمَسَاجِدِ آتَاهُ اللَّهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَعَنْ بُرَيْدَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ عَنْ سَلْمَانَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَهُوَ زَائِرُ اللَّهِ وَحَقٌّ عَلَى الْمَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ زَائِرَهُ».

وَقَالَ ﷺ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَٱنْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذٰلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذٰلِكُمُ الرِّبَاطُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ.

وَعَنْ أَبِي قِرْصَافَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِخْرَاجُ الْقِمَامَةِ مِنَ الْمَسْجِدِ مُهُورُ الْحُورِ الْعِينِ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ.

وَأَخْرَجَ الْأَصْبَهَانِيُّ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَنْسُ الْمَسَاجِدِ مُهُورُ الْحُورِ الْعِينِ».

وَلَمَّا رَأَى ﷺ نُخَامَةً فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ تَغَيَّظَ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ حَكَّهَا، قَالَ الرَّاوِي: وَأَحْسَبُهُ قَالَ: فَدَعَا بِزَعْفَرَانٍ فَلَطَّخَهُ بِهِ، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ قِبَلَ وَجْهِ أَحَدِكُمْ إِذَا صَلَّى فَلَا يَبْصُقْ بَيْنَ يَدَيْهِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالْأَحَادِيثُ فِي هٰذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ.

فَمِمَّا تُصَانُ عَنْهُ الْمَسَاجِدُ الْقَاذُورَاتُ، كَالْبُصَاقِ وَالْمُخَاطِ فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِ.

وَمِمَّا تُصَانُ عَنْهُ الْمَسَاجِدُ الْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ وَرَفْعُ الْأَصْوَاتِ وَإِنْشَادُ الضَّالَّةِ، وَيُمْنَعُ مِنْهَا جُنُبٌ وَحَائِضٌ، فَلَا يَلْبَثَانِ بِغَيْرِ وُضُوءٍ.

وَتُصَانُ الْمَسَاجِدُ عَنِ الْخَوْضِ بِكَلَامٍ لَا فَائِدَةَ فِيهِ مِنْ فُضُولِ الْكَلَامِ وَحَدِيثِ الدُّنْيَا، وَعَنِ الصَّغِيرِ وَالْمَجْنُونِ، وَيَحْرُمُ التَّكَسُّبُ فِي جَمِيعِ الصِّنَاعَاتِ فِيهَا.

وَيُسْتَحَبُّ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ أَنْ يُقَدِّمَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى، وَيَقُولَ: بِسْمِ اللَّهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ ٱغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَٱفْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ إِنْ كانَ غَيْرَ وَقْتَ نَهْيٍ وَهُوَ عَلَى وُضُوءٍ، وَأَنْ يَشْتَغِلَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَالْقِرَاءَةِ وَالصَّلَاةِ، وَإِذَا خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ قالَ ذٰلِكَ، إِلَّا أَنَّهُ يَقُولُ: وَٱفْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ. وَمِنْ لُزُومِ الْمَسَاجِدِ الْاَعْتِكَافُ فِيهَا.

رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنِ ٱعْتَكَفَ عَشْرًا فِي رَمَضَانَ كَانَ كَحِجَّتَيْنِ وَعُمْرَتَيْنِ» رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ.

وَأَخْرَجَ هُوَ وَالطَّبَرَانِيُّ وَالْحَاكِمُ عَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قالَ: «مَنِ ٱعْتَكَفَ يَوْمًا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالىٰ جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ ثَلَاثَةَ خَنَادِقَ، أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ».

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ، ثُمَّ ٱعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ مِنْ بَعْدِهِ».

وَعَنْهَا رضي الله عنها قالَتْ: «السُّنَّةُ لِلْمُعْتَكِفِ أَلَّا يَعُودَ مَرِيضًا، وَلَا يَشْهَدَ جَنَازَةً، وَلَا يَمَسَّ ٱمْرَأَةً، وَلَا يُبَاشِرَهَا، وَلَا يَخْرُجَ لِحَاجَةٍ إِلَّا لِمَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ، وَلَا ٱعْتِكَافَ إِلَّا بِصَوْمٍ، وَلَا ٱعْتِكَافَ إِلَّا فِي مَسْجِدٍ جَامِعٍ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَآخِرُهُ مَوْقُوفٌ.

وَكَانَ ﷺ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ ﷻ، وتَرَكَهُ مَرَّةً فَقَضَاهُ فِي شَوَّالٍ، وَٱعْتَكَفَ مَرَّةً فِي الْعَشْرِ الْأُوَلِ، ثُمَّ الْوُسْطَى، ثُمَّ الْعَشْرِ الْأَخِيرَةِ يَلْتَمِسُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرَةِ، فَدَاوَمَ عَلَى ٱعْتِكَافِهِ حَتَّى لَحِقَ بِرَبِّهِ ﷻ، وَكَانَ يَأْمُرُ بِخِبَاءٍ فَيُضْرَبُ لَهُ فِي الْمَسْجِدِ يَخْلُو فِيهِ بِرَبِّهِ ﷻ.

إِخْوَانِي: سَارَ الْمُتَّقُونَ وَرَجَعْنَا، وَوَصَلُوا وَٱنْقَطَعْنَا، وَأَصَابُوا بِٱجْتِهَادِهِمْ وَبِالتَّفْرِيطِ أَخْطَأْنَا، وَنَجَوْا مِنْ حَبَائِلِ الشَّهَوَاتِ وَوَقَعْنَا. يَا نَائِمًا كَمْ هٰذَا الْهُجُوعُ، إِلَى مَتَى بِالْهَوَى هٰذَا الْوُلُوعُ، أَتَنْفَعُكَ وَقْتَ الْمَوْتِ الدُّرُوعُ، إِلَى مَتَى عَنْ زَخَارِفِ الدُّنْيَا لَا تُشَمِّرُ إِلَى النُّزُوعِ؟ فَمَلَكُ الْمَوْتِ إِذَا جَاءَ لَيْسَ بِمَمْنُوعٍ، هَيْهَاتَ لَا يَنْفَعُ فِيهِ الذُّلُّ وَلَا الْخُضُوعُ، وَلَيْسَ لَكَ شَافِعٌ وَلَا مَشْفُوعٌ. هَذَا وَمَلَكُ الْمَوْتِ يَسُلُّهَا مِنْ بَيْنِ الضُّلُوعِ، وَتَأَسَّفْتَ عَلَى مَالِكَ الْمَجْمُوعِ. شَقَّكَ سَهْمُ الْمَنُونِ وَمَا أَغْنَتِ الدُّرُوعُ. وَخَلَتْ مِنكَ الْمَسَاكِنُ وَفَرَغَتِ الرُّبُوعُ، وَتَمَنَّيْتَ الزِّيَادَةَ مِنَ السُّجُودِ وَالرُّكُوعِ. شِعْر:

يَا مَنْ يُجِيبُ دُعَا الْمُضْطَرِّ فِي الظُّلَمِ ... يَا كَاشِفَ الضُّرِّ وَالْبَلْوَى مَعَ السَّقَمِ
قَدْ نَامَ وَفْدُكَ حَوْلَ الْبَيْتِ وَٱنْتَبَهُوا ... وَأَنْتَ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ لَمْ تَنَمِ
هَبْ لِي بِجُودِكَ مَا أَخْطَأْتُ مِنْ جُرَمٍ ... يَا مَنْ إِلَيْهِ أَشَارَ الْخَلْقُ بِالْكَرَمِ
إِنْ كَانَ عَفْوُكَ لَمْ يَسْبِقْ لِمُجْتَرِمٍ ... فَمَنْ يَجُودُ عَلَى الْعَاصِينَ بِالنِّعَمِ؟

فَصْلٌ

قَالَ اللَّهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾، وقَالَ ﷻ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾، وقال ﷻ: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾.

عَنْ عِكْرِمَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾. قالَ: فِي ٱفْتِضَاضِ الْأَبْكَارِ.

وَعَنِ ٱبْنِ مَسْعُودٍ قالَ: شَغَلَهُمُ ٱفْتِضَاضُ الْعَذَارَى.

وَعَنْ أَنَسٍ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُعْطَى الْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ قُوَّةَ مِائَةٍ فِي الْجِمَاعِ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَصِلُ إِلَى نِسَائِنَا فِي الْجَنَّةِ؟ قالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصِلُ فِي الْيَوْمِ إِلَى مِائَةِ عَذْرَاءَ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَالْبَزَّارُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَعَنْهُ أَيْضًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: «أَنَطَأُ فِي الْجَنَّةِ؟ قالَ: نَعَمْ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ دَحْمًا دَحْمًا؛ فَإِذَا قَامَ عَنْهَا رَجَعَتْ مُطَهَّرَةً بِكْرًا».

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ لَقِيطِ بْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَامَ نَطَّلِعُ فِي الْجَنَّةِ؟ قالَ: عَلَى أَنْهَارٍ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، وَأَنْهَارٍ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهارٍ مِنْ كَأْسٍ مَا بِهَا صُدَاعٌ وَلَا نَدَامَةٌ، وَأَنْهَارٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَمَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَفَاكِهَةٍ لَعَمْرُ إِلٰهِكَ مِمَّا تَعْلَمُونَ وَخَيْرٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَأَزْوَاجٍ مُطَهَّرَةٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَنَا فِيهَا أَزْوَاجٌ مُصْلِحَاتٌ؟ قالَ: الصَّالِحَاتُ لِلصَّالِحِينَ، تَلَذُّونَ بِهِنَّ مِثْلَ لَذَّاتِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَيَلْذَذْنَ بِكُمْ غَيْرَ أَلَّا تَوَالُدَ».

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنهُ، وَالْبَيْهَقِيُّ وَأَبُو الشَّيْخِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ إِذَا ٱشْتَهَى الْوَلَدَ فِي الْجَنَّةِ كانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسِنُّهُ فِي سَاعَةٍ كَمَا يَشْتَهِي».

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُثْبِتُ الْحَمْلَ وَالْوِلَادَةَ فِي الْجَنَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْفِيهِ.

وَعَنِ الطَّبَرَانِيِّ «أَنَّهُ ﷺ سُئِلَ: هَلْ يَتَنَاكَحُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ قالَ: بِذَكَرٍ لَا يَمَلُّ وَشَهْوَةٍ لَا تَنْقَطِعُ دَحْمًا دَحْمًا».

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ شَهْوَتَهُ لَتَجْرِي فِي جَسَدِهَا سَبْعِينَ عَامًا يَجِدُ اللَّذَّةَ، وَلَا

يَلْحَقُهُمْ بِذٰلِكَ جَنَابَةٌ فَيَحْتَاجُونَ لِلتَّطْهِيرِ، وَلَا ضَعْفٌ وَلَا ٱنْحِلَالُ قُوَّةٍ، بَلْ وَطْؤُهُمْ وَطْءُ الْتِذَاذٍ وَنَعِيمٍ، لَا آفَةَ فِيهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَأَكْمَلُ النَّاسِ فِيهِ أَصْوَنُهُمْ لِنَفْسِهِ فِي هٰذِهِ الدَّارِ عَنِ الْحَرَامِ، فَمَنِ ٱسْتَوْفَى طَيِّبَاتِهِ وَلَذَّاتِهِ وَأَذْهَبَهَا فِي هٰذِهِ الدَّارِ حُرِمَهَا هُنَاكَ، كَمَا نَفَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى مَنْ أَذْهَبَ طَيِّبَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعَ بِهَا.

وَأَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ وَغَيْرُهُ عَنِ الشَّعْبِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾، قَالَ: «هُنَّ نِسَاءُ أَهْلِ الدُّنْيَا خَلَقَهُنَّ اللَّهُ فِي الْخَلْقِ الْآخَرِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾، لَمْ يَطْمِثْهُنَّ حِينَ عُدْنَ فِي الْخَلْقِ الآخَرِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ».

وَٱخْتُلِفَ هَلْ الْمُرَادُ بِذٰلِكَ نِسَاءُ الدُّنْيَا أَمِ الْحُورُ الْعِينُ؟

قَالَ فِي حَادِي الْأَرْوَاحِ: قُلْتُ: ظَاهِرُ الْقُرْآنِ أَنَّ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةُ لَسْنَ مِنْ نِسَاءِ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا هُنَّ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾، قَالَ: «يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ فِي خَدِّهَا أَصْفَى مِنَ الْمِرْآةِ، وَإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ عَلَيْهَا لَتُضِيءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَإِنَّه يَكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ ثَوْبًا يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ حَتَّى يَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ.

فَهَذَا نَعْتُ أَزْوَاجِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّمَا خُلِقْنَ لِأَقْوَامٍ كِرَامٍ، قَدْ أَدَامُوا الصِّيَامَ وَلَازَمُوا الْقِيَامَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾.

لِلَّهِ دَرُّ أَقْوَامٍ ٱمْتَثَلُوا مَا أُمِرُوا، وَزُجِرُوا عَنِ الزَّلَلِ فَٱنْزَجَرُوا، فَإِذَا لَاحَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا غَابُوا وَإِذَا بَانَتْ حَضَرُوا، فَلَوْ رَأَيْتَهُمْ فِي الْقِيَامَةِ إِذَا حُشِرُوا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

جَنَّ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ فَسَهِرُوا، وَطَالَعُوا صُحُفَ الذُّنُوبِ فَٱنْكَسَرُوا، وَطَرَقُوا

بابَ الْحَبِيبِ وَٱعْتَذَرُوا، وَبَالَغُوا فِي الْمَطْلُوبِ ثُمَّ حَذِرُوا، فَٱنْظُرُوا بِمَاذَا وُعِدُوا فِي الذِّكْرِ وَذُكِرُوا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

قُلُوبُهُمْ فِي الْخِدْمَةِ حَضَرَتْ، أَسْرَارُهُمْ بِالصِّدْقِ عُمِرَتْ، كَمْ شَهْوَةٍ فِي صُدُورِهِمْ ٱنْكَسَرَتْ، أَخْبَارُهُمْ تُحْيِ الْقُلُوبَ إِذَا نُشِرَتْ، وَيُقَالُ عَنِ الْقَوْمِ إِذَا نُشِرُوا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

جَدُّوا وَلَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يَلْعَبُ، وَرَفَضُوا الدُّنْيَا وَتَرَكُوهَا تَخْرَبُ، وَأَذَابُوا أَبْدَانَهُمْ بِقِلَّةِ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ، فَغَدًا يُقَالُ كُلْ يَا مَنْ لَمْ يَأْكُلْ، وَٱشْرَبْ يَا مَنْ لَمْ يَشْرَبْ، أَذْكَارُهُمْ فِي الْحَيَاةِ وَإِنْ قُبِرُوا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾

عَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَأَنَّ مَنْ وَافَقَ مُرَادَهَا أَضَرَّ دِينَهُ، فَحَقَرُوا غُرُورًا يَغُرُّ غَبِينَهُ، فَرَكِبُوا مِنَ التُّقَى سَفِينَةً قَدْ شَحَنُوهَا بِالزَّادِ وَعَبَرُوا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

طُوبَى لَهُمْ وَالْأَمْلَاكُ تَتَلَقَّاهُمْ، خَافُوا أَهْوَالَ الْقِيَامَةِ فَوَقَاهُمْ، وَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ ظَمْأَى فَسَقَاهُمْ، كَشَفَ الْحِجَابَ عَنْ قُلُوبِهِمْ فَأَرَاهُمْ، هَذَا وَالْحُورُ الْعِينُ فِي الْجَنَّاتِ تَتَلَقَّاهُمْ، فَيَا طُوبَى لَهُمْ قَدْ بَلَغُوا وَقَدْ ظَفِرُوا ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

شِعْر:

فَمَا لَكَ مَطْرُودٌ وَغَيْرُكَ مُزْلَفٌ ... وَتَسْعَى لِمَا تَهْوَى عَلَى غَيْرِ حَاصِلِ

فَهَلْ لَكَ سَهْمٌ فِي ٱغْتِنَامِ مَوَاسِمٍ ... بِهَا نَيْلُ أَرْبَاحٍ لِأَهْلِ الْفَضَائِلِ

اللَّهُمَّ يَا كَرِيمُ يَا جَوَادُ، يَا رَءُوفًا بِالْعِبَادِ، يَا مَنْ إِذَا وَعَدَ وَفَى، وَإِذَا أَوْعَدَ عَفَا وَجَادَ. نَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ، وَأَنْ تُعِيذَنَا مِنَ النَّارِ وَمَا يُقَرِّبُ إِلَيْهَا مِنَ الْأَعْمَالِ.

اللَّهُمَّ يَا ذَا الْكَرَمِ الْعَمِيمِ، وَالرُّكْنِ الْعَظِيمِ، نَسْأَلُكَ أَنْ تُدْخِلَنَا فِي جَنَّاتِ

النَّعِيمِ، وَتُمَتِّعَنَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَأَجْزِلْ مِنْ رِضْوَانِكَ حَظَّنَا، وَعَافِنَا وَٱعْفُ عَنَّا، وَٱغْفِرْ لِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ
فِي ذِكْرِ الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ وَفَضْلِ الاعْتِكَافِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ مُتَّصِفًا، وَبِآثَارِ رُبُوبِيَّتِهِ وَآلَائِهِ إِلَى عِبَادِهِ مُتَعَرِّفًا، وَأَحَاطَ عِلْمًا بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا ٱخْتَفَى، وَٱطَّلَعَ عَلَى الظَّوَاهِرِ وَالأَسْرَارِ، الْمَلِكِ الَّذِي تَفَرَّدَ بِالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَالْخَفْضِ وَالرَّفْعِ، وَالْوَصْلِ وَالْقَطْعِ، وَبِتَوْفِيقِهِ وَفَضْلِهِ فَازَ الأَبْرَارُ. ٱخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ خُلَاصَةً وَجَعَلَ حَظَّهُمْ لَدَيْهِ حَظًّا مَوْفُورًا، وَنَصَبَ أَقْدَامَهُمْ لِخِدْمَتِهِ، وَجَعَلَ وَقْتَهُمْ فِي الطَّاعَةِ مَعْمُورًا. وَالسَّعِيدُ مَنِ ٱسْتَقَامَ قَلْبُهُ عَلَى الْحَقِّ وَٱسْتَنَارَ، أَيْقَظَهُمْ مِنْ بَيْنِ النَّائِمِينَ، وَنَبَّهَهُمْ مِنْ بَيْنِ الرَّاقِدِينَ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْغَافِلِينَ فُرُوقًا لِأَهْلِ الاعْتِبَارِ، ٱسْتَعْذَبُوا مَا يُرْضِي الْحَبِيبَ، وَقَامُوا بِقَلْبٍ لِلْمَوْلَى مُنِيبٍ، يُرَاقِبُونَ رَبًّا جَلَّ أَنْ تُحِيطَ بِهِ الأَفْكَارُ.

فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلَهٍ تَفَرَّدَ بِالإِيجَادِ وَالاخْتِيَارِ، وَتَنَزَّهَ عَنْ مُشَابَهَةِ الأَغْيَارِ، وَتَوَحَّدَ بِالْبَقَاءِ عَلَى مَمَرِّ الزَّمَانِ وَتَوَالِي الأَعْصَارِ، الْمَلِكُ الْقَهَّارُ، الْعَظِيمُ الْجَبَّارُ، الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ، الَّذِي يَرْحَمُ مَنْ قَصَدَ جَنَابَهُ، وَيُقَرِّبُ أَوْلِيَاءَهُ وَأَحْبَابَهُ، وَيَفْتَحُ لِلتُّوَّابِ أَبْوَابَهُ، لِيَجْبُرَ الْكَسِيرَ، وَيُغْنِيَ الْفَقِيرَ، وَيَغْفِرَ الأَوْزَارَ.

أَحْمَدُهُ عَلَى جَزِيلِ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى سَوَابِغِ كَرَمِهِ وَٱمْتِنَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَسُلْطَانِهِ، شَهَادَةً أَدَّخِرُهَا لِيَوْمٍ لَا تَنْفَعُ فِيهِ الأَعْذَارُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارُ، نَبِيٌّ شَرَحَ اللَّهُ

صَدْرَهُ، ورَفَعَ لَهُ ذِكْرَهُ، وَوَضَعَ عَنْهُ وِزْرَهُ، وَجَعَلَ الذُّلَّ وَالصَّغَارَ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْبَرَرَةِ الْأَطْهَارِ، الْمُهَاجِرِينَ مِنْهُمْ وَالْأَنْصَارِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الآية، هَذِهِ مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ، وَشَهَادَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْإِيمانِ لِعُمَّارِ الْمَسَاجِدِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ المَسْجِدَ فاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ» وَالْمُرَادُ بِعِمَارَةِ الْمَسَاجِدِ عِمَارَتُهَا بِالذِّكْرِ وَالصَّلاَةِ وَالتَّوْحِيدِ، لاَ مُجَرَّدُ الْعِمَارَةِ بِالْبِنَاءِ مَعَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ.

فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قالَتْ: «كانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ الْمِئْزَرَ وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ أَحْيَا اللَّيْلَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَشَدَّ الْمِئْزَرَ».

وَلِمُسْلِمٍ عَنْهَا قالَتْ: «كانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مَا لاَ يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ».

كانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخُصُّ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ بِأَعْمَالٍ لاَ يَعْمَلُهَا فِي بَقِيَّةِ الشَّهْرِ. فَمِنْهَا: الاعْتِكافُ، فَإِنَّهُ كانَ يُدَاوِمُ عَلَيْهِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى، يَطْلُبُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَإِنَّمَا كانَ يَعْتَكِفُ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذِهِ الْعَشْرِ الَّتِي يَطْلُبُ فِيهَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ قَطْعًا لِاشْتِغَالِهِ، وَتَفْرِيغًا لِبَالِهِ، وَتَخَلِّيًا لِمُنَاجَاةِ رَبِّهِ، وَذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ.

وَكَانَ يَحْتَجِزُ حَصِيرًا يَتَخَلَّى فِيهَا عَنِ النَّاسِ فَلاَ يُخَالِطُهُمْ، وَلاَ يَشْتَغِلُ بِهِمْ، وَلِهَذَا ذَهَبَ إِمَامُ السُّنَّةِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ إِلَى أَنَّ الْمُعْتَكِفَ لاَ يُسْتَحَبُّ لَهُ مُخَالَطَةُ النَّاسِ، حَتَّى وَلاَ لِتَعْلِيمِ عِلْمٍ وَإِقْرَاءِ قُرْآنٍ، بَلِ الْأَفْضَلُ لَهُ الانْفِرَادُ بِنَفْسِهِ، وَالتَّخَلِّي بِمُنَاجَاةِ رَبِّهِ، وَذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ. وَهَذَا الاعْتِكَافُ هُوَ الْخَلْوَةُ الشَّرْعِيَّةُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ فِي الْمَسَاجِدِ، لِئَلَّا يَتْرُكَ بِهِ الْجُمَعَ وَالْجَماعَاتِ، فَإِنَّ الْخَلْوَةَ الْقَاطِعَةَ عَنِ الْجُمَعِ وَالْجَماعَاتِ مَنْهِيٌّ عَنْهَا.

وَسُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ رَجُلٍ يَصُومُ النَّهَارَ وَيُقومُ اللَّيْلَ وَلاَ يَشْهَدُ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ؟ فقَالَ: هُوَ فِي النَّارِ.

فالْخَلْوَةُ الْمَشْرُوعَةُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ هُوَ الاعْتِكافُ فِي الْمَسَاجِدِ، خُصُوصًا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، خُصُوصًا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْهُ، كَما كانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُهُ؛ فالمُعْتَكفُ قَدْ حَبَسَ نَفْسَهُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ، وَقَطَعَ عَنْ نَفْسِهِ كُلَّ شاغِلٍ يَشْغَلُهُ عَنْهُ، وَعَكَفَ بِقَلْبِهِ وَقالَبِهِ عَلَى رَبِّهِ وَمَا يُقَرِّبُهُ مِنْهُ، فَمَا بَقِيَ لَهُ هَمٌّ سِوَى اللَّهَ وَمَا يُرْضِيهِ عَنْهُ، كَما كَانَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ يَقُولُ فِي لَيْلِهِ: هَمُّكَ عَطَّلَ عَلَيَّ الْهُمُومَ، وَحَالَفَ بَيْنِي وَبَيْنَ السُّهَادِ. وَشَوقِي إِلَى النَّظَرِ إِلَيْكَ أَوْثَقَ مِنِّي اللَّذَّاتِ، وَحَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّهَوَاتِ.

فَمَعْنَى الاعْتِكافِ وَحَقِيقَتُهُ: قَطْعُ الْعَلائِقِ عَنِ الْخَلائِقِ لِلاتِّصَالِ بِخِدْمَةِ الْخَالِقِ، وَكُلَّما قَوِيَتِ الْمَعْرِفَةُ بِاللَّهِ وَالْمَحَبَّةُ لَهُ وَالْأُنْسُ بِهِ أَوْرَثَتْ صَاحِبَهَا الانْقِطَاعَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالْكُلِّيَّةِ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

كَانَ بَعْضُهُمْ لاَ يَزَالُ مُنْفَرِدًا فِي بَيْتِهِ خَالِيًا بِرَبِّهِ، فَقِيلَ لَهُ: أَمَا تَسْتَوْحِشُ؟ قالَ: كَيْفَ أَسْتَوْحِشُ؟ وَهُوَ يَقُولُ: أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي. شِعْر:

أَوْحَشَتْنِي خَلَوَاتِي ... بِكَ مِنْ كُلِّ أَنِيسِ
وَتَفَرَّدْتُ فَعَايَنْـ ... ـتُكَ بِالْغَيْبِ جَلِيسِي

فَهَذَا الْمُعْتَكِفُ قَدْ فَارَقَ الْخَلْقَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْخُلْوَةِ بِالْإِلٰهِ الْحَقِّ، وَتَخَلَّى عَنِ النَّاسِ طُرًّا إِلاَّ مَا كَانَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، كَمَا قِيلَ:

إِذَا مَا خَلَوتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلاَ تَقُلْ ... خَلَوْتُ، وَلَكِنْ قُلْ: عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً ... وَلاَ أَنَّ مَا يَخْفَى، عَلَيْهِ يَغِيبُ
لَهَوْنَا لَعَمْرُ اللَّهِ حَتَّى تَتَابَعَتْ ... ذُنُوبٌ عَلَى آثَارِهِنَّ ذُنُوبُ
فَيا لَيْتَ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ مَا مَضَى ... وَيَأْذَنُ فِي تَوْبَاتِنَا فَنَتُوبُ
وَإِنَّ امْرَأً قَدْ سَارَ خَمْسِينَ حِجَّةً ... إِلَى مَنْهَلٍ مِنْ وِرْدِهِ لَقَرِيبُ

نَسِيبُكَ مَنْ نَاجَاكَ بِالْوُدِّ قَلْبُهُ ... وَلَيْسَ لِمَنْ تَحْتَ التُّرَابِ نَسِيبُ

فَأَحْسِنْ جَزَاءً مَا اجْتَهَدْتَ، فَإِنَّمَا ... بِقَرْضِكَ تُجْزَى وَالْقُرُوضُ ضُرُوبُ

وَلِنَذْكُرْ شَيْئًا مِنْ أَسْرَارِ الاعْتِكَافِ، وَهَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في الاعْتِكَافِ:

لَمَّا كَانَ صَلاَحُ الْقَلْبِ وَاسْتِقَامَتُهُ عَلَى طَرِيقِ سَيْرِهِ إِلَى اللَّهِ تعالَى مُتَوَقِّفًا عَلَى جَمْعِيَّتِهِ عَلَى اللَّهِ، وَلَمِّ شَعْثِهِ بِإِقْبالِهِ بِالْكُلِّيَّةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ شَعَثَ الْقَلْبِ لاَ يَلُمُّهُ إِلَّا الإِقْبَالُ عَلَى اللَّهِ، وَكَانَ فُضُولُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَفُضُولُ مُخَالَطَةِ الأَنامِ، وَفُضُولُ الْكَلاَمِ، وَفُضُولُ الْمَنَامِ مِمَّا يَزِيدُهُ شَعَثًا، وَيُشَتِّتُهُ فِي كُلِّ وَادٍ، وَيَقْطَعُهُ عَنْ سَيْرِهِ إِلَى اللَّهِ، أَوْ يُضْعِفُهُ أَوْ يُعَوِّقُهُ، اقْتَضَتْ رَحْمَةُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ بِعِبَادِهِ أَنْ شَرَعَ لَهُمُ الصَّوْمَ. وَتَقَدَّمَ أَسْرَارُ الصَّوْمِ. وَشَرَعَ لَهُمْ الاعْتِكافَ الَّذِي مَقْصُودُهُ وَرُوحُهُ عُكُوفُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَجَمْعِيَّتُهُ عَلَيْهِ وَالْخَلْوَةُ بِهِ، والانْقِطَاعُ عَنْ الاشْتِغَالِ بِالْخَلْقِ، والاشْتِغَالُ بِهِ وَحْدَهُ، بِحَيْثُ يَصِيرُ ذِكْرُهُ وَحُبُّهُ وَالإِقْبَالُ عَلَيْهِ فِي مَحَلِّ هُمُومِ الْقَلْبِ وَخَطَرَاتِهِ، فَيَسْتَوْلِي عَلَيْهِ بَدَلَهَا وَيَصِيرُ الْهَمُّ بِهِ كُلُّهُ، وَالْخَطَرَاتُ كُلُّهَا بِذِكْرِهِ وَالْفِكْرَةُ فِي تَحْصِيلِ مَرَاضِيهِ وَمَا يُقَرِّبُ مِنْهُ، فَيَكُونُ أُنْسُهُ بِاللَّهِ بَدَلاً مِنْ أُنْسِهِ بِالْخَلْقِ؛ فَيُعِدُّ ذَلِكَ لِأُنْسِهِ بِهِ يَوْمَ الْوَحْشَةِ فِي الْقُبُورِ حِينَ لاَ أَنِيسَ لَهُ، وَلاَ مَا يُفَرِّجُ بِهِ سِوَاهُ.

فَهَذَا مَقْصُودُ الاعْتِكافِ الأَعْظَمُ؛ فَكَانَ ﷺ إِذَا أَرَادَ الاعْتِكافَ يَأْمُرُ بِخَبَاءٍ فَيُضْرَبُ لَهُ فِي الْمَسْجِدِ يَخْلُو فِيهِ بِرَبِّهِ ﷻ، فَإِذَا صَلَّى الْفَجْرَ دَخَلَهُ، وَاعْتَكَفَ فِي الْعَامِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ عِشْرِينَ يَوْمًا. وَكَان إِذَا اعْتَكَفَ دَخَلَ قُبَّتَهُ وَحْدَهُ. وَكَانَ لاَ يَدْخُلُ بَيْتَهُ فِي حَالِ اعْتِكَافِهِ إِلاَّ لِحَاجَةِ الإِنْسَانِ، وَكَانَ يُخْرِجُ رَأْسَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ فَتُرَجِّلُهُ وَتَغْسِلُهُ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، وَهِيَ حَائِضٌ، وَكَانَ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ تَزُورُهُ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ، فَإِذَا قَامَتْ تَذْهَبُ قَامَ مَعَهَا يُوَصِّلُهَا، وَذَلِكَ لَيْلًا.

وَلَمْ يُبَاشِرِ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ لاَ بِقُبْلَةٍ وَلاَ غَيْرِهَا، وَكَانَ إِذَا اعْتَكَفَ طُرِحَ لَهُ فِرَاشُهُ وَوُضِعَ لَهُ سَرِيرُهُ فِي مُعْتَكَفِهِ، وَكَانَ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ مَرَّ بِالْمَرِيضِ وَهُوَ عَلَى طَرِيقِهِ فَلا يَعُوجُ لَهُ إِلاَّ سَأَلَ عَنْهُ. وَاعْتَكَفَ مَرَّةً فِي قُبَّةٍ تُرْكِيَّةٍ وَجَعَلَ عَلَى سُدَّتِهَا حَصِيرًا. كُلُّ هَذَا تَحْصِيلٌ لِمَقْصُودِ الاعِتكَافِ وَوَجْهِهِ، عَكْسَ مَا يَفْعَلُهُ الْجُهَّالُ مِن اتِّخَاذِ الْمُعْتَكِفِ مَوْضِعَ عِشْرَةٍ وَمَجْلَبَةٍ لِلزَّائِرِينَ، وَأَخْذِهِمْ بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَهُمْ. فَهَذَا لَوْنٌ، والاعْتِكَافُ النَّبَوِيُّ لَوْنٌ، وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ.

فَهَذَا هَدْيُهُ ﷺ وَسُنَّتُهُ فِي الاعْتِكَافِ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

وَقِيلَ:

فَلاَ تَشْتَغِلْ إِلاَّ بِمَا يُكْسِبُ الْعُلاَ ... وَلاَ تَرْضَ لِلنَّفْسِ النَّفِيسَةِ بِالرَّدِي
وَفِي خُلْوَةِ الْإِنْسَانِ بِالْعِلْمِ أُنْسُهُ ... وَيَسْلَمُ دِينُ الْمَرْءِ عِنْدَ التَّوَحُّدِ
وَيَسْلَمُ مِنْ قَالٍ وَقِيلَ وَمِنْ أَذَى ... جَلِيسٍ وَمِنْ وَاشٍ بِغَيْظٍ وَحُسَّدِ
وَخَيْرُ مَقَامٍ قُمْتَ فِيهِ وَحِلْيَةٍ ... تَحَلَّيْتَهَا: ذِكْرُ الْإِلهِ بِمَسْجِدِ

فَصْلٌ

وَمِنْهَا: إِحْيَاءُ اللَّيْلِ. فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْيِي لَيَالِيَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ.

وَقَالَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ لَمَّا ذَكَرَ رَمَضَانَ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ.

وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ صِيَامَ رَمَضَانَ وَسَنَنْتُ لَكُم قِيَامَهُ، فَمَنْ صَامَهُ وَقَامَهُ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرَغِّبُ

فِي قِيامِ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِعَزِيمَةٍ، ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ قامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

وَإِحْيَاءُ اللَّيْلِ يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ: إِحْيَاءُ اللَّيْلِ كُلِّهِ؛ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ مِنْ وَجْهٍ ضَعِيفٍ، وَفِيهِ: «وَأَحْيَا اللَّيْلَ كُلَّهُ» وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِإِحْيَاءِ اللَّيْلِ: إِحْيَاءُ غَالِبِهِ، فَقَدْ فَسَّرَهُ بَعْضُهُمْ بِإِحْيَاءِ نِصْفِ اللَّيْلِ، وَقَالَ: مَنْ أَحْيَا نِصْفَ اللَّيْلَ فَقَدْ أَحْيَا اللَّيْلَ. وَذَكَرَ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ: أَنَّهُ تَحْصُلُ فَضِيلَةُ الْإِحْيَاءِ بِمُعْظَمِ اللَّيْلِ.

وَكَان ﷺ يُوقِظُ أَهْلَهُ لِلصَّلاَةِ فِي لَيَالِي الْعَشْرِ، دُونَ غَيْرِهَا مِنَ اللَّيَالِي. وَفِي حَديثِ أَبِي ذَرٍّ: «أَنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا قَامَ لَيْلَةَ ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ، وَخَمْسٍ وَعِشْرِينَ، وَسَبْعٍ وَعِشْرينَ، ذَكَرَ أَنَّهُ دَعَا أَهْلَهُ وَنِسَاءَهُ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ».

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يُوقِظُ أَهْلَهُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ يُطِيقُ الصَّلاَةَ».

وَقَال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «أَحَبُّ إِلَيَّ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ الْأَواخِرُ، أَنْ يَتَهَجَّدَ بِاللَّيْلِ وَيَجْتَهِدَ فِيهِ، وَيُنْهِضَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ إِلَى الصَّلاَةِ إِنْ أَطَاقُوا ذَلِكَ».

فاعْلَمْ أَنَّهُ يَجْتَمِعُ لِلْمُؤْمِنِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ جِهَادَانِ لِنَفْسِهِ: جِهَادٌ بِالنَّهَارِ عَلَى الصِّيَامِ، وَجِهَادٌ بِاللَّيْلِ عَلَى الْقِيَامِ؛ فَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْجِهَادَيْنِ، وَوَفَّى بِحُقُوقِهِما وَصَبَرَ عَلَيْهِمَا وُفِّيَ أَجْرَهُ بِغَيْرِ حِسَابٍ؛ فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي الْمُبَارَكَةِ فِي الْقِيَامِ وَالْقِرَاءَةِ وَالدُّعَاءِ؛ فَهَذِهِ عَادَةُ السَّلَفِ فِي كُلِّ الأَزْمَانِ، لاَ سِيَّمَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، لاَ سِيَّمَا فِي هَذِهِ الْعَشْرِ.

يَا مَنْ طَلَعَ فَجْرُ شَيْبِهِ بَعْدَ بُلُوغِ الْأَرْبَعِينَ، يَا مَنْ مَضَى عَلَيْهِ بَعْدَ ذلكَ لَيالِي عَشْرِ سِنِينَ حَتَّى بَلَغَ الْخَمْسِينَ، يَا مَنْ هُوَ فِي مُعْتَرَكِ الْمَنَايَا مَا بَيْنَ السِّتِّينَ وَالسَّبْعِينَ. مَا تَنْتَظِرُ بَعْدَ هَذَا الخَبَرِ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيكَ الْيَقِينُ؟ يَا مَنْ ذُنُوبُهُ بِعَدَدِ الشَّفْعِ وَالوَتْرِ أَمَا تَسْتَحِي مِنَ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ؟ أَمْ أَنْتَ مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ؟ يَا مَنْ ظُلْمَةُ قَلْبِهِ كاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ أَمَا آنَ لِقَلْبِكَ أَنْ يَسْتَنِيرَ أَوْ يَلِينَ؟

تَعَرَّضْ لِنَفَحَاتِ مَوْلاَكَ فِي هَذِه الْعَشْرِ، فَإِنَّ فِيهَا للَّهِ نَفَحَاتٍ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ، فَمَنْ أَصَابَتْهُ سَعِدَ بِها آخِرَ الدَّهْرِ.

كانَ بَعْضُ السَّلَفِ الصَّالِحِ يُصَلِّي كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ رَكْعَةٍ حَتَّى أُقْعِدَ مِنْ رِجْلَيْهِ، فَكَان يُصَلِّي أَلْفَ رَكْعَةٍ جَالِسًا، فَإِذَا صَلَّى الْعَصْرَ جَثَا وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَهُوَ يَقُولُ: عَجِبْتُ لِلْخَلِيقَةِ كَيْفَ أَنِسَتْ بِسِوَاكَ؟ بَلْ عَجِبْتُ لِلْخَلِيقَةِ كَيْفَ اسْتَنَارَتْ قُلُوبُهَا بِذِكْرِ سِوَاكَ.

وَكَان عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ يَمُرُّ بِالآيَةِ فِي وِرْدِهِ بِاللَّيْلِ فَتَخْنُقُهُ الْعَبْرَةُ فَيَبقَى فِي الْبَيْتِ أَيَّامًا وَيُعَادُ يَحْسَبُونَهُ مَرِيضًا. وَكَانَ فِي وَجْهِهِ ﷺ خَطَّانِ أَسْوَدَانِ مِنَ الْبُكَاءِ. وَقَرَأَ مَرَّةً قَوْلَهُ تَعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ فَبَكَى، واشْتَدَّ بُكَاؤُهُ حَتَّى مَرِضَ فَعَادُوهُ.

وَلَمَّا تَعَبَّدَ عُتْبَةُ الْغُلاَمُ كانَ لا يَتَهَنَّأُ بِطَعَامٍ وَلاَ بِشَرابٍ. فَقالَتْ لَهُ أُمُّهُ: يا بُنَيَّ ارْفُقْ بِنَفْسِكَ. فَقَالَ: الرِّفْقَ أَطْلُبُ، دَعِينِي أَتْعَبُ قَلِيلًا وَأَتَنَعَّمُ طَوِيلًا.

وَكَانَتْ مُعَاذَةُ الْعَدَوِيَّةُ تُحْيِ اللَّيْلَ كُلَّهُ، فَإِذَا غَلَبَ عَلَيْهَا النَّوْمُ تَقُولُ: يا نَفْسُ أَمَامَكِ وَلَوْ مِتِّ لَطَالَتْ رَقْدَتُكِ عَلَى حَسْرَةٍ أَوْ سُرُورٍ.

وَكَانَ لابْنِ سِيرِينَ ابْنَةٌ تَعَبَّدَتْ، فَأَقَامَتْ فِي مُصَلَّاهَا خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً لاَ تَخْرُجُ إِلَّا لِلْوُضُوءِ.

وَقالَ يَحْيَى بْنُ بِسْطَام: دَخَلْنَا عَلَى شَعْوَانَةَ نَأْمُرُهَا أَنْ تَرْفُقَ بِنَفْسِهَا وَنلُومُها فِي كَثْرَةِ بُكَائِها. فَبَكَتْ. ثُمَّ قَالَتْ: وَاللَّهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّى أَبْكِي حَتَّى يَنْفَدَ دَمْعِي، ثُمَّ أَبْكِي دَمًا حَتَّى لَمْ يَبْقَ قَطْرَةُ دَمٍ فِي جَارِحَةٍ مِنْ جَوارِحِي، وَأَنَّى لِي بِالْبُكَاءِ؟ فَلَمْ تَزَلْ تَقُولُ: وَأَنَّى لِي بِالْبُكَاءِ؟ حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا.

فِللَّهِ دَرُّهُمْ مِنْ أَقْوَامٍ تَصَوَّرُوا مَآلَهُمْ، وَاسْتَقَلُّوا أَعْمَالَهُمْ، وَبَكَوْا عَلَى نُفُوسِهِمْ كَأَنَّ النَّارَ لَمْ تُخْلَقْ إلاَّ لَهُمْ ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ وَبِالْبُكاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ يَضِجُّونَ. وَلِأَقْدَامِهِمْ إِذَا هَجَعَ الأَنَامُ

يَنْصِبُونَ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجِبَاهِ يُرَاوِحُونَ: تَعِبُوا قَلِيلًا وَاسْتَرَاحُوا كَثِيرًا، وَتَبَوَّءُوا مِنْ رِيَاضِ الرِّضَا مَقِيلًا. وَالْبَائِسُ الْمِسْكِينُ مَنْ لَمْ يَجِدْ إِلَى لِحَاقِهِمْ سَبِيلًا. وَالْمَغْبُونُ مَنْ رَضِيَ بِحَظِّهِ الْعَاجِلِ بَدِيلًا، يا مَنْحُوسَ الْحَظِّ قِفْ بِالْبَابِ طَوِيلًا، ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ وَاتَّخِذْ فِي هَذَا الشَّهْرِ إِلَى رَبِّكَ الْحَبِيبِ سَبِيلًا، وَأَلِحَّ عَلَى الْمَوْلَى فِي خَلَوَاتِكَ، فَإِنَّكَ لاَ تَسْأَلُ بَخِيلًا. ونادِ إِلٰهًا لَمْ يَزَلْ مُتفضِّلًا جَلِيلًا، وَقُلْ إِلٰهِي، أَنْتَ الْكَرِيمُ، وَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاكَ باطِلٌ، إِلَيْكَ رَغِبَ الْقَاصِدُونَ بِرَفْعِ الْمَسَائِلِ. وَأَناخُوا بِبابِكَ يَنْتَظِرُونَ عَطَاياكَ الْجَزَائِلَ. وَقَدِ اتَّخَذُوا صَالِحَ الْأَعْمَالِ إِلَيْكَ وَسَائِلَ. وَهَا أَنا عَبْدُكَ خَاضِعٌ وَسَائِلٌ، وَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي أَنْتَظِرُ الْوَصَائِلَ، وَأَكْتَسِبُ لِنَيْلِ الْعَفْوِ وَالْفَضَائِلِ، وَلَيْسَ مِنْ عَادَتِكَ أَنْ تَرُدَّ السَّائِلَ.

إِلٰهِي، فِيكَ تَوَلَّهَ الْقَاصِدُونَ، وَوَثِقَ بِعَفْوِكَ الْمُذْنِبُونَ، وَعَكَفَتْ بِبَابِكَ آمَالُ الْمُؤَمِّلِينَ، وَخَرَقَتْ سَبْعَ الطِّبَاقِ دَعَواتُ التَّائِبِينَ.

أَجَلُّ ذُنُوبِي عِنْدَ عَفْوِكَ سَيِّدِي	حَقِيرٌ وَإِنْ كَانَتْ ذُنُوبِي عَظَائِمَا
فَمَا زِلْتَ غَفَّارًا وَمَا زِلْتَ رَاحِمًا	وَمَا زِلْتَ سَتَّارًا عَلَيَّ الْجَرَائِمَا
لَئِنْ كُنْتُ قَدْ تَابَعْتُ جَهْلِي فِي الْهَوَى	وَقَضَّيْتُ أَوْتَارَ الْبِطَالَةِ هَائِمَا
فَهَا أَنَا قَدْ أَقْرَرْتُ يا رَبِّ بِالَّذِي	جَنَيْتُ وَقَدْ أَصْبَحْتُ حَيْرَانَ نَادِمَا
فَتُبْ وَاعْفُ عَنِّي يا إِلٰهِي تَكَرُّمًا	وَكُنْ بِي يا رَبَّ الْبَرِيَّةِ رَاحِمَا

اللَّهُمَّ يا حَبِيبَ كُلِّ غَرِيبٍ، ويا أَنِيسَ كُلِّ كَئِيبٍ، ارْحَمْنَا إِذَا قُمْنَا مِنَ الْقُبُورِ، وَسَكِّنْ رُعْبَنَا يَوْمَ الْحَشْرِ وَالنُّشُورِ، فَأَيُّ مُنْقَطِعٍ إِلَيْكَ فَلَمْ تَصِلْهُ، وَأَيُّ دَاعٍ دَعَاكَ فَلَمْ تُجِبْهُ، فَأَنْتَ الَّذِي دَلَلْتَ بِجُودِكَ عَلَيْكَ، وَأَطْلَقْتَ أَلْسِنَةَ السَّائِلِينَ بِالسُّؤَالِ لَدَيْكَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا عَلَى الصِّرَاطِ مِنَ الْعَابِرِينَ، وَعَلَى حَوْضِ نَبِيِّكَ مِنَ الْوَارِدِينَ، ولِكَأْسِهِ مِنَ الشَّارِبِينَ، وَأَعْطِنَا صَحَائِفَنا بِالْيَمِينِ، وَاجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ شَفَاعَةِ نَبِيِّكَ الْأَمِينِ.

اللَّهُمَّ أَعْطِ كلَّ سائِلٍ لَكَ مِنَ الْخَيْرِ مُرادَهُ، وَأَنِلْنا الْحُسْنَى وَالزِّيَادَةَ، وَامْحُ سَيئَاتِنا، وارْفَعْ دَرَجَاتِنا، وَثقِّلْ مِيزَانَ حَسَنَاتِنا، فَأَنْتَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ، وَأَجْوَدُ الْأَجْودِينَ، وَاغْفِرْ اللَّهُمَّ لَنا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

هَذِهِ فُصُولُ قِيامِ اللَّيْلِ

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

وَفِيهِ فَصْلٌ

الْحَمْدُ للَّهِ الْمُتوحِّدِ فِي جَلاَلِ الْبَهاءِ، الْمُتَعَالِي عَنِ الزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ، الْعَلِيمِ بِجَمِيعِ الْأَشْياءِ، الَّذِي جلَّ عَنِ الابْتِدَاءِ وَالانْتِهاءِ. السَّمِيعُ الَّذِي لاَ تَشْتَبِهُ عَلَيْهِ الْأَصْوَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ بالدُّعَاءِ. الْبَصِيرُ الَّذِي يُبْصِرُ دَبِيبَ النَّمْلِ عَلَى الرَّمْلِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْماءِ. الْعَلِيمُ الَّذِي لا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ. الْحَلِيمُ الَّذِي يُسْبِلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ جَمِيلَ السَّتْرِ وَالْغِطَاءِ، الْمُنْعِمُ عَلَى مَنِ اتَّقاهُ بِجَزِيلِ الْعَطَاءِ. الْحَكِيمُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ فِي جَوِّ الْهَوَاءِ. وَبَسَطَ الْأَرْضَ بِحِكْمَتِهِ عَلَى تَيَّارِ الْمَاءِ. الَّذِي تَعَالَى عَنِ الْأَضْدَادِ وَالْأَنْدَادِ وَالْقُرَناءِ. وَجَلَّ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْأَوْلاَدِ وَالشُّركاءِ، الْمُطَّلِعُ الَّذِي لاَ يَسْتَتِرُ عَنْهُ الضَّمِيرُ فِي جَمِيعِ الْأَوْقاتِ وَالآناءِ، وَلاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ.

شعر:

جَلَّ رَبٌّ أَحَاطَ بِالْأَشْيَاءِ ... وَاحِدٌ مَاجِدٌ بِغَيْرِ خَفَاءِ
جَلَّ عَنْ شِبْهِهِ لَهُ وَنَظِيرٍ ... وَتَعَالَى حَقًّا عَنِ الْقُرَناءِ
عَالِمُ السِّرِّ كاشِفُ الضُّرِّ يَعْفُو ... عَنْ قَبِيحِ الْأَفْعَالِ يَوْمَ الْجَزَاءِ
مَا عَلَى بابِهِ حِجَابٌ وَلَكِنْ ... هُوَ مِنْ خَلْقِهِ سَمِيعُ الدُّعَاءِ

لُـذْ بِـهِ أَيُّـهَـا الْـغَـفُـولُ وَبـادِرْ   تَـحْـظَ مِـنْ فَـضْـلِـهِ بِـنَـيـلِ الْـعَـطـاءِ

فَسُبْحَانَ مَنْ قَدَّرَ الأَزْمَانَ وَفصَّلَ الْفُصُولَ، وَأَغْرَقَ فِي بَحْرِ مَعْرِفَتِهِ الأفكَارَ وَالْعُقُولَ، وَحَيَّرَ فِي كُنْهِ ذَاتِهِ الأَفْهَامَ فَمَا لَهَا إِلَى مَعْرِفَةِ صَمَدِيَّتِهِ وُصُولٌ، وَخَصَّ شَهْرَ رَمَضَانَ بِالْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ، وَالْبِشْرِ وَالرِّضْوَانِ وَالسُّرُورِ وَالْقَبُولِ، وَوَعَدَ مَنْ صَامَهُ بِبُلُوغِ الْمَقْصُودِ وَالْمَأْمُولِ، فَطُوبَى لِمَنْ تَلَقَّاهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَطَهَّرَ فِيهِ الْجَوَارِحَ مِنَ الشَّكِّ وَالْغُلُولِ.

فانْتَبِهْ أَيُّهَا الْغَافِلُ مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ، وَبَادِرْ مَا دَامَ فِي الْوَقْتِ مُهْلَةٌ قَبْلَ مَسِيرِ الْقُفُولِ، قَدْ مَضَى الْعُمْرُ فَبادِرْ يا غَفُولُ، وَاذْكُرِ الرَّبَّ الَّذِي لَيْسَ يَزولُ. وَضَعِ الْخَدَّ عَلَى بَابِ الرَّجَاءِ وَابْكِ فِي اللَّيْلِ بِدَمْعٍ كالسُّيُولِ، وَاجْتَهِدْ فِي صَوْمِ ذَاكَ الشَّهْرِ عَسَى تَلْقَى فِيهِ مِنَ اللَّهِ الْقَبُولَ، وَاتَّبِعْ خَيْرَ سَبِيلٍ وَاقْتَدِ بِالنَّبِيِّ الْمُصْطَفَى الْهَادِي الرَّسُولِ، فَعَلَيْهِ الإِلهُ صَلَّى كُلَّما تَرَدَّدَتِ الْكَوَاكِبُ بَيْنَ الطُّلُوعِ وَالأُفُولِ.

فَسُبْحَانَ مَنِ اخْتَصَّ أَقْوَامًا بِخِدْمَتِهِ، وَشَغَلَهُمْ بِمَحَبَّتِهِ، فَمَا لَهُمْ بِغَيْرِهِ اشْتِغَالٌ، صَامُوا عَنِ الشَّهَوَاتِ، فَمَحَا عَنْهُمُ السَّيِّئَاتِ، وَبَلَّغَهُمُ الْمَقَاصِدَ وَالآمَالَ. أَعَانَهُمْ عَلَى الصِّيَامِ فَصَامُوا، وَأَقامَهُمْ فِي نِظَامٍ فَقَامُوا إِلَى خِدْمَتِهِ فِي اللَّيَالِي الطِّوَالِ، سَمِعُوا فِي صَحِيحِ السُّنَّةِ «أَنَّ الصَّوْمَ جُنَّةٌ» فَحَمَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْ قَبِيحِ الْفِعْلِ وَالْمَقَالِ.

فَيا سَعَادَةَ مَنْ قُبِلَتْ مِنْهُ فِي شَهْرِهِ الأَعْمَالُ، وَيَا شَقَاوَةَ مَنْ فَرَّطَ فِي صِيَامِهِ بِالإِهْمَالِ، وَلَمْ يَحْظَ فِي شَهْرِهِ بِفِطْرِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحَلاَلِ، وَلَمْ يَزَلْ مُنْكَبًّا عَنِ الطَّرِيقِ، مُكِبًّا عَلَى مَا لاَ يَلِيقُ، مِنْ قَبِيحِ الْخِلاَلِ. اسْمَعْ يَا مَنْ هَذِهِ صِفَاتُهُ وَقَدْ قَرُبَتْ وَفاتُهُ، وَهُوَ لاَعِبٌ بَطَّالٌ، يَا مَنْ عُمْرُهُ طَالَ، إِلَى كَمْ أَنْتَ بَطَّالٌ؟ جَمِيعَ الدَّهْرِ نَقَّالٌ، عَلَى ظَهْرِكَ أَثْقَالٌ، تُبارِزُ بِالْمَعَاصِي، وَعَنَّا أَنْتَ قاصِي، وَتَدْعُو بِالْخَلاَصِ، وَمَا عِنْدَكَ إِقْبَالٌ، إِلَى الْغِيْبَةِ تَرْتَاحُ، وَمَا عِنْدَكَ

إِصْلَاحٌ، وَمَا يُرْضِيكَ يَا صَاحِ، سِوَى قَدْ قِيلَ وَقَالَ، تَمُدُّ الطَّرْفَ فِي الصَّوْمِ، وَلاَ تَخْشَى مِنَ اللَّوْمِ، لِيُكْتَبَ عَلَيْكَ فِي اللَّيْلِ وَالْيَوْمِ أَفْعالٌ. فَتُبْ فِي هَذَا الشَّهْرِ كَيْ تَحْظَى، وَكَمِّلْ صَوْمَهُ فَرْضًا، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَرْضَى، وَتَصْلُحَ مِنْكَ أَحَوالٌ.

فَسُبْحَانَ مَنْ أَيْقَظَ بِتَوْفِيقه أَقْوَامًا عَنْ لَذِيذِ الرُّقَادِ، وَشَغَلَهُمْ بِخِدْمَتِهِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْعِبَادِ، يُناجُونَ مَوْلاَهُمْ إِذَا هَجَعَ النَّائِمُونَ، وَيَرْفَعُونَ حَوَائِجَهُمْ إِذَا غَفَلَ الْغَافِلُونَ، فَأَنَالَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ مَا يَطْلُبُونَ، وَلَذَّذَهُمْ بِخَلْوَةِ مُنَاجَاتِهِ إِذَا قامُوا يَتَهَجَّدُونَ، عَلِمُوا أَنَّ الرِّبْحَ فِي مُعَامَلاَتِهِ فَهُمْ مَعَهُ يُتَاجِرُونَ، وَبَانَتْ لَهُمْ أَعْلاَمُ جَنَّتِهِ فَقامُوا إِلَيْهَا يُشَمِّرُونَ.

فَسُبْحَانَ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ، الَّذِي امْتَنَّ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِتَمامِ إِحْسَانِهِ، وَجَادَ عَلَيْهَا بِفَضْلِهِ الْوَافِرِ وَامْتِنَانِهِ. وَجَعلَ شَهْرَهَا مَخْصُوصًا بِعَفْوِهِ وَغُفْرَانِهِ، وَعِتْقِهِ مِنْ نِيرَانِهِ.

أَحْمَدُهُ عَلَى صُنُوفِ الإِنْعَامِ وَالإِحْسَانِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً خَفِيفَةً عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَةً فِي الْمِيزَانِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ سَيِّدُ الْأَكْوَانِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلى أَصْحَابِهِ وَذُرِّيَّتِهِ والتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

قالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾.

رُوِيَ عَنِ ابْن عُمَرَ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ: ذَاكَ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ رضي الله عنه.

إِنَّما قالَ ابْنُ عُمَرَ ذَلِكَ لِكَثْرَةِ صَلاَةِ أَمِيرِ الْمُؤمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ بِاللَّيْلِ وَقِرَاءَتِهِ، حَتَّى إِنَّهُ رُبَّما قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي رَكْعَةٍ. وَفِي هَذَا مَدْحٌ لِمَنْ كانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ.

قالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أيُّ صَلاَةِ اللَّيْلِ أَفْضَلُ؟ قالَ: نِصْفُ اللَّيْلِ، وَقَلِيلٌ فاعِلُهُ».

وَقالَ دَاوُدُ عليه السلام: يا رَبِّ، أيُّ سَاعَةٍ أَقُومُ لَكَ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يا دَاوُدُ لاَ تَقُمْ أَوَّلَ اللَّيْلِ وَلاَ آخِرَهُ، وَلَكِنْ قُمْ فِي شَطْرِ اللَّيْلِ حَتَّى تَخْلُوَ بِي وَأَخْلُوَ بِكَ وَارْفَعْ إِلَيَّ حَوَائِجَكَ.

فَيَنْبَغِي لِلْمُوَفَّقِ الَّذِي يَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ وَيَخَافُ مِنْ أَهْوَالِ الآخِرَةِ أَنْ لاَ تَفُوتَهُ هَذِهِ الْغَنَائِمُ، خُصُوصًا لَيالِي الْعَشْرِ الأَواخِرِ مِنْ رَمَضَانَ الَّذِي صِيَامُهُ رُكْنٌ مِنْ أَرْكانِ الإِسْلاَمِ، وَقِيامُهُ سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ.

وَكَان ﷺ يُطِيلُ قِيامَ اللَّيْلَ فِي رَمَضَانَ وَكَانَ يَفْتَتِحُ صَلاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ بِهَذَا الاسْتِفْتَاحِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ ومِيكائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وَقَامَ مَعَهُ حُذَيْفَةُ لَيْلَةً فِي رَمَضَانَ، فَقَرأَ بِالْبَقَرَةِ ثُمَّ آلِ عِمْرَانَ، لاَ يَمُرُّ بِآيَةِ تَخْوِيفٍ إِلَّا وَقَفَ يَتَعَوَّذُ، وَلاَ يَمُرُّ بِآيَةِ تَبْشِيرٍ إِلَّا وَقَفَ يَسْأَلُ. فَمَا صَلَّى الرَّكْعَتَيْنِ حَتَّى جَاءَهُ بِلالٌ فَأَذِنَهُ بِالصَّلاَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ لِلصِّيَامِ وَالْقِيَامِ آدَابًا.

فَآدَابُ الصِّيَامِ يَجْمَعُهَا: حِفْظُ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ، وَحِرَاسَةُ الْخَوَاطِرِ الْبَاطِنَةِ.

فَيَنْبَغِي أَنْ يُتَلَقَّى رَمَضَانُ بِتَوْبَةٍ صَادِقَةٍ وَطَاعَةٍ وَعَزِيمَةٍ مُوَافِقَةٍ. وَلاَ بُدَّ مِنْ مُلاَزَمَةِ الصَّمْتِ عَنِ الْكَلاَمِ الْفَاحِشِ وَالْغِيبَةِ. فَإِنَّهُ مَا صَامَ مَنْ ظَلَّ يَأْكُلُ لُحُومَ النَّاسِ، وَلاَ بُدَّ مِنْ كَفِّ الْبَصَرِ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْحَرَامِ.

شِعْر:

حَقُّ شَهْرِ الصِّيَامِ شَيْئَانِ إِنْ كُنْـ ـتَ مِنَ الْمُوجِبِينَ حَقَّ الصِّيَامِ
تَقْطَعُ الصَّوْمَ فِي نَهَارِكَ بِالذِّكْـ ـرِ وَتُفْنِي ظَلاَمَهُ فِي الْقِيَامِ

وَمِنْ آدَابِ الْقِيَامِ: أَنْ يُخْلِصَ أَوَّلًا عَمَلَهُ للَّهِ، وَلاَ يَمْشِي عَلَى الْعَوَائِدِ، وَيُطِيلَ الْقِرَاءَةَ وَالرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ.

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ شَهْرَكُمْ هَذَا لاَ قِيمَةَ لَهُ، وَلاَ يُمْكِنُ اسْتِدْرَاكُ مَا ضَاعَ بالتَّفْرِيطِ.

فَيا أَيُّها الْمُحْسِنُ فِيمَا مَضَى عَلَى إِحْسَانِكَ فَدُمْ، وَيَا أَيُّهَا الْمُسِيءُ، وَبِّخْ نَفْسَكَ عَلَى التَّفْرِيطِ وَلُمْ. إِذَا خَسِرْتَ فِي هَذَا الشَّهْرِ فَمَتَى تَرْبَحُ؟ وَإِذَا لَمْ تُسَافِرْ فِيهِ نَحْوَ الْفَوَائِدِ فَمَتَى تَبْرَحُ؟

يَا هَذَا، إِنَّما شُرِعَ الصَّوْمُ لِيقَعَ التَّقَلُّلُ فَإِذَا اسْتَوْفَيْتَ الْعَشَاءَ تَكَدَّرَ اللَّيْلُ بِالنَّوْمِ، وَإِذَا اسْتَوْفَيْتَ السُّحُورَ ضَيَّعْتَ النَّهَارَ بِالكَسَلِ. وَمَا أَرَى رَمَضَانَ إِلَّا زَادَكَ شِبَعًا وَغَفْلَةً، تَاللَّهِ لَوْ قِيلَ لِأَهْلِ الْقُبُورِ: تَمَنَّوْا لَتَمَنَّوْا يَوْمًا مِنْ رَمَضَانَ وَأَنْتَ مُضَيِّعُهُ بِالتَّفْرِيطِ وَالكَسَلاَنِ.

كَانَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ يَقُولُ لِلنَّاسِ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَرَادَ سَفَرًا، أَلَيْسَ يَتَّخِذُ مِنَ الزَّادِ مَا يُصْلِحُهُ وَيُبَلِّغُهُ، قالُوا: بَلَى! قالَ: فَسَفَرُ طَرِيقِ الْقِيَامَةِ أَبْعَدُ، فَخُذُوا مَا يُصْلِحُكُمْ: حُجُّوا لِعَظَائِمِ الأُمُورِ، وَصُومُوا يَوْمًا شَدِيدًا حَرُّهُ لِحَرِّ يَوْمِ النُّشُورِ. صَلُّوا رَكْعَتَيْنِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ لِظُلْمَةِ الْقُبُورِ. تَصَدَّقُوا بِصَدَقَةِ السِّرِّ لِيَوْمٍ عَسِيرٍ».

وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فَضْلُ صَلاَةِ اللَّيْلِ عَلَى صَلاَةِ النَّهَارِ، وَأَنَّهَا أَقْرَبُ إِلَى الْإِخْلاَصِ وَأَشَدُّ مُوَاطَأَةً بَيْنَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَتَطْرُدُ الدَّاءَ عَنِ الْجَسَدِ وَتُخَفِّفُ الْحِسَابَ.

شِعْر:

أَدِمِ الصِّيَامَ مَعَ الْقِيَامِ تَعَبُّدًا ... فَكِلاَهُمَا عَمَلاَنِ مَقْبُولاَنِ

قُمْ فِي الدُّجَى وَاتْلُ الْكِتَابَ وَلاَ تَنَمْ ... إِلَّا كَنَوْمَةِ حَائِرٍ وَلْهَانِ

فَلَرُبَّمَا تَأْتِي الْمَنِيَّةُ بَغْتَةً ... فَتُسَاقُ مِنْ فَرْشٍ إِلَى أَكْفَانِ

يَا حَبَّذَا عَيْنَانِ فِي غَسَقِ الدُّجَى ... مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمٰنِ باكِيَتَانِ

فَاللَّهُ يَنْزِلُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ ... لِسَمَائِهِ الدُّنْيَا بِلاَ كِتْمَانِ

فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُجِيبَهُ؟ ... فَأَنَا الْقَرِيبُ أُجِيبُ مَنْ نَادَانِي

كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ لَيْسَ لَهُ فِرَاشٌ لِلنَّوْمِ. وَكَانَ لاَ يَنَامُ اللَّيْلَ وَسَمَّوْهُ: «الْوَتَدَ» لِكَثْرَةِ صَلاَتِهِ، وَصَلَّى الصُّبْحَ بِوُضُوءِ الْعِشَاءِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَكَانَ عَامَّةَ اللَّيْلِ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي رَكْعَةٍ، وَكَانَ يُسْمَعُ بُكاؤُهُ حَتَّى يَرْحَمَهُ جِيرانُهُ، وَخَتَمَ الْقُرْآنَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ سَبْعَةَ آلاَفِ مَرَّةٍ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ صَلَّى الْخَمْسَ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ.

وَكَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ يَكُونُ شُغْلُهُ الْمُصْحَفَ وَتِلاَوَةَ الْقُرْآنِ.

وَكَانَ الشَّافِعِيُّ قَدْ جَزَّأَ اللَّيْلَ ثَلاثَةَ أَجْزَاءٍ: الثُّلُثُ الأَوَّلُ يَكْتُبُ. وَالثَّانِي: يُصَلِّي. وَالثَّالِثُ: يَنَامُ.

وكانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحْمَةُ اللَّهُ تَعَالى عَلَيْهِ لَهُ بِالْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ثَلاثُمِائَةِ رَكْعَةٍ، وَبَاتَ عِنْدَهُ أَبُو عِصْمَةَ؛ فَجَاءَ أَحْمَدُ بِماءٍ فَوَضَعَهُ عِنْدَهُ. فَلَمَّا أَصْبَحَ نَظَرَ أَحْمَدُ الْمَاءَ الَّذِي وَضَعَهُ فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالَتِهِ فَقالَ: يا سُبْحَانَ اللَّهِ، رَجُلٌ يَطْلُبُ الْعِلْمَ وَلاَ يَكُونُ لَهُ وِرْدٌ بِاللَّيْلِ.

فَيَا عِبَادَ اللَّهِ، أَيَّامُكُمْ قلاَئِلُ، وَآثامِكُمْ غَوَائِلُ، وَأَنْتُمْ لاَ شَكَّ رَاحِلُونَ كَمَا رَحَلَ الأَوَائلُ، وَمَآلُكُمْ إِلَى اللُّحُودِ فَهِي الْمَنَازِلُ؛ فَلْيَعْتَبِرِ الأَوَاخِرُ بِالْأَوَائِلِ.

فاسْمَعْ يَا مَنْ يُوقِنُ أَنَّهُ لاَ شَكَّ رَاحِلٌ، وَمَا لَهُ زَادٌ وَلاَ رَوَاحِلُ.

فَقُمْ يَا أَخِي فِي الدُّجَى قِيَامَ مُشْفِقٍ سَائِلٍ، وَأَجِبْ مُنَادِي: «هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟» لَعَلَّكَ تَحْظَى بِالْقَبُولِ، وَتَفُوزُ بِالْمَسْئُولِ، وَتُدْرِكُ الْمَطْلُوبَ وَالْمَأْمُولَ.

أَيا مَعْشَرَ الصُّوَّامِ فِي الْحُرُورِ، طَلَبًا لِلثَّوَابِ وَالْأُجُورِ. احْفَظُوا صِيَامَكُمْ عَنْ كل سَبٍّ وَرَفْثٍ وَقَوْلِ زُورٍ. فَإِنَّ مِنَ ٱلْخُسْرَانِ ٱلْعَاجِلِ أَنْ يَكُونَ ٱلْعَبْدُ صَامَ وَلاَ صَامَ عَنِ الزّورِ، وَإِنْ أَرَدْتُمُ الْغُرَفَ فِي الْجِنَانِ وَالْقُصُورِ، فَجِدُّوا ثُمَّ اجْتَهِدُوا بِالاسْتِغْفارِ مَعَ السُّحُورِ، فَفِيهِ بَرَكَةٌ. وَرَدَ ذَلِكَ فِي الْخَبَرِ الْمَأْثُورِ. وَجَانِبُوا الْمَعَاصِيَ الْقَوْلِيَّةَ وَالْفِعْلِيَّةَ، فَوَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ لِمَنْ صَامَ وَلَمْ يَصُمْ عَنِ الْمَعَاصِي وَقَوْلِ الزُّورِ. وَارْغَبُوا إِلَى مَوْلاَكُمْ فِي هَذَا الْوَقْتِ بِتَعْظِيمِ الْأُجُورِ.

شِعْر:

لِلَّهِ دَرُّ الْقَائِمِينَ بِلَيْلِهِمْ ... يَدْعُونَ رَبًّا لِلْقَلِيلِ شَكُورَا
قَوْمٌ أَقَامُوا لِلإِلَهِ نُفُوسَهُمْ ... فَكَسَا وُجُوهَهُمُ الْوَسِيمَةَ نُورَا
تَرَكُوا النَّعِيمَ وَطَلَّقُوا لَذَّاتِهِمْ ... زُهْدًا فَعَوَّضَهُمْ بِذَاكَ سُرُورَا
قَامُوا يُنَاجُونَ الْحَبِيبَ بِأَدْمُعٍ ... تَجْرِي فَتَحْكِي لُؤْلُؤًا مَنْثُورَا
سَتَرُوا وُجُوهَهُمْ بِأَسْتَارِ الدُّجَى ... لَيْلًا، فَأَضْحَتْ فِي النَّهَارِ بُدُورَا
وَإِذَا بَدَا لَيْلٌ سَمِعْتَ أَنِينَهُمْ ... وَشَهِدْتَ وَجْدًا مِنْهُمُ وَزَفِيرَا
تَعِبُوا قَلِيلًا فِي رِضَا مَحْبُوبِهِمْ ... فَأَرَاحَهُمْ يَوْمَ الْمَعَادِ كَثِيرَا

فَصْلٌ

قالَ الله تَعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾.

قالَ الْعُلَماءُ: «التَّهَجُّدُ» لاَ يَكون إِلَّا بَعْدَ النَّوْمِ «وَالنَّاشِئَةُ» لاَ تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ رَقْدَةٍ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمِ، وَأَفْضَلُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلاَةُ اللَّيْلِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمْ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْهُ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ قامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

وَقَالَ النَّخْعِيُّ: «صَوْمُ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ، وَتَسْبِيحَةٌ فِيهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ تَسْبِيحَةٍ، وَرَكْعَةٌ فِيهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ رَكْعَةٍ».

شِعْر:

وَحَافِظْ عَلَى فِعْلِ الْفُرُوضِ بِوقْتِهَا ... وَخُذْ بِنَصِيبٍ فِي الدُّجَى مِنْ تَهَجُّدِ
وَنادِ إِذَا مَا قُمْتَ فِي اللَّيْلِ سَامِعًا ... قَرِيبًا مُجِيبًا بِالْفَوَاضِلِ يَبْتَدِي
وَمُدَّ إِلَيْهِ كَفَّ فَقْرِكَ ضَارِعًا ... بِقَلْبٍ مُنِيبٍ وَادْعُ: تُعْطَ وَتَسْعَدِ

وَفِي اللَّيْلِ تَخْتَلِفُ مُعَامَلَةُ الْعِبَادِ، وَتَتَنَوَّعُ أَفْعالُ الزُّهَّادِ؛ فَمَنْ لَمْ يُشَارِكْهُمْ فِي خِدْمَتِهِمْ فَلا يَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ مَضْرُوبًا بِالطَّرْدِ وَالإِبْعَادِ «يَنْزِلُ اللَّهُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَ دَعْوَتَهُ؟ إِلَى أَنْ يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ» فَلِذَلِكَ كانُوا يُفَضِّلُونَ صَلاَةَ آخِرِ اللَّيْلِ عَلَى أَوَّلِهِ.

شِعْر:

نَحْنُ الَّذِينَ إِذَا أَتَانَا سَائِلٌ ... نُولِيهِ إِنْعامًا وَحُسْنَ تَكَرُّمِ
وَنَقُولُ فِي الأَسْحَارِ هَلْ مِنْ تَائِبٍ ... مُسْتَغْفِرٍ لِيَنَالَ خَيْرَ الْمَغْنَمِ

يَا قُوَّامَ اللَّيْلِ، اشْفَعُوا فِي النُّوَّامِ، يَا أَحْيَاءَ الْقُلُوبِ، تَرَحَّمُوا عَلَى الأَمْوَاتِ.

قالَ ابْنُ السَّمَّاكِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ بابِ دَارِي إِذْ جَاءَنِي رَجُلٌ مِنْ بَعْضِ إِخْوَانِي، فَقالَ: يَا أَبا بَكْرٍ، لِي وَلَدٌ مِنَ الْمُبَرِّزِينَ فِي ٱلْعِبَادَةِ، والْمُخْلِصِينَ فِي الإِرَادَةِ. يَقُومُ اللَّيْلَ وَيَصُومُ النَّهارَ، وَمَعَ ذَلِكَ لاَ يَفْتُرُ عَنِ الْبُكاءِ. وَقَدْ أَضَرَّ ذَلِكَ بِبَدَنِهِ، وَأَنَا عَلَيْهِ خَائِفٌ أَنْ يَهْلِكَ؛ فَأُحِبُّ أَنْ تَسْأَلَهُ الرِّفْقَ بِنَفْسِهِ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يَنَامَ في اللَّيْلِ نَوْمَةً وَاحِدَةً يَقْوَى بِهَا عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ ﷻ. قالَ ابْنُ السَّمَّاكِ: فَقُلْتُ: نَعَمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالى؛ فَبَيْنَما هُوَ يُخَاطِبُنِي إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا شَابٌّ لَهُ نُورٌ كَالْبَدْرِ، وَوَجْهُهُ قَدْ عَلاَهُ اصْفِرَارٌ، ناحِلُ الْجِسْمِ، فَقالَ: يَا أَبا بَكْرٍ، هَذَا وَلَدِي، فَقُلْتُ لَهُ: حَبِيبِي، إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكَ طَاعَةَ أَبِيكَ، وَنَهاكَ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَقَدْ سَأَلَنِي أَنْ أَسْأَلَكَ حَاجَةً، قالَ: وَمَا هِيَ أَيُّها الشَّيْخُ؟ قالَ: قُلْتُ: تُفْطِرُ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَتَنَامُ فِي اللَّيْلِ نَوْمَةً فَإِنَّكَ تقْوَى بِذَلِكَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ ﷻ، فَقالَ: أَمَا وَاللَّهِ، لَقَدْ طَلَبَ مِنِّي التَّقْصِيرَ فِي الْعَمَلِ قَبْلَ حُلُولِ الأَجَلِ، أَيُّها الأُسْتَاذُ: إِنِّي بايَعْتُ إِخْوَانًا لِي عَلَى السِّبَاقِ، فَأَخْشَى أَنْ تُعْرَضَ أَعْمَالِي وَأَعْمالُهُمْ فَيُوجَدَ فِي أَعْمَالِي تَقْصِيرٌ: فيا سُوءَ حَالِي إِنْ بَادَرَنِي أَجَلِي قَبْلَ أَنْ أَبْلُغَ مَا بَلَغُوهُ، يا أَبا بَكْرٍ: لَوْ رَأَيْتَ إِخْوَانِي الَّذِينَ بَايَعْتُهُمْ، وَقَدْ تَجَافَتْ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ فَرَكِبُوا رَوَاحِلَ الظَّلاَمِ، وَقَطَعُوا عَلَيْهَا اللَّيْلَ وَالنَّاسُ نِيامٌ، قَدْ وَصَلُوا الْكَلاَلَ بِالْكَلاَلِ، اشْتِياقًا إِلَى ذِي الْجَلاَلِ، أَفَتُشِيرُ عَلَيَّ أَيُّها الشَّيْخُ بِالتَّقْصِيرِ؟ وَاللَّهِ لَأَجْتَهِدَنَّ وَأَجْتَهِدَنَّ، ثُمَّ لَأَجْتَهِدَنَّ حَتَّى أَلْحَقَ بِهِمْ.

وَحَيَاةِ مَنْ مَلَكَتْ يَدَاهُ قِيَادِي	لَأُخَالِفَنَّ عَلَى الْهَوَى حُسَّادِي
وَلَأَعْصِيَنَّ عَوَاذِلِي فِي حُبِّهِ	وَلَأَهْجُرَنَّ لَذَاذَتِي وَرُقَادِي
وَلَأَجْعَلَنَّ نَزَاهَتِي فِيهِ الْبُكَا	وَلَأَكْحَلَنَّ مَحَاجِرِي بِسُهَادِي
وَلَأَحْفِرَنَّ لِسِرِّهِ ضِمْنَ الْحَشَا	قَبْرًا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِذَاكَ فُؤَادِي

إِخْوَانِي: الْغَنِيمَةَ الْغَنِيمَةَ، لانْتِهازِ الْفُرْصَةِ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ الْعَظِيمَةِ، فَمَا مِنْهَا عِوَضٌ وَلاَ لَهَا قِيمَةٌ. الْمُبَادَرَةَ الْمُبادَرَةَ بالْعَمَلِ، وَالْعَجَلَ الْعَجَلَ قَبْلَ

هُجُومِ الْأَجَلِ، قَبْلَ أَنْ يَنْدَمَ الْمُفرِّط عَلَى مَا فَعَلَ، قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَ الرَّجْعَةَ فَيَعْمَلَ صَالِحًا فَلاَ يُجَابُ إِلَى مَا سَأَلَ، قَبْلَ أَنْ يَحُولَ الْمَوْتُ بَيْنَ الْمُؤَمِّلِ وَبُلُوغِ الْأَمَلِ، قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ الْمَرْءُ مُرْتَهَنًا فِي حُفْرَتِهِ بِمَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ.

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ».

وَهٰذَا الْحَدِيثُ هُوَ مَعْنَى قَوْلِ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ الْغِيبَةَ تُفْطِرُ الصَّائِمَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بابًا يُدْعَى مِنْهُ الصَّائِمُونَ، فَمَنْ كانَ مِنَ الصَّائِمِينَ دَخَلَهُ وَمَنْ دَخَلَهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا».

إِخْوَانِي: هَذَا شَهْرُ الصَّفَا، شَهْرُ الْمُعَامَلَةِ وَالْوَفا؛ فَطُوبَى لِأَقْوَامٍ صَامُوا عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَقامُوا فِي الْخَلَوَاتِ، يَتْلُونَ مِنْ آياتِ ذِكْرِهِ صُحُفًا، ضَاعَفَ لَهُمْ بِصِيَامِهِمْ أُجُورًا، وَوَعَدَهُمْ فِي الْجَنَّةِ قُصُورًا وَغُرَفًا، وَقَبِلَ الْيَسِيرَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَتَجَاوَزَ عَنْ قَبِيحِ أَفْعَالِهِمْ وَعَفَا.

فَيَا خَيْبَةَ الْغَافِلِينَ فِيهِ عَنِ الْأَعْمَالِ، لَقَدْ حُرِمُوا الْوِصَالَ وَخُصُّوا بِالْقَطِيعَةِ وَالْجَفَا.

يَا نَاقِضِينَ الْعَهْدَ كَمْ هَذَا الْجَفَا ... تُوبُوا فَقَدْ وَافاكُمُ شَهْرُ الصَّفَا
شَهْرُ الرِّضَا وَالْعَفْوِ عَنْ زَلَّاتِكُمْ ... وَاللَّهُ فِيهِ عَنِ الْجَرَائِمِ قَدْ عَفَا
شَهْرٌ عَلَى الْأَيَّامِ فُضِّلَ قَدْرُهُ ... وَأَتَى عَلَى كُلِّ الشُّهُورِ مُشَرَّفَا
فَأَحْيُوا لَيَالِيَهُ الْمُنِيرَةَ كُلَّهَا ... وَأَجْرُوا لِفُرْقَتِهِ الدُّمُوعَ تَأَسُّفَا
فَعَسَى الْإِلٰهُ يَجُودُ فِيهِ بِفَضْلِهِ ... فَهُوَ الَّذِي يَمْحُو الذُّنُوبَ تَلَطُّفَا

كانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يُواظِبُونَ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ، لاَ سِيَّمَا لَيالي رَمَضَانَ.

فَيَنْبَغِي لِلْقَائِمِ أَنْ يَكُونَ حَاضِرَ الْقَلْبِ مُحتَسبًا للَّهِ تَعالَى فِي قِيَامِهِ، وَأَنْ يَحْرِصَ عَلَى الْإِخْلاَصِ وَالْخُشُوعِ فِي صَلاَتِهِ. فَالْخُشُوعُ لُبُّ الصَّلاَةِ.

وَقَدْ وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَوَّلُ شَيْءٍ يُرْفَعُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْخُشُوعُ حَتَّى لاَ تَرَى فِيهَا خَاشِعًا».

فَيَا غَافِلَ الْقَلْبِ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَيَا مَنْ جِسْمُهُ فِي مَكانٍ وَقَلْبُهُ فِي مَكَانٍ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى الصُّوَرِ وَالْأَبْدَانِ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى الْقُلُوبِ وَالْأَدْيَانِ.

مَرِضَتْ رَابِعَةُ الْعَدَوِيَّةُ مَرَّةً، فَصَارَتْ تُصَلِّي وِرْدَهَا بِالنَّهَارِ فَعُوفِيتْ. وَقَدْ أَلِفَتْ ذَلِكَ وانْقَطَعَ عَنْهَا قِيَامُ اللَّيْلِ، فَرَأَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي نَوْمِهَا كأَنَّها أُدْخِلَتْ إِلى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ عَظِيمَةٍ، وَفُتِحَ لَها فِيهَا بابُ دَارٍ، فَسَطَعَ مِنْهَا نُورٌ حَتَّى كَادَ يَخْطَفُ بَصَرَهَا، فَخَرَجَ مِنْهَا وُصَفَاءُ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ اللُّؤْلُؤُ، بِأَيْدِيهِمْ مَجَامِرُ، فَقالَتْ لَهُمُ امْرأَةٌ كانَتْ مَعَ رَابعَةَ: أَيْنَ تُرِيدُونَ؟ قالُوا: نُرِيدُ فُلاَنًا قُتِلَ شَهِيدًا فِي الْبَحْرِ فَنُجَمِّرُهُ. فَقالَتْ: أَفَلاَ تُجَمِّرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ ـ تَعْنِي: رَابِعَةَ ـ فَنَظَرُوا إِلَيْهَا، وَقالوا: قَدْ كَانَ لَهَا حَظٌّ فِي ذَلِكَ فَتَرَكَتْهُ، فالْتَفَتَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ إِلى رَابِعَةَ وَأَنْشَدَتْ:

صَلاَتُكِ نُورٌ وَالْعِبَادُ رُقُودُ   وَنَوْمُكِ ضِدٌّ لِلصَّلاَةِ عَنِيدُ

كانَ بَعْضُ الْعُلَماءِ يَقُومُ السَّحَرَ: فَنامَ عَنْ ذَلِكَ لَيالِيَ، فَرَأَى فِي مَنَامِهِ رَجُلَيْنِ وَقَفَا عَلَيْهِ، وَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلآخَرِ: هَذَا كانَ مِنَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ فَتَرَكَ ذَلِكَ.

يَا مَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ فانْقَلَبَ، يَا مَنْ كانَ لَهُ وَقْتٌ مَعَ اللَّهِ فَذَهَبَ. قِيَامُ الْأَسْحَارِ يَسْتَوْحِشُ لَكَ. صِيَامُ النَّهَارِ يَسْأَلُ عَنْكَ. لَيَالِي الْوِصَالِ تُعاتِبُكَ.

أَمَا يُؤْلِمُكَ الْهَجْرُ؟ أَمَا تَشْتَاقُ إِلَى الْوَصْلِ؟ طالَ هَجْرُكَ لَنا فَحُلَّ بِوَادِينَا وَلاَ تَتَّخِذْ غَيْرَ حُبِّنَا دِينًا.

يَا قَوْمِ: أَلاَ خَاطِبٌ إِلَى الرَّحْمٰنِ فِي هَذَا الشَّهْرِ؟ أَلاَ رَاغِبٌ فِيمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلطَّائِعِينَ في الْجِنَانِ؟ أَلاَ طَالِبٌ لِمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْعَيَانِ.

شِعْر:

مَـنْ يُـرِدْ مُـلْـكَ الْـجِـنَـانِ فَـلْـيَـدَعْ عَـنْـهُ الـتَّـوَانِـي
وَلْـيَـقُـمْ فـي ظُـلْـمَـةِ الـلَّـيْـلِ إِلَـى نُـورِ الْـقُـرَآنِ
وَلْـيَـصِـلْ صَـوْمًـا بِـصَـوْمٍ إِنَّ هَـذَا الْـعَـيْـشَ فـانِ
إِنَّـمـا الْـعَـيْـشُ جِـوَارُ الـلَّـهِ فِـي دَارِ الْأَمَـانِ

رُوِيَ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ: كانَ لِي وِرْدٌ فِي اللَّيْلِ أَقْرَأُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ، فَنِمْتُ عَنْهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَإِذَا بِجَارِيَةٍ جَاءَتْنِي فِي الْمَنَامِ كَأَحْسَنِ مَا يَكُونُ مِنَ الْجَمَالِ وَبِيَدِهَا رُقعَةٌ فَقالَتْ لِي: أَتُحْسِنُ الْقِرَاءَةَ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَدَفَعَتْ إِلَيَّ الرُّقْعَةَ، فَإِذَا فِيهَا مَكْتُوبٌ:

لَـهَاكَ الـنَّـوْمُ عَـنْ طَـلَـبِ الْأَمَـانِـي وَعَـنْ تِـلْـكَ الْـكَـوَانِـسِ فِـي الْـجِـنَـانِ
تَـعِـيشُ مُـخَـلَّـدًا لاَ مَـوْتَ فِـيـهَـا وَتَـلْـهُـو فِـي الْـخِـيَـامِ مَـعَ الْـحِـسَـانِ
تَـيَـقَّـظْ مِـنْ مَـنَـامِـكَ، إِنَّ خَـيْـرًا مِـنَ الـنَّـوْمِ الـتَّـهَـجُّـدُ بِـالْـقُـرَآنِ

يَا مُبْعَدًا عَنْ صِفَاتِ الْمُحِبِّينَ، يَا مُتَأَخِّرًا عَنْ رُفْقَةِ الْمُتَّقِينَ. يَا غَائِبًا عَنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الْيَقِينِ، يَا مُقَصِّرًا عَنْ مُقَارَبَةِ الْعَابِدِينَ، اسْمَعْ صِفَاتِهِمْ ثُمَّ اعْرِفِ الصَّادِقَ مِمَّنْ يَمِينَ. قَوْمٌ هَجَرُوا الدُّنْيَا وَتَرَكُوهَا، وَطَلَبُوا الْآخِرَةَ بِالْجِدِّ وَآثَرُوهَا، إِنْ جَاءَ النَّهَارُ قَطَعُوهُ بِالصِّيَامِ، وَإِنْ جَاءَ اللَّيْلُ أَسْهَرُوهُ بِالْقِيَامِ، أَبْصَرَتْ بَصَائِرُهُمْ عُيُوبَ الدُّنْيا وَمَيَّزُوهَا، وَعَلِمُوا سُرْعَةَ خَرابِهَا فَما عَمَرُوهَا، وَلاَحَتْ لَهُمْ أَعْلاَمُ الْهُدَى فَأَمُّوهَا، وَطَلَبُوا مَرَاضِيَ مَوْلاَهُمْ بِما وَجَدُوا فَأَدْرَكُوهَا. إِنْ أَظْلَمَ اللَّيْلُ نَصَبُوا أَقْدَامَهمْ فِي الْعِبَادَةِ وَأَنْصَبُوهَا، وَإِنْ أَقْبَلَ النَّهَارُ صَانُوهُ بِصِيَامِ الْأَجْوَافِ وَالْجَوَارِحِ عَنِ الْحَرَامِ وَكَفُّوهَا.

وَرُوِيَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ قالَ: بَلَغَنا أَنَّهُ يُوضَعُ مَائِدَةٌ لِلصُّوَّامِ، يَأْكُلُونَ عَلَيْهَا وَالنَّاسُ فِي الْحِسَابِ، فَيَقُولُونَ: يا رَبَّنا نَحْنُ نُحَاسَبُ وَهٰؤُلاَءِ يَأْكُلُونَ؟ فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ طَالَمَا صَامُوا وَأَفْطَرْتُمْ، وَقامُوا وَنِمْتُمْ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْكَرَامَةَ لاَ تَكُونُ إِلاَّ لِمَنْ صَامَ عَنْ كلِّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، لاَ مَنْ صَامَ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ.

فالْوَاجِبُ عَلَى الصَّائِمِ الَّذِي يَرْجُو ثَوَابَ صِيَامِهِ أَنْ يُخْلِصَ أَوَّلًا أَعْمَالَهُ لِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَغُضَّ بَصَرَهُ، وَيَصُونَ سَمْعَهُ، وَيَحْفَظَ لِسَانَهُ وَجَوَارِحَهُ كَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، وَجَمِيعِ أَعْضَائِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

إِخْوَانِي: هَذِهِ بِشَارَةٌ لِلْمُؤْمِنينَ فِي الْجَنَّاتِ، عَلَى الصَّبْرِ عَنِ الشَّهَوَاتِ، بِالصِّيَامِ وَالصَّبْرِ عَلَى الطَّاعَاتِ، فَمَنْ صَبَرَ نَالَ أَجْرًا، وَمَنْ شَكَرَ وَجَدَ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرًا، وَمَن تَصَدَّقَ نالَ فَضْلًا وَبِرًّا، وَمَنْ أَحْسَنَ إلى الْعِبَادِ أَعَدَّ لِلْمَعَادِ ذُخْرًا، وَمَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ فِي صِيَامِهِ وَقِيامِهِ كَفَّرَ عَنْهُ ذَنْبًا وَوِزْرًا، وَمَنْ ذَكَرَهُ فِي نَفْسِهِ وَجَدَ لَهُ بَيْنَ مَلائِكَةِ قُدْسِهِ ذِكْرًا، وَمَنْ لَزِمَ التَّقْوَى نالَ الْفَوْزَ وَالْبُشْرَى ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾.

شِعْر:

أَيا مَعْشَرَ الصُّوَّامِ وَافَتْكُمُ الْبُشْرَى	وَقَدْ نَشَرَ الْبَارِي بِمَدْحِكُمْ ذِكْرَا
خُصِصْتُمْ بِشَهْرٍ فِيهِ عِتْقٌ وَرَحْمَةٌ	وقَدْ أَجْزَلَ الرَّحْمَنُ لِلصَّائِمِ الْأَجْرَا
مَسَاجِدُهُ مَأْنُوسَةٌ بِتَلاَوَةٍ	وَذِكْرٍ وكانَتْ قَبْلَهُ تَشْتَكِي الْهَجْرَا
وَلِلَّهِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ لَيْلَةٌ	لَقَدْ عَظُمتْ قَدْرًا كَما مُلِئَتْ خَيْرَا
فَطُوبَى لِقَوْمٍ أَدْرَكُوهَا وَشَاهَدُوا	تَنَزُّلَ أَمْلاَكٍ بِهَا آيَةٌ كُبْرَى
وَفَازُوا بِغُفْرَانِ الْإِلٰهِ فَأَصْبَحُوا	يَشُمُّ عَلَيْهِمْ مِنْ شَذَا عَرْفِها عِطْرَا

اللَّهُمَّ وَفِّقْ عِبَادَكَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَدَاءِ فَرْضِكَ، وَلاَ تُخْزِهِمْ بِقَبِيحِ أَعْمَالِهِمْ يَوْمَ عَرْضِكَ، وَلاَ تَجْعَلْنَا مِمَّنْ تَعِبَ وَاجْتَهَدَ وَلَمْ يُرْضِكَ.

اللَّهُمَّ وَهَبْ مُسِيئِنَا لِمُحْسِنِينَا. وَمُفَرِّطِينَا لِمُتَّقِينَا. وَارْحَمْنَا يا مَوْلاَنا وَلاَ تُخْزِنا.

اللَّهُمَّ وَمَنْ كانَ عَلى الطَّرِيقِ الأَعْدَلِ الْوَافِي، فَزِدْهُ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ، وَأَنْتَ الْكافِي، وَمَنْ كانَ عَلَى ضَلالٍ وَزَيْغٍ عَنْ الاعْتِدَالِ، فاهْدِهِ وَأَرْشِدْهُ إِلَى خَيْرِ فِعْلٍ وَمَقَالٍ، وَتُبْ عَلَيْنَا أَجْمَعِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ
فِي فَضْلِ قِيَامِ اللَّيْلِ

الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي رَسَمَ فِي جَمِيعِ مَصْنُوعَاتِهِ عَلَى وُجُودِهِ وَكَمالِهِ دَلِيلًا، وَوَسَمَ بِالْعَجْزِ سَائِرَ مَخْلُوقاتِهِ، فَكُلًّا تَرَاهُ إِلَيْهِ مُفْتَقِرًا ذَلِيلًا، وَحَسَمَ الْأَفْكَارَ عَنِ الإِحَاطَةِ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، فَأَقَرَّتْ عُقُولَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعَجْزِ عَنْ تَكْيِيفِهِ، وَآمَنَتْ بِوُجُودِهِ وَإِثْبَاتِهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِلْأَفْكارِ فِي الْإِحَاطَةِ بِهِ سَبِيلًا.

ذَلِكَ بِأَنَّهُ رَبٌّ تَعالَى عَنْ جُحُودِ الْمُعَطِّلِينَ، وَتَنَزَّهَ عَنْ تَكْيِيفِ الْمُشَبِّهِينَ، وَأَعَدَّ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ عَذَابًا وَتَنْكِيلًا.

هُوَ الْمَلِكُ الْكَبِيرُ ذُو الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ، وَالْعِزِّ وَالْجَبَرُوتِ، وَالْبَاقِي الْحَيُّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ، وَلَمْ يَزَلْ وَلاَ يَزَالُ عَظِيمًا مُقْتَدِرًا جَلِيلًا.

الْجَبَّارُ الَّذِي قَهَرَ الْمُتَجَبِّرِينَ، وَجَبَرَ كَسْرَ الْمُنْكَسِرِينَ، وَأَغَاثَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَجُودِهِ وَمِنَّتِهِ الْمَغْلُوبِينَ وَالْمَلْهُوفِينَ، وَلَمْ تَزَلْ سَحَائِبُ جُودِهِ تَسِحُّ الْخَيْرَاتِ سَحًّا جَزِيلًا. الْمُوَفِّقُ الَّذِي أثار بِمَحَبَّتِهِ الْهِمَمَ السَّامِيَةَ، وَالْعَزَمَاتِ الْعَالِيَةَ، إِلَى أَشْرَفِ غَاياتِها تَحْصِيلًا لَها وَتَأْهِيلًا.

فَيا أَيُّهَا الْعَبْدُ، قُمْ لِمُناجَاتِهِ عَلَى عَتَبَةِ بابِهِ، وَتَنَعَّمْ بِلَذِيذِ خِطَابِهِ، فَكَفَاكَ أَنْ يَرَاكَ مِنَ الْوَاقِفِينَ وَاللَّائِذِينَ بِجنابِهِ، وَتَمَلَّقْهُ بِاللَّيْلِ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا.

مَوْلًى إِنْ أَطَعْتَهُ أَدْنَاكَ، وَإِنِ اكْتَفَيتَ بِهِ أَغْنَاكَ، وَإِنْ دَعَوْتَهُ لَبَّاكَ، وَإِنْ أَدْبَرْتَ عَنْهُ نَادَاكَ، وَإِنْ تُبْتَ إِلَيْهِ قَبِلَكَ وَارْتَضَاكَ، وَسَلَكَ بِكَ مَعَ حِزْبِهِ سَبِيلًا.

فَسُبْحَانَ مَنْ قَسَّمَ عَطاءَهُ بَيْنَ خَلْقِهِ فَمِنْهُمْ كافِرٌ وَمِنْهُمْ مُنِيبٌ، وَمِنْهُمْ عَاصٍ وَمِنْهُمْ مُقْبِلٌ عَلَى مَوْلاَهُ مُجِيبٌ ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ وَوَفَّقَ مَنِ ارْتَضَاهُ لِخِدْمَتِهِ، وَأَعَدَّ لَهُ أَجْرًا جَزِيلًا.

أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي لاَ تُحْصَى جُمْلَةً وَلاَ تَفْصِيلًا.

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، إِلهٌ لَمْ يَزَلْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَحَبِيبُهُ وَخَلِيلُهُ، أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَالْمَبْعُوثُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ كانَ لَهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ، صَلاَةً دَائِمَةً بِدَوَامِ السَّمواتِ وَالْأَرْضِينَ، مُقِيمَةً مُتَوَاصِلَةً لاَ تَرُومُ انْتِقالًا وَلاَ تَحْوِيلًا وسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وَقالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وَقَالَ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾.

هَذَا مَدْحٌ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْقَائِمِينَ بِاللَّيْلِ، وَحَثٌّ وَتَرْغِيبٌ فِي قِيامِ اللَّيْلِ لِذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ وَمُنَاجَاتِهِ، أَثْنَى عَلَيْهِمْ، وَنَوَّهَ بِذِكْرِهِمْ، فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَلَّا تَفُوتَهُ هَذِهِ الْغَنَائِمُ.

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: «قِيامُ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ يُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ، ثُمَّ تَلاَ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾».

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْمُتَهَجِّدِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

فَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، جَاءَ مُنَادٍ يُنادِي بِصَوْتٍ يُسْمِعُ الْخَلائِقَ: سَيَعْلَمُ الْخَلائِقُ مَنْ أَوْلَى بِالْكَرَمِ، ثُمَّ يَرْجِعُ فَيُنَادِي: أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا لاَ تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ؟ فَيَقُومُونَ وَهُمْ قَلِيلٌ، ثُمَّ يَرْجِعُ فَيُنادِي: لِيَقُمِ الَّذِينَ كانُوا يَحْمَدُونَ اللَّهَ فِي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، فَيَقُومُونَ وَهُمْ قَلِيلٌ، ثُمَّ يُحَاسَبُ سَائِرُ النَّاسِ» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيا.

وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ نَحْوَهُ عَنْهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قالَ: «يُحْشَرُ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنادِي مُنَادٍ فَيَقُولُ: أَيْنَ الَّذِينَ كانَتْ تَتَجافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضاجِعِ؟ فَيَقُومُونَ وَهُمْ قَلِيلٌ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ. فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قالَ: أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَكونَ عَبْدًا شَكُورًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ قالَ: قالَ عَبْدُ اللَّهِ: «إِنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي التَّوراةِ، لَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ لِلَّذِينَ تَتَجافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَلاَ يَعْلَمُهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلاَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، قالَ: وَنَحْنُ نَقْرَأُهَا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾» صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ.

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ باتَ لَيْلَةً فِي خِفَّةٍ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ يُصَلِّي تَدَارَكَتْ حَوْلَهُ الْحُورُ الْعِينُ حَتَّى يُصْبِحَ».

وَأَخْرَجَ ابْنُ مَاجَه عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَثُرَتْ صَلاَتُهُ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ».

قالَ قَبِيصَةُ بْنُ عُقْبَةَ: رَأَيْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ فِي الْمَنَامِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ فَقالَ:

نَظَرْتُ إِلَى رَبِّي عِيَانًا، فَقَالَ لِي ... هَنِيئًا رِضَائِي عَنْكَ يا ابْنَ سَعِيدِ
لَقَدْ كُنْتَ قَوَّامًا إِذَا اللَّيْلُ قَدْ دَجَا ... بِعَبْرَةِ مَحْزُونٍ وَقَلْبِ عَمِيدِ
فَدُونَكَ فاخْتَرْ أَيَّ قَصْرٍ تُرِيدُهُ ... وَزُرْنِي فَإِنِّي مِنْكَ غَيْرُ بَعِيدِ

كانَ نَبِيُّكُمْ ﷺ يُوَاظِبُ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ وَلَمْ يَكُنْ يَدَعُهُ لاَ حَضَرًا وَلاَ سَفَرًا. وَكَانَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَرْبَعُونَ رَكْعَةً يُدَاوِمُ عَلَيْهَا وَلاَ يَتْرُكُها، وَتارَةً يَزِيدُ مَا شَاءَ اللَّهُ عَلَيْهَا، فَسَبْعَةَ عَشَرَ رَكْعَةً الْفَرَائِضِ، وَإِحْدَى عَشَرَةَ رَكْعَةً قِيَامَ اللَّيْلِ عَلَى الدَّوَامِ، وَعَشَرَ رَكْعَاتِ السُّنَنِ الرَّاتِبَةِ أَوِ اثْنَتَا عَشَرَةَ، ذَلِكَ سِوَى صَلاَةِ الضُّحَى وَتَحِيَّةِ الْمَسْجِدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يُواظِبَ عَلَى هَذَا الْوِرْدِ دَائِمًا إِلَى الْمَمَاتِ. فَمَا أَسْرَعَ الْإِجَابَةَ وَأَعْجَلَ فَتْحَ الْبَابِ لِمَنْ يَقْرَعُهُ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَرْبَعِينَ مَرَّةً.

وَكَانَ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ الْأَوَاخِرُ مِنْ رَمَضَانَ أَيْقَظَ أَهْلَهُ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ، أَيْ: جَدَّ وَاجْتَهَدَ فِي الْعِبَادَةِ عَلَى قَوْلِ مَنْ فَسَّرَهُ بِالْمَعْنَى.

وَالصَّحِيحُ: أَنَّهُ يَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، كَمَا وَرَدَ مُفَسَّرًا بِأَنَّهُ لَمْ يَأْو إِلَى فِرَاشِهِ حَتَّى يَنْسَلِخَ رَمَضَانَ.

وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ: «وَطَوَى فِرَاشَهُ وَاعْتَزَلَ النِّسَاءَ».

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْتَكِفُ غَالِبًا الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ.

والْمُعْتَكِفُ مَمْنُوعٌ مِنْ قُرْبانِ النِّسَاءِ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ، قالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ﴾ بَلْ كَانَ يُصِيبُ مِنْ أَهْلِهِ فِي الْعِشْرِينَ الْأُوَلِ، ثُمَّ يَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، وَيَتَفَرَّغُ لِطَلبِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ.

كانَ يَطْرُقُ فاطِمَةَ وَعَلِيًّا فَيقُولُ لَهُمَا: «أَلاَ تَقُومَانِ فَتُصَلِّيَانِ؟»، وَكانَ يُوقِظُ عَائِشَةَ باللَّيْلِ إِذَا قَضَى تَهَجُّدَهُ، وَأَرَادَ أَنْ يُوتِرَ.

وَقَدْ وَرَد التَّرْغِيبُ فِي إِيقَاظِ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ الْآخَرَ لِلصَّلاَةِ، فَإِنْ أَبَى نَضَحَ الْمَاءَ فِي وَجْهِهِ.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً قامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وجْهِهَا الْمَاءَ، وَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيَا أَوْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ».

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾، وَقالَ ﷺ: «أَشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ الْقُرْآنِ».

وَفِي الْمُوَطَّإِ: «أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ كانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُصَلِّي، حَتَّى إِذَا كانَ نِصْفُ اللَّيْلِ أَيْقَظَ أَهْلَهُ لِلصَّلاَةِ، وَيَقُولُ لَهُمْ: الصَّلاَةَ الصَّلاَةَ، وَيَتْلُو هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾».

كَانَتِ امْرَأَةُ حَبِيبٍ أَبِى مُحَمَّدٍ تَقُولُ لَهُ بِاللَّيْلِ: قَدْ ذَهَبَ اللَّيْلُ وَبَيْنَ أَيْدِينَا طَرِيقٌ بَعِيدٌ، وَزَادُنا قَلِيلٌ وَقَوَافِلُ الصَّالِحِينَ قَدْ سَارَتْ قُدَّامَنَا وَنَحْنُ قَدْ بَقِينَا.

شِعْر:

يا نائِمَ اللَّيْلِ كَمْ تَرْقُدُ	قُمْ يا حَبِيبِي قَدْ دَنا الْمَوْعِدُ
وَخُذْ مِنَ اللَّيْلِ وَأَوْقاتِهِ	وِرْدًا إِذَا مَا هَجَعَ الرُّقَّدُ
مَنْ نَامَ حَتَّى يَنْقَضِي لَيْلُهُ	لَمْ يَبْلُغِ الْمَنْزِلَ لَوْ يَجْهَدُ
قُلْ لِذَوِي الأَلْبَابِ أَهْلِ التُّقَى	قَنْطَرَةُ الْعَرْضِ لَكُمْ مَوْعِدُ

فَصْلٌ

قالَ اللَّهُ تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾.

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ عَنْ صُهَيْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ. ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾».

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجه وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا بِسَنَدٍ رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ: «أَنَّ أبا هُرَيْرَةَ قالَ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ: أَسْأَلُ اللَّهَ: أَنْ يَجْمَعَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي سُوقِ الْجَنَّةِ، قالَ سَعِيدٌ: أَوَفِيهَا سُوقٌ؟ قالَ: نَعَمْ، أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قالَ: أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوهَا نَزَلُوا فِيهَا بِفَضْلِ أَعْمَالِهِمْ، فَيُؤْذَنُ لَهُمْ فِي مِقْدَارِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيا، فَيَزُورُونَ اللَّهَ ﷻ، وَيَبْرُزُ لَهُمْ عَرْشُهُ، وَيَتَبَدَّى لَهُمْ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، فَتُوضَعُ لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ وَمَنابِرُ مِنْ لُؤْلُؤٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ يَاقُوتٍ وَمَنابِرُ مِنْ زَبَرْجَدٍ. وَمَنابِرُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ فِضَّةٍ. وَيَجْلِسُ أَدْنَاهُمْ - وَمَا فِيهِمْ دَنِيءٌ - عَلَى كُثْبَانِ مِسْكٍ وَكَافُورٍ مَا يَرَوْنَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَرَاسِي أَفْضَلُ مِنْهُمْ مَجْلِسًا.

قالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا: قالَ: نَعَمْ، هَلْ تَتَمَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟ قُلْنا: لا. قالَ ﷺ: كَذَلِكَ لاَ تَتَمَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ ﷻ، وَلاَ يَبْقَى فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَحَدٌ إِلاَّ حَاضَرَهُ اللَّهُ مُحَاضَرَةً، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ لِلرَّجُلِ: أَلا تَذْكُرُ يَا فُلاَنُ يَوْمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا، يُذَكِّرُهُ بَعْضَ غَدَرَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تَغْفِرْ لِي؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَبِسعَةِ مَغْفِرَتِي بَلَغْتَ مَنْزِلَتَكَ هَذِه، فَبَيْنَما هُمْ كَذَلِكَ غَشِيَتْهُمْ سَحَابَةٌ مِنْ فَوْقِهِمْ فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ طِيبًا لَمْ يَجِدُوا مِثْلَ رِيحِهِ شَيْئًا قَطُّ، ثُمَّ يَقُولُ رَبُّنَا تَبارَكَ وَتَعَالى: قُومُوا إِلَى مَا أَعْدَدْتُ لَكُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ فَخُذُوا مَا اشْتَهَيْتُمْ، قالَ: فَنَأْتِي سُوقًا قَدْ حَفَّتْ بِهِ الْمَلائِكَةُ، فِيهِ مَا لَمْ تَنْظُرِ الْعُيُونُ إِلَى مِثْلِهِ، وَلَمْ تَسْمَعِ الآذَانُ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى الْقُلُوبِ. قالَ: فَيَحْمِلُ لَنَا مَا اشْتَهَيْنَا لَيْسَ يُبَاعُ فِيهِ

شَيْءٌ وَلاَ يُشْتَرَى، وَفِي ذَلِكَ السُّوقِ يَلْقَى أَهْلُ الْجَنَّةِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، قالَ: فَيُقْبِلُ الرَّجُلُ ذُو الْمَنْزِلَةِ الْمُرْتَفِعَةِ فَيَلْقَى مَنْ دُونَهُ - وَمَا فِيهِمْ دَنِيءٌ - فَيَرُوعُهُ مَا يَرَى عَلَيْهِ مِنَ اللِّبَاسِ، فَمَا يَنْقَضِي آخِرُ حَدِيثِهِ حَتَّى يَتَمَثَّلَ لَهُ أَنَّ مَا عَلَيْهِ أَحْسَنُ مِنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَحْزَنَ فِيهَا. ثُمَّ نَنْصَرِفُ إِلَى مَنَازِلِنَا فَيَتَلَقَّانَا أَزْوَاجُنَا فَيَقُلْنَ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، لَقَدْ جِئْتَ وَإِنَّ بِكَ مِنَ الْجَمَالِ وَالطِّيبِ أَفْضَلَ مِمَّا فارَقْتَنا عَلَيْهِ. فَيَقُولُ: إِنَّا جَالَسْنَا الْيَوْمَ الْجَبَّارَ ﷻ، وَيَحِقُّ لَنا أَنْ نَنْقَلِبَ بِمِثْلِ مَا انْقَلَبْنا».

إِخْوَانِي، مَا أَشْرَفَ مَنْ أَكْرَمَهُ الْمَوْلَى الْعَظِيمُ، وَمَا أَعْلَى مَنْ مَدَحَهُ فِي الْكَلَامِ الْكَرِيمِ، وَمَا أَسْعَدَ مَنْ خَصَّهُ بِالتَّشْرِيفِ وَالتَّعْظِيمِ، وَمَا أَقْرَبَ مَنْ أَهَّلَهُ لِلْفَوْزِ وَالتَّقْدِيمِ، وَمَا أَجَلَّ مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

نَعِمُوا فِي الدُّنْيا بِالإِخْلاَصِ وَالطَّاعَةِ، وَفازُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ بِالرِّبْحِ فِي الْبِضَاعَةِ، وَتَنَزَّهُوا عَنِ التَّقْصِيرِ وَالْغَفْلَةِ وَالْإِضَاعَةِ. فَلَبِسُوا ثِيابَ التُّقَى وَارْتَدَوْا بِالْقَنَاعَةِ، وَدامُوا في الدُّنْيا عَلَى السَّهَرِ وَالْمَجاعَةِ. فَيَا فَخْرَهُمْ إِذَا قامَتِ السَّاعَةُ، إِذَا قُدِّمَتْ إِلَيْهِمْ مَطَايا التَّكْرِيمِ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

نَعِمُوا فِي الدُّنْيَا بِالْوَحْدَةِ وَالْخَلْوَةِ. وَاعْتَذَرُوا فِي الْأَسْحَارِ مِنْ كُلِّ زَلَّةٍ وَهَفْوَةٍ، وَحَذِرُوا مِنْ مُوجِبَاتِ الْإِبْعَادِ وَالْجَفْوَةِ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُخْتَارُونَ وَالصَّفْوَةُ، الصِّدْقُ قَرِينُهُمْ وَالصَّبْرُ نَدِيمٌ، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

طَالَما تَعِبَتْ أَبْدَانُهُمْ بَيْنَ الْجُوعِ وَالسَّهَرِ، وَكَفَّتْ جَوَارِحُهُمْ عَنِ اللَّهْوِ وَالْأَشَرِ، وَحَبَسُوا أَغْرَاضَهُمْ عَنِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ، وَانْتَهَوْا عَمَّا نَهاهُمْ مَوْلَاهُمْ وَامْتَثَلُوا مَا أَمَرَ، فَقَبِلُوا مَفْرُوضَاتِهِ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَتَغَنَّوْا بِكَلَامِهِ وَالْقَلْبُ قَدْ حَضَرَ، وَأَعَدُّوا مِنَ الزَّادِ ما يَصْلُحُ لِلسَّفَرِ. فَالْخَوْفُ أَقْلَقَهُمْ فَمَنَعَهُمْ قَضَاءَ الْوَطَرِ، وَالْعَبْرَةُ تَجْرِي وَالْقَلْبُ قَدِ اعْتَبَرَ. فَيا حُسْنَهُمْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ وَوَقْتِ السَّحَرِ. السِّرُّ صَادِقٌ، وَالْحَالُ مُسْتَقِيمٌ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

قُصُورُهُمْ فِي الْجِنَانِ عَالِيَةٌ، وَعِيشَتُهُمْ فِي الْقُصُورِ صافِيَةٌ، وَهُمْ فِي عَفْوٍ مَمْزُوجٍ بِعَافِيَةٍ، وَقُطُوفُ الْأَشْجَارِ مِنَ الْقَوْمِ دانِيَةٌ، وَأَقْدامُهُمْ عَلَى أَرْضِ المِسْكِ سَاعِيَةٌ. وَأَبْدَانُهُمْ مِنَ السُّنْدُسِ وَالإِسْتَبْرَقِ كاسِيَةٌ، وَالْعَيْشُ لَذِيذٌ، وَالْمُلْكُ عَظِيمٌ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

كانُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى الْمُجَاهَدَةِ يَصْبِرُونَ، وَفِي دَياجِي اللَّيْلِ يَسْهَرُونَ، وَيَصُومُونَ وَهُمْ عَلَى الطَّعَامِ يَقْدِرُونَ، وَيُسَارِعُونَ إِلَى مَا يُرْضِي مَوْلَاهُمْ وَيُبَادِرُونَ.

فَيَا حُسْنَهُمْ وَالْوِلْدانُ بِهِمْ يَحُفُّونَ، وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَقِفُونَ، وَقَدْ أَمِنُوا مِمَّا كانُوا يَخافُونَ، وَبالْحُور الْحِسَانِ فِي خِيَامِ اللُّؤْلُؤِ يَتَنَعَّمُونَ، وَعَلَى أَسِرَّةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ يَتَزَاوَرُونَ، وَبِالْوُجوهِ النَّاضِرَاتِ يَتَقَابَلونَ.

قالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ كانُوا يَحْمِلُونَ أَعْباءَ الْجَهْدِ وَالْعَنَا، وَيَفْرَحُونَ بِاللَّيْلِ إِذَا أَقْبَلَ وَدَنا، وَيَرْفُضُونَ الدُّنْيَا لِعِلْمِهِمْ أَنَّها تَصِيرُ إِلَى الْفَنَا، وَيُخْلِصُونَ الْأَعْمَالَ مِنْ شَوَائِبِ الآفاتِ لَنَا. فَغَدًا يَتَّكِئُونَ عَلَى الأَرائِكِ وَقُطُوفُهُمْ دَانِيَةَ الْمُجْتَنَى. وأَعْظَمُ مِنْ هَذَا النَّعِيمِ أَنِّي أَتَجَلَّى لَهُمْ أَنا. وَكَفَى فَخْرًا أَنَّهُمْ عِنْدِي يَحْضُرُونَ ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

كانَتْ جُنُوبُهُمْ تَتَجَافَى عَنْ الْمَضاجِعِ، وَعَلى الْخُدُودِ تَنْحَدِرُ الْمَدَامِعُ، فَهُمْ مَا بَيْنَ قائِمٍ وَسَاجِدٍ وَرَاكِعٍ. فَهَيْهاتَ وَأَنا مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ وَسامِعٌ، فَجَزَاؤُهُمْ لأَجْعَلَنَّهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قُلُوبٌ طَالَما أَفْزَعَتْها مَوَاعِظُ الْقُرآنِ. وُجُوهٌ طَالَما غَسَلَتْهَا دُمُوعُ الْأَحْزَانِ. وُجُوهٌ طَالَما غَيَّرَتْها حَرَاقاتِ الأَشْجَانِ. وُجُوهٌ تُخْبِرُ عَنِ الْقُلُوبِ إِخْبَارَ الْعُنْوَانِ. حَرَسُوا الْوَقْتَ بالْيَقَظَةِ وَحَفِظُوا الزَّمَانَ، وَشَغَلُوا العُيُونَ بِالْبُكَاءِ وَالأَلْسُنَ بالْقُرآنِ. فَإِذَا رَأَيْتَهُمْ يَومَ الْجَزَاءِ رَأَيتَ الْفَوْزَ الْعَظِيمَ ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾.

وُجُوهٌ مَا تَوَجَّهَتْ لِغَيْرِي وَلَا اسْتَدَارَتْ؛ وَقُلُوبٌ بِغَيْرِي قَطُّ مَا اسْتَجَارَتْ، وَأَفْئِدَةٌ بِغَيْرِ ذِكْرِي مَا استَنَارَتْ؛ لَوْ رَأَتْ عُيُونُ الْغَافِلِينَ مَا أَعْدَدْتُ لَهُمْ لَحَارَتْ، مِنْ فَضْلٍ عَظِيمٍ وَمُلْكٍ جَسِيمٍ ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾.

أَيُّها الغَافِلُ، رَبِحَ القَوْمُ وَخَسِرْتَ، وَسَارُوا إِلَى الحَبِيبِ مُسْرِعِينَ وَمَا أَسْرَعْتَ، وَقَامُوا بِالأَوَامِرِ وَضَيَّعْتَ مَا بِهِ أُمِرْتَ، وَسَلِمُوا مِن رِقِّ الهَوَى فاغْتَرَرْتَ فَأُسِرْتَ، فالدُّنْيا تَخْدُمُهُمْ وَالسَّعَادَةُ تَقْدُمُهُمْ فَهُمْ فِي سُرورٍ مَا فِيهِ مَا يَضِيمُ ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾.

اللَّهُمَّ يَا ذَا الْكَرَمِ الْعَمِيمِ، وَالْعَطاءِ الْجَسِيمِ، وَالإِحسَانِ الَّذِي غَمَرَ النَّاطِقَ وَالبَهِيمَ. نَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَنَا مِنَ الْفَائِزِينَ بِرِضْوَانِكَ، وَتَجْعَلَ مَآلَنَا إِلَى جَنَّاتِكَ وَتُعِيذَنا مِنْ عَذَابِكَ وَنِيرَانِكَ. إِنَّكَ جَوادٌ كَرِيمٌ. رَءُوفٌ رَحِيمٌ.

اللَّهُمَّ ارْحَمْ ذُلَّنا يَوْمَ قِيامِ الأَشْهَادِ، وَآمِنْ خَوْفَنا مِنْ فَزَعِ يَوْمِ الْمَعَادِ. وَوَفِّقْنا لِما تُنْجِينَا بِهِ مِنَ الأَعْمَالِ فِي ظُلَمِ الأَلْحَادِ، وَلاَ تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ.

وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمينَ، الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الفَصْلُ الثَّاني

وَفِيهِ فَصْلٌ

الْحَمْدُ للَّهِ الرَّءُوفِ الْمَنَّانِ، الْكَرِيمِ الْقَدِيمِ الإِحْسَانِ، الْعَلِيِّ الْغَنِيِّ الْقَوِيِّ السُّلْطَانِ. الأَوَّلُ وَلَا زَمَانَ. الآخِرُ وَلَا أَكْوَانَ. الْبَاقِي وَلَا إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ. الَّذِي كَتَبَ بِأَقْلَامِ الأَحْكامِ، فِي أَلْوَاحِ أَرْوَاحِ الأَنامِ، آياتِ التَّوْحِيدِ وَالإِيمَانِ. أَوْقَدَ مَصَابِيحَ التَّوْفِيقِ. بِقُلوبِ أَهْلِ التَّصْدِيقِ، فَرَأَوْا جَمَالًا لاَ يُمَثَّلُ لِلْعَيَانِ، وَلَا يُخَيَّلُ لِلْجَنَانِ.

صَفَّى أَسْرَارَ قَوْمٍ وَكَدَّرَ أَسْرَارَ آخَرِينَ وَشَانَ. فَأَهْلُ الْكَدَرِ يَتَعادَوْنَ، وَأَهْلُ الصَّفَاءِ يَتَهَادَوْنَ وَيَتَدَاعَوْنَ كَالْإِخْوَانِ، وَيَتَلاقَوْنَ بِالْقُلُوبِ وَإِنْ تَباعَدَتِ الْأَوْطَانُ، وَيَتَلاقَوْنَ بِالْإِخْلاصِ لِلضَّمَائِرِ وَإِنْ نَأَى بِهِمُ الْمَكَانُ، وَيُحَذِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مَوَاطِنَ الْإِثْمِ وَالْخُسْرَانِ. وَيَتَوَاصَوْنَ بِالْبِرِّ وَالْإِيثَارِ وَالْإِحْسَانِ.

كَما أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ خَالِقُ الْخَلْقِ وَمُكَوِّنُ الْأَكْوانِ؛ فَقَدْ قالَ تَعالَى فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ وَمَنَحَهُمُ الْخَيْرَ الدَّائِمَ وَجَعَلَ كُلَّ دَهْرِهِمْ رَمَضَانَ.

فالْخَائِفُونَ وَاقِفُونَ عَلَى أَقْدَامِ الْأَلْطَافِ، مُتَّصِفُونَ بِأَحْسَنِ الْأَوْصَافِ، يُنادِيهِمْ مُنَادِي الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾، فَهُمْ فِي مَحَارِيبِ عِبَادَتِهِمْ يَتَمَايلُونَ وَقْتَ السَّحَرِ مَيْلَ الشَّجَرِ بِالْأَغْصَانِ، هَزَّ الشَّوْقُ أَفْنَانَ قُلُوبِهُمْ فَتَنَاثَرَتِ الْأَفْنانُ؛ فاللِّسَانُ يَضْرَعُ، وَالْقَلْبُ يَخْشَعُ. والْعَيْنُ تَدْمَعُ. وَالْوَقْتُ بُسْتَانٌ. خَلْوَتُهُمْ بالْحَبِيبِ شَغَلَتْهُمْ عَنِ الْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ. وَسُرُورُهُمْ بِحَضْرَتِهِ مَنَعَهُمْ مِنْ لَذِيذِ الْمِهَادِ. يُرَاوِحُونَ بَيْنَ الْأَرْجُلِ وَالْجِبَاهِ إِذَا انْطَبَقَتِ الْأَجْفَانُ.

طَالتْ عَلَيْهِمْ أَيَّامُ الْحَيَاةِ، وَتَدَارَكُوا مَواسِمَ الْخَيْرَاتِ قَبْلَ الْفَوَاتِ. والْمُحِبُّ إِلَى الْحَبِيبِ ظَمْآنُ. قامُوا عَلَى أَقْدَامِهِمْ قِصَارًا، فَعَوَّضَهُمْ بِهِ شَيْئًا أَوْدَعَ عُقُولَ الْعَالَمِينَ حَيَارَى. وَيَا فَوْزَهُمْ يَوْمَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ.

فَتَلَمَّحْ بِعَيْنِ الْبَصِيرَةِ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، وَاجْلُ مِرْآةَ السَّرِيرَةِ تَرَى الْبُرْهَانَ. أَيْنَ أَنْتَ مِنْهُمْ؟ مَا نائِمٌ كَيَقْظَانَ، كَمْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ؟ أَيْنَ الشُّجَاعُ مِنَ الْجَبَانِ؟ مَا لِلْمَوَاعِظِ فِيكَ مَوْضِعٌ، وَالْقَلْبُ مِنْكَ بِالْهَوَى مَلْآنُ. قِفْ عَلَى بابِ الْحَبِيبِ وُقُوفَ وَلْهَانٍ. وَنَكِّسْ رَأْسَ الْحَيَاءِ تَنْكِيسَ نَدْمَانٍ، وَارْكَبْ سَفِينَةَ الصِّدْقِ فَهَذَا الْمَوْتُ طُوفَانٌ، وَأَفِقْ مِنْ خِمَارِ الْهَوَى، فَإِلَى مَتَى أَنْتَ بِدَاءِ الرَّدَى سَكْرَانُ؟ أَتَبِيعُ مَا يَبْقَى بِمَا يَفْنَى؟ هَذَا وَاللَّهِ عَيْنُ الْخُسْرَانِ.

شِعْر:

أَتَيْتُكَ سَائِلًا فارْحَمْ عَنَائِي ... فَعِنْدَكَ يَا كَرِيمُ دَوَاءُ دَائِي

فَلاَ أَحَدٌ سِوَاكَ إِلَيْهِ أَشْكُو ... فَيَرْحَمُ عَبْرَتِي وَيَرَى بُكَائِي

فَيَا مَوْلَى الْوَرَى جُدْ لِي بِعَفْوٍ ... وَمُنَّ بِنَظْرَةٍ فِيهَا شِفَائِي

رَأَيْتُ كَثِيرَ مَا أُهْدِي قَلِيلًا ... لِمِثْلِكَ فاقْتَصَرْتُ عَلَى الثَّنَاءِ

فَسُبْحَانَ مَنْ مَنَّ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِهَذَا الشَّهْرِ الشَّرِيفِ، وَاخْتَصَّهُ بِالْفَضْلِ وَالتَّشْرِيفِ، وَمَنَحَهُمْ فِيهِ الْخَيْرَ وَالْإِحْسَانَ، وَأَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِمْ فِيهِ الْقُرْآنَ فَكَفَى بِهَذَا شَرَفًا، وَأَعَدَّ لِمَنْ قامَهُ وَصَامَهُ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا جِنَانًا وَغُرَفًا فِي فَسِيحِ الْجِنَانِ.

أَحْمَدُهُ وَهُوَ وَلِيُّ الْحَمْدِ وَمُسْتَحِقُّهُ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا عَلَى إِحْسَانٍ لاَ يُؤَدَّى حَقُّهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً مِنْ قَلْبٍ ظَهَرَ صِدْقُهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي فَضَّلَهُ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ مَا تَعَاقَبَتِ الْأَزْمَانُ. صَلاَةً دَائِمَةً إِلَى يَوْمِ قِيَامِ الْأَبْدَانِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾.

كانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخُصُّ رَمَضَانَ بِالاجْتِهَادِ، وَكَانَ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْهُ مَا لاَ يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهَا، كَما ثَبَتَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ.

وَقَامَ ﷺ فِي اللَّيْلِ حَتَّى تَفَطَّرَتْ قَدَمَاهُ، وَرُوِيَ: «أَنَّهُ قامَ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَتَقُولُ لَهُ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟».

وَكَانَ يُسْمَعُ لِصَدْرِهِ وَهُوَ فِي الصَّلاَةِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ، وَقَال لِعَائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «وَمَا يُؤْمِنُنِي يا عَائِشَةُ وَقُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ شَاءَ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلَّبَهُ؟».

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُمْسِكُ بِلِسَانِ نَفْسِهِ وَيَقُولُ: «هَذَا الَّذِي أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ». وَكَانَ يَبْكِي كَثِيرًا وَيَقُولُ: «ابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا»، فَإِذَا قامَ إِلَى الصَّلاَةِ كَأَنَّهُ عُودٌ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَمُرُّ بِالآيَةِ فِي وِرْدِهِ بِاللَّيْلِ فَتَخْنُقُهُ الْعَبْرَةُ؛ فَيَبْقَى فِي الْبَيْتِ أَيَّامًا وَيُعَادُ.

وَكَان عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَبْكِي حَتَّى تَبْتَلَّ لِحْيَتُهُ، وَقَالَ: «لَوْ أَنَّنِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لاَ أَدْرِي إِلَى أَيَّتِهِما يُذْهَبُ بِي، لاخْتَرْتُ أَنْ أَكُونَ رَمَادًا قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ إِلَى أَيَّتِهِما أَصِيرُ».

وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَهُ مِنَ الْبُكَاءِ وَالْخَوْفِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِ وَأَخْبَارُهُ مَشْهُورَةٌ.

وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يَقُولُ: «يَا لَيْتَنِي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ. وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أُخْلَقْ».

وَكَانَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ يُنَادِي فِي اللَّيْلِ: هَمُّكَ عَطَّلَ عَلَيَّ الْهُمُومَ، وَحَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ الرُّقادِ. وَشَوْقِي إِلَى لِقَائِكَ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّذَّات، وَأَنَا فِي سِجْنِكَ يا كَرِيمُ.

وَكَانَ سَرِيٌّ السَّقَطِيُّ يَقُومُ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى وَقْتِ السَّحَرِ، ثُمَّ يَجْلِسُ فَيَبْكِي حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ.

وَسَمِعَ بَعْضُهُمْ قارِئًا يَقْرَأُ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ فاضْطَرَبَ وَمَاتَ.

وَسَمِعَ آخَرُ قارِئًا يَقْرَأُ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ فَصَاحَ وَمَاتَ.

هٰؤُلاَءِ مَعَ الطَّاعَاتِ وَالاجْتِهَادِ خَائِفُونَ، وَعَلَى بَابِ الذُّلِّ وَالافْتِقَارِ وَاقِفُونَ، وَبَيْنَ يَدَيْ مَوْلاَهُمْ بِأَسْرَارِهِمْ عَاكِفُونَ، يَسْأَلُونَ مَوْلاَهُمْ صَرْفَ الْعَذَابِ، وَيَخَافُونَ مِنْ إقامَةِ الْعَدْلِ وَالتَّوْبِيخِ وَالْعِتَابِ، وَيَخْشَوْنَ سَطْوَةَ الْقَهْرِ وَصَوْلَةَ الْعِزِّ وَالْمَنْعِ وَالْحِجابِ.

وَالْغَافِلُ مِثْلُنَا ـ مَعَ تَفْرِيطِهِ وَإِهْمَالِهِ، وَتَقْصِيرِهِ فِي أَعْمَالِهِ ـ قَلِيلُ الْفِكْرَةِ فِي حَالِهِ وَمَآلِهِ.

فَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَمَا أَبْعَدَ هَاتَيْنِ الطَّرِيقَتَيْنِ.

فَيا إِخْوَانِي، اغْتَنِمُوا زَمَنَكُمْ، وَبَادِرُوا الصِّحَّةَ قَبْلَ سَقَمِكُمْ، وَخُذُوا مِنْ وُجُودِكُمْ قَبْلَ عَدَمِكُمْ، وَاحْفَظُوا أَمَانَةَ التَّكْلِيفِ لِمَنْ أَمَّنَكُمْ، فَكَأَنَّكُمْ بِالْحَمِيمِ وَقَدْ دَفَنَكُمْ، وَالْعَمَلِ بِالضَّرِيحِ قَدِ ارْتَهَنَكُمْ.

شِعْر:

وَنادِ بِقَلْبٍ خَاشِعٍ مُتَضَرِّعًا ... بِما شِئْتَ مِنْ كُلِّ الدُّعَا غَيْرَ مُعْتَدِ
وَتَسْتَغْفِرُ اللّٰهَ الْعَظِيمَ بِتَوْبَةٍ ... وَتَرْفَعُ كَفَّ الْمُسْتَغِيثِ الْمُجَهَّدِ
وَتَدْعُو دُعَاءَ الْمُخْبِتِينَ بِرَغْبَةٍ ... دُعَاءَ غَرِيقٍ فِي دُجَى اللَّيْلِ مُفْرَدِ
فَإِنَّ الَّذِي تَدْعُوهُ يَرْزُقُ مَنْ عَصَى ... وَفاتِحُ بابٍ لِلْمُطِيعِ وَمُعْتَدِي
وَلَكِنَّمَا صِدْقُ الرَّجَاءِ مَفَاتِحُ الْـ ... ـخَزَائِنِ فادْعُهْ وَابْتَغِ الْفَضْلَ وَاجْهَدِ
وَقُلْ بِانْكِسَارٍ قارِعًا بابَ رَاحِمٍ ... قَرِيبٍ مُجِيبٍ بِالْفَوَاضِلِ يَبْتَدِي:
إِلٰهِي، أَتَى الْعَاصُونَ بابَكَ مَلْجَأً ... لِيَرْجُونَ عَفْوًا مِنْكَ رَبِّي وَسَيِّدِي
إِلَيْكَ فَرَرْنا مِنْ عَذَابِكَ رَهْبَةً ... فَلاَ تَطْرُدَنَا عَنْ جَنَابِكَ وَاسْعِدِ
دَعَوْناكَ لِلأَمْرِ الَّذِي أَنْتَ ضَامِنٌ ... إِجَابَتَهُ يا غَيْرَ مُخْلِفِ مَوْعِدِ
إِلَيْكَ مَدَدْنا بِالرَّجَاءِ أَكُفَّنَا ... فَحَاشَاكَ مِنْ رَدِّ الْفَتَى صَافِرَ الْيَدِ

وَأَمَّا مَا ذُكِرَ عَنِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي الصِّيَامِ، فَقالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْجُوزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالى: كانَ جَماعَةٌ مِنَ السَّلَفِ يَغْتَنِمُونَ الْعُمُرَ، فَيَسْرُدُونَ الصَّوْمَ، وَلَا يُفْطِرُونَ إِلَّا الْأَيَّامَ الْمُحَرَّمَةَ.

كانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَسْرُدُ الصَّوْمَ. وَسَرَدَهُ أَبُو طَلْحَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً. وَسَرَدَتْهُ عَائِشَةُ وَعُرْوَةُ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ.

وَقَدْ كانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَبْكِي عِنْدَ الْمَوْتِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقال: أَبْكِي عَلَى يَوْمٍ مَا صُمْتُهُ، وَعَلى لَيْلَةٍ مَا قُمْتُها.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الصَّائِمَ نَوْمُهُ عِبادَةٌ، وَنَفَسُهُ تَسْبِيحٌ، وَدُعَاؤُهُ مُسْتَجابٌ، وَعَمَلُه مُضاعَفٌ. وَكَيْفَ لاَ يَكونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَقَدْ مَنَعَ نَفْسَهُ الشَّهَوَاتِ، وَتَرَكَ اللَّذَّاتِ، فآثَرَ نَصِيبَ مَوْلاَهُ عَلَى نَصِيبِهِ مِنَ الْمَلاَذِّ وَالشَّهَوَاتِ، وَأَطَاعَ أَمْرَ مَعْبُودِهِ وَتَلَذَّذَ بِرُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ؟ كَما قِيلَ: إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا نامَ فِي سُجُودِهِ يُبَاهِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ الْمَلاَئِكَةَ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: يَا مَلائِكَتِي، انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، رُوحُهُ عِنْدِي وَجَسَدُهُ بَيْنَ يَدَيَّ. أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ.

فَمَا أَحْسَنَ سُجُودَ السَّاجِدِينَ، وَمَا أَعَزَّ أَنْفاسَ الصَّائِمِينَ، وَما أَرْبَحَ بَضَائِعَ الْعَابِدِينَ، وَما أَطْيَبَ مُنَادَمَةَ الْمُحِبِّينَ، وَمَا أَنْفَعَ جُوعَ أَكْبادِ الصَّائِمِينَ! كَما قِيلَ: إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا نَامَ وَهُوَ جَوْعانُ مِنَ الصِّيامِ هَرَبَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ.

فانْظُرْ يا أَخِي إِلَى بَرَكَةِ الْجُوعِ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ وَنَفْعِهِ كَيْفَ يَفِرُّ مِنْكَ الشَّيْطان.

حُكِيَ أَنَّ بَعْضَ الصَّالِحِينَ كانَ يَمْشِي إِلَى الْمَسْجِدِ فَرَأَى رَجُلًا يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ وَرَجُلًا نائِمًا عَلَى بابِ الْمَسْجِدِ، وَالشَّيْطَانُ قائِمٌ يَتَحَيَّرُ وَيَلْتَهِبُ. فَقالَ لَهُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ: مَا لِي أَرَاكَ حائِرًا؟ فَقَالَ: فِي هَذَا الْمَسْجِدِ رَجُلٌ قائِمٌ يُصَلِّي وَكُلَّما هَمَمْتُ أَنْ أَدْخُلَ إِلَيْهِ أُغْوِيهِ وَأَشْغَلُهُ فِي صَلاَتِهِ تَمْنَعُنِي أَنْفاسُ هَذَا الصَّائِمِ الَّذِي عَلى بابِ الْمَسْجِدِ. وَالنَّائِمُ الَّذِي عَلَى بابِ الْمَسْجِدِ كانَ صائِمًا.

فَلِلَّهِ دَرُّ أنْفاسِ الصَّائِمِينَ كَيْفَ تَحْرُسُ الْقُلُوبَ وَالْأَجْسَادَ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ، فَلاَ يَصِلُ إِلَيْهَا وَلاَ يُقْدِمُ عَلَيْهَا.

فَسُبْحَانَ مَنْ وَفَّقَ الْأَحْبَابَ لِلْهِدَايَةِ وَالصَّوَابِ. قَالَ:

أَنْتَ وَفَّقْتَ مَنْ إِلَيْكَ أَنابا ... أَنْتَ أَصْلَحْتَ مَنْ أَصَابَ الصَّوابا

أَنْتَ حَبَّبْتَ ما تُحِبُّ إِلَيْهِمْ ... ثُمَّ أَعْطَيْتَهُمْ عَلَيْهِ ثَوابا

أَنْتَ عَرَّفْتَهُمْ كُنُوزَ الْمَعَالِي ... فَغَدَوْا يَبْحَثُونَ عَنْهَا طِلاَبا

وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعالَى هُوَ أَجْوَدُ الأَجْوَدِينَ، وَأَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ، وَجُودُهُ وَكَرَمُهُ يَخْتَصُّ فِي هَذَا الشَّهْرِ الشَّرِيفِ.

فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يُحافِظَ عَلَى الْمُسَابَقَةِ إِلَى الخَيْرَاتِ وَيَحْرِصَ عَلَى نَفْعِ الْمُسْلِمِينَ بِما يَقْدِرُ عَلَيْهِ: مِنْ صَدَقَةٍ، وَفِعْلِ مَعْرُوفٍ، وَبَذْلِ مَيْسُورٍ مِمَّا يُنَشِّطُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْقِيَامِ وَالصِّيَامِ: مِنْ بُخُورٍ وَطِيبٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِها، وَبُطُونُها مِنْ ظُهُورِها. قالُوا: لِمَنْ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِمنْ أَطَابَ الْكَلاَمَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيامٌ».

أَيُّهَا الْغَافِلُ عَنْ فَضِيلَةِ هَذَا الشَّهرِ، اعْرِفْ زَمَانَكَ، يا كَثِيرَ الْحَدِيثِ فِيمَا يُؤْذِي، احْفَظْ لِسانَكَ، يا مَسْئُولًا عَنْ أَعْمَالِهِ، اعْقِلْ شَأْنَكَ، يا مُتَلَوِّثًا بالزَّلَلِ، اغْسِلْ بِالتَّوبَةِ مَا شَانَكَ، يا مَكْتُوبًا عَلَيْهِ كُلُّ قَبِيحٍ، تَصَفَّحْ دِيوَانَكَ، يا مَن قَدْ شَانَت بِالْمَعَاصِي أَخْبَارُهُ، يا مَن قَد قَبُحَ إِعْلاَنُهُ وَإِسْرَارُهُ، يا فَقِيرًا مِنَ الْهُدَى أَهْلَكَهُ إِعْسَارُهُ، يا كَثِيرَ الذُّنُوبِ وَقَدْ دَنا إِحْضَارُهُ، يا مُحْتَرِقًا بِنارِ الْحِرْصِ مَتَى تَخْبُو نارُهُ، يا كثِيرَ الْقَبَائِحِ، غَدًا تَنْطِقُ الْجَوارِحُ. أَيْنَ الدُّمُوعُ السَّوَافِحُ عَلَى تِلْكَ الْفَضائِحِ؟ يا ذَا الدَّاءِ الشَّدِيدِ الْفَاضِحِ، مَا أَعْسَرَ مَرَضَ الْجَوَانِحِ، هَذَا الشَّيْبُ دَلِيلٌ وَاضِحٌ، وَهُوَ فِي الْمَعْنَى عَذُولٌ ناصِحٌ.

أَيْنَ زَادُكَ يا أَيُّها الرَّائِحُ؟ أَيْنَ مَا حَصَّلْتَ فِي هَذَا الشَّهْرِ؟ هَلْ أَنْتَ رَابِحٌ؟ يا أَسَفًا لِهَذَا النَّازِحِ، كَيْفَ حَالُهُ فِي الضَّرائِحِ؟ وَمَنْ لَهُ إِذَا أَوْثَقَهُ الذَّابِحُ؟ مَنْ لَهُ إِذَا قَامَ النَّائِحُ؟ وَلَمْ يَنْفَعْهُ فِي بُطُونِ الصَّفَائِحِ، إِلَّا عَمَلٌ ـ إِنْ كَانَ لَهُ ـ صَالِحٌ.

إِخْوَانِي، أَيْنَ مَنْ كانَ مَعَكُمْ فِي رَمَضَانَ الْمَاضِي؟ أَمَا أَتَتْهُ آفاتُ الْمَنُونِ الْقَوَاضِي؟ أَيْنَ مَنْ كانَ يَتَرَدَّدُ فِي الْمَسَاجِدِ فِي الظُّلَمِ؟ سَافَرَ عَنْ دِيارِهِ مُنْذُ زَمَانٍ وَلَمْ. أَيْنَ مَنِ ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ بِالْأَدْعِيَةِ؟ خَرَجَتْ تِلْكَ الْجَوَاهِرُ مِنْ تِلْكَ الْأَوْعِيَةِ.

قالَ أَبُو طَارِقٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: شَهِدْتُ ثَلاثِينَ رَجُلًا مَاتُوا فِي مَجَالِسِ الذِّكْرِ، يَمْشُونَ بِأَرْجُلِهِمْ صِحَاحًا إِلَى الْمَجْلِسِ، وَأَجْوَافُهُمْ وَاللَّهِ قَرِيحَةٌ، فَإِذَا سَمِعُوا الْمَوْعِظَةَ انْصَدَعَتْ قُلُوبُهُمْ فماتُوا.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: الْخَوْفُ يَمْنَعُنِي مِنْ أَكْلِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَلا أَشْتَهِيهِ.

يَا مَنْ أَرْكانُ إِخْلَاصِهِ وَاهِيَةٌ، أَمَا لَكَ مِنْ عَقْلِكَ نَاهِيَةٌ؟ إِلَى مَتَى نَفْسُكَ سَاهِيَةٌ مُعْجَبَةٌ بِالدُّنْيَا زَاهِيَةٌ، مُفَاخِرَةٌ لِلْأَقْرَانِ مُضَاهِيَةٌ؟ أَمَا لَكَ عِبْرَةٌ فِيمَا خَلَا قَبْلَكَ مِنَ الْأَقْرَانِ الْمَاضِيَةِ؟ قالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ:

وَمَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ إِقَامَةٍ	فَيَحْزَنَ فِيهَا الْقَاطِنُ الْمُتَرَحِّلُ
هِيَ الدَّارُ إِلَّا أَنَّهَا كَمَفَازَةٍ	أَنَاخَ بِهَا رَكْبٌ وَرَكْبٌ تَحَوَّلُ
وَمَا خَلْفَنَا فِيهَا مَفَرٌّ لِهَارِبٍ	فَكَيْفَ لِمَنْ رَامَ النَّجَاةَ تَحَيُّلُ
وَكُلٌّ وَإِنْ طَالَ الثَّوَاءُ مَصِيرُهُ	إِلَى مَوْرِدٍ مَا عَنْهُ لِلْخَلْقِ مَعْدِلُ

فَصْلٌ

إِخْوَانِي: هَذَا شَهْرُ رَمَضَانَ. يَا لَهُ مِنْ وَقْتٍ عَظِيمِ الشَّانِ. تَجِبُ حِرَاسَتُهُ مِمَّا إِذَا حَلَّ شَانَ. كَأَنَّكُمْ بِهِ قَدْ رَحَلَ وَبانَ. وَوَجْهُ الصَّالِحِ مَا بانَ.

قالَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ عَيْنُكَ مُطْلَقَةٌ فِي الْحَرَامِ، وَلِسَانُكَ مُنْبَسِطٌ فِي الآثامِ، وَلِأَقْدَامِكَ عَلَى الذُّنُوبِ إِقْدَامٌ. وَمَا لِمَواسِمِ الْفَضْلِ عِنْدَكَ احْتِرَامٌ. وَالكُلُّ مُثْبَتٌ فِي الدِّيوانِ. تاللَّهِ لَوْ عَقَلْتَ حَالَكَ أَوْ ذَكَرْتَ ارْتِحَالَكَ، أَوْ تَصَوَّرْتَ أَعْمَالَكَ. لَبَنَيْتَ بَيْتَ الأَحْزَانِ. سَيَشْهَدُ رَمَضَانُ عَلَيْكَ بِنُطْقِ لِسَانِكَ. وَنَظَرِ عَيْنَيْكَ، وَسَيُشَارُ يَوْمَ الْجَمْعِ إِلَيْكَ: شَقِيَ فُلَانٌ أَوْ سَعِدَ فُلَانٌ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قالَ: «كانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ. وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ. حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ جِبْرِيلُ ﵇ يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ ﵇ كانَ أَجْوَد بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ».

كانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ﵁ يَقُولُ: «صَلُّوا فِي ظُلْمَةِ اللَّيلِ رَكْعَتَيْنِ لِظُلْمَةِ الْقُبُورِ. صُومُوا يَوْمًا شَدِيدًا حَرُّهُ لِحَرِّ يَوْمِ النُّشُورِ. تَصَدَّقُوا بِصَدَقَةِ السِّرِّ لِيَوْمٍ عَسِيرٍ».

كانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ يُوَاظِبُونَ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ. وَيَجْتَهِدُونَ عَلَى إِخْفَاءِ تَهَجُّدِهِمْ.

قالَ الْحَسَنُ: كانَ الرَّجُلُ يَكُونُ عِنْدهُ زُوَّارُهُ فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ يُصَلِّي لَا يَعْلَمُ بِهِ زُوَّارُهُ.

وَكَانُوا يَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ، وَلاَ يُسْمَعُ لَهُمْ صَوْتٌ. وَكَانَ الرَّجُلُ يَنَامُ مَعَ امْرَأَتِهِ عَلَى وِسَادَةٍ فَيَبْكِي لَيْلَتَهُ وَهِيَ لَا تَشْعُرُ.

وَلِصَلاَةِ اللَّيْلِ عَلَى صَلاَةِ النَّهارِ فَضلٌ، لِأَنَّهَا أَبْلَغُ فِي الإِسْرَارِ وَأَقْرَبُ إِلى الإِخْلاَصِ وَأَشَقُّ عَلَى النُّفُوسِ، فَإِنَّ اللَّيْلَ مَحَلُّ النَّوْمِ وَالرَّاحَةِ مِنَ التَّعَبِ بِالنَّهَارِ، وَلِأَنَّ الْقِرَاءَةَ فِي صَلاَةِ اللَّيْلِ أَقْرَبُ إِلَى التَّدَبُّرِ وَأَحْضَرُ لِلْقَلْبِ، وَيَتَوَاطَأُ هُوَ وَاللِّسَانُ عَلَى الْفَهْمِ.

وَصَلاَةُ اللَّيْلِ مَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ، وَلِهَذَا لَمَّا قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ فُلاَنًا يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ؛ فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ؟ قَالَ: «سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ».

وَلِأَنَّ وَقْتَ التَّهَجُّدِ مِنَ اللَّيْلِ أَفْضَلُ أَوْقَاتِ التَّطَوُّعِ بِالصَّلاَةِ، وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ وَقْتُ فَتْحِ أَبْوَابِ السَّمَاءِ، وَاسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ، وَاسْتِعْرَاضِ حَوَائِجِ السَّائِلِينَ.

وَفِي اللَّيْلِ سَاعَةُ الإِجَابَةِ، وَفِيهِ النُّزُولُ الإِلٰهِيُّ؛ فَيَنْبَغِي لِمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَحْرِصَ عَلَى اغْتِنَامِ فُرَصِ الْخَيْرَاتِ.

فَعَنْ جَابِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَاعْلَمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ كَانَ يُطِيلُ الْقِرَاءَةَ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ فِي اللَّيْلِ خَاصَّةً أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ.

وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ مِنَ اللَّيْلِ وَمَعَهُ حُذَيْفَةُ فَقَرَأَ بِالْبَقَرَةِ ثُمَّ النِّسَاءِ ثُمَّ آلِ عِمْرَانَ، لاَ يَمُرُّ بِآيَةِ تَخْوِيفٍ إِلَّا وَقَفَ يَتَعَوَّذُ، وَلاَ آيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ يَسْأَلُ، قَالَ: فَمَا صَلَّى الرَّكْعَتَيْنِ حَتَّى جَاءَ بِلاَلٌ وَآذَنَهُ بِالصَّلاَةِ».

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدِهِ إِلَى ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ» يَعْنِي: أَنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ قِنْطَارٌ مِنَ الأَجْرِ، وَأَنْشَدَ ذُو النُّونِ الْمِصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَنَعَ الْقُرَآنُ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ... مُقَلَ الْعُيُونِ بِلَيْلِهَا لاَ تَهْجَعُ

فَهِمُوا عَنِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ كَلاَمَهُ ... فَهِمَا تَذِلُّ لَهُ الرِّقَابُ وَتَخْضَعُ

يَا مَنْ ضَيَّعَ عُمْرَهُ فِي غَيْرِ الطَّاعَةِ، يَا مَنْ فَرَّطَ فِي شَهْرِهِ بَلْ فِي دَهْرِهِ وَأَضَاعَهُ، يَا مَنْ بِضَاعَتُهُ التَّفْرِيطُ وَالتَّسْوِيفُ، وَبِئْسَتِ الْبِضَاعَةُ، يَا مَنْ جَعَلَ خَصْمَهُ الْقُرْآنَ وَشَهْرَ رَمَضَانَ، كَيْفَ تَرْجُو مِمَّنْ جَعَلْتَهُ خَصْمَكَ الشَّفَاعَةَ؟ وَيْلٌ لِمَنْ شُفَعَاؤُهُ خُصَمَاؤُهُ.

رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالظَّمأُ، وَقَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ التَّعَبُ وَالسَّهَرُ. كُلُّ قِيَامٍ لاَ يَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لاَ يَزِيدُ صَاحِبَهُ إِلَّا بُعْدًا. وَكُلُّ صِيَامٍ لاَ يَنْهَى عَنْ قَوْلِ الزُّورِ وَالْعَمَلِ بِهِ لاَ يُورِثُ صَاحِبَهُ إِلَّا مَقْتًا وَرَدًّا.

يَا قَوْمِ أَيْنَ آثَارُ الصِّيَامِ؟ أَيْنَ أَنْوَارُ الْقِيَامِ؟

هَذَا ـ عِبَادَ اللَّهِ ـ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، فِي بَقِيَّتِهِ لِلْعَابِدِينَ مُسْتَمِعٌ، وَهَذَا كِتَابُ اللَّهِ يُتْلَى بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ وَيُسْمَعُ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي لَوْ أُنْزِلَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا يَتَصَدَّعُ، وَمَعَ هَذَا فَلَا قَلْبٌ يَخْشَعُ، وَلَا عَيْنٌ تَدْمَعُ، وَلَا صِيَامٌ يُصَانُ عَنِ الحَرَامِ فَيَنْفَعُ، وَلَا قِيَامٌ اسْتَقَامَ فَيُرْجَى فِي صَاحِبِهِ أَنْ يَشْفَعَ. قُلُوبٌ خَلَتْ مِنَ التَّقْوَى فَهِيَ خَرَابٌ بَلْقَعٌ، وَتَرَاكَمَتْ عَلَيْهَا ظُلْمَةُ الذُّنُوبِ فَهِيَ لَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ.

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ: اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ خَصَّ شَهْرَ رَمَضَانَ بِخَصَائِصَ كَثِيرَةٍ:

الْأُولَى: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَهُ شَهْرًا مُبَارَكًا.

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ جَعَلَ فِيهِ لَيْلَةً خَيْرًا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ جَعلَ صِيَامَهُ فَرِيضَةً، وَقِيَامَ لَيْلِهِ تَطَوُّعًا.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ جَعَلَ مَنْ تَقَرَّبَ فِيهِ بِخَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ، كانَ كَمَنْ أَدَّى فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ، وَمَنْ أَدَّى فِيهِ فَرِيضَةً كانَ كَمَنْ أَدَّى سَبْعِينَ فَرِيضَةً.

وَتَقَدَّمَ قَوْلُ النَّخْعِيِّ: صَوْمُ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا

سِوَاهُ، وَتَسْبِيحَةٌ فِيهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ تَسْبِيحَةٍ، وَرَكْعَةٌ فِيهِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ رَكْعَةٍ. وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ التِّرْمِذِيِّ فِي الصَّدَقَةِ فِي رَمَضَانَ.

الْخَامِسَةُ: أَنَّهُ جَعَلَهُ شَهْرَ الصَّبْرِ، وَالصَّبْرُ ثَوَابُهُ الْجَنَّةُ.

السَّادِسَةُ: أَنَّهُ شَهْرُ الْمُوَاسَاةِ.

السَّابِعَةُ: أَنَّهُ شَهْرٌ يُزَادُ فِيهِ رِزْقُ الْمُؤْمِنِ.

الثَّامِنَةُ: أَنَّ مَنْ فَطَّرَ فِيهِ صَائِمًا، كانَ كَمَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً، وَمَنْ أَشْبَعَ فِيهِ صَائِمًا أَوْ سَقَاهُ شَرْبَةً مِنْ ماءٍ، سَقَاهُ اللَّهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ شَرْبَةً لاَ يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا.

التَّاسِعَةُ: أَنَّهُ شَهْرٌ أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَأَوْسَطُهُ مُغْفِرَةٌ، وَآخِرَهُ عِتْقٌ مِنَ النَّارِ.

وَفِيهِ خَصَائِصُ كَثِيرَةٌ، وَمَا ذَكَرْنا فِيهِ كِفَايَةٌ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ وَهَدَاهُ، فاسْتَكْثِرُوا فِيهِ مِنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: خَصْلَتَيْنِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُمْ، وَخَصْلَتَيْنِ لَا غِنَى لَكُمْ عَنْهُمَا.

فَأَمَّا الْخَصْلَتَانِ اللَّتَانِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُمْ: فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتَسْتَغْفِرُونَهُ فِي جَمِيعِ الْأَوْقاتِ.

وَأَمَّا الْخَصْلَتَانِ اللَّتَانِ لاَ غِنَى لَكُمْ عَنْهُمَا: فَتَسْأَلُونَهُ الْجَنَّةَ، وَتَعُوذُونَ بِهِ مِنَ النَّارِ.

إِخْوَانِي: آهِ عَلَى مَنْ كانَتِ النَّارُ مَثْوَاهُ. آهِ عَلى مَنْ عَصَى مَوْلَاهُ. آهِ عَلى مَنْ باعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ. آهِ عَلَى مَنْ كانَ التَّعْذِيبُ عُقْبَاهُ. آهِ عَلَى مَنِ اسْتَهْوَاهُ غَيُّهُ فاسْتَعْبَدَهُ هَوَاهُ. آهِ عَلَى الْمَطْرُودِ فِي هَذَا الشَّهْرِ ثُمَّ أَوَاهُ. آهِ عَلَى الْمُذْنِبِينَ أَوَّاهُ. آهِ عَلَى مَنْ جَفَاهُ مَوْلَاهُ. آهِ عَلَى مَنْ عَصَى بِغَفْلَتِهِ وَمَا تَابَ مِنْ خَطَايَاهُ. آهِ عَلَى الْمُذْنِبِ الْحَزِينِ إِذَا لَمْ يَخَفِ اللَّهَ ثُمَّ يَخْشَاهُ. آهِ عَلَى مَنْ يَفُوتُهُ فِي مِثْلِ هَذَا الشَّهْرِ عَفْوُ مَوْلَاهُ. آهِ عَلَى مَنْ يَبِيعُ مُغْتَبِنًا بِدَارِ دُنْيَاهُ دارَ أُخْرَاهُ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﵄ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ: «مَرْحَبًا بِشَهْرٍ خَيْرٌ كُلُّه، صِيَامُ نَهارِهِ، وَقِيامُ لَيْلِهِ، النَّفَقَةُ فِيهِ كالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وَعَنْ أَنَسٍ ﵁ أَنَّهُ قالَ: «يَخْرُجُ الصَّائِمُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُعْرَفُونَ بِرِيحِ الْمِسْكِ، تُنْقَلُ إِلَيْهِمُ الْمَوَائِدُ وَالْأَبارِيقُ، مَخْتُومَةٌ أَفْوَاهُهَا بِالْمِسْكِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: كُلُوا فَقَدْ جُعْتُمْ حِينَ شَبِعَ النَّاسُ، وَاشْرَبُوا فَقَدْ عَطِشْتُمْ حِينَ رَوِيَ النَّاسُ، وَاسْتَرِيحُوا فَقَدْ تَعِبْتُمْ حِينَ اسْتَرَاحَ النَّاسُ، قالَ: فَيَشْرَبُونَ وَيَأْكُلُونَ وَيَسْتَرِيحُونَ، وَالنَّاسُ مَشْغُولُونَ فِي الْحِسَابِ».

وَرَأَى بَعْضُهُمْ بِشْرَ بْنَ الْحَارِثِ فِي الْمَنَامِ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ مَائِدَةٌ وَهُوَ يَأْكُلُ، وَيُقَالُ لَهُ: كُلْ يَا مَنْ لَمْ يَأْكُلْ، وَاشْرَبْ يَا مَنْ لَمْ يَشْرَبْ.

قالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: مَنْ تَرَكَ لِلَّهِ فِي الدُّنْيا طَعَامًا أَوْ شَرَابًا وَتَرَكَ شَهْوَةً مُدَّةً قَلِيلَةً اسْتَرَاحَ وَالنَّاسُ مَشْغُولُونَ فِي الْحِسَابِ.

لَبِسْتُ ثَوْبَ الدُّجَى وَالنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا ... وَبِتُّ أَشْكُو إِلَى مَوْلَايَ مَا أَجِدُ
وَقُلْتُ: يَا أَمَلِي فِي كُلِّ نائِبَةٍ ... وَمَنْ عَلَيْهِ لِكَشْفِ الضُّرِّ أَعْتَمِدُ
أَشْكُو إِلَيْكَ أُمُورًا أَنْتَ تَعْلَمُها ... مَا لِي عَلَى حَمْلِهَا صَبْرٌ وَلاَ جَلَدُ
وَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي بِالذُّلِّ مُبْتَهِلًا ... إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ مُدَّتْ إِلَيْهِ يَدُ
فَلاَ تَرُدَّنَّها يَا رَبِّ خَائِبَةً ... فَبَحْرُ جُودِكَ يُرْوِي كُلَّ مَنْ يَرِدِ

إِخْوانِي: أَيْنَ مَنْ صَامَ عَنِ الْحَرَامِ وَأَفْطَرَ عَلَى الْحَلاَلِ؟ أَيْنَ مَنْ مَنَعَ لِسَانَهُ عَنِ الْغِيبَةِ وَالْقِيلِ وَالْقَالِ؟ أَيْنَ مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَاتَّبَعَ أَحْسَنَ الْحَلاَلِ؟ أَيْنَ مَنْ أَخْلَصَ صِيامَهُ وَقِيامَهُ لِمَوْلَاهُ ذِي الْجَلالِ؟

يَا مُطْلِقًا نَفْسَهُ فِيمَا يَشْتَهِي وَيُرِيدُ، اذْكُرْ عِنْدَ خَطَرَاتِكَ الْمُبْدِىءَ الْمُعِيدَ، وَخَفْ قُبْحَ مَا جَرَى فَالْمَلِكُ يَرَى وَالْمَلِكُ شَهِيدٌ. هَلَّا اسْتَحَيْتَ مِمَّن يَرَاكَ؟ إِذَا رَكِبْتَ مِنْ هَوَاكَ مَا عَنْهُ نَهَاكَ. سَتَبْكِي عَيْنَاكَ عَلَى مَا جَنَتْ يَدَاكَ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّهُ بِالْمِرْصَادِ، فَقُلْ لِي: أَيْنَ تَحِيدُ؟

يَا هَذَا؛ كَلاَمُكَ مَكْتُوبٌ، وَفِعْلُكَ كُلُّهُ مَحْسُوبٌ، وَأَنْتَ غَدًا مَطْلُوبٌ، وَلَكَ ذُنُوبٌ وَلاَ تَتُوبُ، وَشَمْسُ الْحَيَاةِ قَدْ أَخَذَتْ فِي الْغُرُوبِ، فَما أَقْسَى قَلْبَكَ مِنْ بَيْنِ الْقُلُوبِ، وَقَدْ أَتاهُ مَا يَصْدَعُ الْحَدِيدَ وَ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

كانَ الْعَلاَءُ بْنُ زِيَادٍ يَخْتِمُ كُلَّ لَيْلَةٍ خَتْمَةً؛ فَقامَ لَيْلَةً فَرَأى شَخْصًا فِي الْمَنَامِ أَخَذَ بِمُقَدَّمِ رَأْسِهِ وَهُوَ يَقُولُ: قُمْ يَا ابْنَ زِيَادٍ فاذْكُرِ اللَّهَ يَذْكُرْكَ. فَما زَالَتْ تِلْكَ الشَّعَرَاتُ قائِمَةً حَتَّى لَقِيَ اللَّهَ تَعالَى.

وَفِي حَدِيثِ عَطِيَّةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَضْحَكُ إِلَى ثَلاَثَةِ نَفَرٍ: رَجُلٌ قامَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ فَأَحْسَنَ الطُّهُورَ ثُمَّ صَلَّى، وَرَجُلٌ نَامَ وَهُوَ سَاجِدٌ، وَرَجُلٌ فِي كَتِيبَةٍ مُنْهَزِمَةٍ عَلَى فَرَسٍ جَوَادٍ لَوْ شَاءَ أَنْ يَذْهَبَ لَذَهَبَ».

قالَ بَعْضُ السَّلَفِ الصَّالِحِ: أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَحُرِمْتُ بِهِ قِيامَ اللَّيْلِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، مَا تُؤَهِّلُ الْمُلُوكُ لِلْخَلْوَةِ بِهِمْ إِلَّا مَنْ أَخْلَصَ فِي وُدِّهِمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ؛ فَأَمَّا مَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الْمُخَالَفَةِ فَلاَ يُؤَهِّلُونَهُ.

قامَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ فِي لَيْلَةٍ بارِدَةٍ وَعَلَيْهِ ثِيابٌ رَثَّةٌ فَضَرَبَهُ الْبَرْدُ فَبَكَى، فَهَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ: أَقَمْنَاكَ وَأَنَمْناهُمْ ثُمَّ تَبْكِي عَلَيْنا؟

إِخْوَانِي: هَذِهِ بِشَارَةٌ لِلصَّائِمِينَ وَالْقَائِمِينَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، إِذَا حَمَوْا نُفُوسَهُمْ عَنِ الزَّلَلِ وَالْعِصْيانِ، وَأَخْلَصُوا أَعْمَالَهُمْ لِلْوَاحِدِ الْمَنَّانِ. فَكَيْفَ حَالُ الْمُفَرِّطِ الَّذِي يَصُومُ وَيَأْكُلُ لُحُومَ الإِخْوَانِ؟ وَيُصَلِّي وَجِسْمُهُ فِي مَكانٍ وَقَلْبُهُ فِي مَكانٍ، وَيَذْكُرُ اللَّهَ بِلِسَانِهِ وَقَلْبُهُ مَشْغُولٌ بِذِكْرِ فُلاَنٍ وَفُلاَنٍ؟

فَيَا مَنْ أَصْبَحَ إِلَى مَا يَضُرُّهُ مُتَقَدِّمًا، يَا مَنْ أَمْسَى بِناءُ أَمَلِهِ بِكَفِّ أَجَلِهِ مُتَهَدِّمًا، يَا مَنْ كانَ عَنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ مُحْجِمًا. سَتَعْلَمُ غَدًا مَنْ يَعُضُّ عَلَى الْكَفِّ نَادِمًا، وَيَبْكِي عَلَى التَّفْرِيطِ بَعْدَ الدُّمُوعِ دَمًا. لَقَدْ قَرُبَ الْقَوْمُ وَأَنْتَ مُتَبَاعِدٌ، وَحَصَلُوا عَلَى الطَّرِيقِ وَأَنْتَ بِالْغَفْلَةِ رَاقِدٌ.

شَهْرَ الصِّيَامِ لَقَدْ عَلَوْتَ مُكَرَّمَا ... وَغَدَوْتَ مِنْ بَيْنِ الشُّهُورِ مُعَظَّمَا

يَا صَائِمِي رَمَضَانَ هَذَا شَهْرُكُمْ ... فِيهِ أَبَاحَكُمُ الْمُهَيْمِنُ مَغْنَما

يَا فَوْزَ فِيهِ مَنْ أَطَاعَ إِلَـٰهَهُ ... مُتَقَرِّبًا مُتَجَنِّبًا مَا حَرَّمَا

وَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لِلْعَاصِي الَّذِي ... فِي شَهْرِهِ أَكَلَ الْحَرَامَ وَأَجْرَما

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الَّتِي بَدَأْتَ بِها الطَّائِعِينَ حَتَّى قَامُوا بِطَاعَتِهِمْ: أَنْ تَمُنَّ بِها عَلَى الْعَاصِينَ بَعْدَ مَعْصِيَتِهِمْ.

اللَّهُمَّ يا مَنْ لاَ تَضُرُّهُ الْمَعْصِيَةُ وَلاَ تَنْفَعُهُ الطَّاعَةُ، ارْحَمنْا يا مَوْلاَنا فِي هَذِهِ السَّاعَةِ. وَتَعَطَّفْ عَلَى أَيْدٍ امْتَدَّتْ إِلَيْكَ بِالذُّلِّ وَالضَّرَاعَةِ، وَأَيْقِظْنَا يا مَوْلاَنَا مِنْ نَوْمِ الْغَفْلَةِ، وَنَبِّهْنا لاغْتِنَامِ أَوْقَاتِ الْمُهْلَةِ، وَوَفِّقْنا لِمَصَالِحِنَا، وَاعْصِمْنَا مِنْ ذُنُوبِنا وَقَبَائِحِنا، وَاسْتَعْمِلْ فِي طَاعَتِكَ جَمِيع جَوَارِحِنَا، وَلَا تُؤَاخِذْنَا بِما انْطَوَتْ عَلَيْهِ ضَمَائِرُنَا، وَأَكَنَّتْهُ سَرَائِرُنا. وَامْنُنْ عَلَيْنَا يا سَيِّدَنا بِتَوْبَةٍ تَمْحُو عَنَّا كُلَّ ذَنْبٍ وَحَوْبَةٍ، وَتَقَبَّلْ مِنَّا أَجْمَعِينَ، برحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ

فِي ذِكْرِ السَّبعِ الْأَوَاخِرِ وَطَلَبِ لَيلَةِ الْقَدرِ وَفَضلِ الاجتِهَادِ فِي الْأَعْمَالِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَوَّرَ قُلُوبَ أَوْلِيائِهِ بِأَنْوَارِ الْوِفَاقِ، وَرَفَعَ قَدْرَ أَصْفِيَائِهِ، فَعَلا ذِكْرُهُمْ فِي الآفَاقِ، وَطَيَّبَ أَسْرَارَ الْقَاصِدِينَ بِطِيبِ ثَنائِهِ، فَسَمَا فَضْلُهُمْ فِي الدِّينِ وَفاقَ، وَسَقَى أَرْبابَ مُعامَلاَتِهِ مِنْ لَذِيذِ مُنَاجَاتِهِ، شَرَابًا عَذْبَ الْمَذَاقِ فأَقْبَلُوا لِطَلَبِ مَرَاضِيهِ عَلى أَقْدَامِ السِّبَاقِ. وَهَانَ عَلَيْهِمْ حَمْلُ الْمَشَقَّةِ لِما تَحَمَّلُوهُ مِنَ الْأَشْوَاقِ. رَضِيَ قُلُوبَهُمْ لِغَرْسِ وَلايَتِهِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْها غَيْثَ عِنَايَتِهِ، وَاصْطَفَاهُمْ وَرَعَاهُمْ بِرَأْفَتِه، وَمَنَحَهُمُ الرِّضَا يَوْمَ التَّلاقِ. وَأَظْهَرَ عَدْلَهُ بِإِبْعَادِ قَوْمٍ فَحَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالْمُخَالَفَةِ وَالشِّقَاقِ. وَجَعَلَ لَهُمْ مِنَ الْخِذلاَنِ أَغلالًا جَمعتِ الأَيْدِي وَالْأَعْنَاقَ ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

يا وَيْحَ مَنْ قُطِعَ عَنِ الحِسَابِ، يا رَزِيَّةَ مَنْ أُغْلِقَ فِي وَجْهِهِ الْبابُ، يا شَقَاوَةَ مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ فِي أُمِّ الْكِتابِ. تاللَّهِ إنَّ كَسْرَهُ لاَ يُطَاقُ.

فَسُبْحَانَ مَنْ أَيْقَظَ الأَبْرَارَ، وَحَثَّ مَطَايَا شَوْقِهِمْ إِلَى دَارِ الْقَرارِ، وَاسْتَنْهضَ عَزَائِمَهُمْ إِلَى الْمُسَارَعَةِ وَالْبِدَارِ، فَقامُوا عَلَى أَقْدَامِ الْجِدِّ يَتَنَافَسُونَ فِي السِّباقِ. وَتَعَالَى مِنْ إلٰهٍ نَفَّذَ مَقَادِيرَهُ فِي أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْكُفَّارِ، وَقَضَى عَلَى الْخَلاَئِقِ بِمَصَائِبَ تُزْعِجُهُمْ عَنِ الرُّكُونِ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ، وَجَعَلَ لِلْفَضْلِ أَوْقَاتًا يَغْتَنِمُها أَهْلُ الْحُبِّ وَالْإِشْفَاقِ.

أَحْمَدُهُ عَلَى فَضْلِهِ الْمِدْرَارِ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرَ مُعْتَرِفٍ بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِهِ مُتَذَلِّلٍ بَيْنَ خَجَلٍ وَإِطْرَاقٍ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً صَفَا مَوْرِدُهَا وَرَاقَ، أَرْجُو بِهَا النَّجَاةَ مِنْ نَارٍ شَدِيدَةِ الْإِحْرَاقِ، وَأَنْ يَهُونَ بِها عَلَيَّ كَرْبُ السِّيَاقِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَشْرَفُ الْخَلْقِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، الَّذِي أُسْرِيَ بِهِ عَلَى الْبُرَاقِ، حَتَّى جَاوَزَ السَّبْعَ الطِّبَاقِ. صلى الله عليه وَعَلى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْبَرَرَةِ السُّبَّاقِ، صَلاَةً وَسَلامًا إِلَى يَوْمِ التَّلاقِ، وسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قالَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

هَذَا فِيهِ مَدْحٌ لِأَتْباعِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ أَحْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ بِأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ ـ وَهُمْ الْمَنْعُوتُونَ بِهذِهِ الصِّفَاتِ ـ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ مُطِيعَةٌ لِشَرْعِهِ وَمُتَّبِعَةٌ نَبِيَّ اللَّه فَهِيَ قَائِمَةٌ، يَعْنِي: مُسْتَقِيمَةٌ، يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، أَي: يَقُومُونَ اللَّيْلَ وَيُكْثِرُونَ التَّهَجُّدِ وَيَتْلُونَ الْقُرْآنَ فِي صَلَوَاتِهِمْ فَهُمْ يَتَهَجَّدُونَ بِلَيْلِهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا، يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ وَيَتَدَبَّرُونَها، وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ. وَفِي هَذَا مَدْحٌ لَهُمْ وَتَنْوِيهٌ بِذِكْرِهِمْ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْعُلَماءَ قَدِ اخْتَلَفُوا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا. وَالصَّحِيحُ أَنَّها فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَتَخْتَصُّ بِالْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْهُ وَلَيالِي الْوِتْرِ آكَدُ، وَلكِنِ اخْتُلِفَ فِي تَعْيينِهَا.

فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﵄ «أَنَّ رِجالًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ رَأَوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْمَنَامِ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ. فَقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ. فَمَنْ كانَ مُتَحَرِّيها فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ».

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِم عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَإِنْ ضَعُفَ أَحَدُكُمْ أَوْ عَجِزَ فَلاَ يُغْلَبَنَّ عَلَى السَّبْعِ الْبَوَاقِي».

وَقالَ ﷺ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ في الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، وفي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِي: «فِي الْوِتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ».

وَلَهُ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «الْتَمِسُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ: فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى».

وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ: «هِيَ فِي الْعَشْرِ؛ فِي سَبْعٍ يَمْضِينَ. أَوْ سَبْعٍ يَبْقَيْنَ».

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «كَمْ مَضَى مِنَ الشَّهْرِ؟ قُلْنا: مَضَتْ ثِنْتَانِ وَعِشْرُونَ وَبَقِيَ ثَمانٍ. فَقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لاَ بَلْ مَضَتْ ثِنْتَانِ وَعِشْرُونَ وَبَقِيَ سَبْعٌ، اطْلُبُوهَا اللَّيْلَةَ» وَلَكِنَّ فِيهِ احْتِمَالًا لِمَنْ أَرَادَ الْخُصُوصَ.

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ حَدِيثَ أَبِي بَكْرَةَ. وَفِيهِ أَنَّها تُطْلَبُ فِي الْأَوْتَارِ.

وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُنَيسٍ: «أَنَّهُمْ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَذَلِكَ مَسَاءَ لَيْلَةِ ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ. فَقَالَ: الْتَمِسُوهَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ، فَقالَ

رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: فَهِيَ إِذَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُولَى ثمانٍ؟ فَقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّها لَيْسَتْ بِأُولَى ثمانٍ؛ وَلَكِنَّهَا أُولَى سَبْعٍ، إِنَّ الشَّهْرَ لاَ يَتِمُّ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ.

وَكَانَ أَبُو أَيُّوبَ السِّخْتِيَانِيُّ يَغْتَسِلُ لَيْلَةَ ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ، وَيَلْبَسُ ثَوْبَيْنِ جَدِيدَيْنِ، وَيَمَسُّ طِيبًا وَيَقُولُ: لَيْلَةُ ثَلاثٍ وَعِشْرِينَ هِيَ لَيْلَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَلَيْلَةُ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَتُنَا، يَعْنِي أَهْلَ الْبَصْرَةِ.

وَقَدْ عَلِمْتَ مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الشَّرِيفَةِ مِنَ الاخْتِلافِ، وَإِنَّمَا أَخْفَاهَا اللَّهُ تَعَالَى لِيَجْتَهِدَ النَّاسُ فِي الْعَمَلِ كَمَا فِي سَاعَةِ الْجُمُعَةِ.

فَأَمَّا مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ فَهِيَ عِنْدَهُ لَيْلَةُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ. وَهُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِهِ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنهما: «أَنَّهَا تُطْلَبُ لَيْلَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ».

وَلِلشَّافِعِيِّ قَوْلٌ: إِنَّها لَيْلَةُ ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ. وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ. وَاحْتَجُّوا لِذَلِكَ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْتَمِسُوهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ».

وَقالَ أَيْضًا: «لاَ آمَنُ أَنْ تَكُونَ فِي السَّبْعِ الْأَواخِرِ»، وَهَذَا مِمَّا اسْتَدَلَّ بِهِ مَنْ رَجَّحَ لَيْلَةَ ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ عَلَى لَيْلَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ؛ فَإِنَّ لَيْلَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ لَيْسَتْ مِنَ السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ بِلاَ تَرَدُّدٍ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُنَيْسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ: «أُرِيتُ أَنِّي أَسْجُدُ صَبِيحَتَهَا فِي مَاءٍ وَطِينٍ، فانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ صَلاَةِ الصُّبْحِ يَوْمَ ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ وَعلى جَبْهَتِهِ أَثَرُ الْمَاءِ وَالطِّينِ». وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَهُ بِقِيَامِهَا.

وَرَوَى رُشْدُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ زَهْرَةَ بْنِ مَعْبَدٍ قالَ: «أَصَابَنِي احْتِلاَمٌ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ وَأَنَا فِي الْبَحْرِ لَيْلَةَ ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ، فَذَهَبْتُ لِأَغْتَسِلَ فَسَقَطْتُ

فِي الْمَاءِ، فَإِذَا الْمَاءُ عَذْبٌ، فَنَادَيْتُ أَصْحَابِي أُعْلِمُهُمْ أَنِّي فِي مَاءٍ عَذْبٍ» قالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: تُعْرَفُ هَذِهِ اللَّيْلَةُ بِلَيْلَةِ الْجُهَنِي بِالْمَدِينَةِ - يَعْنِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُنَيسٍ الْجُهَنِي.

وَقَدْ رَوَى مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّإِ عَنْهُ: «أَنَّهُ قالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي رَجُلٌ شَاسِعُ الدَّارِ، فَمُرْنِي لَيْلَةً أَنْزِلُ لَها، فَقالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: انْزِلْ لَيْلَةَ ثَلاثٍ وَعِشْرِينَ». وَسَيَأْتِي بِقَيَّةُ الْكَلامِ عَلَيْهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فَصْلٌ

قالَ فِي اللَّطَائِفِ: لَمَّا سَمِعَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، وَقَــوْلَـــهُ: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فَهِمُوا أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ: أَنْ يَجْتَهِدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يكُونَ هُوَ السَّابِقُ لِغَيْرِهِ إِلَى هَذِهِ الْكَرَامَةِ، وَالْمُسَارِعُ إِلَى بُلُوغِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ الْعَالِيَةِ. فَكانَ أَحَدُهُمْ إِذَا رَأَى مَنْ يَعْمَلُ عَمَلًا يَعْجِزُ عَنْهُ خَشِيَ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ ذَلِكَ الْعَمَلِ هُوَ السَّابِقُ لَهُ فَيَحْزَنُ لِفَوَاتِ سَبْقِهِ، فَكَانَ تَنافُسُهُمْ فِي دَرَجَاتِ الْآخِرَةِ وَاسْتِبَاقُهُمْ إِلَيْهَا كَمَا قَال تَعالَى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾، ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ فَعَكَسُوا الْأَمْرَ، فَصَارَ تَنَافُسُهُمْ فِي الدُّنْيا الدَّنِيئَةِ وَحُظُوظِهَا الْفَانِيَةِ.

قالَ الْحَسَنُ: إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يُنافِسُكَ فِي الدُّنْيا فَنَافِسْهُ فِي الآخِرَةِ.

وَقَالَ وَهِيبُ بْنُ الْوَرْدِ: إِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَسْبِقَكَ إِلَى اللَّهِ أَحَدٌ فافْعَلْ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ بِرَجُلٍ أَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْهُ كانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْزِنَهُ ذَلِكَ.

وَقالَ غَيْرُهُ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ بِرَجُلٍ أَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْهُ، فَانْصَدَعَ قَلْبُهُ فَماتَ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِعَجَبٍ.

قالَ رَجُلٌ لِمالِكِ بْنِ دِينارٍ: رَأَيْتُ فِي الْمَنامِ مُنادِيًا يُنادِي: أَيُّهَا النَّاسُ، الرَّحِيلَ الرَّحِيلَ؛ فَما رَأَيْتُ أَحَدًا يَرْتَحِلُ إِلَّا مُحَمَّدَ بْنَ واسِعٍ، فَصاحَ مالِكٌ وَغُشِيَ عَلَيْهِ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

صاحِبُ الْهِمَّةِ الْعالِيَةِ، وَالنَّفْسِ الشَّرِيفَةِ التَّوَّاقَةِ، لَا يَرْضَى بِالْأَشْياءِ الدَّنِيئَةِ الْفانِيَةِ. وَإِنَّما هِمَّتُهُ الْمُسابَقَةُ إِلَى الدَّرَجاتِ الْباقِيَةِ الزَّاكِيَةِ، الَّتِي لَا تَفْنَى وَلاَ يَرْجِعُ عَنْ مَطْلُوبِهِ وَلَوْ تَلِفَتْ نَفْسُهُ فِي طَلَبِهِ، وَمَنْ كانَ فِي اللَّهِ تَلَفُهُ كانَ عَلَى اللَّهِ خَلَفُهُ.

قِيلَ لِبَعْضِ الْمُجْتَهِدِينَ فِي الطَّاعاتِ: لِمَ تُعَذِّبُ هَذا الْجَسَدَ؟ قالَ: كَرامَتَهُ أُرِيدُ.

وَإِذا كانَتِ النُّفُوسُ كِبارًا تَعِبَتْ فِي مُرادِها الْأَجْسامُ

قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: إِنَّ لِي نَفْسًا تَوَّاقَةً ما نالَتْ شَيْئًا إِلَّا تاقَتْ إِلَى ما هُوَ أَفْضَلَ مِنْهُ، وَإِنَّها لَمَّا نالَتْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ، يَعْنِي: الْخِلافَةَ، وَلَيْسَ فِي الدُّنْيا مَنْزِلَةٌ أَعْلَى مِنْها، تاقَتْ إِلَى ما هُوَ أَعْلَى مِنْها، يَعْنِي الْآخِرَةَ.

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرامِ الْمَكارِمُ

وَجاءَتْ مَوْلَاةٌ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَصَّتْ عَلَيْهِ أَنَّها رَأَتْ فِي الْمَنامِ كَأَنَّ الصِّراطَ قَدْ مُدَّ عَلَى جَهَنَّمَ وَهِيَ تَزْفِرُ عَلى أَهْلِها، وَذَكَرَتْ أَنَّها رَأَتْ رِجالًا مَرُّوا عَلَى الصِّراطِ فَأَخَذَتْهُمُ النَّارُ، قالَتْ: وَرَأَيْتُكَ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنينَ وَقَدْ جِيءَ بِكَ. فَوَقَعَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، وَبَقِيَ زَمانًا يَضْطَرِبُ، وَهِيَ تَصِيحُ فِي أُذُنِهِ: رَأَيْتُكَ وَاللَّهِ قَدْ نَجَوْتَ.

قالَ بَعْضُ السَّلَفِ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعالى عَلَيْهِمْ: رَأَيْتُ شابًّا فِي سَفْحِ جَبَلٍ عَلَيْهِ آثارُ الْقَلَقِ، وَدُمُوعُهُ تَجْرِي عَلَى خَدَّيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ؟ قالَ: عَبْدٌ أَبِقَ مِنْ مَوْلَاهُ، فَقُلْتُ: تَعُودُ وَتَعْتَذِرُ، قالَ: الْعُذْرُ يَحْتاجُ إِلَى إِقامَةِ حُجَّةٍ، فَكَيْفَ يَعْتَذِرُ الْمُقَصِّرُ؟ قُلْتُ: يَتَعَلَّقُ بِمَنْ يَشْفَعُ لَهُ، قالَ: كُلُّ الشُّفَعاءِ

يَخَافُونَ مِنْهُ، قُلْتُ: فَمَنْ هُوَ؟ قالَ: مَوْلًى رَبَّانِي صَغِيرًا فَعَصَيْتُهُ كَبِيرًا، فَوَاحَيَائِي مِنْهُ حِينَ أَلْقَاهُ مِنْ حُسْنِ صُنْعِهِ وَقُبْحِ فِعْلِي، ثُمَّ صَاحَ وَخَرَّ مَيِّتًا، رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالى عَلَيْهِ، فَخَرَجَتْ عَجُوزٌ وَقالَتْ: مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ الْبَائِسِ الْحَزِينِ؟ قُلْتُ: أُرِيدُ أَنْ أُعِينَكِ عَلَى تَجْهِيزِهِ، فَقالَتْ: خَلِّهِ ذَلِيلًا بَيْنَ يَدَيْ قاتِلِهِ عَسَى أَنْ يَرَاهُ ذَلِيلًا فَيَرْحَمَهُ.

فَهَذِهِ حَالُ الْقَوْمِ فِي مُعَامَلَتِهِمْ لِمَوْلَاهُمْ، وَنَحْنُ جَمَعْنَا بَيْنَ الْإِسَاءَةِ وَالْأَمْنِ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قالَ: «لَمْ يَشْهَدْ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ يَوْمَ بَدْرٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِ وَقالَ: أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غِبْتُ عَنْهُ، لَئِنْ أَرَانِي اللَّهُ تَعَالى مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ ﷻ مَا أَصْنَعُ، قالَ: فَهابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا، فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، فاسْتَقْبَلَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ رضي الله عنه فَقالَ لَهُ: أَيْنَ؟ فَقالَ: وَاهًا لِرِيحِ الْجَنَّةِ أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ، قالَ: فَقاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ رضي الله عنه، قالَ: فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ بَيْنِ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ، فَقالَتْ أُخْتُهُ عَمَّتِي الرُّبَيِّعُ بِنْتُ النَّضْرِ: فَما عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾».

قالَ: فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّها نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ رضي الله عنهم.

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ وَأَبُو نَعِيمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُرَاحُ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ وَلاَ يَجِدُ رِيحَها مَنَّانٌ بِعَمَلِهِ وَلَا عَاقٌّ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ».

وَعَنْهُ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ سَبْعِينَ خَرِيفًا»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

وَأَخْرَجَ عَنْ ثَوْبانَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «أَيُّما امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَة الْجَنَّةِ».

قالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي حَادِي الْأَرْوَاحِ: وَرِيحُ الْجَنَّةِ نَوْعَانِ: رِيحٌ يُوجَدُ فِي الدُّنْيا تَشُمُّهُ الْأَرْوَاحُ وَأَحْيَانًا لاَ تُدْرِكُهُ الْعِبَارَةُ، وَرِيحٌ يُدْرَكُ بِحَاسَّةِ الشَّمِّ لِلْأَبْدَانِ كَما تُشَمُّ رَوَائِحُ الْأَزْهَارِ وَغَيْرِهَا، وَهَذَا يَشْتَرِكُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي إِدْرَاكِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنْ قُرْبٍ وَبُعْدٍ. وَأَمَّا فِي الدُّنْيا فَقَدْ يُدْرِكُهُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَنْبِيائِهِ وَرُسُلِهِ، وَهَذَا الَّذِي وَجَدَهُ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ وَأَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَوَّلِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ أَشْهَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى فِي هَذِهِ الدَّارِ آثارًا مِنْ آثارِ الْجَنَّةِ وَأَنْمُوذَجًا مِنَ الرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ، وَاللَّذاتِ الْمُشْتَهَياتِ، وَالْمَنَاظِرِ الْبَهِيَّةِ، وَالْفَاكِهَةِ الْحَسَنَةِ وَالنَّعِيمِ وَالسُّرُورِ وَقُرَّةِ الْعَيْنِ.

وَقَدْ رَوَى أَبُو نَعِيمٍ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ جَابِرٍ قال: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ ﷻ لِلْجَنَّةِ: طِيبي لِأَهْلِكِ، فَتَزْدَادُ طِيبًا؛ فَذَلِكَ الْبَرْدُ الَّذِي يَجِدُهُ النَّاسُ بِالسَّحَرِ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا جَعَلَ سُبْحَانَهُ نارَ الدُّنْيا وَآلَامَهَا وَغُمُومَهَا وَأَحْزانَها مُذَكِّرَةً بِنارِ الْآخِرَةِ».

قالَ تَعالَى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ مِنْ أَنْفاسِ جَهَنَّمَ؛ فَلا بُدَّ أَنْ تَشْهَدَ عِبادُهُ أَنْفاسَ جَنَّتِهِ، وَمَا يُذْكِرُهُمْ بِهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

كانَ الْعَارِفُونَ يَتَلَذَّذُونَ بِخَلَوَاتِهِمْ لِمُنَاجَاةِ اللَّهِ تَعَالى، وَيُشَاهِدُون نَعِيمًا تَقَرُّ أَعْيُنُهُمْ بِهِ، وَهُوَ غَايَةَ مَطْلُوبِهِمْ مِنَ الدُّنْيا؛ فَإِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ يَقُولُ: لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ.

وَكَانَ آخَرُ يَقُولُ: مَسَاكِينُ أَهْلُ الدُّنْيَا، خَرَجُوا مِنْهَا وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا، قِيلَ: وَمَا أَطْيَبُ مَا فِيهَا؟ قَالَ: مَحَبَّةُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَعْرِفَتُهُ وَذِكْرُهُ.

وَقالَ آخَرُ: إِنَّهُ لَتَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقاتٌ يَرْقُصُ فِيهَا طَرَبًا.

وَقالَ آخَرُ: إِنَّهُ لَتَمُرُّ بِي أَوْقاتٌ أَقُولُ: إِنْ كان أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا النَّعِيمِ إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ.

وَكَان شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ يَقُولُ: إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لاَ يَدْخُلُ جَنَّةَ الْآخِرَةِ.

فَسُبْحَانَ مَنْ أَشْهَدَ عِبادَهُ جَنَّتَهُ قَبْلَ لِقَائِهِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَهَا فِي دَارِ الْعَمَلِ فَأَتاهُمْ مِنْ رَوْحِهَا وَنَسِيمِهَا وَطِيبِهَا مَا اسْتَفْرَغَ قُوَاهُمْ لِطَلَبِها وَالْمُسَابَقَةِ إِلَيْها.

شِعْر:

لَوَ أَنَّكَ أَبْصَرْتَ أَهْلَ الْهَوَى	إِذَا غَارَتِ الْأَنْجُمُ الطُّلَّعُ
فَهَذَا يَنُوحُ عَلَى ذَنْبِهِ	وَهَذَا يُصَلِّي وَذَا يَرْكَعُ

وَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ الْمُسابَقَةُ إِلَى الْخَيْرَاتِ، وَالْمُنَافَسَةُ فِي نَيْلِ عُلُوِّ الدَّرَجاتِ.

رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ ﷺ: «يَا دَاوُدُ، إِنَّ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ إِلَيَّ إِذَا اسْتَغْنَى عَنِّي. وَأَنا أَرْحَمُ مَا أَكُونُ بِعَبْدِي إِذَا أَدْبَرَ عَنِّي، وَإِنَّ أَجَلَّ مَا يَكُونُ عَبْدِي إِذَا رَجَعَ إِلَيَّ، يَا دَاوُدُ، قُلْ لِشَبَابِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: لِمَ شَغَلُوا أَنْفُسَهُمْ بِغَيْرِي وَأَنا الْمُشْتَاقُ إِلَيْهِمْ، مَا هَذا يَا دَاوُدُ؟ لَوْ يَعْلَمُ الْمُدْبِرُونَ كَيْفَ انْتِظَارِي لَهُمْ وَرِفْقِي بِهِمْ، وَشَوْقِي إِلَى تَرْكِ مَعَاصِيهِمْ لَطَارُوا شَوْقًا إِلَيَّ، وَلَتَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُمْ مِنْ مَحَبَّتِي، هَذِهِ إِرَادَتِي فِي الْمُدْبِرِينَ عَنِّي، فَكَيْفَ إِرَادَتِي فِي الْمُقْبِلِينَ عَلَيَّ؟».

فَيا عِبَادَ اللَّهِ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّ الْأَرْبابِ، وَفاتِحِ الْأَبْوَابِ، الَّذِي يَعْلَمُ خَفِيَّ أَنِينِ الْمُذْنِبِينَ، وَتَضَرُّعَ الْخَائِفِينَ، وَيُبْصِرُ جَرَيانَ الدَّمْعِ فِي آمَاقِ الْمَحْزُونِينَ، يُبْصِرُ وَيَسْتُرُ، وَيَمْنَحُ وَيَمْدَحُ، وَيُنْعِمُ وَيُعْطِي، وَالْعَبْدُ يُجْرِمُ وَيُخْطِي، يَغْفِرُ

الْكَثِيرَ، وَيَقْبَلُ الْيَسِيرَ، وَيُقِيلُ عَثْرَةَ النَّادِمِ عَلَى التَّقْصِيرِ، وَيَمُنُّ بِإِطْلَاقِ الْأَسِيرِ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

شِعْر:

تَعَطَّفْ بِفَضْلٍ مِنْكَ يَا فاطِرَ الْوَرَى ... فَأَنْتَ مَلَاذِي سَيِّدِي وَمُعِينِي
لَئِنْ أَبْعَدَتْنِي عَنْ حِمَاكَ خَطِيئَتِي ... فَإِنَّ رَجَائِي شَافِعِي وَيَقِينِي
فَظَنِّي جَمِيلٌ أَنَّنِي بِكَ وَاثِقٌ ... وَإِنَّ جَمِيلَ الْعَفْوِ مِنْكَ يَقِينِي
ذَكَرْتُ زَمَانَ الْوَصْلِ فِي رَوْضَةِ الرِّضَا ... فَطَالَ حَنِينِي نَحْوَهُ وَأَنِينِي
وَرَوَّقْتُ دَمْعَ الْعَيْنِ حَتَّى كَأَنَّهَا ... دُمُوعُ دُمُوعِي لاَ دُمُوعَ جُفُونِي

اللَّهُمَّ يَا ذَا الْكَرَمِ وَالْجَلَالِ، يَا ذَا الْفَضْلِ وَالنَّوَالِ، رُدَّنا إِلَيْكَ بِفَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ، وَوَفِّقْنا لِلْإِقْبَالِ عَلَيْكَ وَالاشْتِغَالِ بِخِدْمَتِكَ.

اللَّهُمَّ يَا عَالِمَ السَّرَائِرِ، وَيَا مُطَّلِعًا عَلَى الضَّمَائِرِ، اغْفِرْ لَنَا مُوبِقَاتِ الْجَرَائِرِ، وَاسْتُرْ عَلَيْنَا يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ، وَثَبِّتْنَا عَلَى الْيَقِينِ، وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

وَفِيهِ فَصْلٌ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اخْتَارَ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ صَلَحَ لِلْعِبَادَةِ وَانْتَقَى، وَجَعَلَهُمْ خُدَّامًا وَقَسَّمَهُمْ أَقْسَامًا وَفِرَقًا. خَصَّهُمْ بِعِنَايَتِهِ وَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَرَعَاهُمْ بِرِعَايَتِهِ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ عَهْدًا وَمَوْثِقًا، وَنادَاهُمْ فَأَدْنَاهُمْ وَحَيَّاهُمْ بِالْوَصْلِ وَاللِّقَا، وَرَفَعَهُمْ مِنْ حَضِيضِ نُفُوسِهِمْ إِلَى حَضْرَةِ أَنِيسِهِمْ، وَسَقَاهُمْ بِكَأْسِ تَسْبِيحِهِمْ وَتَقْدِيسِهِمْ شَرَابًا قَدِيمًا مُرَوَّقًا؛ فَطَابَ كُلٌّ مِنْهُمْ لِنَشْوَةِ شَرَابِهِ، وَسَكِرَ عِنْدَ سَمَاعِ خِطَابِهِ، وَسَمَا إِلَى حَضْرَةِ أَحْبَابِهِ وَارْتَقَى، أَوْدَعَهُمْ سَرَائِرَ مَحَبَّتِهِ فَخَافُوا مِنْ غَيْرَتِهِ

فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ بابًا مُغْلَقًا؛ فَفَاحَ أَرَجُهَا إِلى مَشَامِّ الْقُلُوبِ، فاسْتَنْشَقَتْ مِنْ جَنَابِهِ الْمَحْبُوبِ نَشْرًا عَبِقًا.

أَحْمَدُهُ وَهُوَ أَهْلُ الْحَمْدِ وَالْجُودِ وَالْبَقَا، وَأَشْكُرُهُ شُكْرَ مَنْ إِلَى أَعْلَى جَنَابِهِ ارْتَقَى.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً أَفُوزُ بِهَا يَوْمَ اللِّقَا، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ فاقُوا أَهْلَ الْأَرْضِ غَرْبًا وَشَرْقًا.

ذَكَرَ الْإِمَامُ الْوَاعِظ أَبُو الْفَرَجِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْجُوزِيِّ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي بَعْضِ كُتُبِ وَعْظِهِ الْمَشْهُورَةِ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قالَ: قالَ الْحَوَارِيُّونَ: يا عِيسَى! مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ؟ فَقَالَ عِيسَى: هُمُ الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا، وَالَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى آجِلِ الدُّنْيا حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَى عَاجِلِهَا، فَأَمَاتُوا فِيهَا مَا خَشَوْا أَنْ يُمِيتَهُمْ، وَتَرَكُوا مَا عَلِمُوا أَنَّهُ سَيَتْرُكُهُمْ، فَصَارَ اسْتِكْثَارُهُمْ مِنْهَا اسْتِقْلَالًا، وَذِكْرُهُمْ إِيَّاهَا فِرَاقًا، وَفَرَحُهُمْ بِما أَصَابُوا مِنْهَا حُزْنًا، فَمَا عَارَضَهُمْ مِنْ نَائِلِهَا رَفَضُوهُ، وَمَا عَارَضَهُمْ مِنْ رِفْعَتِها بِغَيْرِ الْحَقِّ وَضَعُوهُ، خَلِقَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُمْ فَلَيْسُوا يُجَدِّدُونَها، وَخَرِبَتْ فَلَيْسُوا يَعْمُرُونَها، وَمَاتَتْ فِي صُدُورِهِمْ فَلَيْسُوا يُحْيُونَها، يَهْدِمُونَها وَيَبْنُونَ بِهَا آخِرَتَهُمْ، وَيَبِيعُونَها فَيَشْتَرُونَ مَا يَبْقَى لَهُمْ. رَفَضُوهَا فَكانُوا بِرَفْضِهَا فَرِحِينَ. وَبَاعُوهَا فَكانُوا بِبَيْعِهَا رَابِحِينَ. نَظَرُوا إِلَى أَهْلِهَا صَرْعَى قَدْ حَلَّتْ بِهِمْ الْمَثُلَاتُ، فَأَحْيَوا ذِكْرَ الْمَوْتِ وَأَمَاتُوا ذِكْرَ الْحَيَاةِ، يُحِبُّونَ اللَّهَ وَيُحِبُّونَ ذِكْرَهُ وَيَسْتَضِيئُونَ بِنُورِهِ. لَهُمْ خَبَرٌ عَجِيبٌ، وَعِنْدَهُمُ الْخَبَرُ الْعَجِيبُ. بِهِمْ قامَ الْكِتَابُ وَبِهِ قامُوا. وَبِهِ صَلُّوا وَبِهِ صَامُوا. وَبِهِ نَطَقُوا. لَيْسُوا يُرِيدونَ نائِلًا دُونَ مَا يَرْجُونَ، وَلَا خَوفًا دُونَ مَا يَحْذَرُونَ. أَدَامُوا لِرَبِّهِمُ الصِّيَامَ، وَلَازَمُوا الْقِيَامَ، وَصَلَّوْا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيامٌ. فَهُمْ عَلَى مَهْدِ الْهُدَى

وَالسُّرُورِ يَتَقَلَّبُونَ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

إِخْوَانِي: سَمِعُوا صِفَاتِ هٰؤُلَاءِ الْأَقْوَام، كَتَمُوا الْغَرَامَ، وَلَزِمُوا الْقِيَامَ، وَأَفْشَوْا السَّلَامَ، وَبَذَلُوا الطَّعَامَ، وَأَدَامُوا الصِّيَامَ، وَصَلَّوْا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيامٌ، وَجَانَبُوا الْآثَامَ، وَانْفَرَدُوا عَنِ الْأَنامِ، وَخَلَوْا بِالْمُنَاجَاةِ لِلْمَلِكِ الْعَلَّامِ، أَطَاعُوهُ فِي الْخَلَوَاتِ، فَمَحَا عَنْهُمُ السَّيِّئَاتِ، وَرَفَعَ لَهُمُ الدَّرَجَاتِ، طَهَّرَ قُلُوبَهُمْ، وَسَتَرَ عُيُوبَهُمْ، وَغَفَرَ ذُنُوبَهُمْ، وَبَلَّغَهُمْ مَطْلُوبَهُمْ، عَرَفُوهُ فَأَلِفُوهُ، وَرَأَوْهُ أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدُوهُ، وَوَجَدُوا الرِّبْحَ فِي مُعَامَلَتِهِ فَعامَلُوهُ، وَعَلَى الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ بايَعُوهُ. نَادَوْا فِي وَقْتِ الْأَسْحَارِ ـ وَقَدْ أَسْبَلُوا الْعَبَرَاتِ عَلَى الْوَجَنَاتِ ـ يَا مَنْ لَا تُحِيطُ بِهِ الْجِهَاتُ، وَلاَ تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ الْأَصْوَاتُ. أَنقِذْنا مِنْ ظُلَمِ الآفَاتِ، يَا مَنْ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ.

فَيَا غَائِبًا عَنْ قِسْمَةِ الْغَنَائِمِ، وَيَا مَنْ قَدْ قَنَعَ بِمُشَارَكَةِ الْبَهَائِمِ. أَمَا لَكَ هِمَّةٌ فِي السَّعْيِ إِلَى نَيْلِ عُلُوِّ الدَّرَجَاتِ؟

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: «كانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ، قالَ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ. أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ. وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ. وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ. وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ. اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ. أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْت وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ».

وَذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ: أَنَّ بَعْضَ الصَّالِحِينَ كانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ قَائِمًا يُصَلِّي، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ سَجَدَ وَبَكَى بُكَاءً شَدِيدًا، فَقَالَ فِي مُنَاجَاتِهِ:

إِلٰهِي أَغْلَقَتِ الْمُلُوكُ أَبْوَابَها. وَبَابُكَ مَفْتُوحٌ لِلسَّائِلِينَ.

إِلٰهِي، غَارَتِ النُّجومُ، وَنامَتِ الْعُيُونُ، وَأَنْتَ الحَيُّ الْقَيُّومُ، الَّذِي لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ.

إِلٰهِي فُرِشَتِ الْفُرُشُ، وَخَلَا كُلُّ حَبِيبٍ بِحَبِيبِهِ. وَأَنْتَ حَبِيبُ الْمُتَهَجِّدِينَ وَأَنِيسُ الْمُسْتَوْحِشِينَ.

إِلٰهِي، إِنْ طَرَدْتَنِي عَنْ بابِكَ فَإِلَى بابِ مَنْ أَلْتَجِي، وَإِنْ قَطَعْتَنِي عَنْ خِدْمَتِكَ فَخِدْمَةُ مَنْ أَرْتَجِي.

إِلٰهِي إِنْ عَذَّبْتَنِي فَإِنِّي مُسْتَحِقُّ الْعَذَابَ وَالنِّقَمَ، وَإِنْ عَفَوْتَ عَنِّي فَأَنْتَ أَهْلُ الجُودِ وَالْكَرَمِ.

ثُمَ جَلَسَ وَرَفَعَ يَدَيْهِ وَبَكَى وَقالَ: يا سَيِّدِي، لَكَ أَخْلَصَ الْعَارِفُونَ، وَبِفَضْلِكَ نَجَا الصَّالِحُونَ، وَبِرَحْمَتِكَ أَنابَ الْمُقَصِّرُونَ، يَا جَمِيلَ الْعَفْوِ أَذِقْنِي بَرْدَ عَفْوِكَ وَحَلاَوَةَ مَغْفِرَتِكَ، وَإِنْ لَمْ أَكُنْ أَهْلًا لِذَلِكَ فَأَنْتَ أَهْلُ التَّقْوَى وَالْمَغْفِرَةِ.

إِخْوَانِي: اعْلَمُوا أَنَّ هَذَا شَهْرٌ مُبَارَكُ الْأَيَّامِ، وَهُوَ سَبَبٌ لِمَحْوِ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ، فِيهِ يَتَوَفَّرُ جَزِيلُ الْأَجْرِ وَالْإِنْعَامِ، وَفِي آخِرِهِ يُنَجِّي الْإِلٰهُ عِبَادَهُ مِنَ النِّيرَانِ.

إِخْوَانِي: هَذَا شَهْرُ الصِّيَامِ، أَتَرَاكُمْ مِمَّنْ حَفِظَ حُدُودَ صَوْمِهِ فِيهِ، وَأَمْسَكَ عَنِ اللَّغْوِ وَالزُّورِ عَلَى فِيهِ، وَأَعَدَّ عَمَلًا صَالِحًا لِيَوْمِ الْحَشْرِ يُنْجِيهِ، فَكَمْ صَوْمٍ فَسَدَ فَلَمْ يَسْقُطْ بِهِ الْفَرْضُ، وَكَمْ مِنْ صَائِمٍ يَفْضَحُهُ الْحِسَابُ يَوْمَ الْعَرْضِ، وَكَمْ مِنْ عَاصٍ فِي هَذَا الشَّهْرِ تَسْتَغِيثُ مِنْهُ الْأَرْضُ، وَتَشْكُو مِنَ أَعْمَالِهِ السَّمَاءُ؟ فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَنِ الْمَقْبُولُ وَمَنِ الْمَطْرُودُ؟ وَمَنِ الْمُقَرَّبُ وَمَنْ الْمُبْعَدُ الْمَذْوُدُ؟ وَمَنِ الشَّقِيُّ وَمَنِ الْمَسْعُودُ؟ لَقَدْ عَادَ الْأَمْرُ مُبْهَمًا، تَاللَّهِ لَقَدْ سَعِدَ فِي هَذَا الشَّهْرِ ـ بِحِرَاسَةِ أَيَّامِهِ ـ مَنْ كَفَّ جَوَارِحَهُ عَنْ كَسْبِ آثامِهِ؛ وَلَقَدْ

خَابَ مَنْ لَمْ يَنَلْهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالظَّمأُ، فَلِلَّهِ دَرُّ أَقْوَامٍ وَفَّقَهُمْ مَوْلَاهُمْ لِلصِّيَامِ فَصَامُوا، وَأَعَانَهُمْ عَلَى الْقِيَامِ فَقَامُوا لَيْلًا طَوِيلًا، أَظْمَأُوا لِأَجْلِهِ الْأَكْبَادَ، فَأَرَاحَهُمْ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْكَادِ، وَكَانَ لَهُمْ بِبُلُوغِ الْمُرَادِ كَفِيلًا؛ شَغَلَهُمْ بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ وَالسَّعِيدُ مَنْ بَاتَ بِخِدْمَتِهِ مَشْغُولًا، وَلَذَّذَهُمْ بِطِيبِ الْمُنَاجَاةِ، فَنَالُوا فَضْلًا جَزِيلًا، يَحْزَنُونَ لِمُفَارَقَةِ شَهْرِ الصِّيَامِ، وَيَتَأَسَّفُونَ عَلَى انْقِضَاءِ لَيَالِي التَّهَجُّدِ وَالْقِيَامِ، لِأَنَّهُ مَوسِمٌ يَلْقَوْنَ فِيهِ رَحْمَةً وَقَبُولًا.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: قِيَامُ اللَّيْلِ يُهَوِّنُ طُولَ الْقِيَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الْمُتَهَجِّدِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ. وَإِذَا كَانَ أَهْلُهُ كَذَلِكَ فَقَدِ اسْتَرَاحُوا مِنْ طُولِ الْمَوْقِفِ لِلْحِسَابِ.

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ».

شعر:

مَن لَمْ يَقُمْ لِلْجِدِّ قَبْلَ مَشِيبِهِ وَخُمُودِ شِرَّتِهِ، فَلَيْسَ بِقَائِمِ

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ يَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ».

وَقَالَ الْحَسَنُ رَحْمَةُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: لَوْ بَكَى عَبْدٌ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ لَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ حَوْلَهُ وَلَوْ كَانُوا عِشْرِينَ أَلْفًا.

وَكَانَ مَجْرَى الدُّمُوعِ مِنْ خَدِّ ابْنِ عَبَّاسٍ كَالشِّرَاكِ الْبَالِي.

وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ يَبْكِي بِاللَّيْلِ حَتَّى فَسَدَتْ عَيْنَاهُ، وَمِمَّا قَالَ بَعْضُ الْوَاعِظِينَ فِي الزَّجْرِ عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى اغْتِنَامِ أَفْعَالِ الْخَيْرِ فِي مَوَاسِمِهَا:

اذْكُرْ وُقُوفَكَ يَوْمَ الْحَشْرِ عُرْيانا ... مُسْتَضْعَفًا فارغَ الأَحْشَاءِ حَيْرَانا
النَّارُ تَزْفِرُ مِنْ غَيْظٍ وَمِنْ حَنَقٍ ... عَلَى الْعُصَاةِ وَتَلْقَى الرَّبَّ غَضْبَانا
فِي مَوْقِفٍ قَدْ تَجَلَّى فِيهِ حَاكِمُهُ ... وَقِيلَ فِيهِ لِمَنْ قَدْ لَجَّ طُغْيَانا:
اقْرَأْ كِتَابَكَ يا عَبْدِي عَلَى مَهَلٍ ... وَانْظُرْ إِلَيْهِ تَرَى فِيهِ الَّذِي كانا
لَمَّا قَرَأْتُ كِتابًا لا يُغَادِرُ لِي ... مَا كانَ فِي السِّرِّ أَوْ مَا كانَ إِعْلاَنا
قالَ الْجَلِيلُ: خُذُوهُ يا مَلاَئِكَتي ... مُرُوا بِعَبْدِي إِلَى النِّيرَانِ عَطْشَانا
يا رَبِّ. لاَ تُخْزِنا يَوْمَ الْحِسَابِ وَلَا ... تَجْعَلْ لِنارِكَ فِينَا الْيَوْمَ سُلْطَانا

فَمَثِّلْ نَفْسَكَ يا أَخِي وَقَدْ حَلَّتْ بِكَ السَّكَرَاتُ، وَنَزَلَ بِكَ الأَنِينُ وَالْغَمَرَاتُ، فَمِنْ قائِلٍ يَقُولُ: إِنَّ فُلانًا قَدْ أَوْصَى، وَمِنْ قائِلٍ يَقُولُ: إِنَّ فُلانًا ثَقُلَ لِسَانُهُ، وَنَسِيَ جِيرَانَهُ، وَلاَ يُكَلِّمُ إِخْوَانَهُ، وَهُوَ يَسْمَعُ الْخِطَابَ، وَلاَ يَقْدِرُ عَلَى رَدِّ الْجَوَابِ، وَكَذَلِكَ مَثِّلْ نَفْسَكَ وَقَدْ أُخِذْتَ مِنْ فِرَاشِكَ، إِلَى لَوْحِ مُغْتَسِلِكَ، وَجَرَّدُوكَ مِنْ أَثْوَابِكَ. وَقَدَّمُوا لَكَ كَفَنَكَ، ثُمَّ غَسَّلُوكَ وَأَلْبَسُوكَ الأَكْفَانَ، وَبَكَى عَلَيْكَ الأَهْلُ وَالْجِيرانُ، وَفَقَدْتَ الأَصْحَابَ وَالإِخْوَانَ، وَصِرْتَ إِلَى الْعَدَمِ بَعْدَ الْوِجْدَانِ، فَبادِرْ إِلَى الْخَيْراتِ مَا دُمْتَ فِي زَمَنِ الإِمْكانِ، وَتَعرَّضْ لِنَفْحَاتِ الْمَلِكِ الْمَنَّانِ، وَقِفْ بِبابِ مَنْ بِيَدِهِ الْفَضْلُ وَالإِحْسَانُ، فَإِنَّ لَهُ نَفَحَاتٍ خُصُوصًا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، فَلِلَّهِ دَرُّ أَقْوَامٍ قَطَعُوا أَوْقَاتَهُ بِالطَّاعَاتِ، وَتَلَذَّذُوا فِي خَلَوَاتِهِمْ بِالْمُنَاجَاةِ.

شعر:

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَابَدُوهُ ... فَيُسْفِرُ عَنْهُمُ وَهُمُ رُكُوعُ
أَطَارَ الْخَوْفُ نَوْمَهُمُ فَقَامُوا ... وَأَهْلُ الأَمْنِ فِي الدُّنْيا هُجُوعُ
لَهُمْ تَحْتَ الظَّلامِ وَهُمْ سُجُودٌ ... أَنِينٌ مِنْهُ تَنْفَرِجُ الضُّلُوعُ

وَذَكَرَ الإِمَامُ الْوَاعِظُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ قالَ: كَتَبَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ إِلَى حُذَيْفَةَ الْمَرْعَشِيِّ رَحِمَهُما اللَّهُ تَعَالَى: أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أُوصِيكَ

بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْعَمَلِ بِما عَلَّمَكَ اللَّهُ، وَالْقِيَامِ بِفُرُوضِ اللَّهِ، وَالْمُرَاقَبَةِ حَيْثُ لَا يَرَاكَ إِلَّا اللَّهُ. فاحْسِرْ عَنْ رَأْسِكَ قِناعَ الْغَافِلِينَ، وَانْتَبِهْ مِنْ رَقْدَةِ الْمَوْتَى، وَشَمِّرْ لِلسِّبَاقِ غَدًا، فَإِنَّ الدُّنْيا مَيدَانُ المُتَسَابِقِينَ، وَلَا تَغْتَرَّ بِمَنْ أَظْهَرَ النُّسُكَ وَتَشَاغَلَ بالْوَصْفِ وَتركَ الْعَمَلَ بِالْمَوْصُوفِ. وَاعْلَمْ أَخِي أَنَّهُ لا بُدَّ لِي وَلَكَ مِنَ الْمُقَامِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى، يَسْأَلُنا عَنِ الدَّقِيقِ الْخَفِيِّ، وَعَنِ الْجَلِيلِ الْخَافِي، وَلَسْتُ آمَنُ أَنْ يَسْأَلَنِي وَإِيَاكَ عَن وَسَاوِسِ الصَّدْرِ، وَلَحَظَاتِ الْعُيُونِ، وَالْإِصْغَاءِ للاسْتِمَاعِ. وَعَلَيْكَ أَخِي باغْتِنَامِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي مَوَاسِمِها وفِعْلِ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ وَحُبِّ الْمَسَاكِينِ كَمَا أَرْشَدَ إِلَى ذَلِكَ سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ.

وَمِمَّا قَالَ بَعْضُهُم:

أَيَقْظَانَ أَنْتَ الْيَوْمَ أَمْ أَنْتَ نائِمٌ ... وَكَيْفَ يُطِيقُ النَّوْمَ حَيْرانُ هائِمُ
فَلَوْ كُنْتَ يَقْظَانَ الْغَدَاةَ لَأَحْرَقَتْ ... مَحاجِرَ عَيْنَيْكَ الدُّمُوعُ السَّوَاجِمُ
نَهارُكَ يا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ ... وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدَى لَكَ لَازِمُ
يَغُرُّكَ مَا يُغْنِي وَتُشْغَلُ بِالْمُنَى ... كَما غُرَّ بِاللَّذَاتِ فِي النَّوْمِ حَالِمُ
وَتُشْغَلُ فِيمَا سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّهُ ... كَذَلِكَ فِي الدُّنْيا تَعِيشُ الْبَهَائِمُ

وَذُكِرَ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ: أَنَّ مَنْصُورَ بْنَ زَاذَانَ كانَ يَخْتِمُ الْقُرْآنَ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، وَيَخْتِمُ ما بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، وَيَقْطَعُ بَاقِي لَيْلِهِ بِالْقِيَامِ. وَكَانَ يَبْكِي وَيَمْسَحُ بِعِمامَتِهِ عَيْنَيْهِ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَبُلَّها كُلَّها بِدُمُوعِهِ، ثُمَّ يَلُفُّها وَيَضَعُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ. وَبَقِيَ يُصَلِّي الْفَجْرَ بِوُضُوءِ الْعِشَاءِ عِشْرِينَ سَنَةً، وَلَوْ قِيلَ لَهُ: إِنَّكَ مَيِّتٌ الْيَوْمَ أَوْ غَدًا مَا كانَ عِنْدَهُ مَزِيدٌ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «يَنْبَغِي لِقارِىءِ الْقُرْآنَ أَنْ يُعْرَفَ بِلَيْلِهِ إِذِ النَّاسُ نائِمُونَ، وَبِنَهَارِهِ إِذِ النَّاسُ يُفْطِرُونَ، وَبِبُكائِهِ إِذِ النَّاسُ يَضْحَكُونَ، وَبِورَعِهِ إِذِ النَّاسُ يَخْلِطُونَ، وَبِصَمْتِهِ إِذِ النَّاسُ يَخُوضُونَ، وَبِحُزْنِهِ إِذِ النَّاسُ يَفْرَحُونَ».

وَقَالَ وَهِيبُ بْنُ الْوَرْدِ: قِيلَ لِرَجُلٍ: أَلَا تَنَامُ؟ قالَ: إِنَّ عَجَائِبَ الْقُرْآنِ أَطَرْنَ نَوْمِي.

فَلَا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ مَا أَصْلَحَ أَحْوَالَ هَؤُلاَءِ الأَقْوَامِ، فَلَا نَحْنُ إِلَيْهِمْ وَلَا هُمْ إِلَيْنَا إِلَّا إِنْ كانَتِ الثُّرَيَّا بِالأَيْدِي تُرَامُ، كَمْ تُتْلَى عَلَيْنَا آياتُ الْقُرْآنِ وَقُلُوبُنا كالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً؟ وَكَمْ تَوالَتْ عَلَيْنا أَشْهُرُ رَمَضَانَ وَحَالُنا فِيهِ كَحَالِ أَهْلِ الشَّقْوَةِ، لَا الشَّابُّ مِنَّا يَنْتَهِي عَنِ الصَّبْوَةِ، وَلَا الشَّيْخُ يَنْزَجِرُ عَنِ الْقَبِيحِ فَيَلْتَحِقُ بِالصَّفْوَةِ. أَيْنَ نَحْنُ مِنْ قَوْمٍ إِذَا سَمِعُوا دَاعِيَ اللَّهِ أَجَابُوا الدَّعْوَةَ؟ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَجَلَتْهَا جَلْوَةٌ، وَإِذَا صَامُوا صَامَتِ مِنْهُمُ الأَلْسِنَةُ وَالأَسْمَاعُ وَالأَبْصَارُ فَما لَنا فِيهِمْ أُسْوَةٌ، كَمْ بَيْنَنا وَبَيْنَ أَهْلِ الصَّفَا أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَنا وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، كُلَّما حَسُنَتْ مِنَّا الأَقْوَالُ سَاءَتْ مِنَّا الأَعْمَالُ، فَلَا حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

فَصْلٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾﴾.

اعْلَمْ أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ كانَ وَاجِبًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ. فَهَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَبارَكَ وَتَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ بِقيَامِ اللَّيْلِ. وَقَدْ كانَ يَقُومُ بِاللَّيْلِ عَلَى الدَّوَامِ مُمْتَثِلًا أَمْرَ رَبِّهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ قِيَامِهِ.

وَلِقِيَامِ اللَّيْلِ فَوَائِدُ عَظِيمَةٌ:

مِنْهَا: الاقْتِدَاءُ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالتَّأَسِّي بِهِ. قالَتْ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها لِرَجُلٍ: «لاَ تَدَعْ قِيَامَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كانَ لاَ يَدَعُهُ، وَكانَ إِذَا مَرِضَ ـ أَوْ قالَتْ: كَسِلَ ـ صَلَّى قاعِدًا».

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهَا قالَتْ: بَلَغَنِي عَنْ قَوْمٍ يَقُولُونَ: إِنْ أَدَّيْنا الْفَرَائِضَ لَمْ نُبَالِ أَلَّا نَزْدَادَ، وَلَعَمْرِي لَا يَسْأَلُهُمُ اللَّهُ إِلَّا عَمَّا افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا مِنْ نَبِيِّكُمْ وَمَا نَبِيُّكُمْ إِلَّا مِنْكُمْ، وَاللَّهِ مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قِيَامَ اللَّيْلِ، وَنَزَعَتْ كُلَّ آيَةٍ فِيهَا قِيَامُ اللَّيْلِ.

فَأَشَارَتْ عَائِشَةُ ﵂ إِلَى أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ فِيهِ فائِدَتَانِ عَظِيمَتَانِ:

الْأُولى: الاقْتِدَاءُ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالتَّأَسِّي بِهِ. وَقَدْ قالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

وَالثَّانِيَةُ: تَكْفِيرُ الذُّنُوبِ، وَقَدْ وَرَدَ: «أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ مَنْهَاةٌ عَنِ الْإِثْمِ وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ، وَأَقْرَبُ إِلَى الْإِخْلَاصِ».

وَأَخْرَجَ ابْنُ مَاجَه فِي سُنَنِهِ عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامه إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ».

وَقالَ الْحَسَنُ: صَحِبْتُ أَقْوَامًا كانُوا لِحَسَنَاتِهِمْ أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ أَخْوَفَ مِنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ أَنْ تُعَذَّبُوا بِهَا.

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلاَةُ اللَّيْلِ».

وَمِمَّا قالَهُ بَعْضُهُمْ:

يَا نَفسُ، فازَ الصَّالِحُون بِالتُّقَى ... قَدْ أَبصَرُوا الْحَقَّ وَقَلْبي قَدْ عَمِي

يَا حُسْنَهُمْ وَاللَّيْلُ قَدْ جَنَّهُمُ ... وَنُورُهُمْ يَفُوقُ نُورَ الْأَنْجُمِ

تَرَنَّمُوا بِالذِّكْرِ فِي لَيْلِهِمُ ... فَعَيْشُهُمْ قَدْ طَابَ بِالتَّرَنُّمِ

قُلُوبُهُمْ لِلذِّكْرِ قَدْ تَفَرَّغَتْ ... دُمُوعُهُمْ كَلُؤْلُؤٍ مُنْتَظِمِ

أَسْحَارُهُمْ بِهِمْ لَهُمْ قَدْ أَشْرَعَتْ وَخِلَعُ الْغُفْرَانِ خَيْرُ الْقِسَمِ
وَيْحَكِ يَا نَفْسُ، أَلا تَيَقُّظٌ يَنْفَعُ قَبْلَ أَنْ تَزِلَّ قَدَمِي؟
مَضَى الزَّمَانُ فِي تَوَانٍ وَهَوًى فَاسْتَدْرِكِي مَا قَدْ بَقِيَ وَاغْتَنِمِي

إِخْوَانِي اغْتَنِمُوا زَمَنَ الأَرْبَاحِ، فَأَيَّامُ الْمَوَاسِمِ مَعْدُودَةٌ. اسْتَدْرِكُوا مَا بَقِيَ مِنْ لَيَالِي الصَّوْمِ فَسَاعَاتُهُ مَشْهُودَةٌ. جِدُّوا فِي طَلَبِ الْغَنَائِمِ فَأَعْمَالُ الصَّائِمِ مَنْقُودَةٌ.

كانَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ رَكْعَتَيْنِ يَخْتِمُ فِيهِمَا الْقُرْآنُ، ثُمَّ يُتِمُّ اللَّيْلَ بِالْبُكاءِ.

فَيَا دَائِمَ الْعِصْيَانِ، مَتَى يُقَالُ: تَابَ فُلاَنٌ؟

يَا مَنْ نَسِيَ الْعَهْدَ الْقَدِيمَ وَخَانَ، مَنِ الَّذِي سَوَّاكَ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ؟ مَنِ الَّذِي غَذَّاكَ فِي أَعْجَبِ مَكانٍ؟ مَنِ الَّذِي بِقُدْرَتِهِ اسْتَقَامَتِ الأَرْكَانُ؟ مَنِ الَّذِي بِحِكْمَتِهِ أَبْصَرَتِ الْعَيْنَانِ؟ مَنِ الَّذِي بِصَنْعَتِهِ سَمِعَتِ الأُذُنانِ؟ مَنِ الَّذِي وَهَبَ الْعَقْلَ فاسْتَبَانَ لِلرُّشْدِ وَبَانَ؟ مَنِ الَّذِي بارَزْتَهُ بِالْخَطَايا وَهُوَ يَسْتُرُ الْعِصْيانَ؟ مَنِ الَّذِي تَرَكْتَ شُكْرَهُ فَلَمْ يُؤَاخِذْ بِالْكُفْرَانِ؟

إِلَى كَمْ تُخَالِفُنِي وَمَا يَصْبِرُ عَلَى الْخِلاَفِ الأَبْوَانِ، وَتُعَامِلُنِي بِالْغَدْرِ الَّذِي لاَ يَرْضَاهُ الإِخْوَانُ؛ أَمَا تَأْنَفُ مِنْ هَذَا وَتَحْمِيكَ مُرُوءَةُ الإِنْسَانِ، وَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ مِنْكَ مَا أَعْلَمُ مَا جَالَسُوكَ فِي مَكَانٍ، فارْجِعْ إِلَيَّ فِي ذَلِكَ فَأَنَا الْمَعْرُوفُ بِالإِحْسَانِ، وَقِفْ عَلَى بَابِي فَأَنَا الْمُفِيضُ لِمَنْ لاَذَ بِي جَزِيلَ الأَمَانِ.

شِعْر:

بَكَيْتُ عَلَى الذُّنُوبِ لِعِظَمِ جُرْمِي وَحَقَّ لِمَنْ عَصَى مُرُّ الْبُكَاءِ
فَلَوْ أَنَّ الْبُكَاءَ يَرُدُّ هَمِّي لَأَسْعَدَتِ الدُّمُوعُ مَعَ الدِّمَاءِ

رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «أَنَّ رِجَالًا مِنْ

أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أُرُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ، فَقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَرَى رُؤْياكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ، فَمَنْ كانَ مُتَحَرِّيَهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ».

شِعْر:

شَهْرُ الصِّيَامِ لَقَدْ كَرُمْتَ نَزِيلاَ ... وَشَفَيْتَ مِنْ كُلِّ الْقُلُوبِ غَلِيلَا
شَهْرُ الْأَمَانَةِ وَالصِّيَانَةِ وَالتُّقَى ... وَالْفَوْزُ فِيهِ لِمَنْ أَرَادَ قَبُولَا
فِيهِ الْجِنَانُ تَفَتَّحَتْ لِقُدُومِهِ ... وَالْحُورُ فِيهِ تَزَيَّنَتْ تَحْفِيلَا
طُوبَى لِعَبْدٍ صَحَّ فِيهِ صِيَامُهُ ... وَدَعَا الْمُهَيْمِنَ بُكْرَةً وَأَصِيلَا
وَبِلَيْلِهِ قَدْ قَامَ يَخْتِمُ وِرْدَهُ ... مُتَبَتِّلًا لِإِلٰهِهِ تَبْتِيلَا
شَهْرٌ يَفُوقُ عَلَى الشُّهُورِ بِلَيْلَةٍ ... مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ فُضِّلَتْ تَفْضِيلَا
فَاجْهَدْ عَسَاكَ تَنَالُهَا فِيمَا بَقِي ... بِالْجِدِّ، وَاحْذَرْ أَنْ تَكُونَ غَفُولَا

إِخْوَانِي: كَيْفَ لَا يُرْغَبُ فِي صِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَقِيامِهِ، كَيْفَ لَا يُتَأَسَّفُ عَلَى شَهْرٍ تُكَفَّرُ فِيهِ جَمِيعُ ذُنُوبِ الْعَبْدِ وَآثامِهِ، كَيْفَ لَا يُبْكَى عَلَى شَهْرٍ يَفُوتُ فِيهِ رِبْحُ الْعَامِلِ وَفُرَصُ اغْتِنَامِهِ.

كانَ عُتْبَةُ الْغُلَامُ طَوِيلَ الْبُكاءِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْفِقْ بِنَفْسِكَ. فَقالَ: إِنَّما أَبْكِي عَلَى تَقْصِيرِي.

وَكانَ يَزِيدُ بْنُ مَرْثَدٍ دَائِمَ الْبُكاءِ. وَكانَتْ زَوْجَتُهُ تَقولُ: وَيْحِي مَا خُصِصْتُ بِهِ مِنْ طُولِ الْحُزْنِ مَعَكَ مَا تَقَرُّ لِي عَيْنٌ.

وَكَانَ بِشْرٌ الْحَافِيُّ لاَ يَنَامُ اللَّيْلَ وَيَقُولُ: أَخَافُ أَنْ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَأَنا نائِمٌ، قالَ:

وَكُلَّمَا هَمَّ بِذَوْقِ الْكَرَا ... صَاحَ بِهِ الْهِجْرَانُ: لَا تَنَمِ

إِخْوَانِي: آهِ عَلَى قُلُوبٍ أَذَابَها حَرُّ الْغَلِيلِ. آهِ عَلَى نُفُوسٍ أَفْنَاهَا الْبُكاءُ

وَالْعَوِيلُ. آهٍ عَلَى جَوَارِحَ قابَلَتْ بِفِعْلِها الْقَبِيحِ الْفِعْلَ الْجَمِيلَ. آهٍ عَلَى أَكْبادٍ لَمْ تَنْقَطِعْ خَوْفًا مِنَ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ. آهٍ عَلَى قُلُوبٍ لَمْ تَتَفَكَّرْ فِي الْمَوْتِ وَيَوْمِ الرَّحِيلِ. آهٍ عَلَى جَنَّةِ عَدْنٍ وَظِلٍّ ظَلِيلٍ. آهٍ عَلَى قَسْوَةٍ سَلَكَتْ بِالْقَلْبِ إِلَى النَّارِ وَبِئْسَ السَّبِيلُ. آهٍ عَلَى شَرَابٍ مِنْ سَلْسَبِيلٍ. آهٍ عَلَى نَعِيمٍ فَنِعْمَ مُقِيلٌ. آهٍ عَلَى قَلْبٍ بِالذُّنُوبِ عَلِيلٍ. آهٍ عَلَى مَنْ شَدَّ عَزْمَ الطَّاعَةِ فَأَصْبَحَ وَهُوَ نَبِيلٌ. آهٍ عَلَى سَابِقٍ إِلَى الرُّشْدِ دَلِيلٍ.

أَمَا آنَ لَكَ يَا مِسْكِينُ أَنْ تُقْلِعَ عَنْ هَوَاكَ؟ أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى بَابِ مَوْلَاكَ؛ أَنَسِيتَ مَا خَوَّلَكَ وَأَعْطَاكَ؟ أَمَا خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ؟ أَمَا عَطَّفَ عَلَيْكَ الْقُلُوبَ وَبِرِزْقِهِ غَذَّاكَ؟ أَمَا أَلْهَمَكَ الْإِسْلَامَ وَهَدَاكَ؟ أَمَا قَرَّبَكَ بِفَضْلِهِ وَأَدْنَاكَ؟ أَمَا بِرُّهُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ يَغْشَاكَ، فَقَابَلْتَ ذَلِكَ بِالْغَفْلَةِ وَرُكُوبِ الشَّهَوَاتِ، وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى الخَطَايَا وَالزَّلَّاتِ؟ فَجِدَّ فِي الشَّهْرِ فَعَسَى تُدْرِكُ بِمَا بَقِيَ مَا فاتَ، أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تَسْتَحِي مِمَّنْ شَاهَدَكَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَرَآكَ؟ وَمَعَ هَذَا الْحِرْمَانِ وَالْبُعْدِ عَنْ مَوْلَاكَ، إِنْ عُدْتَ إِلَيْهِ قَبِلَكَ وَارْتَضَاكَ، وَإِنْ دُمْتَ عَلَى خِدْمَتِهِ قَرَّبَكَ وَأَدْنَاكَ؛ فَإِلَى مَتَى هَذَا التَّوَانِي، وَمَا تُقْلِعُ عَنْ غَيِّكَ وَهَوَاكَ.

وَمِمَّا قالَهُ بَعْضُهُمْ:

يا مَنْ يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ	أَنْتَ الْمُعَدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ
يا مَنْ يُرَجَّى لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا	يا مَنْ إِلَيْهِ الْمُشْتَكَى وَالْمَفْزَعُ
يا مَنْ خَزَائِنُ مُلْكِهِ فِي قَوْلِ: كُنْ	امْنُنْ، فَإِنَّ الْخَيْرَ عِنْدَكَ أَجْمَعُ
مَا لِي سِوَى فَقْرِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ	فَبِالافْتِقَارِ إِلَيْكَ فَقْرِي أَدْفَعُ
مَا لِي سِوَى قَرْعِي لِبَابِكَ حِيلَةٌ	وَلَئِنْ طُرِدْتُ فَأَيَّ بابٍ أَقْرَعُ؟
وَمَنِ الَّذِي أَدْعُو وَأَهْتِفُ بِاسْمِهِ	إِنْ كانَ فَضْلُكَ عَنْ فَقِيرِكَ يُمْنَعُ
حَاشَا لِجُودِكَ أَنْ تُقَنِّطَ عَاصِيًا	الْفَضْلُ أَجْزَلُ، وَالْمَوَاهِبُ أَوْسَعُ
بِالذُّلِّ قَدْ وَافَيْتُ بابَكَ عَالِمًا	أَنَّ التَّذَلُّلَ عِنْدَ بَابِكَ يَنْفَعُ

وَجَعَلْتُ مُعْتَمَدِي عَلَيْكَ تَوَكُّلَا وَبَسَطْتُ كَفِّي سَائِلًا أَتَضَرَّعُ
فاجْعَلْ لَنا مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا وَالْطُفْ بِنا يا مَنْ إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ

قِفْ بِالْبَابِ أَيُّها الْفَقِيرُ الْحَقِيرُ، وَتَضَرَّعْ إِلَى الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ، تَضَرُّعَ الْأَسِيرِ بِقَلْبٍ كَسِيرٍ، وَقُلْ: يا إِلهَ الْعَالَمِينَ، وَأَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ، عَبْدُكَ أَسِيرُ الْخَطِيئَاتِ، وَصَاحِبُ الْهَفَوَاتِ وَالزَّلَّاتِ، وَاقِفٌ بِبابِ كَرَمِكَ، يَنْتَظِرُ فَوَائِدَ رَحْمَتِكَ، وَزَوَائِدَ نِعْمَتِكَ، الْخَيْرُ دَأْبُكَ، وَالْحُكْمُ حُكْمُكَ، اجْعَلْ مُنْتَهَى مَطَالِبِنا رِضَاكَ، وَأَقْصَى مَقَاصِدِنا رُؤْياكَ، وَعَنِ الشَّهَوَاتِ باعِدْنا لِأَنْ نَلْقَاكَ وَأَنْتَ رَاضٍ عَنَّا.

وَتَمَلَّقْهُ فَإِنَّهُ يَدْعُو الْمُعْرِضَ فَكَيْفَ لَا يَقْبَلُ الْمُقْبِلَ؟ فَلَعَلَّكَ أَنْ تُصِيبَكَ نَفْحَةٌ مِنْ نَفَحَاتِ إِفْضَالِهِ، فَتَحْظَى مِنْهُ بِجَمِيلِ إِقْبَالِهِ، فَإِنَّ مَنِ اعْتَزَّ بِحِمَاهُ حَمَاهُ، وَمَنِ اسْتَضَاءَ بِهُدَاهُ هَدَاهُ، وَمَنِ انْقَطَعَ إِلَيْهِ كَفَاهُ، وَمَنْ حَطَّ رِحَالَهُ بِبابِهِ آوَاهُ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ نادَاهُ، وَمَنْ تَمادَى فِي مُتَابَعَةِ هَوَاهُ أَبْعَدَهُ وَأَقْصَاهُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَماءِ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ: وَقَدْ قِيلَ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَلْطُفُ بِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَلِهَذَا تُغَلُّ فِيهِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ، حَتَّى لَا يَقْدِرُوا عَلَى مَا كانُوا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ فِي غَيْرِهِ، مِنْ تَسْوِيلِ الذُّنُوبِ؛ كَما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ.

وَلِهَذَا ـ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ ـ تَقِلُّ الْمَعَاصِي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَفائِدَتُهُ: أَنَّ الصَّوْمَ يَمْنَعُ مِنْ إِتْيانِ الْمَعَاصِي، كَمَا قالَ ﷺ: «يا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه وَغَيْرُهُ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «إِنَّ فِي شَهْرِ رَمَضانَ لَيْلَةً خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسائِيُّ وَابْنُ مَاجَه.

وَرِوَايَةُ ابْنِ مَاجَه: «إِنَّ هَذَا الشَّهْرَ قَدْ حَضَرَكُمْ وَفِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ

شَهْرٍ، مَنْ حُرِمَهَا فَقَدْ حُرِمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ، وَلَا يُحْرَمُ خَيْرَهَا إِلَّا مَحْرُومٌ».

وَقَالَ جُوَيْبِرٌ: سَأَلْتُ الضَّحَّاكَ: أَرَأَيْتَ النُّفَسَاءَ وَالْحَائِضَ وَالْمُسَافِرَ وَالنَّائِمَ لَهُمْ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ نَصِيبٌ؟ قالَ: نَعَمْ، مَنْ يَقْبَلُ اللَّهُ عَمَلَهُ سَيُعْطِيهِ نَصيبَهُ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ النُّفَسَاءَ وَالحَائِضَ وَالْمُسَافِرَ وَالنَّائِمَ يَتَعَلَّقُ إِعْطَاءُ نَصِيبِهِمْ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ بِالذِّكْرِ. وَأَمَّا النَّائِمُ فَلَيْسَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ كُلَّ نَائِمٍ يُعْطَى حَظَّهُ مِنْهَا. إِنَّمَا هُوَ النَّائِمُ الَّذِي قَلْبُهُ ذَاكِرٌ، كَمَا قالَ بَعْضُ السَّلَفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى: رُبَّ قائِمٍ مَحْرُومٌ، وَنَائِمٍ مَرْحُومٌ. أَمَّا الْقَائِمُ الْمَحْرُومُ، فَإِنَّهُ قائِمٌ وَقَلْبُهُ فاجِرٌ، وَالنَّائِمُ الْمَرْحُومُ، نَائِمٌ وَقَلْبُهُ ذَاكِرٌ؛ فَافْهَمْ سِرَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ هَدَاكَ اللَّهُ لِلصَّوَابِ.

إِخْوَانِي: الْمُعَوَّلُ عَلَى الْقَبُولِ لَا عَلَى الاجْتِهَادِ، والاعْتِبَارُ بِبِرِّ الْقُلُوبِ لَا بِعَمَلِ الْأَبْدَانِ. رُبَّ قائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ. كَمْ مِنْ قَائِمٍ مَحْرُومٌ، وَنَائِمٍ مَرْحُومٌ؟ هَذَا نَائِمٌ وقَلْبُهُ ذَاكِرٌ. وَهَذَا قَائِمٌ وَقَلْبُهُ فَاجِرٌ. لَكِنَّ الْعَبْدَ مَأْمُورٌ بِالسَّعْيِ فِي اكتِسَابِ الْخَيْرَاتِ، والاجْتِهَادِ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ. وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، فالْمُبَادَرَةُ الْمُبَادَرَةُ إِلَى اغْتِنَامِ الْعَمَلِ فِيمَا بَقِيَ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ، فَعَسَى أَنْ تَسْتَدْرِكُوا مَا فاتَ مِنْ ضَيَاعِ الْعُمْرِ.

شِعْر:

تَوَلَّى الْعُمْرُ فِي سَهْوٍ	وَفِي لَهْوٍ وَفِي خُسْرِ
فَيَا ضَيْعَةَ مَا أَنْفَقْـ	ـتُ فِي الْأَيَّامِ مِنْ عُمْرِ
وَمَا لِي فِي الَّذِي ضَيَّعْـ	ـتُ مِنْ عُمْرِي مِنْ عُذْرِ
فَمَا أَغْفَلَنَا عَنْ وَا	جِبَاتِ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ
أَمَا قَدْ خَصَّنَا اللَّهُ	بِشَهْرٍ أَيِّمَا شَهْرِ
بِشَهْرٍ أَنْزَلَ الرَّحْمٰـ	ـنُ فِيهِ أَشْرَفَ الذِّكْرِ

وَهَلْ يُشْبِهُهُ شَهْرٌ وَفِيهِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟
فَكَمْ خَبَرٍ لَهَا قَدْ صَحَّ مَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ
رَوَيْنَا عَنْ ثِقَاةٍ أَنَّهَا تُطْلَبُ فِي الْوِتْرِ
فَطُوبَى لامْرِئٍ قَدْ بَاتَ يَطْلُبُهَا مِنَ الْعَشْرِ
فَفِيهَا تَنْزِلُ الْأَمْلاَكُ بِالْأَنْوَارِ وَالْبِرِّ
وَقَدْ قَالَتْ: سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ
أَلاَ فَادَّخِرُوهَا إِنَّهَا مِنْ أَنْفَسِ الذُّخْرِ
فَكَمْ مِنْ مُعْتَقٍ فِيهَا مِنَ النَّارِ وَمَا يَدْرِي؟

رَأَى بَعْضُ السَّلَفِ خِيَامًا ضُرِبَتْ وَهُوَ فِي الْمَنَامِ، فَسَأَلَ: لِمَنْ هِيَ؟ فَقِيلَ: لِلْمُتَهَجِّدِينَ بِالْقُرْآنِ. فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَنَامُ.

وَوَرَدَ أَنَّ جِبْرِيلَ يُنَادِي كُلَّ لَيْلَةٍ: أَقِمْ فُلَانًا، وَأَنِمْ فُلَانًا.

فَسُبْحَانَ مَنِ اخْتَصَّ بِفَضْلِهِ بَعْضَ الْمَخْلُوقِينَ، وَثَبَّتَ عَزْمَهُمْ فاسْتَقَامُوا عَلَى الْيَقِينِ، وَخَذَلَ مَنْ شَاءَ فَأَبْعَدَهُ عَنْ أَحْوَالِ الْمُتَّقِينَ ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾.

شعر:

فَطُوبَى لِمَنْ أَرْضَى الْإِلَهَ مُسَارِعًا إِلَى سُبُلٍ تَهْدِيهِ لِلرِّحْلَةِ الْأُخْرَى
وَقَامَ وَصَلَّى فِي الدَّيَاجِي، وَدَمْعُهُ عَلَى خَدِّهِ يَجْرِي بِمُقْلَتِهِ الْعَبْرَى
وَأَخْلَصَ لِلَّهِ الْعَظِيمِ قِيَامَهُ وَعاهَدَهُ سِرًّا وَرَاقَبَهُ جَهْرَا
وَأَحْيَا لَيَالِي شَهْره بِقِيامِهِ إِلَى رَبِّهِ فِي اللَّيْلِ وَامْتَثَلَ الْأَمْرَا
فَذَاكَ بِحَمْدِ اللَّهِ فِي طِيبِ عَيْشِهِ يَفُوزُ بِها صَوْمًا ويَحْظَى بِهَا فِطْرَا

اللَّهُمَّ وَاقْبَلْ مِنْ عَبِيدِكَ الْمُخْلِصِينَ لِوَجْهِكَ مَا عَمِلُوا، وَلَا تُخْزِهِمْ وَارْحَمْهُمْ فَإِنَّهُمْ فِيكَ الرَّحْمَةَ قَدْ أَمَّلُوا، وَاغْفِرْ لَهُمْ مَا جَنَوْا مِنَ الذُّنُوبِ وَانْتَحَلُوا.

إِلٰهِي، إن كُنْتَ لَا تَرْحَمُ إِلَّا الْمُجْتَهِدِينَ، فَمَنْ لِلْمُقَصِّرِينَ؟ وَإِن كُنْتَ لَا تَقْبَلُ إِلَّا الْمُخْلِصِين فَمَنْ لِلْمُخَلِّطِينَ؟ وَإِن كُنْتَ لَا تُكْرِمُ إِلَّا الْمُحْسِنِينَ، فَمَنْ لِلْمُسِيئِينَ؟

إِلٰهِي، أَحْيِ قُلُوبًا أَمَاتَها الْبُعْدُ عَنْ بابِكَ، وَلَا تُعَذِّبْها بِأَلِيمِ عِقابِكَ.

إِلٰهِي جُدْ بِالْعَفْوِ عَلَى مُذَكِّرٍ مُتَكَلِّفٍ، وسَامِعٍ مُتَخَلِّفٍ.

إِلٰهِي، عُمَّنَا بِالْفَضْلِ أَجْمَعِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدِينَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ
فِي اغْتِنَامِ الْأَوْقَاتِ الشَّرِيفَةِ لِلدُّعَاءِ وَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَلِكِ الْأَعْلَى الْكَبِيرِ. الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، الْفَرْدِ الصَّمَدِ. السَّمِيعِ الْبَصِيرِ الْخَافِض الرَّافِعِ، وَالْمُعْطِي الْمَانِعِ، وَالْإِلٰهِ الْمُعِزِّ الْمُذِلِّ الْقَدِيرِ. أَحَاطَ عِلْماً بِالْجَلِيلِ وَالْحَقِيرِ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

جَبَّارٌ جَبَرَ أَحْوَالَ مَنْ رَحِمَهُ، وَتَجَبَّرَ عَلَى مَنْ أَقْصَاهُ وَحَرَمَهُ، وَالْحَكَمُ الَّذِي لَا يَظْلِمُ الْفَتِيلَ وَالنَّقِيرَ. اللَّطِيفُ الَّذِي يَعْلَمُ خَفَايا تَصَنُّعِ الْعَالَمِينَ، وَيَغْفِرُ عَظَائِمَ ذُنُوبِ التَّائِبِينَ، وَيُحِبُّ أَنِينَ الْمُذْنِبِينَ بِالْقَلْبِ الْحَزِينِ، وَالْعَفْوَ عَنِ الذُّنُوبِ والْخَطَإِ وَالتَّقْصِيرِ.

أَرْوَاحُ الْمُحِبِّينَ لِذِكْرِهِ أَلِفَتْ، وَرِجَالُ الْمُوَحِّدِينَ بِسَاحَاتِ كَرَمِهِ وَقَفَتْ، وَنُفُوسُ الْعَابِدِينَ بِالْعَجْزِ عَنْ إِدْرَاكِ حَقِّهِ اتَّصَفَتْ، وَعُقُولُ الْعَارِفِينَ بِالْعَجْزِ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِهِ اعْتَرَفَتْ.

فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلٰهٍ، تَعَالَى عَنْ نَظِيرٍ وَتَقَدَّسَ عَنْ وَزِيرٍ، قَدَّرَ فَهَدَى، وَأَغْنَى وَأَقْنَى ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾. يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا يُخْفِي الضَّمِيرُ.

أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْلَاهُ مِنَ الْإِنْعَامِ وَالْخَيْرِ الْكَثِيرِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا ضِدَّ وَلَا نِدَّ وَلَا ظَهِيرَ، شَهَادَةً أَدَّخِرُهَا لِلْيَوْمِ الْعَسِيرِ، وَأَرْجُو بِهَا النَّجَاةَ مِنْ دَارِ السَّعِيرِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْبَشِيرُ النَّذِيرُ. وَالسِّرَاجُ الْمُنِيرُ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَهْلِ الْجِدِّ وَالتَّشْمِيرِ، وَسَلَّم تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

هَذَا مِنْ فَضْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ نَدَبَ عِبَادَهُ إِلَى دُعَائِهِ، وَتَكَفَّلَ لَهُمْ بِالْإِجَابَةِ، كَمَا كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: يَا مَنْ أَحَبُّ عِبَادِهِ إِلَيْهِ مَنْ سَأَلَهُ فَأَكْثَرَ سُؤَالَهُ، وَيَا مَنْ أَبْغَضُ عِبَادِهِ إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ. وَلَيْسَ أَحَدٌ كَذَلِكَ غَيْرَكَ يَا رَبُّ.

وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ الشَّاعِرُ:

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ   وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ النُّعْمَانِ بِنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾».

وَلَهُ أَيْضاً عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدْعُ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ غَضِبَ عَلَيْهِ».

وَلِلدُّعَاءِ أَوْقَاتٌ كَهَذَا الشَّهْرِ وَأَوْقَاتِهِ الْفَضِيلَةِ. وَقَدْ وَرَدَ: أَنَّ عِنْدَ خَتْمِ الْقُرْآنِ دَعْوَةً مُسْتَجَابَةً، كَمَا فِي مُسْنَدِ الدَّارِمِي عَنْ حُمَيْدٍ الْأَعْرَجِ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ثُمَّ دَعَا أَمَّنَ عَلَى دُعَائِهِ أَرْبَعَةُ آلَافِ مَلَكٍ».

وَفِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّه كانَ يَجْعَلُ رَجلًا يُرَاقِبُ رَجُلًا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَإِذَا أَرَادَ الْخَتْمَ أَعْلَمَ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَيَجِيءُ وَيَشْهَدُ ذَلِكَ».

وَعَنْ مُجَاهِدٍ قالَ: كانُوا يَجْتَمِعُونَ عِنْدَ خَتْمِ الْقُرْآنِ، يَقُولُونَ: تَنْزِلُ الرَّحْمَةُ.

وَرُوِيَ بِالْأَسَانِيدِ الصَّحِيحَةِ: أَنَّ مُجاهِدًا وَعَبْدَةَ بْنَ أَبِي لُبابَةَ أَرْسَلَا إِلَى الْحَكَمِ بْنِ عُتَيْبَةَ، فَقَالَا: إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكَ لِأَنَّا أَرَدْنا أَنْ نَخْتِمَ الْقُرْآنَ.

وَالدُّعَاءُ يُسْتَجَابُ عِنْدَ خَتْمِ الْقُرْآنِ، فَيُسْتَحَبُّ حُضُورُ مَجْلِسِ الْخَتْمِ لِمَنْ يَقْرَأُ وَمَنْ لَا يُحْسِنُ.

وَيَنْبَغِي لِلْإِمَامِ أَنْ يَتَحَرَّى بِها أَوْقاتَ الفَضْلِ، لَا سِيَّمَا فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي تُرْجَى فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَيَخْتِمُ آخِرَ رَكْعَةٍ مِنَ التَّرَاوِيحِ قَبْلَ رُكُوعِهِ، وَيَدْعُو، وَيُؤَمِّنُ مَنْ خَلْفَهُ: نَصَّ عَلَيْهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَاحْتَجَّ بِأَنَّهُ رَأَى أَهْلَ مَكَّةَ وَسُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ يَفْعَلُونَهُ. قالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْعَظِيمِ: أَدْرَكْتُ النَّاسَ بِالْبَصْرَةِ يَفْعَلُونَهُ وَبِمَكَّةَ، وَذَكَرَ عَنْ عُثْمَانَ أَيْضًا.

وَيَنْبَغِي لِلإِمَامِ أَنْ يُلِحَّ فِي الدُّعَاءِ رَافِعًا يَدَيْهِ، وَيُطِيلَ. وَأَنْ يَدْعُوَ بِالْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ، وَالْكَلِماتِ الْجَامِعَةِ، وَأَن يَكُونَ مُعْظَمُ ذَلِكَ فِي أُمُورِ الآخِرَةِ وَيَدْعُوَ لِلْمُسْلِمِينَ، وَبِصَلَاحِ سُلْطَانِهِمْ، وَسَائِرِ وُلَاتِهِمْ.

وَيُسْتَحَبُّ تَطْيِيبُ الْمَسَاجِدِ وَالزِّينَةُ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي تُرْجَى فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

وَيُسْتَحَبُّ الاغْتِسَالُ وَالتَّطْيِيبُ وَاللِّبَاسُ الْحَسَنُ، كَمَا يُشْرَعُ ذَلِكَ فِي الْجُمَعِ وَالْأَعْيَادِ.

وَكَذَلِك جَمِيعُ الصَّلَوَات يُسْتَحَبُّ التَّزَيُّنِ لَها، كَما قالَ تَعالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

كانَ ثابِتٌ الْبُنَانِيُّ وَحُمَيْدٌ الطَّوِيلُ يَلْبَسانِ أَحْسَنَ ثِيابِهِما، وَيَتَطَيَّبانِ، وَيُطَيِّبُونَ الْمَسْجِدَ بالنَّضُوحِ وَالدُّخْنَةِ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي تُرْجَى فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

وَكَانَ لِتَمِيمِ الدَّارِيِّ ﷺ حُلَّةٌ اشْتَرَاهَا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ، وَكَانَ يَلْبَسُهَا فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي تُرْجَى فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

يَا مَنْ إذا صَلَّى خَفَّفَ، وَإِذَا كالَ طَفَّفَ، وَإِذَا دُعِيَ إِلَى الْخَيْرَاتِ تَخَلَّفَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ تُبْ: سَوَّفَ، وَمَا يُؤَثِّرُ عِنْدَهُ قَوْلُ مَنْ حَذَّرَ وَخَوَّفَ، ثُمَّ يَطْمَعُ فِي لِحَاقِ الصَّالِحِينَ، كَلَّا فَمَا أَنْصَفَ.

جَدَّ الْقَوْمُ وَأَنْتَ قاعِدٌ، وَقَرَّبُوا وَأَنْتَ مُتَبَاعِدٌ. كَمْ بَيْنَ رَاغِبٍ وَزَاهِدٍ؟ كَمْ بَيْنَ سَاهِرٍ وَرَاقِدٍ؟ شَغَلَهُمْ حُبُّ مَوْلَاهُمْ عَنْ لَذَّةِ دُنْيَاهُمْ. اسْمَعْ حَدِيثَهُمْ إِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُمْ.

يَا عَجَبًا لَكَ أَخِي مِنْ هَذَا التَّسْوِيفِ، وَلَا يَنْفَعُ فِيكَ وَعْظٌ وَلَا تَعْنِيفٌ. أما آفاتُ الْمَنُونِ أَحَاطَتْ بِالْآبَاءِ وَالْبَنِينَ، وَالْإِخْوَةِ وَالْأَقْرَبِينَ، وَالْمُلُوكِ وَالْأَغْنِيَاءِ الْمُقَدَّمِينَ، وَتَسَاوَى فِي اللُّحُودِ الْمَشْرُوفُ وَالشَّرِيفُ.

رَوَى أَبُو نعِيمٍ عَنْ أَنَسٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ إِذَا شَهِدَ رَمَضَانَ قَامَ وَنامَ، فَإِذَا كانَ لَيْلَةُ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ لَمْ يَذُقْ غَمْضًا» وَفِيهِ ضَعْفٌ.

وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «نَزَلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِسِتٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْقُرْآنُ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ».

وَكَانَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ يَجْتَهِدُونَ لَيْلَةَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ، مِنْهُمْ أَنَسٌ وَالْحَسَنُ وَأَهْلُ الْبَصْرَةِ.

وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قالَ: رَاقَبْتُ الشَّمْسَ عِشْرِينَ سَنَةً لَيْلَةَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ، فَكَانَتْ تَطْلُعُ لَا شُعَاعَ لَهَا. وَكَذَا ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمَحْفُوظَ عَنْهُ أَنَّهَا لَيْلَةُ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ.

وَتَقَدَّمَ أَنَّ أَيُّوبَ السِّخْتِيَانِيَّ كانَ يَغْتَسِلُ لَيْلَةَ ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ وَلَيْلَةَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ، وَيَتَطَيَّبُ وَيَلْبَسُ ثِيابَهُ، وَيَقُولُ: لَيْلَةُ ثَلاَثٍ وعِشْرِينَ لَيْلَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَلَيْلَةُ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَتُنا ـ يَعْنِي أَهْلَ الْبَصْرَةِ.

وَمَنْ قالَ: هِيَ لَيْلَةُ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ احْتَجَّ بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ، وَبِأَنَّها أَوَّلُ السَّبْعِ الْبَاقِيَةِ إِذَا كانَ الشَّهْرُ كامِلًا.

وَقِيلَ: إِنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ لَيْلَةُ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ، وَاحْتُجَّ لِذَلِكَ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى» وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قُلْتُ: الصَّحِيحُ وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ: أَنَّ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ أَرْجَى مِنْ غَيْرِهَا كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ أَحَادِيثُ وَأَخْبَارٌ وَآياتٌ وَدِلاَلاَتٌ سَتَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَهُوَ قَوْلُ إِمَامِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالَى.

يَا هَذَا، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ قَوْمٍ نَصَبُوا الآخِرَةَ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ فَنَصِبُوا؟ فَوَفَّرَ النَّصَبُ نَصِيبَهُمْ. فَلِلَّهِ دَرُّ الْعَارِفِينَ بِزَمَانِهِمْ، إِذَا باعُوا مَا شَانَهُمْ، بِإِصْلاَحِ شَأْنِهِمْ، مَا أَقَلَّ مَا تَعِبُوا، وَمَا أَيْسَرَ مَا نَصِبُوا، فَما زَالُوا حَتَّى نالُوا مَا طَلَبُوا، شَمَّرُوا عَنْ سُوقِ الْجِدِّ فِي سُوقِ الْعَزَائِمِ، فَصَبَّحُوا مَنْزِلَ النَّجَاةِ وَأَنْتَ فِي اللَّهْوِ نائِمٌ، مَتَى تَسْلُكُ طَرِيقَهُمْ يَا ذَا الْمَآثِمِ؟ مَتَى تَنْدُبُ تَفْرِيطَكَ نَدْبَ الْمَآتِمِ:

وَمَا هِيَ إِلَّا لَيْلَةٌ بَعْدَ لَيْلَةٍ ... وَيَوْمٌ إِلَى يَوْمٍ وَشَهْرٌ إِلَى شَهْرِ
مَطَايا يُقَرِّبْنَ الْجَدِيدَ إِلَى الْبِلَى ... وَيُدْنِينَ أَشْلاَءَ الصَّحِيحِ إِلَى الْقَبْرِ

وَفِي الأَثَرِ الْمَشْهُورِ: «كَذَبَ مَنِ ادَّعَى مَحَبَّتِي، فَإِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ نَامَ عَنِّي، أَلَيْسَ كُلُّ مُحِبٍّ يُحِبُّ خَلْوَةَ حَبِيبِهِ؟ فَهَا أَنَا ذَا مُطَّلِعٌ عَلَى أَحْبَابِي إِذَا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ جَعَلْتُ أَبْصَارَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ فَخَاطَبُونِي عَلَى الْمُشَاهَدَةِ، وَكَلَّمُونِي عَلَى حُضُورِي. غَدًا أُقِرُّ أَعْيُنَ أَحْبَابِي فِي جِنَانِي».

اللَّيْلُ لِي وَلِأَحْبَابِي أُحَادِثُهُمْ ... قَدِ اصْطَفَيْتُهُمْ كَيْ يَسْمَعُوا وَيَعُوا

لَهُمْ قُلُوبٌ بِأَسْرَارِي بِهَا مُلِئَتْ عَلَى وِدَادِي وَإِرْشَادِي لَهُمْ طُبِعُوا
سَرَوْا فَمَا وَهَنُوا عَجْزًا وَلاَ ضَعُفُوا وَوَاصَلُوا حَبْلَ تَقْرِيبِي فَمَا انْقَطَعُوا

فَصْلٌ

قالَ اللَّهُ تَعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾.

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعالَى عَنْ حَقَارَةِ الدُّنْيَا وَفَنائِهَا وَاضْمِحْلاَلِها وَزَوَالِهَا. كَمَا قالَ تَعالى عَنْ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قالَ لِقَوْمِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾.

وَ«الْمَتاعُ» هُوَ مَا يُمَتَّعُ بِهِ صَاحِبُهُ بُرْهَةً، ثُمَّ يَنْقَطِعُ وَيَفْنَى، فَما عِيبَتِ الدُّنْيا بِأَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ فَنائِها وَتَقَلُّبِ أَحْوَالِهَا، وَهُوَ أَدَلُّ دَلِيلٍ عَلَى انْقِضَائِهَا وَزَوَالِهَا فَتَبَدَّلُ صِحَّتُها بِالسَّقَمِ، وَوُجُودُهَا بِالْعَدَمِ، وَشَبِيبَتُهَا بِالْهَرَمِ، وَنَعِيمُهَا بِالْبُؤْسِ، وَحَيَاتُها بِالْمَوْتِ، فَتُفَارِقُ الأَجْسَامُ النُّفُوسَ، وَعِمَارَتُها بِالْخَرَابِ، وَاجْتِمَاعُهَا بِفُرْقَةِ الأَحْبَابِ، وَكُلُّ مَا فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابٌ.

قالَ بَعْضُ السَّلَفِ ـ فِي يَوْمِ عِيدٍ، وَقَدْ نَظَرَ إِلَى كَثْرَةِ النَّاسِ، وَزِينَةِ لِبَاسِهِمْ ـ: هَلْ تَرَوْنَ إِلَّا خِرَقًا تَبْلَى، وَلَحْمًا يَأْكُلُهُ الدُّودُ غَدًا.

كانَ الإِمَامُ أَحْمَدُ رضي الله عنه يَقُولُ: يا دَارُ تَخْرَبِينَ، وَيَمُوتُ سُكَّانُكِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: «عَجَبًا لِمَنْ رَأَى الدُّنْيا وَسُرْعَةَ تَقَلُّبِها بِأَهْلِهَا. كَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْها».

رُوِي أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي لَيْلَةٍ رَجُلٌ أَعْمَى مِنْ بَنِي عَبْسٍ، فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِ عَمَى عَيْنَيْهِ، فَقالَ: بِتُّ لَيْلَةً فِي بَطْنِ وَادٍ، وَلَمْ أَعْلَمْ فِي الأَرْضِ عَبْسِيًّا يَزِيدُ مَالُهُ عَلَى مَالِي فَطَرَقَنا سَيْلٌ، فَذَهَبَ بِما كانَ لِي مِنْ مَالٍ، وَأَهْلٍ، وَوَلَدٍ، غَيْرَ بَعِيرٍ وَصَبِيٍّ، وَكَانَ الْبَعِيرُ صَعْبًا فَشَرَدَ فاتَّبَعْتُهُ؛ فَمَا

جَاوَزْتُ الصَّبِيَّ إِلَّا بِيَسِيرٍ، حَتَّى سَمِعْتُ صَوْتَهُ، فَرَجَعْتُ فَإِذَا رَأْسُ الصَّبِيِّ فِي بَطْنِهِ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ اتَّبَعْتُ الْبَعِيرَ لِأَخْذِهِ، فَنَفَحَنِي بِرِجْلِهِ فَأَصَابَ وَجْهِي، فَحَطَمَهُ وَأَذْهَبَ عَيْنَيَّ، فَأَصْبَحْتُ لَا أَهْلَ لِي وَلَا مَالَ وَلَا وَلَدَ وَلَا بَعِيرَ.

قالَ الْحَسَنُ: إِنَّ الْمَوْتَ قَدْ فَضَحَ الدُّنْيا، فَلَمْ يَدَعْ لِذِي لُبٍّ بِهَا فَرَحًا.

وَقالَ مُطَرِّفٌ: إِنَّ هَذَا الْمَوْتَ قَدْ أَفْسَدَ عَلَى أَهْلِ النَّعِيمِ نَعِيمَهُمْ؛ فالْتَمِسُوهَا نَعِيمًا لَا مَوْتَ فِيهِ.

وَقالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ: مَا تَرَكَ ذِكْرُ الْمَوْتِ لَنَا قُرَّةَ عَيْنٍ فِي أَهْلٍ وَلَا مَالٍ.

وَقَالَ يَزِيدُ الْهَاشِمِيُّ: أَمِنَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْمَوْتَ فَطَابَ لَهُمُ الْعَيْشُ، وَأَمِنُوا الْأَسْقَامَ فَهَنِيئًا لَهُمْ فِي جِوَارِ اللَّهِ طُولُ الْمُقَامِ. عُيُوبُ الدُّنْيا بادِيَةٌ وَهِيَ بِتَغَيُّرِهَا مَوَاعِظُهَا مُنَادِيَةٌ، لَكِنَّ حُبَّهَا يُعْمِي وَيُصِمُّ. فَلَا يَسْمَعُ مُحِبُّهَا نِدَاءَهَا وَلَا يَرَى كَشْفَهَا لِلْغَيْرِ وَأَذَاهَا.

شِعْر:

قَدْ نَادَتِ الدُّنْيا عَلَى نَفْسِهَا ... لَوْ كانَ فِي الْعَالَمِ مَنْ يَسْمَعُ:
كَمْ وَاثِقٍ بِالْعُمْرِ أَفْنَيْتُهُ ... وَجَامِعٍ بَدَّدْتُ مَا يَجْمَعُ

كَمْ قَدْ تَبَدَّلَ نَعِيمُهَا بِالضُّرِّ وَالْبُؤْسِ؟ كَمْ أَصْبَحَ مَنْ هُوَ وَاثِقٌ بِمُلْكِهَا وَأَمْسَى وَهُوَ مِنْهَا قَنُوطٌ يَئُوسٌ؟

قالَتْ بَعْضُ بَناتِ مُلُوكِ الْعَرَبِ ـ الَّذِينَ نُكِبُوا ـ: أَصْبَحْنَا وَمَا فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَحْسُدُنا وَيَخْشَانا، وَأَمْسَيْنَا وَمَا فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَرْحَمُنا. تَعْنِي: أَنَّهُمْ أَصْبَحُوا عَلَى مُلْكِهِمْ وَالْخَلَائِقُ يَخَافُونَهُمْ وَيَغْبِطُونَهُمْ، وَمَا أَمْسَوْا إِلَّا وَقَدْ سُلِبَ مُلْكُهُمْ، وَصَارُوا بَعْدَهُ مُسْتَضْعَفِينَ وَمَخْذُولِينَ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ اجْتَازَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ بِدَارٍ فِيهَا فَرَحٌ، وَقَائِلَةٌ تَقُولُ فِي غِنَائِها:

أَلَا يَا دَارُ لَا يَدْخُلْكِ حُزْنٌ وَلَا يُزْرِي بِصَاحِبِكِ الزَّمَانُ

فَذَهَبَ، ثُمَّ اجْتَازَ بِهَا عَنْ قَرِيبٍ، وَإِذَا الْبَابُ مُسَوَّدٌ، وَفِي الدَّارِ بُكَاءٌ وَصُرَاخٌ، فَسَأَلَ عَنْهُمْ؟ فَقِيلَ: مَاتَ رَبُّ الدَّارِ، فَطَرَقَ الْبَابَ، وَقَالَ: سَمِعْتُ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ قائِلَةً تَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَبَكَتِ امْرَأَةٌ وَقالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يُغَيِّرُ وَلَا يَتَغَيَّرُ، وَالْمَوْتُ غَايَةُ كُلِّ مَخْلُوقٍ، فانْصَرَفَ مِنْ عِنْدِهِمْ باكِيًا. فَسُبْحَانَ مَنْ لَا انْقِضَاءَ لِحُكْمِهِ، وَلَا انْتِهَاءَ لِأَبَدِيَّتِهِ.

فَيا إِخْوَانِي، مَا هَذِهِ الْغَفَلَاتُ وَالاغْتِرَارُ؟ وَمَا هَذَا الْإِكْبابُ عَلَى الدُّنْيَا وَقَدْ رَأَيْتُمْ تَصَرُّمَ الْأَعْمَارِ؟ وَمَا هَذَا التَّفْرِيطُ، وَأَنْتُمْ عَلَى الْآثارِ؟ وَقَدْ أَيْقَنْتُمْ أَنَّ دَارَ الْفَنَاءِ لَيْسَتْ لَكُمْ دَارَ قَرَارٍ؟

فَيَا عِبَادَ اللَّهِ، تَأَهَّبُوا لِلْمَوْتِ الَّذِي مَا طَلَبَ أَحَدًا فَأَعْجَزَهُ، وَلَا تَحَصَّنَ مِنْهُ مُتَحَصِّنٌ إِلَّا أَخْرَجَهُ وَأَبْرَزَهُ، فَأَيُّ عَيْشٍ صَفَا وَمَا كَدَّرَهُ؟ وَأَيُّ قَدَمٍ سَعَى وَمَا عَثَرَهُ؟ وَأَيُّ غُصْنٍ عَلَا وَمَا كَسَرَهُ؟ وَأَيُّ بِنَاءٍ أُشِيدَ وَمَا دَمَّرَهُ؟ وَأَيُّ غَافِلٍ لَاهٍ وَمَا دَعْثَرَهُ؟ وَأَيُّ مَلِكٍ آمِرٍ ناهٍ عَالٍ وَمَا حَذَّرَهُ؟ وَأَيُّ مُتَعَنِّتٍ جَائِرٍ وَمَا نَكَّسَهُ وَأَصْغَرَهُ؟ وأَيُّ غَنِيٍّ مَا سَلَبَ مَالَهُ وَأَفْقَرَهُ؟

أَمَا أَخَذَ الْآبَاءَ وَالْأَجْدَادَ؟ أَمَا أَخَذَ الشَّبَابَ وَالأَوْلَادَ؟ أَمَا مَلَأَ الْقُبُورَ وَالْأَلْحَادَ؟ أَمَا أَرْمَلَ النِّسَاءَ وَأَيْتَمَ الْأَوْلَادَ؟ أَمَا سَلَبَ الْأَحِبَّةَ وَقَطَعَ الْوِدَادَ؟

يَا حَزِينًا لِفِرَاقِ أَحْبَابِهِ، خُذْ لِلِحَاقِهِمْ أَحْسَنَ زَادٍ.

عِبَادَ اللَّهِ: أَمَا أَيْقَنْتُمْ أَنَّكُم مِنْ جُمْلَةِ الرَّاحِلِينَ؟ وَاللُّحُودُ الْمَنَازِلُ بَعْدَ التَّرَفِ وَاللِّينِ؟ وَالْهَوْلُ فَظِيعٌ؛ فَأَيْنَ الْمُتَفَكِّرُ الْحَزِينُ؟ أَمَا عَلِمْتُم بِأَنَّ الْمَوْتَ بَابٌ، وَأَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الدَّاخِلِينَ؟

رُوِيَ أَنَّ الْإِسْكَنْدَرَ مَرَّ بِمَدِينَةٍ فِي سَفَرِهِ، قَدْ مَلَكَهَا سَبْعَةٌ مِنَ الْمُلُوكِ، وَبَادُوا جَمِيعُهُمْ، فَقالَ: هلْ بَقِيَ مِنْ نَسْلِ هٰؤلَاءِ أَحَدٌ؟ قالُوا: نَعَمْ! بَقِيَ رَجُلٌ وَهُوَ فِي الْمَقَابِرِ لَا يَسْكُنُ لِأَحَدٍ، وَلَا يَأْنَسُ إِلَّا بِالْوَاحِدِ الْفَرْدِ الصَّمَدِ، فَقالَ لَهُمْ: دُلُّونِي عَلَى مَكانِهِ؛ فَدَلُّوهُ عَلَيْهِ. فَلَمَّا أَتاهُ رَأَى رَجُلًا قَدْ أَنْحلَتْهُ الْعِبَادَةُ، وَأَذَابَهُ الْخَوْفُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ذُو الْقَرْنَيْنِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَقالَ لَهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ: يَا هَذَا، مَا حَمَلَكَ عَلَى لُزُومِ الْمَقَابِرِ؟ فَأَطْرَقَ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَعْزِلَ عِظَامَ الْمُلُوكِ مِنْ عِظَامِ عَبِيدِهِمْ؛ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ. فَقالَ لَهُ الْإِسْكَنْدَرُ: هَلْ لَكَ أَنْ تَتْبَعَنِي فَأُحْيِيَ بِكَ شَرَفَ آبائِكَ إِنْ كانَتْ لَكَ هِمَّةٌ، فَقالَ: إِنَّ هِمَّتِي لَعَلِيَّةٌ، إِنْ كانَتْ بُغْيَتِي عِنْدَكَ؟ قالَ: وَمَا بُغْيَتُكَ؟ قالَ: أَبْغِي حَيَاةً لَا مَوْتَ بَعْدَهَا، وَشَبَابًا لَا هَرَمَ بَعْدَهُ، وَغِنًى لَا فَقْرَ بَعْدَهُ. قالَ ذُو الْقَرْنَيْنِ: لَا أَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، قالَ: فامْضِ لِشَأْنِكَ، وَدَعْنِي أَطْلُبُ ذَلِكَ مِمَّنْ هُوَ عَلَيْهِ أَقْدَرُ، وَلَهُ أَمْلَكُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ ذَهَبَتْ، وَالْآخِرَةُ قَدْ قَرُبَتْ، وَالسَّفَرُ بَعِيدٌ، وَلَيْسَ مَعِي زَادٌ، وَالرُّقَادُ طَوِيلٌ، وَأَنَا عَلَى غَيْرِ مِهَادٍ.

شِعْر:

تَنَبَّهْ قَبْلَ الْمَوْتِ إِنْ كُنْتَ تَعْقِلُ ... فَعَمَّا قَلِيلٍ لِلْمَقَابِرِ تُنْقَلُ
وَتُمْسِي رَهِينًا فِي الْقُبُورِ وَتَنْثَنِي ... لَدَى جَدَثٍ تَحْتَ الثَّرَى تَتَجَنْدَلُ
فُرِيدًا وَحِيدًا فِي التُّرَاب، وَإِنَّمَا ... قَرِينُ الْفَتَى فِي الْقَبْرِ مَا كَانَ يَعْمَلُ
فَوَاأَسَفَا مَا يَعْمَلُ الدُّودُ وَالثَّرَى ... بِوَجْهٍ جَمِيلٍ كانَ لِلَّهِ يَخْجَلُ
وَمَا يَفْعَلُ الْجِسْمُ الْوَسِيمُ إِذَا ثَوَى ... وَصَارَ ضَجِيعَ الْقَبْرِ يَعْلُوهُ جَنْدَلُ
وَبَطْنٍ بَدَا فِيهِ الرَّدَى ثُمَّ لَوْ تَرَى ... دَقِيقَ الثَّرَى فِي مُقْلَةٍ يَتَهَرْوَلُ
أَعَيْنَايَ جُودَا بِالدُّمُوعِ عَلَيْكُمَا ... فَحُزْنِي عَلَى نَفْسِي أَحَقُّ وَأَجْمَلُ
أَيَا مُدَّعِي حُبِّي هَلُمَّ بِنَا إِذَا ... بَكَى النَّاسُ نَبْكِي لِلْفِرَاقِ وَنَهْمَلُ
دَعِي اللَّهْوَ نَفْسِي وَاذْكُرِي حُفْرَةَ الْبِلَى ... وَكَيْفَ بِنا دُودُ الْمَقَابِرِ يَفْعَلُ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو لَا إِلَى النَّاسِ حَالَتِي ... إِذَا صِرْتُ فِي قَبْرِي وَحِيدًا أُمَلْمِلُ

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنا ذنُوبًا قَطعَتْنَا عَنْ بابِكَ، وَجُدْ عَلَيْنا بِكَرَمِكَ، وَهَبْ لَنا مَا وَهَبْتَهُ لِأَحْبَابكَ.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنا جَمِيعَ الزَّلَّاتِ، وَاسْتُرْ عَلَيْنا كُلَّ الْخَطِيئَاتِ، وَسَامِحْنَا يَوْمَ السُّؤَالِ وَالْمُنَاقَشَاتِ.

اللَّهُمَّ يَا مُصْلِحَ الصَّالِحِينَ، أَصْلِحْ فَسَادَ قُلُوبِنا، وَاسْتُرْ عَلَيْنا فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ عُيُوبَنا، وَاغْفِرْ بِعَفْوِكَ وَرَحْمَتِكَ ذُنُوبَنا، وَنَبِّهْ قُلُوبَنا مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ وَوَفِّقْنا لاغْتِنَامِ أَوْقَاتِ الْمُهْلَةِ، وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْفَصْلُ الرَّابِعُ

وَفِيهِ فَصْلٌ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لاَ تُدْرِكُهُ الْأَوْهَامُ وَلَا الظُّنُونُ، وَلَا تَنالُهُ الْآفَاتُ وَلَا الْمَنُونُ، الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الْمَكْنُونَ، وَأَرْسَلَ السَّحَابَ الْهَتُونَ، وَأَخْرَجَ الثِّمَارَ مِنْ يَابِسِ الْغُصُونِ، وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

تَكَوَّنَتْ بِقُدْرَتِهِ الْأَشْيَاءُ، وَتَوَالَتْ بِرَحْمَتِهِ الْآلاَءُ، وَانْشَقَّتْ بِحِكْمَتِهِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ، وَكَتَبَ بِمَشِيئَتِهِ السَّعَادَةَ وَالشَّقَاءَ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قَدَّرَ الْأَزْمَانَ، وَفَضَّلَ شَهْرَ رَمَضَانَ عَلَى سَائِرِ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

مُبْدِعُ الدُّهُورِ بِالْإِحْدَاثِ، وَمُصَوِّرُ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ ﴿أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

الْكَرِيمُ الشَّكُورُ، الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

مَالِكُ الْأَشْيَاءِ بِالطُّولِ وَالْعَرْضِ، وَقابِلٌ مِنْ عِبَادِهِ السُّنَنَ وَالْفَرْضَ، وَإِلَيْهِ الْمَآبُ وَالْعَرْضُ ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

فَضَّلَ شَهْرَ رَمَضَانَ بِالْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ، وَالرَّحْمَةِ وَالْعِتْقِ مِنَ النِّيرَانِ، وَأَنْزَلَ عَلَى سَيِّدِنا فِي الكِتَابِ الْمَكْنُونِ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْمُتَقَرِّبُونَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً تَنْفَعُ قَائِلَهَا ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ الْمَأْمُونُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ الَّذِينَ كُلُّ دَهْرِهِمْ رَمَضَانُ، وَبِهِ فِي أَعْمَالِ الْخَيْرِ يَزِيدُونَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾.

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: «بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً، ثُمَّ رَقَدَ فَلَمَّا كانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾. ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ، فَصَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ».

وَقَالَ ابْنُ مَاجَه: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَسَاقَ بِالإِسْنَادِ إِلَى النَّضْرِ بْنِ شِيبَانَ قَالَ: لَقِيتُ أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ، فَقُلْتُ: حَدِّثْنِي بِحَدِيثٍ سَمِعْتَهُ مِنْ أَبِيكَ يَذْكُرُهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، قَالَ: نَعَمْ! حَدَّثَنِي أَبِي: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

ذَكَرَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَقَالَ: «شَهْرٌ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ، وَسَنَنْتُ لَكُمْ قِيَامَهُ؛ فَمَنْ صَامَهُ وَقَامَهُ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

فَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَأَكُّدِ اسْتِحْبَابِ قِيَامِ رَمَضَانَ، لَا سِيَّمَا الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْهُ. كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَتِ الْعَشْرُ أَحْيَا اللَّيْلَ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ»، قَوْلُهُ: «شَدَّ الْمِئْزَرَ» أَيْ تَرَكَ الْجِمَاعَ.

وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ أَنَسٍ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا شَهِدَ رَمَضَانَ قَامَ وَنَامَ؛ فَإِذَا كَانَ لَيْلَةَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ لَمْ يَذُقْ غَمْضًا».

وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ إِلَى عَلِيٍّ ﵁: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُوقِظُ أَهْلَهُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ يُطِيقُ الصَّلَاةَ».

وَرَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ عَلِيٍّ أَيْضًا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَخْرُجُ مِنْ أَعْلَاهَا حُلَلٌ، وَمِنْ أَسْفَلِهَا خَيْلٌ مِنْ ذَهَبٍ مُسْرَجَةٌ مُلْجَمَةٌ مِنْ دُرٍّ وَيَاقُوتٍ، لَا تَرُوثُ وَلَا تَبُولُ، لَهَا أَجْنِحَةٌ، خَطْوُهَا مَدُّ الْبَصَرِ، فَيَرْكَبُهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ تَطِيرُ بِهِمْ حَيْثُ شَاءُوا، فَيَقُولُ الَّذِينَ أَسْفَلَ مِنْهُمْ دَرَجَةً: يَا رَبِّ، بِمَ بَلَغَ عِبَادُكَ هَذِهِ الْكَرَامَةَ كُلَّهَا؟ قَالَ: فَيُقَالُ لَهُمْ: كَانُوا يُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ وَكُنْتُمْ تَنَامُونَ، كَانُوا يَصُومُونَ وَكُنْتُمْ تَأْكُلُونَ، وَكَانُوا يُنْفِقُونَ وَكُنْتُمْ تَبْخَلُونَ، وَكَانُوا يُقَاتِلُونَ وَكُنْتُمْ تَجْبُنُونَ».

شِعْر:

يَا رِجَالَ اللَّيْلِ جِدُّوا ... رُبَّ دَاعٍ لَا يُرَدُّ

مَا يَقُومُ اللَّيْلَ إِلَّا ... مَنْ لَهُ عَزْمٌ وَجَدُّ

لَيْسَ شَيْءٌ كَصَلَاةِ اللَّـ ... ـيْلِ لِلْقَبْرِ يُعَدُّ

وَاعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ تَعَالَى، أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلصَّائِمِ الْقَائِمِ الَّذِي يَرْجُو ثَوَابَ صِيَامِهِ وَقِيَامِهِ أَنْ يَحْفَظَ صِيَامَهُ عَمَّا يَشُوبُهُ مِنَ الْمَعَاصِي، كَقَوْلِ الزُّورِ وَالْكَذِبِ

وَالْغِيبةِ، وَالْأَقْوَالِ الَّتِي لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مَصْلَحَةٌ دِينِيَّةٌ، وَعَنْ الاسْتِمَاعِ إِلى اللَّهْوِ وَالْأَغَانِي وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَنْ يُخْلِصَ عَمَلَهُ لِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَا يُرَائِي بِعَمَلِهِ أَحَدًا.

فَقَدْ قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ، فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فَقالَ: الرِّيَاءُ، يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِما يَرَى مِنْ نَظَرِ الرَّجُلِ إِلَيْهِ».

وَأَنْ يُحَافِظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةِ فِي أَوْقَاتِها مَعَ الْجَمَاعَاتِ، وَلَا يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُهُ غَالِبُ النَّاسِ الْآنَ، فَإِنَّ بَعْضَهُمْ كانَ يَقُومُ بِالنَّافِلَةِ وَيَدَعُ الْفَرْضَ، كانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَنامُ النَّهَارَ كُلَّهُ وَيَدَعُ الْأَوْقَاتَ الْمَفْرُوضَةَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَى الْإِنْسَانِ: الْمُحَافَظَةُ عَلَى الصَّلَاةِ فِي الْجَمَاعَاتِ؛ فَقَدْ وَرَدَتْ الْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ عَلَى التَّرْغِيبِ فِيهَا وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا وَالتَّرْهِيبِ مِنْ تَرْكِهَا وَالتَّهَاوُنِ بِهَا.

فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ عَلَى صَلَاةِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ مَاجه بِسَنَدِهِ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى أَعْوَادِ مِنْبَرِهِ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجَمَاعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ».

إِخْوَانِي: طُوبَى لِمَنْ تَنَبَّهَ مِنْ رُقادِهِ، وَبَكَى عَلَى مَا مَضَى مِنْ فَسَادِهِ، وَخَرَجَ عَنْ دَائِرَةِ الْمَعَاصِي إِلَى دَائِرَةِ سَدَادِهِ، عَسَاهُ يَمْحُو بِصَحِيحِ اعْتِرَافِهِ قَبِيحَ اقْتِرَافِهِ، قَبْلَ أَنْ يَقُولَ فَلَا يَنْفَعُ، وَيَعْتَذِرَ فَلَا يُسْمَعُ.

شِعْر:

أَجْنَحَتْ شَمْسُ حَيَاتِي وَتَدَلَّتْ لِلْغُروبِ
وَتَوَلَّى لَيْلُ رَأْسِي وَبَدَا فَجْرُ الْمَشِيبِ
رَبِّ خَلِّصْنِي فَقَدْ لَجَجْتُ فِي بَحْرِ الذُّنُوبِ
وَأَنِلْنِي الْعَفْوَ يَا أَقْرَبَ مِنْ كُلِّ قَرِيبِ

رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الْعَطَّارِ قالَ: حَضَرْتُ الْجُنَيْدَ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَوْتِ أَنَا وَجَماعَةٌ مِنْ أَصْحابِنا. وَكَانَ قاعِدًا يُصَلِّي وَيَثْنِي رِجْلَيْهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ وَيَسْجُدَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى خَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ رِجْلَيْهِ، فَثَقُلَ عَلَيْهِ تَحْرِيكُهُمَا. وَكَانَتْ رِجْلَاهُ قَدْ تَوَرَّمَتَا؛ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْدِقَائِهِ ـ مِمَّنْ كانَ مَعِي ـ: مَا هَذَا يَا أَبَا الْقَاسِمِ؟ فَقَالَ: هَذِهِ نِعَمٌ، اللَّهُ أَكْبَرُ. فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ، قالَ لَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْجَرِيرِيُّ: يا أَبَا الْقَاسِمِ، لَوِ اضْطَجَعْتَ؟ فَقَالَ: يا أَبَا مُحَمّدٍ، هَذَا وَقْتٌ يُؤْخَذُ مِنْهُ، اللَّهُ أَكْبَرُ. فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ حالُهُ حَتَّى خَرَجَتْ رُوحُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعالى.

وَكَانَ الْأَسْوَدُ بْنُ يَزِيدَ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ يَصُومُ حَتَّى يَخْضَرَّ وَيَصْفَرَّ، وَحَجَّ ثَمَانِينَ حَجَّةً.

وَصَامَ مَنْصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَقامَ لَيالِيَها. وَكَانَ يَبْكِي طُولَ اللَّيْلِ فَتَقُولُ لَهُ أُمُّهُ: يَا بُنَيَّ، أَقَتَلْتَ قَتِيلًا؟ فَيَقُولُ: أَنا أَعْلَمُ مَا صَنَعَتْ نَفْسِي.

وَوَقَفَ أَبُو يَزِيدٍ لَيْلَةً إِلَى الصَّبَاحِ يَجْتَهِدُ أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ، فَما قَدَرَ، إِجْلالًا وَهَيْبَةً، فَلَمَّا كانَ عِنْدَ الصَّبَاحِ نَزَلَ فَبالَ الدَّمَ.

فَلِسَانُ حَالِي يَقُولُ: يَا أَرْبَابَ الْمُعَامَلَةِ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ، سُبْحَانَ مَنْ أَقامَكُمْ وَأَقْعَدَنَا، يَا مَعْشَرَ التَّائِبِينَ، سُبْحَانَ مَنْ قَرَّبَكُمْ وَأَبْعَدَنَا ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

شِعْر:

أَحْسَنُ مِنْ قَيْنَةٍ وَمِزْمَارٍ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ نَغْمَةُ الْقَارِي

يَا حُسْنَهُ وَالْخَلِيلُ يَسْمَعُهُ ... بِحُسْنِ صَوْتٍ وَدَمْعُهُ جَارِي
وَخَدُّهُ فِي التُّرَابِ عَفَّرَهُ ... وَقَلْبُهُ فِي مَحَبَّةِ الْوَاحِدِ الْبَارِي
يَقُولُ: يَا سَيِّدِي وَيَا أَمَلِي ... شَغَلَتْنِي عَنْكَ ثِقْلُ أَوْزَارِي
اغْفِرْ ذُنُوبِي لِأَنَّهَا عَظُمَتْ ... وَلَمْ تَزَلْ يَا جَلِيلُ غَفَّارِي
ذَاكَ غَدًا فِي الْجِنَانِ مَسْكَنُهُ ... بِدَارِ قُدْسٍ بِقُرْبِ جَبَّارِ
يَسْكُنُ مَعَ زَوْجَةٍ تُشَاكِلُهُ ... يَا حُسْنَ مُخْتَارَةٍ لِمُخْتَارِ

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ هِنْدِ بِنْتِ الْحَارِثِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﵂: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ لَيْلَةً، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتْنَةِ؟ مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْخَزَائِنِ؟ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ؟ يَا رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٌ فِي الْآخِرَةِ».

يَا مُفَرِّطًا فِي سَاعَاتٍ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، لَوْ عَلِمْتَ مَا فَاتَكَ شَابَهَتْ دُمُوعُكَ الْأَنْهَارَ.

يَا طَوِيلَ النَّوْمِ عَدِمْتَ جِيرَانَ الْأَسْحَارِ، لَوْ رَأَى طَرْفُكَ مَا نَالَ الْأَبْرَارُ حَارَ.

يَا مُخْدُوعًا بِالْهَوَى سَاكِنًا فِي دَارٍ، قَدْ حَامَ حَوْلَ سَاكِنِيهَا طَارِقُ الْفَنَاءِ وَدَارَ، سَارَ الصَّالِحُونَ وَأَقْعَدَتْكَ الْأَوْزَارُ. وَيْحَكَ فَاجْتَهِدْ فِي اتِّبَاعِ الْآثَارِ، وَاذْكُرْ بِظَلَامِ اللَّيْلِ ظَلَامَ الْقَبْرِ الْخَالِي فَخَلِّ الدِّيَارَ، وَحَارِبْ عَدُوًّا قَدْ قَتَلَكَ بِالْهَوَى وَاطْلُبِ الثَّارَ. قَدْ أَرَيْتُكَ طَرِيقًا إِنْ سَلَكْتَهَا أَمِنْتَ الْعِثَارَ. وَإِنْ فُزْتَ بِالْمُرَادِ فَاذْكُرْنِي فَالصَّيْدُ لِمَنْ أَثَارَ.

وَذَكَرَ الْإِمَامُ الْوَاعِظُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ الْمَشْهُورِ فِي التَّبْصِرَةِ، قَالَ: بَكَى عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ لَمَّا احْتُضِرَ، وَقَالَ: إِنَّمَا أَبْكِي عَلَى ظَمَإِ الْهَوَاجِرِ وَقِيَامِ لَيْلِ الشِّتَاءِ.

وَقَالَ أَيْضًا: وَبَكَى أَبُو الشَّعْثَاءِ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ عِنْدَ مَوْتِهِ فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: لَمْ أَشْتَفِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ.

وَقَالَ أَيْضًا: وَبَكَى يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: أَبْكِي عَلَى مَا يَفُوتُنِي مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ، ثُمَّ جَعَلَ يَقُولُ: يَا يَزِيدُ، مَنْ يُصَلِّي لَكَ؟ مَنْ يَصُومُ لَكَ؟ مَنْ يَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ ﷻ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؟ وَيْحَكُمْ يا إِخْوَانِي، لاَ تَغْتَرُّوا بِشَبابِكُمْ فَكَأَنَّكُمْ وَقَدْ حَلَّ بِكُمْ مَا حَلَّ بِي.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «يَنْزِلُ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلِ فَيَقُولُ: أَنا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ فَلا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ» رَواهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

إِخْوَانِي: مَا أَحْسَنَ حَالَ مَنِ الْتَجَأَ إِلَى رَبِّ الْعَامِلِينَ، مَا أَصْبَحَ وُجُوهَ الْمُتَهَجِّدِينَ، مَا أَعَزَّ أَنْفاسَ الصَّائِمِينَ، مَا أَحْلَى مُنَاجَاةَ الْقَائِمِينَ، وَمَا أَعْطَرَ أَنْفَاسَ الذَّاكِرِينَ، وَمَا أَنْفَعَ بُكاءَ الْمَحْزُونِينَ، مَا أَحْلَى عَيْشَ الْمَقْبُولِينَ، وَمَا أَمَرَّ عَيْشَ الْمَطْرُودِينَ، وَمَا أَذَلَّ نُفُوسَ الْخَاطِئِينَ، وَمَا أَسْوَأَ حَالَ الْمَحْرُومِينَ، وَمَا أَعْظَمَ حَسْرَةَ الْغَافِلِينَ، وَمَا أَشْنَعَ عَيْشَ الْمَحْجُوبِينَ، وَمَا أَعْمَى قُلُوبَ الظَّالِمِينَ، وَمَا أَقْبَحَ وُجُوهَ الْعُصَاةِ وَالْمُذْنِبِينَ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

كانَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ لَهُ وِرْدٌ بِاللَّيْلِ فَنَامَ عَنْهُ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ فَتًى فِي مَنَامِهِ، فَقَالَ لَهُ هَذِهِ الأَبْياتَ بِصَوْتٍ مَحْزُونٍ:

تيَقَّظْ بِسَاعَاتٍ مِنَ اللَّيْلِ يَا فَتَى ... لَعَلَّكَ تَحْظَى فِي الْجِنَانِ بِحُورِهَا
فَتَنْعَمَ فِي دَارٍ يَدُومُ نَعِيمُهَا ... مُحَمَّدُ فِيهَا وَالْخَلِيلُ يَزُورُهَا
فَقُمْ فَتَيَقَّظْ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ ... عَسَاكَ تُقَضِّي مَا بَقِيَ مِنْ مُهُورِهَا

فَصْلٌ

قالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾.

هَذَا نَعْتٌ لِعِبادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ مِنْ أَفْعالِهِمْ الَّتِي اسْتَحَقُّوا بِها الْجَنَّاتِ الْعُلَى، وَالنَّعِيمَ الْمُقِيمَ، أَنَّهُمْ يَبِيتُونَ يُصَلُّونَ لِلَّهِ مَا بَيْنَ سُجُودٍ وَقِيامٍ وَرُكُوعٍ، فَكانَ مِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ يَتَقَلَّبُ فِيهِ إِلَى أَنْ يَقُومَ إِلَى تَهَجُّدِهِ. كُلُّ ذَلِكَ مِنْ مَخَافَةِ اللَّهِ.

كَانَ طَاوُوسُ يَتَقَلَّبُ عَلَى فِرَاشِهِ ثُمَّ يُدْرِجُهُ وَيَطْوِيهِ، وَيَقُولُ: طَيَّرَ ذِكْرُ جَهَنَّمَ نَوْمَ الْعَابِدِينَ.

وَكَانَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ يَقُولُ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ الْجَنَّةِ نامَ طَالِبُها، وَمَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُها، فَكانَ إِذَا جَاءَ اللَّيْلُ قالَ: أَذْهَبَ حَرُّ النَّارِ النَّوْمَ، فَما يَنامُ حَتَّى يُصْبِحَ، وَإِذَا جَاءَ النَّهارُ قالَ: أَذْهَبَ حَرُّ النَّارِ النَّوْمَ؛ فَمَا يَنامُ حَتَّى يُمْسِيَ.

ورُوِيَ عَنهُ أَنَّهُ كانَ يَتَلَوَّى كَما يَتَلَوَّى الْحَبُّ فِي الْمِقْلَى، ثُمَّ يَقُومُ فَيُنادِي: اللَّهُمَّ إِنَّ النَّارَ قَدْ مَنَعَتْنِي مِنَ النَّوْمِ فاغْفِرْ لِي.

وَفِي الْمُسْنَدِ وَصَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي يَقُومُ أَحَدُهُمَا مِنَ اللَّيْلِ فَيُعَالِجُ نَفْسَهُ إِلَى الطُّهُورِ، وَعَلَيْهِ عُقَدٌ فَيَتَوَضَّأُ، فَإِذَا وَضَّأَ يَدَيْهِ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا وَضَّأَ وَجْهَهُ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا مَسَحَ رَأْسَهُ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذَا وَضَّأَ رِجْلَيْهِ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ. فَيَقُولُ الرَّبُّ ﷻ لِلَّذِينَ وَرَاءَ الْحِجَابِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُعَالِجُ نَفْسَهُ مَا سَأَلَنِي عَبْدِي هَذَا فَهُوَ لَهُ».

وَأَخْرَجَ ابْنُ مَاجَه عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قالَتْ أُمُّ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ: لاَ تُكْثِرُوا النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ تَتْرُكُ الرَّجُلَ فَقِيرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَاعْلَمْ أَنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ كانُوا يُحَافِظُونَ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ فِي كُلِّ الزَّمَانِ، لَكِنَّ جُودَهُمْ وَمُحَافَظَتَهُمْ فِي هَذَا الشَّهْرِ آكَدُ مِنْ غَيْرِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ مَكَثَ غَالِبَ عُمْرِهِ لاَ يَفْتُرُ لَيْلَةً وَاحِدَةً.

فَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ مَكَثَ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعالى عَلَيْهِ خَمْسِينَ سَنَةً

لَمْ يُفْرَشْ لَهُ فِرَاشٌ؛ فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بَكَى ابْنُهُ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، مَا يُبْكِيكَ؟ أَتَرَى اللَّهَ لاَ يُضَيِّعُ لِأَبِيكَ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَخْتِمُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ؟ وَبَكَتْ أُخْتُهُ، فَقَالَ لَهَا: انْظُرِي إِلَى تِلْكَ الزَّاوِيَةِ، خَتَمَ أَخُوكِ فِيهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفَ خَتْمَةٍ.

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ يَصُومُ الدَّهْرَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ وَيَبْكِي، فَقَالَتْ جَارِيَةٌ فِي دَارِهِ: لَوْ كَانَ هَذَا قَدْ قَتَلَ أَهْلَ الدُّنْيَا مَا زَادَ عَلَى هَذَا، وَكَانَ يَقُولُ: لَوْ كَانَتْ لِلذُّنُوبِ رَائِحَةٌ مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَدْنُوا مِنِّي.

يَا بَطَّالُ لَا تَطْمَعَنَّ فِي مَنَازِلِ الْأَبْطَالِ، إِنَّ لَذَّةَ الرَّاحَةِ لَا تُنَالُ بِالرَّاحَةِ. مَنْ زَرَعَ حَصَدَ، وَمَنْ جَدَّ وَجَدَ، أَيُّ مَطْلُوبٍ نِيلَ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ، وَأَيُّ مَرْغُوبٍ لَمْ تَبْعُدْ عَلَى طَالِبِهِ الشُّقَّةُ؛ الْمَالُ لَا يُحَصَّلُ إِلَّا بِالتَّعَبِ، وَالْعِلْمُ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالطَّلَبِ، وَاسْمُ الْجُودِ لَا يَنَالُهُ بَخِيلٌ، وَلَقَبُ الشُّجَاعِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بَعْدَ تَعَبٍ طَوِيلٍ.

شِعْر:

لاَ يُدْرِكُ الْمَجْدَ إِلَّا سَيِّدٌ فَطِنٌ	لِمَا يَشُقُّ عَلَى السَّادَاتِ فَعَّالُ
لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ	الْجُودُ يُفْقِرُ وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ
إِنَّا لَفِي زَمَنٍ قَوْلُ الْقَبِيحِ بِهِ	مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجْمَالُ

يَا هَذَا، مَا الَّذِي أَبْعَدَكَ عَنْ هٰؤُلَاءِ السَّادَةِ؟ أَبْعَدَكَ وَاللَّهِ حُبُّ الْأَكْلِ وَالْوِسَادَةِ، طَاعَاتُكَ فِي نُقْصَانٍ، وَمَعَاصِيكَ فِي زِيَادَةٍ.

إِخْوَانِي: مَا هَذِهِ الْغَفْلَةُ، وَإِلَى الْبِلَى الْمَصِيرُ؟ وَمَا هَذَا التَّوَانِي وَالْعُمْرُ قَصِيرٌ؟ وَإِلَى مَتَى هَذَا التَّمَادِي فِي الْبِطَالَةِ وَالتَّقْصِيرِ؟ وَمَا هَذَا الْكَسَلُ وَقَدْ أَنْذَرَكُمُ النَّذِيرُ؟ وَإِلَى مَتَى تُبَهْرِجُونَ وَالنَّاقِدُ بَصِيرٌ؟ فَتَذَكَّرُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فَالْأَمْرُ شَدِيدٌ، وَبَادِرُوا بَقِيَّةَ الْعُمْرِ وَالشَّهْرِ؛ فَالنَّدَمُ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْفَوْتِ لَا يُفِيدُ، ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٩﴾.

إِخْوَانِي: أَيْنَ أَحْبَابُكُمُ الَّذِينَ سَلَفُوا؟ أَيْنَ أَتْرَابُكُمُ الَّذِينَ رَحَلُوا وَانْصَرَفُوا؟ أَيْنَ أَرْبَابُ الْأَمْوَالِ وَمَا خَلَّفُوا؟ نَدِمُوا عَلَى التَّفْرِيطِ يَا لَيْتَهُمْ عَرَفُوا هَوْلَ مَقَامٍ يَشِيبُ مِنْ هَوْلِهِ الْوَلِيدُ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٩﴾.

وَاعَجَبًا! كُلَّما دُعِيتَ إِلَى اللَّهِ تَوَانَيْتَ، وَكُلَّما حَرَّكَتْكَ الْمَوَاعِظُ إِلَى الْخَيْرَاتِ أَبَيْتَ وَتَمَادَيْتَ. وَكَمْ حَذَّرَكَ الْمَنُونُ فَما انْتَهَيْتَ، يَا مَنْ جَسَدُهُ حَيٌّ وَقَلْبُهُ مَيِّتٌ، سَتُعَايِنُ عِنْدَ الْحَسَرَاتِ مَا لَا تُرِيدُ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

أَخِي، كَمْ أَزْعَجَ الْمَنُونُ نُفُوسًا مِنْ دِيارِهَا، وَكَمْ أَبادَ الْبِلَى مِنْ أَجْسَادٍ مُنَعَّمَةٍ وَلَمْ يُدَارِهَا، وَكَمْ نَقَلَ إِلَى الْحَفَائِرِ أَرْوَاحًا بِأَوْزَارِهَا، وَكَمْ أَذَلَّ فِي التُّرَابِ خُدُودًا بَعْدَ نَضَارَتِهَا وَإِسْفَارِهَا؛ فَابْكِ يَا أَخِي عَلَى نَفْسِكَ قَبْلَ بُكَاءٍ لَا يُفِيدُ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

انْتَبِهْ يَا هَذَا، فالدُّنْيا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، وَدَارُ الْفَنَاءِ لَا تَصْلُحُ لِلْمُقامِ، وَاجْتَهِدْ فِي بَقِيَّةِ هَذَا الشَّهْرِ فَعَسَى أَلَّا تُدْرِكَهُ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ. وَيْحَكَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ تَرْحَلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرْحَلَةً، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ يُحْصَى عَلَيْكَ مِنَ الْأَعْمَالِ حَتَّى الْخَرْدَلَةِ؛ فَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلٍ خَانَهُ الْحِسَابُ مَا أَمَّلَهُ، عَاقَصَهُ مُرُّ الْقَضَا وَعَاجَلَهُ، وَلَمْ تُبْلِغْهُ الْآمَالُ إِلَى مَا يُرِيدُ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

يَا مُعْرِضًا عَنِ الْمَوْلَى، إِلَى مَتَى هَذَا الْإِعْرَاضُ، وَقَدْ وَلَّى شَبَابُكَ فِي طَلَبِ الْأَغْرَاضِ، أَمَا عَلِمْتَ - وَيْحَكَ - أَنَّ عُمُرَكَ فِي انْقِرَاضٍ؟ وَقُوَاكَ كُلَّ سَاعَةٍ فِي انْتِقَاضٍ، وَيْحَكَ تَزَوَّدْ، فالسَّفَرُ وَاللَّهِ بَعِيدٌ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

يَا مَنْ يَجْلِسُ فِي الْمَسَاجِدِ وَقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْأَسْبَابِ، يَا مَنْ تَنْقَضِي الْمَوَاعِظُ وَهُوَ مَا تَابَ، يَا مَنْ كَسَتْهُ الْمَعَاصِي ظُلْمَةَ الْحِجَابِ. يَا مَنْ أَغْلَقَ الْهَوَى فِي وَجْهِهِ الْبَابَ، نُحْ عَلَى نَفْسِكَ فَرُبَّمَا يَنْفَعُ التَّعْدِيدُ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْمَوْتَ لَكَ بِالْمِرْصَادِ؟ أَمَا صَادَ غَيْرَكَ وَلَكَ سَيَصْطَادُ؟ أَمَا بَلَغَكَ مَا فَعَلَ بِسَائِرِ الْقُصَّادِ؟ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الْمَلِكِ الْمَجِيدِ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

عِبَادَ اللَّهِ: تَدَبَّرُوا الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ، وَأَحْضِروا قُلُوبَكُمْ لِفَهْمِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَلَازِمُوا طَاعَةَ اللَّهِ فَهَذَا شَأْنُ الْعَبِيدِ، وَأَكِبُّوا عَلَى تَفَهُّمِ الْقُرْآنِ وَالتَّرْدِيدِ؛ فَقَدْ دَلَّكُمْ عَلَى الْأَمْرِ الرَّشِيدِ، تَاللَّهِ إِنَّ مَوَاعِظَ الْقُرْآنِ لَتُذِيبُ الْحَدِيدَ، وَلَوْ نَزَلَ عَلَى الصَّخْرِ لَعَادَ وَهُوَ يَمِيدُ، وَلَكِنَّ الْغَافِلَ عَنْ فَهْمِهِ بَعِيدٌ. أَمَا هُوَ يُبْدِئُ التِّذْكَارَ عَلَيْكُمْ وَيُعِيدُ، وَقَدْ سَبَقَ الْعَذَابُ وَالتَّهْدِيدُ؟ أَمَا أَخْبَرَكُمْ بِإِهْلَاكِ الْمُلُوكِ الصِّيدِ؟ وَأَعْلَمَكُمْ أَنَّ الْمَوْتَ مِنْكُمْ بِالْوَصِيدِ؟ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

أَيْنَ مَنْ بَنَى وَشَادَ وَطَوَّلَ، وَتَأَمَّرَ عَلَى الْعِبَادِ وَسَادَ فِي الْأَوَّلِ، وَظَنَّ - جَهْلًا مِنْهُ - أَنَّهُ لَا يَتَحَوَّلُ، هَيْهَاتَ عَادَ الزَّمَانُ عَلَيْهِمْ سَالِبًا مَا خَوَّلَ. فَسُقُوا إِذْ فَسَقُوا كَأْسًا عَلَى إِهْلَاكِهِمْ عَوَّلَ، وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْهُمُ الْمَالُ وَالْعَبِيدُ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

فَيَا مَنْ أَنْذَرَهُ يَوْمُهُ وَأَمْسُهُ، وَحَادَثَهُ بِالْعِبَرِ قَمَرُهُ وَشَمْسُهُ، وَهُوَ يَسْعَى إِلَى الْخَطَايَا مُشَمِّرًا وَقَدْ دَنَا رَمْسُهُ، وَهُوَ غَافِلٌ عَمَّا جَاءَ مِنَ الزَّجْرِ وَالْوَعِيدِ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

أَمَا عَلِمْتَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ أَنَّكَ مَسْئُولٌ عَنِ الزَّمَانِ؟ مَشْهُودٌ عَلَيْكَ يَوْمَ تَنْطِقُ الْأَرْكَانُ؟ مَحْفُوظٌ عَلَيْكَ مَا فَعَلْتَ فِي زَمَنِ الْإِمْكَانِ؟ مُحَاسَبٌ عَلَى خَطَوَاتِ الْقَدَمِ وَكَلِمَاتِ اللِّسَانِ؟ أَمَا الْمَوْتُ لِلْخَلَائِقِ مُبِيدٌ؟ أَمَا سَوَّى فِي الْقُبُورِ بَيْنَ الْمُلُوكِ وَالْعَبِيدِ؟ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

فَيَا مَنْ يَرَى الْعِبَرَ بِعَيْنَيْهِ، وَيَسْمَعُ الْمَوَاعِظَ بِأُذُنَيْهِ، وَكَلِمَاتُهُ تُحْصَى عَلَيْهِ، وَنَذِيرُ الْمَوْتِ قَدْ سَعَى إِلَيْهِ، بِالْإِنْذَارِ وَالتَّهْدِيدِ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

كَأَنَّكَ بِالْمَوْتِ وَقَدْ اخْتَطَفَكَ اخْتِطَافَ الْبَرْقِ، وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى دَفْعِهِ عَنْكَ بِمُلْكِ الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ، وَتَأَسَّفْتَ عَلَى الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ الْأَسَفَ الشَّدِيدَ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

فَيَهْرُبُ مِنْكَ الْأَخُ وَيَنْسَى إِخَاءَكَ، وَيُعْرِضُ عَنْكَ الصَّدِيقُ وَيَرْفُضُ وَلَاءَكَ، وَتَذْهَلُ عَنْ أَوْلَادِكَ وَتَنْسَى نِسَاءَكَ. رَجَعُوا يَقْتَسِمُونَ مَتَاعَكَ وَأَنْتَ فِي اللَّحْدِ وَحِيدٌ ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

تَاللَّهِ لَقَدْ رُمِيَتِ الْقُلُوبُ بِالْقَسْوَةِ وَالْغَفْلَةِ، فَلَا بِوَعْظٍ تَنْتَفِعُ وَلَا تَهْدِيدٍ، فَإِلَى اللَّهِ نَشْكُو قُلُوبَنَا الْقَاسِيَةَ، وَنُفُوسَنَا الظَّالِمَةَ، إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، وَإِيَّاهُ نَسْأَلُ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، فَإِنَّهُ لَنِعْمَ الْمَوْلَى، وَإِنْ كُنَّا لَبِئْسَ الْعَبِيدُ.

رُوِيَ أَنَّ يَزِيدَ الرَّقَاشِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَكَى عِنْدَ مَوْتِهِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: أَبْكِي عَلَى مَا يَفُوتُنِي مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، لِأَنَّ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا؛ فَيَقُولُ: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟» وَأَبْكِي عَلَى مَا يَفُوتُنِي مِنْ صِيَامِ النَّهَارِ، لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ: «الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ» وَأَبْكِي عَلَى مَا يَفُوتُنِي مِنْ مَجَالِسِ الذِّكْرِ، لِأَنَّ نَبِيَّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَذَاكَرُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ».

وَبَكَى أَبُو الشَّعْثَاءِ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: اشْتَقْتُ إِلَى قِيَامِ اللَّيْلِ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ: مَرِضَ بَعْضُ الْعُبَّادِ فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ نَعُودُهُ، فَجَعَلَ يَتَأَسَّفُ؛ فَقُلْتُ: عَلَى مَاذَا أَنْتَ تَتَأَسَّفُ؟ فَقَالَ: عَلَى لَيْلَةٍ نِمْتُهَا وَيَوْمٍ أَفْطَرْتُهُ، وَسَاعَةٍ غَفَلْتُ فِيهَا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَبَكَى بَعْضُ الْعُبَّادِ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: أَبْكِي عَلَى أَنْ يَصُومَ الصَّائِمُونَ وَلَسْتُ فِيهِمْ، وَيَذْكُرَ الذَّاكِرُونَ وَلَسْتُ فِيهِمْ، وَيُصَلِّيَ الْمُصَلُّونَ وَلَسْتُ فِيهِمْ.

فَيَا غَافِلًا لَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ. عَجَبًا لَكَ نَائِمٌ وَأَنْتَ مَطْلُوبٌ، وَضَاحِكٌ

أَنْتَ أَسِيرُ الذُّنُوبِ، أَمَا تُغَالِبُ الْهَوَى يَا مَغْلُوبُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، شَهْرِ الْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ، شَهْرِ التَّجَاوُزِ وَالْإِحْسَانِ، وَأَنْتَ الْآنَ فِي آخِرِهِ الَّذِي هُوَ الْعِتْقُ مِنَ النِّيرَانِ؛ فَاجْتَهِدْ فَلَا كُلُّ مُسَافِرٍ حَاجٌّ، وَلَا كُلُّ شَهْرٍ رَمَضَانُ.

أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ؟ أَمَا لَكَ سَمْعٌ لِلْمَوَاعِظِ يَسْمَعُ؟ أَمَا لَكَ عَيْنٌ عَلَى فِرَاقِ الْحَبَائِبِ تَدْمَعُ؟ أَمَا لَكَ قَلْبٌ مِنَ الْخَوْفِ يَخْشَعُ؟ أَمَا لَكَ فِي التَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ مَطْمَعٌ؟

كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ إِذَا بَكَى مَسَحَ وَجْهَهُ وَلِحْيَتَهُ بِدُمُوعِهِ؛ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ النَّارَ لَا تَأْكُلُ مَوْضِعًا مَسَّتْهُ الدُّمُوعُ.

يَا هَذَا؛ الْبُكَاءُ يُطْفِئُ جَمْرَ الذُّنُوبِ، وَيُحْيِي زَرْعَ الْقُلُوبِ، وَيُوصِلُكَ إِلَى الْمَطْلُوبِ. فَابْكِ فِي خَلَوَاتِكَ عَلَى جَفَوَاتِكَ. ابْكِ بِعَبَرَاتِكَ عَلَى عَثَرَاتِكَ. ابْكِ فِي لَيَالِيكَ عَلَى غَيِّكَ وَتَمَادِيكَ. ابْكِ فِي أَيَّامِكَ عَلَى ذُنُوبِكَ وَآثَامِكَ.

شِعْر:

بَكَى وَحَقَّ لَهُ إِرْسَالُ دَمْعَتِهِ ... عَبْدٌ تَبَاعَدَ عَنْ مَوْلَاهُ وَانْتَزَحَا
سَقَتْهُ لَوْعَتُهُ أَنْوَاعَ عَبْرَتِهِ ... إِذَا انْقَضَى قَدَحٌ أَهْدَتْ لَهُ قَدَحَا
كَذَا الْمُحِبُّ إِذَا صَحَّتْ مَوَدَّتُهُ ... أَيَّامَ فُرْقَتِهِ لَا يَعْرِفُ الْفَرَحَا

فَآهًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْسَى مِنَ الْحَدِيدِ. آهًا عَلَى نُفُوسٍ عَنْ طَرِيقِ الرَّشَادِ تَحِيدُ. آهًا عَلَى عُيُونٍ أَصْلَبَ مِنَ الْجَلَامِيدِ. فَلِلَّهِ دَرُّ أَقْوَامٍ قَامُوا يُنَاجُونَ الْحَبِيبَ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، يَتَحَمَّلُونَ أَثْقَالَ الْوَجْدِ وَالْغَرَامِ، وَيَفْرَحُونَ بِاللَّيْلِ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ فَهُمْ فِي جِنَانِ الْخُلْدِ يَتَنَعَّمُونَ، وَإِلَى وَجْهِ الْحَبِيبِ يَنْظُرُونَ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾.

بِاللَّهِ يَا إِخْوَانِي ابْسُطُوا الْأَيْدِي إِلَى الْمَوْلَى بِالذُّلِّ وَالضَّرَاعَةِ، وَتَضَرَّعُوا

بِالذُّلِّ وَالانْكِسَارِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ، وَنَادُوا: يَا مَنْ لَا تَضُرُّهُ الْمَعْصِيَةُ وَلَا تَنْفَعُهُ الطَّاعَةُ، نَسْأَلُكَ أَنْ تُبَدِّلَ مِنَّا الْفَسَادَ بِالصَّلَاحِ، وَالْخُسْرَانَ بِالْأَرْبَاحِ، وَأَنْ تُعَامِلَنَا بِالْعَفْوِ وَالسَّمَاحِ.

اللَّهُمَّ ارْحَمْ عِبَادًا غَرَّهُمْ طُولُ إِمْهَالِكَ، وَأَطْمَعَهُمْ دَوَامُ إِفْضَالِكَ، وَمَدُّوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى كَرَمِ نَوَالِكَ.

إِلٰهِي ارْحَمْ غُرْبَتَنَا فِي الْقُبُورِ، وَآمِنَّا يَوْمَ الْحَشْرِ وَالنُّشُورِ.

إِلٰهِي وَفِّقْنَا لِمَا يُرْضِيكَ، وَجَنِّبْنَا مَعَاصِيكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الْمُفْلِحِينَ، وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ

فِيمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ مِنَ النَّعِيمِ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ فَوْقَ مَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ، أَوْ يَدُورُ فِي الْخَيَالِ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَتَحَ أَبْوَابَ الْجِنَانِ، وَأَوْدَعَهَا الْحَبْرَةَ وَالسُّرُورَ، وَأَعَدَّهَا لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، بِمَا فِيهَا مِنَ الْحُورِ وَالْقُصُورِ. أَجْرَى فِيهَا الْأَنْهَارَ وَشَكَّلَ فِيهَا أَنْوَاعَ الْفَوَاكِهِ وَالثِّمَارِ، وَمَلَأَهَا مِنَ النَّعِيمِ. وَهَيَّأَهَا لِكُلِّ مُوَحِّدٍ شَكُورٍ. الْقَدِيرُ الَّذِي شَمَلَتْ قُدْرَتُهُ كُلَّ مَقْدُورٍ، وَجَرَتْ مَشِيئَتُهُ فِي خَلْقِهِ بِتَصَارِيفِ الْأُمُورِ، وَأَسْمَعَتْ دَعْوَتُهُ لِلْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَأَصْحَابِ الْقُبُورِ.

قَدَّرَ عَلَى خَلْقِهِ مَا أَرَادَ فَلَا يَخْرُجُ أَحَدٌ عَمَّا يُرِيدُ، هٰؤُلَاءِ مُلُوكٌ وَهٰؤُلَاءِ عَبِيدٌ، وَحَكَمَ عَلَى كُلٍّ بِمَا أَرَادَ؛ فَهَذَا شَقِيٌّ وَهَذَا سَعِيدٌ، وَهَذَا مَقْبُولٌ وَهَذَا طَرِيدٌ.

فَسُبْحَانَ مَنْ فَاوَتَ بَيْنَ خَلْقِهِ؛ فَهَذَا مَكْسُورٌ وَهَذَا مَجْبُورٌ؛ فَإِذَا رَأَيْتَ هَذَا الْغُبْنَ وَالْفَرْقَ فَقُلْ: ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْغَفُورِ.

وَسُبْحَانَ مَنِ اخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ أَقْوَامًا لِخِدْمَتِهِ، وَأَعَدَّ لَهُمُ الْكَرَامَةَ فِي جَنَّتِهِ، وَرَفَعَ لَهُمْ فِيهَا الْغُرَفَ وَالْقُصُورَ. أَوْدَعَهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. جَزَاءً لِأَوْلِيائِهِ لَمَّا أَتْعَبُوا الْأَبْدَانَ بِالْجُوعِ وَالسَّهَرِ، وَتَفَضُّلًا عَلَيْهِمْ، وَهُوَ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى خَلْقِهِ وَالْغَفُورُ الشَّكُورُ.

تَابَ عَلَى آدَمَ بَعْدَ الإِغْوَاءِ وَالْإِضْلَالِ، وَحَمَلَ نُوحًا عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَحِبَالٍ.

وَأَلَانَ لِدَاوُدَ الْحَدِيدَ وسَخَّرَ مَعَهُ الْجِبَالَ، وَرَدَّ عَلَى سُلَيْمَانَ الْمُلْكَ بَعْدَ ذَهَابٍ وَزَوَالٍ.

وَأَخْرَجَ يُونُسَ مِنْ لُجَجِ الظُّلَمِ لَمَّا دَعَاهُ بِالتَّوْحِيدِ وَالابْتِهَالِ؛ وَأَخْرَجَهُ مِنْ بَطْنِ حُوتٍ فِي قَعْرِ الْبُحُورِ.

أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ عَلَى نِعَمٍ تَتَجَدَّدُ بِالرَّوَاحِ وَالْبُكُورِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْغَفُورُ الشَّكُورُ؛ شَهَادَةً أَدَّخِرُهَا لِيَوْمِ الْفَزَعِ وَالنُّشُورِ، وَأُؤَمِّلُ بِهَا مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ جَنَّاتٍ فَرْشُ أَهْلِهَا الدِّيبَاجُ، وَحِلْيَتُهُمُ الذَّهَبُ، وَلِبَاسُهُمُ الْحَرِيرُ، وَمَساكِنُهُمُ الْخِيَامُ وَالْغُرَفُ وَالْقُصُورُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ الْمَبْعُوثُ بِالنُّورِ وَالْهُدَى. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ هُمْ لِلاهْتِدَاءِ نُجُومٌ، وَلِلظُّلَمِ بُدُورٌ. وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعَدَّ لِأَوْلِيَائِهِ فِي جَنَّاتِهِ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ، وَجَمَعَ لَهُمْ فِيهَا بَيْنَ الْأَمْنِ وَالْخُلُودِ وَالنَّعِيمِ وَالْبَهْجَةِ وَأَصْنَافِ اللَّذَّةِ وَالسُّرُورِ.

فَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. مِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾».

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ جَنَّةَ عَدْنٍ خَلَقَ فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ.

وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ: «كَانَ عَرْشُ اللَّهِ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ جَنَّةً، ثُمَّ اتَّخَذَ دُونَهَا أُخْرَى، وَطَبَّقَهُمَا بِلُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ، لَا يَعْلَمُ الْخَلَائِقُ مَا فِيهِمَا، وَهُمَا اللَّتَانِ قَالَ اللَّهُ فِيهِمَا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ فَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَلَّا يَحْرِمَنَا هَذَا النَّعِيمَ بِذُنُوبِنَا، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

فَصْلٌ

قَالَ فِي حَادِي الْأَرْوَاحِ - بَعْدَ سِيَاقِ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾: فَتَأَمَّلْ كَيْفَ قَابَلَ مَا أَخْفَوهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ بِالْجَزَاءِ الَّذِي أَخْفَاهُ لَهُمْ مِمَّا لا تَعْلَمُهُ نَفْسٌ؟ وَكَيْفَ قَابَلَ قَلَقَهُمْ وَاضْطِرَابَهُمْ عَلَى مَضَاجِعِهِمْ حَتَّى يَقُومُوا إِلَى صَلَاةِ اللَّيْلِ بِقُرَّةِ الْأَعْيُنِ فِي الْجَنَّةِ؟ وَقَالَ ﷺ: «أَلَا هَلْ مُشَمِّرٌ لِلْجَنَّةِ»؟ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نورٌ يَتَلأْلأُ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ وَثَمَرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ، وَمَقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارٍ سَلِيعَةٍ، وَفَاكِهَةٌ، وَخَضِرَةٌ، وحَبَرَةٌ، وَنِعْمَةٌ، وَمَحَلَّةٌ عَالِيَةٌ بَهِيَّةٌ» وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ خَطَرِ الْجَنَّةِ وَشَرَفِهَا إِلَّا أَنَّهُ لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ غَيْرُهَا لَكَفَاهَا شَرَفًا وَفَضْلًا، كَمَا فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ جَابِرِ بن عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ».

وَكَيْفَ يُقْدَرُ قَدْرُ دارٍ غَرَسَهَا اللَّهُ بِيَدِهِ، وَجَعَلَهَا مَقَرًّا لِأَحْبَابِهِ، وَمَلَأَهَا مِنْ كَرَامَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَوَصَفَ نَعِيمَهَا بِالْفَوْزِ الْعَظِيمِ، وَمُلْكَهَا بِالْمُلْكِ الْكَبِيرِ، وَأَوْدَعَهَا جميعَ الْخَيْرِ بِحَذَافِيرِهِ، وَطَهَّرَها مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ؟

فَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ أَرْضِهَا وَتُرْبَتِهَا، فَهِيَ الْمِسْكُ وَالزَّعْفَرَانُ. وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ سَقْفِها، فَهُوَ عَرْشُ الرَّحْمٰنِ. وَإِنْ سَأَلْتَ عن مِلَاطِهَا فَهُوَ الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ حَصْبَائِها فَهِيَ اللُّؤْلُؤُ وَالْجَوْهَرُ. وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ بِنائِها، فَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ. وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ أَشْجَارِهَا، فَمَا فِيهَا مِنْ شَجَرَةٍ إِلَّا وَسَاقُهَا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، لَا مِنَ الْحَطَبِ وَالْخَشَبِ، وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ ثِمارِهَا؟ فَأَمْثَالُ القِلَالِ، أَلْيَنُ مِنَ الزُّبْدِ، وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ. وإِنْ سَأَلْتَ عَنْ وَرَقِهَا؛ فَأَحْسَنُ مَا يَكُونُ مِنْ رَقَائِقِ الْحُلَلِ. وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ أَنْهَارِهَا؛ فَأَنهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ؛ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ؛ وأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى؛ وَأَنْهارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ. وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ؛ فَفَاكِهَةٌ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ؛ وَلَحْمُ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ، وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ شَرَابِهِمْ فَالتَّسْنِيمُ وَالزَّنْجَبِيلُ وَالكافُورُ. وإِن سَأَلْتَ عَنْ آنِيَتِهِمْ؛ فَآنِيَةُ الذَّهَبِ والفِضَّةِ؛ فِي صَفَاءِ القَوَارِيرِ.

وإِنْ سَأَلْتَ عَنْ سِعَةِ أَبْوَابِهَا؛ فَبَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ مِنَ الْأَعْوَامِ؛ وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ. وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ تَصْفِيقِ الرِّياحِ لِأَشْجَارِهَا؛ فَإِنَّهَا تَسْتَفِزُّ بالطَّرَبِ مَنْ يَسْمَعُهَا. وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ ظِلِّهَا فَفِيهَا شَجَرَةٌ وَاحِدَةٌ؛ يَسِيرُ الرَّاكِبُ المُجِدُّ السَّرِيعُ فِي ظِلِّها مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا.

وإِنْ سَأَلْتَ عَنْ سَعَتِهَا؛ فَأَدْنَى أَهْلِهَا يَسِيرُ فِي مُلْكِهِ وَسُرُرِهِ وقُصُورِهِ وَبَسَاتِينِهِ مَسِيرَةَ أَلْفَيْ عَامٍ. وإِنْ سَأَلْتَ عَن خِيَامِهَا وقِبابِها؛ فالخيمَةُ الْوَاحِدَةُ مِنْ دُرَّةٍ مُجَوَّفَةٍ؛ طُولُها سِتُّونَ مِيْلًا مِنْ تِلْكَ الْخِيَامِ. وإِنْ سَأَلْتَ عَنْ عَلَالِيهَا وَجَوَاسِقِهَا؛ فَهِيَ غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ؛ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

وإنْ سَأَلْتَ عَنِ ارْتِفاعِهَا؛ فانْظُرْ إِلَى الْكَوْكَبِ الطَّالِعِ أَوْ الْغَارِبِ فِي الْأُفُقِ الَّذِي لَا تَكَادُ تَنَالُهُ الأَبْصَارُ. وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ لِباسِ أَهْلِهَا، فَهُوَ الْحَرِيرُ وَالذَّهَبُ، وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ فُرُشِهِمْ، فَبَطَائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ مَفْرُوشَةٌ فِي أَعْلَى الرُّتَبِ، وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ أَرَائِكِهَا فَهِيَ الْأَسِرَّةُ عَلَيْهَا الْبَشْخَانَاتُ، وَهِيَ الْحِجَالُ مُزَرَّدَةٌ بِأَزْرَارٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَما لَهَا فُرُوجٌ وَلَا خِلَالٌ.

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ وُجُوهِ أَهْلِهَا وَحُسْنِهِمْ، فَعَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ.

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ أَسْنَانِهِمْ، فَأَبْنَاءُ ثَلاثٍ وَثَلاثِينَ، عَلَى صُورَةِ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ.

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ سَمَاعِهِمْ، فَغِناءُ أَزْوَاجِهِمْ من الْحُورِ الْعِينِ، وَأَعْلَى مِنْهُ سَمَاعُ أَصْوَاتِ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ، وَأَعْلَى مِنْهُما خِطَابُ ربِّ الْعَالَمِينَ.

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ مَطَاياهُمْ الَّتِي يَتَزَاوَرُونَ عَلَيْهَا، فَنَجَائِبُ أَنْشَأَهَا اللَّهُ مِمَّا شَاءَ، تَسِيرُ بِهِمْ حَيْثُ شَاءُوا مِنَ الْجِنَانِ، وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ حُلِيِّهِمْ وَشَارَتِهِمْ، فَأَسَاوِرُ الذَّهَبِ وَاللُّؤْلُؤِ، وَعَلَى الرُّءُوسِ مَلَابِسُ التِّيجَانِ.

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ غِلْمانِهِمْ، فَوِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ، كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ. وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ عَرَائِسِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ، فَهُنَّ الْكَوَاعِبُ الأَتْرَابُ، اللَّاتِي جَرَى فِي أَعْضَائِهِنَّ مَاءُ الشَّبَابِ، فِلِلْوَرْدِ وَالتُّفَاح ما لَبِسَتْهُ الْخُدُودُ، وَلِلرُّمَّانِ مَا تَضَمَّنَتْهُ النُّهُودُ، ولِلُّؤْلُؤِ الْمَنْظُومِ مَا حَوَتْهُ الثُّغُورُ. وَللدِّقَّةِ وَاللَّطَافَةِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْخُصُورُ، تَجْرِي الشَّمْسُ مِنْ مَحَاسِنِ وَجْهِهَا إِذَا بَرَزَتْ، وَيُضِيءُ الْبَرْقُ مِنْ بَيْنَ ثَنَايَاهَا إِذَا ابْتَسَمَتْ. وَإِذَا قَابَلَتْ حِبَّهَا فَقُلْ مَا تَشَاءُ فِي تَقَابُلِ النَّيِّرَيْنِ، وَإِنْ حَادَثَتْهُ فَمَا ظَنُّكَ بِمُحَادَثَةِ الْحَبِيبَيْنِ، وَإِنْ ضَمَّهَا إِلَيْهِ فَما ظَنُّكَ بِتَعانُقِ الْغُصْنَيْنِ يُرَى وَجْهُهُ فِي صَحْنِ خَدِّهَا، كَمَا يُرَى فِي الْمِرْآةِ الَّتِي جَلَاهَا صَيْقَلُهَا، وَيُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ وَلَا يَسْتُرُهُ جِلْدُهَا وَعَظْمُهَا وَلَا حُلَلُها، لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَى الدُّنْيَا لَمَلَأَتْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ رِيحًا، وَلَاسْتَنْطَقَتْ أَفْوَاهَ الْخَلَائِقِ

تَهْلِيلًا وَتَكْبِيرًا وَتَسْبِيحًا، وَلَتَزَخْرَفَ لَهَا مَا بَيْنَ الْخَافِقِينِ، وَلَأَغْمَضَتْ عَنْ غَيْرِهَا كُلُّ عَيْنٍ، وَلَطَمَسَتْ ضَوْءَ الشَّمْسِ كَمَا تَطْمِسُ الشَّمْسُ ضَوْءَ النُّجُومِ، وَلآمَنَ مَنْ عَلَى ظَهْرِهَا بِاللَّهِ الْحَيِّ الْقَيُّومِ. نَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَوَصْلُهَا أَشْهَى إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ أَمَانِيهَا، لَا تَزْدَادُ طُولَ الْأَحْقَابِ إِلَّا حُسْنًا وَجَمَالًا، وَلَا يَزْدَادُ لَهَا عَلَى طُولِ الْمَدَى إِلَّا مَحَبَّةً وَوِصَالًا، مُبَرَّأَةٌ مِنَ الْحَبَلِ وَالْوِلَادَةِ وَالْحَيْضِ وَالنِّفَاسِ، مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْمُخَاطِ وَالْبُصَاقِ وَالْبَوْلِ وَالْغَائِطِ وَسَائِرِ الْأَدْنَاسِ. لَا يَفْنَى شَبَابُهَا، وَلَا تُبْلَى ثِيَابُهَا. وَلَا يَخْلَقُ ثَوْبُ جَمَالِهَا، وَلَا يُمَلُّ طِيبُ وِصَالِهَا. قَدْ قَصَرَتْ طَرْفَهَا عَلَى زَوْجِهَا فَلَا تَطْمَحُ لِأَحَدٍ سِوَاهُ، وَقَصَرَ طَرْفَهُ عَلَيْهَا فَهِيَ غَايَةُ أُمْنِيَّتِهِ وَهَوَاهُ: إِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ، فَهُوَ مَعَهَا فِي غَايَةِ الْأَمَانِي وَالْأَمَانِ.

هَذَا وَلَمْ يَطْمِثْهَا قَبْلَهُ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ. كُلَّما نَظَرَ إِلَيْهَا مَلَأَتْ قَلْبَهُ سُرُورًا وَكُلَّما حَادَثَتْهُ مَلَأَتْ أُذُنَهُ لُؤْلُؤًا مَنْظُومًا وَمَنْثُورًا، وإِذَا بَرَزَتْ مَلَأَتِ الْقَصْرَ وَالْغُرْفَةَ نُورًا.

وإِنْ سَأَلْتَ عَنِ السِّنِّ، فَأَتْرَابٌ فِي أَعْدَلِ سِنِّ الشَّبَابِ. وإِنْ سَأَلْتَ عَنِ الْحُسْنِ فَهَلْ رَأَيْتَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ. وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ الْحَدَقِ، فَأَحْسَنُ سَوَادٍ فِي أَصْفَى بَيَاضٍ فِي أَحْسَنِ حَوَرٍ. وَإِنْ سَأَلْتَ عَنِ الْقُدُودِ فَهَلْ رَأَيْتَ أَحْسَنَ الْأَغْصَانِ، وَإِنْ سَأَلْتَ عَنِ النُّهُودِ، فَهُنَّ الْكَوَاعِبُ، نُهُودُهُنَّ كَأَلْطَفِ الرُّمَانِ.

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنِ اللَّوْنِ فَكَأَنَّهُ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ. وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ حُسْنِ الْخُلُقِ: فَهُنَّ الْخَيْرَاتُ الْحِسَانُ. اللَّاتِي جُمِعَ لَهُنَّ بَيْنَ الْحُسْنِ وَالْإِحْسَانِ. فَأُعْطِينَ جَمَالَ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، فَهُنَّ أَفْرَاحُ النُّفُوسِ وَقُرَّةُ النَّوَاظِرِ.

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ حُسْنِ الْعِشْرَةِ وَلَذَّةِ مَا هُنَالِكَ، فَهُنَّ الْعُرُبُ الْمُتَحَبِّبَاتُ إِلَى الْأَزْوَاجِ بِلَطَافَةِ التَّبَعُّلِ الَّتِي تَمْتَزِجُ بِالرُّوحِ أَيَّ امْتِزَاجٍ. فَمَا ظَنُّكَ بِامْرَأَةٍ إِذَا

ضَحِكَتْ فِي وَجْهِ زَوْجِهَا أَضَاءَتِ الْجَنَّةُ مِنْ ضَحِكِهَا. وَإِذَا انْتَقَلَتْ مِنْ قَصْرٍ إِلَى قَصْرٍ، قُلْتَ: هَذِهِ الشَّمْسُ مُتَنَقِّلَةٌ فِي بُرُوجِ فَلَكِهَا. وَإِذَا حَاضَرَتْ زَوْجَهَا، فَيَا حُسْنَ تِلْكَ الْمُحَاضَرَةِ. وَإِنْ خَاصَرَتْهُ فَيَا لَذَّةَ تِلْكَ الْمُعَانَقَةِ وَالْمُخَاصَرَةِ.

شعر.

وَحَدِيثُهَا السِّحْرُ الْحَلَالُ، وَإِنَّهُ ... لَمْ يَجْنِ قَتْلَ الْمُسْلِمِ الْمُتَحَرِّزِ

إِنْ طَالَ لَمْ يُمْلَلْ، وَإِنْ هِيَ حَدَّثَتْ ... وَدَّ الْمُحَدَّثُ أَنَّهَا لَمْ تُوجِزِ

وَإِنْ غَنَّتْ فَيَا لَذَّةَ الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ، وَإِنْ أَنِسَتْ وَأَمْتَعَتْ فَيَا حَبَّذَا تِلْكَ الْمُؤَانَسَةُ وَالْإِمْتَاعُ: وَإِنْ قَبَّلَتْ فَلَا شَيْءَ أَشْهَى مِنْ ذَلِكَ التَّقْبِيلِ. وَإِنْ نَوَّلَتْ فَلَا أَلَذَّ وَلَا أَلَذَّ مِنْ ذَلِكَ التَّنْوِيلِ.

هَذَا وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ يَوْمِ الْمَزِيدِ، وَزِيَارَةِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، وَرُؤْيَةِ وَجْهِهِ الْمُنَزَّهِ عَنِ التَّمْثِيلِ وَالتَّشْبِيهِ، كَمَا تُرَى الشَّمْسُ فِي الظَّهِيرَةِ وَالْقَمَرُ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، كَمَا تَوَاتَرَ عَنِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ النَّقْلُ فِيهِ. وَذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي الصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ وَالْمَسَانِيدِ، مِنْ رِوَايَةِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَصُهَيْبٍ وَأَنَسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي مُوسَى وَأَبِي سَعِيدٍ ﷺ.

فَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَسْتَزِيرُكُمْ فَحَيَّ عَلَى زِيَارَتِهِ، فَيَقُولُونَ: سَمْعًا وَطَاعَةً، وَيَنْهَضُونَ إِلَى الزِّيَارَةِ مُبَادِرِينَ. فَإِذَا بِالنَّجَائِبِ قَدْ أُعِدَّتْ لَهُمْ؛ فَيَسْتَوُونَ عَلَى ظُهُورِهَا مُسْرِعِينَ. حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا إِلَى الْوَادِي الْأَفْيَحِ، الَّذِي جُعِلَ لَهُمْ مَوْعِدًا، وَجُمِعُوا هُنَاكَ فَلَمْ يُغَادِرِ الدَّاعِي مِنْهُمْ أَحَدًا، أَمَرَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِكُرْسِيِّهِ فَنُصِبَ هُنَاكَ، ثُمَّ نُصِبَتْ لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ لُؤْلُؤٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ ذَهَبٍ وَمَنَابِرُ مِنَ الْفِضَّةِ، وَجَلَس أَدْنَاهُمْ ـ وَحَاشَاهُمْ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ دَنِيٌّ ـ عَلَى كُثْبَانِ الْمِسْكِ، مَا يَرَوْنَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَرَاسِيِّ فَوْقَهُمْ فِي الْعَطَايَا، حَتَّى إِذَا اسْتَقَرَّتْ بِهِمْ مَجَالِسُهُمْ، وَاطْمَأَنَّتْ بِهِمْ أَمَاكِنُهُمْ، نَادَى الْمُنَادِي: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ

إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ؛ فَيَقُولُونَ: مَا هُوَ؟ أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ وَيُثْقِلْ مَوَازِينَنَا؟ وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُزَحْزِحْنَا عَنِ النَّارِ؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ أَشْرَقَتْ لَهُ الْجَنَّةُ؛ فَرَفَعُوا رُءُوسَهُمْ فَإِذَا الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَقَالَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ؛ فَلَا تُرَدُّ هَذِهِ التَّحِيَّةُ بِأَحْسَنَ مِنْ قَوْلِهِمْ: اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

فَيَتَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَضْحَكُ إِلَيْهِمْ وَيَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؛ فَيَكُونُ أَوَّلَ مَا يَسْمَعُونَ مِنْهُ تَعَالَى: أَيْنَ عِبَادِي الَّذِينَ أَطَاعُونِي بِالْغَيْبِ وَلَمْ يَرَوْنِي؟ فَهَذَا يَوْمُ الْمَزِيدِ. فَيَجْتَمِعُونَ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: أَنْ قَدْ رَضِينَا فَارْضَ عَنَّا؛ فَيَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنِّي لَوْ لَمْ أَرْضَ عَنْكُمْ لَمْ أُسْكِنْكُمْ جَنَّتِي، هَذَا يَوْمُ الْمَزِيدِ فَاسْأَلُونِي: فَيَجْتَمِعُونَ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: أَرِنَا وَجْهَكَ نَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَيَكْشِفُ لَهُمْ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ الْحُجُبَ وَيَتَجَلَّى لَهُمْ؛ فَيَغْشَاهُمْ مِنْ نُورِهِ مَا لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَضَى أَلَّا يَحْتَرِقُوا لَاحْتَرَقُوا، وَلَا يَبْقَى فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَحَدٌ إِلَّا حَاضَرَهُ رَبُّهُ تَعَالَى مُحَاضَرَةً حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: يَا فُلَانُ أَتَذْكُرُ يَوْمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا. يُذَكِّرُهُ بِبَعْضِ غَدَرَاتِهِ فِي الدُّنْيَا؛ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تَغْفِرْ لِي؟ فَيَقُولُ: بَلَى بِمَغْفِرَتِي بَلَغْتَ مَنْزِلَتَكَ هَذِهِ.

فَيَا لَذَّةَ الْأَسْمَاعِ بِتِلْكَ الْمُحَاضَرَةِ، وَيَا قُرَّةَ عُيُونِ الْأَبْرَارِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَيَا ذِلَّةَ الرَّاجِعِينَ بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

شِعْر:

فَاسْمَعْ إِذًا أَوْصَافَهَا وَصِفَاتِ هَا ... تِيكَ الْمَنَازِلِ رَبَّةِ الْإِحْسَانِ

هِيَ جَنَّةٌ طَابَتْ وَطَابَ نَعِيمُهَا ... فَنَعِيمُهَا بَاقٍ وَلَيْسَ بِفَانِ

أَوَ مَا سَمِعْتَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... حَقًّا يُكَلِّمُ حِزْبَهُ بِجِنَانِ

وَيَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ مِنْ فَوْقِهِمْ   نَظَرَ الْعَيَانِ كَمَا يُرَى الْقَمَرَانِ
وَلَهُمْ مَنَابِرُ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ   وَمَنَابِرُ الْيَاقُوتِ وَالْعِقْيَانِ
هَذَا وَخَاتِمَةُ النَّعِيمِ خُلُودُهُمْ   أَبَدًا بِدَارِ الْخُلْدِ وَالرِّضْوَانِ[1]

اللَّهُمَّ يَا مَنْ فَتَحَ بابَهُ لِلطَّالِبِينَ، وَأَظْهَرَ غِنَاهُ لِلرَّاغِبِينَ، اجْعَلْ مَآلَنا إِلى دَارِ الْمُقَرَّبِينَ، وَكِتَابَنا فِي عِلِّيِّينَ، مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَأَعِذْنَا مِنْ عَذَابِكَ وَانْتِقَامِكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ يَا مُقَدِّرَ الْمَقْدُورِ، وَيَا عَالِمًا بِما تُخْفِيهِ الصُّدُورُ. نَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَنَا مِنْ مُجَاوِرِيكَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَالْمُنَعَّمِينَ بِما فِيهَا مِنَ الْمُلْكِ الْكَبِيرِ وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ وَالنَّاظِرِينَ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ.

وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْفَصْلُ الْخَامِسُ

وَفِيهِ فَصْلٌ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ بِالْقِدَمِ، قَبْلَ وُجُودِ الْمَوْجُودِ. الْمَوْصُوفِ بِالْكَرَمِ وَالْفَضْلِ وَالْجُودِ. الْمُنَزَّهُ فِي وَحْدَانِيَّتِهِ عَنِ الآبَاءِ وَالأَبْنَاءِ وَالْجُدُودِ، الْمُقَدَّسُ فِي ذَاتِهِ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَالِدِ وَالْمَوْلُودِ. الْعَلِيمُ بِأَعْدَادِ الرَّمْلِ وَالْقَطْرِ، وَحَبَّاتِ السُّنْبُلِ وَالْعُنْقُودِ. الْبَصِيرُ بِحَرَكَاتِ الذَّرِّ فِي الْبَحْرِ وَالْبَرِّ، تَحْتَ ظَلَامِ الدَّيْجُورِ وَاللَّيَالِ السُّودِ، الْحَكِيمُ الَّذِي فَجَّرَ الأَنْهارَ مِنْ صُمِّ الْجَلْمُودِ. وَأَخْرَجَ رَطْبَ الثِّمَارِ مِنْ يَابِسِ الْعُودِ. الْمُعْطِي الَّذِي لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا دَافِعَ لِمَا

(١) انتهى كلام ابن القيم رحمه الله.

قَضَى. الَّذِي جَادَ لِعَبْدِهِ بِجزِيلِ رِفْدِهِ، وَكَمْ رَآهُ عَنْ بَابِهِ مُعْرِضًا. الْحَلِيمُ الَّذِي سَتَرَ الْعَاصِي بِحِلْمِهِ وَرَأْفَتِهِ وَقَدْ رَآهُ عَلَى مَا نَهاهُ عَنْهُ مُرْتَكِبًا، وَعَمَّا أَمَرَهُ بِهِ مُعْرِضًا. الْغَفَّارُ الَّذِي يَغْفِرُ الذُّنُوبَ، وَيَسْتُرُ الْعُيُوبَ، وَيَعْفُو عَمَّا مَضَى.

فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلٰهٍ تَعَالَى عَنِ الْمُمَاثِلِ وَالْمُنَاسِبِ، وَجَلَّ عَنِ الْمُشَارِكِ وَالْمُصَاحِبِ، يَقْبَلُ التَّائِبَ وَيُحِبُّ الآيِبَ، وَلَيْسَ عَلَى بابِهِ بَوَّابٌ وَلَا حَاجِبٌ.

مَنْ أَمَّلَ سِوَاهُ فَهُوَ الشَّقِيُّ الْخَائِبُ، وَمَنْ أَنَاخَ بِبَابِ كَرَمِهِ ظَفِرَ بِنَيْلِ الْمَآرِبِ، وَمَنْ ذَاقَ حَلَاوَةَ أُنْسِهِ رَأَى مِنْ لُطْفِهِ عَجَائِبَ الغَرَائِبِ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ سِوَاهُ رَفَعَهُ إِلَى أَرْفَعِ الْمَرَاتِبِ.

يُزِيلُ الضَّرَرَ، وَيَجْبُرُ مَنِ انْكَسَرَ، وَيُنَادِي فِي وَقْتِ السَّحَرِ: «هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟».

فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلٰهٍ شَهِدَتْ لَهُ السَّمٰوَاتُ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ، وَأَقَرَّتْ بِرُبُوبِيَّتِهِ الْأَرَضُونَ مَشَارِقُهَا وَالْمَغَارِبُ.

وَاصْطَفَى مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيَّهُ الْمَبْعُوثَ بِالدِّينِ الوَاصِبِ، المَوْصُوفَ بِأَحْسَنِ الْأَوْصَافِ وَأَجَلِّ الْمَنَاقِبِ. الَّذِي شَرَّفَ اللَّهُ بِهِ الْوُجُودَ. وَكَمَّلَ بِهِ السُّعُودَ، وَبَلَّغَهُ أَسْنَى الْمَطَالِبِ وَالْمَآرِبِ.

وَاخْتَارَ أَصْحَابَهُ النُّجَبَاءَ، وَخُلَفَاءَهُ الْكُرَمَاءَ، الْأَخْيَارَ الْأَطَايِبَ. وَخَصَّ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، مِنْ أُمَّتِهِ الْقَائِمِينَ بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ عَلَى تَوَالِي الزَّمَانِ. وَخَصَّ شَهْرَ رَمَضانَ بِالْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ، وَالْعِتْقِ مِنَ النِّيرَانِ.

أَحْمَدُهُ، وَحَمْدُهُ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُصْطَفَى مِنْ عَدْنَانَ، الْمُرْسَلُ إِلَى الْإِنْسِ وَالْجَانِّ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، مَا تَعَاقَبَتِ الدُّهُورُ وَالْأَزْمَانُ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «نَشَأَ» مَعْنَاهُ: قامَ، بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ، وَقَوْلُهُ: «وَطْئًا» قَالَ رضي الله عنه: مُوَاطَأَةُ الْقُرْآنِ أَشَدُّ مُوَافَقَةً لِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَقَلْبِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لِيُوَاطِئُوا» مَعْنَاهُ: لِيُوَافِقُوا. فَإِنَّ صَلَاةَ اللَّيْلِ بَعْدَ النَّوْمِ أَشَدُّ مُوَافَقَةً لِلسَّمْعِ وَالْقَلْبِ عَلَى تَفَهُّمِ الْقُرْآنِ.

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ، وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ، وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمْ - فَذَكَرَ مِنْهُمُ الَّذِي لَهُ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ، وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ، فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَلَوْ شَاءَ رَقَدَ».

وَأَخْرَجَ أَيْضًا عَنْ سَلْمانَ الْفَارِسِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَمَغْفِرَةٌ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الْإِثْمِ، وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ، عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ. فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ؛ فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ؛ فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُجَاوِرُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ وَيَقُولُ: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَأَخْرَجَ أَيْضًا عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهَا».

وَقَالَ الْإِمَامُ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهَا رُفِعَتْ، وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ تَرُدُّ ذَلِكَ. وَأَقْوَاهَا رَدًّا لِهَذَا الْقَوْلِ حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ ﷺ.

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ، حُكِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَطَائِفَةٍ مِنَ الكوفِيِّينَ، وَرُوِيَ أَيْضًا عَنِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ.

وَرُوِيَ عَنِ الْإِمَام ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ: أَنَّهَا فِي كُلِّ سَبْعِ سِنِينَ مَرَّةً، وَفِي إِسْنَادِهِ ضَعفٌ. قُلْتُ: وَهَذَا الْقَوْلُ لَيسَ بِشَيْءٍ.

وَقَالَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: هِيَ فِي رَمَضَانَ فِي كُلِّ سَنَةٍ، ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هِيَ فِي الشَّهْرِ كُلِّهِ. وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْمُتَقَدِّمِينَ: أَنَّها أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: هِيَ فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنْهُ.

وَقَالَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: هِيَ مُنْحَصِرَةٌ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، وَهَذَا الْقَوْلُ أَصَحُّ الْأَقْوَالِ وَأَرْجَحُهَا.

ثُمَّ اخْتَلَفُوا: فِي أَيِّ لَيَالِي الْعَشْرِ هِيَ؟

فَقَالَ الْحَسَنُ، وَمَالِكٌ: إِنَّها تُطْلَبُ فِي جَمِيعِ لَيَالِي الْعَشْرِ أَشْفَاعِهِ وَأَوْتاره.

وَرَجَّحَهُ بَعْضُ أَصْحَابِنَا، وَقَالَ: لِأَنَّ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «الْتَمِسُوهَا فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى، أَوْ سَابِعَةٍ تَبْقَى، أَوْ خَامِسَةٍ تَبْقَى» إِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى تَقْدِيرِ كَمالِ الشَّهْرِ كَانَتْ أَشْفَاعًا، وَإِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى مَا يَبْقَى مِنْ حَقِيقَتِهِ كَانَ الْأَمْرُ مَوْقُوفًا عَلَى كَمالِ الشَّهْرِ فَلَا يُعْلَمُ قَبْلَهُ؛ فَإِنْ كَانَ تَامًّا كانَتْ اللَّيَالِي الْمَأْمُورُ بِطَلَبِهَا أَشْفَاعًا، وَإِنْ كَانَ نَاقِصًا كانَتْ أَوْتارًا.

فَيُوجِبُ ذَلِكَ الاجْتِهَادُ الْقِيَامَ فِي كِلْتَا اللَّيْلَتَيْنِ الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ اسْتِيعَابِ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَإِنَّما الْمَقْصُودُ بَيانُ أَنَّها فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ خَاصَّةً.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا وَافَقَ لَيْلَةٌ مِنْ أَفْرَادِ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ لَيْلَةَ جُمُعَةٍ، فَهِيَ أَرْجَى مِنْ غَيْرِهَا. كَمَا ذَكَرَ الْوَزِيرُ أَبُو الْمُظَفَّرِ بْنُ هُبَيْرَةَ: أَنَّهُ رَأَى لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، وَكَانَتْ لَيْلَةَ جُمُعَةٍ، باباً فِي السَّمَاءِ مَفْتُوحًا سَامِيَّ الْكَعْبَةِ، قَالَ: فَظَنَنْتُهُ حِيَالَ الْحُجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ، قالَ: وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ إِلَى أَنِ الْتَفَتُّ إِلَى الْمَشْرِقِ لِأَنْظُرَ طُلُوعَ الْفَجْرِ، ثُمَّ الْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَوَجَدْتُهُ قَدْ غَابَ.

وَيُرْوَى: أنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ: «يَا عَبْدِي تَأَهَّبْ لِلِقَائِي. فَعَنْ قَرِيبٍ أَلْقاكَ، وَأَقْبِلْ عَلَى خِدْمَتِي فَإِنِّي أَنا مَوْلَاكَ».

وَاعْلَمْ أَنَّ الصِّيَامَ إِذَا كَانَ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، كَانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ أَجْرًا، وَأَكْثَرَ ثَوَابًا، كَمَا رُوِيَ عَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَنِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ صَامَ يَوْمًا فِي الْحَرِّ ثُمَّ نَامَ؛ فَرَأَى قَائِلًا يَقُولُ لَهُ: أَتَبِيعُ ثَوَابَ صَوْمِكَ هَذَا الْيَوْمَ بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ؟ فَقَالَ: لَا وَعِزَّةِ رَبِّي. قِيلَ لَهُ: فَبِأَيِّ شَيْءٍ تَبِيعُهُ؟ فَقَالَ: لَا أَبِيعُ الثَّوَابَ بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَكِنْ أَبِيعُهُ بِالنَّظَرِ إِلَى الْمَوْلَى الْكَرِيمِ، فَقِيلَ لَهُ: صُمْ فَسَوْفَ تَرَاهُ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: مَثَّلْتُ نَفْسِي فِي الْجَنَّةِ آكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ أَنْهَارِهَا، ثُمَّ مَثَّلْتُ نَفْسِي فِي النَّارِ آكُلُ مِنْ زَقُّومِهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ صَدِيدِهَا، ثُمَّ قُلْتُ لِنَفْسِي: مَا تُرِيدِينَ؟ قَالَتْ: أُرَدُّ إِلَى الدُّنْيا فَأَعْمَلُ صَالِحًا، فَقُلْتُ لَهَا: فَأَنْتِ إِذًا فِي الْأُمْنِيَّةِ فاعْمَلِي.

إِذَا اجْتَمَعَ الْأَحْبَابُ فِي خَلوَةِ الرِّضَا ... بِمَقْعَدِ صِدْقٍ وَالنَّسَائِمُ عَاطِرَه

تُرَى أَعْيُنَ الْعُشَّاقِ نَحوَ حَبِيبِهِمْ ... إِلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ الْمُقَدَّسِ نَاظِرَه

فَيَا نَفْسُ هَذَا مَشْرَبُ الْقَوْمِ فَاشْرَبِي ... عَسَى أَنْ تَكُونِي عِنْدَ ذَلِكَ حَاضِرَه

وَيُرْوَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ الْمُنَزَّلَةِ: «بِأَيِّ عَيْنٍ

يَرَانِي مَنْ بَارَزَنِي وَعَصَانِي؟ بِأَيِّ وَجْهٍ يَلْقَانِي مِنْ نَسِيَ عَظَمَةَ شَانِي؟ لَقَدْ خَابَ مَنْ حَجَبْتُهُ عَنِّي إِذَا قَرَّبْتُ الصَّادِقِينَ مِنِّي، وَشَقِيَ مَنْ طَرَدْتُهُ عَنْ جَنَابِي، إِذَا كَشَفْتُ حِجَابِي، فَتَجَلَّيْتُ لِلْمُتَّقِينَ مِنْ أَحْبَابِي. يَا عَبْدِي قِفْ عَلَى بَابِي فَأَنَا الْكَرِيمُ. وَلُذْ بِجَنَابِي فَصِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ».

بَادِرْ إِلَى الأَعْمَالِ مَا ... دُمْتَ بِذِي الدُّنْيَا مُقِيمْ
يَا مَنْ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ ... بِدُخُولِ جَنَّاتِ النَّعِيمْ
إِنْ كُنْتَ مُتَّقِيًا فَأَنْتَ ... عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمْ
لَا تَرْجُوَنَّ سَلَامَةً ... مِنْ غَيْرِ مَا قَلْبٍ سَلِيمْ
فَاسْلُكْ طَرِيقَ الْمُتَّقِينَ ... وَظُنَّ خَيْرًا بِالْكَرِيمْ
وَاذْكُرْ وُقُوفَكَ خَائِفًا ... وَالنَّاسُ فِي أَمْرٍ عَظِيمْ
إِمَّا إِلَى دَارِ الشَّقَا ... وَةِ أَوْ إِلَى الْعِزِّ الْمُقِيمْ
فَاغْنَمْ حَيَاتَكَ وَاجْتَهِدْ ... وتُبْ إِلَى الرَّبِّ الرَّحِيمْ

وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ الْمَنَامِ الطَّوِيلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي يَلْهَثُ عَطَشًا، كُلَّمَا وَرَدَ حَوْضًا مُنِعَ مِنْهُ. فَجَاءَهُ صِيَامُ رَمَضَانَ فَسَقَاهُ وَأَرْوَاهُ».

إِخْوَانِي: انْظُرُوا إِلَى بَرَكَاتِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَنَفْعِهِ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا: فَيَحْجُبُكُمْ عَنِ الشَّهَوَاتِ الْمُوجِبَةِ لِلنَّارِ وَالْعَذَابِ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَتَفُوزُونَ بِالْعَفْوِ وَالرِّضَا مِنَ الْمَلِكِ الْوَهَّابِ.

فَاغْتَنِمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَوْقَاتَهُ قَبْلَ الذَّهَابِ، وَجِدُّوا بِالْاجْتِهَادِ قَبْلَ غَلْقِ الْبَابِ وَإِسْبَالِ الْحِجَابِ.

تَصَرَّمَ الشَّهْرُ وَالَهْفَاهُ وَانْهَدَمَا ... وَاخْتَصَّ بِالْفَوْزِ بِالْجَنَّاتِ مَنْ خَدَمَا
وَأَصْبَحَ الْغَافِلُ الْمِسْكِينُ مُنْكَسِرًا ... مِثْلِي فَيَا وَيْحَهُ! يَا عُظْمَ مَا حُرِمَا
مَنْ فَاتَهُ الزَّرْعُ فِي وَقْتِ الْبِذَارِ فَمَا ... تَرَاهُ يَحْصِدُ إِلَّا الْهَمَّ وَالنَّدَمَا
طُوبَى لِمَنْ كَانَتِ التَّقْوَى بِضَاعَتَهُ ... فِي شَهْرِهِ وَبِحَبْلِ اللَّهِ مُعْتَصِمَا

رُوِيَ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْتُ أَلَّا أَنامَ لَمْ أَنَمْ مَخَافَةَ أَنْ يُنَزَّلَ عَذَابٌ وَأَنا نَائِمٌ، وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُ أَعْوَانًا لَفَرَّقْتُهُمْ فِي مَنَارِ الدُّنْيا يُنَادُونَ: أَيُّهَا النَّاسُ: النَّارَ النَّارَ.

وَقِيلَ لِزَاهِدٍ: مَا الَّذِي زَهَّدَكَ فِي الدُّنْيَا؟ فَقَالَ: خِسَّةُ شُرَكَائِهَا، وَقِلَّةُ وَفَائِهَا، وَكَثْرَةُ جَفَائِهَا.

وَكَانَ الشِّبْلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: لَا تَغْتَرَّ بِدَارٍ لَا بُدَّ مِنَ الرَّحِيلِ عَنْهَا، وَلَا تُخَرِّبْ دَارًا لَا بُدَّ مِنَ الْخُلُودِ فِيهَا.

أُوْلَئِكَ الْبَاكُونَ إِذَا ضَحِكَ الْغَافِلُونَ، وَالتَّارِكُونَ إِذَا أَحَبَّ الْجَاهِلُونَ، وَالسَّاهِرُونَ إِذَا اضْطَجَعَ النَّائِمُونَ. قَطَعُوا مَفَاوِزَ الدُّنْيَا وَعَقَبَاتِ الْآخِرَةِ. فَوُجُوهُهُمْ بِالنَّعِيمِ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ. إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ أَوْصَافُ مَحْبُوبِهِمْ قَامُوا وَالِهِينَ، وَإِنْ دَعَاهُمْ دَاعِي الشَّوْقِ أَجَابُوا مُسْرِعِينَ، مَنَعَهُمْ هَوْلُ الْمَقَامِ لَذِيذَ الْمَنَامِ، وَقَامُوا بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى خِدْمَةِ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ، وَاغْتَنَمُوا بَقِيَّةَ الْعُمْرِ وَالْأَيَّامِ، خَوْفًا وَحَذَرًا مِنْ رُكُوبِ الْقَبَائِحِ وَالْآثَامِ.

كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَقُومُ اللَّيْلَ؛ فَنَامَ لَيْلَةً فَأَتَاهُ آتٍ فِي مَنَامِهِ، فَقَالَ لَهُ: قُمْ فَصَلِّ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ مَفَاتِيحَ الْجَنَّةِ مَعَ أَصْحَابِ اللَّيْلِ وَهُمْ خُزَّانُهَا؟ قَصَّرْتَ فِي الْخِطْبَةِ. أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْمُتَهَجِّدَ إِذَا قَامَ إِلَى تَهَجُّدِهِ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: قَامَ الْخَاطِبُ إِلَى خِطْبَتِهِ؟

كَانَ أَبُو سُلَيْمَانَ يَقُولُ: أَهْلُ اللَّيْلِ فِي لَيْلِهِمْ أَلَذُّ مِنْ أَهْلِ اللَّهْوِ فِي لَهْوِهِمْ، وَلَوْلَا اللَّيْلُ مَا أَحْبَبْتُ الْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا.

وَقَالَ بَعْضُهمْ: إِذَا بَكَى الْخَائِفُونَ فَقَدْ عَاتَبُوا اللَّهَ بِدُمُوعِهِمْ.

إِذَا أَوْجَعَتْكَ الذُّنُوبُ فَدَاوِهَا ... بِرَفْعِ يَدٍ بِاللَّيْلِ وَاللَّيْلُ مُظْلِمُ
وَلَا تَقْنَطَنْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّمَا ... قُنُوطُكَ مِنْهَا مِنْ خَطَايَاكَ أَعْظَمُ
فَرَحْمَتُهُ لِلْمُحْسِنِينَ كَرَامَةٌ ... وَرَحْمَتُهُ لِلْمُذْنِبِينَ تَكَرُّمُ

فَصْلٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمَرَ بالدُّعَاءِ. وَوَعَدَ بِالْإِجَابَةِ، وَلِلدُّعَاءِ أَوْقَاتٌ، وَلِلاَسْتِجَابَةِ أَوْقَاتٌ.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَيَخْتَصُّ هَذَا فِي أَشْرَفِ الْأَزْمَانِ، وَهُوَ شَهْرُ رَمَضَانَ، وَيَخْتَصُّ هَذَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْهُ، وَيَخْتَصُّ هَذَا فِي لَيَالِيهَا الَّتِي تُرْجَى فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ؛ فَيَنْبَغِي لِمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَغْتَنِمَ هَذِهِ اللَّيَالِي، وَيُلِحَّ عَلَى اللَّهِ بِالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ فِيهَا.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْأَثَرِ الْإِلَهِي أَنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ: «أَنَا الْجَوَّادُ الَّذِي لَا أَبْخَلُ، وأَنَا الْحَلِيمُ الَّذِي لَا أَعْجَلُ، وَأَنَا الَّذِي أَسْتُرُ عَلَى الْعَاصِي وَأَقْبَلُ التَّائِبِينَ، وَأَعْفُو عَنِ الْخَاطِئِينَ، وَأَنَا أَرْحَمُ النَّادِمِينَ، وَأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. مَنْ ذَا الَّذِي لَجأَ إِلَى جَنَابِنا فَطَرَدْنَاهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي تابَ إِلَيْنَا وَمَا قَبِلْنَاهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي طَلَبَ مِنَّا وَمَا أَعْطَيْنَاهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي اسْتَقَالَ مِنْ ذَنْبِهِ فَمَا غَفَرْنَاهُ، أَنا الَّذِي أَغْفِرُ الذُّنُوبَ، وَأَسْتُرُ الْعُيُوبَ وَأُغِيثُ الْمَكْرُوبَ. وَأَرْحَمُ الْبَاكِيَ النَّدُوبَ، وَأَنَا عَلَّامُ الْغُيُوبِ. يَا عَبْدِي قِفْ عَلَى بَابِي أَكْتُبْكَ مِنْ أَحْبَابِي، تَمَتَّعْ فِي الْأَسْحَارِ بِخِطَابِي، أَجْعَلْكَ مِنْ طُلَّابِي، لُذْ بِجَنَابِي أَسْقِكَ مِنْ لَذِيذِ شَرَابِي».

فَيَا هَذَا، يَدْعُوكَ مَوْلَاكَ فَلَا تُجِيبُ، وَيَأْمُرُك بِالْإِنَابَةِ فَلَا تُنِيبُ. وَيَسْتَحْضِرُكَ إِلَى حَضرَاتِ قُرْبِهِ وَأَنْتَ فِي الْمَغِيبِ؟ إِلَى مَتَى تُضِيعُ عُمْرَكَ وَمَا نِلْتَ مِنْ نَصِيبٍ؟ إِلَى مَتَى أَنْتَ بِعِلَّةِ زَلَّتِكَ وَلَا تَرْفَعُ قِصَّةَ مَرَضِكَ إِلَى طَبِيبٍ.

وَيْحَكَ لُذْ بِبَابِهِ، وَعَفِّرِ الْخَدَّ عَلَى أَعْتَابِهِ، وَادْعُهُ حِينَ تُنَاجِيهِ؛ فَإِنَّهُ لِدَاعِيهِ يُجِيبُ.

وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي فَضْلِ قِيَامِ اللَّيْلِ وَالدُّعَاءِ فَكَثِيرَةٌ، مِنْهَا: مَا رُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ وَالتِّرْمِذِيِّ وَابْنِ مَاجَه وَغَيْرِهِمْ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ وَجْهَ كَذَّابٍ؛ فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ».

وَأَخْرَجَ ابْنُ مَاجَه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا اسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ؛ فَصَلَّيَا كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ».

وَقَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثُ: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ، فَإِنْ أَبَتْ رَشَّ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ. رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى رَشَّتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ».

وَتَقَدَّمَ: «أَنَّهُ ﷺ كَانَ يُوقِظُ أَهْلَهُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ».

وَرَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ. قَالَ اللَّهُ: لَبَّيْكَ عَبْدِي، سَلْ تُعْطَ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ ﷻ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْفَرَجِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: احْتَجْتُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إِلَى جَارِيَةٍ تَصْنَعُ لَنا الطَّعَامَ، فَوَجَدْتُ فِي السُّوقِ جَارِيَةً يُنَادَى عَلَيْهَا بِثَمَنٍ يَسِيرٍ وَهِيَ مُصْفَرَّةُ اللَّوْنِ، نَحِيفَةُ الْجِسْمِ، يَابِسَةُ الْجِلْدِ، فَاشْتَرَيْتُهَا رَحْمَةً لَهَا، وَأَتَيْتُ بِهَا إِلَى الْمَنْزِلِ فَقُلْتُ لَهَا: خُذِي أَوْعِيَةً وَامْضِي مَعِي إِلَى السُّوقِ لِنَشْتَرِيَ حَوَائِجَ رَمَضَانَ. فَقَالَتْ: يَا سَيِّدِي، أَنا كُنْتُ عِنْدَ قَوْمٍ كُلُّ زَمَانِهِمْ رَمَضَانُ. فَعَلِمْتُ أَنَّها مِنَ الصَّالِحَاتِ. فَكَانَتْ تَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ. فَلَمَّا كَانَتْ آخِرُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ قُلْتُ لَهَا: امْضِي بِنَا إِلَى السُّوقِ لِنَشْتَرِيَ حَوَائِجَ الْعِيدِ. فَقَالَتْ: يَا مَوْلَايَ، أَيُّ حَوَائِجَ تُرِيدُ؟ حَوَائِجَ الْعَوَامِّ؟ أَوْ حَوَائِجَ الْخَواصِّ؟ فَقُلْتُ لَهَا: صِفِي لِي حَوَائِجَ الْعَوَامِّ وَحَوَائِجَ الْخَواصِّ، فَقَالَتْ: يَا سَيِّدِي حَوَائِجُ الْعَوَامِّ الطَّعَامُ الْمَعْهُودُ فِي الْعِيدِ، وَحَوَائِجُ الْخَواصِّ الاعْتِزَالُ عَنِ الْخَلْقِ وَالتَّفْرِيدُ، وَالتَّفَرُّغُ لِلْخِدْمَةِ وَالتَّجْرِيدُ، وَالتَّقَرُّبُ بِالطَّاعَاتِ لِلْمَلِكِ الْمَجِيدِ، وَالْتِزَامُ ذُلِّ الْعَبِيدِ؛ فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّمَا أُرِيدُ حَوَائِجَ الطَّعَامِ، فَقَالَتْ: يَا سَيِّدِي أَيُّ الطَّعَامِ تَعْنِي؟ طَعَامُ الْأَجْسَادِ أَمْ طَعَامُ الْقُلوبِ؟ فَقُلْتُ: صِفِيهِمَا لِي، فَقَالَتْ: أَمَّا طَعَامُ الْأَجْسَادِ فَهُوَ الْقُوتُ الْمُعْتَادُ، وَأَمَّا طَعَامُ الْقُلُوبِ فَتَرْكُ الذُّنُوبِ وَإِصْلَاحُ الْعُيُوبِ، وَالتَّمَتُّعُ بِمُشَاهَدَةِ الْمَحْبُوبِ، وَالرِّضَا بِحُصُولِ الْمَقْصُودِ وَالْمَطْلُوبِ، وَحَوَائِجُهُ الْخُشُوعُ وَالتَّقْوَى، وَتَرْكُ الْكِبْرِ وَالدَّعْوَى، وَالرُّجُوعُ إِلَى الْمَوْلَى وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ فِي السِّرِّ وَالنَّجْوَى.

ثُمَّ إِنَّها قَامَتْ تُصَلِّي فَقَرَأَتْ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى سُورَةَ الْبَقَرَةِ إِلَى آخِرِهَا، ثُمَّ شَرَعَتْ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ لَمْ تَزَلْ تَخْتِمُ سُورَةً بَعْدَ سُورَةٍ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ ثُمَّ لَمْ تَزَلْ تُرَدِّدُ هَذِهِ الْآيَةَ وَهِيَ تَبْكِي إِلَى أَنْ أُغْمِيَ عَلَيْهَا وَوَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ؛ فَحَرَّكْتُهَا فَإِذَا هِيَ مَيِّتَةٌ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهَا.

فَلِلَّهِ دَرُّهُمْ مِنْ أَقْوَامٍ غَسَلُوا وُجُوهَهُمْ بِدُمُوعِ الْأَحْزَانِ، وَأَسْهَرُوا أَعْيُنَهُمْ

فِي اللَّيْلِ بِالذِّكْرِ وَتِلاوَةِ الْقُرْآنِ، وَنَصبُوا أَقْدَامَهُمْ فِي خِدْمَةِ الْمَلِكِ الدَّيَّانِ، وَاجْتَهَدُوا فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَبَادَرُوا الزَّمَانَ؛ فَكُلُّ زَمَانِهِمْ رَمَضَانُ. طُوبَى لَهُمْ، فَازُوا بِذِكْرِ حَبِيبِهِمْ وَتَمَتَّعُوا بِدُنُوِّهِ وَوِصَالِهِ. فَهَوَاهُمْ لَا يَنْقَضِي وَغَرَامُهُمْ. وَكَذَا مَحَبَّةُ كُلِّ مُحِبٍّ وَالِهٍ، ذَلُّوا لِعِزِّ حَبِيبِهِمْ؛ وَاسْتَلَذُّوا مَا كَابَدُوا فِي الْحُبِّ مِنْ أَهْوَالِهِ، وَبِهِ قَدِ اشْتَغَلُوا، وَيَا بُشْرَى لِمَنْ قَدْ أَصْبَحَ مَوْلَاهُ أَجَلَّ أَشْغَالِهِ.

رَحِمَ اللَّهُ أَعْظُمًا نُصِبَتْ فِي الطَّاعَةِ وَانْتَصَبَتْ، جَنَّ عَلَيْهَا اللَّيْلُ فَلَمَّا تَمَكَّنَ وَثَبَتْ. كُلَّمَا ذَكَرَتْ جَهَنَّمَ رَهِبَتْ وَهَرَبَتْ. وَكُلَّمَا صَوَّرَتْ قُلُوبَهَا نَاحَتْ عَلَيْهَا وَنَدَبَتْ.

كَانَ بَعْضَ السَّلَفِ يَمْنَعُهُ التَّفَكُّرُ وَالتَّدَبُّرُ لِلْقُرْآنِ مِنْ كَثْرَةِ التِّلَاوَةِ فَيَقِفُ فِي الْآيَةِ يُرَدِّدُهَا حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ.

قَامَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ لَيْلَةً إِلَى الصَّبَاحِ بِآيَةٍ وَهِيَ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؟

وَقَامَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ لَيْلَةً بِآيَةٍ وَهِيَ: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَنِيُّ: إِنِّي لَأَتْلُو الْآيَةَ وَأُقِيمُ فِيهَا أَرْبَعَ لَيَالٍ أَوْ خَمْسًا. وَلَوْلَا أَنِّي أَقْطَعُ الْفِكْرَ مَا جَاوَزْتُهَا.

وَقَالَ أَسْلَمُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ: صَحِبَ رَجُلٌ رَجُلًا شَهْرَيْنِ؛ فَمَا رَآهُ نَائِمًا بِلَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ، فَقَالَ: مَا لِي لَا أَرَاكَ نَائِمًا؟ قَالَ: إِنَّ عَجَائِبَ الْقُرْآنِ أَطَرْنَ نَوْمِي؛ فَمَا أَخْرُجُ مِنْ أُعْجُوبَةٍ إِلَّا وَقَعْتُ فِي أُخْرَى.

يَا غَائِبًا فِي صَلَاتِهِ، يَا شَتِيتَ الْهَمِّ فِي حَيَاتِهِ، يَا مَشْغُولًا بِأَنَاتِهِ، عَنْ ذِكْرِ وَفَاتِهِ، يَا قَلِيلَ الزَّادِ مَعَ قُرْبِ مَمَاتِهِ، لَقَدْ رَبِحَ الْقَوْمُ وَأَنْتَ نَائِمٌ، وَخِبْتَ وَرَجَعُوا بِالْغَنَائِمِ، بِاللَّيْلِ رَاقِدٌ وَبِالنَّهَارِ هَائِمٌ.

لِلَّهِ دَرُّ أَقْوَامٍ نَظَرُوا فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ؛ فَقَبَرُوا نُفُوسَهُمْ قَبْلَ الْقُبُورِ،

وَخَرَجُوا مِنْ ظَلَامِ الشُّبَهِ إِلَى أَجْلَى نُورٍ. أَطَارَ خَوْفُ النَّارِ نَوْمَهُمْ، وَأَطَالَ ذِكْرُ الْعَطَشِ الْأَكْبَرِ صَوْمَهُمْ، وَهَوَّنَ فِكْرُهُمْ فِي الْعِتَابِ نَصَبَهُمْ، وَنَصَبَهُمْ عَلَى الْأَقْدَامِ ذِكْرُ الْقِيَامِ وَأَنْصَبَهُمْ، أَمَّا الْأَجْسَادُ فَالْخَوْفُ قَدْ أَنْحَلَهَا، وَأَمَّا الْعُقُولُ فَالْحَذَرُ قَدْ أَذْهَلَهَا، وأَمَّا الْقُلُوبُ فَالْفِكْرُ قَدْ أَشْغَلَهَا، وَأَمَّا الدُّمُوعُ فَالْإِشْفَاقُ قَدْ أَرْسَلَهَا، وأَمَّا الْأَكُفُّ فَقَدْ كَفَّتْ عَمَّا لَيْسَ لَهَا، وَأَمَّا الْأَعْمَالُ فَقَدْ وَاللَّهِ قَبِلَهَا. حَوَانِيتُهُمُ الْخَلَوَاتُ، وَبَضَائِعُهُمُ الصَّلَوَاتُ، وَأَرْبَاحُهُمُ الْجَنَّاتُ. عَرَفُوا طَرِيقَ النَّجَاةِ، فَوَقَفُوا عَلَى قَدَمِ الْأَدَبِ فِي الْمُنَاجَاةِ؛ فَنَالَ كُلٌّ مِنْهُمْ مَا رَجَاهُ. فَلَهُمْ عِنْدَهُ أَعْظَمُ قَدْرٍ وَجَاهٍ.

كَانَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَا يَبْكِي حَتَّى بَدَتْ أَضْرَاسُهُ. قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَتِ الدُّمُوعُ قَدِ اتَّخَذَتْ فِي خَدِّهِ مَجْرَى.

وَقَالَ وُهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ: لَمَّا عَاتَبَ اللَّهُ نُوحًا أَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ فَبَكَى ثَلَاثَمِائَةِ عَامٍ حَتَّى صَارَ تَحت عَيْنَيْهِ أَمْثَالُ الْجَدَاوِلِ مِنَ الْبُكَاءِ.

مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِثْلُ تَقْوَاهُمْ، لَمْ يَعْلَمْ مَا الَّذِي أَبْكَاهُمْ، مَنْ لَمْ يُشَاهِدْ جَمَالَ يُوسُفَ، لَمْ يَدْرِ مَا الَّذِي آلَمَ قَلْبَ يَعْقُوبَ.

قَالَ:

بَكَى الْبَاكُونَ لِلرَّحْمٰنِ لَيْلًا ... وَبَاتُوا دَمْعُهُمْ لَا يَسْأَمُونَا
بِقَاعُ الْأَرْضِ مِنْ شَوْقٍ إِلَيْهِمْ ... تَحِنُّ مَتَى عَلَيْهَا يَسْجُدُونَا

يُرْوَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا يَبْكِي عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِي مِنْ خَشْيَتِي إِلَّا أَبْدَلْتُهُ ضَحِكًا فِي نُورِ قُدْسِي».

قَالَ النَّضْرُ بْنُ سَعْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا اغْرَوْرَقَتْ عَيْنُ امْرِئٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى وَجْهَ صَاحِبِهَا عَلَى النَّارِ، فَإِنْ فَاضَتْ عَلَى خَدِّهِ لَمْ يَرْهَقْ

وَجْهَهُ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ، وَلَوْ أَنَّ مَحْزُونًا بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ لَرَحِمَ اللَّهُ تَعَالَى بِبُكَائِهِ تِلْكَ الْأُمَّةَ، وَمَا مِنْ عَمَلٍ إِلَّا وَلَهُ وَزْنٌ إِلَّا الدَّمْعَةَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهَا تُطْفِئُ بُحُورًا مِنَ النَّارِ.

وَقَالَ عَبدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ﷺ: «لَأَنْ أَدْمَعَ دَمْعَةً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِأَلْفِ دِينَارٍ».

وَاعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّ هَذِهِ سُوقُ مُتَّجَرِ الْأَبْرَارِ، وَحَلَبَةُ السِّبَاقِ بَيْنَ الْمُتَّقِينَ وَالْأَخْيَارِ، وَمَزْرَعُ التَّقْوَى لِيَوْمِ الْقَرَارِ، وَمَحَلُّ تَحْصِيلِ الزَّادِ لِلسَّفَرِ الَّذِي لَيْسَ كَالْأَسْفَارِ.

فَبَادِرْ أَخِي قَبْلَ فَوَاتِ إِمْكَانِ الْبِدَارِ، وَاغْتَنِمْ أَنْفَاسَكَ الْعَظِيمَةَ الْمِقْدَارِ، وَأَذْرِ مِنْ دُمُوعِكَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ تَفْرِيطِكَ، فَإِنَّ الْقَطْرَةَ مِنَ الدُّمُوعِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى تُطْفِئُ الْبُحُورَ مِنَ النَّارِ، وَتَيَقَّظْ فِي سَاعَاتِ الْأَسْحَارِ، عِنْدَ نُزُولِ الْجَبَّارِ، وَاحْضُرْ بِقَلْبِكَ قَوْلَ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ: «هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ، هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟».

قُلْ: نَعَمْ يَا رَبِّ، أَنا السَّائِلُ الْمُحْتَاجُ الْفَقِيرُ الضَّعِيفُ، أَنا الدَّاعِي الرَّاجِي الْوَاقِفُ بِبَابِكَ، اللَّائِذُ بِجَنَابِكَ، أَنا الْمُسْتَغْفِرُ لِلذَّنْبِ، الْمُقِرُّ الْمُعْتَرِفُ، الْوَجِلُ الْخَائِفُ، الْمُسْتَمْطِرُ لِسَحَائِبِ كَرَمِكَ.

يَا صَاحِبَ الصَّدَقَةِ هٰأَنَذَا أَنْتَظِرُ جُودَكَ الْعَمِيمَ، وَإِحْسَانَكَ الْقَدِيمَ. ارْحَمْ ضَعْفِي وَكِبَرَ سِنِّي، ارْحَمْ فَقْرِي وَفَاقَتِي، وَحَاجَتِي وَمَسْكَنَتِي، يَا دَائِمَ الْمَعْرُوفِ لَا تُخَيِّبْ حُسْنَ ظَنِّي بِكَ، وَلَا تَحْرِمْنِي سَعَةَ مَعْرُوفِكَ، وَلَا تَطْرُدْنِي عَنْ بَابِكَ، وَلَا تُخْرِجْنِي مِنْ أَحْبَابِكَ؟ فَأَنْتَ الَّذِي أَصْلَحْتَ الصَّالِحِينَ، وَقَرَّبْت الْمُقَرَّبِينَ، تَفَضَّلْتَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أَثْنَيْتَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ مَدَحْتَهُمْ، لَوْلَاكَ مَا وَصَلُوا إِلَيْكَ، وَلَوْلَا إِحْسَانُكَ مَا فَازُوا لَدَيْكَ.

يَا هَذَا جَرِّدِ الْإِقْرَارَ، ثُمَّ أَلْبِسْهُ الْاعْتِذَارَ، ثُمَّ حَلِّهِ بِحِلْيَةِ الْانْكِسَارِ، ثُمَّ

أَقِمْهُ عَلَى بَابِ الدَّارِ. اكْتُبْ قِصَّةَ الرُّجُوعِ بِقَلمِ النُّزُوعِ، بِمِدَادِ الدُّمُوعِ. وَاسْعَ بِهَا عَلَى قَدَمِ الْخُضُوعِ إِلَى بَابِ الْخُشُوعِ، وَأَتْبِعْها بِالْعَطَشِ وَالْجُوعِ، وَارْفَعْها إِلَى بَابِ مَنْ لَيْسَ عَلَى بَابِهِ حِجَابٌ، فَرُبَّ سُؤَالٍ مَسْمُوعٌ، وَتَوَسَّلْ إِلَيْهِ بِالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ. نَادِ فِي نادِي الْأَسْحَارِ وَالنَّاسُ نَائِمُونَ: يَا أَكْرَمَ مَنْ أَمَّلَهُ الْمُؤَمِّلُونَ، إِنْ طَرَدْتَنِي فَإِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ؟ وَإِنْ أَبْعَدْتَنِي فَإِلَيْكَ أُنْسَبُ. عَلِمْتَ ذَنْبِي وَخَلَقْتَنِي، وَرَأَيْتَ فِعْلِي وَرَزَقْتَنِي:

لَئِنْ جَلَّ ذَنْبِي وَارْتَكَبْتُ الْمَآثِما	وَأَصْبَحْتُ فِي بَحْرِ الْخَطِيئَةِ عَائِمَا
فَهَأَنَذَا يَا رَبِّ أَقْرَرْتُ بِالَّذِي	جَنَيْتُ عَلَى نَفْسِي وأَصْبَحْتُ نَادِمَا
أَجَلُّ ذُنُوبِي عِنْدَ عَفْوِكَ سَيِّدِي	حَقِيرٌ؛ وَإِنْ كَانَتْ ذُنُوبِي عَظَائِمَا

إِلٰهِي وَقَفَ السَّائِلُونَ بِبَابِكَ، وَلَاذَ الْفُقَرَاءُ بِجَنَابِكَ. وَوَقَفَتْ سَفِينَةُ الْمَسَاكِينِ عَلَى سَاحِلِ بَحْرِ كَرَمِكَ. يَرْجُونَ الْجَوَازَ إِلَى سَاحَةِ رَحْمَتِكَ وَنِعْمَتِكَ.

إِلٰهِي؛ إِنْ كُنْتَ لَا تُكْرِمُ فِي هَذَا الشَّهْرِ الشَّرِيفِ إِلَّا مَنْ أَخْلَصَ لَكَ فِي أَعْمَالِهِ؛ فَمَنْ لِلْمُذْنِبِ الْمُقَصِّرِ إِذَا غَرِقَ فِي بَحْرِ ذُنُوبِهِ وَآثامِهِ؟

إِلٰهِي؛ إِنْ كُنْتَ لَا تَرْحَمُ إِلَّا الطَّائِعِينَ؛ فَمَنْ لِلْعاصِينَ؟ وَإِنْ كُنْتَ لَا تَقْبَلُ إِلَّا الْعَامِلِينَ؛ فَمَنْ لِلْمُقَصِّرِينَ؟

إِلٰهِي؛ رَبِحَ الصَّائِمُونَ الْمُخْلِصُونَ، وَفَازَ الْقَائِمُونَ، وَنَحْنُ عَبِيدُكَ الْمُذْنِبُونَ؛ فَارْحَمْنَا بِرَحْمَتِكَ، وَجُدْ عَلَيْنَا بِفَضْلِكَ وَمِنَّتِكَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَتَقَبَّلْ مِنَّا أَجْمَعِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ
فِي اغْتِنَامِ أَوْقَاتِ رَمَضَانَ فِي الطَّاعَاتِ، وَالْمُنَافَسَةِ فِي سُبُلِ الْخَيْرَاتِ

الْحَمدُ لِلَّهِ الَّذِي دَلَّتْ بَدَائِعُ صَنْعَتِهِ، وَعَجَائِبُ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، عَلَى انْفِرَادِهِ بِالْإِيجَادِ وَالْإِنْشَاءِ. وَذَلَّتْ لِعَظَمَةِ هَيْبَتِهِ وَقَهْرِ سَطْوَتِهِ رِقَابُ الْعُظَمَاءِ،

وَكَلَّتْ عَنْ حَقِيقَةِ مَعْرِفَتِهِ، وَكَمالِ صَمَدِيَّتِهِ أَفْهامُ الْعُقَلَاءِ. وَجَلَّتْ صِفَاتُ رُبُوبِيَّتِهِ وَنُعُوتُ وَحْدَانِيَّتِهِ؛ فَلَا تُحْصِيهَا بَلَاغَةُ الْفُصَحَاءِ.

الْأَوَّلُ قَبْلَ ابْتِدَاءِ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ. الْآخِرُ بِالْعِزِّ وَالْمُلْكِ وَالْبَقَاءِ. الظَّاهِرُ بِالْاخْتِرَاعِ وَالْابْتِدَاعِ وَالْقَهْرِ وَالْكِبْرِياءِ. الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ، وَالْأَفْهَامُ عَاجِزَةٌ عَنْ إِدْرَاكِ الْجَلَالِ، وَالْأَلْسِنَةُ قَاصِرَةٌ عَنْ حَقِيقَةِ الثَّنَاءِ. الْقُدُّوسُ الْغَنِيُّ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَكُلُّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ بِالْعَطَاءِ.

الْوَاحِدُ الْأَحَدُ. الْقَيُّومُ الصَّمَدُ. الْحَيُّ الَّذِي تَنَزَّهَ عَنْ مُشَابَهَةِ الْأَمْوَاتِ وَالْأَحْيَاءِ. الْعَلِيمُ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ أَصْوَاتُ الْمُلِحِّينَ بِالدُّعَاءِ. أَوْضَحَ أَدِلَّةَ وُجُودِهِ، وَغَمَرَ الْخَلَائِقَ بِفَضْلِهِ وَجُودِهِ. وَخَصَّ الْمُحَقِّقِينَ بِكَشْفِ الْغِطَاءِ. فَتَحَ بَابَ جُودِهِ لِلطَّالِبِينَ. وَبَسَطَ بِسَاطَ الْقَبُولِ لِلْمُذْنِبِينَ. وَمَهَّدَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِحْسَانِهِ مِهَادًا. وَأَكْمَلَ لَهُمْ الْمِنَّةَ بِمَا أَوْلَاهُمْ مِنْ جَزِيلِ الْعَطَاءِ. وَشَرَحَ لِقَبُولِ أَمْرِهِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى ذِكْرِهِ صُدُورَ السُّعَدَاءِ، وَفَّقَ الْعَامِلِينَ لِخِدْمَتِهِ، وَوَعَدَهُمْ بِجَزِيلِ مَثُوبَتِهِ الْمَنَّ وَالْجَزَاءَ، فَتَلَذَّذُوا بِمُنَاجَاتِهِ لِمَا عَلِمُوا أَنَّهُ قَرِيبٌ سَمِيعُ الدُّعَاءِ.

أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى مَا أَوْلَانَا مِنَ الْفَضْلِ وَالْآلَاءِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى نِعَمِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَتَجَدَّدُ بِالْأَنْفَاسِ وَالْآنَاءِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الْإِلَهُ الْمُتَوَحِّدُ فِي جَلَالِ الْبَهَاءِ، شَهَادَةً أَدَّخِرُهَا لِيَوْمِ الْمَعَادِ وَاللِّقَاءِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاتَمُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِياءِ، وَسَيِّدُ الْأَصْفِيَاءِ وَالنُّجَبَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا

عَنكُمْۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِۗ﴾ ـ الآية.

اعْلَمْ أَنَّ الْمُعْتَكِفَ مَمْنُوعٌ مِنَ الْوَطْءِ وَدَوَاعِيهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا مِنَّةٌ وَنِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، وَكَانُوا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ إِنَّمَا يُبَاحُ لِلصَّائِمِ إِذَا أَفْطَرَ أَنْ يَأْكُلَ وَيَشْرَبَ وَيَنْكِحَ، مَا لَمْ يُصَلِّ الْعِشَاءَ الْأَخِيرَةَ أَوْ يَنَمْ؛ فَإِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ الْأَخِيرَةَ أَوْ نَامَ قَبْلَهَا، لَمْ يَحِلَّ لَهُ مَا ذُكِرَ إِلَى اللَّيْلَةِ الْقَابِلَةِ، فَوَجَدُوا مِنْ ذَلِكَ مَشَقَّةً؛ فَرَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمُ الْحَرَجَ ـ وَلَهُ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ ـ بِأَنَّهُ إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ حَلَّ لِلصَّائِمِ مَا حَرُمَ عَلَيْهِ بِالصِّيَامِ. وَأَبَاحَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ. وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ.

وَيُسْتَحَبُّ تَأْخِيرُ السُّحُورِ مَا لَمْ يَخْشَ طُلُوعَ الْفَجْرِ، وَسَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ: «الْغَدَاءُ الْمُبَارَكُ»، وَقَالَ: «اسْتَعِينُوا بِطَعَامِ السُّحُورِ عَلَى صِيَامِ النَّهَارِ، وَبِالْقَيْلُولَةِ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ»، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ»، وقَالَ: «تَسَحَّرُوا؛ فَإِنَّ فِي السُّحُورِ بَرَكَةً».

وَكَذَا يُستَحَبُّ تَعْجِيلُ الْفِطْرِ إِذَا تَحَقَّقَ الْغُرُوبُ، كما ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعْجَلُهُمْ فِطْرًا».

وَيَنْبَغِي لِلصَّائِمِ أَنْ يُقِلَّ مِنَ الشِّبَعِ، وَأَنْ يَصُونَ صَوْمَهُ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: يَنْبَغِي لِلصَّائِمِ أَنْ يَتَعَاهَدَ صَوْمَهُ مِنْ لِسَانِهِ وَلَا يُمَارِي وَيَصُونَ صَوْمَهُ وَلَا يَغْتَابَ أَحَدًا.

وَكَانُوا إِذَا صَامُوا قَعَدُوا فِي الْمَسَاجِدِ، وَقَالُوا: نَحْفَظُ صَوْمَنَا وَلَا نَغْتَابُ أَحَدًا. وَيُكْرَهُ الْوِصَالُ إِلَّا إِلَى السَّحَرِ، لَكِنَّ فِيهِ تَرْكَ سُنَّةِ تَعْجِيلِ الْفِطْرِ.

وَأَخْرَجَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْوِصَالِ فِي الصَّوْمِ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: إِنَّكَ تُوَاصِلُ يَا

رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: وَأَيُّكُمْ مِثْلِي؟ إِنِّي أَبِيتُ عِندَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي. فَلَمَّا أَبَوْا أَن يَنْتَهُوا عَنِ الْوِصَالِ وَاصَلَ بِهِمْ يَوْمًا، ثُمَّ يَوْمًا ثُمَّ رَأَوْا الْهِلَالَ، فَقَالَ: لَوْ تَأَخَّرَ لزِدْتُكُمْ، كَالتَّنْكِيلِ لَهُمْ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا».

فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاصَلَ بِالنَّاس فِي آخِرِ الشَّهْرِ.

وَلِلْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تُوَاصِلُوا، فَأَيُّكُمْ أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ إِلَى السَّحَرِ». قَالُوا: فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ لِي مُطْعِمٌ يُطْعِمُنِي وَسَاقٍ يَسْقِينِي». وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «إِنِّي أَظَلُّ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي».

وَرَوَى عَبدُ الرَّزَّاقِ: «أَنَّهُ نَهَى عَنِ الْوِصَالِ. قالوا: فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ. قَالَ: وَمَا يُدْرِيكُمْ، لَعَلَّ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي».

وَظَاهِرُ هَذَا أَنَّهُ كَانَ يُوَاصِلُ اللَّيْلَ كُلَّهُ. وَاخْتُلِفَ فِي مَعْنَى إِطْعَامِهِ، فَقِيلَ إِنَّهُ كَانَ يُؤْتَى بِطَعَامٍ مِنَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُهُ، وَفِيَ هَذَا نَظَرٌ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُوَاصِلًا. وَقَدْ أَقَرَّهُمْ عَلَى قَوْلِهِمْ لَهُ: «إِنَّكَ تُوَاصِلُ» وَلَوْ كَانَ أَكْلًا حَقِيقِيًّا لَكَانَ مُنَافِيًا لِلصِّيَامِ.

وَالصَّحِيحُ: أَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى مَا كَانَ اللَّهُ يَفْتَحُهُ عَلَيْهِ فِي صِيَامِهِ وَخَلْوَتِهِ بِرَبِّهِ لِمُنَاجَاتِهِ وَذِكْرِهِ مِنْ مَوَارِدِ أُنْسِهِ، وَنَفَحَاتِ قُدْسِهِ. فَكَانَ يَرِدُ بِذَلِكَ عَلَى قَلْبِهِ مِنَ الْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْمِنَحِ الرَّبَّانِيَّةِ مَا يُغَذِّيهِ وَيُغْنِيهِ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ كَمَا قِيلَ:

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا ... عَنِ الطَّعَامِ وَتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ
لَهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ... وَقْتَ الْمَسِيرِ وَفِي أَعْقَابِهَا حَادِ
إِذَا شَكَتْ مِنْ كَلَالِ السَّيْرِ أَوْعَدَهَا ... رَوْحَ الْقُدُومِ فَتَحْيَا عِنْدَ مِيعَادِ

قِيلَ: شَبِعَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا لَيْلَةً فَنَامَ عَنْ وِرْدِهِ؛ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ «يَا يَحْيَى، هَلْ وَجَدْتَ دَارَ الدُّنْيَا خَيْرًا مِنْ دَارِي؟ هَلْ وَجَدْتَ جِوَارًا خَيْرًا مِنْ

جِوَارِي؟ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَى الْفِرْدَوْسِ اطِّلَاعَةً لَذَابَ جِسْمُكَ وَلَزَهِقَتْ نَفْسُكَ اشْتِيَاقًا، وَلَوِ اطَّلَعْتَ عَلَى جَهَنَّمَ اطِّلَاعَةً لَذَابَ جِسْمُكَ وَلَبَكَيْتَ الصَّدِيدَ بَعْدَ الدُّمُوعِ، وَلَبِسْتَ الْحَدِيدَ بَعْدَ الْمُسُوحِ».

وَرَوَى عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ ﷺ: «أَنَّهُ ﷺ مَرَّ بِشَاةٍ مَيِّتَةٍ أَلْقَاهَا أَهْلُهَا، فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا». وَكَانَ يَقُولُ فِي صِفَةِ الدُّنْيَا: «أَوَّلُهَا عَنَاءٌ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ. حَلَالُها حِسَابٌ، وَحَرَامُهَا عِقَابٌ، مَنِ اسْتَغْنَى فُتِنَ، وَمَنِ افْتَقَرَ إِلَيْهَا حَزِنَ، وَمَنْ سَعَى لَها فَاتَتْهُ، وَمَنْ نَأَى عنْهَا أَتَتْهُ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ، وَمَنْ بَصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ».

وَصَفَهَا بَعْضُ الْعُلَماءِ فَقَالَ: جَمَّةُ المَصَائِبِ. رَنْقَةُ الْمَشَارِبِ. لَا تَفِي لِصَاحِبٍ. فَقَدْ كَانَ سَلَفُ الْأُمَّةِ يَتْرُكُونَ الْحَلَالَ خَشْيَةَ الْحَرَامِ.

قَالَ بِشْرٌ الْحَافِيُّ: إِنِّي لَأَشْتَهِي شِوَاءً مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، مَا صَفَا لِي دِرْهَمُهُ.

وَقَالَ ابْنُ أُخْتِهِ: سَمِعْتُ بِشْرًا يَقُولُ لِأُمِّي: جَوْفِي وَجِعٌ وَخَوَاصِرِي تَضْطَرِبُ. فَقَالَتْ لَهُ: ائْذَنْ لِي حَتَّى أُصْلِحَ لَكَ قَلِيلَ حِسَاءٍ بِكَفِّ دَقِيقٍ تَتَحَسَّاهُ؟ فَقَالَ: وَيْحَكِ، أَخَافُ أَنْ يَقُولَ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الدَّقِيقُ؟ فَلَا أَدْرِي أَيُّ شَيْءٍ أَقُولُ لَهُ؟ فَبَكَتْ أُمِّي وَبَكَى مَعَهَا، وَبَكَيْتُ مَعَهُمْ. وَرَأَتْ أُمِّي لَيْلَةً مَا بِهِ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ وَجَعَلَ يَتَنَفَّسُ نَفَسًا ضَعِيفًا، فَقَالَتْ لَهُ أُمِّي: يَا أَخِي لَيْتَ أُمَّكَ لَمْ تَلِدْنِي، فَقَدْ وَاللَّهِ انْقَطَعَتْ كَبِدِي مِمَّا أَرَى بِكَ. فَقَالَ: وَأَنَا فَلَيْتَ أُمُّكِ لَمْ تَلِدْنِي وَإِذْ وَلَدَتْنِي لَمْ يَدِرَّ لَهَا ثَدْيٌ عَلَيَّ.

فَيَا هَذَا مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ هٰؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ؟ مَا كَانَ حَالُهُمْ هُنَا إِلَّا كَالْأَحْلَامِ، فَلِلَّهِ دَرُّهُمْ مِنْ أَقْوَامٍ أَزْعَجَهُمْ ذِكْرُ هَوْلِ الْمَقَامِ، فَأَذْهَلَهُمْ عَنِ الشَّرَابِ وَالطَّعَامِ وَخَافُوا مِنْ مُنَاقَشَةِ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الْأَقَارِبُ وَالْأَرْحَامُ، فَأَدَامُوا الصِّيَامَ، وَكَابَدُوا لَيْلَهُمْ فِي الْقِيَامِ، وَتَخَلَّوْا عَنِ الْحَرَامِ، وَجَانَبُوا الْمَعَاصِي وَالآثَامِ.

فَمَا بَالُكَ لَا تَحِنُّ إِلَى أَحْوَالِهِمْ، وَلَا تُحَرِّكُ غُصْنَ هِمَّتِكَ رِياحُ أَقْوَالِهِمْ، أَمَا الْمَآلُ إِلَى الْقِيَامَةِ، وَفِيهَا الْحَسَرَاتُ وَالنَّدَامَةُ؟

وَإِنَّ أَمَامَ النَّاسِ حَشْرًا وَمَوقِفًا ... وَيَوْمًا طَوِيلًا أَلْفَ عَامٍ أَوْ أَطْوَلُ
تَكُونُ بِهِ الْأَطْوادُ كالْعِهْنِ أَوْ تَكُنْ ... كَثِيبًا مَهِيلًا إِنْ أُهِيلَ تَهَلْهَلُ
فَيا لَكَ مِنْ يَوْمٍ عَلَى كُلِّ مُبْطِلٍ ... فَظِيعٌ، وَأَهْوَالُ الْقِيَامَةِ تَفْصِلُ
بِهِ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ تُقْبَلُ وَحْدَهَا ... وَمَا غَيْرُهَا مِنْ أَيِّ دِينٍ فَيُبْطَلُ
بِهِ يَسْأَلُونَ النَّاسَ: مَاذَا عَمِلْتُمْ ... وَمَا أَجَبْتُمْ مَنْ دَعَا وَهُوَ مُرْسَلُ؟
حِسَابُ الَّذِي يَنْقادُ عَرْضٌ مُخَفَّفٌ ... وَمَنْ لَيْسَ يَنْقَادُ الْحِسَابُ مُثَقَّلُ
وَمِنْ قَبْلِ ذَا، فَالْمَوْتُ يَأْتِيكَ بَغْتَةً ... وَهَيْهَاتَ لَا تَدْرِي مَتَى الْمَوْتُ يَنْزِلُ
كُئُوسُ الْمَنَايا سَوْفَ يَشْرَبُهَا الْوَرَى ... عَلَى الرَّغْمِ شُبَّانٌ وَشِيبٌ وَأَكْهُلُ
حَنَانَيْكَ بَادِرْهَا بِخَيْرٍ فَإِنَّمَا ... عَلَى آلَةِ الْحَدْبا سَرِيعًا سَتُحْمَلُ
إِذَا كُنْتَ قَدْ أَيْقَنْتَ بِالْمَوْتِ وَالْفَنَا ... وَبِالْبَعْثِ عَمَّا بَعْدَهُ كَيْفَ تَغْفُلُ؟
أَيَصْلُحُ إِهْمَالُ الْمَعَادِ لِمُنْصِفٍ ... وَيَنْسَى مَقَامَ الْحَشْرِ مَنْ كَانَ يَعْقِلُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ... أَبِنْ لِي فِي يَوْمِ الْجَزَا كَيْفَ تَفْعَلُ
أَتَرْضَى بِأَنْ تَأْتِي الْقِيَامَة مُفْلِسًا ... عَلَى ظَهْرِكَ الْأَوْزَارُ فِي الْحَشْرِ تُحْمَلُ؟

فصل

وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «رَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّها قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَها: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَه إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ».

فَهَذِهِ رِسَالَةٌ مِنْ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ، يَقْرَأُ عَلَيْنَا السَّلَامَ، وَيُخْبِرُنَا أَنَّ الْجَنَّةَ لِمَنْ أَرَادَ الْغَرْسَ فِيهَا.

فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ.

ولابْنِ مَاجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ مَرْفُوعًا: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، يُغْرَسُ لَهُ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ».

وَلِابْنِ أَبِي الدُّنْيا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ مَرْفُوعًا: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، بُنِيَ لَهُ بُرْجٌ فِي الْجَنَّةِ».

وَعَنْ الْحَسَنِ قَالَ: الْمَلَائِكَةُ يَعْمَلُونَ لِبَنِي آدَمَ فِي الْجَنَّةِ: يَغْرِسُونَ وَيَبْنُونَ، فَرُبَّما أَمْسَكُوا. فَيُقَالُ لَهُمْ: قَدْ أَمْسَكْتُمْ، فَيَقُولُونَ: حَتَّى تَأْتِينَا النَّفَقَاتُ. قَالَ الْحَسَنُ: فَأَتْعِبُوهُمْ - بِأَبِي أَنْتُمْ وَأُمِّي عَلَى الْعَمَلِ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: بَلَغَنِي أَنَّ دُورَ الْجَنَّةِ تُبْنَى بِالذِّكْرِ، فَإِذَا أَمْسَكَ عَنِ الذِّكْرِ أَمْسَكُوا عَنِ الْبِنَاءِ. فَيُقَالُ لَهُمْ، فَيَقُولُونَ: حَتَّى تَأْتِينَا نَفَقَةٌ.

أَرْضُ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ قِيعَانٌ، وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ لَها عُمْرَانٌ. بها تُبْنَى الْقُصُورُ وَتُغْرَسُ أَرْضُ الجِنَانِ. فَإِذَا تَكَامَلَ الْغِرَاسُ وَالْبُنْيَانُ انْتَقَلَ إِلَيْهِ السُّكَّانُ.

رَأَى بَعْضُ الصَّالِحِينَ فِي مَنَامِهِ قَائِلًا يَقُولُ لَهُ: قَدْ أُمِرْنا بِالفَرَاغِ مِنْ بِناءِ دَارِكَ وَاسْمُهَا دَارُ السُّرُورِ، فَأَبْشِرْ، وَقَدْ أُمِرْنَا بِتَنْجِيدِهَا وَتَزْيِينِهَا وَالْفَرَاغِ مِنْهَا إِلَى سَبْعَةِ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ مَاتَ. فَرُؤِيَ فِي الْمَنَامِ فَقَالَ: أُدْخِلْتُ دَارَ السُّرُورِ، فَلَا تَسْأَلْ عَمَّا فِيهَا، لَمْ يُرَ مِثْلُ الْكَرِيمِ إِذَا حَلَّ بِهِ مُطِيعٌ.

رَأَى بَعْضُهُمْ كَأَنَّهُ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ وَعُرِضَ عَلَيْهِ مَنَازِلُهُ وَأَزْوَاجُهُ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ تَعَلَّقَ بِهِ أَزْوَاجُهُ وَقَالُوا: تاللَّهِ حَسِّنْ عَمَلَكَ، فَكُلَّمَا حَسَّنْتَ عَمَلَكَ ازْدَدْنا نَحْنُ حُسْنًا.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ؛ وَمَنْ قَدَّمَ شَيْئًا قَدِمَ عَلَيْهِ، وَكُلُّ زَارِعٍ سَيَحْصُدُ مَا زَرَعَ. إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، فَمَنْ كَانَتْ هِمَّتُهُ الآخِرَةَ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ، فَهِمَّتُهُ عَلِيَّةٌ، إِذْ هُوَ يَطْلُبُ النَّعِيمَ الْبَاقِيَ، وَيَزْهَدُ بِالْحَقِيرِ الْفَانِي.

قالَ الْفضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَوْ كَانَتِ الدُّنْيا ذَهَبًا يَفْنَى والآخِرَةُ خَزَفًا يَبْقَى، لَكانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نُؤْثِرَ خَزَفًا يَبْقَى عَلَى ذَهَبٍ يَفْنَى، فَكَيْفَ وَالدُّنْيا خَزَفٌ يَفْنَى وَالآخِرَةُ ذَهَبٌ يَبْقَى؟

وَأَعْلَى هِمَّةً مِنْ ذَلِكَ مَنْ كَانَ يَعْمَلُ وَيَجْتَهِدُ شَوْقًا إِلَى اللَّهِ وَحُبًّا لَهُ، كَمَا قَالَتْ رَابعَةُ الْعَدَوِيَّةُ: مَا عَبَدْتُهُ خَوْفًا مِنْ نارِهِ، وَلَا حُبًّا لِجَنَّتِهِ، فَأَكُونَ كَأَسِيرِ السُّوءِ، بَلْ عَبَدْتُهُ حُبًّا لَهُ وَشَوْقًا إِلَيْهِ.

قَالَ يُوسُفُ بْنُ الْحُسَيْنِ: كُنْتُ قَاعِدًا بَيْنَ يَدَيْ ذِي النُّونِ، وَحَوْلَهُ ناسٌ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ وَالنَّاسُ يَبْكُونَ، وَشَابٌّ يَضْحَكُ. فَقَالَ لَهُ ذُو النُّون: مَا لَكَ أَيُّهَا الشَّابُّ، النَّاسُ يَبْكُونَ وَأَنْتَ تَضْحَكُ؟ فَأَنْشَدَ يَقُولُ:

كُلُّهُمْ يَبْكُونَ مِنْ خَوْفِ نَارٍ ... وَيَرَوْنَ النَّجَاةَ حَظًّا جَزِيلَا
أَوْ بِأَنْ يَسْكُنُوا الْجِنَانَ فَيَحْظَوْا ... بِرِيَاضٍ عُيُونُهَا سَلْسَبِيلَا
لَيْسَ لِي فِي الْجِنَانِ وَالنَّارِ رَأْيٌ ... أَنَا لَا أَبْتَغِي بِحِبِّي بَدِيلَا

قِيلَ لَهُ: فَإِنْ طَرَدَكَ، فَمَا تَقُولُ؟ فَأَنْشَدَ:

فَإِذَا لَمْ أَجِدْ مِنَ الْحِبِّ وَصْلًا ... تَبَوَّأْتُ فِي النَّارِ مَنْزِلًا وَمَقِيلَا
ثُمَّ أَزْعَجْتُ أَهْلَهَا بِبُكَائِي ... بُكْرَةً فِي عِرَاصِهَا وَأَصِيلَا
مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، نُوحُوا لِأَجْلِي ... أَنَا عَبْدٌ أَحْبَبْتُ مَوْلًى جَلِيلَا
لَمْ أَكُنْ بِالَّذِي ادَّعَيْتُ مُحِقًّا ... فَجَزَانِي بِهِ الْعَذَابَ الطَّوِيلَا

إِخْوَانِي، هَذَا شَهْرُ رَمَضَانَ، شَهْرُ الْعِتْقِ مِنَ النِّيرَانِ، لَقَدْ كَانَ مَوْسِمًا لِمُضَاعَفَةِ الْأَعْمَالِ وَالْغُفْرَان، وَمُنَبِّهًا لِذَوِي الْغَفَلاتِ وَالنِّسْيَانِ، وَمَخْصُوصًا لِفَضِيلَةِ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَقْتَ إِفَاضَاتِ الْكَرَمِ مِنَ الْمَوْلَى وَالْإِحْسَانِ، وَقَدْ دَنا مِنْهُ

الارْتِحَالُ، وَبَقِيَ مِنْهُ الْقَلِيلُ. وَدَنَا مِنْهُ الانْتِقَالُ، بَقِيَ مِنْهُ خَمْسُ لَيَالٍ، وَقَدْ فَازَ الْمُجْتَهِدُونَ بِالنَّوَالِ:

شَهْرَ الصِّيَامِ لَقَدْ كَرُمْتَ نَزِيلَا ... وَنَوَيْتَ مِنْ بَعْدِ الْمُقَامِ رَحِيلَا

وَأَقَمْتَ فِينَا نَاصِحًا وَمُؤَدِّبًا ... وَشَفَيْتَ مِنَّا بِالْفُؤَادِ غَلِيلَا

نَبْكِيكَ يَا شَهْرَ الصِّيَامِ بِأَدْمُعٍ ... تَجْرِي فَتَحْكِي فِي الْخُدُودِ سُيُولَا

أَسَفًا عَلَى الْأُنْسِ الَّذِي عَوَّدْتَنَا ... وَصَنِيعِ فِعْلٍ لَا يَزَالُ جَمِيلَا

شَهْرُ الْأَمَانَةِ وَالصِّيَانَةِ وَالتُّقَى ... وَالْفَوْزِ فِيهِ لِمَنْ أَرَادَ قَبُولَا

تَبْكِي الْمَسَاجِدُ حَسْرَةً وَتَأَسُّفًا ... إِذْ عُطِّلَتْ مِنْ أُنْسِهِ تَعْطِيلَا

فِيهِ الْجِنَانُ تَفَتَّحَتْ لِقُدُومِهِ ... وَتَزَيَّنَتْ وِلْدَانُهَا تَحْفِيلَا

وَتَفَيَّأَتْ أَشْجَارُهَا بِظِلَالِهَا ... وَقُطُوفُهَا قَدْ ذُلِّلَتْ تَذْلِيلَا

وَالْحُورُ لِلصُّوَّامِ يَشْتَقْنَ اللِّقَا ... وَالْوَصْلَ وَالتَّقْرِيبَ وَالتَّعْجِيلَا

وَالنَّارُ يُغْلَقُ بَابُهَا مِنْ أَجْلِهِ ... إِذْ زَادَهُ رَبُّ الْعُلَا تَبْجِيلَا

وَالْمَارِدُ الشَّيْطَانُ فِيهِ قَدْ غَدَا ... عَنْ صَائِمِيهِ مُصَفَّدًا مَغْلُولَا

طُوبَى لِمَنْ قَدْ صَحَّ فِيهِ صِيَامُهُ ... وَدَعَا الْمُهَيْمِنَ بُكْرَةً وَأَصِيلَا

وَبِلَيْلِهِ قَدْ قَامَ يَخْتِمُ وِرْدَهُ ... مُتَبَتِّلًا لِإِلٰهِهِ تَبْتِيلَا

يَرْتَاحُ فِيهِ إِلَى الْخِطَابِ وَقَدْ غَدَا ... يَتْلُو الْكِتَابَ مُرَتِّلًا تَرْتِيلَا

يَبْكِي لِفُرْقَةِ شَهْرِهِ أَسَفًا عَلَى ... تَقْصِيرِهِ إِذْ لَمْ يَنَلْ تَحْصِيلَا

شَهْرٌ يَفُوقُ عَلَى الشُّهُورِ بِلَيْلَةٍ ... عَنْ أَلْفِ شَهْرٍ فُضِّلَتْ تَفْضِيلَا

هِيَ لَيْلَةٌ مُسْتَغْنَمٌ أَوْقَاتُهَا ... وَتَنَزَّلَتْ أَمْلَاكُهَا تَنْزِيلَا

يَا فَوْزَ عَبْدٍ قَدْ رَآهَا مَرَّةً ... فِي عُمْرِهِ إِذْ أَدْرَكَ الْمَأْمُولَا

مَنْ قَامَهَا يُغْفَرْ لَهُ مَا قَدْ مَضَى ... مِنْ ذَنْبِهِ وَيَنَالُ فِيهَا السُّولَا

فَاجْهَدْ عَسَاكَ تَنَالُهَا فِيمَا بَقِي ... بِالْجِدِّ، وَاحْذَرْ أَنْ تَكُونَ غَفُولَا

وَاسْأَلْ إِلٰهَكَ بِرَّهُ وَنَوَالَهُ ... يُعْطِيكَ فَضْلًا مِنْ لَدُنْهُ جَزِيلَا

اللّٰهُمَّ يَا مُنَوِّرَ قُلُوبَ الْعَارِفِينَ، يَا قَاضِيَ حَوَائِجَ السَّائِلِينَ، يَا قَابِلَ تَوْبَةَ

التَّائِبِينَ، وَيَا مُفرِّجَ كَرْبَ الْمَكْرُوبِينَ، نَسْأَلُكَ أَنْ تَقْبَلَ دَعَوَاتِنَا، وَتَرْفَعَ دَرَجَاتِنَا، وَتُقِيلَ عَثَرَاتِنَا، وَتُغِيثَ لَهفاتِنا، وَتَسْتُرَ ذُنُوبَنا، وَتُجَاوِزَ عَنْ سَيِّئَاتِنا.

اللَّهُمَّ وَفِّقْنا تَوْفِيقًا يَقِينا عَنْ مَعَاصِيكَ، وَأَرْشِدْنَا بِرُشْدِكَ حَتَّى تُقِيمَنَا عَلَى مَا يُرْضِيكَ. وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ تَوَكَّلَ عَلَيْكَ فَكَفَيْتَهُ، وَاسْتَهْدَاكَ فَهَدَيْتَهُ، وَاجْعَلْنَا مِنْ أَئِمَّةِ الْمُتَّقِينَ، وَمِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، إِنَّكَ جَوَّادٌ كَرِيمٌ، رَءُوفٌ رَحِيمٌ.

وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْفَصْلُ السَّادِسُ

وَفِيهِ فَصْلٌ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي حَيَّرَ أَلْبَابَ الْعُقُولِ بِالذُّهُولِ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى تَحْقِيقِ تَدْقِيقِ مَعْرِفَتِهِ.

السَّمِيعِ الَّذِي يَسْمَعُ أَنِينَ الْجَنِينِ تَحْتَ غِشَاءِ الْحَشَا وَأَغْطِيَتِهِ.

الْبَصِيرِ الَّذِي يُبْصِرُ دَبِيبَ النَّمْلِ عَلَى الصَّخْرِ إِذَا أَخْفَى اللَّيلُ سَوَادَ ظُلْمَتِهِ.

الْعَلِيمُ بِمَا يُخْفِيهِ الْعَبْدُ فِي سَرِيرَتِهِ.

الْجَبَّارُ الَّذِي خَضَعَ كُلُّ مُتَجَبِّرٍ لِعَظِيمِ هَيْبَتِهِ.

الْقَهَّارُ الَّذِي قَهَرَ كُلَّ مُتَكَبِّرٍ سُلْطَانَ سَطْوَتِهِ، تُقَدِّسُهُ الْكَائِنَاتُ، وَتُمَجِّدُهُ جَمِيعُ الْمَخْلُوقاتِ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ.

فَسُبْحَانَ مَنْ كَوَّنَ الْأَكْوَانَ، وَدَبَّرَ الْأَزْمَانَ، وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ، وَعَلَّمَهُ الْبَيَانَ، وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ؛ فَقَالَ فِي تَنْزِيلِهِ عَلَى سَيِّدِ الْأَكْوَانِ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلٰهٍ قَدَّرَ الْكُفْرَ وَالْإِيمَانَ، وَالطَّاعَةَ وَالْعِصْيَانَ، لَا يَمُرُّ عَلَيْهِ النِّسْيَانُ، وَلَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً تَنْفَعُ قَائِلَها يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ قَالُوا بِالصِّدْقِ وَبِهِ يَعْمَلُونَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي - أَوْ دَعَا - اسْتُجِيبَ لَهُ؛ فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ».

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الدُّعَاءَ وَالذِّكْرَ شَامِلٌ كُلَّ قِيَامٍ؛ فَهُوَ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي أَحْرَى وَأَوْلَى، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ أَمَرَ بِالِاجْتِهَادِ فِيهَا، وَأَمَرَ بِالْتِمَاسِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِيهَا.

فَرَوَى الْبُخَارِيُّ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُجَاوِرُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، وَيَقُولُ: تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ».

وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُوقِظ أَهْلَهُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، وَكُلَّ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ يُطِيقُ الصَّلَاةَ».

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «أَحَبُّ إِلَيَّ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ الْأَوَاخِرُ أَنْ يَتَهَجَّدَ فِي اللَّيْلِ، وَيُجْتَهَدَ فِيهِ، وَيُنْهِضَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ إِلَى الصَّلَاةِ، إِنْ أَطَاقُوا ذَلِكَ».

وَصَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّهُ كَانَ يَطْرُقُ فَاطِمَةَ وَعَلِيًا لَيْلًا، وَيَقُولُ لَهُمَا: أَلَا تَقُومَانِ فَتُصَلِّيَانِ؟».

«كان عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَدْ أَمَرَ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ وَتَمِيمًا الدَّارِيَّ: أَنْ يَقُومَا بِالنَّاسِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ؛ فَكَانَ الْقَارِئُ يَقْرَأُ بِالْمِائَتَيْنِ فِي رَكْعَةٍ، حَتَّى كَانُوا يَعْتَمِدُونَ عَلَى الْعِصِيِّ مِنْ طُولِ الْقِيَامِ، وَمَا كَانُوا يَنْصَرِفُونَ إِلَّا عِنْدَ الْفَجْرِ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «أَنَّهُمْ كَانُوا يَرْبِطُونَ الْحِبَالَ بَيْنَ السَّوَارِي، ثُمَّ يَتَعَلَّقُونَ بِهَا».

وَرُوِيَ: «أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه جَمَعَ ثَلَاثَةَ قُرَّاءٍ؛ فَأَمَرَ أَسْرَعَهُمْ قِرَاءَةً أَنْ يَقْرَأَ بِالنَّاسِ ثَلَاثِينَ آيَةً، وَأَوْسَطَهُمْ بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ، وَأَبْطَأَهُمْ بِعِشْرِينَ، ثُمَّ كَانَ فِي زَمَنِ التَّابِعِينَ يَقْرَأُونَ بِالْبَقْرَةِ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ، فِي ثَمَانِ رَكْعَاتٍ، فَإِنْ قَرَأَ بِهَا فِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً رَأَوْا أَنَّهُ قَدْ خَفَّفَ».

وَلَمَّا سُئِلَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَمَّا رُوِيَ عَنْ عُمَرَ: فِي السَّرِيعِ وَالْبَطِيءِ؟ فَقَالَ: فِي هَذَا مَشَقَّةٌ عَلَى النَّاسِ، وَلَا سِيَّمَا فِي هَذِهِ اللَّيَالِي الْقِصَارِ. وَإِنَّمَا الْأَمْرُ عَلَى مَا يَتَحَمَّلُهُ النَّاسُ.

وَقَالَ أَحْمَدُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ وَكَانَ يُصَلِّي فِي رَمَضَانَ: هٰؤُلَاءِ قَوْمٌ ضَعْفَى، اقْرَأْ خَمْسًا، سِتًّا، سَبْعًا. قَالَ: فَقَرَأْتُ فَخَتَمْتُ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ.

وَكَلَامُ أَحْمَدَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يُرَاعَى فِي الْقِرَاءَةِ حَالُ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ.

وَأَمَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَزِيدَ فِي الْقِرَاءَةِ وَيُطِيلَ، وَهُوَ يُصَلِّي لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ، كَمَا قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ.

وَكَذَلِكَ مَنْ صَلَّى بِجَمَاعَةٍ يَرْضَوْنَ بِصلاتِهِ. فَقَدْ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَخْتِمُ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ فِي كُلِّ ثَلَاثِ لَيَالٍ.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْجَمَاعَةُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ».

فَيَا مَنْ يُبَارِزُ بِالْعِصْيَانِ، وَلَمْ يَسْتَحِ مِنْ رَقِيبِهِ، وَقَدْ دَنَا فِرَاقُ شَهْرِ رَمَضَانَ وَمَا فَازَ بِمُصَالَحَةِ حَبِيبِهِ، وَقَدْ هَبَّ نَسِيمُ الْقَبُولِ وَمَا نَشَقَ عَرْفَ طِيبِهِ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الْمَلِكِ الْمَنَّانِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ؟ وَاخْتِصَاصِهِ لِلصِّيَامِ وَحَثِّهِ عَلَيْهِ وَتَرْغِيبِهِ؟ «الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ».

مَنْ كَانَ يَشْكُو عِظَمَ دَاءِ ذُنُوبِهِ ... فَلْيَأْتِ مِنْ رَمَضَانَ بابَ طَبِيبِهِ
وَيَفُوزُ مَنْ عَرَفَ الصِّيَامَ بِطِيبِهِ ... أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ فِي تَرْغِيبِهِ
الصَّوْمُ لِي وَأَنا الَّذِي أُجْزِي بِهِ

يَا صَائِمِي رَمَضَانَ فُوزُوا بِالْمُنَى ... وَتَحَقَّقُوا نَيْلَ السَّعَادَةِ وَالْغِنَى
وَثِقُوا بِوَعْدِ اللَّهِ إِذْ فِيهِ الْهَنَا ... أَوَلَيْسَ هَذَا الْقَوْلُ قَوْلَ إِلٰهِنَا
الصَّوْمُ لِي وأَنا الَّذِي أُجْزِي بِهِ

منْ صَامَ نالَ الْفَوْزَ مِنْ رَبِّ الْعُلَا ... وَبِوَجْهِهِ أَضْحَى عَلَيْهِ مُقْبِلَا
يَا مَنْ يَرُومُ تَوَسُّلًا وَتَوَصُّلًا ... صُمْ رَغْبَةً فِي قَوْلِ رَبِّ الْعُلَا
الصُّوْمُ لِي وَأَنَا الَّذِي أُجْزِي بِهِ

يَا فَوْزَ مَنْ لِلصَّوْمِ قَامَ بِحَقِّهِ ... وَأَتَى بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ وَصِدْقِهِ
وَمِنَ الْجَحِيمِ نَجَا وَفَازَ بِعِتْقِهِ ... فاللَّهُ قَالَ عَنِ الصِّيَامِ لِخَلْقِهِ
الصَّوْمُ لِي وَأَنَا الَّذِي أُجْزِي بِهِ

إِخْوَانِي: مَا أَحْسَنَ حَالَ مَنْ خَلَعَ عَلَيْهِ مَوْلَاهُ خِلَعَ الْقَبُولِ، وَمَا أَنْعَمَ بَالَ مَنْ بَلَّغَهُ الْمَقْصُودَ وَالْمَسْئُولَ. وَمَا أَشْقَى مَنْ رَدَّ عَلَيْهِ صِيَامَهُ، وَأَحْصَى

عَلَيْهِ قَبِيحَهُ وَآثَامَهُ، وَمَضَتْ فِي الْبِطَالَةِ شُهُورُهُ وَأَعْوَامُهُ، وَآثَرَ شَهْوَةَ نَفْسِهِ عَلَى خِدْمَةِ رَبِّهِ، إِلَى أَنْ ذَهَبَتْ سَاعَاتُهُ وَأَيَّامُهُ.

إِخْوَانِي: أَمَا آنَ لِذِي السَّفَرِ أَنْ يُعِدَّ لَهُ مِنْ صَالِحِ الزَّادِ؟ أَمَا آنَ لِذِي الْمَعَاصِي أَنْ يَتُوبَ قَبْلَ الْمَعَادِ؟

وَيْحَكَ، مَا يَنْفَعُكَ غَدًا أَهْلٌ وَلَا أَوْلَادٌ؛ فَإِلَى مَتَى هَذِهِ الْغَفْلَةُ وَهَذَا الرُّقَادُ؟

قَالَ خَلِيلٌ الْمِصْرِيُّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ: كُلُّنَا قَدْ أَيْقَنَّا بِالْمَوْتِ، وَمَا نَرَى لَهُ مُسْتَعِدًّا، وَكُلُّنَا قَدْ أَيْقَنَ بِالْجَنَّةِ، وَمَا نَرَى لَها عَامِلًا، وَكُلُّنَا قَدْ أَيْقَنَ بِالنَّارِ، وَمَا نَرَى لَهَا خَائِفًا؛ فَعَلَامَ تُعَرِّجُونَ، وَمَا عَسَيْتُمْ تَنْتَظِرُونَ؟ الْمَوْتُ أَوَّلُ وَارِدٍ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِمَّا بِخَيْرٍ أَوْ بِشَرٍّ؛ فَيَا إِخْوَتَاهُ، سِيرُوا إِلَى رَبِّكُمْ سَيْرًا جَمِيلًا.

يَا هَذَا، إِلَى كَمْ تَضْحَكُ وَنَوَادِبُ الْحِمَامِ تَبْكِي عَلَيْكَ أَسَفًا، غَيْرُكَ يَا مَحْرُومُ عَلَى الْجَادَّةِ وَأَنْتَ مِنَ الْبِعَادِ عَلَى شَفًا، سَتَبْكِي زَمَانَ الْوِصَالِ وَمَا صَفَا.

أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تُصَالِحَ مَوْلَاكَ أَمَا كَفَى؟ تَحْضُرُ الْمَسَاجِدَ بِجِسْمِكَ وَقَلْبُكَ عَنِ الْحُضُورِ غَائِبٌ.

وَيْحَكَ تَمْلأُ بَطْنَكَ مِنَ الْحَرَامِ وَتَطْلُبُ مِنَ الْوَهَّابِ الْمَوَاهِبَ، وَهَذَا بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ وَالْبَوَّابُ يُنَادِي: «هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟».

فَبَادِرْ قَبْلَ أَنْ يُغْلَقَ الْبَابُ، وَتُرِيدُ رَدَّ الْجَوَابِ فَلَا تُجَابُ.

قِيلَ: مَكَثَ بِشْرٌ الْحَافِيُّ خَمْسِينَ سَنَةً يَشْتَهِي هَرِيسَةً؛ فَفُتِحَ عَلَيْهِ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ بِدِرْهَمٍ، فَمَضَى إِلَى السُّوقِ لِيَشْتَرِيَ بِهَا. فَسَمِعَ الْهَرَّاسَ يُنَادِي: مَاذَا خُبِّئَ لِلصُّوَّامِ؟ فَرَجَعَ باكِيًا وَلَمْ يَشْتَرِ شَيْئًا. فَبَقِيَ مُدَّةً تُطَالِبُهُ نَفْسُهُ بِهَا؛

فَخَرَجَ إِلَى السُّوقِ ثانِيًا لِيَشْتَرِيَ بِهَا، وَإِذَا الْهَرَّاسُ يُنادِي: بَقِيَ الْقَلِيلُ. فَبَكَى وَرَجَعَ، وَعَاهَدَ اللَّهَ أَلَّا يَذُوقَهَا.

وَقَالَ صَالِحُ الْمُرِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: كَانَ عَطَاءٌ السُّلَمِيُّ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ قَدِ اجْتَهَدَ حَتَّى انْقَطَعَ؛ فَقُلْتُ لَهُ يَوْمًا: إِنِّي مُكْرِمُكَ بِكَرَامَةٍ، فَلَا تَرُدَّ كَرَامَتِي؛ فَبَعَثْتُ إِلَيْهِ بِشَرْبَةٍ مِنْ سَوِيقٍ مَعَ وَلَدِي، فَقُلْتُ لَهُ: لَا تَبْرَحْ حَتى يَشْرَبَهَا. فَجَاءَ فَقَالَ: قَدْ شَرِبَها: فَبَعَثْتُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي بِمِثْلِهَا. فَجَاءَ فَقَالَ: مَا شَرِبَها فَأَتَيْتُهُ فَلُمْتُهُ، وَقُلْتُ: رَدَدْتَ عَلَيَّ كَرَامَتِي، وَهَذَا يُقَوِّيكَ عَلَى الْعِبَادَةِ، فَقَالَ: يَا صَالِحُ، لَقَدْ شَرِبْتُهَا أَوَّلَ يَوْمٍ، وَاجْتَهَدْتُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي فَلَمْ أَقْدِرْ، كُلَّمَا هَمَمْتُ بِشُرْبِها ذَكَرْتُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ قَالَ: فَقُلْتُ: أنا فِي وَادٍ وَأَنْتَ فِي وَادٍ.

فَلِلَّهِ دَرُّ تِلْكَ الْقُلُوبِ الطَّاهِرَةِ، وَأَنْوَارُهَا فِي ظَلَامِ الدُّجَى ظَاهِرَةٌ، رَفَضَتْ حِلْيَةَ الدُّنْيا وَإِنْ كانَتْ فَاخِرَةً، وَبَاتَتْ عُيُونُها - وَالنَّاسُ نِيَامٌ - سَاهِرَةً، يَندُبُونَ عَلَى الذُّنُوبِ وَإِنْ كَانَتْ نَادِرَةً. كَمْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ يَا بَائِعَ الْآخِرَةِ؟ شَيْبٌ وَعَيْبٌ أَمْثَالٌ سَائِرَةٌ، أَمَلٌ مَعَ هَرَمٍ هَذِهِ نَادِرَةٌ.

فَلِلَّهِ دَرُّ نُفُوسٍ تَرَكَتِ الْحَاضِرَةَ، وَاسْتَعَدَّتْ لِأَفْزَاعِ الْآخِرَةِ؛ فَتَرَكَتِ الشَّهَوَاتِ وَهِيَ عَلَيْهَا قَادِرَةٌ.

فَيَا إِخْوَانِي، اغْتَنِمُوا زَمَنَ الْأَرْبَاحِ، فَأَيَّامُ الْمَوَاسِمِ مَعْدُودَةٌ. وَانْتَهِزُوا الْفُرْصَةَ، فَأَوْقَاتُ الْفَضَائِلِ مَشْهُودَةٌ.

هَذَا شَهْرُ رَمَضَانَ لَا قِيمَةَ لَهُ فَيُبَاعُ، وَلَا يُسْتَدْرَكُ مِنْهُ مَا ضَاعَ.

فاللَّهَ اللَّهَ فِي الاجْتِهَادِ قَبْلَ غَلْقِ الْبَابِ، وَالنُّهُوضِ إِلَى الْأَسْبَابِ قَبْلَ طَيِّ الْكِتَابِ.

فَهَذَا شَهْرُ عِمَارَةِ الْمِحْرَابِ. هَذَا شَهْرُ تِلَاوَةِ الْكِتَابِ، وَوُقُوفِ الْمُتَّقِينَ عَلَى الْبَابِ، وَإِفَاضَةِ الْمَوْلَى عَلَى الْعَامِلِينَ جَزِيلَ الثَّوَابِ.

هَذَا شَهْرٌ تُمْلَأُ فِيهِ الْمَسَاجِدُ، وَيَخْشَعُ فِيهِ الرَّاكِعُ وَالسَّاجِدُ، وَيَنْهَضُ إِلَى الْخَيْرَاتِ كُلُّ قَاعِدٍ. فَجِدُّوا فِي بَقِيَّتِه وَاجْتَهِدُوا، فَإِنَّهُ عَلَيْكُمْ شَاهِدٌ.

غَدًا تُوَفَّى النُّفُوسُ مَا كَسَبَتْ ... وَيَحْصُدُ الزَّارِعُونَ مَا زَرَعُوا

إِنْ أَحْسَنُوا أَحْسَنُوا لِأَنْفُسِهِمْ ... وَإِنْ أَسَاءُوا فَبِئْسَ مَا صَنَعُوا

يَا هَذَا، إِنَّما أَنْتَ ضَيْفٌ أَصْبَحْتَ فِي مَنْزِلِكَ، وَمَا فِي يَدَيْكَ وَدِيعَةٌ عِنْدَكَ، يُوشِكُ لِلضَّيْفِ أَنْ يَرْتَحِلَ، وَلِلْوَدِيعَةِ أَنْ تُرَدَّ.

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ كَانَتْ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي مَطَايَاهُ، سَارَتْ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَسِرْ:

نَسِيرُ إِلَى الْآجَالِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ... وَأَيَّامُنَا تُطْوَى وَهُنَّ مَرَاحِلُ

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الْمَوْتِ حَقًّا كَأَنَّهُ ... إِذَا مَا تَخَطَّتْهُ الْأَمَانِيُّ بَاطِلُ

وَمَا أَقْبَحَ التَّفْرِيطَ فِي زَمَنِ الصِّبَا ... فَكَيْفَ بِهِ وَالشَّيْبُ لِلرَّأْسِ شَاعِلُ

تَرَحَّلْ مِنَ الدُّنْيَا بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ... فَعُمْرُكَ أَيَّامٌ وَهُنَّ قَلَائِلُ

إِخْوَانِي: أَهْلُ الْقُبُورِ قَدْ أُسِرُوا، وأَكْثَرُ الْقَوْمِ فِي تِجَارَتِهِمْ قَدْ خَسِرُوا، مُرُّوا عَلَى الْقَوْمِ وَاعْتَبِرُوا، وَتَفَكَّرُوا فِي أَحْوَالِهِمْ وَانْتَظِرُوا، يَتَمَنَّوْنَ الْعَودَ وَهَيْهَاتَ، وَيَسْأَلُونَ الْبِدَارَ وَقَدْ فَاتَ.

فَيَا مُطْلَقًا اذْكُرْ قُيُودَهُمْ، وَيَا مُتَحَرِّكًا قَدْ عَرَفْتَ هُمُودَهُمْ، خَلِّصْ نَفْسَكَ مِنْ أَسْرِ الذُّنُوبِ، وَتَأَهَّبْ فَإِنَّكَ مَطْلُوبٌ، وَتَذَكَّرْ بِقَلْبِكَ يَوْمَ تُقَلَّبُ الْقُلُوبُ، قَبْلَ أَنْ يُمْسَكَ اللِّسَانُ، وَيَتَحَيَّرَ الْإِنْسَانُ وَيَزُولَ الْعِرْفَانُ، وَتُنْشَرَ الْأَكْفَانُ، وَتُفَارِقَ الْإِخْوَانَ، وَتُنْقَلَ إِلَى الْأَمْوَاتِ، وَتُصَفَّ عَلَيْكَ اللَّبِنَاتُ.

فَيَا هَذَا، تَأَهَّبْ لِسُؤَالِ مِنْكَرٍ وَنَكِيرٍ، فَهُنَاكَ يَقْوَى الشَّهِيقُ وَالزَّفِيرُ، وَيَبْقَى الْعَبْدُ مَرْهُونًا هُنَاكَ أَسِيرًا، إِلَى أَنْ يَقُومَ عُرْيَانًا حَسِيرًا؛ فَحِينَئِذٍ تَنْتَثِرُ الْكَوَاكِبُ وَتَنْتَشِرُ الْمَصَائِبُ، وَتَنْسَدُّ الْمَذَاهِبُ، وَتَبِينُ الْعَجَائِبُ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

قَالَ بَعْضُهُمْ وَأفادَ:

مَثِّلْ لِقَلْبِكَ أَيُّها الْمَغْرُورُ ... يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَمُورُ
قَدْ كُوِّرَتْ شَمْسُ النَّهَارِ وَأَضْعَفَتْ ... حَرًّا عَلَى رَأْسِ الْعِبَادِ تَفُورُ
وإِذَا الْجِبَالُ تَقَلَّعَتْ بِأُصُولِها ... فَرَأَيْتَها مِثْلَ السَّحَابِ تَسِيرُ
وَإِذَا الْعِشَارُ تَعَطَّلَتْ عَنْ أَهْلِهَا ... خَلَتِ الدِّيارُ فَمَا بِهَا مَغْرُورُ
وَإِذَا النُّجُومُ تَسَاقَطَتْ وَتَنَاثَرَتْ ... وَتَبَدَّلَتْ بَعْدَ الضِّيَاءِ كُدُورُ
وإِذَا الْوُحُوشُ لَدَى الْقِيَامَةِ أُحْضِرَتْ ... وَتَقُولُ لِلْأَمْلَاكِ: أَيْنَ نَسِيرُ؟
فَيُقَالُ: سِيرُوا تَشْهَدُونَ فَضَائِحًا ... وَعَجَائِبًا قَدْ أُحْضِرَتْ وَأُمُورُ
وَإِذَا الْجَنِينُ بِأُمِّهِ مُتَعَلِّقٌ ... خَوْفَ الْحِسَابِ، وَقَلْبُهُ مَذْعُورُ
هَـذَا بِلَا ذَنْبٍ يَخَافُ لِهَوْلِهِ ... كَيْفَ الْمُقِيمُ عَلَى الذُّنُوبِ دُهُورُ؟

فَصْلٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

فِي هَذَا مَدْحٌ لِأَهْلِ التَّهَجُّدِ وَفِي فَضْلِهِ؛ فَمِنْ فَضَائِلِهِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ أَهْلَهُ، وَيُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ، وَيَسْتَجِيبُ دُعَاءَهُمْ.

وَمِنْ فَضَائِلِ التَّهَجُّدِ: مُواطَأَةُ الْقَلْبِ لِلِّسَانِ، وَفِي اللَّيْلِ سَاعَةُ الْإِجَابَةِ، وَنُزُولُ الرَّبِّ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا.

فَيَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا الْعَبْدُ: أَنْ يَكُونَ لَكَ بِاللَّيْلِ حَظٌّ مِنَ التَّهَجُّدِ لَا سِيَّمَا فِي هَذِهِ اللَّيَالِي الْعَظِيمَةِ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ».

وَرَوَى ابْنُ مَاجه وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ ﷺ قَالَ: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْلَمَ مَعَكَ؟ قَالَ: حُرٌّ وَعَبْدٌ، قُلْتُ: هَلْ مِنْ سَاعَةٍ أَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُخْرَى؟ قَالَ: نَعَمْ! جَوْفُ اللَّيْلِ الْأَوْسَطُ».

وَهَذَا التَّرْغِيبُ فِي هَذَا الْوَقْتِ فِي اللَّيَالِي الَّتِي تُرْجَى فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ أَوْلَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾.

فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُرَاعِيَ هَذَا الْفَضْلَ مُدَّةَ عُمْرِهِ، بَلْ يَنْفُلُ عَلَيْهِ هَذِهِ اللَّيَالِيَ الْمُبَارَكَةَ الشَّرِيفَةَ، الَّتِي أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ قَطْعًا أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِيهَا كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي النُّقُولِ الصَّحِيحَةِ كَمَا قَدَّمْنَا، وَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْتَمِسُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى، فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى، فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى».

وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ: «هِيَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فِي سَبْعٍ يَمْضِينَ، أَوْ سَبْعٍ يَبْقِينَ».

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ قَالَ: «مَا أَنَا بِمُلْتَمِسِهَا - لِشَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - إِلَّا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: الْتَمِسُوهَا فِي تِسْعٍ يَبْقِينَ، أَوْ سَبْعٍ يَبْقِينَ، أَوْ خَمْسٍ يَبْقِينَ، أَوْ ثَلَاثٍ يَبْقِينَ، أَوْ آخِرِ لَيْلَةٍ».

وَكَانَ أَبُو بَكْرَةَ يُصَلِّي فِي الْعِشْرِينَ الْأُوَلِ مِنْ رَمَضَانَ كَصَلَاتِهِ فِي سَائِرِ السَّنَةِ؛ فَإِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ الْأَوَاخِرُ اجْتَهَدَ.

وَفِي الْمُسْنَدِ وَكِتَابِ النَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: «كُنْتُ أَسْأَلُ النَّاسَ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ؛ فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْهَا: أَفِي رَمَضَانَ هِيَ، أَمْ فِي غَيْرِهِ؟ فَقَالَ لِي: بَلْ هِيَ فِي رَمَضَانَ. قُلْتُ: تَكُونُ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ مَا كَانُوا، فَإِذَا قُبِضُوا رُفِعَتْ، أَمْ هِيَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: بَلْ هِيَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قُلْتُ:

فِي أَيِّ رَمَضَانَ هِيَ؟ قَالَ: الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، لَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ. ثُمَّ حَدَّثَ، فاهْتَبَلْتُ غَفْلَتَهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْسَمْتُ بِحَقِّي إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي فِي أَيِّ الْعَشْرِ هِيَ؟ فَغَضِبَ عَلَيَّ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ مِثْلَهُ مُنْذُ صَحِبْتُهُ، وَقَالَ: الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، لَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا».

وَاعْلَمْ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ الاغْتِسَالُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي الْعَشْرِ. وَكَذَا يُسْتَحَبُّ التَّطَيُّبُ. وَلُبْسُ أَفْخَرِ الثِّيَابِ، وَتَطَيُّبُ الْمَسَاجِدِ فِي اللَّيَالِي الَّتِي تُرْجَى فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ أَيُّوبَ السِّخْتِيَانِيِّ وَثَابِتٍ الْبَنَانِيِّ وَحُمَيْدٍ الطَّوِيلِ وَتَمِيمٍ الدَّارِيِّ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَلْبَسُونَ أَفْخَرَ الثِّيَابِ وَيَتَطَيَّبُونَ.

وَكَانَ بَعْضُهُمْ يُطَيِّبُونَ الْمَسَاجِدَ بِالنُّضُوحِ وَالدُّخْنَةِ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي تُرْجَى فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

وَأَمَّا الاغْتِسَالُ فَرُوِيَ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَغْتَسِلُ بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ كُلَّ لَيْلَةٍ، حَتَّى فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ».

وَرَوَى ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ ﷺ: «أَنَّهُ قَامَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً مِنْ رَمَضَانَ؛ فاغْتَسَلَ ﷺ وَبَقِيَتْ فَضْلَةٌ فاغْتَسَلَ بِهَا حُذَيْفَةُ وَسَتَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ».

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: كَانُوا يَسْتَحِبُّونَ أَنْ يَغْتَسِلُوا كُلَّ لَيْلَةٍ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ.

وَكَانَ النَّخْعِيُّ: يَغْتَسِلُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ كُلَّ لَيْلَةٍ.

وَرُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: «أَنَّهُ إِذَا كَانَ لَيْلَةَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ اغْتَسَلَ وَتَطَيَّبَ، وَلَبِسَ حُلَّةً - إِزَارٌ أَوْ رِدَاءٌ - فَإِذَا أَصْبَحَ طَوَاهُمَا».

وَأَمَرَ زِرَّ بْنَ حُبَيْشٍ بِالاغْتِسَالِ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَكْمُلُ تَزْيِينُ الظَّاهِرِ إِلَّا بِتَزْيِينِ الْبَاطِنِ: بِالتَّوْبَةِ وَبِالْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ، وَتَطْهِيرِهِ مِنْ أَدْنَاسِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ زِينَةَ الظَّاهِرِ مَعَ خَرَابِ الْبَاطِنِ لَا تُغْنِي شَيْئًا كَمَا قِيلَ:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التُّقَى   تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وَإِنْ كَانَ كَاسِيَا
وَخَيْرُ خِصَالِ الْمَرْءِ طَاعَةُ رَبِّهِ   وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ كَانَ لِلَّهِ عَاصِيَا

إِخْوَانِي: جِدُّوا وَاجْتَهِدُوا؛ فَما بَقِيَ مِنَ الشَّهْرِ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ قَبْلَ الرَّحِيلِ. فوَا أَسَفَا أَنْ تَأْتِيَ غَدًا وَأَنْتَ حَقِيرٌ ذَلِيلٌ.

فَلِلّهِ دَرُّ مَنْ عَمِلَ وَبَادَرَ شُهُورَهُ وَسِنِينَهُ، وَتَدَرَّعَ بِالْحَيَاءِ وَالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ وَعَمِلَ لِيَوْمٍ فِيهِ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ.

فَهَذَا عِبَادَ اللَّهِ شَهْرُكُمْ قَدْ أَخَذَ فِي النَّقْصِ وَالانْصِرَامِ؛ فَخُذُوا أَنْتُمْ فِي الاجْتِهَادِ وَالاهْتِمَامِ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَحْسَنَ فَعَلَيْهِ التَّمَامُ، وَمَنْ كَانَ فَرَّطَ فَلْيَخْتِمْهُ بِالْحُسْنَى، فَالْعَمَلُ بِالْخِتَامِ، وَاسْتَدْرِكُوا مِنْهُ بَقِيَّةَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ.

أَلَا وَإِنَّ شَهْرًا عَظَّمَهُ الرَّحْمٰنُ وأَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ لَحَقِيقٌ بِالْإِكْرَامِ وَالاحْتِرَامِ، وَجدِيرٌ أَنْ يُصَانَ عَنْ فِعْلِ الْقَبَائِحِ وَالْمَآثِمِ وَالْإِجْرَامِ.

رُوِيَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ - يَعْنِي لِلصَّلَاةِ - وَالْقَوْمُ إِذَا صُفُّوا لِلصَّلَاةِ، وَالْقَوْمُ إِذَا صُفُّوا لِلْقِتَالِ».

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَغْفِرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الْإِثْمِ».

وَاعْلَمْ - وَفَّقَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكَ لِطَاعَتِهِ - أَنَّ مَنْ أَرَادَ قِيَامَ اللَّيْلِ خُصُوصًا فِي هَذِهِ اللَّيَالِي الْعَظِيمَةِ الشَّرِيفَةِ، فَلَا يُكْثِرُ الْأَكْلَ وَلَا الشُّرْبَ، وَلَا يُتْعِبُ أَعْضَاءَهُ فِي النَّهَارِ بِالْكَدِّ وَالْعَمَلِ، وَلْيَسْتَعِنْ بِالْقَيْلُولَةِ، وَأَنْ يَحْرِصَ عَلَى الْإِخْلَاصِ وَإِرَادَةِ وَجْهِ اللَّهِ، رَاجِيًا ثَوَابَهُ خَائِفًا مِنْ عِقَابِهِ، وَأَنْ يَسْتَحْضِرَ عَظَمَةَ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ.

فَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي الْجَلَدِ قَالَ: أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى ﷺ: «إِذَا ذَكَرْتَنِي فاذْكُرْنِي وَأَعْضَاؤُكَ تَنْتَفِضُ، وَإِذَا دَعَوْتَنِي فَاجْعَلْ لِسَانَكَ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِكَ، وَإِذَا قُمْتَ بَيْنَ يَدَيَّ فَقُمْ مَقَامَ الذَّلِيلِ الْحَقِيرِ، وَذُمَّ نَفْسَكَ، فَهِيَ أَوْلَى بِالذَّمِّ وَنَاجِنِي حِينَ تُنَاجِينِي بِقَلْبٍ وَجِلٍ وَلِسَانٍ صَادِقٍ».

وَكَانَ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ مَنْ لَا يَنَامُ فِي اللَّيْلِ مِنْ خَوْفِ الْوَعِيدِ.

كَانَ الرَّبِيعُ بْنُ خَيْثَمَ تَقُولُ لَهُ ابْنَتُهُ: يَا أَبَتَاهُ، النَّاسُ يَنَامُونَ وَلَا أَرَاكَ تَنَامُ؟ قَالَ: يَا بُنَيَّةُ إِنَّ أَبَاكِ يَخَافُ السَّيِّئَاتِ.

وَكَانَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كَأَنَّهُ حَبَّةٌ عَلَى مِقْلَى ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّ جَهَنَّمَ لَا تَدَعُنِي أَنَامُ.

وَكَانَ زَمْعَةُ الْعَابِدُ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ يَقُومُ فَيُصَلِّي طَوِيلًا، فَإِذَا كَانَ السَّحَرُ نَادَى بأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا أَيُّهَا الرَّكْبُ الْمُعَرِّسُونَ، أَكُلَّ هَذَا اللَّيْلِ تَرْقُدُونَ؟ أَلَا تَقُومُونَ فَتَرحَلُونَ؟ فَيُسْمَعُ مَنْ هٰهنَا باكٍ، وَمَنْ هٰهُنَا دَاعٍ، وَمَنْ هٰهُنَا مُتَوَضِّئٌ، فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى.

وَعَنْ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الْحَوَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي سُلَيْمَانَ وَهُوَ يَبْكِي فَقُلْتُ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: يَا أَحْمَدُ، وَلِمَ لَا أَبْكِي، وَإِذَا جَنَّ اللَّيْلُ وَنَامَتِ الْعُيُونُ وَخَلَا كُلُّ حَبِيبٍ بِحَبِيبِهِ، وَافْتَرَشَ أَهْلُ الْمَحَبَّةِ أَقْدَامَهُمْ، وَجَرَتْ دُمُوعُهُمْ عَلَى خدُودِهِمْ، وَقَطَرَتْ فِي مَحَارِيبِهِمْ - أَشْرَفَ الْجَلِيلُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَنَادَى: يَا جِبْرِيلُ بِعَيْنِي مَنْ تَلَذَّذَ بِكَلَامِي، فَلِمَ لَا تُنَادِي فِيهِمْ: مَا هَذَا الْبُكَاءُ؟ هَلْ رَأَيْتُمْ حَبِيبًا يُعَذِّبُ أَحْبَابَهُ؟ أَمْ كَيْفَ يَجْمُلُ بِي أَنْ أُعَذِّبَ قَوْمًا إِذَا جَنَّهُمُ اللَّيْلُ تَمَلَّقُوا لِي؟ فَبِي حَلَفْتُ إِذَا وَرَدُوا عَلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَأَكْشِفَنَّ لَهُمْ عَنْ وَجْهِي الْكَرِيمِ حَتى يَنْظُرُوا إِلَيَّ وَأَنْظُرَ إِلَيْهِمْ.

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحَوَارِيِّ أَيْضًا: سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ يَقُولُ: بَيْنَمَا أَنَا

سَاجِدٌ ذَهَبَ بِيَ النَّوْمُ. فَإِذَا أَنا بِحَوْرَاءَ قَد رَكَضَتْنِي بِرِجْلِها، وَقَالَتْ: حَبِيبِي أَتَرْقُدُ وَالْمَلِكُ يَقْظَانُ يَنْظُرُ إِلَى الْمُتَهَجِّدِينَ فِي تَهَجُّدِهِمْ؟ بُؤْسًا لِعَيْنٍ آثَرَتْ لَذَّةَ نَوْمَةٍ عَلَى لَذَّةِ مُنَاجَاةِ الْعَزِيزِ. فَقُمْ فَقَدْ دَنا الْفِرَاقُ وَلَقِيَ الْمُحِبُّونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَمَا هَذَا الرُّقادُ؟ حَبِيبِي وَقُرَّةَ عَيْنِي، أَتَرْقُدُ عَيْنَاكَ وَأَنا أُرَبَّى لَكَ فِي الْخُدُورِ؟ فَوَثَبْتُ فَزِعًا وَقَدْ عَرِقْتُ اسْتِحْيَاءً مِنْ تَوْبِيخِهَا إِيَّايَ، وَإِنَّ حَلَاوَةَ مَنْطِقِهَا لَفِي سَمْعِي وَقَلْبِي.

لَوْلَا قِيامُ تِلْكَ الْأَقْدَامِ، مَنْ كَانَ يُؤَدِّي حَقَّ: «هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟» فَمَا لَكَ أَيُّهَا الْمَغْرُورُ مَشْغُوفًا بالْمَنَامِ، وَلَا تَرْفَعُ إِلَى الْمَلِكِ الْمَسَائِلَ.

لِلَّهِ دَرُّ أَقْوَامٍ هَجَرُوا لَذِيذَ الْمَنَامِ، وَتَنَصَّلُوا لِمَا نَصَبُوا له الْأَقْدَامَ، وَانْتَصَبُوا لِلنَّصَبِ فِي الظَّلَامِ، يَطْلُبُونَ نَصِيبًا مِنَ الْإِنْعَامِ، إِذَا جَنَّ اللَّيْلُ سَهِرُوا، وَإِذَا جَاءَ النَّهَارُ اعْتَبَرُوا. وَإِذَا نَظَرُوا فِي عُيُوبِهِمُ اسْتَغْفَرُوا، وَإِذَا تَفَكَّرُوا فِي ذُنُوبِهِمْ بَكَوْا وَانْكَسَرُوا.

لَوْ رَأَيْتَهُمْ فِي اللَّيْلِ بَيْنَ سَاجِدٍ وَرَاكِعٍ، وَذَلِيلٍ مَخْمُولٍ وَمُتَوَاضِعٍ، وَمُنَكَّسِ الطَّرْفِ مِنَ الْخَوْفِ خَاشِعٍ، فَإِذَا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ حَنَّ الْجَازِعُ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

نُفُوسُهُمْ بِالْمَحَبَّةِ عَلِقَتْ، وَقُلُوبُهُمْ مِنَ الْأَشْوَاقِ قَلِقَتْ، وَأَبْدَانُهُمْ لِلْخِدْمَةِ خُلِقَتْ، يَقُومُونَ بِاللَّيْلِ إِذَا انْطَبَقَتْ أَجْفَانُ الْهَاجِعِ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

يُبَادِرُونَ بِالْعَمَلِ الْأَجَلَ، وَيَجْتَهِدُونَ فِي سَدِّ الْخَلَلِ، وَيَعْتَذِرُونَ مِنْ مَاضِي الزَّلَلِ، وَالدَّمْعُ لَهُمْ شَافِعٌ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

أَتُعْرِضُ عَنَّا وَالْجَنَابُ فَسِيحُ ... وَتَهْرُبُ مِنَّا إِنَّ ذَا لَقَبِيحُ
وَيَبْدُو لَنَا مِنْ نَحْوِكَ الصَّدُّ وَالْجَفَا ... وَمِن نَحْوِنا وُدٌّ لَدَيْكَ صَحِيحُ
وَنَدْعُوكَ لِلْحُسْنَى وَنَمْنَحُكَ الرِّضَا ... وَأَنْتَ لِأَسْبَابِ الْبِعَادِ جَمُوحُ

وَكَمْ مَرَّةٍ جَاءَتْكَ مِنَّا رَسَائِلٌ وَفِيهَا خِطَابٌ لَوْ سَمِعْتَ فَصِيحُ

لَوْ ذَاقَ الْغَافِلُ السَّهَرَ فِي الظَّلَامِ، أَوْ سَمِعَ الْجَاهِلُ حُسْنَ الصَّالِحِينَ عِنْدَ الْقِيَامِ، وَقَدْ نَصَبُوا الْأَقْدَامَ، وَهِمَمُهُمْ تَجْرِي إِلَى الْقِيَامِ، وَتَلَذَّذُوا بِأَشْرَفِ الذِّكْرِ وَأَحْلَى الْكَلَامِ، وَقَدْ جهَّزُوا مَطَايا الشَّوْقِ إِلَى دَارِ السَّلَامِ، وَسَرَتْ قَوَافِلُهُمْ وَأَهْلُ الْغَفْلَةِ نِيامٌ، وَشَكَوْا بِالْأَسْحَارِ إِلَى مَوْلَاهُمْ مَا يَلْقَوْنَ مِنَ الْغَرَامِ، وَوَجَدُوا مِنْ لَذَّةِ الْأُنْسِ مَا لَمْ يَخْطُرْ عَلَى الْأَوْهَامِ، فَإِذَا أَسْفَرَ النَّهَارُ تَلَقَّوْهُ بالصِّيَامِ، وَصَابَرُوا الْهَوَاجِرَ بِهَجْرِ الشَّرَابِ وَالطَّعَامِ، وَتَدَرَّعُوا دُرُوعَ التُّقَى خَوْفًا مِنَ الزَّلَلِ وَالْآثَامِ، فَبِهِمْ يُسَامِحُ الْعُصَاةَ وَيَصْفَحُ عَنِ الْإِجْرَامِ، وَإِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ طَابَ كَأْسُ الْحِمَامِ، وَإِذَا دُفِنُوا بِبُقْعَةٍ افْتَخَرَتْ بِتِلْكَ الْعِظَامِ، فَعَلَى الدُّنْيا مِنْ بَعْدِهِمُ السَّلَامُ ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧﴾ وَبِالْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ يَعِجُّونَ، فَسُبْحَانَ مَنْ طَهَّرَهُمْ مِنَ الْأَدْنَاسِ، وَاصْطَفَاهُمْ لِخِدْمَتِهِ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ، وَسَقَاهُمْ مِنْ شَرَابِ حُبِّهِ أَطْيَبَ كاسٍ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

قُمِ اللَّيْلِ يَا هَذَا لَعَلَّكَ تَرْشَدُ إِلَى كَمْ تَنَامُ اللَّيْلَ وَالْعُمْرُ يَنْفَدُ؟
أَرَاكَ بِطُولِ اللَّيْلِ - وَيْحَكَ - نَائِمًا وَغَيْرُكَ فِي مِحْرَابِهِ يَتَهَجَّدُ
وَلَوْ عَلِمَ الْبَطَّالُ مَا نَالَ زَاهِدٌ مِنَ الْأَجْرِ وَالْإِحْسَانِ مَا كَانَ يَرْقُدُ
فَصَامَ وَقَامَ اللَّيْلَ وَالنَّاسُ نُوَّمٌ وَيَخْلُو بِرَبٍّ وَاحِدٍ مُتَفَرِّدُ
بِحَزْمٍ وَعَزْمٍ وَاجْتِهَادٍ وَرَغْبَةٍ وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ ذَا الْعَرْشِ يُعْبَدُ
وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَدومُ لِأَهْلِهَا لَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ حَيًّا مُخَلَّدُ
أَتَرْقُدُ يَا مَغْرُورُ وَالنَّارُ تُوقَدُ فَلَا حَرُّهَا يُطْفَا وَلَا الْجَمْرُ يُخْمَدُ؟
فَيَا رَاكِبَ الْعِصْيَانِ وَيْحَكَ خَلِّهَا فَتُحْشَرَ عَطْشَانًا وَوَجْهُكَ أَسْوَدُ
فَكَمْ بَيْنَ مَشْغُولٍ بِطَاعَةِ رَبِّهِ وَآخَرُ بِالذَّنْبِ الثَّقِيلِ مُقَيَّدُ
فَهَذَا سَعِيدٌ فِي الْجِنَانِ مُنَعَّمٌ وَهَذَا شَقِيٌّ فِي الْجَحِيمِ مُخَلَّدُ

كَأَنِّي بِنَفْسِي فِي الْقِيَامَةِ وَاقِفٌ وَقَدْ فَاضَ دَمْعِي وَالْمَفَاصِلُ تَرْعَدُ
وَقَدْ نُصِبَ الْمِيزَانُ لِلْفَصْلِ وَالْقَضَا وَقَدْ قَامَ خَيْرُ الْعَالَمِينَ مُحَمَّدُ

يَا مَنْ يَرْجُو مَقَامَ الصَّالِحِينَ، وَهُوَ مُقِيمٌ مَعَ الْغَافِلِينَ، وَيُؤَمِّلُ مَنَازِلَ الْمُقَرَّبِينَ، وَهُوَ يَنْزِلُ مَعَ الْمُذْنِبِينَ، دَعْ هَذَا وَارْفَعْ يَدَيْكَ مَعَ التَّائِبِينَ. الصِّدْقَ الصِّدْقَ، فَبِهِ تَسْلَمُ. الْجِدَّ الْجِدَّ، فَبِهِ تَنْعَمُ. الْبِدَارَ الْبِدَارَ فِيمَا بَقِيَ قَبْلَ أَنْ تَنْدَمَ؛ هَذَا هُوَ الدَّوَاءُ إِنْ كُنْتَ تَفْهَمُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

إِلَهِي، وَصَلَ الْعَارِفُونَ بِالْمَعْرِفَةِ إِلَيْكَ، وَقَامَ الْمُتَهَجِّدُونَ لِلْخِدْمَةِ بَيْنَ يَدَيْكَ.

إِلَهِي، وَقَفَ السَّائِلُونَ بِبَابِكَ، وَلَاذَ الْمُحْتَاجُونَ بِجَنَابِكَ، وَتَقَطَّعَتْ قُلُوبُ الْمُحِبِّينَ فِي طِلَابِكَ، وَفَازَ الْقَائِمُونَ بِلَذِيذِ خِطَابِكَ، وَرَبِحَ الْعَامِلُونَ فِي ثَوَابِكَ فَأَنْتَ الَّذِي خَضَعَ الْمُتَكَبِّرُونَ مِنْ هَيْبَةِ جَلَالِكَ، وَخَشَعَ الْمُتَجَبِّرُونَ لِسَطْوَةِ جَمَالِكَ.

إِلَهِي، نَدِمَ الْمُفَرِّطُونَ عَلَى تَقْصِيرِهِمْ فِي خِدْمَتِكَ، وَخَجِلَ الْعَاصُونَ حَيَاءً مِنْ مُرَاقَبَتِكَ، وَأَطْرَقَ الْمُذْنِبُونَ مِنْ جَلَالِ هَيْبَتِكَ.

إِلَهِي، أَفِضْ عَلَيْنَا مِنْ بَحْرِ جُودِكَ الْعَمِيمِ، وَنَعِّمْنَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَاجْعَلْنَا مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، إِنَّكَ جَوَادٌ كَرِيمٌ، رَءُوفٌ رَحِيمٌ، وَاغْفِرْ لَنَا أَجْمَعِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ
فِي فَضْلِ هَذِهِ اللَّيْلَةِ الْعَظِيمَةِ وَالْحَثِّ عَلَى الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ فِيهَا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَلَأَ قُلُوبَ أَحِبَّتِهِ مِنْ سِرِّ مَحَبَّتِهِ سُرُورًا، وَكَسَا وُجُوهَهُمْ حِينَ اشْتَغَلُوا بِخِدْمَتِهِ بَهْجَةً وَنُورًا، وَتَوَّجَهُمْ بِتِيجَانِ الْبَهَاءِ وَكَتَبَ لَهُمْ بِالْوَلَاءِ مَنْشُورًا، وَهَدَاهُمْ إِلَى طَرِيقِ مَعْرِفَتِهِ، فَدَامُوا عَلَى خِدْمَتِهِ، وَمَا غَيَّرُوا تَغْيِيرًا.

اطَّلَعَ عَلَى سَرَائِرِهِمْ، وَتَجَلَّى عَلَى ضَمَائِرِهِمْ، فَصَفَّى خُلَاصَةَ جَوَاهِرِهِمْ، وَزَادَهُمْ هُدًى وَتَبْصِيرًا. وَرَوَّقَ لَهُمُ الشَّرَابَ، وَرَفَعَ لَهُمُ الْحِجَابَ. وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَحْبَابِ، لَا تَخْشَوا الْيَوْمَ حُزْنًا وَلَا تَكْدِيرًا.

فَمِنْهُمْ مَنْ تَرَنَّحَ وَطَرِبَ، وَمِنْهُمْ مَنْ بَاحَ بِالسِّرِّ إِذَا غُلِبَ. وَمِنْهُمْ مَنْ نُدِبَ إِلَى الْحَضْرَةِ وَطُلِبَ. فَنَاهِيكَ مِنْ سَاقٍ سَقَاهُمْ وَأَدَارَ سُرُورًا ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾.

فَهُمْ قَائِمُونَ فِي خِدْمَتِهِ، مُتَلَذِّذُونَ فِي حَضْرَتِهِ، مُتَقَلِّبُونَ فِي نِعْمَتِهِ، قَدْ أَغَاثَ مِنْهُمْ مَلْهُوفًا وَجَبَرَ كَسِيرًا ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾.

أَخْلَاقُهُمُ الْقُنُوعُ، وَشِعَارُهُمُ الْخُشُوعُ، وَأَفْعَالُهُمُ السُّجُودُ وَالرُّكُوعُ، وَيَطْوُونَ الضُّلُوعَ عَلَى الْجُوعِ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ سَائِلًا وَفَقِيرًا ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾.

قَدْ غَضُّوا الْأَبْصَارَ، وَأَخْرَسُوا الْأَفْوَاهَ، وَعَفَّرُوا الْوُجُوهَ وَالْجِبَاهَ، وَقَالُوا لِفُقَرَائِهِمْ قَوْلًا مَيْسُورًا: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾.

قَدْ شَرِبُوا مِنْ شَرَابِ حُبِّهِ كُئُوسًا، وَاسْتَجْلَوْا مِنْ أَنْوَارِ مُشَاهَدَتِهِ شُمُوسًا، وَبَرَزَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا بِزِينَتِهَا عَرُوسًا، فَقَالُوا: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾.

ذَلِكَ يَوْمٌ يَا لَهُ مِنْ يَوْمٍ، يُحَيِّرُ مِنْ هَوْلِهِ كُلَّ قَوْمٍ، وَيَطِيرُ مِنْ شِدَّتِهِ مِنَ الْعُيُونِ النَّوْمُ ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾.

قَدْ كَابَدُوا قِيَامَ اللَّيْلِ وَصِيَامَ النَّهَارِ، فَفَازُوا بِجِوَارِ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ، وَتَغْشَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالْأَنْوَارِ؛ فِي جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ؛ تَخْدُمُهُمُ الْمَلَائِكَةُ فِيهَا مَسَاءً وَبُكُورًا ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾.

لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَلْحَقُهُمْ حَسْرَةٌ وَلَا نَدَامَةٌ. يَسْتَبْشِرُونَ بَعْدَ طُولِ سَفَرِهِمْ بِالسَّلَامَةِ. وَيَسْكُنُونَ غُرَفًا وَقُصُورًا، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ

فِي الْجَنَّةِ تَهْنِئَةً لَهُمْ وَتَبْشِيرًا: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

فَسُبْحَانَ مَنْ أَقَامَهُمْ فِي الْخَلَوَاتِ، وَلَذَّذَهُمْ بِالْمُنَاجَاةِ. إِذْ قَامُوا فِي الدُّجَى يَتَضَرَّعُونَ، وَبِالْبُكَاءِ وَالدُّعَاءِ يَعِجُّونَ، فَأَحْضَرَهُمُ اللَّهُ فِي حَضْرَةِ قُدْسِهِ، وَتَوَلَّاهُمْ بِنَفْسِهِ، وَسَقَاهُمْ بِكَأْسِ أُنْسِهِ شَرَابًا طَهُورًا، وَنَادَاهُمْ: يَا عِبَادِي وَأَحْبَابِي، طَالَما وَقَفْتُمْ بِبَابِي، وَلُذْتُمْ بِجَنَابِي، وَكَانَ كُلٌّ مِنْكُمْ عَلَى مُصَابِي صَبُورًا، لَأُبَوِّئَنَّكُمْ دَارَ النَّعِيمِ، وَلَأُمَتِّعَنَّكُمْ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِيَ الْكَرِيمِ، وَلَأَجْعَلَنَّ جَزَاءَكُمْ جَزَاءً مَوْفورًا.

أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْلَاهُ مِنَ الإِنْعَامِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ، شَهَادَةً أَرْجُو بِهَا أَنْ يَجْعَلَ ذَنْبِي مَغْفُورًا.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمَبْعُوثُ رَحْمَةً لِلأَنَامِ. دَاعِيًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ. صَاحِبُ اللِّوَاءِ الْمَعْقُودِ، وَالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، وَالْحَوْضِ الْمَوْرُودِ.

نَبِيٌّ جَعَلَهُ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، وَأَعَادَ بِهِ ظَلَامَ الشِّرْكِ مَقْهُورًا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَسَلَّم تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَمُبْرَمِ كَلَامِهِ الْبَلِيغِ الْوَجِيزِ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ بِأَنَّهُ لَا يُخَيِّبُ دُعَاءَ دَاعٍ، وَلَا يَشْغَلُهُ عَنْهُ شَيْءٌ. بَلْ هُوَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ قَرِيبُ الإِجَابَةِ. فَفِيهِ التَّرْغِيبُ فِي الدُّعَاءِ، وَأَنَّهُ لَا يَضِيعُ لَدَيْهِ تَعَالَى.

فَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيَسْتَحْيِي أَنْ يَبْسُطَ الْعَبْدُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ يَسْأَلُهُ فِيهِمَا خَيْرًا فَيَرُدَّهُمَا خَائِبَتَيْنِ».

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيدَةَ «أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقَرِيبٌ رَبُّنَا فَنُناجِيهِ أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيهِ؟ فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ إِذَا دَعَوْتُهُمْ أَنْ يَدْعُونِي فَدَعَوْنِي اسْتَجَبْتُ لَهُمْ».

وَأَخْرَجَ أَبُو يَعْلَى عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ قَالَ: «أَرْبَعُ خِصَالٍ: وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ لِي، وَوَاحِدَةٌ لَكَ، وَوَاحِدَةٌ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَوَاحِدَةٌ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ عِبَادِي. فَأَمَّا الَّتِي لِي: لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا، وَأَمَّا الَّتِي لَكَ عَلَيَّ: فَمَا عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ جَزَيْتُكَ بِهِ، وَأَمَّا الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ: فَمِنْكَ الدُّعَاءُ وَعَلَيَّ الْإِجَابَةُ؛ وَأَمَّا الَّتِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ خَلْقِي، فارْضَ لَهُمْ مَا تَرْضَى لِنَفْسِكَ».

فَاللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَدْعُوهُ وَيَتَّقُوهُ وَيُطِيعُوهُ. وَقَدْ فَتَحَ بَابَه لِلطَّالِبِينَ، وَحَثَّ عَلَى دُعَائِهِ فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ، فَهُوَ أَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ، وَأَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ، وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. لَا تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ اللُّغَاتُ، وَلا تَشْتَبِهُ عَلَيْهِ الْأَصْوَاتُ، وَلَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ ذَوِي الْحَاجَاتِ، وَلَا تُغِيضُ يَمِينَهُ كَثْرَةُ النَّفَقَاتِ.

وَلِهَذَا يَدْعُو الْعِبَادَ إِلَى تَوْحِيدِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَيَفْرَحُ بِتَوْبَةِ التَّائِبِ إِذَا تَابَ إِلَيْهِ أَشَدَّ مِنْ فَرَحِ الْفَاقِدِ لِرَاحِلَتِهِ الَّتِي عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، وَقَدْ ضَلَّتْ عَنْهُ فِي الْأَرْضِ الْمُهْلِكَةِ، إِذَا أَيِسَ مِنْهَا ثُمَّ وَجَدَهَا.

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ ﷻ أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي؛ وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنا أَغْفِرُ لَكُمُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا

ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكم وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوفِيكُمْ إِيَّاهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَ بِالدُّعَاءِ وَتَكَفَّلَ بِالْإِجَابَةِ، وَقَدْ يَدْعُو الْإِنْسَانُ وَلَا يُستَجَابُ لَهُ، وَيُدْمِنُ بِالْإِلْحَاحِ وَلَا تُقْضَى حَاجَتُهُ. وَهَذَا إِنَّمَا أُتِي مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، وَمِنَ الْحُجُبِ الْمَانِعَةِ مِنْ قَبُولِ الدُّعَاءِ، وَذَلِكَ لِأُمُورٍ:

مِنْهَا: أَكْلُ الْحَرَامِ وَلِباسُهُ، فَإِنَّ هَذَا يَمْنَعُ قَبُولَ الدُّعَاءِ كَما فِي حَدِيثِ صَاحِبِ السَّفَرِ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ؛ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ؛ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ؛ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟».

وَقَالَ ﷺ لِسَعْدٍ حِينَ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ؛ فَقَالَ: يَا سَعْدُ؛ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ مِنَ الْحَرَامِ فِي جَوْفِهِ مَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْهُ عَمَلًا أَرْبَعِينَ يَوْمًا؛ وَأَيُّما عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنْ سُحْتٍ فالنَّارُ أَوْلَى بِهِ».

وَمِنْهَا غَفْلَةُ الْقَلْبِ. أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ وَقَلْبُهُ غَافِلٌ. فَقَدْ قَالَ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُم مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ. وَاعلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ الدُعاءَ مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاهٍ».

وَمِنْهَا: أَنْ يَدْعُوَ بِإِثْمٍ وَقَطِيعَةِ رَحِمٍ.

وَمِنْهَا: أَنْ يَسْتَعْجِلَ الْإِجَابَةَ وَيَتَحَسَّرَ. يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَدَعَوتُ فَلَمْ أَرَهُ يُسْتَجَابُ لِي. وَقَدْ يَخْتَار اللَّهُ لَهُ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَدِلَّةُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَلِلدُّعَاءِ آدَابٌ. وَلِلْإِجَابَةِ أَسْبَابٌ.

فَمِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ: أَنْ يَرْصُدَ بِهِ الْأَوْقَاتَ الْفَضِيلَةَ كَهَذِهِ اللَّيْلَةِ. وَكَوَقْتِ السَّحَرِ، وَآخِرِ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ.

وَمِنْهَا: أَنْ يُثْنِي عَلَى اللَّهِ فِي أَولِهِ. وَيُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّهِ فِي آخِرِهِ.

وَمِنْهَا: الْإِكْسِيرُ الْأَعْظَمُ، وَهُوَ أَكْلُ الْحَلَالِ. وَحُضُورُ الْقَلْبِ وَأَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ وَهُوَ صَائِمٌ، لَا سِيَّمَا عِنْدَ الْفِطْرِ.

وَمِنْهَا: الدُّعَاءُ فِي السُّجُودِ. فَإِنَّ الْعَبْدَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ.

وَمِنْهَا: إِظْهَارُ الْخُضُوعِ وَالْخُشُوعِ وَالتَّذَلُّلِ وَالْمَسْكَنَةِ بَيْن يَدَي الْمَلِكِ الأَعْلَى، وَيَدْعُوهُ رَاجِيًا قَبُولَ دُعَائِهِ، خَائِفًا مِنْ شُؤْمِ ذَنْبِهِ، قَدِ انْطَرَح لِبَابِ مَوْلَاهُ وَعَفَّرَ خَدَّهُ بِعَتَبَةِ بَابِهِ، وَانْكَسَرَ قَلْبُهُ وَافْتَقَرَ لِرَبِّهِ، جَلَّ جَلَالُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، فَمَا أَقْرَبَ الْقَبُولَ وَالْإِجَابَةَ، وَمَا أَسْرَعَ الْعَطْفَ مِنَ السَّيِّدِ عَلَى عَبْدِهِ إِذَا رَآهُ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ، وَمَا أَقْرَبَ الْجَبْرَ مِنْ هَذَا الْقَلْبِ الْمَكْسُورِ. وَأَحَبُّ الْقُلُوبِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ قَلْبٌ قَدِ انْكَسَرَ لِأَجْلِهِ، فَهُوَ نَاكِسُ الرَّأْسِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَيَاءً وَخَجَلًا مِنَ اللَّهِ.

قِيلَ لِبَعْضِ الْعَارِفِينَ: أَيَسْجُدُ الْقَلْبُ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَسْجُدُ سَجْدَةً لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ مِنْهَا إِلَى يَوْمِ اللِّقَاءِ.

فَسُبْحَانَ مَنْ وَثِقَتْ بِعَفْوِهِ هَفَوَاتُ الْمُذْنِبِينَ فَوَسِعَهَا، وَعَكَفَتْ بِكَرَمِهِ آمَالُ الْمُحْسِنِينَ، فَمَا قَطَعَ طَمَعَهَا. وَخَرَقَتِ السَّبْعَ الطِّبَاقَ دَعَوَاتُ التَّائِبِينَ وَالسَّائِلِينَ فَسَمِعَهَا، يَجُودُ عَلَى عَبْدِهِ بِالنَّوَالِ قَبْلَ السُّؤَالِ وَيُعْطِي سَائِلَهُ وَمُؤَمِّلَهُ فَوْقَ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ مِنْهُمُ الْآمَالُ، وَيَغْفِرُ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَلَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُهُ عَدَدَ الْأَمْوَاجِ وَالْحَصَى وَالتُّرَابِ وَالرِّمَالِ. بَابُهُ الْكَرِيمُ مَنَاخُ الْآمَالِ وَمَحَطُّ الْأَوْزَارِ، وَسَمَاءُ

عَطَايَاهُ لَا تُقْلِعُ عَنِ الْغَيْثِ بَلْ هِيَ مِدْرَارٌ، وَيَمِينُهُ مَلْأَى لَا تُغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.

وَفِي الْأَثَرِ الْإِلٰهِي يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: «أَهْلُ ذِكْرِي أَهْلُ مُجَالَسَتِي، وَأَهْلُ شُكْرِي أَهْلُ زِيَادتِي، وَأَهْلُ طَاعَتِي أَهْلُ كَرَامَتِي، وأَهْلُ مَعْصِيَتِي لَا أُقَنِّطُهُمْ مِنْ رَحْمَتِي: إِنْ تَابُوا إِلَيَّ فَأَنَا حَبِيبُهُمْ، فَإِنِّي أُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَأُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا فَأَنَا طَبِيبُهُمْ، أَبْتَلِيهِمْ بِالْمَصَائِبِ لِأُطَهِّرَهُمْ مِنَ الْمَعَائِبِ».

فَتَبَارَكَ مَنْ لَا يُلَقَّى وَصَايَاهُ إِلَّا الصَّابِرُونَ؛ وَلَا يَفُوزُ بِعَطَايَاهُ إِلَّا الشَّاكِرُونَ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَيْهِ إِلَّا الْهَالِكُونَ، وَلَا يَشْقَى بِعَذَابِهِ إِلَّا الْمُتَمَرِّدُونَ.

فَإِيَّاكَ أَيُّهَا الْمُتَمَرِّدُ أَنْ يَأْخُذَكَ عَلَى غِرَّةٍ، فَإِنَّهُ غَيُورٌ، وَبُشْرَاكَ أَيُّهَا التَّائِبُ بِمَغْفِرَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، فَإِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ.

بِبَابِكَ رَبِّي قَدْ أَنَخْتُ رَكَائِبِي ... وَمَا لِيَ، مَنْ أَرْجُوهُ يَا خَيْرَ وَاهِبِ؟
فَإِنْ جُدْتَ بِالْفَضْلِ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ ... فَيَا نُجْحَ آمَالِي وَنَيْلَ رَغَائِبِي
وَإِن أَبْعَدَتْنِي عَنْ حِمَاكَ خَطِيئَتِي ... فَيَا خَيْبَةَ الْمَسْعَى وَضَيْعَةَ جَانِبِي
حَرَامٌ عَلَى قَلْبِي وَإِنْ شَفَّهُ الضَّنَا ... يَمِيلُ إِلَى مَوْلًى سِوَاكَ وَصَاحِبِ
فَزِعْتُ إِلَى بَابِ الْمُهَيْمِنِ ضَارِعًا ... مُدِلًّا، أُنَادِي بِاسْمِهِ غَيْرَ هَائِبِ
فَلَمْ أَخْشَ حُجَّابًا وَلَمْ أَخْشَ مَنْعَةً ... وَلَو كَانَ سُؤْلِي فَوْقَ هَامِ الْكَوَاكِبِ
كَرِيمًا يُلَبِّي عَبْدَهُ كُلَّمَا دَعَا ... نَهارًا وَلَيْلًا فِي الدُّجَى وَالْغَيَاهِبِ
يَقُولُ لَهُ لَبَّيْكَ عَبْدِي دَاعِيًا ... وَإِنْ كُنْتَ خَطَّاءً كَثِيرَ الْمَعَائِبِ
فَمَا ضَاقَ عَفْوِي عَنْ جَرِيمَةِ خَاطِئٍ ... وَمَا أَحَدٌ يَرْجُو نَوَالِي بِخَائِبِ
إِذَا مِتُّ مِنْ شَوْقٍ إِلَيْكَ وَحَسْرَةٍ ... عَلَيْكَ، فَمَا بُلِّغْتُ فِيكَ مَآرِبِي

فَصْلٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾.

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَهِيَ اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ الَّتِي يُفْصَلُ فِيهَا كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ مِنْ أَمْرِ السَّنَةِ، فَيُكْتَبُ مَا يَكُونُ فِيهَا: مِنْ مَوْتٍ وَحَيَاةٍ، وَرِزْقٍ وَقَحْطٍ، وَخَيْرٍ وَشَرٍّ، عَلَى الصَّحِيحِ مِنْ أَقْوَالِ الْعُلَماءِ.

وَوَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْمَلَائِكَةُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْأَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ الْحَصَى».

إِخْوَانِي، أَيْنَ الْحَبِيبُ وَالْخَلِيلُ؟ وَدَّعَا، أَيْنَ الرَّفِيقُ؟ رَحَلَ عَنْكُمْ وَدَعَا، أَأَبْقَى الْمَوْتُ لَكُمْ فِي الْحَيَاةِ مَطْمَعًا؟ أَخَذَ الْكَبِيرَ وَالصَّغِيرَ مَعًا، صَاحَ بِالْوَالِدِ وَالوَلَدِ فَأَسْرَعَا. جُزْ عَلَى الْقَوْمِ تَرَ الْقَوْمَ خُشَّعًا.

أَيْنَ مَنْ فَسَّحَ لِنَفْسِهِ فِي الزَّلَلِ؟ أَيْنَ مَنْ خَانَهَا بِقَبِيحِ الْعَمَلِ؟ بَيْنَمَا هُوَ يَعْمُرُ رِبَاعَهَا، وَقَدِ اشْتَرَاهَا وَمَا بَاعَهَا، يَحْفِرُ فِيهَا الْأَنْهَارَ، وَيَغْرِسُ فِيهَا الْأَشْجَارَ، وَالْمَمَالِيكُ تَدُورُ حَوْلَ الدَّارِ، وَالتُّخُوتُ تُمْلَأُ وَالصَّنَادِيقُ، وَرُكْنُ الْعِزِّ فِي الدُّنْيا وَثِيقٌ، وَالْمَالُ يُجْمَعُ فَوْقَ الْمَالِ، وَالْخَيْلُ تُرْفِلُ فِي الْجِلَالِ، وَالْمَرَاكِبُ فِي الْحِلْيَةِ تُصَاغُ، وَقَدْ ضُمَّتِ الصِّحَّةُ إِلَى الْفَرَاغِ، ثُمَّ سَاعَدَ سَاعِدُ الشَّبَابِ، كَفَّ الْهَوَى عَلَى الاسْتِلَابِ.

صَاحَتْ بَيْنَ الْبَيْنِ، أَغْرِبَةُ الْبَيْنِ، فَمَزَّقَتِ الْعَيْنَ، وَأَسْخَنَتِ الْعَيْنَ. تَاللَّهِ لَقَدِ اسْتُلِبَ صَاحِبُ الْقَصْرِ، بِكَفِّ الْأَسْرِ، فَصَارَ بالْقَهْرِ، أُحْدُوثَةَ الدَّهْرِ، وَلَقَدْ كَانَ فِي غَايَةِ الْمُنَى فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ.

فَوَاعَجَبًا لِجَنَّةٍ صَارَتْ كالصَّرِيمِ بَعْدَ الزَّهْرِ.

يَا مَشْغُولًا بِمَا لَدَيهِ، عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ.

يَا غَافِلًا عَنِ الْمَوْتِ وَقَدْ دَنَا إِلَيْهِ، يَا سَاعِيًا إِلَى مَا يَضُرُّهُ بِقَدَمَيْهِ، كَمْ عَايَنَ مَيِّتًا وَاعْتَبَرَ بِعَيْنَيْهِ، أَيَنْفَعُهُ يَوْمَ الرَّحِيلِ دَمْعٌ عَلَا عَلَى خَدَّيْهِ؟

إِخْوَانِي، اجْتَهِدُوا هَذِهِ اللَّيْلَةَ فِي مَحْوِ ذُنُوبِكُمْ، وَاسْتَغِيثُوا إِلَى مَوْلَاكُمْ

مِنْ عُيُوبِكُمْ. هَذِهِ لَيالِي الْإِنَابَةِ. فِيهَا تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْإِجَابَةِ. أَيْنَ اللَّائِذُ بِالْجَنَابِ؟ أَيْنَ الْمُعْتَرِضُ بِالْبَابِ؟ أَيْنَ الْبَاكِي عَلَى مَا جَنَى؟ أَيْنَ الْمُسْتَعِدُّ لِأَمْرٍ قَدْ دَنا؟

أَلَا رُبَّ فَرِحٍ بِمَا يُؤْتَى، قَدْ خَرَجَ اسْمُهُ فِي الْمَوْتَى. أَلَا رُبَّ غَافِلٍ عَنْ تَدَبُّرِ أَمْرِهِ، قَدِ انْقَصَمَتْ عُرَى عُمْرِهِ.

أَلَا رُبَّ مُعْرِضٍ عَنْ سَبِيلِ رُشْدِهِ، قَدْ آنَ أَوَانُ شَقِّ لَحْدِهِ. أَلَا رُبَّ رَافِلٍ فِي ثَوْبِ شَبَابِهِ، قَدْ أَزِفَ فِرَاقُهُ لِأَحْبَابِهِ. أَلَا رُبَّ مُقِيمٍ عَلَى جَهْلِهِ، قَدْ قَرُبَ رَحِيلُهُ عَنْ أَهْلِهِ.

أَلَا رُبَّ مَشْغُولٍ بِجَمْعِ مَالِهِ، قَدْ حَانَتْ خَيْبَةُ آمَالِهِ. أَلَا رُبَّ سَاعٍ فِي جَمْعِ حُطَامِهِ، قَدْ دَنا تَشَتُّتُ عِظَامِهِ. أَلَا رُبَّ مُجِدٍّ فِي تَحْصِيلِ لَذَّاتِهِ، قَدْ آنَ خَرَابُ ذَاتِهِ.

أَيْنَ مَنْ كَانَ فِي مِثْلِ الْأَيَّامِ فِي مَنَازِلِهِ، مَشْغُولًا بِشَهَوَاتِهِ، مَغْرُورًا بِعاجِلِهِ؟ أَمَا أَصَابَ مَقَاتِلَهُ سَهْمُ مُقَاتِلِهِ، أَمَا ظَهَرَتْ خَسَارَتُهُ عِنْدَ حِسَابِ مُعَامِلِهِ؟

أَيْنَ الْمُعْتَذِرُ مِمَّا جَنَاهُ، فَقَدِ اطَّلَعَ عَلَيْهِ مَوْلَاهُ؟ أَيْنَ الْبَاكِي عَلَى تَقْصِيرِهِ قَبْلَ تَحَسُّرِهِ فِي مَصِيرِهِ؟

إِخْوَانِي، هَذِهِ لَيْلَةٌ أَمْرُهَا عَظِيمٌ، وَالْخَيْرُ فِيهَا جَزِيلٌ عَمِيمٌ، وَكَفَى وَصْفُهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

فِيهَا تُقَسَّمُ الْآجَالُ وَالْأَعْمَارُ، فِيهَا يُكْتَبُ الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ. كَمْ جَامِعٍ دِينَارًا إِلَى دِينَارٍ، وَأَكْفَانُهُ عِنْدَ الْقَصَّارِ، وَهُوَ يَعْمُرُ الدَّارَ عِمَارَةَ مُقِيمٍ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

كَمْ مُؤَمِّلٍ أَمَلًا خَابَ، كَمْ مَنْقُولٍ عَلَى ذَمٍّ وَعَابٍ. يَا هَذَا، مَضَى زَمَانُ

الشَّبَابِ، يَا مَنْ كَبِرَ عَلَى الزَّلَلِ وَشَابَ؛ قَدِ اسْتَشَنَّ الْأَدِيمُ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾.

يا سيِّئَ السِّرِّ وَالْعَلَنِ؛ يا جارِيًا عَلَى أَقْبَحِ سَنَنٍ؛ يَا نَاسِيًا لَحاقَ مَنْ ظَعَنَ؛ يَا سَلِيمًا فِي الْجِسْمِ وَالْبَدَنِ، لَكِنَّهُ سَلِيمٌ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾.

إِخْوَانِي، إِلَىٰ كَمْ مَعَ الْبَلَايَا، إِلَى مَتَى تَأْمَنُونَ الرَّزَايَا؟ أَيْنَ الاسْتِعْدَادُ لِلْمَنَايا؟ اعْتَذِرُوا اللَّيْلَةَ مِنَ الْخَطَايَا، فَالْمَوْلَى كَرِيمٌ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾.

أَقْبِلُوا بِالْقُلُوبِ اللَّيْلَةَ إِلَيْهِ، وَقِفُوا بِالْخُضُوعِ وَالْخُشُوعِ لَدَيْهِ، وَتَعَلَّقُوا بِجُودِهِ تَعْوِيلًا عَلَيْهِ، وَانْكَسِرُوا بِالذُّلِّ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَإِنَّهُ رَحِيمٌ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾.

مُدُّوا أَنَامِلَ الرَّجَاءِ إِلَى بَابِهِ، وَاتَّبِعُوا الْبُكاءَ طَرِيقَ أَحْبَابِهِ، وَتَعَرَّضُوا اللَّيْلَةَ لِجَزِيلِ ثَوَابِهِ، وَاحْذَرُوا مِنْ سَطْوَتِهِ وَعِقَابِهِ، فَعِقَابُهُ أَلِيمٌ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾.

بَيْنَ أَيْدِيكُمْ يَوْمٌ لَا كَالأَيَّامِ، يَنْتَبِهُ فِيهِ كُلُّ مَنْ غَفَلَ وَنامَ، وَتَزْفِرُ جَهَنَّمُ عَلَى أَهْلِ الْآثامِ، فَيَجْثُو الْخَلِيلُ وَالْكَلِيمُ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾.

قُومُوا بِنَا إِلَى مَطْلُوبِنا، قِفُوا بِنا عَلى بابِ مَحْبُوبِنا، هَلُمُّوا نَسْتَغِيثُ مِنْ ذُنُوبِنَا، لَعَلَّهُ يَهُبُّ عَلَى قُلُوبِنا مِنَ الْعَفْوِ نَسِيمٌ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾.

اللَّهُمَّ يَا مَنْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَبَنَاهُ، وَاللِّسَانَ وَأَجْراهُ، يَا مَنْ لَا يُخَيِّبُ مَنْ دَعَاهُ، هَبْ لِكُلٍّ مِنَّا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مَا رَجَاهُ، وَبَلِّغْهُ مِنْ خَيْرِ الدَّارَيْنِ مُنَاهُ.

اللَّهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ نَسْأَلُكَ باسْمِكَ الْأَعْظَمِ، الطَّيِّبِ الْمُبَارَكِ، الْأَحَبِّ إِلَيْكَ، الَّذِي إِذَا دُعِيتَ بِهِ أَجَبْتَ، وَإِذَا اسْتُرْحِمْتَ بِهِ رَحِمْتَ، وَإِذَا اسْتُفْرِجْتَ بِهِ فَرَّجْتَ، أَنْ تَجْعَلَنا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مِنَ الْمَقْبُولِينَ. وَإِلَى أَعْلَى دَرَجَاتِكَ سَابِقِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنا وَخَطَايَانا أَجْمَعِينَ، وَفَرِّجْ كُرَبَ

الْمَكرُوبِينَ، وَاقْضِ الدَّيْنَ عَنِ الْمَدِينِينَ، وَاجْبُرْ كَسْرَ الْمُنْكَسِرِينَ، وَتَطَوَّلْ بِفَضْلِكَ عَلَى الْمقَصِّرِينَ، وَأَوْسِعْ رَحْمَتَكَ عَلَى كافَّةِ الْمُسْلِمِينَ.

اللَّهُمَّ اشْفِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مَرْضَانَا، وَارْحَمْ بِفَضْلِكَ مَوْتَانَا، وَأَصْلِحْ أُمُورَ دِينِنَا وَدُنْيانا؛ وَاغْفِرْ لِمَنْ دَلَّنا إِلَى طَرِيقِ الْهِدَايَةِ؛ وَأَنْقَذَنا مِنَ الْغَوَايَةِ؛ وَجَازِهِ عَنَّا خَيْرًا يَا كَرِيمُ؛ وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْفَصْلُ السَّابِعُ

وَفِيهِ فَصْلٌ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْكَمَ الْأُمُورَ وَقَدَّرَهَا؛ وَقَدَّرَ الْأَشْيَاءَ وَدَبَّرَهَا؛ وَدَبَّرَ الْمَوْجُودَاتِ وَصَوَّرَهَا؛ وَصَوَّرَ الْخَلِيقَةَ وَأَظْهرَهَا؛ وَأَظْهَرَ الْأَسْرَارَ وَطَهَّرَهَا؛ وَطَهَّرَ الْقُلُوبَ وَنَوَّرَهَا؛ وَنَوَّرَ الْكَوَاكِبَ وَسَيَّرَهَا؛ وَسَيَّرَ الْأَفْلَاكَ وَسَخَّرَهَا؛ وَسَخَّرَ الرِّياحَ وَنَشَرَهَا؛ وَنَشَرَ السُّحُبَ وَأَمْطَرَهَا؛ وَشَرَّفَ شَهْرَ رَمَضَانَ عَلَى جَمِيعِ الشُّهُورِ، وَخَصَّ لَيَالِيَهُ بِالْفَضْلِ الْمَشْهُورِ، وَبِتَوْفِيرِ الْأُجُورِ شَهَّرَهَا، خَصَّهَا بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، الَّتِي هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، وَفَضَّلَهَا وعَظَّمَ قَدْرَهَا.

فَسُبْحَانَ مَنِ اطَّلَعَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الشَّرِيفَةِ عَلَى الذُّنُوبِ فَغَفَرَهَا؛ وَعَلَى الْعُيُوبِ فَسَتَرَهَا.

أَحْمَدُهُ علَى نِعَمِهِ الَّتِي نَشَرَهَا وَأَغْزَرَهَا.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ شَهَادَةً نَافِعَةً لِمَنْ عِنْدَهُ ادَّخَرَهَا.

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسولُهُ؛ الَّذِي أَيَّدَ اللَّهُ بِهِ الشَّرِيعَةَ وَنَصَرَهَا، وَهَدَى بِهِ الْأُمَّةَ إِلَى طَرِيقِ الصَّوَابِ وَبَصَّرَهَا. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى

آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وذرِّيَّتِهِ الَّتِي بَرَّأَهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الرِّجْسِ وَطَهَّرَهَا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ».

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: بَيْتُ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَفِي تَسْمِيَتِهَا بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ خَمْسَةُ وُجُوهٍ.

أَحَدُهَا: أَنَّ الْقَدْرَ هُوَ الْعَظَمَةُ، وَهِيَ لَيْلَةٌ عَظِيمَةٌ شَرِيفَةٌ.

الثَّانِي: أَنَّهُ الضِّيقُ، فَهِيَ لَيْلَةٌ تَضِيقُ فِيهَا الْأَرْضُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَنْزِلُونَ مِنَ السَّمَاءِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ الْقَدْرَ هُوَ الْحُكْمُ، فَإِنَّ الْأَشْيَاءَ تُقَدَّرُ فِيهَا.

الرَّابِعُ: أَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَدْرٌ، يَصِيرُ بِمُرَاعَاتِهَا ذَا قَدْرٍ.

الْخَامِسُ: أَنَّهُ نَزَلَ فِيهَا كِتَابٌ ذُو قَدْرٍ، وَمَلَائِكَةٌ ذَوُو قَدْرٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ.

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَمَلَ السِّلَاحَ أَلْفَ شَهْرٍ عَلَى عَاتِقِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَعَجِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِذَلِكَ، وَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي أُمَّتِهِ، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَقَالَ: هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، الَّتِي حَمَلَ الْإِسْرَائِيلِيُّ فِيهَا السِّلَاحَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: قِيَامُهَا وَالْعَمَلُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ.

وَقِيلَ قَوْلٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ فِيمَا مَضَى لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقَالَ لَهُ:

عَابِدٌ حَتَّى يَعْبُدَ اللَّهَ تَعَالَى أَلْفَ شَهْرٍ، فَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لَيْلَةَ الْقَدْرِ خَيْرًا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ كَانُوا يَعْبُدُونَ فِيهَا.

وقِيلَ قَوْلٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أُرِيَ أَعْمَارَ مَنْ مَضَى قَبْلُ، فَرَأَى أَعْمَارَ أُمَّتِهِ أَقْصَرَ أَعْمَارِ الْأُمَمِ قَبْلُ، فَقَالَ: «لَوْ طَالَتْ أَعْمَارُ أُمَّتِي لَعَمِلُوا مِثْلَ مَا عَمِلُوا، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لَيْلَةَ الْقَدْرِ خَيْرًا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» الَّتِي كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا مَنْ كَانَ قَبْلَ أُمَّتِهِ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْأَلْفَ شَهْرٍ مِنْ هَذَا الزَّمَانِ لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «الْمَلَائِكَةُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْأَرْضِ أَكْثَرُ مِنَ الْحَصَى».

وَقَوْلُه: ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ.

أَحَدُهَا: أَنَّهُ جِبْرِيلُ. قَالَهُ الْأَكْثَرُونَ، وَهُوَ الصَّحِيحُ. لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا كَانَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ نَزَلَ جِبْرِيلُ فِي كَبْكَبَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، يُصَلُّونَ وَيُسَلِّمُونَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ قَائِمٍ أَوْ قَاعِدٍ يَذْكُرُ اللَّهَ عز وجل».

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ الرُّوحَ طَائِفَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَا تَرَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا تِلْكَ اللَّيْلَةَ يَنْزِلُونَ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ.

وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ مَلَكٌ عَظِيمٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: تَنْزِلُ بِكُلِّ أَمْرٍ قَضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى تِلْكَ السَّنَةَ إِلَى قَابِلَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ أَيْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ سَلَامٌ. وَفِي مَعْنَى السَّلام قَوْلَانِ.

أَحَدُهما: أَنَّهُ لَا يَحْدُثُ فِيهَا دَاءٌ، وَلَا يُرْسَلُ فِيهَا شَيْطَانٌ.

وَالثَّانِي: أَنَّ مَعْنَى السَّلَامِ: الْخَيْرُ وَالْبَرَكَةُ.

إِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ لَيْلَةٌ عَظِيمَةٌ شَرِيفَةٌ، وَأَنَّها بَاقِيَةٌ لَمْ تُرْفَعْ عَلَى الصَّحِيحِ، وَأَنَّهَا فِي رَمَضَانَ، وَأَنَّها فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْهُ، وَلَكِنْ اخْتُلِفَ فِي تَعْيِينِهَا، فَنَذْكُرُ بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ مَا تَيَسَّرَ مِنْ أَقْوَالِ الْعُلَماءِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا بَعْضَ الْإِشَارَةِ إِلَى ذَلِكَ.

فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّها لَيْلَةُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ. وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِي. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ قَالَ: أُرِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، ثُمَّ أُنْسِيهَا. وَقَالَ: أُرَانِي أَسْجُدُ فِي مَاءٍ وَطِينٍ، فَوَالَّذِي أَكْرَمَهُ، لَرَأَيْتُهُ يُصَلِّي بِنَا صَلَاةَ الْمَغْرِبِ لَيْلَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، وَإِنَّ جَبْهَتَهُ وَأَرْنَبَةَ أَنْفِهِ لَفِي الْمَاءِ وَالطِّينِ».

وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّها لَيْلَةُ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ، وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَفِيهَا قَوْلٌ لِلشَّافِعِي.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ: «إِنِّي أَسْجُدُ صَبِيحَتَهَا فِي مَاءٍ وَطِينٍ، فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ يَوْمَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ وَعَلَى جَبْهَتِهِ أَثَرُ الْمَاءِ وَالطِّينِ» وَقَدْ تَقَدَّمَ أَدِلَّةُ أَصْحَابِ هَذَا الْقَوْلِ.

وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّها لَيْلَةُ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ.

كَانَ حُمَيْدٌ وَأَيُوبُ وَثَابِتٌ يَغْتَسِلُونَ فِي لَيْلَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ، وَيَقُولُ أَيُّوبُ: «لَيْلَةُ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ».

وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّها لَيْلَةُ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَى الْبُخَارِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْتَمِسُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى، فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى، فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى».

وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّها لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، قُلْتُ: وَهُوَ الصَّحِيحُ. وَهُوَ

مَذْهَبُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ: مَا رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أَنَّهُ كَانَ يَحْلِفُ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يَسْتَثْنِي، وَكَذَا زِرُّ بْنُ حُبَيْشٍ وَعَبْدَةُ بْنُ أَبِي لُبَابَةَ.

وَرَوَى مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: «إِنِّي وَاللَّهِ لَأَعْلَمُ أَيُّ لَيْلَةٍ هِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، هِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي أَمَرَنا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقِيامِهَا وَهِيَ لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ».

وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ السَّهْمِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ زِرًّا عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ فَقَالَ: «كَانَ عُمَرُ وَحُذَيْفَةُ وَأُناسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّه ﷺ لا يَشُكُّونَ أَنَّها لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ».

وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ مُتَحَرِّيَهَا فَلْيَتَحَرَّهَا لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ ـ أَوْ قَالَ: تَحَرَّوْهَا لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِين ـ يَعْنِي ـ لَيْلَةَ الْقَدْرِ».

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ أَنَّها اللَّيْلَةُ السَّابِعَةُ مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ».

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادِهِ عَنْ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ» وَهَذَا قَوْلُ أَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْهِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ.

وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي شَيْخٌ كَبِيرٌ عَلِيلٌ يَشُقُّ عَلَيَّ الْقِيَامُ، فَمُرْنِي بِلَيْلَةٍ يُوَفِّقُني اللَّهُ فِيهَا لِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَقَالَ: عَلَيْكَ بِالسَّابِعَةِ وَالْعِشْرِينَ» وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا: قِيامُ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ فِي لَيْلَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ إِلَى آخِرِ اللَّيْلِ، حَتَّى خَشَوْا أَنْ يَفُوتَهُمُ السُّحُورُ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَمَعَ أَهْلَهُ وَجَمَعَ النَّاسَ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ» وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى تَأَكُّدِهَا عَلَى سَائِرِ لَيالِي الْعَشْرِ.

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي كِتَابِهِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ وَعَاصِمٍ: أَنَّهُما سَمِعَا عِكْرِمَةَ يَقُولُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «دَعَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَأَجْمَعُوا أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقُلْتُ لِعُمَرَ: إِنِّي لَأَعْلَمُ - أَوْ إِنِّي لَأَظُنُّ - أَيُّ لَيْلَةٍ هِيَ؟ قَالَ عُمَرُ: وَأَيُّ لَيْلَةٍ هِيَ؟ قُلْتُ: سَابِعَةٌ تَمْضِي، أَوْ سَابِعَةٌ تَبْقَى مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَقَالَ عُمَرُ: مِنْ أَيْنَ عَلِمْتَ ذَلِكَ؟ فَقُلْتُ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَسَبْعَ أَرْضِينَ وَسَبْعَةَ أَيَّامٍ، وَإِنَّ الدَّهْرَ يَدُورُ عَلَى سَبْعٍ، وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ سَبْعٍ، وَيَأْكُلُ مِنْ سَبْعٍ، وَيَسْجُدُ عَلَى سَبْعٍ، وَالطَّوَافُ بِالْبَيْتِ سَبْعٌ، وَرَمْيُ الْجِمَارِ سَبْعٌ. فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: لَقَدْ فَطِنْتَ لِأَمْرٍ مَا فَطِنْتُ لَهُ».

وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ التَّرَدُّدُ فِي: «سَابِعَةٍ تَبْقَى أَوْ سَابِعَةٍ تَمْضِي».

وَقَدْ رُوِيَ بِغَيْرِ هَذَا اللَّفْظِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: «بَيْنَمَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ جَالِسٌ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ذَكَرُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ وَمَعَهُمُ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، فَتَكَلَّمَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ بِمَا سَمِعَ عَنْهَا وَابْنُ عَبَّاسٍ سَاكِتٌ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ سَاكِتٌ لَا تَتَكَلَّمُ؟ تَكَلَّمْ وَلَا تَمْنَعْكَ الْحَدَاثَةُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ، وَإِنَّهُ جَعَلَ أَيَّامَ الدُّنْيَا تَدُورُ عَلَى سَبْعٍ، وَخَلَقَ أَرْزَاقَنَا مِنْ سَبْعٍ، وَجَعَلَ فَوْقَنَا سَبْعًا، وَجَعَلَ تَحْتَنَا سَبْعًا، وَجَعَلَ الْبِحَارَ سَبْعًا، وَجَعَلَ مَا يَقَعُ فِي السُّجُودِ مِنْ أَعْضَائِنَا سَبْعًا، وَحَرَّمَ مِنْ نِكَاحِ الْأَقْرَبِينَ سَبْعًا، وَقَسَمَ الْمَوَارِيثَ بَيْنَهُمْ عَلَى سَبْعٍ، وَأَعْطَى نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ الْمَثَانِيَ سَبْعًا، وَالطَّوَافُ بِالْبَيْتِ سَبْعًا، وَرَمْيُ الْجِمَارِ سَبْعًا، فَأَظُنُّهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ فِي لَيْلَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَعَجَّبَ عُمَرُ، وَقَالَ: يَا قَوْمِ مَنْ كَانَ يَرْوِي هَذَا كَرِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ؟».

قَالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: وَمِمَّا اسْتَدَلَّ بِهِ مَنْ رَجَّحَ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ الْآيَاتُ وَالْعَلَامَاتُ الَّتِي رُئِيَتْ فِيهَا قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمَا وَقَعَ فِيهَا مِنْ إِجَابَةِ الدَّعَوَاتِ.

كَانَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ﷺ يَسْتَدِلُّ عَلَى ذَلِكَ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ صَبِيحَتَهَا لَا شُعَاعَ لَهَا.

وَكَانَ عَبْدَةُ بْنُ أَبِي لُبَابَةَ يَقُولُ: هِيَ لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، وَيَسْتَدِلُّ عَلَى ذَلِكَ بِأَشْيَاءَ قَدْ جَرَّبَهَا وَبِالنُّجُومِ. خَرَّجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ.

وَرُوِيَ عَنْ عَبْدَةَ أَيْضًا: «أَنَّهُ ذَاقَ مَاءَ الْبَحْرِ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، فَإِذا هُوَ عَذْبٌ» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ طَافَ بَعْضُ السَّلَفِ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ، فَرَأَى الْمَلَائِكَةَ فِي الْهَوَى طَائِفِينَ فَوْقَ رُءُوسِ النَّاسِ.

وَرَوَى أَبُو مُوسَى الْمَدِينِيُّ مِنْ طَرِيقِ أَبِي الشَّيْخِ الْأَصْبَهَانِيِّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ حَمَّادِ بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ قَالَ: كُنْتُ بِالسَّوَادِ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ جَعَلْتُ أَنْظُرُ بِاللَّيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَنْظُرُ؟ فَقُلْتُ: إِلَى لَيْلَةِ الْقَدْرِ، قَالَ: فَنَمْ فَسَأُخْبِرُكَ. فَلَمَّا كَانَ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ جَاءَ وَأَخَذَ بِيَدِي، فَذَهَبَ بِي إِلَى النَّخْلِ، فَإِذَا النَّخْلُ وَاضِعٌ سَعَفَهُ فِي الْأَرْضِ، فَقَالَ: لَسْنَا نَرَى هَذَا فِي السَّنَةِ كُلِّها إِلَّا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ.

وَذَكَرَ أَبُو مُوسَى أَيْضًا: أَنَّ رَجُلًا مُقْعَدًا دَعَا اللَّهَ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، فَأُطْلِقَ.

وَعَنِ امْرَأَةٍ مُقْعَدَةٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَتِ اللَّهَ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، فَأُطْلِقَتْ.

وَعَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ كَانَ أَخْرَسَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، فَدَعَا اللَّهَ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ فَأُطْلِقَ لِسَانُهُ وَتَكَلَّمَ.

وَذَكَرَ الْوَزِيرُ أَبُو الْمُظَفَّرِ بْنُ هُبَيْرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ رَأَى لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ ـ وَكَانَ لَيْلَةَ جُمُعَةٍ ـ بَابًا فِي السَّمَاءِ مَفْتُوحًا سَامِيَّ الْكَعْبَةِ. قَالَ:

فَظَنَنْتُهُ حِيَالَ الْحُجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، قَالَ: وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى الْتَفَتُّ إِلَى الْمَشْرِقِ لِأَنْظُرَ طُلُوعَ الْفَجْرِ، ثُمَّ الْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَوَجَدْتُهُ غَابَ.

وَبِهَذَا قَدِ اسْتَدَلَّ مَنْ رَجَّحَ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ فِي الْإِفْرَادِ.

وقَدِ اسْتَنْبَطَ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْقُرْآنِ أنها لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ مِنْ مَوْضِعَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ اللَّه تَعَالَى ذَكَرَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي سُورَةِ الْقَدْرِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ مِنْهَا، وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ حُرُوفُهَا تِسْعٌ، وَالتِّسْعُ إِذَا ضُرِبَتْ فِي ثَلَاثَةٍ فَهِيَ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ.

الثَّانِي: أَنَّهُ قَالَ: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ فَكَلِمَةُ «هِيَ» السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ مِنَ السُّورَةِ، فَإِنَّ كَلِمَاتِهَا كُلَّها ثَلَاثُونَ كَلِمَةً.

وَقَالَ زِرُّ بْنُ حُبَيْشٍ: آمُرُكُمْ بِالاغْتِسَالِ فِي لَيْلَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ زِرٍّ قَالَ: قُلْتُ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: «إِنَّها لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ؟ قَالَ: بَلَى، أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهَا لَيْلَةٌ صَبِيحَتُهَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ لَيْسَ لَها شعَاعٌ. فَعَدَدْنا وَحَفِظْنَا، وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَنَّهَا فِي رَمَضَانَ وَأَنَّهَا لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، وَلَكِنْ كَرِهَ أَنْ يُخْبِرَكُمْ فَتَتَّكِلُوا» هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «مَتَى لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ فَقَالَ: مَنْ يَذْكُرُ مِنْكُمْ لَيْلَةَ الصَّهْبَاوَاتِ؟ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: أنا، بِأَبِي أَنْتَ وأُمِّي، وَإِنَّ فِي يَدَيَّ لَتَمْرَاتٍ أَتَسَحَّرُ بِهِنَّ مُسْتَتِرًا بِمُؤَخَّرَةِ رَحْلِي، مِنَ الْفَجْرِ وَذَلِكَ حِينَ طَلَعَ الْقَمَرُ» رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ.

وَزَادَ يَعْقُوبُ بْنُ شَيْبَةَ فِي مُسْنَدِهِ: «وَذَلِكَ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ».

فَتَبَيَّنَ بِهَذِهِ الْأَدِلَّةِ مَزِيَّةُ هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَتَأَكُّدُهَا عَلَى غَيْرِهَا.

وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّها لَيْلَةُ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ.

وَاسْتَدَلَّ بِمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوِتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ». وَهَذَا دَلِيلٌ عَامٌّ فِي كُلِّ الْأَوْتَارِ. وَيَعُمُّ لَيْلَةَ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ.

وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّها فِي لَيالِي الْعَشْرِ كُلِّها أَشْفَاعِهَا وَأَوْتَارِهَا.

وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ ﷺ: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ.

وَرُوِيَ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهَا» ذَكَرَهُ التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا.

وَعَنِ الْحَسَنِ وَمَالِكٍ: أَنَّها تُطْلَبُ فِي جَمِيعِ لَيالِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، أَشْفَاعِهِ وَأَوْتَارِهِ.

قَالَ ابْنُ رَجَبٍ: وَرَجَّحَ بَعْض أَصْحَابِنَا أَنَّها تُطْلَبُ فِي جَمِيعِ لَيالِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، أَشْفَاعِهَا وَأَوْتَارِهَا.

فَيُوجِبُ ذَلِكَ الاجْتِهَادَ فِي جَمِيعِ لَيالِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ وَإِحْيَائِها، فَإِنْ عَجَزَ فَلْيَقُمْ أَفْرَادَهَا، فَإِنْ عَجَزَ فَلْيَقُمْ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ فَإِنَّهَا أَرْجَى قَطْعًا مِنْ غَيْرِهَا، كَما قَدَّمْنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

هِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ الَّتِي شَرُفَتْ عَلَى ... كُلِّ الشُّهُورِ وَسَائِرِ الْأَعْوَامِ
مَنْ قَامَهَا يَمْحُو الْإِلٰهُ بِفَضْلِهِ ... عَنْهُ الذُّنُوبَ وَسَائِرَ الْآثَامِ
فِيهَا تَجَلَّى الْحَقُّ جَلَّ جَلَالُهُ ... وَقَضَى الْقَضَاءَ وَسَائِرَ الْأَحْكَامِ
فَادْعُوهُ وَاطْلُبْهُ لِكَيْ تُعْطَى الْمُنَى ... وَتُجَابُ بِالْإِنْعَامِ وَالْإِكْرَامِ
فَاللَّهُ يَرْزُقُنا الْقَبُولَ بِفَضْلِهِ ... وَيَجُودُ بِالْغُفْرَانِ لِلصُّوَّامِ
وَيُذِيقُنَا فِيهَا حَلَاوَةَ عَفْوِهِ ... وَيُمِيتُنَا حَقًّا عَلَى الْإِسْلَامِ

فَصْلٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾﴾.

اعْلَمْ أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ لَيْلَةٌ شَرِيفَةٌ، فِيهَا يَتَجَلَّى رَبُّ الْأَرْبَابِ، وَيُجْزِلُ لِلْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ الثَّوَابَ، وَيُسْمَعُ فِيهَا الدُّعَاءُ وَيُسْتَجَابُ، فِيهَا تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِأَمْرِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَيُسَلِّمُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فِيهَا تَتَلَأْلَأُ الْأَنْوَارُ، وَيُكْنِزُ الْمَلَائِكَةُ لِلصَّائِمِينَ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ، وَالْحِكْمَةُ فِي نُزُولِ الْمَلَائِكَةِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ: أَنَّ الْمُلُوكَ وَالسَّادَاتِ لَا يُحِبُّونَ أَنْ يَدْخُلَ دَارَهُمْ أَحَدٌ حَتَّى يُزَيِّنُوا دَارَهُمْ بِالْفُرُشِ وَالْبُسُطِ، وَيُزَيِّنُوا عَبِيدَهُمْ؛ فَإِذَا كَانَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ أَمَرَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمَلَائِكَةَ بِالنُّزُولِ إِلَى الْأَرْضِ كَأَنَّ الْعِبَادَ زَيَّنُوا أَنْفُسَهُمْ بِالطَّاعَاتِ بِالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ فِي لَيَالِي رَمَضَانَ، وَزَيَّنُوا مَسَاجِدَهُمْ بِالْقَنَادِيلِ وَالْمَصَابِيحِ، فَيُبَاهِي اللَّهُ بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنْتُمْ طَعَنْتُمْ فِي بَنِي آدَمَ، وَقُلْتُمْ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ﴾ فَقُلْتُ لَكُمْ: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ اذْهَبُوا إِلَيْهِمْ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ حَتَّى تَرَوْهُمْ قَائِمِينَ سَاجِدِينَ رَاكِعِينَ، لِتَعْلَمُوا أَنِّي اخْتَرْتُهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ.

فَيَا إِخْوَانِي: اللَّهَ اللَّهَ فِي الْاجْتِهَادِ لِتُرْضُوا رَبَّكُمْ.

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِمِثْلِهِ.

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْظُرُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَعْفُو عَنْهُمْ وَيَرْحَمُهُمْ إِلَّا أَرْبَعَةً: مُدْمِنَ خَمْرٍ، وَعَاقًّا لِوَالِدَيْهِ، وَمُشَاحِنًا، وَقَاطِعَ رَحِمٍ».

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: الدُّعَاءُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ. قَالَ: وَإِذَا كَانَ يَقْرَأُ وَيَدْعُو، وَيَرْغَبُ إِلَى اللَّهِ فِي الدُّعَاءِ وَالْمَسَأَلَةِ لَعَلَّهُ يُوَافِقُ.

وَمُرَادُهُ: أَنَّ كَثْرَةَ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ الَّتِي لَا يَكْثُرُ فِيهَا الدُّعَاءُ، وَإِنْ قَرَأَ وَدَعَا كَانَ أَوْلَى وَأَحْسَنَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الْقِيَامِ وَالْقِرَاءَةِ مَا كَانَ عَلَى تَدَبُّرٍ وَدُعَاءٍ وَتَفَكُّرٍ وَتَرْتِيلٍ كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، لِأَنَّهُ: «كَانَ يَتَهَجَّدُ فِي لَيَالِي رَمَضَانَ وَيَقْرَأُ قِرَاءَةً مُرَتَّلَةً مُتَرَسِّلًا» وَهُو أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ وَأَكْمَلُهَا فِي لَيَالِي الْعَشْرِ وَغَيْرِهَا.

قَالَ الشَّعْبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: لَيْلَةُ الْقَدْرِ نَهَارُهَا كَلَيْلِهَا.

وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ اجْتِهَادُهُ فِي نَهَارِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ كَاجْتِهَادِهِ فِي لَيْلِهَا. وَهَذَا يَقْتَضِي اسْتِحْبَابَ الْاجْتِهَادِ فِي جَمِيعِ زَمَانِ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ: لَيْلِهَا وَنهَارِهَا. قالَهُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وَقَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ: مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ كُفِّرَتْ عَنْهُ كَبَائِرُ الذُّنُوبِ وَصَغَائِرُهَا.

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَتَى يُقْبَلُ مَنْ رُدَّ في لَيْلَةِ الْقَدْرِ؟».

وَرُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَتْ: «إِنْ وَافَيْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ؟ قَالَ: قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فاعْفُ عَنِّي».

وَاعْلَمْ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ الدُّعَاءُ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي الْمُبَارَكَةِ، وَفِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ خَاصَّةً.

فَأَنَا أَذْكُرُ لَكَ بَعْضَ الْأَدْعِيَةِ النَّافِعَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى:

رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ فِي السُّجُودِ: «سَجَدَ لَكَ سَوَادِي وَخَيالِي، وَآمَنَ بِكَ فُؤَادِي. هَذِهِ يَدِي وَمَا جَنَيْتُ بِهَا عَلَى نَفْسِي، يَا عَظِيمٌ يُرْجَى لِكُلِّ أَمْرٍ عَظِيمٍ، يَا عَظِيمُ اغْفِرِ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ. أَقُولُ

كَما قَالَ دَاوُدُ: أُعَفِّرُ وَجْهِيَ بِالتُّرَابِ لِسَيِّدِي. وَحَقَّ لَهُ أَنْ يَسْجُدَ. سَجَدَ وَجْهِي لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ ـ ثُمَّ رَفَعَ وَدَعَا ثُمَّ سَجَدَ ـ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ مُعَاقَبَتِكَ. وَأَعُوذ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ».

وَكَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتَلُمُّ بِهَا شَعْثِي، وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمُنِي بِهَا رُشْدِي، وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي، وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ. اللَّهُمَّ أَعْطِنِي إِيمَانًا وَيَقِينًا لَيْسَ بَعْدَهُ كُفْرٌ، وَرَحْمَةً أَنَالُ بِهَا شَرَفَ كَرَامَتِكَ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ».

وَكَانَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ الَّذِي تَعَطَّفَ بِالْعِزِّ وَقَالَ بِهِ. سُبْحَانَ الَّذِي لَبِسَ الْمَجْدَ وَتَكَرَّمَ بِهِ. سُبْحَانَ الَّذِي لَا يَنْبَغِي التَّسْبِيحُ إِلَّا لَهُ. سُبْحَانَ الَّذِي الْفَضْلُ وَالنِّعَمُ بِيَدِهِ. سُبْحَانَ ذِي الْجُودِ وَالْكَرَمِ. سُبْحَانَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

وَكَانَ يَقُولُ فِي الرُّكُوعِ: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي وَعَصَبِي».

وَكَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْبُخْلِ، وَغَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجالِ».

وَكان يَقُولُ: «لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ. لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

وَمِمَّا يُرْجَى لِسُرْعَةِ الْإِجَابَةِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، يَا قَدِيمُ يَا فَرْدُ يَا وِتْرُ يَا أَحَدُ، يَا صَمَدُ يَا رَحْمٰنُ يَا رَحِيمُ.

وَمِمَّا يُرْجَى أَيْضًا: يَا وَدُودُ، يَا ذَا الْعَرْشِ الْمَجِيدِ. يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

وَمِمَّا يُرْجَى أَيْضًا: يَا حَلِيمُ يَا عَظِيمُ، يَا غَفَّارُ يَا سَتَّارُ، يَا قَهَّارُ يَا جَبَّارُ، يَا نُورُ يَا حَقُّ يَا مُبِينُ.

وَمِمَّا يُرْجَى أَيْضًا: يَا قَرِيبُ يَا مُجِيبُ، يَا مُعِزُّ يَا مُذِلُّ، يَا خَافِضُ يَا رَافِعُ، يَا ضَارُّ يَا نَافِعُ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا سَمِعَ رَجُلًا يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ الْحَنَّانُ الْمَنَّان بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، «أَتَدْرُونَ بِمَا دَعَا اللَّهَ؟ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ؟ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى».

وَقِيلَ: إِنَّ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ: «يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: «كَيْفَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ؟» قَالَ: أَتَشَهَّدُ وَأَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، أَمَا إِنِّي لَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ» وَالْأَدْعِيَةُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ مَشْهُورَةٌ، وَالْمَقْصُودُ التَّنْبِيهُ عَنِ الْغَفْلَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

لِلَيْلَةِ الْقَدْرِ عِنْدَ الرَّبِّ تَفْضِيلُ ... وَفِي فَضَائِلِهَا قَدْ جَاءَ تَنْزِيلُ
فَجِدَّ فِيهَا عَلَى خَيْرٍ تَنَالُ بِهِ ... أَجرًا فَلِلْخَيْرِ عِنْدَ الرَّبِّ تَفْضِيلُ
وَاحْرِصْ عَلَى فِعْلِ أَعْمَالٍ تُسَرُّ بِهَا ... يَوْمَ الْمَعَادِ، وَلَا يَغْرُرْكَ تَأْمِيلُ
فَكَمْ رَأَيْنَا صَحِيحَ الْجِسْمِ ذَا أَمَلٍ ... فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ لَمْ يَبْلُغْهُ تَنْوِيلُ
فَتُبْ إِلَى اللَّهِ وَاحْذَرْ مِنْ عُقُوبَتِهِ ... عَنْ كُلِّ مَا فِيهِ تَوْبِيخٌ وَتَنْكِيلُ
وَلَا تَغُرَّنَّكَ الدُّنْيَا وَزُخْرُفُهَا ... فَكُلُّ شَيْءٍ سِوَى التَّقْوَى أَبَاطِيلُ

إِخْوَانِي: لَيْلَةُ الْقَدْرِ يُفْتَحُ فِيهَا الْبَابُ، وَتُقَرَّبُ الْأَحْبَابُ، وَيُسْمَعُ الْخِطَابُ، وَيُرَدُّ الْجَوَابُ، وَيُكْتَبُ لِلْعَامِلِينَ فِيهَا جَزِيلُ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ. هِيَ لَيْلَةٌ تَتَلَقَّى فِيهَا الْوُفُودُ، وَيَحْصُلُ لَهُمُ الْمَقْصُودُ، مِنَ الْقَبُولِ وَالْفَوْزِ وَالسُّعُودِ، أَتُرَى يُؤْلِمُكَ أَيُّهَا الْمَطْرُودُ؟ هَذِهِ أَوْقَاتٌ يَرْبَحُ فِيهَا مَنْ فَهِمَ وَدَرَى، وَيَصِلُ إِلَى

مُرادِهِ كُلُّ مَنْ جَدَّ وَسَرَى، وَيُفَكُّ فِيهَا الْعَانِي وَتُطْلَقُ الْأَسْرَى، تَقَدَّمَ الْقَوْمُ وَأَنْتَ رَاجِعٌ إِلَى وَرَا، أَوَ لَيْسَ كُلُّ هَذَا قَدْ جَرَى وَكَأَنَّهُ لَمْ يَجْرِ؟

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

يَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ لِلْعابِدِينَ اشْهَدِي، يَا أَقْدَامَ الْقَانِتِينَ ارْكَعِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي، يَا أَلْسِنَةَ السَّائِلِينَ حدِّي، وَفِي الْمَسْأَلَةِ مِنْ رَبِّكِ اجْتَهِدِي.

إِخْوانِي: انْظُرُوا إِلَى مَا خَصَّكُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْإِنْعَامِ وَالْإِكْرَام، وَحَبَاكُمْ بِهِ مِنَ الْعَطَايَا الْجِسَامِ، وَشَرَّفَكُمْ بِنَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَرَسُولِ الْهُدَى، وَأَنْقَذَكُمْ بِبَرَكَتِهِ مِنَ الرَّدَى، فَاسْتَدْرِكُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ مَوَاسِمَ الْعُمْرِ، فَحَادِي الْمَوْتِ بِالرَّحِيلِ قَدْ حَدَا. وَاغْتَنِمُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ؟ فَلَعَلَّ أَنْ تُكْتَبُوا فِي دِيوَانِ السُّعداءِ، فَإِنَّها لَيْلَةٌ تَفُوقُ لَيالِيَ الدَّهْرِ، وَهِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَا دَعَا اللَّهَ فِيهَا دَاعٍ إِلَّا أَجابَهُ. وَبَلَّغَهُ أَمَلًا وَمَقْصِدًا، وَلَا سَأَلَهُ سَائِلٌ إِلَّا أَعْطَاهُ سُؤْلَهُ، وَجَادَ عَلَيْهِ بِالْفَضْلِ وَالنَّدَى، فَيَا فَوْزَ مَنْ أَحْيَاهَا، وَيَا سَعَادَةَ مَنْ رَآهَا، لَقَدْ نالَ فَخْرًا وَسُؤْدُدًا.

وَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ الإِسْنَادِ: أَنَّهَا تُلْتَمَسُ فِي الْأَفْرَادِ، فَاطْلُبُوهَا فِي هَذِهِ الْأَعْدَادِ، تَظْفَرُوا بِحُسْنِ الْقَبُولِ وَنَيْلِ الْمُرادِ، وَأَرْجَاهَا السَّابِعَةُ مِنَ الْعَشْرِ ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

هِيَ لَيْلَةٌ يَجُودُ فِيهَا الرَّبُّ عَلَى الْعِبادِ، وَيَقْضِي فِيهَا الْقَضَاءَ بِمَا شَاءَ وَأَرَادَ، تُكْتَبُ فِيهَا الْآجَالُ وَالْأَرْزَاقُ، وَهِيَ أَفْضَلُ اللَّيَالِي فِي حَقِّنَا عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَاغْتَنِمُوهَا فَإِنَّهَا عَظِيمَةُ الْقَدْرِ ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

يَا أَيُّهَا الْعَبْدُ قُمْ لِلَّهِ مُجْتَهِدًا ... وَانْهَضْ كَمَا نَهَضَتْ مِنْ قَبْلِكَ السُّعَدَا
فذِي لَيَالِي الرِّضَا جَاءَتْ وَأَنْتَ عَلَى ... فِعْلِ الْقَبِيحِ مُصِرٌّ مَا جَلَوْتَ صَدَى
قُمْ فاغْتَنِمْ لَيْلَةً تَحيَا النُّفُوسُ بِهَا ... وَمِثْلُهَا لَمْ يَكُنْ فِي فَضْلِهَا أَبَدَا
طُوبَى لِمَنْ مَرَّةً فِي الْعُمْرِ أَدْرَكَهَا ... وَنَالَ مِنْهَا الَّذِي يَبْغِيهِ مُجْتَهِدَا
فَلَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ قَالَ خَالِقُنا ... (مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) هَنِيئًا مَنْ لَها شَهِدَا

فِيهَا الْقُرَآنُ بِأَمْرِ اللَّهِ أَنْزَلَهُ ... بِعِلْمِهِ، وَبِهَذَا النَّصِّ قَدْ وَرَدَا
فِيهَا تُفَتَّحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لِمَنْ ... يَرَى مِنَ الْكَشْفِ مَنْ يُعطى بِهَا مَدَدَا
وَيَنْزِلُ الرُّوحُ فِيهَا وَالْمَلَائِكُ مِنْ ... عِنْدِ الْمُهَيْمِنِ، لَنْ تُحْصِيَ لَهُمْ عَدَدَا
يَا فَوْزَ عَبْدٍ رَآهَا إِنَّهُ رَجُلٌ ... قَدْ عَاشَ فِي الدَّهْرِ عَيْشًا دَائِمًا رَغِدَا
وَفَازَ بِالْأَمْنِ وَالْغُفْرَانِ مُغْتَبِطًا ... وَنَالَ مَا يَرْتَجِي مِنْ رَبِّهِ أَبَدَا
فاطْلُبْ مِنَ اللَّهِ إِنْ وَافَيْتَهَا سَحَرًا ... جَنَّاتِ عَدْنٍ تَكُنْ مِنْ جُمْلَةِ السُّعَدَا
وَابْكِ وَنُحْ وَتَضَرَّعْ فِي الدُّجَى أَسَفًا ... وَقُلْ: إِلَهِي تَفَضَّلْ بِالْجَمِيلِ غَدَا

عِبَادَ اللَّهِ: مَتَى يُغْفَرُ لِمَنْ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ فِي رَمَضَانَ؟ مَتَى يُقْبَلُ مَنْ رُدَّ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْغُفْرَانِ؟ مَتَى يُزْلَفُ مَنْ رُمِيَ فِيهِ بِالْإِبْعَادِ وَالْهِجْرَانِ؟ مَتَى يُشْفَى قَلْبٌ لَمْ تُشْفِهِ آياتُ الْقُرْآنِ؟ يَا لَها خَسَارَةً لَا تُشْبِهُ الْخُسْرَانَ! أَنْ تَرَى الْمُحْسِنِينَ قَدْ حَظُوا بِالْقُرْبِ وَالزُّلْفَى وَالرِّضْوَانِ. وَأُزْلِفَتْ لَهُمُ الْجَنَّاتُ وَأُلْبِسُوا التِّيجَانَ، وَأُعْطوا الْمُلْكَ وَالْخُلْدَ وَأُدْخِلُوا عَلَى الرَّحْمٰنِ، وَقَدْ رُمِيتَ بِالطَّرْدِ وَالْإِبْعَادِ وَالْحِرْمَانِ، تُغَلُّ وَتُجَرُّ إِلَى النِّيرَانِ، أَتُرَى قَلْبَكَ هَذَا نَائِمًا أَمْ يَقْظَانَ، قُمْ عَلَى أَقْدَامِ الذُّلِّ وَقْتَ السَّحَرِ، فَلِلرَّحْمَةِ مَعَ السَّحَرِ شَانٌ، وَنادِ فِي نَادِ الذُّلِّ: يَا صَاحِبَ الْإِحْسَانِ، فَمَا حِيلَةُ مَنْ طُرِدَ عَنِ الْبَابِ، مَا يَصْنَعُ مَنْ قُطِعَ عَنِ الْأَحْبَابِ؟ مَا وَسِيلَةُ مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ حُكْمُ الْكِتَابِ؟ فَمَا يُزْعِجُهُ التَّعْنِيفُ وَالْعِتَابُ؟ يَا خَيْبَةَ مَنْ لَمْ يَكُنْ مَوْلَاهُ نَاصِرَهُ، يَا شَقَاوَةَ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُسْعِدَهُ وَجَابِرَهُ.

اللَّهُمَّ وَفِّقْنا لِسَبِيلِ الطَّاعَةِ، وَثَبِّتْنَا عَلَى اتِّباعِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِمَّنْ عَرَفَ الْحَقَّ وَأَضَاعَهُ.

اللَّهُمَّ اسْلُكْ بِنا سَبِيلَ الصَّادِقِينَ الْأَبْرَارِ، وَأَلْحِقْنَا بِعَبَادِكَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ، وَآتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنا عَذَابَ النَّارِ.

اللَّهُمَّ يا مَنْ عَمَّ الْعِبَادَ فَضْلُهُ وَنَعْمَاؤُهُ، وَوَسِعَ الْبَرِيَّةَ جُودُهُ وَعَطَاؤُهُ،

نَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَنَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مِنَ الْعُتَقَاءِ مِنَ النِّيرَانِ، وَتَجُودَ عَلَيْنَا بِالْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ، وَتَتُوبَ عَلَيْنَا تَوْبَةً تَجْلُو أَنْوَارُهَا ظُلْمَةَ الْإِسَاءَةِ وَالْعِصْيَانِ، يَا عَظِيمُ يَا مَنَّانُ.

اللَّهُمَّ وَخَفِّفِ الْعَذَابَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ، وَأَفِضْ عَلَيْهِمْ مِنْ بَحْرِ جُودِكَ يَا غَفُورُ، وَاغْفِرْ لِلْأَحْيَاءِ وَيَسِّرْ لَهُمُ الْأُمُورَ، وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ
فِي الْحَثِّ عَلَى اغْتِنَامِ الْأَوْقَاتِ الْمُهْمَلَةِ قَبْلَ فَوَاتِهَا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْغَفُورِ الَّذِي سَتَرَ بِسِتْرِهِ وَأَجْمَلَ. الشَّكُورِ الَّذِي عَمَّمَ بِبِرِّهِ وَأَجْزَلَ. الرَّحِيمِ الَّذِي أَتَمَّ إِحْسَانَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَكْمَلَ. الَّذِي يَكْفِي بِحُسْنِ تَأْيِيدِهِ مَنْ عَلَى كَرَمِهِ عَوَّلَ. الْوَاحِدُ الْأَحَدُ. الْقُدُّوسُ الصَّمَدُ. الْآخِرُ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ كَمَا هُوَ الْأَوَّلُ. الْمُتَفَرِّدُ بِالْبَهَاءِ وَالْجَلَالِ، وَالْعِزِّ وَالْكَمَالِ، فَلَا يَنْقُصُ عِزَّهُ وَلَا يَتَحَوَّلُ. الْقَاضِي بِمَا شَاءَ عَلَى مَنْ شَاءَ، وَالْمُتَوَحِّدُ فِي الْمُلْكِ وَالْقَضَاءِ، فَلَا يَتَغَيَّرُ حُكْمُهُ وَلَا يَتَبَدَّلُ. لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، وَالصِّفَاتُ الْعُلَى، وَقَدْ خَابَ مَنْ أَلْحَدَ فِي أَسْمَائِهِ وَعَطَّلَ. هُوَ الْإِلٰهُ الْحَقُّ الْمُتَوَحِّدُ بِالْاخْتِرَاعِ وَالْإِيجَادِ، وَالْمُنَزَّهُ عَنِ الْأَشْبَاهِ وَالْأَنْدَادِ، وَالْمُقَدَّسُ عَنِ الْأَغْيَارِ وَالْأَضْدَادِ، وَالْكَرِيمُ الَّذِي عَلَى كَثْرَةِ الْعَطَاءِ لَا يَبْخَلُ. الْحَلِيمُ الَّذِي يُمْهِلُ الْعَاصِيَ إِذَا رَآهُ يَعْصَاهُ بِنِعَمِهِ فَيُسْبِلُ عَلَيْهِ سِتْرَهُ وَبِمُعَاقَبَتِهِ لَا يَعْجَلُ، الْحُكْمُ حُكْمُهُ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ، وَالْمُلْكُ مُلْكُهُ، فَلَا عَمَّا يُدَبِّرُ يُسْأَلُ.

فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلٰهٍ وَفَّقَ مَنْ شَاءَ لِخِدْمَتِهِ، وَأَهَّلَ أَقْوَامًا لِطَاعَتِهِ، وَتَفَضَّلَ عَلَى الْمُتَّقِينَ وَجَادَ وَتَطَوَّلَ، وَأَبْعَدَ الْمطرُودِينَ عَنْ بَابِهِ، وَعَذَّبَهُمْ بِأَلِيمِ حِجَابِهِ،

وَمَنْ أَبْعَدَهُ مَوْلَاهُ فَحَقَّ لَهُ بِالذُّلِّ أَنْ يَتَسَرْبَلَ، فَيا أَيُّها الْعَاصِي أَقْبِلْ عَلَى مَوْلَاكَ فَإِنَّهُ يَقبَلُ مَنْ إِلَيْهِ يُقْبِلُ، وَلَازِمْ قَرْعَ الْبَابِ فَإِلَى أَيْنَ عَنْهُ تَذْهَبُ؟ وَلَا تَلْتَفِتْ عَنْهُ إِلَى سِوَاهُ فَما دُونَهُ مَطْلَبٌ، وَتَضَرَّعْ بَيْنَ يَدَيْ مَوْلَاكَ بِقَلْبٍ حَزِينٍ وَالدَّمْعُ مُرْسَلٌ.

فَسُبْحَانَ مَنْ أَقْبَلَ بِجُودِهِ وَبِرِّهِ عَلَى مَنْ تَابَ مِنَ الْآثَامِ، وَرَأَى ذِلَّةَ الْمُسِيءِ فِي جُنْحِ الظَّلَامِ، فَعَامَلَهُ بِرَأْفَتِهِ، وَتَجَاوَزَ عَنْهُ بِرَحْمَتِهِ وَأَمْهَلَ، وَجَعَلَ لِلْقَبُولِ وَالْفَضْلِ أَوْقاتًا لِيَتَدَارَكَ الْمُقَصِّرُ مَا ضَيَّعَ وَأَهْمَلَ.

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَوْلَاهُ مِنَ الْإِنْعامِ وَجَادَ وَتَفَضَّلَ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، عَلَيْهِ اعْتِمَادِي وَالْمُعَوَّلُ، شَهَادَةَ عَبْدٍ خَضَعَ لِهَيْبَتِهِ وَتَذَلَّلَ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ نَبِيٍّ وَأَكْرَمُ مُرْسَلٍ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ مَا غَسَقَ لَيْلٌ أَلْيَلُ، وَمَا ذَرَّ نَجْمٌ وَمَا أَفَلَ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى آمِرًا لِعِبَادِهِ بِالْمُسَارَعَةِ إِلَى التَّوْبَةِ، أَي: ارْجِعُوا إِلَيْهِ وَأَطِيعُوهُ، فَإِنَّهُ لَمَّا أَعْلَمَهُمْ بِأَنَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ تَابَ مِنْهَا، أَمَرَهُمْ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهِ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي وَالْمُبَادَرَةِ قَبْلَ حُلُولِ النِّقْمَةِ، إِمَّا فِي الدُّنْيا أَوْ فِي الْآخِرَةِ.

فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَتَدَارَكَ أَوْقاتَ رَمَضَانَ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَيُبَادِرَ بِالْأَعْمَالِ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْآجَالِ، وَقَبْلَ الرَّحِيلِ إِلَى الْقُبُورِ وَالانْتِقالِ، قَبْلَ غَلْقِ الْبَابِ، وَطَيِّ الْكِتَابِ، وَانْقِطَاعِ الْأَسْبَابِ، قَبْلَ هُجُومِ الْمَوْتِ، وَحُلُولِ الْفَوْتِ، وَمَنْ تَذَكَّرَ الْقَبْرَ وَأَنَّ مَآلَهُ إِلَيْهِ، وَمَوْرِدَهُ عَلَيْهِ. وَلَا بُدَّ مِنْ مُجَاوَرَةِ

الْأَمْوَاتِ، وَالانْتِقَالِ مِنَ الدِّيارِ الْعَامِرَاتِ، إِلَى حُفَرٍ ضَيِّقَةٍ مُظْلِماتٍ، وَيَكُونُ فِيهَا مُقِيمًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامِ لِعَالِمِ الْخَفِيَّاتِ، وَالْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَي الْحَكَمِ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَثَاقِيلُ الذَّرَّاتِ؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ ـ إِذَا تَذَكَّرَ هَذَا ـ أَنْ يَنْظُرَ فِي خَلَاصِهِ، وَيَتَأَهَّبَ لِسَفَرِهِ وَيُعِدَّ عُدَّةً لِفَكِّهِ وَاسْتِخْلَاصِهِ. فَوَاخَيْبَتَاهُ لِعَبْدٍ خَرَجَ مِنَ الدُّنْيا مُفْلِسًا وَلَمْ يَكْتَسِبْ مِنْهَا إِلَّا أَنْ حَمَلَ عَلَى ظَهْرِهِ مِنَ الذُّنُوبِ مَا عَجَزَ عَنْ حَمْلِهِ. فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

أَتاكَ نَذِيرُ الشَّيْبِ بِالسُّقْمِ مُخْبِرًا ... بِأَنَّكَ تَتْلُو الْقَوْمَ فِي الْيَوْمِ أَوْ غَدِ
فَخُذْ أُهْبَةً فِي الزَّادِ؛ فَالْمَوْتُ كَائِنٌ ... فَما مِنْهُ مَنْجًى لَا وَلَا مُنْجِدِي
فَمَا دارُكُمْ هٰذِي بِدَارِ إِقَامَةٍ ... وَلَكِنَّهَا دَارُ ابْتِلَا وَتَزَوُّدِ
أَمَا جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ: (وَتَزَوَّدُوا) ... فَمَا عُذْرُ مَنْ وَافاهُ غَيْرَ مُزَوَّدِ؟
فَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا مَرَاحِلٌ ... تُقَرِّبُ مِنْ دَارِ اللِّقَا كُلَّ مُبْعَدِ
وَمَنْ سَارَ نَحْوَ الدَّارِ سِتِّينَ حِجَّةً ... فَقَدْ حَانَ مِنْهُ الْمُلْتَقَى وَكَأَنْ قَدِ
وَمَنْ كَانَ عِزْرَائِيلُ كَافِلَ رُوحِهِ ... إِذا فَاتَهُ فِي الْيَوْمِ لَمْ يَنْجُ فِي غَدِ
وَمَنْ رُوحُهُ فِي الْجِسْمِ كَانَتْ وَدِيعَةً ... فَهَيْهاتَ أَمْنٌ يُرْتَجَى مِنْ مُرَدَّدِ
فَبَادِرْ هُجُومَ الْمَوْتِ فِي كَسْبِ مَا بِهِ ... تَفُوزُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاجْهَدِ

رَوَى أَبُو نُعَيْمٍ وَالْحَاكِمُ بِإِسْنَادٍ لَهُ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ رضي الله عنه شَيَّعَ جَنَازَةً مِنْ أَهْلِهِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَوَعَظَهُمْ، وَذَكَّرَهُمُ الدُّنْيا وَذَمَّهَا، وَذَكَرَ أَهْلَهَا وَتَنَعُّمَهُمْ فِيهَا، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ بَعْدَهَا مِنْ ظُلْمَةِ الْقَبْرِ. وَكَانَ مِنْ كَلَامِهِ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا مَرَرْتَ بِهِمْ فَنَادِهِمْ إِنْ كُنْتَ مُنَادِيًا، وَادْعُهُمْ إِنْ كُنْتَ دَاعِيًا، وَمُرَّ بِعَسْكَرِهِمْ، وَانْظُرْ إِلَى تَقَارُبِ مَنَازِلِهِمْ، سَلْ غَنِيَّهُمْ مَا بَقِيَ مِنْ غِنَاهُ، وَسَلْ فَقِيرَهُمْ مَا بَقِيَ مِنْ فَقْرِه، وَسَلْ عَنِ اللِّسَانِ الَّذِي بِهِ يَتَكَلَّمُونَ، وَعَنِ الْأَعْيُنِ الَّتِي كَانُوا بِهَا إِلَى اللَّذَّاتِ يَنْظُرُونَ، وَسَلْهُمْ عَنِ الْجُلُودِ الرَّقِيقَةِ وَالْوُجُوهِ الْحَسَنَةِ، وَالْأَجْسَادِ النَّاعِمَةِ مَا صَنَعَ بِهَا الدِّيدَانُ؟ مَحَتِ الْأَلْوَانَ وَأَكَلَتِ اللُّحْمَانَ، وَعَفَتِ الْوُجُوهُ، وَمَحَتِ الْمَحَاسِنَ، وَكَرَّتِ الْقَفَا، وَأَبَانَتِ الْأَعْضَاءَ،

وَخَرَجَتِ الْأَشْلَاءُ، وَأَيْنَ حُجَّابُهُمْ وَقِيانُهُمْ؟ وَأَيْنَ خَدَمُهُمْ وَعَبِيدُهُمْ؟ وَجَمْعُهُمْ وَكُنُوزُهُمْ؟ وَاللَّهِ مَا زَوَّدُوهُمْ فَرْشًا، وَلَا وَضَعُوا هُنَاكَ مِسْكًا، وَلَا غَرَسُوا لَهُمْ شَجَرًا، وَلَا أَنْزَلُوهُمْ مِنَ اللَّحْدِ قَرَارًا، أَلَيْسُوا فِي الْخَلَوَاتِ؟ أَلَيْسَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ عِنْدَهُمْ سَوَاءً؟ أَلَيْسُوا فِي مُدْلَهِمَّةٍ ظَلْمَاءَ؟ قَدْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعَمَلِ، وَفَارَقُوا الْأَحِبَّةَ. وَكَمْ ناعِمٍ وَناعِمَةٍ أَصْبَحُوا وُجُوهُهُمْ بَالِيَةٌ؛ وَأَجْسَادُهُمْ عَنْ أَعْنَاقِهِمْ بَائِنَةٌ، وَأَوْصَالُهُمْ مُتَفَرِّقَةٌ، وَقَدْ سَالَتِ الْحُدَقُ عَلَى الْوَجَنَاتِ، وَامْتَلَأَتِ الْأَفْوَاهُ صَدِيدًا، وَدَبَّتْ دَوَابُّ الْأَرْضِ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَتَفَرَّقَتْ أَعْضَاؤُهُمْ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثُوا وَاللَّهِ إِلَّا يَسِيرًا، حَتَّى عَادَتِ الْعِظَامُ رَمِيمًا، قَدْ فَارَقُوا الْحَدَائِقَ، وَصَارُوا بَعْدَ السَّعَةِ فِي الْمَضَائِقِ، وَقَدْ تَزَوَّجَتْ نِسَاؤُهُمْ، وَتَرَدَّدَتْ فِي الطُّرُقِ أَبْنَاؤُهُمْ، وَتَوَزَّعَتِ الْقَرَابَاتُ دِيارَهُمْ وَمِيراثَهُمْ. فَمِنْهُمْ وَاللَّهِ الْمُوَسَّعُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَالْغَضُّ النَّاظِرُ فِيهِ، وَالْمُتَنَعِّمُ بِلَذَّتِهِ.

يَا سَاكِنَ الْقَبْرِ غَدًا. مَا الَّذِي غَرَّكَ مِنَ الدُّنْيَا؟ هَلْ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَبْقَىٰ لَها أَوْ تَبْقَى لَكَ؟ أَيْنَ دَارُكَ الْفَيْحَاءُ وَنَهْرُكَ الْمُطَّرِدُ؟ وَأَيْنَ ثَمَرَتُكَ الْيَانِعَةُ؟ وَأَيْنَ رِقاقُ ثِيابِكَ؟ وَأَيْنَ طِيبُكَ؟ وَأَيْنَ بُخُورُكَ؟ وَأَيْنَ كِسْوَتُكَ لِصَيْفِكَ وَشِتَائِكَ؟ أَمَا وَاللَّهِ قَدْ نَزَلَ بِهِ الْأَمْرُ، فَمَا يُدْفَعُ عَنْهُ، وَخَلَا وَهُوَ يَرْشَحُ عَرَقًا وَيَتَلَمَّظُ عَطَشًا. يَتَقَلَّبُ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ وَغَمَرَاتِهِ، جَاءَ الْأَمْرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَجَاءَ غَالِبُ الْقَدَرِ وَالْقَضَاءِ. هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، يَا مُغَمِّضَ الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ وَغَاسِلَهُ، يَا مُكَفِّنَ الْمَيِّتِ وَحَامِلَهُ، يَا مُخَلِّيَهُ فِي الْقَبْرِ رَاجِعًا عَنْهُ. لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ كُنْتَ عَلَى خُشُونَةِ الثَّرَى؟ لَيْتَ شِعْرِي بِأَيِّ جَنْبَيْكَ بَدَا الْبِلَى. يَا مُجَاوِرَ الْهَلْكَى صِرْتَ فِي مَحِلَّةِ الْمَوْتَى، لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي يَلْقَانِي بِهِ مَلَكُ الْمَوْتِ عِنْدَ خُرُوجِي مِنَ الدُّنْيا، وَمَا يَأْتِينِي بِهِ مِنْ رِسَالَةِ رَبِّي. ثُمَّ انْصَرَفَ، فَمَا عَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا جُمُعَةً رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

يَا وَاقِفًا يَسْأَلُ الْقُبُورَ أَفِقْ ... فَأَهْلُكَ الْيَوْمَ عَنْكَ قَدْ شُغِلُوا
قَدْ هَالَهُمْ مُنْكَرٌ وَصَاحِبُهُ ... وَخَوْفُ مَا قَدَّمُوا وَمَا عَمِلُوا

رَهَـائِـنٌ لِـلـثَّـرَى عَـلَـى مَـدَرِ ... يُـسْـمَـعُ لِـلـدُّودِ بَـيْـنَـهُـمْ زَجَـلُ
سَرَى الْبِلَى فِي جُسُومِهِمْ فَجَرَتْ ... دَمًا وَقَـيْـحًـا، وَسَـالَـتِ الْـمُـقَـلُ
يَـنْـتَـظِـرُونَ الـنُّـشُـورَ إِذَا ... وَقَفَ الْأَمْلَاكُ وَالْأَنْبِيَاءُ، وَالرُّسُلُ
يَـوْمًـا تَـرَى الـصُّـحُـفَ فِـيـهِ طَـائِـرَةً ... وَكُـلُّ قَـلْـبٍ لَـهُ مِـنْ هَـوْلِـهِ وَجَـلُ
قَـدْ دَنَـتِ الـشَّـمْـسُ مِـنْ رُءُوسِـهِـمُ ... وَالـنَّـارُ قَـدْ بَـرَزَتْ لَـهَـا شُـعَـلُ
وَأُزْلِـفَـتْ جَـنَّـةُ الـنَّـعِـيـمِ، فَـيَـا ... طُـوبَـى لِـقَـوْمٍ بِـرَبْـعِـهَـا نَـزَلُـوا
أَكْـوَابُـهُـمْ عَـسْـجَـدٌ يُـطَـافُ بِـهَـا ... وَالْـخَـمْـرُ وَالـسَّـلْـسَـبِـيـلُ وَالْـعَـسَـلُ
وَالْـحُـورُ تَـلْـقَـاهُـمْ، وَقَـدْ رُفِـعَـتْ ... عَـنِ الْـوُجُـوهِ الْأَسْـتَـارُ وَالْـكُـلَـلُ

فَصْلٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

رُوِيَ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ - الآية، أَنَّ الْمَكانَ الْبَعِيدَ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا أُتِيَ بِجَهَنَّمَ تُقَادُ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ يُمْسِكُ بِكُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، وَلَوْ تُرِكَتْ لَأَتَتْ عَلَى كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ، ثُمَّ تَزْفِرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى قَطْرَةٌ مِنْ دَمْعٍ إِلَّا بَدَرَتْ، ثُمَّ تَزْفِرُ الثَّانِيَةَ فَتَتَقَطَّعُ الْقُلُوبُ مِنْ أَمَاكِنِهَا وَتَبْلُغُ اللَّهَوَاتِ وَالْحَنَاجِرَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ، فَتَشْهَقُ إِلَيْهِ شَهْقَةَ الْبَغْلَةِ إِلَى الشَّعِيرِ، ثُمَّ تَزْفِرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا خَافَ».

وَرُوِيَ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: إِذَا سُيِّرَتِ الْجِبَالُ، فَسَمِعَتْ حَسِيسَ النَّارِ وَتَغَيُّظَهَا، وَزَفِيرَهَا وَشَهِيقَهَا. صَرَخَتِ الْجِبَالُ كَمَا تَصْرُخُ النِّسَاءُ، ثُمَّ يَرْجِعُ أَوَائِلُهَا عَلَى أَوَاخِرِهَا يَدُقُّ بَعْضُهَا بَعْضًا.

وَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ يُضَيَّقُ عَلَيْهِمْ فِي النَّارِ حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُجْعَلُ فِي تابُوتٍ مِنْ نَارٍ، ثُمَّ يُقْذَفُ فِي الْجَحِيمِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُجْعَلُ فِي تَنُّورٍ ضَيِّقٍ وَيُطَبَّقُ عَلَيْهِ. قَالَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ - يَعْنِي مُكَتَّفِينَ - دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أَيْ يَدْعُونَ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ وَالْحَسْرَةِ وَالْخَيْبَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ أَعَدَّ لِمَنْ تَمَرَّدَ عَلَيْهِ وَكَفَرَ بِهِ السَّعِيرَ، وَهُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ الْحَارُّ الَّذِي لَا يُطَاقُ.

وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ لِجَهَنَّمَ عَيْنَيْنِ: وَلَمَّا سُئِلَ ﷺ عَنْ ذَلِكَ قَالَ: «أَمَا سَمِعْتُمُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾؟».

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أَيُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ؟ قَالَ قَتَادَةُ حِينَ بَلَغَهُ: بَلَى وَعِزَّةِ رَبِّنَا» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَتْ زَوْجَةُ الْفَرَزْدَقِ حَضَرَ جَنَازَتَهَا الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ. فَقَالَ لِلْفَرَزْدَقِ: مَا أَعْدَدْتَ لِمِثْلِ هَذَا الْيَومِ؟ فَقَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ مُنْذَ سِتِّينَ سَنَةً، فَلَمَّا دُفِنَتْ أَنْشَأَ يَقُولُ:

أَخَافُ وَرَاءَ الْقَبْرِ إِنْ لَمْ يُعَافِنِي ... أَشَدَّ مِنَ الْقَبْرِ الْتِهَابًا وَأَضْيَقَا
إِذَا جَاءَنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَائِدٌ ... عَنِيفٌ وَسَوَّاقٌ يَسُوقُ الْفَرَزْدَقَا
لَقَدْ خَابَ مِنْ أَوْلَادِ آدَمَ مَنْ مَشَى ... إِلَى النَّارِ مَغْلُولَ الْقِلَادَةِ مُوثَقَا
يُسَاقُ إِلَى نَارِ الْجَحِيمِ مُسَرْبَلًا ... سَرَابِيلَ قَطْرَانٍ لِبَاسًا مُحَرَّقَا
إِذَا شَرِبُوا فِيهَا الصَّدِيدَ رَأَيْتَهُمْ ... يَذُوبُونَ مِنْ حَرِّ الصَّدِيدِ تَمَزُّقَا

رُوِيَ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْظُرُ إِلَى عَبْدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ غَضْبَانُ فَيَقُولُ: خُذُوهُ، فَيَأْخُذُهُ مِائَةُ أَلْفِ مَلَكٍ أَوْ يَزِيدُونَ، فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ نَاصِيَتِهِ وَقَدَمَيْهِ غَضَبًا لِغَضَبِ اللَّهِ، فَيَسْحَبُونَهُ عَلَى وَجْهِهِ إِلَى النَّارِ. قَالَ: فَالنَّارُ

أَشَدُّ عَلَيْهِ غَضَبًا مِنْ غَضَبِهِمْ سَبْعِينَ ضِعْفًا. قَالَ: فَيَسْتَغِيثُ بِشَرْبَةٍ، فَيُسْقَى شَرْبَةً يَسْقُطُ مِنْهَا لَحْمُهُ وَعَصَبُهُ، ثُمَّ يُرْكَسُ فِي النَّارِ، فَوَيْلٌ لَهُ مِنَ النَّارِ».

قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: حُدِّثْتُ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ: «أَنَّهُ يَتَفَتَّتُ فِي أَيْدِيهِمْ إِذَا أَخَذُوهُ فَيَقُولُ: أَلَا تَرْحَمُونِي؟ فَيَقُولُونَ: كَيْفَ نَرْحَمُكَ وَلَمْ يَرْحَمْكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ؟».

وَاعْلَمْ أَنَّ ذِكْرَ جَهَنَّمَ أَطَارَ نَوْمَ الْخَائِفِينَ، وَنَصَبَ أَقْدَامَ الْمُتَهَجِّدِينَ، وَأَسْبَلَ عَبَرَاتِ الْمُشْفِقِينَ، وَأَنْحَلَ أَبْدَانَ الْعَارِفِينَ، وَنَغَّصَ عَيْشَ الصَّالِحِينَ.

فَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَضْطَرِبُ وَيَتَغَيَّرُ حَالُهُ عِنْدَ ذِكْرِهَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ مَنَعَهُ الضَّحِكَ خَوْفُ جَهَنَّمَ، كَمَا قَالَ الْحَجَّاجُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: «بَلَغَنِي أَنَّكَ لَمْ تَضْحَكْ قَطُّ. قَالَ: كَيْفَ أَضْحَكُ وَجَهَنَّمُ قَدْ سُعِّرَتْ، وَالْأَغْلَالُ قَدْ نُصِبَتْ وَالزَّبَانِيَةُ قَدْ أُعِدَّتْ؟».

وَمِنْهُمْ مَنْ مَنَعَهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ مَنَعَهُ النَّوْمَ كَمَا تَقَدَّمَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ أَحْدَثَ لَهُ الْمَرَضَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ مَاتَ مِنْ ذِكْرِهَا وَنُقِلَ إِلَى قَبْرِهِ.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ سَبَبَ عِلَّةِ دَاوُدَ الطَّائِيِّ: أَنَّهُ مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ فَكَرَّرَهَا مِرَارًا فِي لَيْلَتِهِ، فَأَصْبَحَ مَرِيضًا، فَوَجَدُوهُ وَقَدْ مَاتَ وَرَأْسُهُ عَلَى لَبِنَةٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. أَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ.

فَوَاعَجَبًا لِهَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ، كَأَنَّ النَّارَ مَا خُلِقَتْ إِلَّا لَهُمْ، وَكَأَنَّنَا قَدْ أُعْطِينَا أَمَانًا.

لَوْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ أَهْلَ الشَّقَا ... سِيقُوا إِلَى النَّارِ وَقَدْ أُحْرِقُوا
شَرَابُهُمُ الْمُهْلُ فِي قَعْرِهَا ... إِذْ خَالَفُوا الرُّسْلَ وَمَا قَدَّمُوا

تَـقُـولُ أُولَاهُـمْ لِأُخْـرَاهُـمُـو فِي لـجَجِ الْـمُهْلِ وَقَدْ أُغْرِقُوا:
قَـدْ كُـنْـتُـمُ حُـذِّرْتُـمُـو حَـرَّهَـا لَـكِـنْ مِـنَ الـنِّـيـرَانِ لَـمْ تَـفْـرَقُـوا
وَجِـيءَ بِـالـنِّـيـرَانِ مَـزْمُـومَـةً شَـرَارُهَـا مِـنْ حَـوْلِـهَـا مُـحْـدِقُـوا
وَقِـيـلَ لِـلـنِّـيـرَانِ: أَنْ أَحْـرِقِـي وَقِـيـلَ لِـلْـخُـزَّانِ: أَنْ أَطْـبِـقُـوا

وَرَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيا عَنْ لَيْثٍ عَنْ طَلْحَةَ قَالَ: انْطَلَقَ رَجُلٌ ذَاتَ يَوْمٍ فَنَزَعَ ثِيَابَهُ وَتَمَرَّغَ فِي الرَّمْضَاءِ وَهُوَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ: ذُوقِي. نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا، جِيفَةٌ بِاللَّيْلِ بَطَّالَةٌ بِالنَّهَارِ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذ أَبْصَرَ النَّبِيَّ ﷺ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ: غَلَبَتْنِي نَفْسِي. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: أَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الَّذِي صَنَعْتَ؟ لَقَدْ فُتِحَتْ لَكَ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَلَقَدْ بَاهَى اللَّهُ بِكَ الْمَلَائِكَةَ.

وَبَكَى الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ. فقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَطْرَحَنِي فِي النَّارِ وَلَا يُبَالِي.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا بِإِسْنَادٍ لَهُ: «أَنَّ صَالِحًا الْمُرِّيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ يَوْمًا فِي مَجْلِسِهِ يَقُصُّ عَلَى النَّاسِ، فَقَرَأَ عِنْدَهُ قَارِئٌ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ فَذَكَرَ صَالِحٌ النَّارَ وَحَالَ الْعُصَاةِ فِيهَا، وَصِفَةَ سِيَاقِهِمْ إِلَيْهَا، وَبَالَغَ فِي ذَلِكَ، وَبَكَى النَّاسُ. فَقَامَ فَتًى كَانَ حَاضِرًا فِي مَجْلِسِهِ وَكَانَ مُسْرِفًا عَلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ: أَكُلُّ هَذَا فِي الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ صَالِحٌ: نَعَمْ وَمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ. لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُمْ يَصْرُخُونَ فِي النَّارِ حَتَّى تَنْقَطِعَ أَصْوَاتُهُمْ فَلَا يَبْقَى مِنْهُمْ إِلَّا كَهَيْئَةِ الْأَنِينِ مِنَ الْمَرِيضِ الْمُدْنَفِ. فَصَاحَ الْفَتَى أَيَا لِلَّهِ: وَاغَفْلَتَاهُ عَنْ نَفْسِي أَيَّامَ الْحَيَاةِ. وَاأَسَفَاهُ عَلَى تَفْرِيطِي فِي طَاعَتِكَ يَا سَيِّدَاهُ، وَاأَسَفَاهُ عَلَى تَضْيِيعِ عُمْرِي فِي دَارِ الدُّنْيَا ثُمَّ اسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَعَاهَدَ اللَّهَ عَلَى تَوْبَةٍ نَصُوحٍ. وَدَعَا اللَّهَ أَنْ يَتَقَبَّلَ مِنْهُ وَبَكَى حَتَّى غُشِيَ عَلَيْه فَحُمِلَ مِنَ الْمَجْلِسِ صَرِيعًا. فَمَكَثَ صَالِحٌ وَأَصْحَابُهُ يَعُودُونَهُ أَيَّامًا ثُمَّ مَاتَ فَحَضَرَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ، فَكَانَ صَالِحٌ يَذْكُرُهُ فِي مَجْلِسِهِ كَثِيرًا، وَيَقُولُ:

وَابِأَبِي قَتِيلَ الْقُرْآنِ. وَابِأَبِي قَتِيلَ الْمَوَاعِظِ وَالْأَحْزَانِ، فَرَآهُ رَجُلٌ فِي مَنَامِهِ فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: عَمَّتْنِي بَرَكَةُ مَجْلِسٍ صَالِحٍ فَدَخَلْتُ فِي سِعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ».

فَيَا مَنْ يَسْمَعُ بِذِكْرِ النَّارِ حَتَّى كَأَنَّهُ يُشَاهِدُهَا عِيَانًا، وَكِيسُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُوجِبَةِ لِدُخُولِهَا قَدْ كَانَ مَلْآنًا. وَيْحَكَ، أَفِيكَ جَلَدٌ عَلَيْهَا، أَمْ أُعْطِيتَ أَمَانًا؟ مَا هَذَا الْأَمَلُ وَالرَّحِيلُ تَدَانَى، يَا مُقْبِلًا عَلَى لَذَّاتِهِ فِي غَيِّهِ قَدْ عَامَ، يَا مَنْ تُتْلَى أَوْصَافُ جَهَنَّمَ وَيُشَاهِدُ تَنَفُّسَهَا كُلَّ عَامٍ، وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى مَا يَقْتَضِي دُخُولَهَا مِنَ الْآثَامِ، وَلَا يَرْعَوِي إِنْ خُوِّفَ بِالْوَعْظِ وَالْكَلَامِ. سَيُؤْتَى بِهَا يَوْمَ الْعَرْضِ تَقَادُ بِأَلْفِ زِمَامٍ، وَتَزْفِرُ عَلَى أَهْلِ الْفُجُورِ وَالْآثَامِ، وَيَنْدَمُ الْمُفَرِّطُ نَدَامَةً لَا تَخْطُرُ عَلَى الْأَوْهَامِ. فَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى اللُّطْفَ بِنَا وَالصَّفْحَ عَنِ الْإِجْرَامِ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

اللَّهُمَّ يَا قَرِيبًا لِمَنْ دَعَاهُ، وَيَا مُغِيثًا لِمَنْ لَاذَ بِحِمَاهُ، وَيَا مُعِيذًا من اسْتَعَاذَ بِهِ وَاسْتَكْفَاهُ. نَسْأَلُكَ أَنْ تُعِيذَنَا مِنَ النَّارِ، وَمِنْ دَارِ الْخِزْيِ وَالْبَوَارِ، وَتُدْخِلَنَا دَارَ الْأَتْقِيَاءِ وَالْأَبْرَارِ. إِنَّكَ أَنْتَ الْكَرِيمُ الْغَفَّارُ.

اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنْ عَذَابِكَ، وَآمِنْ خَوْفَنَا مِنْ عِقَابِكَ، وَهَبْ لَنَا مَا وَهَبْتَهُ لِأَحْبَابِكَ، وَانْقُلْنَا مِنَ التَّفْرِيطِ وَالْغَفْلَةِ إِلَى فَسِيحِ جَنَابِكَ، وَلَا تَطْرُدْنَا يَا مَوْلَانَا عَنْ بَابِكَ، وَلَا تُعَذِّبْنَا بِأَلِيمِ حِجَابِكَ، فَها نَحن بِبابِكَ أَنَخْنَا، وَبِعَفْوِكَ تَعَلَّقْنَا، وَمِنْ عَذَابِكَ اسْتَجَرْنَا، وَبِرَحْمَتِكَ طَمِعْنَا. فَحَقِّقْ رَجَاءَنَا، وَاقْبَلْ دُعَاءَنَا، وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

وَفِيهِ فَصْلٌ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاءَ بِقُدْرَتِهِ، وَأَدَارَ دَوَائِرَ الْأَفْلَاكِ، وَبَسَطَ الْأَرْضَ بِمَشِيئَتِهِ، وَمَهَّدَهَا لِلسُّلَّاكِ، وسَخَّرَ الْفُلْكَ وَدَبَّرَ الْأَمْلَاكَ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ

الّذِي لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ. وَقَدَّرَ الْهَلَاكَ وَالنَّجَاةَ. الْقَدِيمُ الْخَلَّاقُ الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ، وَالْعِزُّ وَالْقَهْرُ. وَعَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. وَوَهَبَ لَهُ الْعَقْلَ الْكامِلَ وَالْفَهْمَ وَالإِدْرَاكَ. الْغَنِيُّ عَنِ الْعِبَادِ يَأْمُرُهُمْ بِالْطَّاعَةِ وَالإِيمَانِ. وَلَا يَرْضَى لَهُمُ الْكُفْرَ وَالإِشْرَاكَ. الَّذِي لَا تَنْفَعُهُ الطَّاعَةُ وَلَا يَضُرُّهُ الْعِصْيَانُ. وَإِنَّما يَأْمُرُكَ أَيُّها الْعَاصِي بِطاعَتِهِ، وَعَنْ مَعْصِيَتِهِ يَنْهَاكَ؛ لِيُرِيَكَ بِعَيْنِ يَقِينِكَ وَيُبَيِّنَ لَكَ أَمْرَ دِينِكَ وَدُنْياكَ. فَرَاقِبْهُ وَاتَّقِهْ. وَاحْذَرْ مِنْ مَعْصِيَتِهِ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، أَحْمَدُكَ اللَّهُمَّ يَا مَنْ تَعالَيْتَ وَجَلَّ ثَنَاكَ.

وأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِلٰهٌ تَوَحَّدَ بِالْمُلْكِ وَتَعالَى عَنِ الإِشْرَاكِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ. وَسَيِّدُ الأَصْفِيَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ فازُوا بِغَايَةِ الْمُنَى وَالإِدْرَاكِ، صَلَاةً دَائِمَةً إِلَى يَوْمٍ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ وَتَنْزِلُ الأَمْلَاكُ. وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قالَ اللَّهُ تعالَى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ وَابْنُ مَاجه عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا أَصابَ مِنِ امْرَأَةٍ - يَعْنِي مَا دُونَ الْفَاحِشَةِ فَلَا أَدْرِي مَا بَلَغَ غَيْرَ أَنَّهُ دُونَ الزِّنا - فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ؛ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعالَى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ﴾ الآيَة.

وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ: «أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنِ امْرَأَةٍ قُبْلَةً فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ قالَ الرَّجُلُ: أَلِيَ هَذِهِ؟ قالَ: لِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي».

وَاعْلَمْ أَنَّ صَلَاةَ اللَّيْلِ لَها فَضْلٌ عَظِيمٌ، وَأَنَّها تُكَفِّرُ الذُّنوبَ مَعَ التَّوْبَةِ وَتبْسُطُ فِي الرِّزْقِ، وَهيَ سَبَبٌ إِلَى مُنَاجَاةِ الإِلٰهِ جَلَّ جَلالُهُ، وَهِيَ السَّبَبُ الْمُوَصِّلُ إِلَى رِضَاهُ وَجَنَّتِهِ فِي جَمِيعِ لَيالِي السَّنَةِ كُلِّها؛ فَكَيْفَ بِهَذِهِ اللَّيَالِي الْعَظِيمَةِ الْمُشَرَّفَةِ؟ فَيَنْبَغِي لَكَ أَيُّها الْمُوَفَّقُ أَنْ تُدارِكَ بَقِيَّتَهَا.

فَيَا مَنْ صَحِيفَتُهُ بِالذُّنوبِ قَدْ جَفَّتْ، وَمَوَازِينُهُ بِكَثْرَةِ الذُّنوبِ قَدْ خَفَّتْ. أَمَا رَأَيْتَ أَكُفًّا عَنْ مَطَاعِمِهَا كُفَّتْ؟ أَمَا عَايَنْتَ أَبْدَانَ الْمُتْرَفِينَ وَقَدْ أُدْرِجَتْ فِي الأَكْفَانِ وَلُفَّتْ؟

مَتَى تَهُبُّ بِكَ فِي بَحْرِ الْوَجْدِ رِيحُ الْخَوْفِ وَالرَّجَا؟ مَتَى تَكُونُ فِي اللَّيْلِ قائِمًا إِذَا سَجَى؟ مَتَى تُشَارِكُ الْقَائِمِينَ فِي ظُلَمِ الدُّجَى؟ عَجَبًا لِمَنْ رَأَى فِعْلَ الْمَوْتِ بِصَحْبِهِ، وَنَسِيَ جَزَاءَهُ عَلَى جُرْمِهِ وَذَنْبِهِ، وَنامَ غَافِلًا عَلَى جَنْبِهِ:

أَمَا وَاللَّهِ لَوْ عَلِمَ الأَنَامُ	لِما خُلِقُوا لَما غَفَلُوا وَنامُوا
لَقَدْ خُلِقُوا لِيَوْمٍ لَوْ رَأَتْهُ	عُيُونُ قُلُوبِهِمْ سَاحُوا وَهَامُوا
مَمَاتٌ ثُمَّ نَشْرٌ ثُمَّ حَشْرٌ	وَتَوْبِيخٌ وَأَهْوَالٌ عِظَامُ
لِيَوْمِ الْحَشْرِ قَدْ عَمِلَتْ أُناسٌ	فَصَلَّوْا مِنْ مَخَافَتِهِ وَصَامُوا
وَنَحْنُ إِذَا أُمِرْنَا أَوْ نُهِينَا	كَأَهْلِ الْكَهْفِ أَيْقَاظٌ نِيَامُ

وَاعْلَمْ أَنَّ لِلَيْلَةِ الْقَدْرِ عَلامَاتٍ وَأَنْوارًا؛ فَمِنْ عَلَامَاتِها: أَنَّ الْكَوَاكِبَ لَا يُرْمَى بِهَا وَأَنَّ الشَّمْسَ صَبِيحَتَهَا تَطْلُعُ مُسْتَوِيَةً لَيْسَ لَها شُعَاعٌ مِثْلَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، كَما ثَبَتَ ذَلِكَ فِي مُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ.

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَطْلُعُ مَعَ الشَّمْسِ كُلَّ يَوْمٍ إِلَّا لَيْلَةَ الْقَدْرِ. وَذَلِكَ أَنَّها تَطْلُعُ لَا شُعَاعَ لَها».

وَيُرْوَى عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قالَ: لَا يَسْتَطِيعُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُصِيبَ فِيهَا أَحَدًا بِخَبَلٍ أَوْ دَاءٍ أَوْ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ الْفَسَادِ وَلَا يَنْفُذُ فِيهَا سِحْرُ سَاحِرٍ.

وَرُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا لَكِنْ فِيهِ ضَعْفٌ: أَنَّها لا تَسْرِي نُجُومُهَا وَلَا تَنْبَحُ كِلَابُها.

وَأَمَّا النُّورُ الَّذِي يُشَاهَدُ فِيهَا فاخْتَلَفُوا فِيهِ.

فَقالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ ذَلِكَ النُّورَ الَّذِي يُشَاهَدُ فِيهَا مِثْلُ خَيْمَةٍ عَظِيمَةٍ.

وَاخْتَلَفُوا أَيْضًا مِنْ أَيْنَ نُزُولُ هَذَا النُّورِ؟

فَقالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مِنْ نُورِ شَجَرَةِ طُوبَى.

وَقالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مِنْ نُورِ الرَّحْمَةِ.

وَقالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مِنْ نُورِ أَجْنِحَةِ الْمَلَائِكَةِ، قُلْتُ: لَا تَنافِيَ بَيْنَ هَذِهِ الأَقْوَالِ.

وَقالَ بَعْضُهُمْ: مِنْ نُورِ الطَّاعَاتِ.

وَقالَ بَعْضُهُمْ: مِنْ نُورِ أَسْرَارِ الْعَارِفِينَ.

وَقالَ بَعْضُهُمْ: مِنْ نُورِ الْهَيْبَةِ.

وَاعْلَمْ أَنَّها لَيْلَةٌ مَرْغُوبَةٌ وَهِيَ أَفْضَلُ لَيالِي الدَّهْرِ عَلَى الإِطْلَاقِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ - يَعْنِي ابْنَ عُمَرَ - لَوْ كانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ؛ فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا».

صَلَّى كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِوُضُوءِ الْعِشَاءِ عِشْرِينَ سَنَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ صَلَّى كَذَلِكَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

قالَ بَعْضُهُمْ: أَنا مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَا أَحْزَنَنِي إِلَّا طُلُوعُ الْفَجْرِ.

وَقالَ ثابِتٌ: كابَدْتُ قِيَامَ اللَّيْلِ عِشْرِينَ سَنَةً، وَتَمَتَّعْتُ بِهِ عِشْرِينَ سَنَةً أُخْرَى.

يَا مَنْ عَلَيْهِ نُذُرُ الْمَوْتِ تَدُورُ. وَهُوَ مُسْتَأْنِسٌ فِي الْمَنَازِلِ وَالدُّورِ. لَا بُدَّ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّورِ وَالْقُصُورِ. عَلَى الرَّغْمِ مِنْكَ وَالْقُصُورِ. لَا بُدَّ مِنَ الرَّحِيلِ إِلَى دَارِ الْقُبُورِ، وَالتَّخَلِّي عَمَّا أَنْتَ بِهِ مَغْرُورٌ، وَالْبَلِيَّةُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْكَ عَلَى

الْغَفَلاتِ وَالْفُتُورِ. غَرَّكَ وَاللَّهِ الْغَرُورُ بِفُنُونِ الْخِدَاعِ وَالْغُرُورِ. يَا مُظْلِمَ الْقَلْبِ وَمَا فِي الْقَلْبِ نُورٌ. الْبَاطِنُ خَرَابٌ وَالظَّاهِرُ مَعْمُورٌ. إِنَّما يُنْظَرُ إِلَى الْبَوَاطِنِ لَا إِلَى الظُّهُورِ. لَوْ تَفَكَّرْتَ فِي الْقَبْرِ الْمَحْفُورِ. وَمَا فِيهِ مِنَ الدَّوَاهِي وَالأُمُورِ. كانَتْ عَيْنُ الْعَيْنِ مِنْكَ تَفُورُ. يَا مَنْ يَجُولُ فِي الْمَعَاصِي قَلْبُهُ وَهَمُّهُ. يَا مُعْتَقِدًا صِحَّتَهُ فِيمَا هُوَ سَقَمُهُ. يَا مَنْ كُلَّما زَادَ عُمْرُهُ زَادَ إِثْمُهُ. يَا طَوِيلَ الأَمَلِ وَقَدْ دَقَّ عَظْمُهُ. أَمَا وَعَظَكَ الزَّمَانُ وَزَجَرَكَ مُلِمُّهُ؟ يَا لَدِيغَ الأَمَلِ قَدْ بَالَغَ فِيهِ سُمُّهُ. يَا قَلِيلَ الْعِبَرِ وَقَدْ تَيَقَّنَ أَنَّ اللَّحْدَ عَمَّا قَلِيلٍ يَضُمُّهُ. كَيْفَ نَعِظُ مَنْ لَا يَعِظُهُ قَلْبُهُ وَفَهْمُهُ؟ كَيْفَ نُوقِظُ مَنْ قَدْ نامَ قَلْبُهُ لَا عَيْنُهُ وَجِسْمُهُ؟.

قالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِذَا لَمْ تَقْدِرْ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ فاعْلَمْ أَنَّكَ مَحْرُومٌ كَبَّلَتْكَ خَطِيئَتُكَ. وَقِيلَ لابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا نَسْتَطِيعُ قِيَامَ اللَّيْلِ. قالَ: قَيَّدَتْكُمْ خَطَايَاكُمْ.

قالَ الأَصْمَعِيُّ: خَرَجْتُ حَاجًّا إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ وَزِيارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَبَيْنَمَا أَنا أَطُوفُ حَوْلَ الْكَعْبَةِ الشَّرِيفَةِ بِاللَّيْلِ وَكانَتْ لَيْلَةً قَمْرَاءَ، إِذَا أَنا بِصَوْتٍ حَزِينٍ فاتَّبَعْتُ الصَّوْتَ فَإِذَا أَنا بِشَابٍّ حَسَنِ الْوَجْهِ ظَرِيفِ الشَّمَائِلِ، عَلَيْهِ أَثَرُ الْخَيْرِ وَلَهُ ذُؤَابَتانِ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، وَيَقُولُ: إِلٰهِي وَسَيِّدِي وَمَوْلَايَ نامَتِ الْعُيُونُ، وَغَارَتِ النُّجُومُ، وَأَنْتَ مَلِكٌ حَيٌّ قَيُّومٌ، إِلٰهِي أَغْلَقَتِ الْمُلُوكُ أَبْوَابَها، وَقامَتْ عَلَيْهَا خُزَّانُها، وَبَابُكَ مَفْتُوحٌ لِلسَّائِلِينَ. وَهَا أَنا سَائِلٌ بِبابِكَ مُذْنِبٌ مِسْكِينٌ، جِئْتُ أَنْتَظِرُ رَحْمَتَكَ يَا كَرِيمُ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

يَا مَنْ يُجِيبُ دُعَا الْمُضْطَرِّ فِي الظُّلَمِ ... يَا كاشِفَ الضُّرِّ وَالْبَلْوَى مَعَ السَّقَمِ

قَدْ نامَ وَفْدُكَ حَوْلَ الْبَيْتِ وَانْتَبَهُوا ... وَأَنْتَ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ لَمْ تَنَمِ

أَدْعُوكَ رَبِّ حَزِينًا راجِيًا فَرَجًا ... فارْحَمْ بُكائِي إِلٰهَ الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ

أَنْتَ الْغَفُورُ فَجُدْ لِي مِنْكَ مَغْفِرَةً ... وَاعْطِفْ عَلَيَّ بِفَضْلِ الْجُودِ وَالْكَرَمِ

إِنْ كانَ عَفْوُكَ لَا يَرْجُوهُ غَيْرُ تَقِي ... فَمَنْ يَجُودُ عَلَى الْعَاصِينَ بِالنِّعَمِ؟

قال: ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ يَقُولُ: إِلٰهِي وَسَيِّدِي وَمَوْلَايَ أَطَعْتُكَ بِمِنَّتِكَ فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَيَّ، وَعَصَيْتُكَ بِجَهْلِي فَلَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ، فَبِإِظْهَارِ مِنَّتِكَ عَلَيَّ وَإِقَامَةِ حُجَّتِكَ عَلَيَّ، أَسْأَلُكَ أَنْ تَغْفِرَ ذُنُوبِي وَلَا تحْرِمْنِي رُؤْيَةَ جَدِّي وَقُرَّةَ عَيْنِي حَبِيبَكَ وَصَفِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي دَارِ كَرَامَتِكَ.

قالَ الأَصْمَعِيُّ: فَكَانَ يُرَدِّدُ الأَبْيَاتَ حَتَّى سَقَطَ عَلَى الأَرْضِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَإِذَا هُوَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، فَرَفَعْتُ رَأْسَهُ فِي حِجْرِي وَبَكَيْتُ لِبُكَائِهِ فَقَطَرَتْ قَطْرَتانِ مِنْ دُمُوعِي عَلَى خَدِّهِ فَأَفاقَ فَقالَ: مَنْ هَذَا الَّذِي شَغَلَنِي عَنْ ذِكْرِ مَوْلَايَ؟ فَقُلْتُ لَهُ: أَنَا الأَصْمَعِيُّ؛ فَمَا هَذَا الْبُكَاءُ؟ وَمَا هَذَا الْجَزَعُ؟ وَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النُّبُوَّةِ وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ، أَلَيْسَ اللَّهُ ﷻ قالَ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؟ فاسْتَوَى جَالِسًا. وَقالَ: يَا أَصْمَعِيُّ هَيْهَاتَ! إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، وَخَلَقَ النَّارَ لِمَنْ عَصَاهُ وَإِنْ كانَ حُرًّا قُرَشِيًّا. أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ ﷻ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾؟ قالَ: فَتَرَكْتُهُ عَلَى حالِهِ ومَضَيْتُ.

اللَّيْلُ مَنْهَلٌ يرِدُهُ أَهْلُ الإِرَادَةِ كُلُّهُمْ، ويَخْتَلِفُونَ فِيمَا يَرِدُونَ وَيُرِيدُونَ. قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ، فالْمُحِبُّ مُتَلَذِّذٌ لِمُنَاجَاةِ مَحْبُوبِهِ، وَالْخَائِفُ يَتَضَرَّعُ لِطَلَبِ الْعَفْوِ وَيَبْكِي عَلَى ذُنُوبِه، وَالرَّاجِي يُلِحُّ فِي سُؤَالِ مَطْلُوبِهِ، وَالْغَافِلُ الْمِسْكِينُ أَحْسَنَ اللَّهُ عَزَاءَهُ فِي حِرْمَانِهِ وَفَوَاتِ نَصِيبِهِ.

إِخْوَانِي: مَاذَا فَاتَهُ مَنْ فَاتَهُ قِيَامُ اللَّيْلِ؟ لَقَدْ حَصَلَ أَهْلُ الْغَفْلَةِ وَالنَّوْمِ عَلَى الْحِرْمَانِ وَالْوَيْلِ، أَمَا لَكُمْ هِمَّةٌ تُنَافِسُونَ الْحَسَنَ وَسُفْيَانَ وَفُضَيْلَ؟ أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ سَرِيٍّ: رَأَيْتُ الْفَوَائِدَ تَرِدُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ؟

عِبَادَ اللَّهِ: هَذِهِ الأَيَّامُ مَطَايَا، أَيْنَ الْعُدَّةُ قَبْلَ الْمَنَايَا؟ أَيْنَ الأَنَفَةُ مِنْ دَارِ الأَذَايَا؟ أَيْنَ الْعَزَائِمُ؟ أَرَضِيتُمْ بِالدَّنَايَا؟ إِنَّ بَلِيَّةَ الْهَوَى لَا تُشْبِهُ الْبَلَايَا، وَإِنَّ

خَطِيئَةَ الأَحْرَارِ لَا كَالْخَطَايَا، يَا مَسْتُورِينَ سَتَظْهَرُ الْخَفَايَا، سَرِيَّةُ الْمَوْتِ لَا تُشْبِهُ السَّرَايَا، قَضِيَّةُ الزَّمَانِ لَا تُشْبِهُ الْقَضَايَا، مَلَكُ الْمَوْتِ لَا يَقْبَلُ الْهَدَايَا، أَيُّهَا الشَّابُّ سَتُسْأَلُ عَنْ شَبَابِكَ، أَيُّهَا الْكَهْلُ تَأَهَّبْ لِعِتَابِكَ، أَيُّهَا الشَّيْخُ تَدَبَّرْ أَمْرَكَ قَبْلَ سَدِّ بَابِكَ.

يَا مَرِيضَ الْقَلْبِ قِفْ بِبَابِ الطَّبِيبِ، يَا مَنْحُوسَ الْحَظِّ اشْكُ فَوَاتَ النَّصِيبِ، لُذْ بِالْجَنَابِ ذَلِيلًا، وَقِفْ عَلَى الْبَابِ طَوِيلًا، وَاتَّخِذْ فِي بَقِيَّةِ هَذِهِ الْعَشْرِ سَبِيلًا، اجْعَلْ جَنَابَ التَّوْبَةِ مَقِيلًا، وَاجْتَهِدْ فِي الْخَيْرِ تَجِدْ ثَوَابًا جَزِيلًا، وَاسْتَدْرِكِ الشَّهْرَ قَبْلَ رَحِيلِهِ - وَأَنْتَ بِدَاءِ التَّفْرِيطِ - عَلِيلًا، قُلْ فِي الأَسْحَارِ: أَنَا تَائِبٌ، وَقَدْ أَقْبَلْتُ إِلَيْكَ أَطْلُبُ الْمَوَاهِبَ، وَنَادِ فِي الدُّجَى قَدْ قَدِمَ الْغَائِبُ، قَالَ:

اعْفُ عَنِّي وَأَقِلْ لِي عَثْرَتِي ... يَا غِيَاثًا لِمُلِمَّاتِ الزَّمَنْ
لَا تُعَاقِبْنِي فَقَدْ عَاقَبَنِي ... نَدَمٌ أَقْلَقَ رُوحِي فِي الْبَدَنْ
إِنْ تُؤَاخِذْنِي فَمَنْ ذَا أَرْتَجِي ... وَإِذَا لَمْ تَعْفُ عَنْ ذَنْبِي فَمَنْ؟

إِخْوَانِي: أَيْنَ مَنْ أَدْرَكَ مَقَامَاتِ الْمَقْبُولِينَ، أَيْنَ مَنْ حَثَّ مَطَايَاهُ خَلْفَ الْمُشَمِّرِينَ؟ أَيْنَ الْمُتَأَهِّبُ لِأَفْزَاعِ يَوْمِ الدِّينِ؟ أَيْنَ الْمُتَّصِفُ بِصِفَاتِ أَهْلِ الْيَقِينِ؟ فَلِلَّهِ دَرُّ نُفُوسٍ تَطَهَّرَتْ مِنْ أَدْنَاسِ هَوَاهَا، وَتَدَرَّعَتْ لِبَاسَ الصَّبْرِ عَنْ عَاجِلِ دُنْيَاهَا، وَشَغَلَهَا مَا رَأَى الْقَلْبُ عَمَّا رَأَتْ عَيْنَاهَا، سَهِرَتْ تَطْلُبُ رِضَى الْمَوْلَى فَرَضِيَ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا، وَزُمَّتْ نَجَائِبُ الأَسْحَارِ فَسَاقَها حَادِي الاسْتِغْفَارِ إِذْ عَنَاهَا، وَقَطَعَتْ بَيْدَاءَ الْجِدِّ بِآلَةِ الْمُسْتَعِدِّ فَبَلَغَتْ مُنَاهَا. شِعْر:

يَا رَبِّ عَبْدُكَ قَدْ أَتَـ ... ـاكَ وَقَدْ أَسَاءَ وَقَدْ هَفَا
يَكْفِيهِ مِنْكَ حَيَاؤُهُ ... مِنْ سُوءِ مَا قَدْ أَسْلَفَا
حَمَلَ الذُّنُوبَ عَلَى الذُّنُـ ... ـوبِ الْمُوبِقَاتِ وَأَسْرَفَا
وَقَدِ اسْتَجَارَ بِذَيْلِ عَفْـ ... ـوِكَ مِنْ عِقَابِكَ مُلْحِفَا

رَبِّ اعْــفُ عَــنْــهُ وَعَــافِــهِ   فَــلأَنْــتَ أَوْلَــى مَــنْ عَــفَــا

فَصْلٌ

قالَ اللَّهُ تَعالَى فِي وَصْفِ الْمُتَّقِينَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

الأَسْحَارُ: هِيَ أَوَاخِرُ اللَّيْلِ، وَقَدِ امْتَدَحَ اللَّهُ الْمُصَلِّينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ فِيهَا وَهِيَ مِنْ أَوْقاتِ قَبُولِ الدُّعَاءِ. كَما رُوِيَ أَنَّ يَعْقُوبَ لَمَّا سَوَّفَ لِبَنِيهِ بالاسْتِغْفَارِ لَهُمْ أَخَّرَهُ إِلَى وَقْتِ السَّحَرِ.

وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنا تَبارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ» وَتَقَدَّمَ.

واعْلَمْ أَنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعالَى عَلَيْهِمْ كانُوا يُدَاوِمُونَ عَلَى قِيامِ اللَّيْلِ، لأَنَّ صَلَاةَ اللَّيْلِ لَها فَضْلٌ عَلَى صَلاةِ النَّهَارِ وَلا سِيَّمَا فِي هَذِهِ اللَّيَالِي الشَّرِيفَةِ، وَيَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ والاسْتِغْفَارِ فِي السَّحَرِ، لِأَنَّهُ مَظِنَّةُ الإِجَابَةِ، كَما تَقَدَّمَ مِنْ نُزُولِ الرَّبِّ تَبارَكَ وَتَعالَى.

وَلِلدُّعَاءِ آدَابٌ، مِنْهَا: أَنْ يَرْصُدَ بِهِ الأَوْقَاتَ وَالأَحْوَالَ الشَّرِيفَةَ كَهَذِهِ اللَّيَالِي، وَأَوْقَاتِ الأَسْحَارِ، وَأَرْجَى مَا يَكُونُ لِلإِجابَةِ فِي السُّجُودِ.

وَيُشْتَرَطُ لِرَجَاءِ الإِجابَةِ، الصَّلاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَيُشْتَرَطُ أَيْضًا حُضُورُ الْقَلْبِ وَرَغْبَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَخَوْفُهُ مِنْ عِقَابِهِ، وَخُشُوعُهُ فِي صَلَاتِهِ، وَأَنْ يَكُونَ مَأْكَلُهُ مِنْ حَلَالٍ، وَلَا يَسْتَعْجِلَ الإِجابَةَ، فَرُبَّمَا كانَتِ الْمَصْلَحَةُ فِي التَّأْخِيرِ، وَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ مُبادِرًا بِالأَعْمَالِ، مُجْتَنِبًا لِلتَّفْرِيطِ وَالإِهْمَالِ، وَأَنْ يُعِدَّ عَمَلًا صَالِحًا قَبْلَ خَيْبَةِ الآمَالِ.

قالَ رَجُلٌ لِدَاوُدَ الطَّائِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعالَى: قَدْ عَرَفْتَ مَا بَيْنَنا مِنَ الْقَرابَةِ فَأَوْصِنِي، فَبَكَى دَاوُدُ رَحِمَهُ اللهُ وَقالَ: يَا أَخِي، إِنَّما اللَّيْلُ مَراحِلُ يَنْزِلُها النَّاسُ مَرْحَلَةً مَرْحَلَةً حَتَّى تَنْتَهِي بِهِمْ إِلَى آخِرِ سَفَرِهِمْ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُقَدِّمَ فِي كُلِّ مَرْحَلَةٍ زَادًا لِسَفَرِكَ فافْعَلْ، فَإِنَّ انْقِطاعَ السَّفَرِ عَنْ قَرِيبٍ، والأَمْرُ أَعْجَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَتَزَوَّدْ لِسَفَرِكَ، وَاقْضِ مَا أَنْتَ قاضٍ مِنْ أَمْرِكَ، فَكَأَنَّكَ بالأَمْرِ قَدْ بَغَتَكَ. إِنِّي لأَقُولُ لَكَ هَذَا وَمَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَشَدَّ تَضْيِيعًا مِنِّي لِذَلِكَ.

وَقَالَ مَنْصُورُ بْنُ عَمَّارٍ: دَخَلْتُ الْكُوفَةَ، فَبَيْنَمَا أَنا أَمْشِي فِي ظُلْمَةٍ إِذْ سَمِعْتُ بُكاءَ رَجُلٍ بِصَوْتٍ شَجِيٍّ مِنْ دَاخِلِ الدَّارِ، وَهُوَ يَقُولُ: وَعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ، مَا أَرَدْتُ بِمَعْصِيَتِكَ مُخالَفَتَكَ، وَلَكِنْ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي، وَغَلَبَتْنِي شِقْوَتِي، وَغَرَّنِي سِتْرُكَ الْمُرْخَى عَلَيَّ، فالآنَ مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ عَذابِكَ، وَبِحَبْلِ مَنْ أَعْتَصِمُ إِنْ قَطَعْتَ حَبْلَكَ عَنِّي؟ وَاذُنُوباهُ، وَاغَوْثاهُ، يَا أَللَّهُ.

قالَ مَنْصُورُ بْنُ عَمَّارٍ: فَأَبْكانِي كَلامُهُ، فَوَقَفْتُ فَقَرَأْتُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ فَسَمِعْتُ لِلرَّجُلِ اضْطِرابًا شَدِيدًا وَصِياحًا، فَوَقَفْتُ حَتَّى انْقَطَعَ صَوْتُهُ وَمَضَيْتُ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَتَيْتُ إِلَى الدَّارِ فَوَجَدْتُ الرَّجُلَ قَدْ مَاتَ وَالنَّاسُ فِي تَجْهِيزِهِ، وَعَجُوزٌ تَبْكِي. فَسَأَلْتُهَا عَنْ أَمْرِ الْمَيِّتِ، وَلَمْ تَكُنْ عَرَفَتْنِي، فَقَالَتْ: هَذَا رَجُلٌ لَا جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا، مَرَّ بِابْنِي الْبَارِحَةَ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي، فَتَلا آيَةً مِنْ كِتابِ اللَّهِ، فَتَفَطَّرَتْ مَرارَتُهُ فَوَقَعَ مَيِّتًا.

فَيا أَيُّها الْمَشْغُولُ طُولَ اللَّيْلِ فِي الْمَنامِ، وَطُولَ النَّهارِ فِي جَمْعِ الْحُطامِ، أَتَرْضَى بِمُشارَكَةِ الأَنْعامِ؟ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ، وَحَثَّهُ عَلَى الْمُسابَقَةِ إِلَى الْخَيْراتِ وَالاغْتِنامِ: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾؟ وَأَلْفُ شَهْرٍ ثَلاثٌ وَثَمانُونَ سَنَةً وَأَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ. قِيلَ: يَعْنِي أَنَّ الرَّحْمَةَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَكْثَرُ مِنَ الرَّحْمَةِ فِي أَلْفِ شَهْرٍ.

وَالصَّحِيحُ مَا تَقَدَّمَ: أَنَّ الرَّحْمَةَ عَلَى الْعُصَاةِ وَالْمُذْنِبِينَ فِي اللَّيْلَةِ وَحْدَهَا مِثْلُ الرَّحْمَةِ عَلَيْهِمْ فِي أَلْفِ شَهْرٍ. وَقَوْلُهُ: لَيْلَةُ الْقَدْرِ، قِيلَ: إِنَّهَا لَيْلَةٌ لها قَدْرٌ وَجَاهٌ وَمَنْزِلَةٌ وَشَرَفٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقِيلَ: تُقَدَّرُ فِيهَا الأَرْزَاقُ وَالآجَالُ، وَالأَمْرَاضُ وَالْمَصَائِبُ، وَالْبَلَايَا وَالْعَافِيَةُ، وَالْفَرَحُ وَالسُّرُورُ، وَالرِّبْحُ وَالْخُسْرَانُ، وَالْعِزُّ وَالذُّلُّ، وَالْخَفْضُ وَالرَّفْعُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَمَا يَكُونُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ إِلَى مِثْلِهَا مِنْ عَامٍ قابِلٍ، وَهُوَ الصَّحِيحُ كَما تَقَدَّمَ تَأْيِيدُهُ فِي الأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ.

وَرُوِيَ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «إِذَا كانَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ نَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ وَهُمْ سُكَّانُ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَجِبْرِيلُ مَعَهُمْ عليه السلام؛ ومَعَهُمْ أَرْبَعَةُ أَلْوِيَةٍ، فَيُنْصَبُ لِوَاءٌ مِنْهَا عَلَى قَبْرِي وَلِوَاءٌ مِنْهَا عَلَى طُورِ سِينَاءَ، وَلِوَاءٌ مِنْهَا عَلَى ظَهْرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَلِوَاءٌ مِنْهَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَلَا يَدَعُ بَيْتًا فِيهِ مُؤْمِنٌ وَلَا مُؤْمِنَةٌ إِلَّا دَخَلَهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، يَقُولُ: يا مُؤْمِنُ وَيا مُؤْمِنَةُ، الْسَّلَامُ يُقْرِئُكَ الْسَّلَامَ. فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ، فَأَوَّلُ مَنْ يَصْعَدُ جِبْرِيلُ عليه السلام حَتَّى يَكُونَ عَلَى الْوَجْهِ الأَعْلَى بَيْنَ الْسَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَيَبْسُطُ جَنَاحَهُ، فَيَقُومُ جِبْرِيلُ عليه السلام يَدْعُو مَلَكًا مَلَكًا فَيَصْعَدُونَ فَيَجْتَمِعُ نورُ الْمَلَائِكَةِ وَنُورُ جَنَاحِ جِبْرِيلَ عليه السلام، فَتُصْبِحُ الشَّمْسُ بَيْضَاءَ لَا شُعَاعَ لَهَا.

فَيَقُومُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بَيْنَ الْسَّمَاءِ وَالأَرْضِ يَؤُمُّهُمْ ذٰلِكَ فِي دُعَاءٍ وَاسْتِغْفَارٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ. فَإِذَا أَمْسَوْا دَخَلُوا سَمَاءَ الدُّنْيَا. فَتَقُولُ لَهُمْ مَلَائِكَةُ سَمَاءِ الدُّنْيا: مَرْحَبًا بِأَشْرَافِنَا وَسَادَاتِنَا مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَقْبَلَنا مِنْ عِنْدِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ. فَيَقُولُونَ: مَا صَنَعَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي حَوَائِجِهِمْ؟ فَيَقُولُونَ: غَفَرَ لِصَالِحِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَشَفَّعَ صَالِحَهُمْ فِي طَالِحِهِمْ، فَيَصِيحُونَ إِلَى اللَّهِ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّقْدِيسِ، شُكْرًا لِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ثُمَّ يَسْأَلُونَهُمْ عَنْ رَجُلٍ رَجُلٍ، وَامْرَأَةٍ امْرَأَةٍ.

فَيَقُولُونَ: مَا فَعَلَ فُلَانٌ مَا فَعَلَتْ فُلَانَةُ؟ فَيَقُولُونَ: وَجدْنا فُلَانًا عَامَ الأَوَّلِ مُبْتَدِعًا، وَوَجدْنَاهُ هَذَا الْعَامَ مُتعَبِّدًا، فَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَيَدْعُونَ لَهُ. وَوَجدْنا فُلانًا عَامَ الأَوَّلِ مُتَعَبِّدًا وَوَجدْنَاهُ هَذَا الْعَامَ مُبْتَدِعًا، فَيَكُفُّونَ عَنِ الاسْتِغْفَارِ لهُ، وَوَجدْنا فلانًا يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى، وَوَجدْنَا فُلَانًا رَاكِعًا، وَوَجدْنَا فُلَانًا سَاجِدًا، وَوَجدْنا فُلَانًا تَالِيًا لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَوَجدْنا فُلَانًا باكِيًا، فَيَدْعُونَ لَهُمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ.

ثُمَّ يَصْعَدُونَ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَلَهُمْ فِي كُلِّ سَمَاءٍ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ فِي دُعَاءٍ وَاسْتِغْفَارٍ لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى مَكَانِهِمْ مِنْ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَتَقُولُ لَهُمْ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى: أَيْنَ غِبْتمْ هَذِهِ الأَيَّامَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا عِنْدَ نُزُولِ الرَّحْمَةِ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتَقُولُ لَهُمْ: مَا صَنَعَ الرَّبُّ بِهِمْ؟ فَيَقُولُونَ: غَفَرَ لِمُحْسِنِهِمْ وَشَفَّعَهُ فِي مُسِيئِهِمْ، قَالَ: فَتَهْتَزُّ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى وَتُثْنِي عَلَى اللَّهِ ﷻ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ لِمَا أَعْطَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَتَسْمَعُهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى وَهِيَ مُطِلَّةٌ عَلَيْهَا، فَتَقُولُ: يا سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، لِمَ اهْتَزَزْتِ؟ فَتَقُولُ: أَخبَرَنِي سُكَّانِي عَنْ جِبْرِيلَ ﵇: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَفَرَ لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَفَّعَ مُحْسِنَهُمْ فِي مُسِيئِهِمْ. فَتَصِيحُ جَنَّةُ الْمَأْوَى بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ وَالثَّنَاءِ والشُّكْرِ، لِمَا أَعْطَى اللَّهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ. فَتَسْمَعُهَا جَنَّةُ النَعِيمِ وَهِيَ مُطِلّةٌ عَلَيْهَا فَتَقُولُ: يا جَنَّةَ الْمَأْوَى، لِمَ صِحْتِ؟ فَتَقُولُ: أَخْبَرَتْنِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى عَنْ سُكَّانِهَا عَنْ جِبْرِيلَ ﵇؛ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَفَرَ لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَفَّعَ مُحْسِنَهُمْ فِي مُسِيئِهِمْ فَتَصِيحُ جَنَّةُ النَّعِيمِ، فَتَسْمَعُهَا جَنَّةُ عَدْنٍ، ثُمَّ يَسْمَعُ جَنَّةَ عَدْنٍ الْكُرْسِيُّ فَيَقُولُ الْكُرْسِيُّ كَذَلِكَ، ثُمَّ يَسْمَعُ الْكُرْسِيَّ الْعَرْشُ، فَيَقُولُ: يا كُرْسِيُّ لِمَ صِحْتَ؟ فَيَقُولُ: أَخْبَرَتْنِي جَنَّةُ عَدْنٍ عَنْ جَنَّةِ النَّعِيمِ عَنْ جَنَّةِ الْمَأْوَى، عَنْ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، عَنْ سُكَّانِهَا عَنْ جِبْرِيلَ ﵇: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَفَرَ لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَفَّعَ مُحْسِنَهُمْ فِي مُسِيئِهِمْ.

قَالَ: فَيَهْتَزُّ الْعَرْشُ طَرَبًا وَيَصِيحُ، فَيَقُولُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ: لِمَ صِحْتَ

ـ وَهُوَ أَعْلَمُ ـ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَخْبَرَنِي الْكُرْسِيُّ عَنْ جَنَّةِ عَدْنٍ، عَنْ جَنَّةِ النَّعِيمِ، عنْ جَنَّةِ الْمَأْوَى، عَنْ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، عَنْ سُكَّانِهَا، عَنْ جِبْرِيلَ ﷺ: أَنَّكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ غَفَرْتَ لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَفَّعْتَ مُحْسِنَهُمْ في مُسِيئِهِمْ، وَصَالِحَهُمْ فِي طَالِحِهِمْ. فَيَقُولُ اللَّهَ ﷻ: صَدَقَ جِبْرِيلُ، وَصَدَقَ سُكَّانُ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَصَدَقَتْ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، وَصَدَقَتْ جَنَّةُ الْمَأْوَى، وَصَدَقَتْ جَنَّةُ النَّعِيمِ، وَصَدَقَتْ جَنَّةُ عَدْنٍ، وَصَدَقَ الْكُرْسِيُّ وَصَدَقْتَ يا عَرْشِي. أَعْدَدْتُ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

وَاعْلَمْ أَنِّي لَمْ أَقِفْ عَلَى مَنْ خَرَّجَ هَذَا الْحَدِيثَ لأَذْكرَهُ. لَكِنْ رَأَيْتُهُ فِي غَيْرِ كِتَابٍ مُجَرَّدًا عَمَّنْ خَرَّجَهُ.

وَقَدْ ذَكَرَ نَحْوَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ، وَلَهُ شَوَاهِدُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَ الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ.

إِخْوَانِي، كَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلى الدُّنيَا مَنْ رَأَى سُرْعَةَ الانْتِقَالِ، وَكَيْفَ يَطْمَعُ فِي الْمُقَامِ مَنْ يَرَى تَقَلُّبَ الأَحْوَال؟ تَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ وَهِيَ خَيَالٌ، وَتَحْمِلُونَ أَوْزَارَهَا وَهِيَ ثِقَالٌ، وَتَتَعَلَّلُونَ بالتَّسْوِيفِ وَالآمَالِ، وَتُبَارِزُونَ بِالْمَعَاصِي ذَا الْجَلَالِ، أَمَا أَنْذَرَكُمْ مَنْ رَحَلَ مِنَ الأَحْبَابِ بِالارْتِحَالِ؟ فَجِدُّوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ مَا دُمْتُمْ فِي زَمَنِ الإِمْهَالِ، وَاسْتَدْرِكُوا بقِيَّةَ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَقَدْ عَزَمَ عَلَى الارْتِحَالِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا ثَلَاثُ لَيَالٍ. كانَ واللَّهِ مَوْسِمًا لِقَسْمِ الْغَنَائِمِ، وَمَيْدَانَ مُسَابَقَةٍ بِالْخَيْرَاتِ لأَهْلِ الْعَزَائِمِ.

إِخْوَانِي، كَيْفَ لَا يُبْكَى عَلَى فِرَاقِ هَذَا الشَّهْرِ؟ وَقَدْ سَمِعْتُمْ مَا خَصَّكُمُ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الأَجْرِ، فاجْتَهِدُوا فِي بَقِيَّةِ هَذِهِ الأَيَّامِ الْعَشْرِ، فَعَسَى تُوَافُونَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ. فَتَفُوزُوا مِنَ الإِلَهِ بِالْغُفْرَانِ وَوَافِرَ الأَجْرِ.

شِعْر:

قُمْ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ وَارْفَعْ شِكَايَةً   إِلَى الْمَلِكِ الأَعْلَى وَقَلْبُكَ خَاشِعُ

وَقُلْ: يا رَءُوفًا بِالْعِبَادِ وَمُحْسِناً ... بِبَابِكَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِكَ خَاضِعُ
فَكُنْ رَاحِمًا فَقْرِي وَذُلِّي وَحَالَتِي ... فَعَفْوُكَ مَأْمُولٌ وَفَضْلُكَ أَوْسَعُ
وَوَفِّرْ نَصِيبِي مِنْ عَطَايَاكَ سَيِّدِي ... فَما زِلْتَ تُعْطِي مَنْ لِبَابِكَ قارِعُ
أَغِثْ يا عَظِيمَ الطَّوْلِ عَبْدًا مُحَاذِراً ... وَيَرْجُوكَ فِي الْغُفْرَانِ بِالْعَفْوِ طَامِعُ

لِلَّهِ دَرُّ أَقْوَامٍ أَقْدَامُهُمْ فِي الدُّجَى قائِمَةٌ، وَأَعْيُنُهُمْ سَاهِرَةٌ لا نائِمَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ عَازِمَةٌ، وَهَذِهِ أَفْعالُ النُّفُوسِ الْحَازِمَةِ، فَوَجَبَتْ لَهُمْ نَجاةٌ قَطْعِيَّةٌ جازِمَةٌ، وُجُوهٌ لَهُمْ طَالَمَا غَسَلَتْها الدُّمُوعُ، وُجُوهٌ طَالَمَا أَذَلَّها الْخُشُوعُ، وُجُوهٌ ظَهَرَ عَلَيْهَا الاصْفِرَارُ مِنَ الْجُوعِ، وُجُوهٌ إِذَا عَنَتْ أَذْعَنَتْ وَذَلَّتْ، وُجُوهٌ أَلِفَتِ السُّجُودَ فَمَا مَلَّتْ، وُجُوهٌ تَوَجَّهَتْ إِلَيْنَا وَعَنْ غَيْرِنا تَوَلَّتْ، سَهَرُهُمْ إِلَى الصَّبَاحِ قَدْ أَثَّرَ فِي الْوُجُوهِ الصِّبَاحِ، وَاقْتِنَاعُهُمْ بِالْخُبْزِ الْقَفَارِ وَالْمَاءِ الْقُرَاحِ، قَدْ عَمِلَ فِي الأَجْسَامِ وَالأَشْبَاحِ، وَخَوَّفَهُمْ مِنَ اجْتِرَاحِ الْجُنَاحِ، قَدْ صَيَّرَهُمْ كَمَقْصُوصِ الْجَنَاحِ، تَجْرِي دُمُوعُهُمْ فِي الْخُدُودِ، كالْمِيَاهِ فِي الأُخْدُودِ، وَتَعْمَلُ نَارُ الْحَذَرِ فِي الْكُبُودِ، فَيَتَمَنَّوْنَ عَدَمَ الْوُجُودِ، فَهُمْ بَيْنَ الرُّكُوعِ والسُّجُودِ، يَتَفَكَّرُونَ فِي السَّابِقَةِ، وَيَحْذَرُونَ مِنَ اللَّاحِقَةِ، كأَنَّ السُّيُوفَ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ بارِقَةٌ، طَالَما أَطَالُوا الْبُكَاءَ فِي اللَّيْلِ، تَجْرِي دُمُوعُهُمْ كَجَرْيِ السَّيْلِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا يُكَالُ لِلْعَبْدِ عَلَى قَدْرِ الْكَيْلِ، جَنَّ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ وَهُمْ قِيَامٌ، وَجَاءَ النَّهَارُ وَهُمْ صِيَامٌ، وَتَوَرَّعُوا عَنْ قَوْلِ الزُّورِ فِي الْكَلامِ، فَيَا حُسْنَهُمْ وَحُسْنَ الْخِتَامِ.

اللَّهُمَّ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ النَّارِ، وَعَافِنا مِنْ دَارِ الخِزْيِ وَالْبَوَارِ. وَأَدْخِلْنَا بِفَضْلِكَ الْجَنَّةَ دَارَ الْقَرَارِ، وَعَامِلْنَا بِكَرَمِكَ وَمَغْفِرَتِكَ يَا كَرِيمُ يَا غَفَّارُ.

اللَّهُمَّ وَاجْعَلْنَا مِنَ الْمَقْبُولِينَ فِي هَذا الشَّهْرِ الْفَضِيلِ. وَخُصَّنَا فِيهِ بِالأَجْرِ الْوَافِرِ وَالْعَطاءِ الْجَزِيلِ، وَاغْفِرْ لَنا فِيهِ كُلَّ ذَنْبٍ عَظِيمٍ، وَخَفِّفْ ظُهُورَنَا مِنْ كلِّ وِزْرٍ ثَقِيلٍ، وَتَقَبَّلْ مِنَّا فِيهِ يَسِيرَ أَعْمَالِنَا فَإِنَّكَ تَقْبَلُ الْعَمَلَ الْقَلِيلَ، وأَجِرْنا فِيهِ مِنْ عَذَابِكَ وَأَكْرِمْنَا بِسَنِيِّ عَادَاتِكَ عَلَى كُلِّ حَسَنٍ جَمِيلٍ. وَاحْشُرْنا تَحْتَ لِوَاءِ

مَنْ أَنْزَلْتَ عَلَيْهِ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ. الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ. بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ التَّاسِعُ وَالْعِشْرُونَ
فِي وَدَاعِ رَمَضَانَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَوَحِّدِ بِالْبَقَاءِ وَالْكِبْرِيَاءِ. وَالْعِزِّ وَالْجَلَالِ وَالْبَهَاءِ. وَالْمُتَفَرِّدِ بالإِنْشَاءِ وَالإِيجَادِ. الْمُتَعَالِي بِعِزِّهِ وَقَهْرِهِ عَنِ الأَنْدَادِ وَالشُّرَكَاءِ والأَضْدَادِ. الْمُتَنَزِّهِ بِجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالأَوْلَادِ، وَالآبَاءِ وَالأَجْدَادِ. الْغَنِيِّ الَّذِي كُلُّ غَنِيٍّ إِلَيْهِ فَقِيرٌ. وَكُلُّ عَسِيرٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ، وَالْبَاقِي مُلْكُهُ عَلَى الآبَادِ. قَسَّمَ خَلْقَهُ إِلَى شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ. وَمَقْبُولٍ وَطَرِيدٍ. فَلَا مَعَاصِيهِمْ تَنْقُصُ مُلْكَهُ وَلَا طَاعَاتُهُمْ تَزِيدُ، فَلَهُ الْمُلْكُ التَّامُ بِخَلْقِهِ وَالانْفِرَادِ، رَافِعُ السَّبْعِ الشِّدَادِ، وَجَاعِلُها عَالِيَةً بِغَيْرِ عِمَادٍ، وَمُزَيِّنُها بِكُلِّ كَوْكَبٍ نَيِّرٍ وَقَّادٍ، وَوَضَعَ الأَرْضَ لِلْمِهادِ، وَثَبَّتَها بِشَوامِخِ الأَطْوَادِ، وَمُبْدِعُ الْمَطْلُوبِ وَالْمُرَادِ. الْكَرِيمُ الَّذِي مَنْ أَقْبَلَ إِلَيْهِ تَلَقَّاهُ، وَمَنْ لَاذَ بِحِمَاهُ حَمَاهُ وَوَقاهُ. وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ وَآوَاهُ، وَبَابُهُ مَحَطُّ الرِّكَابِ ومُنَاخُ الْعِبَادِ. خَزَائِنُهُ مَلأَى فَلَا تُغِيضُهَا النَّفَقَاتُ. سَمْعُهُ قَدْ وَسِعَ جَمِيعَ الأَصْوَاتِ. وَبَصَرُهُ قَدْ أَحَاطَ بِجَمِيعِ الْمَرْئِيَّاتِ. وَفِي مِيدَانِ حُبِّهِ مُسَابَقَةُ الزُّهَّادِ. يُجِبُّ السَّائِلِينَ وَيُنِيلُ الطَّالِبِينَ. وَعِنْدَهُ مَطَالِبُ الدَّاعِينَ وَمَآلُ الْقُصَّادِ.

فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلٰهٍ يَسْمَعُ أَنِينَ الْمُذْنِبِينَ فِي حَنَادِسِ الظَّلَامِ، وَلَا تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ اللُّغَاتُ بِأَيِّ كَلَامٍ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ وَالأَحْكَامُ، وَيَعْلَمُ سِرَّ الْقَلْبِ وَبَاطِنَ الاعْتِقَادِ، أَسْبَلَ ذَيْلَ سِتْرِهِ عَلَى الْعَاصِينَ، وَجَادَ عَلَى السَّائِلِينَ، فَزَادَهُمْ فَوْقَ الْمُرَادِ، وَغَمَرَ الْخَلْقَ بِإِحْسَانِهِ، وأَعْطَاهُمْ مِنْ كَرَمِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَلَمْ يَخَفْ مِنَ النَّقْصِ وَالنَّفَادِ.

أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمٍ كثيرَةِ التِّعْدَادِ، وأَشْكُرُهُ وَكُلَّما شُكِرَ زَادَ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا انْقِضَاءَ لِمُلْكِهِ وَلَا نَفادَ، شَهَادَةً أَرْجُو بِهَا النَّجاةَ مِنْ هَوْلِ يَوْمٍ يُشَيِّبُ هَوْلُهُ الأَوْلَادَ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُصْطَفَى، وَخُلَاصَةُ الْعِبَادِ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، صَلَاةً تَتَعَاقَبُ إِلَى قِيَامِ الأَشْهَادِ، وَخُرُوجِ الأَمْوَاتِ لِيَوْمِ التَّنَادِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيماً.

قالَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

وَعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قالَ: لَا، يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ. وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا يُقْبَلَ مِنْهُمْ. أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجه.

كانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يَهْتَمُّونَ لِقَبُولِ الْعَمَلِ بَعْدَ أَدَائِهِ.

قالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي رَوَّادٍ: أَدْرَكتُهُمْ يَجْتَهِدُونَ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَإِذَا فَعَلُوهُ وَقَعَ عَلَيْهِمُ الْهَمُّ: أَيُقْبَلُ مِنْهُمْ أَمْ لا؟ وَقَدْ قَالَ تَعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ فمِنْ كَرَمِهِ أَنَّهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِمَّنْ تَابَ إِلَيْهِ، وَيَعْفُو عَمَّا سَلَفَ مِنْهُ وَلَا يَتَعاظَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ، وَيَسْتَجِيبُ دُعاءَ الدَّاعِينَ وَيَسْمَعُ أَنِينَ الْمُذْنِبِينَ، فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يُلِحَّ عَلَى اللَّهِ بِالدُّعاءِ والاسْتِغْفارِ؛ فَإِنَّ الاسْتِغْفَارَ خِتَامُ الأَعْمَالِ كُلِّها، فَيُخْتَمُ بِهِ الصَّلَاةَ وَالْحَجَّ وَقِيَامَ اللَّيْلِ، وَيُخْتَمُ بِهِ الْمَجَالِسَ، وَشَهْرُ رَمَضَانَ تَكْثُرُ فِيهِ أَسْبَابُ الْغُفْرَانِ، فَمِنْ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ فِيهِ: صِيَامُهُ وَقِيَامُهُ وَقِيامُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَقَدْ قالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ فِي قِيامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ: إِنَّهُ يُرْجَى بِهِ مَغْفِرَةُ الذُّنُوبِ كَبَائِرِهَا وَصَغَائِرِهَا، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ الْكَبَائِرَ لا بُدَّ لَها مِنْ تَوْبَةٍ نَصُوحٍ.

وَفِي الْصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» وَفِي رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ».

وَمِنْ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ: تَفْطِيرُ الْصُّوَّامِ وَالتَّخْفِيفُ عَنِ الْمَمْلُوكِ، كَمَا أَفادَهُ حَدِيثُ سَلْمَانَ الْمَرْفُوعُ.

وَمِنْهَا: الْذِّكْرُ؛ فَفِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ: «ذَاكِرُ اللَّهَ فِي رَمَضَانَ مَغْفُورٌ لَهُ».

وَمِنْهَا: الاسْتِغْفَارُ، وَالاَسْتِغْفَارُ طَلَبُ الْمَغْفِرَةِ، وَدُعَاءُ الْصَّائِمِ مُسْتَجَابٌ فِي صِيَامِهِ وَعِنْدَ فِطْرِهِ، وَلِهَذَا كانَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ، إِذَا أَفْطَرَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ يَا وَاسِعَ الْمَغْفِرَةِ اغْفِرْ لِي».

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمَرْفُوعِ، فِي فَضْلِ شَهْرِ رَمَضَانَ: «وَيُغْفَرُ فِيهِ إِلَّا لِمَنْ أَبَى. قالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قالَ: يَأْبَى أَنْ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ».

وَمِنْهَا: اسْتِغْفَارُ الْمَلَائِكَةِ لِلصَّائِمِينَ حَتَّى يُفْطِرُوا كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي حَدِيث أَبِي هُرَيْرَةَ الآتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فَلَمَّا كَثُرَتْ أَسْبَابُ الْمَغْفِرَةِ فِي رَمَضَانَ كَانَ الَّذِي تَفُوتُهُ الْمَغْفِرَةُ فِيهِ مَحْرُومًا غَايَةَ الْحِرْمَانِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ: آمِينَ. آمِينَ. آمِينَ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّكَ صَعِدْتَ الْمِنْبَرَ. فَقُلْتَ: آمِينَ. آمِينَ. آمِينَ، فَقَالَ: إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي فَقَالَ: مَنْ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ. قُلْ: آمِينَ. فَقُلْتُ: آمِينَ. وَمَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَبَرَّهُمَا فَماتَ فَدَخَلَ النَّارَ؛ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ قُلْ: آمِينَ. فَقُلْتُ: آمِينَ. وَمَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَماتَ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ، قُلْ: آمِينَ. فَقُلْتُ آمِينَ» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ.

وَعَنْ قَتَادَةَ قالَ: «كَانَ يُقَالُ: مَنْ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ فِي رَمَضَانَ فَلَنْ يُغْفَرَ لَهُ فِيمَا سِوَاهُ».

عِبَادَ اللَّهِ: مَاذَا فَاتَهُ مَنْ فَاتَهُ خَيْرُ رَمَضَانَ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ أَدْرَكَ مَنْ أَدْرَكَهُ فِيهِ الْحِرْمَانُ؟ كَمْ بَيْنَ مَنْ حَظُّهُ فِيهِ الْقَبُولُ وَالْغُفْرَانُ؟ وَبَيْنَ مَنْ كانَ حَظُّهُ فِيهِ الْخَيْبَةَ وَالْخُسْرَانَ؟ رُبَّ قائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ. وَصَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ.

مَا أَصْنَعُ؟ هَكَذَا الْمَقْدُورُ ... الْجَبْرُ لِغَيْرِي وَأَنا الْمَكْسُورُ
أَسِيرُ ذَنْبٍ مُقَيَّدٌ مَهْجُورُ ... هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُغَيَّرَ الْمَقْدُورُ

مَتَى يُغْفَرُ لِمَنْ لَا يُغْفَرُ لَهُ فِي هَذَا الشَّهْرِ؟ مَتَى يُقْبَلُ مَنْ رُدَّ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ؟ مَتَى يُعْتَقُ مَنْ لَمْ يُعْتَقْ فِي آخِرِهِ مِنَ النِّيرَانِ؟ مَتَى يَرْبَحُ مَنْ كانَ حَظُّهُ فِيهِ الْخَيْبَةَ وَالْخُسْرَانَ؟ فَوَا أَسَفًا لِهَذَا الْغُبْنِ أَنْ تَرَى الْمُجْتَهِدِينَ قَدْ بادَرُوا الأَوْقَاتَ، وَاجْتَهَدُوا فِي الطَّاعَاتِ، وَضُوعِفَتْ لَهُمُ الْحَسَنَاتُ. وأَنْتَ مُكِبٌّ عَلَى الْغَفَلَاتِ، وَمُنْهَمِكٌ فِي الْبِطَالَاتِ. أَمَا يَأْنِي لَكَ أَيُّها الْمِسْكِينُ أَنْ تَتُوبَ؟ أَمَا يَأْنِي لَكَ أَنْ تُقْلِعَ عَنِ الْمَعَاصِي وَتَؤُوبَ. وَتَسْتَدْرِكَ مَا فاتَ بِما بَقِيَ مِنْ إِصْلَاحِ الْعُيُوبِ؟

سَارَ الْقَوْمُ وَالشَّقَاءُ يُقْعِدُنِي ... حَازُوا الْقُرْبَ وَالْجَفَاءُ يُبْعِدُنِي
حَسْبِي حَسْبِي إِلَى مَتَى تَطْرُدُنِي ... أَعْدَائِي دَائِي وَكلُّهُمْ يَقْصِدُنِي

فَيَا هَذَا، تَدَارَكْ مَوَاسِمَ الْغُفْرَانِ، وَاجْتَهِدْ فِي بَقِيَّةِ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَلَعَلَّكَ لَا تُدْرِكُهُ فِي الزَّمَانِ الثَّانِ، نَكِّسِ الرَّأْسَ تَنْكِيسَ نَدْمَانَ، وَقِفْ عَلَى بابِ الْمَوْلَى وَقُلْ: يَا صَاحِبَ الإِحْسَانِ. عَبْدُكَ الضَّعِيفُ أَسِيرُ الْعِصْيَانِ، وَحَلِيفُ الْهُمُومِ وَالأَحْزَانِ. قَدِ انْطَرَحَ بَيْنَ يَدَيْكَ وَاسْتَكَانَ، يَسْتَقِيلُكَ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْعِصْيَانِ؛ فَأَنْتَ الْمَعْرُوفُ بِالْفَضْلِ وَالامْتِنَانِ.

رُوِيَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ جِبْرِيلَ قالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «وَالَّذِي

بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا، إِنَّ لِلَّهِ عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ عَبَدَ اللَّهَ تَعَالَى خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ عَرْضُهُ وَطُولُهُ ثَلَاثُونَ ذِراعًا فِي ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا وَالْبَحْرُ مُحِيطٌ بِهِ أَرْبَعَةَ آلَافِ فَرْسَخٍ مِنْ كُلِّ ناحِيَةٍ، أَجْرَى اللَّهُ لَهُ عَيْنًا عَذْبَةً بِعَرْضِ الإِصْبَعِ بِماءٍ عَذْبٍ يَسْتَنْقِعُ مِنْ أَسْفَلِ الْجَبَلِ، وَشَجَرَةَ رُمَّانٍ كُلَّ يَوْمٍ يَخْرُجُ لَهُ مِنْهَا رُمَّانَةٌ. فَإِذَا أَمْسَى نَزَلَ فَأَصَابَ مِنَ الْوُضُوءِ وَأَخَذَ تِلْكَ الرُّمَّانَةَ فَأَكَلَها، ثُمَّ قامَ لِصَلَاتِهِ فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِدًا وَأَلَّا يَجْعَلَ لِلأَرْضِ وَلَا لِشَيْءٍ عَلَى جَسَدِهِ سَبِيلًا حَتَّى يَبْعَثَهُ وهُوَ سَاجِدٌ. فَفَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ لَهُ. قَالَ جِبْرِيلُ ﷺ: فَنَحْنُ نَمُرُّ عَلَيْهِ إِذَا هَبَطْنَا وَعَرَجْنَا وَهُوَ عَلَى حَالِهِ فِي السُّجُودِ.

قالَ جِبْرِيلُ ﷺ: فَنَجِدُ فِي العِلْمِ أَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى، فَيَقُولُ الرَّبُّ تَبارَكَ وَتَعَالَى: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَلَائِكَتِهِ: حَاسِبُوا عَبْدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمَلِهِ. فَيُوجَدُ نِعْمَةُ الْبَصَرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَتِهِ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ. فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي النَّارَ، فَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ، فَيُنادِي: يَا رَبِّ بِرَحْمَتِكَ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: رُدُّوهُ. فَيُوقَفُ بَينَ يَدَيْهِ. فَيَقُولُ: عَبْدِي مَنْ خَلَقَكَ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَكانَ ذَلِكَ بِعَمَلِكَ أَوْ بِرَحْمَتِي؟ فَيَقُولُ: بَلْ بِرَحْمَتِكَ، فَيَقُولُ: مَنْ قَوَّاكَ عَلَى عِبَادَتِي خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: مَنْ أَنْزَلَكَ فِي جَبَلٍ فِي وَسَطِ اللُّجَّةِ وَأَخْرَجَ الْمَاءَ الْعَذْبَ مِنَ الْمَالِحِ وَأَخْرَجَ لَكَ رُمَّانَةً فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، وَإِنَّمَا تَخْرُجُ فِي السَّنَةِ مَرَّةً؟ وَسَأَلْتَنِي أَنْ أَقْبِضَ رُوحَكَ سَاجِدًا فَفَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ، مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ. قالَ: فَكُلُّ ذَلِكَ بِرَحْمَتِي، وَبِرَحْمَتِي أُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ، قالَ جِبْرِيلُ ﷺ: إِنَّما الأَشْيَاءُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ».

فَيا إِخْوَانِي: لِمَ لَا يُرْجَى الْعَفْوُ مِنْ رَبِّنا؟ وَكَيْفَ لَا يُطْمَعُ فِي حِلْمِهِ؟ وَفِي الصَّحِيحِ: «أَنَّهُ بِعَبْدِهِ أَرْحَمُ مِنْ أُمِّهِ».

فَيا أَيُّها الْعَاصِي ـ وَكُلُّنا كَذَلِكَ ـ لَا تَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِسُوءِ أَعْمَالِكَ. فَكَمْ يُعْتِقُ مِنَ النَّارِ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ مِنْ أَمْثَالِكَ. فَأَحْسِنِ الظَّنَّ بِمَوْلَاكَ وَتُبْ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ.

إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فَمنِ الَّذِي يَرْجُو وَيَدْعُو الْمُذْنِبُ

فَصْلٌ

يَتَعَيَّنُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ خَائِفًا مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ، وَأَلَّا يَأْمَنَ مَكْرَ اللَّهِ، فَقَدْ كانَ النَّبِي ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، وَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ ﵂: يا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّك تُكْثِرُ أَنْ تَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ، فَهَلْ تَخْشَى؟ قالَ: وَمَا يُؤَمِّنُنِي يا عَائِشَةُ وَقُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلَّبَهُ».

وَلَقَدْ بَكَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ لَيْلَةً إِلَى الصَّبَاحِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قِيلَ لَهُ: أَكُلُّ هَذَا خَوْفًا مِنَ الذُّنُوبِ؟ فَأَخَذَ تِبنَةً مِنَ الأَرْضِ، وَقالَ: الذُّنُوبُ أَهْوَنُ مِنْ هَذِهِ وَإِنَّمَا أَبْكِي خَوْفًا مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفِقْهِ أَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ أَنْ تَخْدَعَهُ ذُنُوبُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَتَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَاتِمَةِ الْحُسْنَى. وَقَدْ جَرَى ذَلِكَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُحْتَضِرِينَ.

قالَ فِي طَهَارَةِ الْقُلُوبِ: وَالْمُكَلَّفُونَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:

الْقِسْمُ الأَوَّلُ: قَوْمٌ خَلَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِخِدْمَتِهِ وَجَنَّتِهِ، وَهُمُ الأَنْبِيَاءُ، وَالأَوْلِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ. قالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ وَالْحَياةُ الطَّيِّبَةُ لَذَّةُ الطَّاعَةِ، وَعِزُّ الْقَنَاعَةِ. فَفازُوا بِعِزِّ الدَّارَيْنِ، وَنالُوا شَرَفَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، فَطُوبَى لَهُمْ وحُسْنُ مَآبٍ.

الْقِسْمُ الثَّانِي: قَوْمٌ خلَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِجَنَّتِهِ دُونَ خِدْمَتِهِ، وَهُمُ الَّذِين

عَاشُوا كُفَّارًا، ثُمَّ خَتَمَ لَهُمْ بالإِيمَانِ، أَوْ فَرَّطُوا مُدَّةَ حَيَاتِهِمْ وَانْهَمَكُوا فِي الْعِصْيَانِ، ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عِنْدَ الْخَاتِمَةِ فَمَاتُوا عَلَى حَالَةِ التَّوْبَةِ وَالإِحْسَانِ، كَسَحَرَةِ فِرْعَوْنَ وَكانُوا ثَلاثِينَ أَلْفًا عَلَى مَا قِيل، آمَنُوا بِاللَّهِ وَقُتِلُوا مِنْ يَوْمِهِمْ ذَلِكَ فَدَخَلُوا الْجَنَّةَ، كانُوا أَوَّلَ النَّهَار يَحْلِفُونَ ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ ثُمَّ بَعْدَ سَاعَةٍ قالُوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۞ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾.

الْقِسْمُ الثَّالِثُ: قَوْمٌ خَلَقَهُمُ اللَّهُ لَا لِخِدْمَتِهِ، وَلَا لِجَنَّتِهِ، وَهُمُ الْكُفَّارُ الَّذِينَ يَمُوتُونَ عَلَى الْكُفْرِ، حُرِمُوا نَعِيمَ الإِيمَانِ، وَهُمْ فِي الآخِرَةِ مُخَلَّدُونَ فِي الْعَذَابِ وَالْهَوَانِ.

الْقِسْمُ الرَّابِعُ: قَوْمٌ خَلَقَهُمُ اللَّهُ لِخِدْمَتِهِ دُونَ جَنَّتِهِ، وَهُمُ الَّذِينَ كانُوا عَامِلِينَ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ مَكَرَ بِهِمْ فَطُرِدُوا عَنْ بَابِهِ، وَمَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ مَكْرِهِ، وَنَسْأَلُهُ السَّلَامَةَ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

يُرْوَى أَنَّهُ كانَ بِمِصْرَ رَجُلٌ يَلْزَمُ الْمَسْجِدَ لِلْأَذَانِ وَالصَّلَاةِ فِيهِ، وَعَلَيْهِ بَهَاءُ الطَّاعَةِ وَنُورُ العِبَادَةِ، فَرَقِيَ يَوْمًا المَنَارَةَ عَلَى عَادَتِهِ لِلْأَذَانِ. وَكانَ تَحْتَ الْمَنَارَةِ دَارٌ لِنَصْرَانِيٍّ، فاطَّلَعَ فِيهَا فَرَأَى ابْنَةَ صَاحِبِ الدَّارِ فافْتَتَنَ بِهَا، فَتَرَكَ الأَذَانَ وَنَزَلَ إِلَيْهَا وَدَخَلَ الدَّارَ عَلَيْهَا، فَقالَتْ: مَا شَأْنُكَ وَمَا تُرِيدُ؟ قالَ: أُرِيدُكِ. قالَتْ: لِماذَا؟ قالَ: قَدْ سَلَبْتِ لُبِّي وَأَخَذْتِ بِمَجَامِعِ قَلْبِي. قالَتْ: لَا أُجِيبُكَ إِلَى رِيبَةٍ أَبَدًا، قالَ: أَتَزَوَّجُكِ، قالَتْ: أَنْتَ مُسْلِمٌ، وَأَنَا نَصْرَانِيَّةٌ، وَأَبِي لَا يُزَوِّجُنِي مِنْكَ. قالَ: أَتنصَّرُ، قالَتْ: إِنْ فَعَلْتَ أَفْعَلُ؛ فَتَنَصَّرَ الرَّجُلُ لِيَتَزَوَّجَهَا وَأَقَامَ مَعَهُمْ فِي الدَّارِ. فَلَمَّا كَانَ أَثْنَاءَ الْيَوْمِ رَقِيَ إِلَى سَطْحٍ كان فِي الدَّارِ فَسَقَطَ مِنْهُ فَماتَ فَلَمْ يَظْفَرْ بِهَا وَفاتَهُ دِينُهُ. فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالْمُعَافَاةَ الدَّائِمَةَ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ.

وَقِصَّةُ بَرْصِيصَا الْعَابِدِ مَعْرُوفَةٌ. وَقَدْ رُوِيَتْ مِنْ طُرُقٍ وَذَلِكَ: أَنَّهُ كانَ رَجُلٌ فِي صَوْمَعَةٍ عَابِدًا مُجْتَهِدًا؛ فَرَأَى امْرَأَةً تَرْعَى غَنَمًا وَتَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ؛ فَزَيَّنَها لَهُ الشَّيْطَانُ. وَقالَ لَهُ: تَزْنِي بِهَا ثُمَّ تَتُوبُ؟ فَلَما أَدْرَكَهُ وَفَعَلَ الْفَاحِشَةَ، قالَ لَهُ: عَارٌ عَلَيْكَ وَتَفْضَحُكَ الْمَرْأَةُ، وَلَكِنِ اقْتُلْها فَإِنَّكَ مُصَدَّقٌ فَقَتَلَها، ودَفَنَها فِي مَوْضِعٍ، فَأَتَى الشَّيْطَانُ أَهْلَها، فَقَالَ: إِنَّهُ زَنَى بِأُخْتِكُمْ وَإِنَّهُ خَشِيَ الْعَارَ وَقَتَلَها فِي مَوْضِعِ كَذَا. فَذَهَبُوا إِلَيْهِ وَوَجَدُوا الأَمْرَ كَمَا ذَكَرَ لَهُمْ، فَأَنْزَلُوا الْعَابِدَ مِنْ صَوْمَعَتِهِ وَاسْتَعْدَوْا بِهِ إِلَى مَلِكِهِم، فَصَلَبَهُ الْمَلِكُ عَلَى جِذْعٍ فَأَتَى إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَقالَ لَهُ: اسْجُدْ لِي سَجْدَةً وَأَنَا أُخَلِّصُكَ كَمَا أَوْقَعْتُكَ، فَأَوْمَأَ بِالسُّجُودِ فَكَفَرَ وَقُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ. دَعَاهُ أَوَّلًا إِلَى الزِّنَا، ثُمَّ إِلَى الْقَتْلِ، ثُمَّ إِلَى الْكُفْرِ وَتَبَرَّأَ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ؛ فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ مَكْرِهِ وَنَسْأَلُهُ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالثَّبَاتَ عَلَى الإِسْلَامِ إِلَى يَوْمِ نَلْقاهُ، إِنَّهُ جَوَّادٌ كَرِيمٌ.

رُوِيَ عَنِ الْفُضَيْلِ بْنِ عَيَّاضٍ: أَنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ: «بَشِّرِ الْمُذْنِبِين إِنْ تَابُوا قَبِلْتُ مِنْهُمْ، وَحَذِّرِ الصِّدِّيقِينَ إِنْ وَضَعْتُ عَدْلِي عَلَيْهِمْ عَذَّبْتُهُمْ».

فَيا إِخْوَانِي، تَدَارَكُوا مَوَاسِمَ الْخَيْرَاتِ، وَنافِسُوا فِي الأَعْمَالِ مَا دُمْتُمْ فِي أَيَّامِ الْحَيَاةِ.

كانَ رَجُلٌ يَبِيعُ الثَّلْجَ فَبَقِيَ عِنْدَهُ شَيْءٌ كاسِدٌ؛ فَجَعَلَ يُنادِي وَيَقُولُ: ارْحَمُوا مَنْ يَذُوبُ رَأْسُ مَالِهِ.

إِخْوَانِي، بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ غَلْقِ الْبَابِ، وَسَلُوا مَوْلَاكُمْ قَبُولَ الْمَتَابِ، وَلُزُومَ طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَلازِمُوا الْعُكُوفَ عَلَى الْبَابِ، وَأَكِبُّوا عَلَى تِلَاوَةِ الْكِتَابِ. فَهَذَا شَهْرُ رَمَضَانَ قَرُبَ رَحِيلُهُ، وَأَزِفَ تَحْوِيلُهُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلُهُ.

فاسْتَدْرِكُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ بَقِيَّةَ هَذِهِ الأَيَّامِ، وَقُومُوا بِمَا يَجِبُ لَهُ عَلَيْكُمْ مِنْ

وَاجِبِ الإِكْرَامِ؛ فَإِنَّ شَهْرَكُمْ قَدْ عَزَمَ عَلَى الرَّحِيلِ بَعْدَ الْمُقَامِ، كانَ فَخْرًا لِلْوَاصِفِينَ، وَرَوْضَةً لِلمُتَّقِينَ، وَفُرْصَةً لِلْعامِلِينَ، فَكُونُوا لَهُ مُوَدِّعِينَ، وَلِلْعَبَرَاتِ عَلَى فِرَاقِهِ مُسْبِلِينَ، فَما بَقِيَ مِنْهُ غَيْرُ لَيْلَتَيْنِ، وَقَدْ صارَ أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ، قُلُوبُ الْمُتَّقِينَ إِلَى هَذَا الشَّهْرِ تَحِنُّ، وَمِنْ أَلَمِ فِرَاقِهِ تَئِنُّ.

دَهَاكَ الْفِرَاقُ فَمَا تَصْنَعُ أَتَصْبِرُ لِلْبَيْنِ أَمْ تَجْزَعُ؟
إِذَا كُنْتَ تَبْكِي وَهُمْ جِيرَةٌ فَكَيْفَ تَكُونُ إِذَا وَدَّعُوا؟

اللَّهُمَّ يَا مَنْ ظَهَرَتْ مَعْرِفَتُهُ لِلْقُلُوبِ، وَيَا مَنْ هُوَ الْمَرْجُوُّ فِي الأُمُورِ وَالْمطْلُوبُ، نَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قُلُوبَنا، وَتُؤَمِّنُ بِهَا مَرْهُوبَنا، وتَكْشِفُ بِهَا كُرُوبَنا، وَتُحَصِّنُ بِهَا فُرُوجَنَا، وَتُنِيلُ بِهَا مَطْلُوبَنا، وَتَجْمَعُ بِهَا شَمْلَنَا، وَتَجْبُرُ بِهَا كَسْرَنا، وَتَلِمُّ بِهَا شَعَثَنَا، إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ.

اللَّهُمَّ ارْحَمْ عِبَادًا غَرَّهُمْ طُولُ إِمْهَالِكَ، وَأَطْمَعَهُمْ دَوَامُ إِفْضَالِكَ، وَمَدُّوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى كَرَمِ نَوَالِكَ، وَتَيَقَّنُوا أَنْ لَا غِنًى لَهُمْ عَنْ سُؤَالِكَ.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنا ذُنُوبًا قَطَعَتْنَا عَنْ بابِكَ، وَجُدْ عَلَيْنَا وَهَبْ لَنا مَا وَهَبْتَهُ لأَحْبَابِكَ فَأَنْتَ أَكْرَمُ الأَكْرَمِينَ. وَاغْفِرْ لَنا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْفَصْلُ التَّاسِعُ

وَفِيهِ فَصْلٌ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي تَمَّتْ كَلِمَتُهُ، فَلَا يُرَدُّ حُكْمُ قاضِيها، وَعَلَتْ سَلْطَنَتُهُ، فَجَلَّ تَعالِيهَا، وَدَامَتْ أَزَلِيَّتُهُ، فَمَنْ ذَا يُضَاهِيها؟ تُوَحِّدُهُ الْكائِنَاتُ وَنَوَاحِيهَا، وَالسَّمَوَاتُ وَدَرارِيها. قَدَّرَ الأَعْوَامَ، وَالشُّهُورَ وَالأَيَّامَ وَلَيالِيهَا، وَجَعَلَ وَاسِطَةَ عَقْدِ الأَيَّامِ أَيَّامًا اخْتارَهَا بارِيهَا، وَفَضَّلَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَجَعَلَهُ مُعَظَّمًا فِيهَا، وَأَنْزَلَ فِيهِ الْسُّوَرَ وَمَثَانِيها، وَفَتَحَ فِيهِ بَابَ الْعِزَّةِ وَأَنْزَلَ مِنْهُ آياتٍ جَلَّتْ عَنْ

كَلَامٍ يُحَاكِيهَا. فَقَالَ تَعالَى فِي مُحْكَمِ الآيَاتِ وَمَبَانِيهَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ تَفْضِيلًا لِهَذِهِ الأُمَّةِ، إِذْ لَا أُمَّةَ تُبَاهِيهَا.

يَا غَافِلًا وَلَيالِي الصَّوْمِ قَدْ ذَهَبَتْ ... زَادَتْ خَطَايَاكَ قِفْ بِالْبَابِ وَابْكِيهَا
وَاغْنَمْ بَقِيَّةَ هَذَا الشَّهْرِ تَحْظَ، فَما ... غَرَسْتَهُ مِنْ ثِمارِ الْخَيْرِ تَجْنِيهَا
وَتُبْ لَعَلَّكَ تَحْظَى بِالْقَبُولِ عَسَى ... أَنْ تَبْلُغَ النَّفْسُ بِالتَّقْوَى أَمَانِيهَا
وَقُلْ: إِلٰهِي، أَنا الْعَبْدُ الذَّلِيلُ وَقَدْ ... أَتَيْتُ أَرْجُو أُجُورًا فَازَ رَاجِيهَا
فَلَا تَكِلْنِي إِلَى عِلْمِي وَلَا عَمَلِي ... وَاغْفِرْ ذُنُوبِي، فَإِنِّي غَارِقٌ فِيهَا

أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي هُوَ مُوْلِيهَا وَمُسْدِيهَا.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، مُجِيبُ دَعْوَةَ الْمُضْطَرِّ وَقَاضِيهَا.

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنا وَنَبِيَّنا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُرْسَلُ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ فَبَلَّغَ دَانِيهَا وَقَاصِيهَا. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ مَا دَامَتِ الأَنْفُسُ الْعَامِلَةُ تُعْطَى أَمَانِيهَا.

قالَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾.

أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ» وَبِهِ قالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ.

وَأَخْرَجَ أَيْضًا عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّهُ قالَ: «مَا أَنا بِمُلْتَمِسِهَا لِشَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ. فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: الْتَمِسُوهَا فِي تِسْعٍ يَبْقِينَ، أَوْ سَبْعٍ يَبْقِينَ، أَوْ خَمْسٍ يَبْقِينَ، أَوْ ثَلَاثٍ يَبْقِينَ، أَوْ آخِرِ لَيْلَةٍ. قالَ: فَكانَ أَبُو بَكْرَةَ يُصَلِّي فِي الْعِشْرِينَ الأُوَلِ مِنْ رَمَضَانَ

كَصَلَاتِهِ فِي سَائِرِ السَّنَةِ، فَإِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ اجْتَهَدَ» حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَقَدْ تَقَدَّمَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعْتِقُ فِي آخِرِ لَيْلَةٍ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ الشَّرِيفِ مِنَ النَّارِ كَما أَعْتَقَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ، كَما ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الأَحَادِيثِ الْمُتَقَدِّمَةِ الصَّحِيحَةِ: «أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعْتِقُ كُلَّ لَيْلَةٍ عِنْدَ الإِفْطَارِ أَلْفَ أَلْفِ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ، وَيُعْتِقُ فِي آخِرِ لَيْلَةٍ مِنْهُ ثَلَاثِينَ أَلْفَ أَلْفِ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ كُلَّهُمْ قَدِ اسْتَوْجَبُوا النَّارَ».

فَيَنْبَغِي لَكَ أَيُّها الْعَامِلُ الْمُجْتَهِدُ أَنْ تَجْتَهِدَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لَعَلَّكَ أَنْ تُكْتَبَ مِنْ هٰؤُلَاءِ الْعُتَقَاءِ، وَأَنْ تَجْتَهِدَ فِي إِتْمَامِ الْعَمَلِ وَإِكْمالِهِ وَإِتْقَانِهِ؛ فَقَدْ كانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يَجْتَهِدُونَ فِي إِتْمامِ الْعَمَلِ وَإِكْمالِهِ وَإِتْقانِهِ، ثُمَّ يَهْتَمُّونَ بَعْدَ ذلِكَ بِقَبُولِهِ، وَيَخافُونَ مِنْ رَدِّهِ.

رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قالَ: كانُوا لِقَبُولِ الْعَمَلِ أَشَدَّ اهْتِمَامًا مِنْكُمْ بِالْعَمَلِ، أَلَمْ تَسْمَعُوا الله ﷻ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؟

وَعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ قالَ: «لَأَنْ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ تَقَبَّلَ مِنِّي مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن الدُّنْيا وَمَا فِيهَا».

إِخْوَانِي، هَذَا شَهْرُ رَمَضَانَ قَدْ عَزَمَ عَلَى الْاَنْصِرَافِ وَالْاَنْصِرَام، وَنَوَى النُّقْلَةَ عَنْكُمْ وَالرَّحِيلَ بَعْدَ الْمُقَامِ. وَهُوَ شَاهِدٌ لَكُمْ أَوْ عَلَيْكُمْ بمَا أَوْدَعْتُمُوهُ عِنْدَ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ.

إِخْوَانِي، أَمَا هَذِهِ لَيَالِي الْقَدْرِ أَيَّامُ الْقُبُولِ؟ فَلِمَ يَغْتَرُّ الْمُفَرِّطُ فِيهَا بِالأَحْلَامِ؟ أَمَا هَذِهِ لَيالِي الْفَضْلِ وَلَيالِي الْقَبُولِ؟ فَإِلَى مَتَى أَنْتَ مَشْغُولٌ عَنْهَا بِطِيبِ الْمَنَامِ؟ انْهَضْ وَدَاوِ سِقَامَكَ يا ذَا السِّقَامِ. هَذِهِ لَيَالِي الْمَغْفِرَةِ فامْحُ قَبِيحَ آثَامِكَ فِي سَالِفِ الأَعْوَامِ. لَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ قَدْرَ مَوَاسِمَ الإِنْعامِ، مَا نِمْتَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ وَفَاتَكَ الْاَغْتِنَامُ.

وَرَوَى ابْنُ حِبَّانَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعَدَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ: «آمِينَ آمِينَ آمِينَ - فَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قالَ - إِنَّ جِبْرِيلَ أَتانِي فَقالَ: مَنْ أَدْرَكَهُ شَهْرُ رَمَضانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَدَخَلَ النَّارَ، فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ. قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ»؛ فَفِي رَمَضانَ تُضاعَفُ الأَعْمالُ، وَتُحَطُّ الثِّقالُ، وَيُعْتِقُ الْجَبَّارُ الْمُسْتَوْجِبِينَ بِسَعَةِ الإِفْضالِ.

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضانَ فُتِحَتْ أَبْوابُ السَّماءِ فَلا يُغْلَقُ مِنْهَا بابٌ حَتَّى يَكونَ آخِرُ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضانَ، وَلَيْسَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يُصَلِّي فِي لَيْلَةٍ فِيهِ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفًا وَخَمْسَمِائَةِ حَسَنَةٍ بِكُلِّ سَجْدَةٍ، وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْراءَ، لَها سِتُّونَ أَلْفَ بابٍ، لِكُلِّ بابٍ مِنْهَا قَصْرٌ مِنْ ذَهَبٍ مُوَشَّحٍ بِياقُوتَةٍ حَمْراءَ، فَإِذَا صَامَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ رَمَضانَ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ شَهْرِ رَمَضانَ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، مِنْ صَلاةِ الْغَداةِ إِلَى أَنْ تَوارَتْ بِالْحِجابِ. وَكانَ لَهُ بِكُلِّ سَجْدَةٍ يَسْجُدُهَا فِي شَهْرِ رَمَضانَ، بِلَيْلٍ أَوْ نَهارٍ، شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا خَمْسَمِائَةِ عَامٍ» رَواهُ الْبَيْهَقِيُّ.

إِخْوانِي، هَذَا شَهْرُ رَمَضانَ، شَهْرُ الصِّيامِ وَالْقِيامِ، طالَما عَمُرَتْ بِهِ الْقُلُوبُ ودَرَسَتْ بِهِ مَعالِمُ الذُّنُوبِ وَالآثامِ، وَقَدْ كانَ لَكُمْ نِعْمَ الضَّيْفُ فَهَلْ أَضَعْتُمْ حَقَّهُ أَوْ قُمْتُمْ بِما يَجِبُ لَهُ مِنَ الإِكْرامِ؟ فَلَعَلَّ الْمُسَوِّفَ بِالتَّوْبَةِ فِيهِ لَا يُدْرِكُهُ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ؛ وَالْمُغْتَرُّ بِالإِمْهَالِ لَا تُمْهِلُهُ الْمَنُونُ إِلَى اسْتِكْمالِ التَّمامِ؛ فَيَنْدَمَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ، وَيَتَأَسَّفَ عَلَى التَّفْرِيطِ إِذَا زَلَّتْ بِهِ فِي الْقِيامَةِ الأَقْدَامُ. فاسْتَدْرِكُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ مَا قَدْ مَضَى بِما بَقِيَ، فَإِنَّما الدُّنْيا كَمِثْلِ الْمَنامِ، وَحَصِّلُوا التَّوْبَةَ فِي بَقِيَّةِ شَهْرِكُمْ، فَقَدْ دَنَا ارْتِحالُ شَهْرِ الصِّيامِ، فالسَّعِيدُ مَنْ بادَرَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الاغْتِنامِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ جَعَلَهَا بِغَفْلَةٍ كَإِعْدَامٍ. وَكَيْفَ لَا يُدْرِكُ الْخَيْرَ مَنْ قامَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ الَّتِي هِيَ سَلامٌ؟

إِخْوَانِي: إِنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ قَدْ قَرُبَ رَحِيلُهُ، وَأَزِفَ تَحْوِيلُهُ، وَهُوَ ذَاهِبٌ عَنْكُمْ بِأَفْعَالِكُمْ، وَشَاهِدٌ عَلَيْكُمْ غَدًا بِأَعْمَالِكُمْ، فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَاذَا قَدْ أَوْدَعْتُمُوهُ؟ وَبِأَيِّ الْأَعْمَالِ وَدَّعْتُمُوهُ؟ أَتُرَاهُ يَرْحَلُ حَامِدًا صَنِيعَكُمْ، أَوْ ذَامًا تَضْيِيعَكُمْ؟ مَا كَانَ أَعْظَمَ سَاعَاتِهِ، وَمَا أَحْلَى طَاعَاتِه. كَانَتْ لَيَالِيهِ عُتَقَاءَ وَمُبَاهَاةً، وَأَسْحَارُهُ أَوْقَاتُ خِدْمَةٍ وَمُنَاجَاةٍ، وَنَهَارُهُ زَمَانُ قُرْبَةٍ وَمُصَافَاةٍ، وَسَاعَاتُهُ أَحْيَانُ اجْتِهَادٍ وَمُعَانَاةٍ، فَبَادِرُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ أَوْ هَاتَيْنِ اللَّيْلَتَيْنِ بِالْأَفْعَالِ الزَّكِيَّةِ، قَبْلَ فَوَاتِ الْبِرِّ وَنُزُولِ الْبَرِيَّةِ.

إِخْوَانِي، كَمْ مِنْ أُناسٍ صَلَّوا مَعَكُمْ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ التَّرَاوِيحَ، وَأَوْقَدُوا فِي الْمَسَاجِدِ ـ طَلَبًا لِلْأَجْرِ ـ الْمَصَابِيحَ، اقْتَضَمَهُمْ قَبْلَ إِتْمَامِهِ الصَّائِدُ فَقُهِرُوا، وَأَسَرَتْهُمُ الْمَصَائِدُ فَأُسِرُوا، وَلَمْ يَنْفَعْهُمُ الْمَالُ وَالْآمَالُ لَمَّا قُبِرُوا. أَدَارَتْ عَلَيْهِمُ الْمَنُونُ رَحَاهَا، وَأَحَلَّتْ وُجُوهَهُمْ بِالثَّرَى فَمَحَاهَا، فَأَعْدَمَتْهُمْ صَوْمًا وَفِطْرًا، وَزَوَّدَتْهُمْ مِنَ الْحُنُوطِ عِطْرًا، وَهَذِهِ حَالُكَ يَا مَنْ لَا يَعْقِلُ أَمْرًا.

فَلِلَّهِ دَرُّ أَقْوَامٍ صَامُوا عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَقَامُوا فِي الْخَلَوَاتِ، يُرَتِّلُونَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا، فَلَوْ رَأَيْتَهُمْ وَقْتَ السَّحَرِ، هَذَا يَبْكِي وَيُعَدِّدُ، وَهَذَا يَقْرَأُ وَيُرَدِّدُ، وَهَذَا قَدِ الْتَحَفَ بِأَحْزَانِهِ، وَهَذَا يَبْكِي فَيُمْطِرُ مِنْ أَجْفَانِهِ سُيُولًا.

إِخْوَانِي، أَيْنَ مَنْ كَانَ إِذَا صَامَ صَانَ الصِّيَامَ؛ وَإِذَا قَامَ اسْتَقَامَ فِي الْقِيَامِ، أَحْسَنُوا الْإِسْلَامَ ثُمَّ رَحَلُوا بِسَلَامٍ، مَا بَقِيَ إِلَّا مَنْ إِذَا صَامَ افْتَخَرَ بِصِيَامِهِ وَطَالَ، وَإِذَا قَامَ أُعْجِبَ بِقِيَامِهِ وَقَالَ.

قَالَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ: حَضَرْتُ مَجْلِسَ مَنْصُورِ بْنِ عَمَّارٍ الْوَاعِظِ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ فِي آخِرِ جُمُعَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَذَكَرَ فَضْلَهُ وَفَضْلَ صِيَامِهِ وَقِيَامِهِ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيهِ لِمَنْ أَخْلَصَ الْأَعْمَالَ، فَكَأَنَّهُ يَقْدَحُ زَنْدَ وَعْظِهِ عَلَى صُمِّ الْأَحْجَارِ. لَا وَاللَّهِ وَإِنَّ مِنَ الْأَحْجَارِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ، فَمَا تَحَرَّكَ فِي مَجْلِسِهِ بَاكٍ، وَلَا شَكَا عِظَمَ ذَنْبِهِ شَاكٍ. فَلَمَّا رَأَى جُمُودَ مَجْلِسِهِ

قَالَ: يَا قَوْمِ! أَلَا بَاكٍ عَلَى مَا ظَهَرَ مِنْ عُيُوبِهِ، أَلَا رَاغِبٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي غُفْرَانِ ذُنُوبِهِ؟ أَمَا هَذَا شَهْرُ التَّوْبَةِ وَالْغُفْرَانِ؟ أَمَا هَذَا مَعْدِنُ الْعَفْوِ وَالرِّضْوَانِ؟ أَمَا فِيهِ تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجِنَانِ؟ أَمَا فِيهِ تُغْلَقُ أَبْوَابُ النِّيرَانِ؟ أَمَا فِيهِ يُصَفَّدُ كُلَّ مَارِدٍ شَيْطَانٍ؟ أَمَا فِيهِ تُفَرَّقُ خِلَعُ الإِحْسَانِ؟ أَمَا فِيهِ يَتَجَلَّى الْمَلِكُ الدَّيَّانُ؟ أَمَا فِيهِ يُعْتَقُ كُلَّ لَيْلَةٍ عِنْدَ الإِفْطَارِ أَلْفُ أَلْفِ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ؟ فَمَا لَكُمْ عَنْ ثَوَابِهِ ضَالُّونَ؟ وَفِي ثِيَابِ الْمُخَالَفَةِ رَافِلُونَ؟ ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

إِذَا وَجَدَ الإِنْسَانُ لِلْخَيْرِ فُرْصَةً وَلَمْ يَغْتَنِمْهَا فَهوَ لَا شَكَّ عَاجِزُ
وَهَلْ مِثْلُ هَذَا الشَّهْرِ لِلْعَفْوِ مَوْسِمٌ وَلَكِنْ فَأَيْنَ الْعَامِلُ الْمُتَنَاهِزُ

قَالَ: فَهاج الْمَجْلِسُ بِالْبُكَاءِ وَالنَّحِيبِ، وَقَامَ إِلَيْهِ شَابٌّ وَهُوَ بَاكٍ عَلَى ذُنُوبِهِ حَزِينٌ كَئِيبٌ.

وَقَالَ: يَا سَيِّدِي، أَتَرَاهُ يَقْبَلُ صِيَامِي؟ أَوْ يَكْتُبُ مَعَ الْقَائِمِينَ قِيَامِي؟ بَعْدَ أَنْ جَرَى مِنِّي مَا كَانَ، مِنَ الذُّنُوبِ وَالْعِصْيَانِ، فَقَدِ انْقَضَى عُمْرِي فِي كَسْبِ الْمَعَاصِي، وَغَفَلْتُ بِشِقْوَتِي عَنْ يَوْمِ الأَخْذِ بِالنَّوَاصِي؟

فَقَالَ لَهُ مَنْصُورٌ: يَا وَلَدِي تُبْ إِلَيْهِ، فَقَدْ قَالَ فِي مُحْكَمِ الْكِتَابِ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ ثُمَّ أَمَر مَنْصُورٌ الْقَارِئَ فَقَرأَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فَصرخَ الشَّابُّ وَقَال: وَاطَرَبَاهُ، وَاشَوْقَاهُ إِلَى مَنْ لَمْ يَزَلْ إِحْسَانُه وَاصِلًا إِلَيَّ، وَذَيْلُ حِلْمِهِ مُسْبَلًا عَلَيَّ، وَأَنَا مَعَ ذَلِكَ أَزِيدُ فِي الْعِصْيَانِ، وَلا أَرْجِعُ عَنْ طَرِيقِ الْغَيِّ وَالْخِذْلَانِ، وَهَلْ يَكُونُ مِثْلُ هَذَا الْوَقْتِ قَدْ صَفَا، وَالْحَبِيبُ قَدْ تَجَاوَزَ وَعَفَا؟ ثُمَّ صَرَخَ وَوَقَعَ مَيِّتًا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

رُوحٌ دَعَاهَا لِلْوِصَالِ حَبِيبُهَا فَسَعَتْ إِلَيْهِ تُطِيعُهُ وَتُجِيبُهُ
يَا مُدَّعِي صِدْقَ الْمَحَبَّةِ، هَكَذَا فِعْلُ الْحَبِيبِ إِذَا دَعَاهُ حَبِيبُهُ

عِبَادَ اللَّهِ، مَتَى يَصْلُحُ مَنْ لَا يَصْلُحُ فِي رَمَضَانِ، مَتَى يَصِحُّ مَنْ كَانَ فِيهِ

مِنْ دَاءِ الْجَهَالَةِ والْغَفْلَةِ مَرَضَانِ ؟ كُلُّ مَا لَا يُثْمِرُ مِنَ الْأَشْجَارِ فِي أَوَانِ الْإِثْمَارِ، فَإِنَّهُ يُقْطَعُ ثُمَّ يُوقَدُ فِي النَّارِ، مَنْ فَرَّطَ فِي الزَّرْعِ وَقْتَ الْبِذَارِ، لَمْ يَحْصُدْ يَوْمَ الْحَصَادِ غَيْرَ النَّدَمِ وَالْخَسَارِ.

تَرَحَّلَ الشَّهْرُ وَالَهْفَاهُ وَانْصَرَمَا ... واخْتَصَّ بِالْفَوْزِ فِي الْجَنَّاتِ مَنْ خَدَمَا
وَأَصْبَحَ الْغَافِلُ الْمِسْكِينُ مُنْكَسِرًا ... مِثْلِي، فَيَا وَيْحَهُ يَا عِظْمَ مَا حُرِمَا
مَنْ فَاتَهُ الزَّرْعُ فِي وَقْتِ الْبِذَارِ فَمَا ... تَرَاهُ يَحْصُدُ إِلَّا الهَمَّ وَالنَّدَمَا
طُوبَى لِمَنْ كَانَتِ التَّقْوَى بِضَاعَتَهُ ... فِي شَهْرِهِ وَبِحَبْلِ اللَّهِ مُعْتَصِمَا

فَصْلٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ تَابَ مِنْهَا وَرَجَعَ عَنْهَا وَإِنْ كَانَتْ مَهْمَا كَانَتْ، فَإِنَّ بَابَ الرَّحْمَةِ وَالتَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ لِمَنْ تَابَ وَأَنَابَ.

فَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ ما دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: «هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ، هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ سُؤْلَهُ، هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ دُعَاءَهُ».

وَجَاءَ فِي بَعْضِ الآثَارِ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا دَعَا رَبَّهُ وَهُوَ يُحِبُّهُ، قَالَ اللَّهُ ﷻ:

يَا جِبْرِيلُ، لَا تَعْجَل بِقَضَاءِ حَاجَةِ عَبْدِي، فَإِني أُحبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ».

فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَلَّا يَقْنَط مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ مَهْمَا ارْتَكَبَ مِنَ الذُّنُوبِ، إِذَا تَابَ مِنْهَا وَأَنَابَ، وَأَنْ يُلِحَّ عَلَى اللَّهِ بِالدُّعَاءِ وَيَطْمَعَ فِي الْإِجَابَةِ. وَمَنْ أَدْمَنَ قَرْعَ الْبَابِ يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ، وَرُبَّمَا إِذَا تَابَ الْعَبْدُ مِنْ ذَنْبِهِ وَدَخَلَ عَلَى مَوْلَاهُ مِنْ بَابِ الذُّلِّ وَالافْتِقَارِ وَالانْكِسَارِ، وَرُؤْيَةِ عَيْبِ النَّفْسِ، خَاضِعًا ذَلِيلًا، مُسْتَعْطِفًا لِرَبِّهِ، وَاضِعًا خَدَّهُ عَلَى عَتَبَةِ الْعُبُودِيَّةِ ـ يَكُونُ هَذَا الذَّنْبُ خَيْرًا لَهُ، لِأَنَّهُ أَوْرَثَهُ مُطَالَعَةَ عَيْبِ النَّفْسِ، وَالدُّخُولَ عَلَى مَوْلَاهُ مِنْ بَابِ الافْتِقَارِ وَالْإِفْلَاسِ.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ بَعْضِ السَّلَفِ: إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الذَّنْبَ يَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ يَدْخُلُ بِهَا النَّارَ. قَالُوا: كَيْفَ؟ قَالَ: يَعْمَلُ الذَّنْبَ فَلا يَزَالُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ خَائِفًا مِنْهُ مُشْفِقًا وَجِلًا، بَاكِيًا نَادِمًا، مُسْتَحِيًا مِنْ رَبِّهِ، مُنْكَسِرَ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ الذَّنْبُ خَيْرًا لَهُ مِنْ طَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ، بِمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ فَلَا يَزَالُ يَمُنُّ بِهَا عَلَى رَبِّهِ، وَيَتَكَبَّرُ بِهَا، وَيُعْجَبُ بِنَفْسِهِ، فَيُورِثُهُ ذَلِكَ مَا يَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِهِ.

قَدْ وَرَدَ فِي بَعْضِ الآثَارِ أَنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ: «أَيُؤَمَّلُ غَيْرِي لِلشَّدَائِدِ، وَالشَّدَائِدُ بِيَدِي، أَنَا الْحَيُّ الْقَيُّومُ؟ وَيُرْجَى غَيْرِي وَيُطْرَقُ بَابُهُ بِالْبُكَرَاتِ، وَبِيَدِي مَفَاتِيحُ الْخَزَائِنِ، وَبَابِيَ مَفْتُوحٌ لِمَنْ دَعَانِي؟ مَنْ ذَا الَّذِي أَمَّلَنِي لِنَائِبَةٍ فَقَطَعْتُ بِهِ؟ أَوْ مَنْ ذَا الَّذِي رَجَانِي لِعَظِيمٍ فَقَطَعْتُ بِهِ؟ أَوْ مَنْ ذَا الَّذِي طَرَقَ بَابِي فَلَمْ أَفْتَحْهُ لَهُ؟ أَنَا غَايَةُ الآمَالِ، فَكَيْفَ تَنْقَطِعُ الآمَالُ دُونِي؟ أَبَخِيلٌ أَنَا فَيُبَخِّلُنِي عَبْدِي؟ أَلَيْسَتِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ وَالْكَرَمُ وَالْفَضْلُ كُلُّهُ لِي، فَمَا يَمْنَعُ الْمُؤَمِّلِينَ أَنْ يُؤَمِّلُونِي؟ لَوْ جَمَعْتُ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ أَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا أَعْطَيْتُ الْجَمِيعَ، وَبَلَّغْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَمَلَهُ لَمْ يَنْقُصْ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي عُضْوَ ذَرَّةٍ، كَيْفَ يَنْقُصُ مُلْكٌ أَنَا قَيِّمُهُ؟ فَيَا بُؤْسًا لِلْقَانِطِينَ مِنْ رَحْمَتِي، وَيَا بُؤْسًا لِمَنْ عَصَانِي وَتَوَثَّبَ عَلَى مَحَارِمِي».

فَسُبْحَانَ مَنْ تَعَرَّفَ إِلَى خَلْقِهِ بِجَمِيعِ التَّصَرُّفَاتِ، وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الدَّلَالَاتِ. فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اخْتَصَّ نَوْعَ الْإِنْسَانِ مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ بِأَنْ كَرَّمَهُ وَفَضَّلَهُ وَشَرَّفَهُ، وَخَلَقَهُ لِنَفْسِهِ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَهُ، وَسَخَّرَ لَهُ مَا فِي سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ وَمَا بَيْنَهُمَا حَتَّى مَلَائِكَتَهُ الَّذِينَ هُم أَهْلُ قُرْبِهِ اسْتَخْدَمَهُمْ لَهُ، وَجَعَلَهُمْ حَفَظَةً لَهُ فِي مَنَامِهِ وَيَقْظَتِهِ وَظَعْنِهِ وَإِقَامَتِهِ.

فَيَتَحَبَّبُ إِلَى عَبْدِهِ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُ، وَالْعَبْدُ يَتَبَغَّضُ إِلَيْهِ بِالْمَعَاصِي وَهُوَ فَقِيرٌ إِلَيْهِ.

خَيْرُهُ إِلَيْهِ نَازِلٌ، وَشَرُّهُ إِلَيْهِ صَاعِدٌ، وَيَعْصِيهِ بِنِعَمِهِ، وَرَبُّهُ يَسْتُرُ عَلَيْهِ بِحِلْمِهِ، فَيَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ حَيْثُ لَا يَسْتَحِي الْعَبْدُ مِنْهُ، وَيَسْتُرُهُ حَيْثُ لَا يَسْتُرُ نَفْسَهُ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «أَنَّهُ مَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَالْبَحْرُ يَسْتَأْذِنُ رَبَّهُ أَنْ يُغْرِقَ ابْنَ آدَمَ، وَالْمَلَائِكَةُ تَسْتَأْذِنُهُ أَنْ تعَاجِلَهُ وَتُهْلِكَهُ، وَكَذَلِكَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ. وَالرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: دَعُوا عَبْدِي، فَأَنا أَعْلَمُ بِهِ إِذْ أَنْشَأْتُهُ مِنَ الْأَرْضِ. إِنْ كَانَ عَبْدُكُمْ فَشَأْنُكُمْ بِهِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدِي فَمِني إِلَى عَبْدِي. وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، إِنْ أَتَانِي لَيْلًا قَبِلْتُهُ، وَإِنَّ أَتَانِي نَهَارًا قَبِلْتُهُ، وَإِنْ تَقرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ مَشَى إِلَيَّ هَرْوَلْتُ إِلَيْهِ، وَإِنْ اسْتَغْفَرَنِي غَفَرْتُ لَهُ، وَإِنِ اسْتَقَالَنِي أَقَلْتُهُ، وَإِنْ تَابَ إِلَيَّ تُبْتُ عَلَيْهِ. مَنْ أَعْظَمُ مِنِّي جُودًا وَكَرَمًا وأَنَا الْجَوَادُ الْكَرِيمُ؟ عَبِيدِي يَبِيتُونَ يُبَارِزُونَنِي بِالْعَظَائِمِ وَأَنَا أَكْلَؤُهُمْ فِي مَضَاجِعِهِمْ وَأَحْرُسُهُمْ عَلَى فِرَاشِهِمْ، مَنْ أَقْبَلَ إِلَيَّ تَلَقَّيْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَمَنْ تَرَكَ لِأَجْلِي أَعْطَيْتُهُ فَوْقَ الْمَزِيد، وَمَنْ تَصَرَّفَ بِحَوْلِي وَقُوَّتِي أَلَنْتُ لَهُ الْحَدِيدَ، وَمَنْ أَرَادَ مُرَادِي أَرَدْتُ مَا يُرِيدُ».

فَكَيْفَ لَا تُحِبُّ الْقُلُوبُ بِكُلِّيَّتِهَا مَنْ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَصْرِفُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا هُوَ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وَأَيُّ

إِحْسَانٍ أَعْظَمُ مِنْ إِحْسَانِ مَنْ يُبَارِزُهُ الْعَبْدُ بِالْمَعَاصِي وَهُوَ يَمُدُّهُ بِنِعَمِهِ، وَيُعَامِلُهُ بِأَلْطَافِهِ وَيُسْبِلُ عَلَيْهِ سِتْرَهُ؟

فَهُوَ أَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ، وَأَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ، وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ، وَحِلْمُهُ عُقُوبَتَهُ، وَعَفْوُهُ مُؤَاخَذَتَهُ، أَحَقُّ مَنْ ذُكِرَ، وَأَحَقُّ مَنْ شُكِرَ، وَأَجْوَدُ مَنْ سُئِلَ، وَأَكْرَمُ مَنْ قُصِدَ، وَأَرْأَفُ مَنْ مَلَكَ، يَشْكُرُ عَلَى الْقَلِيلِ مِنَ الْعَمَلِ، وَيَغْفِرُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ، لَا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، وَلَا تُغْلِطُهُ كَثْرَةُ الْمَسَائِلِ، وَلَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ الْمُلِحِّينَ، بَلْ يُحِبُّ الْمُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ، وَيُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ، وَيَغْضَبُ إِذَا لَمْ يُسْأَلْ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ يُفَرِّجُ هَمًّا، وَيَغْفِرُ ذَنْبًا، وَيَكْشِفُ كَرْبًا، وَيُغْنِي فَقِيرًا، وَيَجْبُرُ كَسِيرًا، وَيُشْبِعُ جَائِعًا، وَيُعَافِي مُبْتَلًى، وَيَقْبَلُ تَائِبًا وَيُغِيثُ لَهْفَانًا، وَيَنْصُرُ مَظْلُومًا، وَيَقْصِمُ جَبَّارًا، كُلُّ غَنِيٍّ إِلَيْهِ فَقِيرٌ، وكُلُّ جَبَّارٍ إِلَيْهِ ذَلِيلٌ كَسِيرٌ، وَكُلُّ عَسِيرٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ، يُقِيلُ الْعَثَرَاتِ، وَيَسْتُرُ عَوْرَاتٍ، وَيُؤَمِّنُ رَوْعَاتٍ، وَيُجِيبُ الدَّعَوَاتِ، وَلَا تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ اللُّغَاتُ، عَلَى كَثْرَةِ الْحَاجَاتِ، وَتَفَنُّنِ الْمَسْئُولَاتِ ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ وكلُّ مُلْكٍ زَائِلٌ إِلَّا مُلْكَهُ، وَكُلُّ ظِلٍّ قَالِصٌ إِلَّا ظِلَّهُ، وَكُلُّ فَضْلٍ مُنْقَطِعٌ إِلَّا فَضْلَهُ، يُطَاعُ فَيُشْكَرُ، وَبِنِعْمَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ أُطِيعَ، وَيُعْصَى فَيَتَجَاوَزُ وَيَغْفِرُ، وَحَقُّهُ أُضِيعَ. فَكُلُّ مَنْ تُحِبُّهُ مِنَ الْخَلْقِ أَوْ يُحِبُّكَ أَوْ تُعَامِلُهُ وَيُعَامِلُكَ، إِنَّمَا يُرِيدُكَ لِنَفْسِهِ وَغَرَضِهِ مِنْكَ، وَالرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُرِيدُكَ لَكَ؛ وَيُعَامِلُكَ لِتَرْبَحَ عَلَيْهِ لا لِيَرْبَحَ عَلَيْكَ، كَمَا فِي الْأَثَرِ الإِلٰهِيِّ: «عَبْدِي، كُلٌّ يُرِيدُكَ لِنَفْسِهِ، وَأَنَا أُرِيدُكَ لَكَ».

فَهُوَ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا، وَأَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ إِذَا تَابَ إِلَيْهِ مِنْ فَرَحِ الْفَاقِدِ لِرَاحِلَتِهِ الَّتِي ضَلَّتْ عَنْهُ فِي الْأَرْضِ الْمُهْلِكَةِ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا وَأَيْقَنَ بالْهَلَاكِ، فَنَامَ فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ إِذَا هِيَ عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخُطَامِهَا، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ فَرَحِ هَذَا الْوَاجِدِ لِرَاحِلَتِهِ فِي الْأَرْضِ الْمُهْلِكَةِ بَعْدَ الْيَأْسِ مِنْهَا، ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَفُوٌّ؛ فَالْعَفْوُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الانْتِقَامِ.

رَحِيمٌ؛ وَالرَّحْمَةُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، فَإِذَا تَعَرَّضَ عَبْدُهُ لِغَضَبِهِ وَارْتَكَبَ مَسَاخِطَهُ وَهُوَ قَدْ خَلَقَهُ لِنَفْسِهِ وَأَعَدَّ لَهُ أَنْوَاعَ كَرَامَتِهِ، وَفَضَّلَهُ عَلَى غَيْرِهِ، وَجَعَلَهُ مَحَلَّ مَعْرِفَتِهِ، فَقَدْ تَعَرَّضَ لانْتِقَامِهِ وَعُقُوبَتِهِ وَأَحَلَّ بِنَفْسِهِ الْعُقُوبَةَ وَاسْتَدْعَاهَا.

فَبَيْنَمَا هُوَ حَبِيبُهُ الْمُقَرَّبُ الْمَخْصُوصُ بِالْكَرَامَةِ، إِذِ انْقَلَبَ آبِقًا شَارِدًا، رَادًا لِكَرَامَتِهِ، مَائِلًا عَنْهُ إِلَى عَدُوِّهِ مَعَ شِدَّةِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَعَدَمِ اسْتِغْنَائِهِ عَنْهُ.

فَبَيْنَمَا ذَلِكَ الْحَبِيبُ مَعَ الْعَدُوِّ فِي طَاعَتِهِ وَخِدْمَتِهِ نَاسِيًا لِسَيِّدِهِ، مُنْهمِكًا فِي مُوَافَقَةِ عَدُوِّهِ، إِذْ عَرَضَتْ لَهُ فِكْرَةٌ، فَتَذَكَّرَ بِرَّ سَيِّدِهِ وَعَطْفَهُ وَجُودَهُ وَكَرَمَهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ، وَأَنَّ مَصِيرَهُ إِلَيْهِ، وَعَرْضَهُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يُقْدِمْ عَلَيْهِ بِنَفْسِهِ قُدِمَ بِهِ عَلَيْهِ عَلَى أَسْوَإِ الْأَحْوَالِ، فَفَرَّ إِلَى سَيِّدِهِ مِنْ بَلَدِ عَدُوِّهِ وَجَدَّ فِي الْهَرَبِ إِلَيْهِ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى بَابِهِ، فَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَى عَتَبَةِ بَابِهِ، وَتَوَسَّدَ ثَرَى أَعْتَابِهِ، مُتَذَلِّلًا مُتَضَرِّعًا، بَاكِيًا آسِفًا، يَسْتَرحِمُهُ وَيَسْتَعْطِفُهُ وَيَعْتَذِرُ إِلَيْهِ فَعَلِمَ سَيِّدُهُ مَا فِي قَلْبِهِ، فَعَادَ مَكَانُ الْغَضَبِ عَلَيْهِ رِضًا مِنْهُ، وَمَكَانُ الشِّدَّةِ عَلَيْهِ رَحْمَةً بِهِ، وَأَبْدَلَهُ بِالْعُقُوبَةِ عَفْوًا، وَبِالْمُؤَاخَذَةِ حِلْمًا، فَكَيْفَ يَكُونُ فَرَحُ سَيِّدِهِ بِهِ وَقَدْ عَادَ إِلَيْهِ حَبِيبُهُ وَوَلِيُّهُ طَوْعًا وَاخْتِيَارًا؟

وَهَذَا مَوْضِعُ الْحِكَايَةِ الْمَشْهُورَةِ عَنْ بَعْضِ الْعَارِفِينَ: أَنَّهُ حَصَلَ لَهُ شُرُودٌ وَإِبَاقٌ عَنْ سَيِّدِهِ، فَرَأَى فِي بَعْضِ السِّكَكِ بَابًا قَدْ فُتِحَ وَخَرَجَ مِنْهُ صَبِيٌّ يَسْتَغِيثُ وَيَبْكِي وَأُمُّهُ خَلْفَهُ تَطْرُدُهُ، حَتَّى خَرَجَ فَأَغْلَقَتِ الْبَابَ فِي وَجْهِهِ وَدَخَلَتْ، فَذَهَبَ الصَّبِيُّ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ وَقَفَ مُفَكِّرًا، فَلَمْ يَجِدْ لَهُ مَأْوًى غَيْرَ الْبَيْتِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ وَلَا مَنْ يُؤْوِيهِ غَيْرَ وَالِدَتِهِ، فَرَجَعَ مَكْسُورَ الْقَلْبِ حَزِينًا فَوَجَدَ الْبَابَ مُغْلَقًا، فَتَوَسَّدَهُ وَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَى عَتَبَةِ الْبَابِ؛ وَجَعَلَ يَبْكِي وَيَقُولُ: يَا أُمَّاهُ، مَنْ يُؤْوِينِي إِذَا طَرَدْتِنِي؟ وَمَنْ يُقَرِّبُنِي إِذَا أَبْعَدْتِنِي؟ فَنَظَرَتْ مِنْ خَلَلِ الْبَابِ فَوَجَدَتْ وَلَدَهَا تَجْرِي الدُّمُوعُ عَلَى خَدَّيْهِ مُتَمَعِّكًا فِي التُّرَابِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ لَمْ تَمْلِكْ أَنْ رَمَتْ بِنَفْسِهَا عَلَيْهِ وَالْتَزَمَتْهُ تُقَبِّلُهُ وَتَبْكِي،

وَتقُولُ: يَا وَلَدِي وَيَا قُرَّةَ عَيْنِي أَيْنَ تَذْهَبُ عَنِّي؟ وَمَنْ يُؤْوِيكَ سِوَايَ؟ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تُخَالِفْنِي وَلَا تَحْمِلْنِي بِمَعْصِيَتِكَ لِي عَلَى خِلَافِ مَا جُبِلْتُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَكَ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْكَ، وَإِرَادَةِ الْخَيْرِ لَكَ؟ ثُمَّ أَخَذَتْهُ وَدَخَلَتْ.

فَتَأَمَّلْ قَوْلَ الْأُمِّ: لَا تَحْمِلْنِي بِمَعْصِيَتِكَ لِي عَلَى خِلَافِ مَا جُبِلْتُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ، ثُمَّ تَأَمَّلْ قَوْلَهُ ﷺ: «اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا» وَأَيْنَ تَقَعُ رَحْمَةُ الْوَالِدَةِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ؟

فَيَا إِخْوَانِي، ارْغَبُوا فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ، وَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ، وَوَدِّعُوا شَهْرَ رَمَضَانَ فَقَدْ عَزَمَ عَلَى الذَّهَابِ، وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ يُغْلَقَ الْبَابُ. فَهَذَا شَهْرُ رَمَضَانَ قَدْ عَزَمَ عَلَى الرَّحِيلِ، وَحَانَ مِنْهُ التَّحْوِيلُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا كَضَيْفٍ طَارِقٍ، أَوْ حَبِيبٍ عَمَّا قَلِيلٍ مُفَارِقٍ، فَأَكْثِرُوا فِي بَقِيَّتِهِ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَزَوِّدُوهُ، وَشَيِّعُوهُ بِالْبُكَاءِ وَالْأَسَفِ وَوَدِّعُوهُ.

عِبَادَ اللَّهِ، هَذَا شَهْرُ رَمَضَانَ قَدْ عَزَمَ عَلَى الرَّحِيلِ بَعْدَ الْمُقَامِ، وَقَدْ آنَ مِنْهُ تَشَتُّتُ النِّظَامِ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَحْسَنَ فِيهِ فَعَلَيْهِ بِالتَّمَامِ، وَمَنْ كَانَ فَرَّطَ فَلْيَخْتِمْ بِالْحُسْنَى، فَالْعَمَلُ بِالْخِتَامِ، فَاغْتَنِمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ هَاتَيْنِ اللَّيْلَتَيْنِ وَاسْتَوْدِعُوهُ عَمَلًا صَالِحًا يَشْهَدُ لَكُمْ عِنْدَ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ، وَوَدِّعُوهُ عِنْدَ فِرَاقِهِ بِأَزْكَى تَحِيَّةٍ وَسَلَامٍ.

سَلَامٌ عَلَى شَهْرِ الصِّيَامِ فَإِنَّهُ ... أَمَانٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ كُلُّ أَمَانِ
لَئِنْ فَنِيَتْ أَيَّامُكَ الْغُرُّ بَغْتَةً ... فَمَا الْحُزْنُ مِنْ قَلْبِي عَلَيْكَ بِفَانِ

إِخْوَانِي، مَضَى شَهْرُ رَمَضَانَ، وَكَأَنَّهُ مَا كَانَ، وَشَهِدَ عَلَى الْمُسِيءِ بِالْإِسَاءَةِ وَالْمُحْسِنِ بِالْإِحْسَانِ، وَحَصَّلَ كُلٌّ مَا قُسِمَ لَهُ مِنْ رِبحٍ أَوْ خُسْرَانٍ، فَيا حَسْرَةَ الْمُفَرِّطِ لَقَدْ أَضَاعَ الزَّمَانَ، وَيَا خَيْبَةَ الْمُسِيءِ كَأَنَّهُ أَخَذَ مِنَ الْمَوْتِ الْأَمَانَ. أَعَلِمَ أَنَّ الْقَضَاءَ يُمْهِلُهُ إِلَى رَمَضَانَ ثَانٍ؟

عِبَادَ اللَّهِ، هَذَا شَهْرُكُمْ قَدِ انْتَصَبَ لَكُمْ مُوَدِّعًا، وَسَارَ مُسَارِعًا، فَأَيْنَ الْبُكَاءُ لِرَحِيلِهِ؟ وَأَيْنَ الاسْتِدْرَاكُ لقَلِيلِهِ؟ وَأَيْنَ الاقْتِدَاءُ بِفَاعِلِ الْخَيْرِ وَدَلِيلِهِ؟ فَلِلَّهِ دَرُّهُ مَا كَانَ أَطْيَبَ زَمَانَهُ فِي صَوْمٍ وَسَهَرٍ، وَمَا كَانَ أَصْفَى أَوْقَاتَهُ، مِنْ آفَاتٍ وَكَدَرٍ، وَمَا كَانَ أَلَذَّ الاشْتِغَالَ فِيهِ بِالآيَاتِ وَالسُّوَرِ.

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ قَامَ بِوَاجِبَاتِهِ وَسُنَنِهِ؟ وَمَنِ اجْتَهَدَ فِي عِمَارَةِ زَمَنِهِ؟ وَمَنْ الَّذِي تَخَلَّصَ مِنْ آفَاتِ الصَّوْمِ وَفِتَنِهِ؟

إِخْوَانِي، رَاحَةُ الْغَرِيبِ عَنِ الدِّيَارِ فِي الْبُكَاءِ وَالضَّرَاعَةِ.

إِخْوَانِي، كَيْفَ مَنْ نَسِيَ أَهْلَهُ وَإِخْوَانَهُ وَأَتْبَاعَهُ؟

إِخْوَانِي، سَوَّدَتْ وُجُوهَنَا الزَّلَّاتُ، فَمَتَى تُبَيَّضُ بِالطَّاعَاتِ؟

إِخْوَاني، أَكْثِرُوا مِنَ التَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ فِي هِذِهِ السَّاعَةِ، وَقُولُوا بِرَفِيعِ الْأَصْوَاتِ: إِلٰهَنَا لَا تَحْرِمْنَا مِنْ نَبِيِّكَ الشَّفَاعَةَ، وَاجْعَلِ التَّقْوَى لَنَا أَرْبَحَ بِضَاعَةٍ، وَآمِنْ خَوْفَنَا يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ.

إِخْوَانِي، مُدُّوا أَيْدِيَ الذُّلِّ وَالافْتِقَارِ، وَأَسْبِلُوا مِنْ عُيُونِكُمْ دَمْعَهَا الْمِدْرَارَ، وَنَادُوا بِرَفِيعِ الْأَصْوَاتِ بِالسِّرِّ وَالْجِهَارِ: عَبِيدُكَ أَهْلُ الْمَعَاصِي وَالْإِصْرَارِ، أَتَوْكَ يَرْجُونَ الْعَفْوَ عَنِ الذُّنُوبِ وَالْأَوْزَارِ. وَقَدْ عَثَرْنَا فَأَقِلْ عَثْرَتَنَا مِنَ النَّارِ.

إِلٰهَنَا، شَفِيعُنَا إِلَيْكَ الذُّلُّ وَالانْكِسَارُ، والنَّدَمُ وَالرُّجُوعُ وَالدُّمُوعُ الْغِزَارُ.

إِلٰهَنا، إِنْ كَانَتْ ذُنُوبُنَا قَدْ أَخَافَتْنَا مِنْ عِقَابِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِكَ قَدْ أَطْمَعَنَا فِي ثَوَابِكَ، فَإِنْ عَفَوْتَ فَمَنْ أَوْلَى مِنْكَ بِذَلِكَ؟ وَإِنْ عَذَّبْتَ فَمَنْ أَعْدَلُ مِنْكَ هُنَالِكَ؟

إِلٰهِي، إِنْ كُنْتَ لَا تَقْبَلُ إِلَّا مِنَ الْمُخْلِصِينَ، فَمَنْ لِلْعَامِلِينَ الْمُخَلِّطِينَ؟ وَإِنْ كُنْتَ لَا تَرْحَمُ إِلَّا الْمُجْتَهِدِينَ، فَمَنْ لِأَهْلِ التَّفْرِيطِ وَالْمُقَصِّرِينَ؟ وَإِنْ كُنْتَ لَا تُكْرِمُ إِلَّا الْمُحْسِنِينَ، فَمَنْ لِلْغَافِلِ الْمِسْكِينِ؟

إلٰهي، فَأَفِضْ عَلَى الْجَمِيعِ مِنْ بَحْرِ فَضْلِكَ وَإِحْسَانِكَ، وَجَلِّلْنَا مِنْ عَطَايَاكَ وَامْتِنَانِكَ، وَشَفِّعِ الْمُحْسِنَ بِالْمُسِيئِينَ. وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِينَ، الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْبَابُ الثَّلاثُونَ
فِي خَاتِمَةِ الشَّهْرِ نَسْأَلُ اللَّهَ حُسْنَ الْخَاتِمَةِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي تَفَرَّدَ بِالْكِبْرِيَاءِ وَالْكَمَالِ، وَتَوَحَّدَ بِالْبَقَاءِ وَالْعِزِّ الَّذِي لَا نَفَادَ لَهُ وَلَا زَوَالَ، وَتَعَالَى بِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَتَنَزَّهَ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَإِلٰهِيَّتِهِ عَنِ الْأَشْبَاهِ وَالنُّظَرَاءِ وَالْأَشْكَالِ، الْمَلِكِ الَّذِي يُوَلِّي وَيَعْزِلُ، وَيَأْخُذُ وَيُمْهِلُ، وَعَمَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ بِالْفَضْلِ وَالنَّوَالِ. الْجَبَّارُ الَّذِي خَضَعَ كُلُّ مُتَجَبِّرٍ لِعَظِيمِ هَيْبَتِهِ. وَقَهَرَ كُلَّ مُتَكَبِّرٍ بِسُلْطَانِ سَطْوَتِهِ. وَالْمُطَّلِعُ عَلَى ظَاهِرِ الْعَبْدِ وَسَرِيرَتِهِ ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ وَالْبَاقِي فَلَا يَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الأَزْمَانِ وَالْأَحْوَالِ، لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَالْحُكْمُ وَالْقَهْرُ، وَلَهُ الرُّجُوعُ يَوْمَ الْحَشْرِ. عَالِمُ السِّرِّ وَالْجَهْرِ، وَقَاصِمُ الْجَبَابِرَةِ بِالْعِزِّ وَالْقَهْرِ، وَمُذِلُّ مَنِ اعْتَزَّ بِغَيْرِهِ غَايَةَ الْإِذْلَالِ. قَبِلَ مِنْ عِبَادِهِ الْيَسِيرَ مِنَ الْعَمَلِ، وَغَفَرَ لَهُمُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ، وَأَزَاحَ عَنْهُمُ الْعِلَلَ. وَتَفَضَّلَ عَلَى مَنْ شَاءَ بِلَذَّةِ الْوَصْلِ وَالْإِقْبَالِ. الْعَلِيُّ الْأَعْلَى، وَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، وَإِلَيْهِ الرُّجُوعُ وَالْمُنْتَهَى، وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ذُو الكَرَمِ وَالْجَلَالِ. تُسَبِّحُهُ الْكَائِنَاتُ، وَتُمَجِّدُهُ جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَإِلَيْهِ تُرْفَعُ السُّؤَالَاتُ، وَبَابُهُ مَحَطُّ الرِّكَابِ وَغَايَةُ الْآمَالِ. جَلَّ عَنِ الشَّبِيهِ وَالنَّظِيرِ، وَتَقَدَّسَ عَنِ الشَّرِيكِ وَالظَّهِيرِ، وَتَعَالَى عَنِ الْأَعْوَانِ وَتَنَزَّهَ عَنِ الأَمْثَالِ.

فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلٰهٍ أَتَمَّ عَلَى عِبَادِهِ النِّعْمَةَ، وَكَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَضَمَّنَ الْكِتَابَ الَّذِي كَتَبَهُ أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، وَجَادَ عَلَى عِبَادِهِ بِالْإِنْعَامِ وَالْإِفْضَالِ.

أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ عَلَى أَنْ هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنَّ عَلَيْنَا بِالصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَأَتَمَّ عَلَيْنَا نِعَمَهُ الْجِزَالَ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الكَبِيرُ الْمُتَعَالِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمَبْعُوثُ بِأَكْمَلِ شَرِيعَةٍ وَأَشْرَفِ خِصَالٍ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ صَلَاةً تَتَجَدَّدُ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قَالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: لَمَّا كَانَتِ الْمَغْفِرَةُ وَالْعِتْقُ كُلٌّ مِنْهُمَا مُرَتَّبًا عَلَى صِيَامِ رَمَضَانَ وَقِيَامِهِ. أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ إِكْمَالِ الْعِدَّةِ بِتَكْبِيرِهِ وَشُكْرِهِ فَقَالَ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فَشُكْرُ مَنْ أَنْعَمَ عَلَى عِبَادِهِ بِتَوْفِيقِهِمْ لِلصِّيامِ، وَإِعَانَتِهِمْ عَلَيْهِ وَمَغْفِرَتِهِ لَهُمْ بِهِ وَعِتْقِهِمْ مِنَ النَّارِ ـ أَنْ يَذْكُرُوهُ وَيَشْكُرُوهُ وَيَتَّقُوهُ حَقَّ تُقَاتِهِ.

وَقَدْ فَسَّرَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ بِأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ.

فَيَا أَرْبَابَ الذُّنُوبِ العَظِيمَةِ! الْغَنِيمَةَ الْغَنِيمَةَ، فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْكَرِيمَةِ، فَمَا مِنْهَا عِوَضٌ وَلَا لَهَا قِيمَةٌ، فَمَنْ يُعْتَقُ فِيهَا مِنَ النَّارِ فَقَدْ فَازَ بِالْجَائِزَةِ الْعَظِيمَةِ، وَالْمِنْحَةِ الْجَسِيمَةِ.

يَا مَنْ أَعْتَقَهُ مَوْلَاهُ مِنَ النَّارِ، إِيَّاكَ أَنْ تَعُودَ بَعْدَ أَنْ صِرْتَ حُرًّا إِلَى رِقِّ الْأَوْزَارِ، أَيُبْعِدُكَ مَوْلَاكَ مِنَ النَّارِ وَتَتَقَرَّبُ إِلَيْهَا؟ وَيُنْقِذُكَ مِنْهَا وَأَنْتَ تُوقِعُ نَفْسَكَ فِيهَا وَلَا تَحِيدُ عَنْهَا؟ يَنْبَغِي لِمَنْ يَرْجُو الْعِتْقَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنَ النَّارِ أَنْ يَأْتِيَ بِأَسْبَابٍ تُوجِبُ الْعِتْقَ مِنَ النَّارِ، وَهِيَ مُتَيَسِّرَةٌ فِي هَذَا الشَّهْرِ.

وَكَانَ أَبُو قِلَابَةَ يُعْتِقُ فِي آخِرِ الشَّهْرِ جَارِيَةً حَسْنَاءَ مُزَيَّنَةً يَرْجُو بِعِتْقِهَا الْعِتْقَ مِنَ النَّارِ.

وَفِي حَدِيثِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ الْمَرْفُوعِ الَّذِي فِي صَحِيحِ ابْنِ خُزَيْمَةَ: «مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ عِتْقًا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ خَفَّفَ فِيهِ عَنْ مَمْلُوكِهِ كَانَ لَهُ عِتْقًا مِنَ النَّارِ».

وَفِيهِ أَيْضًا: «فَاسْتَكْثِرُوا فِيهِ مِنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: خَصْلَتَيْنِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُمْ، وَخَصْلَتَيْنِ لَا غِنَى لَكُمْ عَنْهُمَا، فَأَمَّا الْخَصْلَتَانِ اللَّتَانِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُمْ: فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالاسْتِغْفَارُ، وَأَمَّا اللَّتَانِ لَا غِنَى لَكُمْ عَنْهُمَا: فَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَتَسْتَعِيذُونَ بِهِ مِنَ النَّارِ» فَهَذِهِ الْخِصَالُ الْأَرْبَعُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْحَدِيثِ كُلٌّ مِنْهَا سَبَبُ الْعِتْقِ وَالْمَغْفِرَةِ.

فَأَمَّا كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ فَإِنَّهَا تَهْدِمُ الذُّنُوبَ وَتَمْحُوهَا مَحْوًا، وَلَا تُبْقِي ذَنْبًا وَلَا يَسْبِقُهَا عَمَلٌ وَهِي تَعْدِلُ عِتْقَ الرِّقَابِ الَّذِي يُوجِبُ الْعِتْقَ مِنَ النَّارِ. وَمَنْ أَتَى بِهَا أَرْبَعَ مِرَارٍ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي أَعْتَقَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ قَالَهَا مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ.

وَأَمَّا كَلِمَةُ الْاسْتِغْفَارِ فَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ، فَإِنَّ الْاسْتِغْفَارَ دُعَاءٌ بِالْمَغْفِرَةِ، وَدُعَاءُ الصَّائِمِ مُسْتَجَابٌ فِي حَالِ صِيَامِهِ وَعِنْدَ فِطْرِهِ. وَقَدْ سَبَقَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمَرْفُوعِ: «وَيُغْفَرُ فِيهِ - يَعْنِي شَهْرَ رَمَضَانَ - إِلَّا لِمَنْ أَبَى قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، وَمَنْ أَبَى؟ قَالَ: مَنْ أَبَى أَنْ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ ﷻ».

قَالَ الْحَسَنُ: أَكْثِرُوا مِنَ الاسْتِغْفَارِ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَتَى تَنْزِلُ الرَّحْمَةُ.

وَقَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، عَوِّدْ لِسَانَكَ الاسْتِغْفَارَ، فَإِنَّ لِلَّهِ سَاعَاتٍ لا يَرُدُّ فِيهِنَّ سَائِلًا، وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالاسْتِغْفَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

وَفِي بَعْضِ الآثَارِ: أَنَّ إِبْلِيسَ قَالَ: أَهْلَكْتُ النَّاسَ بِالذُّنُوبِ، وَأَهْلَكُونِي بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالاسْتِغْفَارِ.

وَالاسْتِغْفَارُ خِتَامُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ كُلِّهَا، فَيُخْتَمُ بِهِ الصَّلَاةُ وَالْحَجُّ وَقِيَامُ

اللَّيْلِ، وَيُخْتَمُ بِهِ المَجَالِسُ، فَإِنْ كَانَتْ ذِكْرًا كَانَ كالطَّابَعِ عَلَيْهَا، وَإِنْ كَانَتْ لَغْوًا كَانَ كَفَّارَةً لَها، فكذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يُخْتَمَ صِيَامُ رَمَضَانَ بالاسْتِغْفَارِ.

وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى الْأَنْصَارِ يَأْمُرُهُمْ بِخَتْمِ رَمَضَانَ بالاسْتِغْفَارِ، وَصَدَقَةِ الْفِطْرِ، فَإِنَّ صَدَقَةَ الْفِطْرِ طُهْرَةٌ لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ والرَّفَثِ، والاسْتِغْفَارُ يَرْقَعُ مَا تَخَرَّقَ مِنَ الصِّيَامِ بِاللَّغْوِ وَالرَّفَثِ.

وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ: إِنَّ صَدَقَةَ الْفِطْرِ لِلصَّائِمِ كَسَجْدَتَيِ السَّهْوِ لِلصَّلَاةِ.

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي كِتَابِهِ: قُولُوا كَما قَالَ أَبُوكُمْ آدَمُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وقولوا كما قال نوحٌ عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وَقُولُوا كَمَا قَالَ مُوسَى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾.

وَقُولُوا كَما قَالَ ذُو النُّونِ عليه السلام: ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وَاعْلَمْ أَنَّ صَدَقَةَ الْفِطْرِ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ حُرٍّ، ذَكرٍ وَأُنْثَى، كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ.

وَتَجِبُ عَلَى السَّيِّدِ عَنْ عَبْدِهِ؛ بِشَرْطِ أَنْ تَكُونَ فَاضِلَةً عَنْ قُوتِهِ وَقُوتِ مَنْ يُمَوِّنُهُ يَوْمَ الْعِيدِ وَلَيْلَتَهُ، وَهِيَ صَاعٌ مِنْ بُرٍّ، أَوْ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، أَوْ صَاعٌ مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعٌ مِنْ زَبِيبٍ، أَوْ صَاعٌ مِنْ أَقِطٍ، فَلَا يُجْزِئُ غَيْرُ هَذِهِ الْأَصْنَافِ الْخَمْسَةِ إِلَّا إِذَا عُدِمَتْ، فَإِنَّهُ يُجْزِئُ كُلَّ حَبٍّ وَتَمْرٍ يُقْتَاتُ، ولا يُجْزِئُ الرَّدِيءُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ أُهْدِيَ لِمُخْرِجِ الرَّدِيءِ مِثْلُ الرَّدِيءِ الَّذِي أَخْرَجَهُ صَدَقَةً لَمْ يَأْخُذْهُ إِلَّا حَيَاءً وَإِغْمَاضًا.

وَمَصْرِفُهَا مَصْرِفُ الزَّكَاةِ، فَتُدْفَعُ الْفُطْرَةُ[1] إِلَى الْفُقَرَاءِ وَأَهْلِ الزَّكَاةِ. وَيُسْتَحَبُّ إِخْرَاجُهَا عَنِ الْجَنِينِ الَّذِي فِي الْبَطْنِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يَكْفِي مَنْ يُمَوِّنُهُ، فَإِنَّهُ يَبْدَأُ بِنَفْسِهِ ثُمَّ بِزَوْجَتِهِ ثُمَّ رَقِيقِهِ ثُمَّ أُمِّهِ ثُمَّ أَبِيهِ ثُمَّ وَلَدِهِ، ثُمَّ الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ فِي الْمِيرَاثِ. وَيَجُوزُ تَقْدِيمُهَا قَبْلَ الْعِيدِ بِيَوْمٍ أَوْ بِيَوْمَيْنِ. وَالْأَفْضَلُ إِخْرَاجُهَا يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ. وَتَجِبُ بِغُرُوبِ الشَّمْسِ لَيْلَةَ عِيدِ الْفِطْرِ، فَمَا كَانَ بَعْدَ الْغُرُوبِ فَلَا يَجِبُ لَهُ فُطْرَةٌ.

فَهَذَا بَعْضُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِقَبُولِ الصِّيَامِ وَالرَّاقِعَةِ لِخُرُوقِهِ. وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُوَفِّقَنَا وَإِيَّاكُمْ لِمَا يَرْضَى بِهِ عَنَّا إِنَّهُ جَوَّادٌ كَرِيمٌ.

فَصْلٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾.

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِأَنَّهُ يَحْضُرُ لِلْعَبْدِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ؛ فَإِذَا رَأَى الْحَسَنَ مِنْ أَعْمَالِهِ سَرَّهُ ذَلِكَ وَأَفْرَحَهُ، وَإِذَا رَأَى الْقَبِيحَ سَاءَهُ وَأَحْزَنَهُ وَوَدَّ لَوْ أَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ، وَأَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا أَمَدٌ بَعِيدٌ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

إِنَّمَا يَتَبَيَّنُ رِبْحُ الْعَامِلِينَ يَوْمَ الْمَعَادِ، وَفِيهِ تَظْهَرُ آثَارُ الْقُرْبِ وَالْبِعَادِ، فَمَنْ عَمِلَ خَيْرًا وَجَدَ جَزَاءَهُ مُحْضَرًا، وَمَنْ عَمِلَ سُوءًا لَقِيَهُ فِي كِتَابِهِ مُسَطَّرًا.

هَذَا الَّذِي أَزْعَجَ قُلُوبَ الْخَائِفِينَ، وَأَسْهَرَ عُيُونَ الْعَابِدِينَ، وَقَرَّحَ أَجْفَانَ الْخَاشِعِينَ، وَحَيَّرَ أَفْهَامَ الْعَارِفِينَ، وَأَذَلَّ أَعْنَاقَ الْمُتَجَبِّرِينَ.

---

(١) الفطرة: بضم الفاء، وليست لحنًا، بل اسم لصدقة الفطر كما ذكره الفقهاء. قاله في المبدع اهـ. كاتبه.

قَالَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ: بَيْنَمَا أَسِيرُ فِي بَعْضِ الْجِبَالِ ـ جِبَالِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ـ إِذْ هَبَطْتُ وَادِيًا، وَإِذَا بِرَجُلٍ قَائِمٍ بَيْنَ شَجَرَتَيْنِ يُرَدِّدُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ الآيةَ، فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهَا حَتَّى صَاحَ وَوَقَعَ مَغْشِيًا عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ بَعْدَ سَاعَةٍ وَهُوَ يَقُولُ: أَعُوذُ بِكَ مِنْ مَقَامِ الْكَذَّابِينَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْبَطَّالِينَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ إِعْرَاضِ الْغَافِلِينَ، خَشَعَتْ لَكَ قُلُوبُ الْخَائِفِينَ، وَإِلَيْكَ رُفِعَتْ أَعْمَالُ الْمُقَصِّرِينَ، وَلِعَظَمَتِكَ ذَلَّتْ رِقَابُ الْعَارِفِينَ. ثُمَّ نَفَضَ يَدَيْهِ وَقَالَ: مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ عَلَيْكِ يَا دُنْيَا بِأَبْنَاءِ جِنْسِكِ، وَاللَّاهِينَ فِي نِعْمَتِكِ، إِلَى مُحِبِّيكِ اذْهَبِي، وَإِيَّاهُمْ فاخْدَعِي.

قالَ: فَنَادَيْتُهُ: يا عَبْدَ اللَّهِ، أَنا مُنْذُ الْيَوْمِ مُنْتَظِرٌ أَنْ تَتَفَرَّغَ لِي.

فَقَالَ: كَيْفَ يَتَفَرَّغُ مَنْ يُبَادِرُ الْأَوْقَاتَ وَتُبادِرُهُ، وَيَخَافُ سَبْقَهَا بِالْمَوْتِ عَلَى نَفْسِهِ، أَمْ كَيْفَ يَتَفَرَّغُ مَنْ ذَهَبَتْ أَيَّامُهُ، وَبَقِيَتْ آثامُهُ؟ ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾، ثُمَّ صَاحَ صَيْحَةً أَشَدَّ مِنَ الْأُولَى وَخَرَّ مَغْشِيًا عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: قَدْ خَرَجَتْ رُوحُهُ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَإِذَا هُوَ يَضْطَرِبُ، ثُمَّ أَفاقَ وَهُوَ يَقُولُ: مَنْ أَنَا وَخَاطِرِي؟ هَبْ لِي إِسَاءَتِي بِفَضْلِكَ، وَجَلِّلْنِي بِسَتْرِكَ وَاعْفُ عَنْ ذُنُوبِي بِكَرَمِ وَجْهِكَ.

فَقُلْتُ لَهُ: بِالَّذِي تَرْجُوهُ إِلَّا مَا كَلَّمْتَنِي.

فَقَالَ: عَلَيْكَ بِكَلَامِ مَنْ يَنْفَعُكَ كَلَامُهُ، وَدَعْ كَلَامَ مَنْ أَوْثَقَتْهُ آثامُهُ. إِنِّي لَفِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَا شَاءَ اللَّهُ كَأَنِّي أُجَاهِدُ إِبْلِيسَ وَيُجَاهِدُنِي فَلَمْ يَجِدْ عَوْنًا عَلَيَّ لِيُخْرِجَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ إِلَّا بِكَ. إِلَيْكَ عَنِّي فَقَدْ شَغَلْتَنِي، وَمَالَتْ إِلَى حَدِيثِكَ شُعْبَةٌ مِنْ قَلْبِي.

قَالَ: فَانْصَرَفْتُ وَتَرَكْتُهُ.

فَلِلَّهِ دَرُّ أَقْوَامٍ بَادَرُوا الْأَوْقَاتَ، وأَخَذُوا نَصِيبَهُمْ فِيهَا مِنَ الطَّاعَاتِ.

فَيَا إِخْوَانِي، هَذِهِ آخِرُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، شَهْرِ الرَّحْمَةِ وَالْغُفْرَانِ،

وَمَوْسِمِ الْعِتْقِ مِنَ النِّيرَانِ، فَاجْتَهِدُوا فِي بَاقِيهِ، وَتَلافَوْا تَفْرِيطَكُمْ مَا أَمْكَنَ تَلَافِيهِ. فَمَتَى يُغْفَرُ لِمَنْ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ فِيهِ، وَمَتَى يُصْلِحُ مَنْ صَعُبَ عَلَيْهِ إِدْرَاكُ فَارِطِهِ وَأَقَامَ عَلَى تَمَادِيهِ؟ لَقَدْ كَانَ مُنَبِّهًا لِذَوِي الْغَفَلَاتِ وَالنِّسْيَانِ، مَوْسِمًا لِمُضَاعَفَةِ الْأَعْمَالِ وَالْغُفْرَانِ وَمَخْصُوصًا لِفَضِيلَةِ تِلاوَةِ الْقُرْآنِ. وَقْتَ إِفَاضَاتِ الكَرَمِ مِنَ الْمَوْلَى وَالْإِحْسَانِ، لَيْلُهُ مَعْمُورٌ بِالْقِيَامِ، وَنَهَارُهُ مَصُونٌ بِالصِّيَامِ. فَكَيْفَ لَا تَجْرِي دُمُوعُ المُؤْمِنِ عَلَى فَقْدِ رَمَضَانَ وَهُوَ لاَ يَدْرِي، أَحَظِيَ بِالْقَبُولِ وَالْغُفْرَانِ؟ أَمْ رُمِيَ بِالطَّرْدِ وَالْحِرْمَانِ؟ ثُمَّ لا يَشْعُرُ أَهُوَ يُدْرِكُهُ فِي الزَّمَانِ الثَّانِ؟

فَكَمْ بَيْنَ مَنْ يَرْعَى رَمَضَان كأَنَّه حَبِيبٌ زَارَ بَعْدَ طُولِ بِعادٍ، وَطَيْفُ خَيَالٍ أَلَمَّ فِي طِيبِ سُهَادٍ. فَقَدْ شَغَلَهُ أُنْسُهُ بِحَبِيبِهِ عَنِ الْأَنَامِ، فَهُوَ يَتَمَنَّى لَوْ كَانَ رَمَضَانُ عَلَى الدَّوَامِ، قَدْ هَجَرَ فِيهِ لَذِيذَ الْمَنَامِ، وَلَزِمَ الْوُقُوفَ فِي حِنْدِسِ الظَّلَامِ.

وآخَرُ: يَرَى رَمَضَانَ مَوسِمًا لِنَيْلِ الشَّهَوَاتِ، وَيَعُدُّ أَيَّامَهُ اسْتِعْجَالًا لِأَوْقَاتِ الْبِطَالَاتِ.

وآخَرُ: قَدْ فَرَّطَ فِي الْإِنَابَةِ وَالتَّوْبَةِ، وَقَصَّرَ عَنِ الْإِجَابَةِ وَالْأَوْبَةِ، فَازْدَادَ بِرَمَضَانَ وِزْرًا عَلَى وِزْرِهِ، وَاكْتَسَبَ بِأَيَّامِهِ خُسْرًا عَلَى خُسْرِهِ، وَلَمْ يَتَزَوَّدْ مِنْهُ لِيَوْمِ حَشْرِهِ، وَرَضِيَ بِإِبْعَادِهِ وَهَجْرِهِ، وَالسَّعِيدُ فِي يَوْمِ الْعِيدِ يَتَذَكَّرُ الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ، وَيَطْلُبُ مِنْ مَوْلَاهُ الْمَزِيدَ، فَهُوَ يَوْمٌ يَتَفَضَّلُ فِيهِ الْمَلِكُ الْمَجِيدُ، وَيُعْتِقُ الْإِمَاءَ وَالْعَبِيدَ.

فَيَا عِبَادَ اللَّهِ كَيْفَ لا يَجْرِي لِلْمُؤْمِنِ عَلَى فِرَاقِ هَذَا الشَّهْرِ دُمُوعٌ، وَهُوَ لَا يَدْرِي هَلْ بَقِيَ لَهُ فِي عُمْرِهِ رُجُوعٌ؟

تَذَكَّرْتُ أَيَّامًا مَضَتْ وَلَيَالِيًا ... خَلَتْ، فَجَرَى مِنْ ذِكْرِهِنَّ دُمُوعُ
أَلَا هَلْ لَهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ عَوْدَةٌ ... وَهَلْ لِي إِلَى يَوْمِ الْوِصَالِ رُجُوعُ؟
وَهَلْ بَعْدَ إِعْرَاضِ الْحَبِيبِ تَوَاصُلٌ ... وَهَلْ لِبُدُورٍ قَدْ أَفَلْنَ طُلُوعُ؟

أَيْنَ حُرَقُ الْمُجْتَهِدِينَ فِي نَهَارِهِ؟ أَيْنَ قَلَقُ الْمُتَهَجِّدِينَ فِي أَسْحَارِهِ؟ فَكَيْفَ حَالُ مَنْ خَسِرَ فِي لَيَالِيهِ وَأَيَّامِهِ؟ مَاذَا يَنْفَعُ الْمُفَرِّطَ فِيهِ بُكَاؤُهُ وَقَدْ عَظُمَتْ فِيهِ مُصِيبَتُهُ وَجَلَّ عَزَاؤُهُ؟ كَمْ نُصِحَ الْمِسْكِينُ فَمَا قَبِلَ النُّصْحَ؟ كَمْ دُعِيَ إِلَى الْمُصَالَحَةِ فَمَا أَجَابَ الصُّلْحَ؟ كَمْ شَاهَدَ الْوَاصِلِينَ فِيهِ وَهُوَ مُتَبَاعِدٌ؟ كَمْ مَرَّتْ بِهِ زُمَرُ السَّائِرِينَ وَهُوَ قَاعِدٌ، حَتَّى إِذَا ضَاقَ بِهِ الْوَقْتُ وَخَافَ الْمَقْتَ نَدِمَ عَلَى التَّفْرِيطِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ، وَطَلَبَ الاسْتِدْرَاكَ فِي وَقْتِ الْعَدَمِ:

أَتَتْرُكُ مَنْ تُحِبُّ وَأَنْتَ جَارُ ... وَتَطْلُبُهُمْ وَقَدْ بَعُدَ الْمَزَارُ
وَتَبْكِي بَعْدَ نَأْيِهِمُ اشْتِيَاقًا ... وَتَسْأَلُ فِي الْمَنَازِلِ أَيْنَ سَارُوا
تَرَكْتُ سُؤَالَهُمْ وَهُمْ حُضُورٌ ... وَتَرْجُو أَنْ تُخَبِّرَكَ الدِّيَارُ
فَنَفْسُكَ لُمْ، ولَا تَلُمِ الْمَطَايَا ... وَمُتْ كَمَدًا فَلَيْسَ لَكَ اعْتِذَارُ

إِخْوَانِي: لَقَدْ ذَهَبَتْ أَيَّامُهُ وَمَا أَطَعْتُمْ، وَكُتِبَتْ عَلَيْكُمْ فِيهِ آثَامُهُ وَمَا أَضَعْتُمْ، وَكَأَنَّكُمْ بِالْمُشَمِّرِينَ فِيهِ وَقَدْ وَصَلُوا وَانْقَطَعْتُمْ، أَتُرَى مَا هَذَا التَّوْبِيخُ لَكُمْ أَوَ مَا سَمِعْتُمْ؟

إِخْوَانِي: هَذَا شَهْرُ رَمَضَانَ مَوْسِمُ الْقَبُولِ وَالْغُفْرَانِ، قَدْ بَقِيَ مِنْهُ لَيْلَةٌ وَاحِدَةٌ، وَاقْتَسَمَ الْعَامِلُونَ فَوَائِدَهُ، بَقِيَ مِنْ أَيَّامِهِ يَوْمٌ، وَكَأَنَّهُ طَيْفٌ زَارَ فِي النَّوْمِ، فَلَقَدْ كَانَ لِلْمُتَّقِينَ رَوْضَةً وَأُنْسًا، وَلِلْغَافِلِينَ قَيْدًا وَحَبْسًا. كانَ نُزْهَةً لِلْأَبْرَارِ، وَقَيْدًا لِلْأَشْرَارِ. فَطُوبَى لِمَنْ حَلّ فِيهِ عُقْدَةَ الْإِصْرَارِ، وَحَلَّ فِي رَوْضَةِ التَّقْوَى فِي مَنْزِلِ الافْتِقَارِ، وَخَتَمَ شَهْرَهُ بالاسْتِغْفَارِ، لَعَلَّهُ يَرْفُو خَلَلَ التَّقْصِيرِ وَيَمْحُو الْأَوْزَارَ، قَال:

أَيُّ شَهْرٍ قَدْ تَوَلَّى ... يَا عِبَادَ اللَّهِ عَنَّا
حُقَّ أَنْ نَبْكِي عَلَيْهِ ... بِدِمَاءٍ لَوْ عَقَلْنَا
كَيْفَ لَا نَبْكِي بِشَهْرٍ ... مَرَّ بِالْغَفْلَةِ عَنَّا
ثُمَّ لَا نَعْلَمُ أَنَّا ... قَدْ قُبِلْنَا أَوْ طُرِدْنَا

لَيْتَ شِعْرِي مَنْ هُوَ الْمَحْرُومُ وَالْمَطْرُودُ مِنَّا؟
وَمَنِ الْمَقْبُولُ مِمَّنْ صَامَ مِنَّا فَيُهَنَّا
كَانَ هَذَا الشَّهْرُ نُورًا بَيْنَنَا يُزْهِرُ حُسْنَا
فَاجْعَلِ اللَّهُمَّ عُقْبَاهُ لَنَا نُورًا وَحُسْنَا

اللَّهُمَّ يَا مَنْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ، وَعَلَتْ قُدْرَتُهُ عَلَى جَمِيعِ الْمَقْدُورَاتِ، وَجَلَّتْ إِرَادَتُهُ أَنْ يُخَالِفَها شَيْءٌ مِنَ الكَائِنَاتِ. نَسْأَلُكَ بِعِزِّكَ الَّذِي لَا يُرَامُ، وَبِمُلْكِكَ الَّذِي لَا يُضَامُ، وَبِنُورِكَ الَّذِي مَلَأَ أَرْكَانَ عَرْشِكَ، وَبِقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلَائِقِ وَقَهْرِكَ، اغْفِرْ لَنَا كَبَائِرَ الذُّنُوبِ وَالصَّغَائِرَ، وَاسْتُرْ عَلَيْنَا فَاضِحَاتِ السَّرَائِرِ، وَهَبْ لَنَا مُوبِقَاتِ الْجَرَائِرِ، وَسَامِحْنَا عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ نَطَقَتْ بِهِ الْأَلْسُنُ وَأَكَنَّتْهُ الضَّمَائِرُ، فَها نَحْنُ عَبِيدُكَ الْخَاضِعُونَ لِهَيْبَتِكَ، الْمُتَذَلِّلُونَ لِعِزِّكَ وَعَظَمَتِكَ، الرَّاجُونَ لِجَمِيلِ رَحْمَتِكَ، أَمَرْتَنا فَفَرَّطْنَا وَلَمْ تَقْطَعْ عَنَّا نِعَمَكَ، وَنَهَيْتَنَا فَعَصَيْنَا وَلَمْ تَحْرِمْنَا كَرَمَكَ.

اللَّهُمَّ رُدَّنا إِلَيْكَ بِفضلِكَ وَرَحْمَتِكَ. وَوَفِّقْنا لِلْإِقْبالِ عَلَيْكَ وَالاشْتِغَالِ بِخِدْمَتِكَ، وَتَفضَّلْ عَلَيْنَا فَأَنْتَ الْبَادِئُ بِالْإِحْسَانِ قَبْلَ تَوَجُّهِ السَّائِلِينَ. وَأَنْتَ الْجَوَّادُ بِالْعَطَاءِ قَبْلَ طَلَبِ الرَّاغِبينَ. فَأَتْمِمْ عَلَيْنَا إِحْسَانَكَ كَما بَدَأْتَنا، وَأَسْبِلْ عَلَيْنَا عَفْوَكَ كَما عَوَّدْتَنا، وَاغْفِرْ اللَّهُمَّ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الْفَصْلُ الْعَاشِرُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ مُنِيلِ الطَّلَبَاتِ، وَمُجْزِلِ الْهِبَاتِ، وَمُضَاعِفِ الْحَسَنَاتِ، وَغَافِرِ السَّيِّئَاتِ، وَمُعْتِقِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الرِّقَابِ الْمُوبِقَاتِ. الْكَرِيمُ الَّذِي لَا يَبْخَلُ، الْحَلِيمُ الَّذِي لَا يَعْجَلُ، وَعَنِ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ لَا يَتَحَوَّلُ، الَّذِي لَا تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ اللُّغَاتُ، وَلَا تَشْتَبِهُ عَلَيْهِ الْأَصْوَاتُ، وَلَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ ذَوِي الْحَاجَاتِ.

الْمُتَفَرِّدُ بِالْإِنْشَاءِ وَالْإِبْدَاعِ، وَغَافِرُ الْخَطَايَا بَعْدَ النَّدَمِ وَالْإِقْلَاعِ، الَّذِي أَوْجَدَ الْخَلِيقَةَ مِنْ عَدَمٍ وَأَنْشَاهَا، وَقامَ بِأَرْزَاقِهَا وَكَفَاهَا، وَأَبَانَ لَها طَرِيقَ رُشْدِهَا وَهُدَاهَا، وَمَنَّ بِفَضْلِهِ عَلَى خُلاصَةٍ اصْطَفَاهَا، وَلِقُرْبِهِ وَخِدْمَتِهِ ارْتَضَاهَا، فَهِيَ فِي مَرَاضِيهِ تَدْأَبُ وَبِطَاعَاتِهِ تَتَبَاهَى. وَحَكَمَ بِالطَّرْدِ عَلَى فِرْقَةٍ سِوَاهَا، فَهِيَ فِي مَيَادِينِ الْغَفَلَاتِ تَلْعَبُ وَبِالشَّهَوَاتِ تَتَلَاهَى.

فَسُبْحَانَ مَنْ أفاضَ عَلَى مَنْ شَاءَ خِلَعَ الْكَرَامَاتِ، وَعَمَرَ أَوْقَاتَهُمْ بِالطَّاعَاتِ. عَزَّ رَبًّا وَجلَّ مَلِكًا وَتَعَالَى إِلٰهًا مُتَفَرِّدًا بِالْكَمالَاتِ، يُرِي عِزَّتَهُ ثُمَّ يُبْدِي لُطْفَهُ، وَالْعَبْدُ عَنْ هَذَا الشَّأْنِ فِي الْغَفَلَاتِ.

أَحْمَدُهُ حَمْدًا أَنَالُ بِهِ عُلُوَّ الدَّرَجَاتِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْلَاهُ مِنْ إِتْمَامِ هَذِهِ اللَّيَالِي الْمُفَضَّلَاتِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِلٰهٌ لَا تَضُرُّهُ الْمَعْصِيَةُ وَلَا تَنْفَعُهُ الطَّاعَاتُ، شَهَادَةً أَرْجُو بِهَا الْفِكَاكَ مِنْ نَارٍ بَعِيدَةِ الدَّرَكَاتِ. وَأُؤَمِّلُ مِنْ كَرَمِهِ فَسِيحَ الْجَنَّاتِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيِّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَاحِبُ الْمُعْجِزَاتِ، وَالْهَادِي إِلَى سُبُلِ الْخَيْرَاتِ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ذَوِي الْفَضَائِلِ وَالْكَرَامَاتِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أُعْطِيَتْ أُمَّتِي خَمْسَ خِصَالٍ فِي رَمَضَانَ لَمْ تُعْطَهَا أُمَّةٌ غَيْرُهُمْ: خُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللَّهِ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَتَسْتَغْفِرُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى يُفْطِرُوا. وَيُزَيِّنُ اللَّهُ كُلَّ يَوْمٍ جَنَّتَهُ وَيَقُولُ: يُوشِكُ عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ أَنْ يُلْقُوا عَنْهُمُ الْمَئُونَةَ وَالْأَذَى وَيَصِيرُوا إِلَيْكِ. وَتُصَفَّدُ فِيهِ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ فَلا يَخْلُصُونَ فِيهِ إِلَى مَا كَانُوا يَخْلُصُونَ إِلَيْهِ فِي غَيْرِهِ. وَيُغْفَرُ

لَهُمْ فِي آخِرِ لَيْلَةٍ. فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَهِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّ الْعَامِلَ إِنَّمَا يُوَفَّى أَجْرَهُ إِذَا قَضَى عَمَلَهُ».

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ تَعالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ عِنْدَ الْإِفْطَارِ أَلْفَ أَلْفِ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ كُلُّهُمْ قَدِ اسْتَوْجَبُوا النَّارَ، فَإِذَا كَانَ آخِرُ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، أَعْتَقَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِعَدَدِ مَا أَعْتَقَ مِنْ أَوَّلِ الشَّهْرِ إِلَى آخِرِهِ، ثَلَاثِينَ أَلْفَ أَلْفِ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ».

وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ مُرْسَلًا عَنِ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ ﷻ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ سِتَّمَائَةِ أَلْفِ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ. فَإِذَا كَانَ آخِرُ لَيْلَةٍ أَعْتَقَ اللَّهُ بِعَدَدِ مَنْ مَضَى».

فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ السُّؤَالِ وَالاسْتِغْفَارِ وَالدُّعَاءِ فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ، لِيَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ هٰؤُلَاءِ الْعُتَقَاءِ، وَأَنْ يُحْسِنَ الْعَمَلَ، وَيَجِدَّ وَيَجْتَهِدَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ. فَإِنْ كَانَ قَدْ عَمِلَ فِيمَا مَضَى صَالِحًا كَانَ ذَلِكَ لَهُ خِتَامًا، فَيَكُونُ خِتَامُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ عَمَلًا صَالِحًا، وَإِنْ كانَ مُفَرِّطًا مِثْلِي فَلْيَنْدَمْ وَلْيَتَأَسَّفْ عَلَى فِعْلِهِ وَيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ تَعَالَى، فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ وَيَرْحَمَهُ، وَيَجْعَلَهُ مِنْ هٰؤُلَاءِ الْعُتَقَاءِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

وَرُوِيَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي جَعْفَرٍ ـ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ ـ مُرْسَلًا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَلَيْهِ رَمَضَانُ صَحِيحًا مُسْلِمًا صَامَ نَهَارَهُ وَصَلَّى وِرْدًا مِنْ لَيْلِهِ، وَغَضَّ بَصَرَهُ وَحَفِظَ فَرْجَهُ وَلِسَانَهُ وَيَدَهُ، وَحَافَظَ عَلَى صَلَاتِهِ فِي الجَمَاعَةِ وَبَكَّرَ إِلَى الْجُمُعَةِ، فَقَدْ صَامَ الشَّهْرَ، وَاسْتَكْمَلَ الْأَجْرَ، وَأَدْرَكَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَفَازَ بِجَائِزَةِ الرَّبِّ ﷻ». قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: جَائِزَةُ الرَّبِّ لَا تُشْبِهُ جَوَائِزَ الْأُمَرَاءِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: صُمْتُ رَمَضَانَ كُلَّهُ، وَلَا قُمْتُ رَمَضَانَ كُلَّهُ» قَالَ أَبُو بَكْرَةَ: فَلَا أَدْرِي، أَكَرِهَ التَّزْكِيَةَ أَمْ لَا بُدَّ مِنَ الْغَفْلَةِ؟

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ فِي هَذَا الشَّهْرِ فَمَتَى يُغْفَرُ لَهُ؟» مَتَى يُقْبَلُ مَنْ رُدَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ؟ مَتَى يَصْلُحُ مَنْ لَا يَصْلُحُ فِي رَمَضَانَ؟

قَالَ كَعْبٌ ﷺ: مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنَّهُ إِذَا أَفْطَرَ بَعْدَ رَمَضَانَ أَلَّا يَعْصِيَ اللَّهَ، دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا حِسَابٍ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنَّهُ إِذَا أَفْطَرَ بَعْدَ رَمَضَانَ عَصَى رَبَّهُ، فَصِيَامُهُ عَلَيْهِ مَرْدُودٌ.

مَا أَصْنَعُ؟ هَكَذَا جَرَى الْمَقْدُورُ الْجَبْرُ لِغَيْرِي! وَأَنَا الْمَكْسُورُ
أَسِيرُ ذَنْبٍ مُقَيَّدٌ مَهْجُورُ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُغَيَّرَ الْمَقْدُورُ؟

رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ يُنَادِي فِي آخِرِ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ: «يَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ هَذَا الْمَقْبُولُ فَنُهَنِّيهِ؟ وَمَنْ هَذَا الْمَحْرُومُ فَنُعَزِّيهِ؟ أَيُّهَا الْمَقْبُولُ هَنِيئًا لَكَ، أَيُّهَا الْمَرْدُودُ جَبَرَ اللَّهُ مُصِيبَتَكَ».

لَيْتَ شِعْرِي مَنْ فِيهِ يُقْبَلُ مِنَّا فَيُهَنَّا، يَا خَيْبَةَ الْمَرْدُودِ
مَنْ تَوَلَّى عَنْهُ بِغَيْرِ قَبُولٍ أَرْغَمَ اللَّهُ أَنْفَهُ بِخِزْيٍ شَدِيدِ

وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ شَهْرَ رَمَضَانَ مِضْمَارًا لِخَلْقِهِ، يَسْتَبِقُونَ فِيهِ بِطَاعَاتِهِ إِلَى مَرْضَاتِهِ، فَسَبَقَ قَوْمٌ فَفَازُوا، وَتَخَلَّفَ آخَرُونَ فَخَابُوا».

وَقَالَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ ﷺ: «الصَّلَاةُ مِكْيَالٌ، فَمَنْ وَفَّى وُفِّيَ لَهُ وَمَنْ طَفَّفَ فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا قِيلَ فِي الْمُطَفِّفِينَ، فَالصِّيَامُ وَسَائِرُ الْأَعْمَالِ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ، فَمَنْ وَفَّاهَا فَهُوَ مِنْ خِيَارِ عِبَادِ اللَّهِ الْمُوفِينَ، وَمَنْ طَفَّفَ فِيهَا فَوَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ».

إِخْوَانِي: أَيُّ صِيَامٍ لِمَنْ ظَلَّ يَأْكُلُ لُحُومَ الْأَنَامِ؟ وَأَيُّ قِيَامٍ لِمَنْ جَسَدُهُ مَعَ التَّاعِبِينَ وَقَلْبُهُ مَعَ النِّيَامِ؟ أَيُّ صَدَقَةٍ لِمَنْ يَتَصَدَّقُ مِنْ مَالٍ خَبِيثٍ حَرَامٍ؟ أَيُّ صَلَاةٍ لِمَنْ يَعُدُّ الرَّكَعَاتِ، وَقَلْبُهُ غَافِلٌ عَنْ تَدَبُّرِ الْآيَاتِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَحْكَامِ، يُعَجِّلُ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، وَرُبَّمَا سَابَقَ الْإِمَامَ؟

فَيَا أَرْبَابَ الْجِدِّ، هَذِهِ أَوْقَاتُ الاهْتِمَامِ، وَيَا أَهْلَ الصِّدْقِ فِي الطَّلَبِ هَذِهِ أَوْقَاتُ الاغْتِنَامِ، وَيَا ذَوِي الْعَزَائِمِ، قَدْ دُعِيتُمْ إِلَى مَوَائِدِ الْإِكْرَامِ، مَا الَّذِي تَنْتَظِرُونَ وَقَدْ دَنَا الْخِتَامُ، وَقَدْ تَصَرَّمَتْ أَيَّامُهُ وَانْطَوَى النِّظَامُ؟

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كَانُوا ـ يَعْنِي السَّلَفَ الصَّالِحَ ـ يَدْعُونَ اللَّهَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ رَمَضَانَ، فَإِذَا بَلَغَهُمْ وَعَمِلُوا فِيهِ عَمَلًا، دَعَوُا اللَّهَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَنْ يَتَقَبَّلَهُ مِنْهُمْ، فَكُلُّ زَمَانِهِمْ رَمَضَانُ.

فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يُلِحَّ عَلَى اللَّهِ فِي دُعَائِهِ لِقَبُولِ أَعْمَالِهِ، وَيَخْتِمَ شَهْرَ رَمَضَانَ بِالتَّوْبَةِ وَالاسْتِغْفَارِ وَالذِّكْرِ، وَسُؤَالِ الْجَنَّةِ وَالاسْتِعَاذَةِ مِنَ النَّارِ، كَمَا أَمَرَ بِذَلِكَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ، وَكَما ثَبَتَ عَنِ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ أَنَّهُ قَالَ: «اسْتَكْثِرُوا فِيهِ مِنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ» فَمِنْهَا سُؤَالُ الْجَنَّةِ والاسْتِعَاذَةُ مِنَ النَّارِ، وَهِيَ مِنْ أَهَمِّ الدُّعَاءِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حَوْلَها نُدَنْدِنُ». وَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ: مَا عَرَضَتْ لِي دَعْوَةٌ إِلَّا صَرَفْتُهَا إِلَى الاسْتِعَاذَةِ مِنَ النَّارِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: «تَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَبِّكُمْ، فَإِنَّ لِلَّهِ نَفَحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَمَنْ أَصَابَتْهُ سَعِدَ سَعَادَةً لاَ يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا»، وَمِنْ أَعْظَمِ نَفَحَاتِهِ مُصَادَفَةُ سَاعَةِ الْإِجَابَةِ، يَسْأَلُ الْعَبْدُ فِيهَا الْجَنَّةَ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، فَيُجَابُ سُؤَالُهُ فَيَفُوزُ بِسَعَادَةِ الْأَبَدِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، وَقَالَ ﷻ: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

فَهَنِيئًا لِمَنْ فَازَ بِدَارِ السَّلامِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ كَانَ مَآلُهُ إِلَى الْجَحِيمِ وَالآلَامِ.

لَيسَ السَّعِيدُ الَّذِي دُنْيَاهُ تُسْعِدُهُ ... إِنَّ السَّعِيدَ الَّذِي يَنْجُو مِنَ النَّارِ

فَيَا عِبَادَ اللَّهِ، وَدِّعُوا شَهْرَكُمْ بِالزَّفَرَاتِ، وَأَسْبِلُوا لِفِرَاقِهِ الْعَبَرَاتِ، وَاسْتَوْدِعُوهُ عَمَلًا صَالِحًا يَشْهَدُ لَكُمْ بِهِ عِنْدَ عَالِمِ الْخَفِيَّاتِ. أَلَا إِنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ قَدْ دَنَا رَحِيلُهُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلُهُ.

إِخْوانِي: هَذَا شَهْرُ رَمَضَانَ قَدْ قُوِّضَتْ خِيَامُهُ، وَتَشَتَّتَ نِظَامُهُ، وَتَصَرَّمَتْ لَيَالِيهِ وَأَيَّامُهُ، فَابْكُوا عَلَيْهِ بِالْأَحْزَانِ وَوَدِّعُوهُ، وَأَجْرُوا لِأَجْلِ فِرَاقِهِ الدُّمُوعَ وَشَيِّعُوهُ، فَكَمْ مِنْ صَائِمٍ لَا يَصُومُ غَيْرَهُ، وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ لَا يَقُومُ بَعْدَهُ أَبَدًا.

فَيَا هَذَا وَدِّعْ شَهْرَكَ بِإِرْسَالِ الْعَبَرَاتِ، لَعَلَّكَ تُقَالُ مِنَ الْعَثَرَاتِ، وَشَيِّعْ بَقِيَّةَ شَهْرِكَ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، لَعَلَّكَ أَنْ يَحْصُلَ لَكَ الْقَبُولُ وَالإِجَابَةُ.

دَعِ الْبُكَاءَ عَلَى الْأَطْلَالِ وَالدَّارِ ... وَاذْكُرْ لِمَنْ بَانَ مِنْ خِلٍّ وَمِنْ جَارِ
وَاذْرِ الدُّمُوعَ نَحِيبًا وَابْكِ مِنْ أَسَفٍ ... عَلَى فِرَاقِ لَيَالٍ ذَاتِ أَنْوَارِ
عَلَى لَيَالٍ لِشَهْرِ الصَّوْمِ مَا جُعِلَتْ ... إِلَّا لِتَمْحِيصِ آثَامٍ وَأَوْزَارِ
يَا لَائِمِي فِي الْبُكَا زِدْنِي بِهِ كَلَفًا ... وَاسْمَعْ غَرِيبَ أَحَادِيثٍ وَأَخْبَارِ
مَا كَانَ أَحْسَنَنَا وَالشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ ... مِنَّا الْمُصَلِّى وَمِنَّا الْقَانِتُ الْقَارِي
وَفِي التَّرَاوِيحِ لِلرَّاحَاتِ جَامِعَةٌ ... فِيهَا الْمَصَابِيحُ تَزْهُو مِثْلَ أَزْهَارِ
شَهْرٌ بِهِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ الَّتِي شَرُفَتْ ... حَقًّا عَلَى كُلِّ شَهْرٍ ذَاتُ أَسْرَارِ
تَنَزَّلُ الرُّوحُ وَالْأَمْلَاكُ قَاطِبَةً ... بِإِذْنِ رَبٍّ غَفُورٍ خَالِقٍ بَارِي
شَهْرٌ بِهِ يُعْتِقُ اللَّهُ الْعُصَاةَ وَقَدْ ... أَشْفَوْا عَلَى جُرُفٍ مِنْ حِصَّةِ النَّارِ
فَابْكُوا عَلَى مَا مَضَى فِي الشَّهْرِ وَاغْتَنِمُوا ... مَا قَدْ بَقِيَ فَهُوَ حَقٌّ عَنْكُمُ جَارِي

فَلِلَّهِ دَرُّ أَقْوَامٍ بَادَرُوا الزَّمَانَ، وَتَغانَمُوا أَوْقَاتَ الْفَضَائِلِ وَالْغُفْرَانِ، وَوَدَّعُوا شَهْرَ رَمَضَانَ بِالْأَشْجَانِ، وَاسْتَغْرَقُوا أَوْقَاتَهُ بِالصِّيَامِ وَالْقِيَامِ وَالتَّهَجُّدِ بِالقُرْآنِ.

إِذَا رَأَيْتَهُمْ فِي الدُّجَى وَالنَّاسُ نَائِمُونَ، وَأَهْلُ الْبِطَالَةِ فِي لَذَّاتِهِمْ غَافِلُونَ، كَأَنَّ النَّارَ لَمْ تُخْلَقْ إِلَّا لَهُمْ، إِذَا تَذَكَّرُوا أَعْمَالَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ، فَهَذَا يَبْكِي وَيَنْدُبُ، وَهَذَا يَصْرُخُ مِنْ حَرِّ الْجَوَى وَدُمُوعُهُ تُسْكَبُ، وَهَذَا يَتَرَنَّمُ بِالْقُرْآنِ وَيَتَفَكَّرُ طَوِيلًا، وَهَذَا يُرَدِّدُ كَلَامَ مَوْلَاهُ وَالْقَلْبُ قَدِ انْفَطَرَ لِلَّهِ ذَلِيلًا، وَهَذَا قَدِ اتَّخَذَ الظَّلَامَ إِلَى مَوْلَاهُ سَبِيلًا، وَهَذَا يَتَفَكَّرُ فِي السَّابِقَةِ، وَهَذَا يَحْذَرُ وَيَخَافُ

مِنَ اللَّاحِقَةِ، قَدْ خَافَ مِنْ سُوءِ الْخِتَامِ وَرَاقَبَ مَوْلًى جَلِيلًا، وَهَذَا قَدْ تَدَرَّعَ الْأَحْزَانَ، وَهَذَا يَبْكِي بِالْعَوِيلِ وَالْأَشْجَانِ، وَهَذَا قَدِ اسْتَعَدَّ وَلَبِسَ الْأَكْفَانَ، لَمَّا عَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِأَوْطَانٍ، وَأَنَّ لِكُلِّ نَازِلٍ فِيهَا رَحِيلًا. فَمَا لَنَا لا نَتَّصِفُ بِهٰؤُلَاءِ الرِّجَالِ، وَمَا بَالُ أَسْمَاعِنَا لَا تُنْصِتُ إِلَى صَحِيحِ الْمَقَالِ، أَرَضِينَا بِالْفَانِي عَنِ الْبَاقِي بَدِيلًا؟ إِذَا أَكْمَلَ الصَّائِمُونَ صِيَامَ رَمَضَانَ وَقِيَامَهُ فَقَدْ وَفَّوْا مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَمَلِ، وَبَقِيَ مَا لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ وَهُوَ الْمَغْفِرَةُ.

فَيَا عِبَادَ اللَّهِ اخْتِمُوا شَهْرَ رَمَضَانَ بِالاسْتِغْفَارِ، فَإِنَّهُ يَرْفُو خَلَلَ التَّقْصِيرِ وَيَمْحُو الْأَوْزَارَ.

رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «الْغِيبَةُ تَخْرِقُ الصِّيَامَ وَالاسْتِغْفَارُ يُرَقِّعُهُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَجِيءَ بِصَوْمٍ مُرَقَّعٍ فَلْيَفْعَلْ».

وَعَنِ ابْنِ الْمُكَدِّرِ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ مَا لَمْ يَخْرِقْهَا» أَنَّ الْكَلَامَ السَّيِّءَ يَخْرِقُ هَذِهِ الْجُنَّةَ، وَالاسْتِغْفَارُ يُرَقِّعُ مَا تَخَرَّقَ مِنْهَا.

فَصِيَامُنَا أَيُّها الْإِخْوَانُ يَحْتَاجُ إِلَى الاسْتِغْفَارِ؛ لَعَلَّهُ يُرَقِّعُ مَا تَخَرَّقَ مِنْهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَنْفَعَ الاسْتِغْفَارِ مَا قَارَنَتْهُ التَّوْبَةُ، وَهِيَ حَلُّ عُقْدَةِ الْإِصْرَارِ. فَمَنِ اسْتَغْفَرَ بِلِسَانِهِ وَقَلْبُهُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ مَعْقُودٌ، وَعَزْمُهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْمَعَاصِي بَعْدَ الشَّهْرِ وَيَعُودَ، فَصَوْمُهُ عَلَيْهِ مَرْدُودٌ، وَبَابُ الْقَبُولِ عَنْهُ مَسْدُودٌ.

كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ الصَّالِحِ إِذَا صَلَّى صَلَاةً اسْتَغْفَرَ اللَّهَ مِنْ تَقْصِيرٍ فِيهَا، كَمَا يَسْتَغْفِرُ الْمُذْنِبُ مِنْ ذَنْبِهِ.

إِذَا كَانَ هَذَا حَالُ الْمُحْسِنِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ، فَكَيْفَ حَالُ الْمُسِيئِينَ مِثْلِنَا فِي عِبَادَاتِهِمْ؟ فَقُولُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ بِأَجْمَعِكُمْ: يَا رَبَّنَا ارْحَمْ مَنْ حَسَنَاتُهُ كُلُّهَا سَيِّئَاتٌ، وَطَاعَاتُهُ كُلُّهَا غَفَلاتٌ. نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْأَلُهُ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالْمُعَافَاةَ، وَنَسْأَلُهُ رِضْوَانَه وَالْجَنَّةَ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ سَخَطِهِ وَالنَّارِ.

فَيَنْبَغِي لَكَ أَيّهَا الْعَبْدُ أَن تَطْمَعَ فِي عَفْوِ اللَّهِ وَتَثِقَ بِهِ، خُصُوصًا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْعَفْوَ، وَالْعَفْوُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِعَفْوِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ».

قَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: لَوْ لَمْ يَكُنِ الْعَفْوُ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ لَمْ يَبْتَلِ بِالذَّنْبِ أَكْرَمَ النَّاسِ عَلَيْهِ، يُشِيرُ أَنَّهُ ابْتَلَى كَثِيرًا مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَحْبَابِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ لِيُعَامِلَهُمْ بِالْعَفْوِ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ الْعَفْوَ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ الصَّالِحِ: لَوْ عَلِمْتُ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَأَجْهَدْتُ نَفْسِي فِيهِ. فَرَأَى قَائِلًا يَقُولُ لَهُ فِي مَنَامِهِ: إِنَّكَ تُرِيدُ مَا لَا يَكُونُ. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَعْفُوَ وَيَغْفِرَ، وَإِنَّمَا أَحَبَّ أَنْ يَعْفُوَ لِيَكُونَ الْعِبَادُ كُلُّهُمْ تَحْتَ عَفْوِهِ وَلَا يُدِلُّ أَحَدٌ عَلَيْهِ مِنْهُمْ بِعَمَلٍ، فَاللَّهُ تَعَالَى عَفُوٌّ يُحِبُّ الْعَفْوَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ حَلِيمٌ يُحِبُّ الْحِلْمَ، لَمَّا عَرَفَ الْعَارِفُونَ بِجَلَالِهِ خَضَعُوا، وَلَمَّا سَمِعَ الْمُذْنِبُونَ بِعَفْوِهِ طَمِعُوا، مَا ثَمَّ إِلَّا عَفْوُ اللَّهِ أَوِ النَّارُ.

لَوْلَا طَمَعُ الْمُذْنِبِينَ فِي الْعَفْوِ لَاحْتَرَقَتْ قُلُوبُهُمْ بِالْيَأْسِ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَلَكِنْ إِذَا ذَكَرَتْ عَفْوَ اللَّهِ اسْتَرْوَحَتْ إِلَى بَرْدِ عَفْوِهِ.

كَانَ بَعْضُ الْمُتَقَدِّمِينَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ إِنَّ ذُنُوبِي قَدْ عَظُمَتْ فَجَلَّتْ عَنِ الصِّفَةِ، وَإِنَّهَا صَغِيرَةٌ فِي جَنْبِ عَفْوِكَ فَاعْفُ عَنِّي.

وَقَالَ آخَرُ مِنْهُمْ: جُرْمِي عَظِيمٌ وَعَفْوُكَ كَثِيرٌ فَاجْمَعْ بَيْنَ جُرْمِي وَعَفْوِكَ يَا كَرِيمُ.

قَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ: لَيْسَ بِعَارِفٍ مَنْ لَمْ يَكُنْ غَايَةَ أَمَلِهِ مِنَ اللَّهِ الْعَفْوَ، إِنْ كَانَتْ الرَّحْمَةُ لِلْمُحْسِنِينَ فَالْمُسِيءُ لَا يَيْأَسُ مِنْهَا، وَإِنْ تَكُنِ الْمَغْفِرَةُ مَكْتُوبَةً لِلْمُتَّقِينَ، فَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ غَيْرُ مَحْجُوبٍ عَنْهَا.

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي جَعَلْتُ رَجَائِي نَحْوَ بَابِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي، فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا
أَلَسْتَ الذِي غَذَّيْتَنِي وَكَفَلْتَنِي وَمَا زِلْتَ مَنَّانًا عَلَيَّ وَمُنْعِما
عَسَى مَنْ لَهُ الْإِحْسَانُ يَغْفِرُ زَلَّتِي وَيَسْتُرُ أَوْزَارِي وَمَا قَدْ تَقَدَّمَا
فَلِلَّهِ دَرُّ الْعَارِفِ النَّدْبِ إِنَّهُ تَسِحُّ لِفَرْطِ الْوَجْدِ أَجْفَانُهُ دَمَا
يُقِيمُ إِذَا مَا اللَّيْلُ مَدَّ ظَلَامَهُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ مَأْتَمَا
فَصِيحًا إِذَا مَا كَانَ فِي ذِكْرِ رَبِّهِ وَفِيمَا سِوَاهُ فِي الوَرَى كَانَ أَعْجَمَا
وَيَذْكُرُ أَيَّامًا مَضَتْ فِي شَبَابِهِ وَمَا كَانَ فِيهَا بِالْجَهَالَةِ أَجْرَمَا
فَصَارَ قَرِينَ الْهَمِّ طُولَ نَهَارِهِ وَيَخْدِمُ مَوْلَاهُ إِذَا اللَّيْلُ أَظْلَمَا
يَقُولُ حَبِيبِي أَنْتَ سُؤْلِي وَبُغْيَتِي كَفَى بِكَ لِلرَّاجِينَ سُؤْلًا وَمَغْنَمَا

وَدَاعُ شَهْرِ رَمَضَانَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَضَى بِالزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الدَّارِ، وَتَوَحَّدَ بِالْبَقَاءِ فَلَا يَعْتَرِي مُلْكَهُ زَوَالٌ وَلا إِدْبَارٌ. الْعَزِيزُ الَّذِي عَنَتِ الْوُجُوهُ لِعِزَّتِهِ، وَخَضَعَتِ الرِّقَابُ مِنْ سَطْوَتِهِ، وَانْدَكَّ الْجَبَلُ لِعِظَمِ هَيْبَتِهِ، وَصُعِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ مَخَافَتِهِ، وَانْطَفَأَتِ النَّارُ لِطَاعَتِهِ، وَرَعَدَتِ السَّمَاوَاتُ لِكَلِمَتِهِ، خَشْيَةً مِنْ صَوْلَةِ عِزِّهِ بِذُلٍّ وَانْكِسَارٍ. الْمُرْتَدِي بِالْكِبْرِيَاءِ الْمُتَّزِرُ بِالْعَظَمَةِ، الَّذِي اسْتَوَى فِي عِلْمِهِ الْجَهْرُ وَالْإِسْرَارُ، الْمَلِكُ الَّذِي كَتَبَ عَلَى هَذِهِ الْخَلِيقَةِ فَنَاءً وَزَوالًا، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا إِدْبَارًا وَإِقْبَالًا، لِيَدُلَّنا بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ لِكُلِّ نَازِلٍ رَحِيلًا وَانْتِقالًا، أَهَلَّ عَلَيْنَا شَهْرُ رَمَضَانَ، لِيُفِيضَ فِيهِ الْإِحْسَانَ، وَيَغْفِرَ فِيهِ الذُّنُوبَ وَالْعِصْيَانَ، وَيُضَاعِفَ فِيهِ أَعْمَالًا، فَمِنْ رَابِحٍ فِيهِ صَارَ شَاهِدًا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ خَاسِرٍ فِيهِ كَانَتْ حَيَاتُهُ عَلَيْهِ وَبَالًا.

فَسُبْحَانَهُ مِنْ إِلٰهٍ يُجِيبُ سُؤَالًا، وَيَبْلُغُ آمَالًا، وَيَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَالْأَوْزَارَ، الْحَيُّ الْمَعْرُوفُ بِدَلِيلِهِ، الْهَادِي إِلَى سَبِيلِهِ الصَّادِقُ فِي قِيلِهِ، الْمَشْكُورُ عَلَى

كَبِيرِ الإِنْعَامِ وَقَلِيلِهِ، الَّذِي تُسَبِّحُهُ الأَصْوَاتُ إِذَا عَجَّتْ وَالسَّحَائِبُ إِذَا ثَجَّتْ، وَالْمِيَاهُ إِذَا سَكَنَتْ أَوِ ارْتَجَّتْ، وَالْقُلُوبُ إِذَا صَبَرَتْ عَلَى الْبَلَايَا أَوْ ضَجَّتْ. رَافِعُ السَّمَاءِ وَبَانِيهَا وَسَاطِحُ الْأَرْضِ وَدَاحِيهَا، وَمُثَبِّتُهَا بِالْأَطْوَادِ فِي نَوَاحِيهَا، وَالْعَالِمُ بِمَا يَحْدُثُ فِي أَقَاصِيهَا وَأَدَانِيهَا ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ﴾.

أَحْمَدُهُ عَلَى فَضْلِهِ الشَّامِلِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى إِحْسَانِهِ الْكَامِلِ، وَأُومِنُ بِهِ إِيمَانَ مُخْلِصٍ مُعَامِلٍ، وَأَعْتَرِفُ لَهُ بِنِعَمٍ لَا أُحْصِيهَا.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً ظَهَرَ نُورُهَا وَلَاحَ، وَغَدَا بُرْهَانُهَا وَرَاحَ، وَأَشْرَقَ هُدَاهَا فِي الْمَسَاءِ وَالصَّبَاحِ، وَاكْتَسَبَ قَائِلُهَا شَرَفًا وَتِيهًا.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَالْحَقُّ دَائِرٌ، وَقَدَمُ الصَّوَابِ عَاثِرٌ، فَقَمَعَ الْبَاطِلَ بِالْحَقِّ الظَّاهِرِ، وَنَسَخَ ظُلُمَاتِ الْجَهَالَةِ بِنُورِ الْعِلْمِ الزَّاهِرِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ صَلَاةً تَمْتَدُّ عَلَى مَمَرِّ الْأَزْمَانِ وَتَوَالِيهَا، وَعَلَى أَزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ مِنَ الْعُيُوبِ، وَعَلَى التَّابِعِينَ لَهُمْ فِي إِخْلَاصِ الْأَعْمَالِ وَصَفَاءِ الْقُلُوبِ، مَا تَرَدَّدَتِ الشَّمْسُ بَيْنَ الطُّلُوعِ وَالْغُرُوبِ، وَاسْتَتَرَتِ النُّجُومُ وَبَدَا بَادِيهَا.

عِبَادَ اللَّهِ، تَدَبَّرُوا الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ، فَقَدْ دَلَّكُمْ عَلَى الْأَمْرِ الرَّشِيدِ، وَأَحْضِرُوا قُلُوبَكُمْ لِفَهْمِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَلَازِمُوا طَاعَةَ رَبِّكُمْ هَذَا شَأْنُ الْعَبِيدِ، وَاحْذَرُوا مِنْ غَضَبِهِ فَكَمْ قَصَمَ مِنْ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ أَيْنَ مَنْ بَنَى وَشَادَ وَطَوَّلَ، وَتَأَمَّرَ عَلَى النَّاسِ وَسَادَ فِي الْأَوَّلِ، وَظَنَّ جَهْلًا مِنْهُ أَنَّهُ لَا يَتَحَوَّلُ؟ هَيْهَاتَ عَادَ الزَّمَانُ عَلَيْهِمْ سَالِبًا مَا خَوَّلَ، فَسُقُوا إِذْ فَسَقُوا كَأْسًا عَلَى إِهْلَاكِهِمْ عَوَّلَ ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

فَيَا مَنْ أَنْذَرَهُ يَوْمُهُ وَأَمْسُهُ، وَحَادَثَهُ بِالْعِبَرِ قَمَرُهُ وَشَمْسُهُ، وَاسْتُلِبَ مِنْهُ

وَلَدُهُ وَأَخُوهُ وَعُرْسُهُ، وَهُوَ يَسْعَى إِلَى الْخَطَايَا مُشَمِّرًا وَقَدْ دَنَا رَمْسُهُ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾.

أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ مَسْئُولُ الزَّمَانِ، مَشْهُودٌ عَلَيْكَ يَوْمَ تَنْطِقُ الْأَرْكَانُ، مَحْفُوظٌ عَلَيْكَ يَوْمَ فَعَلْتَ فِي زَمَنِ الْإِمْكَانِ، مُحَاسَبٌ عَلَى خَطَوَاتِ الْقَدَمِ وَكَلِمَاتِ اللِّسَانِ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

فَيَا مَنْ يَرَى الْعِبَرَ بِعَيْنَيْهِ، وَيَسْمَعُ الْمَوَاعِظَ بِأُذُنَيْهِ، وَالنَّذِيرُ قَدْ وَصَلَ إِلَيْهِ، وَكَلِمَاتُهُ تُحْصَى عَلَيْهِ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

فَكَأَنَّكَ بِالْمَوْتِ وَقَدْ اخْتَطَفَكَ اخْتِطَافَ الْبَرْقِ، وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى دَفْعِهِ عَنْكَ بِمُلْكِ الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ، وَنَدِمْتَ عَلَى تَفْرِيطِكَ بَعْدَ اتِّسَاعِ الْخَرْقِ، وَتَأَسَّفْتَ عَلَى تَرْكِ الْأُولَى، وَالْأُخْرَى أَحَقُّ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

ثُمَّ تَرَحَّلْتَ مِنَ الْقُصُورِ إِلَى الْقُبُورِ، عَلَى حَائِلِ الْعِيدَانِ وَالظُّهُورِ، وَبَقِيتَ وَحِيدًا عَلَى مَمَرِّ الْعُصُورِ، كَالْأَسِيرِ مَحْصُورٌ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾.

فَحِينَئِذٍ أَعَادَ الْأَجْسَامَ مَنْ صَنَعَهَا، وَضَمَّ شَتَاتَهَا بِقُدْرَتِهِ وَجَمَعَهَا، وَنَادَى بِنَفْخَةِ الصُّورِ فَأَسْمَعَهَا ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ فَيَهْرُبُ مِنْكَ الْأَخُ وَيَنْسَى إِخَاءَكَ، وَيُعْرِضُ عَنْكَ الصَّدِيقُ وَيَرْفُضُ وَلَاءَكَ، وَيَتَجَافَاكَ الْحَبِيبُ الْمُعَاشِرُ صَبَاحَكَ وَمَسَاءَكَ، وَتَلْقَى مِنَ الْهَوْلِ كُلَّ مَا أَزْعَجَكَ وَسَاءَكَ، فَتَنْسَى أَوْلَادَكَ وَتَنْسَى نِسَاءَكَ ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

وَتَجْرِي دُمُوعُ الْأَسَفِ وَابِلًا وَرَذَاذًا، وَتَتَقَطَّعُ الْأَكْبَادُ مِنَ الْحَسَرَاتِ أَفْلَاذًا، وَيَهُبُّ لَهِيبُ النَّارِ عَلَى الْفُجَّارِ فَيَجْعَلُهُمْ جُذَاذًا، وَلَا يَجِدُ الْعَاصِي مَلْجَأً وَلَا مَلَاذًا ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾.

فَيُجَازَى الْعَبْدُ بِفِعْلِهِ وَلَا يُظْلَمُ، وَيَتَحَسَّرُ الْغَافِلُ عَلَى مَا جَنَى وَيَنْدَمُ، وَتَسِيلُ الدُّمُوعُ عَلَى الْأَجْفَانِ كَأَنَّهَا جَرَتْ عَنْ دَمٍ أَوْ عَنْدَمٍ، وَيَأْمُرُ الْمَوْلَى بِأَخْذِ الْعُصَاةِ وَيَتَقَدَّمُ ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾.

وَتَقُومُ الزَّبَانِيَةُ إِلَى الْفُجَّارِ وَتَتَبَادَرُ، وَتَسُوقُهُمْ سَوْقًا عَنِيفًا وَالدَّمْعُ يَتَحَادَرُ، وَتَثِبُ النَّارُ عَلَى الْفُجَّارِ وُثُوبَ اللَّيْثِ إِذَا غَضِبَ وَشَاجَرَ، فَيَذِلُّ عِنْدَ زَفِيرِهَا كُلُّ مَنْ عَزَّ وَفَاخَرَ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾.

وَيُنْصَبُ الصِّرَاطُ فِي أَصْعَبِ الْأَمَاكِنِ، وَتَنْزَعِجُ لِوَضْعِ الْمِيزَانِ الْقُلُوبُ السَّوَاكِنُ، وَيَقَعُ الْخِصَامُ بَيْنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ فِي أَعْجَبِ الْأَمَاكِنِ ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾.

فَيَقُولُ الْحَقُّ: قَدْ أَزَلْتُ الْمَطْلَ وَاللَّيَّ، وَفَصْلُ هَذَا الْأَمْرِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَانْتِصَافُ الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ عَلَيَّ ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾.

أَمَا أَنْذَرْتُكُمْ فِيمَا مَضَى مِنَ الزَّمَانِ؟ أَمَا حَذَّرْتُكُمْ عَوَاقِبَ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ؟ أَمَا أَمَرْتُكُمْ بِتَجَنُّبِ الْإِجْرَامِ؟ أَمَا أَمَرْتُكُمْ بِأَخْذِ الْحَلَالِ وَاجْتِنَابِ الْحَرَامِ؟ أَمَا وَعَدْتُكُمْ بِهَذَا الْيَوْمِ فِي سَالِفِ الْأَيَّامِ ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

فَيَا لِهَذَا الْقَوْلِ الْمَهُولِ، الَّذِي يَحَارُ فِيهِ الْعَاقِلُ وَالْجَهُولُ، وَتَشْخَصُ الْأَبْصَارُ وَتَذْهَلُ الْعُقُولُ ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

فَذَلِكَ يَوْمُ ثُبُورِ الْمُنَافِقِينَ، وَسُرُورِ الْمُوَافِقِينَ، وَسَلَامَةِ الصَّادِقِينَ، وَفَوْزِ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ قَدِ انْطَبَقَتْ عَلَى الْفَاسِقِينَ ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾.

فَيَا عَثْرَةَ الْعَاصِينَ لَقَدْ صَعُبَ تَلَافِيهَا، وَيَا حَبْرَةَ الْمُخْلِصِينَ، لَقَدْ تَكَامَلَ صَافِيهَا، إِذَا دَخَلُوا جَنَّةً أَشْرَقَ ظَاهِرُهَا وَاسْتَنَارَ خَافِيهَا ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

فَانْظُرُوا عِبَادَ اللَّهِ فَرْقَ مَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ بِحُضُورِ قَلْبٍ، وَاسْتَلِبُوا زَمَنَ الصِّحَّةِ بِفِعْلِ الْخَيْرِ أَيَّمَا سَلْبٍ، فَاللَّذَاتُ تَفْنَى وَيَبْقَى الْعَارُ وَالثَّلْبُ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

فَيَا مَنْ لَا يَنْتَفِعُ بِوَعْظٍ وَلَا مَلام، يَا مَنْ قَيَّدَتْهُ الْمَعَاصِي وَالآثَامُ، وَيْحَكَ أَمَا يُؤْلِمُكَ الْهِجْرَانُ، أَمَا يُزْعِجُكَ الْإِبْعَادُ وَالْحِرْمَانُ؟ أَمَا هَذِهِ آخِرُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ؟ وَلَمْ تَبِنْ لَكَ الْأَرْبَاحُ مِنَ الْخُسْرَانِ، فَإِنْ كُنْتَ مَقْبُولًا فَهَنِيئًا لَكَ الْغُفْرَانَ، وَإِنْ كُنْتَ مَطْرُودًا فَأَحْسَنَ اللَّهُ عَزَاءَكَ بِالْحِرْمَانِ، خَيْبَةٌ لَكَ إِذَا سَبَقَكَ السَّادَةُ، وَنَجَا الْمُجْتَهِدُونَ وَأَنْتَ عَلَى الْعَادَةِ، وَشَمَّرَ السَّابِقُونَ وَأَنْتَ قَرِينُ الْوِسَادَةِ.

يَا عَجَبًا؟ أَيْنَ تَلَهُّفُكَ عَلَى الْفِرَاقِ، وَأَيْنَ الْحُرَقُ؟ أَمَا لَكَ هِمَّةٌ تَقُودُكَ إِلَى سَبْقِ مَنْ سَبَقَ؟

اعْلَمُوا رَحِمَكُمْ اللَّهُ أَنَّ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ لَيْلَةُ الْوَدَاعِ لِشَهْرِكُمْ الَّذِي شَرَّفَهُ اللَّهُ وَعَظَّمَهُ، وَرَفَعَ قَدْرَهُ وَكَرَّمَهُ، بِالصِّيَامِ وَالْقِيَامِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَنُزُولِ الرَّحْمَةِ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَالرِّضْوَانِ، جَعَلَهُ اللَّهُ مِصْبَاحَ الْعَامِ، وَوَاسِطَةَ النِّظَامِ، وَشَرَّفَ قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ الْمُشْرِقَةِ بِأَنْوَارِ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ كِتَابَهُ، وَفَتَحَ فِيهِ لِلتَّائِبِينَ أَبْوَابَهُ، فَلَا دُعَاءَ فِيهِ إِلَّا مَسْمُوعٌ، وَلَا خَيْرَ إِلَّا مَجْمُوعٌ، وَلَا ضُرَّ إِلَّا مَدْفُوعٌ، وَلَا عَمَلَ إِلَّا مَرْفُوعٌ، الظَّافِرُ الْمَيْمُونُ مَنِ اغْتَنَمَ أَوْقَاتَهُ، وَالْخَاسِرُ الْمَغْبُونُ مَنْ أَهْمَلَهُ فَفَاتَهُ.

شَهْرٌ جَعَلَهُ اللَّهُ لِذُنُوبِكُمْ تَطْهِيرًا، وَلِسَيِّئَاتِكُمْ تَكْفِيرًا، وَلِمَنْ أَحْسَنَ مِنْكُمْ صُحْبَتَهُ ذَخِيرَةً وَنُورًا، وَلِمَنْ وَفَّى بِشَرْطِهِ وَقَامَ بِحَقِّهِ فَرَحًا وَسُرُورًا.

شَهْرٌ تَوَرَّعَ فِيهِ أَهْلُ الْفِسْقِ وَالْفَسَادِ، وَازْدَادَ فِيهِ مِنَ الرَّغْبَةِ إِلَى اللَّهِ أَهْلُ الْجِدِّ وَالاجْتِهَادِ.

شَهْرُ عِمَارَاتِ الْقُلُوبِ، وَكَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ، وَاخْتِصَاصِ الْمَسَاجِدِ بِالازْدِحَامِ وَالتَّحَاشُدِ، وَهُبُوطِ الْأَمْلَاكِ، بِصِكَاكِ الْعِتْقِ وَالْفِكَاكِ.

شَهْرٌ فِيهِ الْمَسَاجِدُ تُعْمَرُ، وَالْمَصَابِيحُ تُزْهَرُ، وَالآيَاتُ تُذْكَرُ، وَالْقُلُوبُ تُجْبَرُ، وَالذُّنُوبُ تُغْفَرُ.

شَهْرٌ تُشْرِقُ فِيهِ المَسَاجِدُ بِالْأَنْوَارِ، وَتُكْثِرُ الْمَلاَئِكَةُ لِصُوَّامِهِ مِنَ الاسْتِغْفَارِ، وَيُعْتِقُ فِيهِ الْجَبَّارُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ عِنْدَ الإِفْطَارِ، سِتَّمَائَةِ أَلْفِ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ، وَتَنْزِلُ فِيهِ الْبَرَكَاتُ، وَتَعْظُمُ فِيهِ الصَّدَقَاتُ، وَتُكَفَّرُ فِيهِ السَّيِّئَاتُ، وَتُقَالُ فِيهِ الْعَثَرَاتُ، وَتُدْفَعُ فِيهِ النَّكَبَاتُ، وَتُرْفَعُ فِيهِ الدَّرَجَاتُ، وَتُرْحَمُ الْعَبَرَاتُ، وَتُنَادِي فِيهِ الْحُورُ الْحِسَانُ مِنَ الْجَنَّاتِ، هَنِيئًا لَكُمْ يَا مَعْشَرَ الصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ، وَالْقَائِمِينَ وَالْقَائِمَاتِ، بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ الْخَيْرَاتِ، لَقَدْ غَمَرَتْكُمُ الْبَرَكَاتُ، وَاسْتَبْشَرَ بِكُمْ أَهْلُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ.

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَنِ الْمَقْبُولُ مِنَّا فَنُهَنِّيَهِ بِحُسْنِ عَمَلِهِ، أَمْ لَيْتَ شِعْرِي مَنِ الْمَطْرُودُ مِنَّا فَنُعَزِّيَهُ بِسُوءِ عَمَلِهِ.

فَيَا أَيُّهَا الْمَقْبُولُ هَنِيئًا لَكَ بِثَوَابِ اللَّهِ ﷻ وَرِضْوَانِهِ، وَرَحْمَتِهِ وَغُفْرَانِهِ، وَقَبُولِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَعَفْوِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَخُلُودِهِ فِي دَارِ أَمَانِهِ.

وَيَا أَيُّهَا الْمَطْرُودُ بِإِصْرَارِهِ وَطُغْيَانِهِ، وَظُلْمِهِ وَعُدْوَانِهِ، وَغَفْلَتِهِ وَخُسْرَانِهِ، وَتَمَادِيهِ وَعِصْيَانِهِ، لَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيبَتُكَ بِغَضَبِ اللَّهِ وَهَوَانِهِ.

فَأَيْنَ مُقْلَتُكَ الْبَاكِيَةُ؟ وَأَيْنَ دَمْعَتُكَ الْجَارِيَةُ؟

وَأَيْنَ زَفْرَتُكَ الرَّائِحَةُ الْغَادِيَةُ؟ لأَيِّ يَوْمٍ أَخَّرْتَ تَوْبَتَكَ؟ وَلِأَيِّ عَامٍ ادَّخَرْتَ عُدَّتَكَ؟ إِلَى عَامٍ قَابِلٍ وَحَوْلٍ حَائِلٍ؟ كَلَّا فَمَا إِلَيْكَ مُدَّةُ الْأَعْمَارِ؟ وَلَا مَعْرِفَةُ الْمِقْدَارِ؟ فَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلٍ أَمَّلَ بُلُوغَهُ فَلَمْ يَبْلُغْهُ؟ وَكَمْ مِنْ مُدْرِكٍ لَهُ لَمْ يَخْتِمْهُ؟ وَكَمْ مَنْ أَعَدَّ طِيبًا لِعِيدِهِ، جُعِلَ فِي تَلْحِيدِهِ؟ وَثِيَابًا لِتَزْيِينِهِ؟ صَارَتْ لِتَكْفِينِهِ، وَمُتَأَهِّبًا لِفِطْرِهِ، صَارَ مُرْتَهَنًا فِي قَبْرِهِ، وَكَمْ مَنْ لَا يَصُومُ بَعْدَهُ سِوَاهُ، وَهُوَ يَطْمَعُ فِي غَيْرِهِ أَنْ يَرَاهُ، فَاحْمَدُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ عَلَى بُلُوغِ اخْتِتَامِهِ، وَسَلُوهُ قَبُولَ صِيَامِهِ وَقِيَامِهِ، وَرَاقِبُوهُ لِأَدَاءِ حُقُوقِهِ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ.

وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنَّكُمْ فَارَقْتُمْ شَهْرًا عَظِيمًا مُتَفَضِّلًا كَرِيمًا.

أَيْنَ الصُّوَّامُ الْقُوَّامُ، الْمُوَافِقُونَ لَكُمْ فِي سَالِفِ الْأَعْوَامِ؟

وَأَيْنَ مَنْ كَانُوا مَعَكُمْ لَيَالِيَ شَهْرِ رَمَضَانَ شَاهِدِينَ، وَفِي كُلِّ حَقٍّ لِلَّهِ مُعَامِلِينَ، مِنَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، وَالْإِخْوَةِ وَالْأَخَوَاتِ، وَالْجِيرَةِ وَالْقَرَابَاتِ، أَتَاهُمْ وَاللَّهِ هَادِمُ اللَّذَّاتِ، وَقَاطِعُ الشَّهَوَاتِ، وَمُفَرِّقُ الْجَمَاعَاتِ، فَأَخْلَى مِنْهُمُ الْمَشَاهِدَ، وَعَطَّلَ مِنْهُمُ الْمَسَاجِدَ، تَرَاهُمْ فِي بُطُونِ الْأَلْحَادِ صَرْعَى، لَا يَجِدُونَ لِمَا هُمْ فِيهِ دَفْعًا، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، يَنْتَظِرُونَ يَوْمًا الْأُمَمُ فِيهِ إِلَى رَبِّهِمْ تُدْعَى، وَالْخَلَائِقُ تُحْشَرُ إِلَى الْمَوْقِفِ وَتَسْعَى، وَالْفَرَائِصُ تُرْعَدُ مِنْ هَوْلِ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ جَمْعًا. وَالْقُلُوبُ تَتَصَدَّعُ مِنَ الْحِسَابِ صَدْعًا ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾.

فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَءًا مَهَّدَ فِيهِ لِنَفْسِهِ، قَبْلَ حُلُولِ رَمْسِهِ، وَاشْتَغَلَ بِيَوْمِهِ عَنْ غَدِهِ وَأَمْسِهِ، وَتَزَوَّدَ مِنْ بَقِيَّةِ زَادِهِ فَفِي نَفَادِهِ نَفَادُ عُمْرِهِ، وَأَظْهَرَ لِفِرَاقِ شَهْرِهِ جَزَعَهُ، وَسَلَّمَ عَلَى شَهْرِهِ وَوَدَّعَهُ.

وَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرَ رَمَضَانَ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرَ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرَ التَّجَاوُزِ وَالْغُفْرَانِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرَ الْبَرَكَةِ وَالْإِحْسَانِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرَ التُّحَفِ وَالرِّضْوَانِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرَ الْأَمَانِ، كُنْتَ لِلْعَاصِينَ حَبْسًا، وَلِلْمُتَّقِينِ أُنْسًا، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرَ النُّسْكِ وَالتَّعَبُّدِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرَ الصِّيَامِ وَالتَّهَجُّدِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرَ التَّرَاوِيحِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرَ الْأَنْوَارِ وَالْمَصَابِيحِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرَ الْمَتْجَرِ الرَّبِيحِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرًا يُتْرَكُ فِيهِ الْقَبِيحُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أُنْسَ الْعَارِفِينَ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا فَخْرَ الْوَاصِفِينَ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا نُورَ الْوَامِقِينَ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَوْضَةَ الْعَابِدِينَ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرًا يَتَسَابَقُ فِيهِ الْمُتَّقُونَ، السَّلَامُ عَلَيْكَ مِنْ فُؤَادٍ لِفِرَاقِكَ مَحْزُونٍ.

فَشَهْرُ رَمَضَانَ شَهْرُ الصَّفَاءِ، وَشَهْرُ الْوَفَاءِ، وَشَهْرُ الْمُعَامَلَةِ، وَشَهْرُ

الذَّاكِرِينَ، وَشَهْرُ الصَّابِرِينَ، وَشَهْرُ الصَّادِقِينَ، فَإِذَا لَمْ يُؤَثِّرْ فِي إِصْلَاحِ قَلْبِكَ وَإِقْلَاعِكَ عَنْ مَعَاصِي رَبِّكَ، وَمُجَانَبَةِ أَهْلِ الشَّقَاءِ وَالْجَرَائِمِ، فَمَا الَّذِي يُؤَثِّرُ فِي قَلْبِكَ؟ فَأَيُّ خَيْرٍ يُرْجَى فِيكَ؟ وَأَيُّ بَقِيَّةٍ فِيكَ؟ وَأَيُّ فَلَاحٍ يُتَرَقَّبُ مِنْكَ، وَأَيُّ مُصِيبَةٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْمُصِيبَةِ؟ بِمُضِيِّ شَهْرٍ أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَأَوْسَطُهُ مَغْفِرَةٌ، وَآخِرُهُ عِتْقٌ مِنَ النَّارِ، وَلَا يَكُونُ لَكَ حَظٌّ مِنْ نَفَحَاتِ رَبِّ الْعُصَاةِ وَالْأَبْرَارِ؟ فَهَلْ كَانَ ذَلِكَ إِلَّا لِبُعْدِكَ مِنَ الرَّحْمٰنِ، وَكَوْنِكَ مِنْ أَهْلِ الطُّغْيَانِ، وَمُوَافِقِي الشَّيْطَانِ، وَهِجْرَانِكَ لِطَاعَةِ مَنْ بِيَدِهِ الضَّرَرُ وَالْإِحْسَانُ؟ فَتَنَبَّهْ يَا مِسْكِينُ لِمَا حَلَّ بِكَ، وَاسْتَيْقِظْ مِنْ رَقْدَتِكَ وَغَفْلَتِكَ، وَشَيِّعْ بَقِيَّةَ شَهْرِكَ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، وَالْاسْتِغْفَارِ وَالطَّاعَةِ، لَعَلَّكَ تَكُونُ مِمَّنْ تَنَالُهُ الرَّحْمَةُ وَالرَّأْفَةُ، وَوَدِّعْ شَهْرَكَ بِإِسْبَالِ الْعَبَرَاتِ، وَابْكِ عَلَى نَفْسِكَ بِالْعَوِيلِ وَالْوَيْلِ وَالنِّيَاحَاتِ.

وَالْعَامِلُ إِنَّمَا يُوَفَّى أَجْرَهُ عِنْدَ فَرَاغِ عَمَلِهِ، وَقَدْ فَرَغْنَا مِنَ الْعَمَلِ.

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي، أَمَقْبُولٌ صِيَامُنَا وَقِيَامُنَا، أَمْ مَضْرُوبٌ بِهِمَا وُجُوهُنَا؟

يَا لَيْتَ شِعْرِي، هَلْ تَعُودُ أَيَّامُكَ أَوْ لَا تَعُودُ؟ وَيَا لَيْتَنَا تَحَقَّقْنَا مَا تَشْهَدُ عَلَيْنَا يَوْمَ الْوُرُودِ، وَيَا لَيْتَنَا عَلِمْنَا مَنِ الْمَقْبُولُ مِنَّا وَمَنِ الْمَطْرُودُ؟ وَهَلْ إِذَا عَادَتْ أَيَّامُكَ فَنَحْنُ فِي الْوُجُودِ، وَنُنَافِسُ أَهْلَ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ؟ أَمْ قَدْ انْطَبَقَتْ عَلَيْنَا اللُّحُودُ، وَمَزَّقَنَا الْبِلَى وَالدُّودُ، فَيَا أَسَفًا لِتَصَرُّمِكَ يَا شَهْرَ السُّعُودِ.

سَلَامٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ كُلَّ أَوَانِ ... عَلَى خَيْرِ شَهْرٍ قَدْ مَضَى وَزَمَانِ

سَلَامٌ عَلَى شَهْرِ الصِّيَامِ، فَإِنَّهُ ... أَمَانٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ كُلُّ أَمَانِ

لَئِنْ كُنْتَ يا شَهْرَ الصِّيَامِ مُنَوِّرًا ... لِكُلِّ فُؤَادٍ مُظْلِمٍ وَجَنَانِ

تَعَبَّدَ فِيكَ الْمُسْلِمُونَ، فَأَقْبَلُوا ... عَلَى ذِكْرِ تَسْبِيحٍ وَدَرْسِ قُرَآنِ

فَيَا أَسَفًا حُزْنًا عَلَيْكَ وَحُرْقَةً ... تَزِيدُ عَلَى الْأَعْوَامِ كُلَّ أَوَانِ

فَيَا أَيُّها الشَّهْرُ الْمُبَارَكُ، كُنْ لَنَا ... شَفِيعًا إِلَى دَيَّانِ كُلِّ مُدَانِ

إِذَا نَشَرَ الْأَمْوَاتَ لِلْحَشْرِ رَبُّنَا ... وَنَادَى الْمُنَادِي هَاتِفًا بِفُلَانِ
وَقَالَ لَنَا الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ ... هَلُمُّوا إِلَيْنَا أَيُّهَا الثَّقَلَانِ
هُنَالِكَ تُعْطَى كُلُّ نَفْسٍ كِتَابَهَا ... فَوَيْلٌ لِمَنْ زَلَّتْ بِهِ الْقَدَمَانِ
تَرَحَّلْتَ يَا شَهْرَ الصِّيَامِ بِصَوْمِنَا ... وَقَدْ كُنْتَ أَنْوَارًا بِكُلِّ مَكَانِ
لَئِنْ فَنِيَتْ أَيَّامُكَ الزُّهْرُ بَغْتَةً ... فَمَا الْحُزْنُ مِنْ قَلْبِي عَلَيْكَ بِفَانِ
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ، كُنْ شَاهِدًا لَنَا ... بِخَيْرٍ، رَعَاكَ اللَّهُ مِنْ رَمَضَانِ

فَيا شَهْرَنا غَيْرَ مُوَدَّعٍ وَدَّعْنَاكَ، وَغَيْرَ مَقْلِيٍّ فارَقْناكَ. كانَ نَهارُكَ صَدَقَةً وَصِيَامًا، ولَيْلُكَ قِرَاءَةً وَقِيامًا، فَعَلَيْكَ مِنَّا تَحِيَّةً وَسَلَامًا، أَتُراكَ تَعُودُ بَعْدَهَا عَلَيْنَا، أَوْ يُدْرِكُنَا الْمَنُونُ فَلَا تَؤُولُ إِلَيْنَا؟ مَصَابِيحُنَا فِيكَ مَشْهُورَةٌ، وَمَسَاجِدُنَا فِيكَ مَعْمُورةٌ. فالْآنَ تَنْطَفِئُ الْمَصَابِيحُ، وَتَنْقَطِعُ التَّرَاوِيحُ، وَنَرْجِعُ إِلَى الْعَادَةِ، وَنُفَارِقُ شَهْرَ الْعِبَادَةِ.

شَهْرَ رَمَضَانَ تَرَفَّقْ. دُمُوعُ الْمُحِبِّينَ تَدَفَّقُ. قُلُوبُهُمْ مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ تَشَقَّقُ، عَسَى وَقْفَةٌ لِلْوَدَاعِ تُطْفِيءُ مِنْ نارِ الشَّوْقِ مَا أَحْرَقَ. عَسَى سَاعَةُ تَوْبَةٍ وَإِقْلَاعٍ تَرْفُو مِنَ الصِّيَامِ كُلَّ مَا تَخَرَّقَ. عَسَى مُنْقَطِعٌ عَنْ رَكْبِ الْمَقْبُولِينَ يَلْحَقُ. عَسَى أَسِيرُ الْأَوْزَارِ يُطْلَقُ. عَسَى مَنِ اسْتَوْجَبَ النَّارَ يُعْتَقُ.

عَسَى وَعَسَى مِنْ قَبْلِ وَقْتِ التَّفَرُّقِ ... إِلَى كُلِّ مَا نَرْجُو مِنَ الْخَيْرِ نَلْتَقِي
فَيُجْبَرُ مَكْسُورٌ وَيُقْبَلُ تائِبٌ ... وَيُعْتَقُ خَطَّاءٌ وَيُسْعَدُ مَنْ شَقِي

عِبَادَ اللَّهِ، مَنْ كانَ مَنَعَ نَفْسَهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنَ الْحَرَامِ، فَلْيَمْنَعْهَا، فِيمَا بَعْدَهُ مِنَ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، فَإِنَّ إِلٰهَ الشَّهْرَيْنِ وَاحِدٌ، وَهُوَ عَلَى الزَّمَانَيْنِ مُطَّلِعٌ وَشَاهِدٌ. جَزَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ عَلَى فِرَاقِ شَهْرِ الْبَرَكَةِ، وَأَجْزَلَ أَقْسَامَنَا وَأَقْسَامَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ الْمُشْتَرَكَةِ، وَبَارَكَ لَنَا وَلَكُمْ فِي بَقِيَّتِهِ، وَسَلَكَ بِنا وَبِكُمْ طَرِيقَ هِدَايَتِهِ، بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ.

اللَّهُمَّ وَأَهْلَ الْقُبُورِ رَهَائِنُ ذُنُوبٍ لَا يُطْلَقُونَ، وَأَسَارَى وَحْشَةٍ لَا يُفَكُّونَ.

وَغُرَباءُ سَفَرٍ لَا يُنْتَظَرُونَ. مَحَتْ دَارِسَاتُ الثَّرَى مَحَاسِنَ وَجُوهِهِمْ، وَجَاوَرَتْهُمُ الْهَوَامُ فِي مَلاحِدِ قُبُورِهِمْ. فَهُمْ جُمُودٌ لَا يَتَكَلَّمُونَ، وَجِيرَانُ قُرْبٍ لَا يَتَزَاوَرُونَ، وَسُكَانُ لحْدٍ إِلَى الْحَشْرِ لَا يَظْعَنُونَ، وَفِيهِمْ مُحْسِنُونَ وَمُسِيئُونَ وَمُقَصِّرُونَ وَمُجْتَهِدُونَ.

اللَّهُمَّ فَمَنْ كانَ مِنْهُمْ مَسْرُورًا فَزِدْهُ كَرَامَةً وَحُبُورًا، وَمَنْ كانَ مِنْهُمْ مَلْهُوفًا فَبَدِّلْ حُزْنَهُ فَرَحًا وَسُرُورًا.

اللَّهُمَّ وَتَعَطَّفْ عَلَى كَافَّةِ أَمْوَاتِ الْمُسْلِمِينَ الرَّاحِلِينَ، وَالْمُقِيمِينَ الْمُسْتَسْلِمينَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُبُورَهُمْ مَفائِضَ صَلَوَاتِكَ، وَمَقَارَّ هِبَاتِكَ، وَطُرُقَ إِحْسَانِكَ، وَمَجَارِيَ عَفْوِكَ وَغُفْرانِكَ، حَتَّى يَكُونُوا فِي بُطُونِ الْأَلْحَادِ مُطْمَئِنِّينَ، وَبِجُودِكَ وَكَرَمِكَ وَاثِقِينَ، وَإِلَى أَعْلَى دَرَجَاتِكَ سَابِقِينَ، واخْصُصْ بِذلِكَ الآبَاءَ والبَنِينَ، والإِخوةَ والأَقْرَبينَ، قَبْلَ أَنْ يَشْتَمِلَ الْهَدْمُ عَلى الْبِنَاءِ، وَالْكَدَرُ عَلَى الصَّفَاءِ، وَيَنْقَطِعَ مِنَ الْحَيَاةِ حَبْلُ الرَّجَاءِ، وَتَصِيرُ الْمَنَازِلُ تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى، وَقَبْلَ أَنْ يَصِيرَ الرِّبْحُ وَيْلًا، وَالْقَطْرُ سَيْلًا، والصُّبْحُ لَيْلًا، وَيَسْحَبَ الْمَوْتُ عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ذَيْلًا، وَقَبْلَ أَنْ يَقُولَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ: وَاشَيْبَتَاهُ، وَيَقُولَ الْكَهْلُ الْخَطِيرُ: وَاخَجْلَتاهُ، وَيَقُولَ الْمُذْنِبُ الْمُسِيءُ: وَاخَيْبَتَاهُ، وَيَقُولُ الْحَدَثُ الصَّغِيرُ: وَاحَسْرَتَاهُ. وَخَجِلُوا مِنْهُ وَأَشْفَقُوا، وَغَشِيَتْهُمُ النَّدَامَةُ وَخَتَمَ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ فَلَمْ يَنْطِقُوا، وَوَقَفُوا عَلَى عَمَلٍ نَكَّسَ الرُّؤُوسَ فَأَطْرَقُوا، وَعَايَنُوا مِنَ الْأَهْوَالِ مَا وَدُّوا مَعَهُ أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَقُوا.

اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ فِي سَابِقِ عِلْمِكَ أَنْ تَجْمَعَنَا فِي مِثْلِهِ فَبَارِكْ لَنَا فِيهِ، وإِنْ قَضَيْتَ بِقَطْعِ آجَالِنَا، وَمَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، فَأَحْسِنِ الْخِلَافَةَ عَلَى بَاقِينَا، وَأَوْسِعِ الرَّحْمَةَ عَلَى مَاضِينَا، وَعُمَّنَا جَمِيعًا بِرَحْمَتِكَ وَغُفْرَانِكَ، وَٱجْعَلِ ٱلْمَوْعِدَ بُحْبُوحَ جَنَّتِكَ وَرِضْوَانِكَ.

ٱللَّهُمَّ وَمَا قَسَمْتَ فِي هَذِهِ ٱللَّيْلَةِ مِنْ عِتْقٍ وَغُفْرَانٍ. وَرَحْمَةٍ وَرِضْوَانٍ، وعَفْوٍ وَٱمْتِنَانٍ، وَكَرَم وَإِحْسَانٍ، وَنَجَاةٍ مِنَ النِّيرَانِ، وَخُلُودٍ فِي نَعِيمِ الْجِنَانِ، فاجْعَلْ لَنَا مِنْهُ أَوْفَرَ ٱلْحَظِّ وَأَجْزَلَ ٱلْأَقْسَامِ، وَخُصَّنَا بِالْفَضْلِ وَٱلإِكْرَامِ.

ٱللَّهُمَّ فَكَمَا بَلَّغْتَنَا شَهْرَ رَمَضَانَ فَاجْعَلْ عَامَهُ عَلَيْنَا مِنْ أَبْرَكِ ٱلْأَعْوَامِ، وَأَيَّامَهُ مِنْ أَسْعَدِ الْأَيَّامِ، وَتَقَبَّلْ مِنَّا مَا قَدَّمْنَاهُ فِيهِ مِنَ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ. وَاغْفِرْ لَنَا مَا اقْتَرَفْنا فِيهِ مِنَ الآثَامِ، وَخَلِّصْنَا مِنْ مَظَالِمِ الْأَنَامِ، يَوْمَ لَا يُرْجَى فِيهِ سِوَاكَ يَا عَلَّامُ.

اللَّهُمَّ يَا عَالِمَ الْخَفِيَّاتِ، وَيَا دَافِعَ الْبَلِيَّاتِ، وَيَا كَاشِفَ الْكُرُبَاتِ، وَيَا مُجِيبَ الدَّعَوَاتِ، أَعْتِقْ رِقَابَنَا وَوَالِدَيْنَا وَوَالِدَيْهِمْ وَأَقْرِبَاءَنَا وَأَزْوَاجَنَا مِنَ النَّارِ، وَمَا فِيهَا مِنَ اللَّفَحَاتِ، وَارْفَعْ لَنَا بِصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ عِنْدَكَ الدَّرَجَاتِ، وانْفَعْنَا بِمَا صَرَّفْتَ فِي كِتَابِكَ مِنَ الآيَاتِ، وَكَفِّرْ بِتِلَاوَتِهِ عَنَّا السَّيِّئَاتِ، وَضَاعِفْ لَنَا الْحَسَنَاتِ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ والْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

مَجْلِسٌ فِي لَيْلَةِ عِيدِ الْفِطْرِ وَيَوْمِ الْفِطْرِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ مُوَفِّرِ الثَّوَابِ لِلأَحْبَابِ وَمُكَمِّلِ الْأَجْرِ، وَجَاعِلِ ظَلَامِ اللَّيْلِ نَسِيخَةَ الْفَجْرِ، الْمُحِيطِ عِلْمُهُ بِخَائِنَةِ الْأَعْيُنِ وَخَافِيَةِ الصَّدْرِ، وَمُعَلِّمِ ٱلإِنْسَانِ مَا لَمْ يَعْلَمْ بِهِ وَلَمْ يَدْرِ، وَٱلْمُتَعَالِي عَنْ إِدْرَاكِ خَوَاطِرِ ٱلنَّفْسِ وَهَوَاجِسِ ٱلْفِكْرِ، وَٱلْمُولِي رِزْقَهُ فَلَمْ يَنْسَ النَّمْلَ فِي الرَّمْلِ وَالْفَرْخَ فِي الْوَكْرِ، جَلَّ أَنْ تَنَالَهُ أَيْدِي الْحَوَادِثِ عَلَى مُرُورِ ٱلدَّهْرِ، وَتَقَدَّسَ أَنْ يَخْفَى عَلَيْهِ بَاطِنُ ٱلسِّرِّ وَظَاهِرُ ٱلْجَهْرِ، أَحْصَى عَدَدَ ٱلرَّمْلِ فِي الْفَيَافِي وَٱلْقَفْرِ، وَأَبْصَرَ فَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ دَبِيبُ ٱلذَّرِّ فِي الْبَرِّ، وَسَمِعَ فَلَمْ يَعْزُبْ عَنْ سَمْعِهِ دُعَاءُ الْمُضْطَرِّ، إِنْ أَسَرَّ أَوْ جَهَرَ، فَيَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى مِنَ ٱلسِّرِّ، وَيُعْطِي عَطَاءً لَا يُحِيطُ بِهِ كَثْرَةُ ٱلْعَدِّ وَٱلْحَصْرِ، وقَدَّرَ

الْمَقَادِيرَ فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى مُعِينٍ بِالْإِعَانَةِ وَالنَّصْرِ، وَأَجْرَى الْأَقْدَارَ كَمَا شَاءَ فِي سَاعَاتِ الْعَصْرِ.

فَسُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ بَيْنَ الْخَلَائِقِ - كَمَا أَرَادَ - أَسْبَابَ الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَخَصَّنَا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأُمَمِ بِشَهْرِ الصِّيَامِ وَالصَّبْرِ، وَغَسَلَ بِهِ ذُنُوبَ الصَّائِمِينَ كَغَسْلِ الثَّوْبِ بِماءِ الْقَطْرِ. فَلِلَّهِ الْحَمْدُ إِذْ رَزَقَنَا إِتْمَامَهُ وَأَنَالَنَا عِيدَ الْفِطْرِ.

أَحْمَدُهُ حَمْدَ مَنْ قَامَ بِوَاجِبِ الْحَمْدِ وَأَشْكُرُهُ وَقَدْ تَكَفَّلَ بِالْمَزِيدِ لِمَنْ شَكَرَ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً أَفُوزُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامِ مِنَ الْقَبْرِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ سَيِّدَ الْبَشَرِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ مَا دَارَتِ الْأَفْلَاكُ وَتَعَاقَبَ الدَّهْرُ. وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

رَوَى الطَّبَرَانِيُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي لَيْلَةِ عِيدِ الْفِطْرِ: «ٱللَّهُ أَكْبَرُ ٱللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، ٱللَّهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ».

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه، أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُهُ، وَعَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ يَقُولُهُ.

وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بِزَكَاةِ الْفِطْرِ عَلَى الْحُرِّ والْعَبْدِ، وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ بُرٍّ، طُهْرَةً لِلصَّائِمِ وَسَبَبًا لِقَبُولِ الْأَعْمَالِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ.

وَرُوِيَ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ مُعَلَّقٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يُرْفَعُ إِلَّا بِزَكَاةِ الْفِطْرِ» رَوَاهُ أَبُو حَفْصِ بْنُ شَاهِينَ فِي فَضَائِلِ رَمَضَانَ.

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِإِخْرَاجِ زَكَاةِ الفِطْرِ قَبْلَ خُرُوجِ النّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ».

وَقَدْ وَرَدَ التَّرْغِيبُ فِي إِحْيَاءِ لَيْلَتَيِ الْعِيدَيْنِ بالصَّلَاةِ وَالتَّهَجُّدِ. لَكِنْ مَحَلُّ ذَلِكَ فِي غَيْرِ جَماعَةٍ. وَفَائِدَةُ إِحْيَاءِ لَيْلَةِ عِيدِ الْفِطْرِ: أَنْ يَكُونَ خِتَامًا لِقِيَامِهِ، فَإِنْ كَانَ قِيَامًا تَامًّا كَانَ خِتَامُ الاجْتِهَادِ اجْتِهَادًا، وَإِنْ كَانَ مُفَرِّطًا فِيمَا مَضَى مِنْ قِيَامِهِ وَصِيَامِهِ كَانَ نَدَمًا عَلَى تَفْرِيطِهِ، فَلعَلَّهُ يُدْرِكُ اللِّحَاقَ بِمَنْ أُعْتِقَ فِيهِ.

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قامَ لَيْلَتَيِ الْعِيدَيْنِ مُحْتَسِباً لِلَّهِ لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ يَوْمَ تَمُوتُ الْقُلُوبُ» رَوَاهُ ابْنُ مَاجه.

ويُسْتَحَبُّ أَنْ يَأْكُلَ صُبْحَ الْعِيدِ ـ عِيدِ الْفِطْرِ ـ تَمَرَاتٍ وِتْرًا، يَأْكُلُها قَبْلَ الْخُرُوجِ إِلَى الْمُصَلَّى. فَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْإِفْطَارِ عَلَى تَمْرَةٍ أَوْ ثَلَاثٍ أَوْ خَمْسٍ. وَثَبَتَ فِي الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ ﷺ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَغْدُو يَوْمَ الْفِطْرِ حَتَّى يَأْكُلَ تَمرَاتٍ، وَأَنَّهُ يَأْكُلُهنَّ وِتْرًا».

وَعَنِ ابْن عَبَّاسٍ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: إِذَا كانَ يَوْمُ الْفِطْرِ هَبَطَتِ الْمَلَائِكَةُ إِلَى الْأَرْضِ، فَيَقِفُونَ عَلَى أَفْوَاهِ السِّكَكِ يُنَادُونَ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ جَمِيعُ مَنْ خَلَقَ اللَّهُ إِلَّا الْجِنَّ وَالإِنْسَ، يَقُولُونَ: يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ اخْرُجُوا إِلَى رَبٍّ كَرِيمٍ، يُعْطِي الْجَزِيلَ، وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ. فَإِذَا بَرَزُوا إِلَى مُصَلَّاهُمْ، يَقُولُ ٱللَّهُ ﷻ لِمَلَائِكَتِهِ: يَا مَلَائِكَتي، مَا جَزَاءُ الْأَجِيرِ إِذَا عَمِلَ عَمَلَهُ؟ فَيَقُولُونَ: إِلٰهَنَا وَسَيِّدَنَا أَنْ تُوفِيَهِ أَجْرَهُ، فَيَقُولُ: إِنِّي أُشْهِدُكمْ أَنِّي جَعَلْتُ ثَوَابَهُمْ مِنْ صِيَامِهِمْ وَقِيامِهِمْ رِضَائِي وَمَغْفِرَتِي. انْصَرِفُوا مَغْفُورًا لَكُمْ، قَدْ أَرْضَيْتُمُونِي وَرَضِيتُ عَنْكُمْ» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْبَيْهَقِيُّ وَسَلَمَةُ بْنُ شَبِيبٍ، فِي كِتَابِ فَضَائِلِ رَمَضَانَ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: إِذَا كانَ يَوْمُ الْفِطْرِ وَخَرَجَ النَّاسُ إِلَى الْجَبَّانِ: اطَّلَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: عِبَادِي، لِي صُمْتُمْ وَلِي قُمْتُمْ، ارْجِعُوا مَغْفُورًا لَكُمْ.

وَرُوِيَ عَنْ مُوَرِّقٍ الْعِجْلِيِّ أَنَّهُ قالَ لِبَعْضِ إِخْوَانِهِ فِي الْمُصَلَّى يَوْمَ الْفِطْرِ: يَرْجِعُ هَذَا ٱلْيَوْمَ قَوْمٌ كما وَلَدَتْهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ.

وَيُسْتَحَبُّ إِذَا غَدَا مِنْ طَرِيقٍ أَنْ يَرْجِعَ مِنْ أُخْرَى، يَعْنِي: إِذَا خَرَجَ إِلَى الْمُصَلَّى أَنْ يَرْجعَ مِنْ غَيْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي خَرَجَ مِنْهَا، لِحَدِيثِ جَابِرٍ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ عِيدٍ خَالَفَ الطَّرِيقَ».

وَاعْلَمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ قَدِ اخْتَلَفُوا فِي خُرُوجِ النِّسَاءِ إِلَى الْمُصَلَّى، فَبَعْضُهُمْ أَجَازَهُ وَرَخَّصَ فِيهِ، وَبَعْضُهُمْ مَنَعَهُ.

فَأَمَّا مَنْ أَجَازَهُ فَذَهَبَ إِلَى مَا رَوَتْ أُمُّ عَطِيَّةَ أَنَّها قَالَتْ: «أُمِرْنَا أَنْ نُخْرِجَ الْحُيَّضَ وَالْعَوَاتِقَ وَذَوَاتِ الْخُدُورِ، فَأَمَّا الْحُيَّضُ فَيَشْهَدُونَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَدَعْوَتَهُمْ وَيَعْتَزِلْنَ مُصَلَّاهُمْ» وَكَذٰلِكَ وَرَدَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ».

وَأَمَّا مَنْ مَنَعَهُ فَذَهَبَ إِلَى مَا رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّها قالَتْ: «لَوْ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَحْدَثَ النِّسَاءُ لَمَنَعَهُنَّ الْمَسْجِدَ، كَمَا صَنَعَتْ نِسَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَرُوِيَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ: «أَنَّهُ كَرِهَ الْخُرُوجَ لِلنِّسَاءِ إِلَى الْمُصَلَّى يَوْمَ الْعِيدِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا. وَرُوِيَ أَيْضًا عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ أَنَّهُ قَالَ: «أَكْرَهُ الْخُرُوجَ لِلنِّسَاءِ يَوْمَ الْعِيدِ إِلَى الْمُصَلَّى».

وَالْمَسْأَلَةُ فِيهَا تَفْصِيلٌ: فَإِنْ كانَتِ الْمَرْأَةُ إِذَا خَرَجَتْ إِلَى الْمُصَلَّى تَكُونُ شَعِثَةً عَلَيْهَا أَطْمَارُهَا وَتَصُونُ بَدَنَها عَنْ رُؤْيَةِ الْأَجَانِبِ، وَتَأْمَنُ الْفِتْنَةَ وَالْفُسَّاقَ فَإِنَّ لَها رُخْصَةً، لِحَدِيثِ أُمِّ عَطِيَّةَ.

وَإِنْ كانَ يَتَرَتَّبُ عَلى خُرُوجِ النِّسَاءِ مَفَاسِدُ، أَوْ تَخْرُجُ مُتَزَيِّنَةً، أَوْ لَا تَصُونُ بَدَنَها عَنِ النَّظَرِ، أَو تَكُونُ مُتَوَسِّعَةً فِي الْكَلامِ وَالْمَشْيِ فإنها تُمْنَعُ مِنَ الْخُروجِ، فإِنْ أَبَتِ الْخُرُوجَ عَلَى مَا يَنْبَغِي، فَلِوَلِيِّها مَنْعُهَا، فَإِنْ أَبَتْ أَدَّبَها ضَرْبًا، فَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَرْعِيهِ عَلَيْها وَ«كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُم مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

وَيَجِبُ غَضُّ الْبَصَرِ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي كُلِّ الزَّمَانِ عَمَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ، وَيَتَأَكَّدُ

غَضُّهُ فِي يَوْمِ الْعِيدِ. رُوِيَ عَنْ حَسَّانَ بْنِ أَبِي سِنَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّهُ خَرَجَ فِي يَوْمِ عِيدٍ، فَلَمَّا عَادَ قالَتْ لَهُ زَوْجَتُهُ: كَمْ مِنِ امْرَأَةٍ حَسْنَاءَ قَدْ رَأَيْتَ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا نَظَرْتُ مُنْذُ خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكِ إِلَّا فِي إِبْهَامِي إِلَى أَنْ رَجِعْتُ إِلَيْكِ.

وَكانَ الرَّبِيعُ بْنُ خَيْثَمَ مِنْ شِدَّةِ غَضِّهِ لِبَصَرِهِ وَإِطْرَاقِهِ يَظُنُّ النَّاسُ أَنَّهُ أَعْمَى.

وَرَوَى النُّعْمَانُ بْنُ سَعْدٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اتَّقِ النَّظْرَةَ بَعْدَ النَّظْرَةِ، فَإِنَّهَا سَهْمٌ مَسْمُومٌ، تُورِثُ الشَّهْوَةَ فِي الْقَلْبِ».

وَقَالَ عِيسَى عليه السلام: «النَّظْرَةُ تَزْرَعُ فِي الْقَلْبِ الشَّهْوَةَ. وَكَفَى بِهَا خَطِيئَةً».

وَعَنْ أَبِي الْأَذْيَانِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعالَى قالَ: كُنْتُ مَعَ أُسْتَاذِي أَبِي بَكْرٍ الدَّقَّاقِ فَمَرَّ حَدَثٌ فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ. فَرَآنِي أُسْتَاذِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، لَتَجِدَنَّ غِبَّهَا وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، فَبَقِيتُ عِشْرِينَ سَنَةً وَأَنَا أُرَاعِي ذَلِكَ الْغِبَّ، فَنِمْتُ لَيْلَةً وَأَنا مُتَفَكِّرٌ فِيهِ، فَأَصْبَحْتُ وَقَدْ نَسِيتُ الْقُرْآنَ. فَهَذِهِ عُقُوبَةُ النَّظْرَةِ فَكَيْفَ بِالَّذِي هُوَ أَبْلَغُ مِنْهَا؟

فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ والْعَافِيَةَ، وَالتَّوْفِيقَ لِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، إِنَّهُ جَوَّادٌ كَرِيمٌ.

رُؤِيَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ لَيْلَةَ عِيدٍ فِي فَلَاةٍ يَبْكِي عَلَى نَفْسِهِ وَيُنْشِدُ:

بِحُرْمَةِ غُرْبَتِي كَمْ ذَا الصُّدُودُ ... أَلَا تَعْطِفُ عَلَيَّ؟ أَلَا تَجُودُ؟

سُرُورُ الْعِيدِ قَدْ عَمَّ النَّوَاحِي ... وَحُزْنِي فِي ازْدِيادٍ لَا يَبِيدُ

فَإِنْ كُنْتُ اقْتَرَفْتُ خِلَالَ سُوءٍ ... فَعُذْرِي فِي الْهَوَى أَلَّا أَعُودُ

فَصْلٌ

قالَ اللَّهُ تَعالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

قالَ بَعْضُ السَّلَفِ ـ مِنْهُمْ عَطاءٌ وَقَتادَةُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ ـ: إِنَّها فِي زَكاةِ الْفِطْرِ نَزَلَتْ، وَفِي صَلَاةِ الْعِيدِ.

قالَ الْفَرَّاءُ: سُمِّيَ الْعِيدُ عِيدًا لِعَوْدِ السُّرُورِ فيهِ، لَكِنْ شَتَّانَ مَا بَيْنَ سُرورٍ وَسُرُورٍ. قَوْمٌ سُرورُهُمْ بِمَوْلَاهُمْ. وَنَعِيمُهُمْ وُقوفُهُمْ عَلَى بِسَاطِ نَجْوَاهُمْ ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ وَقَوْمٌ سُرُورُهُمْ بِدُنْيَاهُمُ البَاطِلَةِ، وَنَعِيمُهُمْ بِحُظُوظِهِمُ الزَّائِلَةِ. فَإِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ باتُوا لَيْلَةَ الْعِيدِ، وَرَقَدُوا مُنْتَظِرِينَ عِيدَهُمْ مُتَأَهِّبِينَ لَهُ، فاذْكُر الرُّقُودَ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ، وَإِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ صَبيحَةَ يَوْمِ الْعِيدِ وَقَدْ خَرَجُوا مِنْ دُورِهِمْ وَقُصُورِهِمْ مُخْتَلِفِي الْأَحْوَالِ، مُتَفَاوِتِي اللِّبَاسِ وَالْأَلْوَانِ كُلٌّ لَهُ زِيٌّ وَحِلْيَةٌ، وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَسْرُورٌ وَوَاحِدٌ مَغْمُومٌ، وَوَاحِدٌ رَاكِبٌ، وَآخَرُ مَاشٍ، وَوَاحِدٌ غَنِيٌّ، وَآخَرُ فَقِيرٌ، وَوَاحِدٌ فِي فَرَحِهِ، وَآخَرُ فِي تَرَحِهِ، فاذْكُرْ تَفاوُتَ أَهْلِ الْقِيَامَةِ، أَهْلُ الطَّاعَةِ مَسْرُورٌ، وَأَهْلُ الْمَعْصِيَةِ مَغْمُومٌ، الْمُتَّقِي رَاكِبٌ، وَالْمُجْرِمُ الْمُشْرِكُ مُتَعَثِّرٌ مَكْبُوبٌ عَلَى وَجْهِهِ مَسْحُوبٌ أَوْ مَاشٍ.

فَإِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ خَرَجُوا مِنَ الدُّورِ، فاذْكُرْ خُرُوجَ الْأَمْوَاتِ مِنَ الْأَجْدَاثِ يَوْمَ النُّشُورِ، وَإِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ مُتَشَكِّلَةٌ أَلْوَانُهُمْ هَذَا يَتَزَيَّنُ بِأَفْخَرِ ثِيابِهِ، وَآخَرُ حَزِينٌ لِأَجْلِ مُصَابِهِ، وَآخَرُ يَتَعَطَّرُ بِأَطْيَبِ الرَّوَائِحِ، وَآخَر يُسْمَعُ فِي دَارِهِ النَّوَائِحُ، وَهُمْ مَا بَيْنَ مَاشٍ وَرَاكِبٍ، وَمَصْحُوبٍ وَصَاحِبٍ، وَمَطْلُوبٍ وَطَالِبٍ، فَكَذَلِكَ يَخْرُجُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاحِدٌ يَأْتِي فَرِحًا مَسْرُورًا، وَآخَرُ يَدْعُو وَيْلًا وَثُبُورًا ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾.

وَإِذَا رَأَيْتَ أَنْوَاعَ الْخَلَائِقِ إِلَى ٱلْفَضَاءِ قَدْ بَرَزَتْ، وَٱلْأَعْلَامَ قَدْ نُشِرَتْ، فاذْكُرْ نَشْرَ الْأَعْلَامِ لِلسُّعَدَاءِ، إِذَا صَارُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ.

وَإِذَا رَأَيْتَ الخَلَائِقَ قَدِ اجْتَمَعَتْ، وَالصُّفُوفَ قَدِ اسْتَكْمَلَتْ، فَاذْكُرْ وُقُوفَ الخَلَائِقِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْجَبَّارِ، وَصُفُوفَ ٱلْأَبْرَارِ وَٱلْفُجَّارِ، بِيَوْمِ تَظْهَرُ فِيهِ ٱلْأَسْرَارُ، وَاذْكُرْ بِوُقُوفِهِمْ هَذَا ٱلْوُقُوفَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمَلِكِ الدَّيَّانِ، إِذَا شَخَصَتِ الْأَبْصَارُ وَأَصْغَتِ الْآذَانُ ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

وَإِذَا رَأَيْتَ تَفَرُّقَ النَّاسِ مِنَ الْمُصَلَّى كُلٌّ يَذْهَبُ إِلَى مَنْزِلِهِ وَمَأْوَاهُ، فَاذْكُرْ يَوْمَ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا عَنْ مَوْرِدِ الْقِيَامَةِ كُلٌّ إِلَى مَحَلِّهِ وَمَثْوَاهُ، لَيْسَ الطِّيبُ فِي الْعِيدَيْنِ أَنْ تَتَطَيَّبَ بِالْعُودِ، وَإِنَّما الطِّيبُ أَنْ تَتَطَيَّبَ فَلَا تَعُودُ، وَتَتَعَرَّى مِنْ لِبَاسِ السُّمْعَةِ وَالرِّيَاءِ، وَتَلْبَسَ ثِيَابَ الْوَرَعِ وَالْحَيَاءِ، وَتَتَطَيَّبَ بِطِيبِ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ، وَتَتَحَلَّى بِالْعِبَادَةِ، وَتَرْتَدِيَ بِالزَّهَادَةِ، وَتَخْرُجَ إِلَى الْمُصَلَّى خُرُوجَ وَجِلٍ مِنَ الرَّدِّ، وَتَمْشِيَ مَشْيَ خَجِلٍ مِنَ الصَّدِّ، وَتَخَافَ أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُكَ مَرْدُودَةً مَعْلُومَةً، وَطَاعَاتُكَ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ، وَتُكَبِّرَ تَكْبِيرَ مَنْ عَظَّمَ رَبَّهُ، وَتَصَاغَرَتْ عِنْدَهُ نَفْسُهُ وَتَذَكَّرَ ذَنْبَهُ، وَتَقِفَ فِي الصَّلَاةِ وُقُوفَ خَاشِعٍ، وَتَرْكَعَ رُكُوعَ خَاضِعٍ، وَتَسْجُدَ سُجُودَ طَامِعٍ، وَتَجْلِسَ لِسَمَاعِ الْخُطْبَةِ كَمَنْ أُحْضِرَ لِلْحِسَابِ، وَهُوَ يَنْظُرُ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ مِنَ الْخِطَابِ. وَإِلَّا فَمَا يَنْفَعُ التَّزَيُّنُ بِاللِّبَاسِ الْبِيضِ، وَالْقَلْبُ فِي هَمِّ الدُّنْيَا مَرِيضٌ؟ وَمَا يَفِيدُ التَّزَيُّنُ بِاللِّبَاسِ، وَلَمْ تَنْزِعْ رِدَاءَ الْإِلْبَاسِ؟

مَرَّ بَعْضُ الصَّالِحِينَ عَلَى شَبَابٍ يَلْعَبُونَ يَوْمَ الْفِطْرِ. فَقَالَ: يَا هٰؤُلَاءِ إِنْ كانَ صَوْمُكُمْ قَدْ قُبِلَ فَما هَذَا فِعْلَ الشَّاكِرِينَ، وَإِنْ كانَ صَوْمُكُمْ لَمْ يُقْبَلْ فَما هَذَا فِعْلَ الْمَحْزُونِينَ. فَوَقَعَ كَلَامُهُ فِي قُلُوبِهِمْ وَتَرَكُوا لَهْوَهُمْ.

دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ يَوْمَ عِيدٍ فَوَجَدَهُ يَأْكُلُ خُبْزًا خَشِنًا، فَقَالَ: «يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، يَوْمَ الْعِيدِ تَأْكُلُ خُبْزًا خَشِنًا؟ فَقَالَ: الْيَوْمَ عِيدُ مَنْ قُبِلَ صَوْمُهُ، وَشُكِرَ سَعْيُهُ، وَغُفِرَ ذَنْبُهُ،، ثُمَّ قالَ: الْيَوْمَ لنا عِيدٌ وَغَدًا لَنا عِيدٌ، وَكُلُّ يَوْمٍ لَا نَعْصِي اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ فَهُوَ عِيدٌ»:

قالُوا: غَدًا الْعِيدُ مَاذَا أَنْتَ لَابِسُهُ؟ ... فَقُلْتُ: خِلْعَةُ سَاقٍ جُبَّةٍ جَرَعَا
فَقْرٌ وَصَبْرٌ هُمَا ثَوْبَانِ تَحْتَهُمَا ... قَلْبٌ يَرَى أُلْفَةَ الْأَعْيَادِ وَالْجُمَعَا
أَوْلَى الْمَلَابِسِ أَنْ تَلْقَى الْحَبِيبَ بِهِ ... يَوْمَ الزِّيَارَةِ فِي الثَّوْبِ الَّذِي خَلَعَا
الدَّهْرُ مَا تَمَّ لِي إِنْ غِبْتَ يَا أَمَلِي ... وَالْعِيدُ مَا كُنْتَ لِي مَرْءًا وَمُسْتَمَعَا
لَا كُنْتُ إِنْ كانَ لِي قَلْبٌ يَحِنُّ إِلَى ... خِلٍّ سِوَاكَ وَلَوْ قَطَّعْتَنِي قِطَعَا

وَقَعَدَ بِشْرٌ الْحَافِيُّ يَوْمَ الْعِيدِ فِي طَرَفِ النَّاسِ فَقِيلَ لَهُ: لِمَ لَا تَتَوَسَّطُ النَّاسَ فِي الصُّفُوفِ؟ فَقَالَ: هَذَا مَوْضِعُ السَّائِلِ الضَّعِيفِ. فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّاسُ صَاحَ: إِلٰهِي جِئْنَا نُرْضِيكَ، فَيا لَيْتَنا لَا نَعْصِيكَ.

وَأَنْشَدَ الشِّبْلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

لَيْسَ عِيدُ الْمُحِبِّ قَصْدَ الْمُصَلَّى ... وَانْتِظَارَ الأَمِيرِ وَالسُّلْطَانِ
إِنَّمَا الْعِيدُ أَنْ تَكُونَ لَدَى اللَّـ ... ـهِ كَرِيمًا مُقَرَّبًا فِي أَمَانِ

وَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَلَّا يُكْثِرَ الْعَجَبَ وَالضَّحِكَ فِي يَوْمِ الْعِيدِ. فَقَدْ كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَظْهَرُ عَلَيْهِ الْحُزْنُ يَوْمَ عِيدِ الْفِطْرِ. فَيُقَالُ لَهُ: إِنَّهُ يَوْمُ فَرَحٍ وَسُرُورٍ، فَيَقُولُ: صَدَقْتُمْ. وَلَكِنِّي عَبْدٌ أَمَرَنِي مَوْلَايَ أَنْ أَعْمَلَ لَهُ عَمَلًا فَلَا أَدْرِي أَتَقَبَّلَهُ مِنِّي أَمْ لَا.

وَرُوِيَ عَنْ وُهَيْبِ بْنِ الْوَرْدِ رضي الله عنه أَنَّهُ خَرَجَ يَوْمَ الْعِيدِ فَجَعَلَ يَحْثُو التُّرَابَ وَالرَّمَادَ على رَأْسِهِ. فَقِيلَ لَهُ: هَذَا يَوْمُ السُّرُورِ وَالزِّينَةِ. فَقَالَ: هَذَا يَوْمُ السُّرُورِ لِمَنْ قُبِلَ صَوْمُهُ. وَرَأَى رضي الله عنه قَومًا يَضْحَكُونَ فِي يَوْمِ عِيدٍ، فَقَالَ: إِنْ كانَ قَدْ قُبِلَ مِنْ هٰؤُلَاءِ صِيَامُهُمْ فَمَا هَذِهِ حَالُ الشَّاكِرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قُبِلَ، فَما هَذِهِ بِأَحْوَالِ الْمُفَرِّطِينَ؟

وَرُوِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُوسَى قَالَ: رَأَيْتُ فَتْحًا الْمُوصِلِيَّ يَوْمَ عِيدٍ وَقَدْ رَأَى عَلَى النَّاسِ الطَّيَالِسَةَ وَالْعَمَائِمَ. فَقَالَ لِي: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَمَا تَرَى ثَوْبًا يَبْلَى وَجَسَدًا يَأْكُلُهُ الدُّودُ غَدًا؟ هٰؤُلَاءِ قَوْمٌ قَدْ أَنْفَقُوا خَزَائِنَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَبُطُونِهِمْ وَيَقْدُمُونَ عَلَى رَبِّهِمْ مَفَالِيسَ.

وَقالَ أَبُو بَكْرٍ الْمَرْوَزِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي بَكْرِ بْنِ مُسْلِمٍ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ يَوْمَ عِيدٍ، فَوَجَدْتُ عَلَيْهِ قَمِيصًا مُرَقَّعًا وَقُدَّامَهُ قَلِيلُ خَرُّوبٍ يَقْرِضُهُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ يَوْمَ عِيدِ الْفِطْرِ تَأْكُلُ الْخَرُّوبَ؟ فَقالَ لِي: لَا تَنْظُرْ إِلَى هَذَا، وَانْظُرْ إِنْ سَأَلَنِي: مِنْ أَيْنَ لَكَ؟ أَيَّ شَيْءٍ أَقُولُ؟

كانَ الشِّبْلِيُّ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ يَوْمَ الْعِيدِ يَنُوحُ وَيَصِيحُ وَيَصْرُخُ وَعَلَيْهِ ثِيابٌ سُودٌ وَزُرْقٌ، فاجْتَمَعَ النّاسُ إِلَيْهِ فَسَأَلُوهُ عَنْ نَوْحِهِ وَبُكائِهِ؟ فَأَنْشَدَ:

تَزَيَّنَ النَّاسُ يَوْمَ الْعِيدِ لِلْعِيدِ   وَقَدْ لَبِسْتُ ثِيَابَ الزُّرْقِ وَالسُّودِ
وَأَصْبَحَ النَّاسُ قَدْ سُرُّوا بِعِيدِهِمُ   وَرُحْتُ فِيكَ إِلَى نَوْحٍ وَتَعْدِيدِ
فالنَّاسُ فِي فَرَحٍ وَالْقَلْبُ فِي تَرَحٍ   شَتَّانَ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ فِي الْعِيدِ

إِخْوَانِي: كَمْ فَرِحٍ بِالْعِيدِ مَسْرُورٍ، وَهُوَ مُبْعَدٌ وَمَهْجُورٌ. فَيا مَنْ يَفْرَحُ بِالْعِيدِ لِتَحْسِينِ لِباسِهِ، وَيُوقِنُ بِالْمَوْتِ وما اسْتَعَدَّ لِباسِهِ، وَيَغْتَرُّ بِأَقْرَانِهِ وَجُلَّاسِهِ، وَكَأَنَّهُ قَدْ أَمِنَ سُرْعَةَ اخْتِلَاسِهِ، كَيْفَ تُسَرُّ عَيْنُ مَطْرُودٍ عَنِ الصَّلَاحِ؟ كَيْفَ يَضْحَكُ سِنٌّ مَرْدُودٌ عَنِ الْفَلَاحِ؟ كيْفَ يُسَرُّ مَنْ يُصِرُّ عَلَى الْأَفْعَالِ الْقِبَاحِ؟ كَيْفَ لَا يَبْكِي مَنْ فاتَهُ جَزِيلُ الْأَرْباحِ؟ النَّوْحُ أَحَقُّ بِكَ مِنَ السُّرُورِ يَا مَغْرُورُ، وَالْحُزْنُ أَجْدَرُ بِكَ مِنْ جَمِيعِ الْأُمُورِ. وَالْجِدُّ أَوْلَى بِكَ مِنَ التَّوَانِي وَالْقُصُورِ؟ كَيْفَ يُسَرُّ بِعِيدِهِ مَنْ تابَ ثُمَّ عادَ؟ كَيْفَ يَفْرَحُ مَنْ آثامُهُ فِي ازْدِيادٍ؟

فَيَا مَنْ عَزَمَ عَلَى الْمَعَاصِي فِي شَوَّالٍ، الشَّهْرَ احْتَرَمْتَ أَمْ رَبَّ الشَّهْرِ ذَا الْجَلَالِ، وَيْحَكَ رَبُّ الشَّهْرَيْنِ وَاحِدٌ، وَهُوَ عَلَى الْأَعْمَالِ مُطَّلِعٌ شَاهِدٌ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَأَتْبَعَهُ بِسِتٍّ مِنْ شَوَّالٍ فَكَأَنَّما صَامَ الدَّهْرَ» رَواهُ الْبَزَّارُ وَغَيْرُهُ.

وَعَنْ أَبِي أَيّوبَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ.

وَلِلنَّسَائِيِّ: «جَعَلَ اللَّهُ الْحَسَنَةَ بِعَشْر أَمْثَالِها، فَشَهْرٌ بِعَشْرَةِ أَشْهُرٍ، وَصِيَامُ ستَّةِ أَيَّامٍ بَعْدَ الْفِطْرِ تَمامُ السَّنَةِ».

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَأَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَصُومَ هَذِهِ السِّتَّةَ لِيَحُوزَ هَذَا الْفَضْلَ الْكَبِيرَ، فَإِنَّ عَلَامَةَ قَبُولِ الطَّاعَةِ وَصْلُها بِطَاعَةٍ أُخْرَى، وَصِيَامُهَا يَدُلُّ عَلَى رَغْبَتِه فِي الصِّيَامِ وَأَنَّهُ لَمْ يَمَلَّهُ.

إِخْوَانِي: اعْلَمُوا أَنَّ يَوْمَ الْعِيدِ يَوْمٌ سَعِيدٌ، يَسْعَدُ فِيهِ أُنَاسٌ وَيَشْقَى فِيهِ عَبِيدٌ، فَطُوبَى لِعَبْدٍ قُبِلَتْ فِيهِ أَعْمَالُهُ، وَالْوَيْلُ لِمَنْ عَمَلُهُ عَلَيْهِ مَرْدُودٌ، وَبَابُ التَّوْبَةِ عَنْهُ مَسْدُودٌ، وَهُوَ يَوْمٌ يُهَنَّأُ فِيهِ الْمَقْبُولُ وَيُعَزَّى فِيهِ الْمَطْرُودُ، فاجْتَنِبُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ قَبِيحَ الْأَفْعالِ، وَاسْعَوْا فِي مَرْضَاةِ الْمَلِكِ ذِي الْجَلَالِ، عَسَى أَنْ يُنْجِيَكُمْ مِنْ رَدِيءِ الْأَعْمَالِ.

رُوِيَ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: خَرَجَ ثَلَاثَةُ أَحْبَارٍ إِلَى الْعِيدِ: فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنا فِيمَا أَنْزَلْتَ عَلَيْنَا أَنْ نُعْتِقَ الْعَبِيدَ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَنَحْنُ عَبِيدُكَ فَأَعْتِقْ رِقابَنا مِنَ النَّارِ. وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنا فِيمَا أَنْزَلْتَ عَلَيْنَا أَلَّا نَرُدَّ الْمَسَاكِينَ، وَنَحْنُ مَسَاكِينُكَ فَلَا تَرُدَّنَا. وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنا فِيمَا أَنْزَلْتَ عَلَيْنا أَنْ نَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنا، وَنَحْنُ عَبِيدُكَ قَدْ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنا، فاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنَا وَأَنْت أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

اللَّهُمَّ أَفِضْ عَلَيْنَا مِنْ بَحْرِ بِرِّكَ وَإِحْسَانِكَ، وَاخْتِمْ لَنا شَهْرَ رَمَضَانَ بِغُفْرَانِكَ، وَاجْعَلْنا مِمَّنْ فازَ بِغُرَفِ جَنَّاتِكَ، وَاجْبُرْ قُلُوبَنَا بِعَفْوِكَ وَغُفْرَانِكَ، وَاكْتُبْ لَنا بِالْأَمْنِ وَالْأَمَانِ تَوْقِيعَ أَمَانِكَ، وَتَقَبَّلْ مِنَّا مَا عَمِلْنا، فَإِنَّا نَرْجُو قَبُولَكَ مَعَ إِحْسَانِكَ، وَتَجَاوَزْ عَنْ تَقْصِيرِنَا وَمَا اقتَرَفْنَاهُ مِنْ عِصْيَانِكَ، وَآمِنَّا مِنْ عَذَابِكَ وَنِيرَانِكَ.

اللَّهُمَّ أَنْتَ رَجَاؤُنَا إِذَا انْقَطَعَتِ الْأَسْبَابُ، وَفَرَجُنَا إِذَا غُلِّقَتِ الْأَبْوَابُ،

وَمِنْكَ نَطْلُبُ جَزِيلَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ. فَعامِلْنا بِعَفْوِكَ يَا حَاكِمَ الْحُكَّامِ وَأَحْسِنْ لَنا الْخِتَامَ، وَاغْفِرِ اللَّهُمَّ لَنا وَلِوَالِدَيْنا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْمَيِّتِينَ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنَعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ.

قَالَ جَامِعُهُ أَثَابَهُ اللَّهُ: فَرَغْتُ مِنْ رَقْمِهِ وَتَحْرِيرِهِ، وَتَبْيِيضِهِ وَتَسْطِيرِهِ، وَأَنا الْعَبْدُ الفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ، وَالْغَنِيُّ عَمَّنْ سِوَاهُ، عَبْدُهُ وَابْنُ عَبْدِهِ وَابْنُ أَمَتِهِ، الرَّاجِي لِجَزَائِهِ وَمَثُوبَتِهِ، وَأَسِيرُ ذَنْبِهِ وَخَطِيئَتِهِ: إِبْرَاهِيمُ بْنُ عُبَيْدٍ آلِ عَبْدِ الْمُحْسِنِ، الْحَنْبَلِيُّ مَذْهَبًا، وَالسَّلَفِيُّ مُعْتَقَدًا، وَالنَّجْدِيُّ وطَنًا. وَإِلَى هُنَا اسْتَرَاحَ الْقَلَمُ مِنْ جَمْعِ شَوارِدِهِ، وَنَظْمِ عُقُودِهِ وَفَرَائِدِهِ. وَلَمْ آلُ جَهْدًا فِي الْحِرْص عَلَى ضَمِّ مَا فِيهِ، وَمَا يَلِيقُ، ومَا يُنَاسِبُ الْمقَامَ مِنْ كُلِّ غَالٍ وَنَفِيقٍ. وإِلَى هُنَا وَقَفَ الْفِكْرُ عَنْ إِرْسَالِهِ خَلْفَ أَوَابِدِهِ وَاسْتَرَاحَ، وَيَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى عِنْدَ الصَّبَاحِ.

وَهَذَا بَعْضُ مَا يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَى جِهَةِ الْاخْتِصَارِ، وَعَدَمِ الْإِطَالَةِ خَوْفَ السَّآمَةِ وَالْمَلَالَةِ، وَعَدَمِ الْحِفْظِ وَالادِّكارِ. وَلَوْ أَخَذْنَا فِي الْبَسْطِ لَاحْتَاجَ إِلَى أَسْفَارٍ، وَلَكِنْ خَيْرُ الْكَلَامِ مَا قَلَّ وَأَفادَ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْفُؤَادُ، وَبَعَثَ الْقُلُوبَ إِلَى عُبُودِيَّةِ رَبِّ الْعِبَادِ، وَمَا كانَ لِمِثْلِي أَنْ يَجُولَ فِي الْمَيْدَانِ، ويُرْخِي عِنَانَ فَرَسِهِ مَعَ الْفُرْسَانِ، لِأَنَّنِي لَسْتُ مِنْ أَئِمَّةِ هَذَا الشَّانِ، لِقُصُورِ بَاعِي، وَعَدَمِ نَبَاهَتِي وَاطِّلَاعِي. وَلَكِنْ تَيْسِيرُ رَبِّ الْأَرْبَابِ، وَمُلَيِّنِ الصِّعَابِ. فَهاكَ كِتَابًا لَوْ سَافَرْتَ إِلَى الصِّينِ فِي طَلَبِهِ مَا ضَاعَتْ سَفْرَتُكَ، وَلَوْ تاجَرْتَ فِيهِ بِأَغْلَى الْبِضَاعَةِ لَمَا خَسِرَتْ تِجَارَتُكَ، وَقَدْ وَافَقَ الْفَرَاغُ مِنْهُ بُكْرَةَ الْأَحَدِ رَابِعِ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ ١٣٥٩ أَلْفٍ وَثَلَاثِمِائَةٍ وَتِسْعٍ وَخَمْسِينَ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. قَيُّومِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ، حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا

مُبارَكًا فِيهِ، كَما يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَمَا يَنْبَغِي لِكَرَمِ وَجْهِهِ وَعِزِّ جَلَالِهِ وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبارَكَ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ، وَحَبِيبِهِ وَخَلِيلِهِ، صَاحِبِ الْآياتِ وَالْبَرَاهِينِ، وَالْمَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ، وَهَادِيًا إِلَى دَارِ الْمُقَرَّبِينَ، وَزَاجِرًا عَنْ طَرِيقَةِ دَارِ المُعَذَّبِينَ، صَلَاةً وَسَلَامًا يَتَعاقَبانِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِين.



فهرس كتاب

عقود اللؤلؤ والمرجان في وظائف شهر رمضان

الموضوع	الصحيفة

الموضوع	الصحيفة